مكتبة

- قصص -

ستيفن كينج

مكتبة
775

وردية الليل

ترجمة: محمد عبد النبي - محمود راضي

المحروسة

مكتبة | 775
سُر مَن قرأ

وَرديَّة اللَّيل

ستيفن كِينج

ترجمة

محمد عبد النبي

محمود راضي

عنوان الكتاب: وَرديَّة اللَّيل Night Shift
المؤلف: ستيفن كِينج Stephen King
ترجمة: محمد عبد النبي- محمود راضي
مراجعة لغوية: محمود شرف

مركز المحروسة
للنشر و الخدمات الصحفية و المعلومات

قطعة رقم 7399 ش 28 من ش 9 - المقطم - القاهرة
ت، ف:- 28432157 02 002

mahrousaeg
almahrosacenter
almahrosacenter
www.mahrousaeg.com
info@mahrousaeg.com
mahrosacenter@gmail.com

رئيس مجلس الإدارة: فريد زهران
مدير النشر: عبدالله صقر

رقم الإيداع: ١٣٥٤٨/ ٢٠٢١
الترقيم الدولى: 978-977-313-856-1

جميع حقوق الطبع والنشر باللغة العربية
محفوظة لمركز المحروسة
2021

© 1976, 1977, 1978 by Stephen King

This translation published by arrangement with Doubleday, an imprint of The Knopf Doubleday Group, a division of Penguin Random House, LLC.

قصص

مكتبة | 775
سُر مَن قرأ

وَرديَّة اللَّيل

ستيڤن كِينج

ترجمة

محمد عبد النبي

محمود راضي

الطبعة الأولى 2021

مكتبة
t.me/t_pdf

١٨ ١٢ ٢٠٢١

دار الكتب والوثائق القومية

بطاقة فهرسة

فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية

كينج، ستيڤن، -1947
وَرديَّة اللَّيل: قصص/ ستيڤن كِينج؛ ترجمة: محمد عبد النبي، محمود راضي.-ط1
القاهرة: مركز المحروسة للنشر والخدمات الصحفية والمعلومات، 2021
564 ص؛ 21.5×14.5 سم
تدمك 1-856-313-977-978
1 - القصص الامريكية
2 - القصص القصيرة
أ- عبد النبي، محمد (مترجم)
ب- راضي، محمود (مترجم مشارك)
ج- العنوان
823
رقم الإيداع 2021/13548

مُقدِّمة المؤلِّف

تعالَ، أنا وأنت. تعالَ نتحدَّث عن الخوف.

لا أحـد غـيري في المنـزل بينـما أكتـبُ هـذا، وبالخـارج تتسـاقط أمطـار فبرايـر البـارد. الوقـت ليـلٌ. في بعـض الأحيـان عندمـا تهـبُّ الرِّيـح -كـما تهـبُّ الآن- ينقطـع التيـار الكهربـائي، لكنـه الآن غـير مقطـوع. وهكـذا، فلنتحـدَّث بمنتهـى الصراحـة عـن الخـوف، فَلنتحـدَّث بمنتهـى التعقُّـل عـن الزحـف حتَّـى حافـة الجنـون، وربمـا الوقـوف عـلى شـفا تلـك الحافَّـة.

اسـمي سـتيڤن كينـج. وأنـا رجُـلٌ ناضـج لـه زوجـة وثلاثـة أطفـال. أحبهـم، وأعتقـدُ أنَّهـم يبادلونـني نفـس الشـعور. الكتابـة هـي عمـلي، إنهـا العَمـل الـذي أحبُّـه مِـن كل قلبـي. قصـصي التـي كتبتهـا سـابقًا -كاري، وأرض مدينـة سـالم، والبريـق- حقَّقَـت نجاحًـا كافيًـا لأن يتيـح لي التفـرُّغ للكتابـة بـدوامٍ كامـل، وهـو شيء جميـل أن أكـون قـادرًا عليـه. في هـذه المرحلـة مـن حيـاتي تبـدو حالتـي الصحيـة لا بـأس بهـا. وقـد اسـتطعتُ في

العام الماضي أن أخفِّض عادة التدخين مِن الأنواع غير المُفَلتَرَة التي واصلتُ تدخينها منذ كنت في الثامنة عشرة إلى نوعٍ منخفضِ القطران والنيكوتين، ولم أزل أتمنَّى أن أستطيع الإقلاع نهائيًّا. أعيشُ أنا وأسرتي في منزلٍ جيِّد لطيف بجانب بحيرة في مدينة "مين". بحيرة غير ملوَّثة نسبيًّا؛ وفي الخريف الماضي استيقظتُ ذات صباحٍ فرأيت ظبيًا يقف في باحة البيت الخلفية إلى جوار المنضدة الخشبية. إننا نحظى بحياة طيِّبة.

ورغم ذلك كله، فلنتحدَّث عن الخوف. لن نتحدَّث بأصواتٍ عالية، ولن نصرخ، بل سوف نتحدَّث بمنتهى التعقُّل، أنا وأنت. سوف نتحدَّث عن النسيج المتين الجيد للأشياء من حولنا، وكيف يحدث أحيانًا أن يتداعى ويتفكَّك في مباغتة صادمة.

في الليل، حين آوي إلى فراشي، لا زلتُ أحرص للغاية على أن تكون ساقاي تحت البطانية بعد إطفاء النور.

أنا لم أعد طفلًا، ومع ذلك فلا أحب أن أنامَ وإحدى ساقيَّ مكشوفة مِن تحت الغطاء؛ وهذا لأنني ربما أصرخ إذا ما امتدَّت يدٌ باردة من تحت السرير وأمسكت كاحلي. نعم، ربما أصرخ حتَّى أوقظَ الموتى. مثل تلك الأمور لا تقع، بكل تأكيد، وجميعنا نعلم ذلك. في القصص التالية سوف تقابلون جميع أنواع المخلوقات الليلية؛ مصَّاصي دماء، وعُشَّاق الشياطين، و"بُعْبُع" يعيش في الخزانة، وكافَّةَ أشكال الرُّعب الأخرى. لا شيء منها حقيقي. وذلك الشيء الكامن تحت سريري في انتظار أن يمسك كاحل ساقي هو أيضًا غير حقيقي. أنا أعلم ذلك، كما أعلمُ أيضًا أنني إذا حرصتُ على إبقاء ساقي تحت الأغطية، فلن يتمكَّن أبدًا مِن إمساك كاحلي.

***

أتحدَّث أحيانًا قُبالة مجموعاتٍ مِن الأشخاص المهتمِّين بالكتابة أو بالأدب، ولا بدَّ أن يحدث دائمًا، خلال الوقت المخصَّص لطرح الأسئلة على الكاتب، أن يقوم واحدٌ من الناس ليطرح هذا السؤال: لماذا تختار أن تكتب عن تلك الموضوعات الرهيبة؟

وعادةً أجيبُ سؤاله بسؤالٍ آخَر: لماذا تفترض أنني أختار؟

على مَن يعمل بمهنة الكتابة أن يعرف كيف يُحسن استغلال ما يجده متاحًا بين يديه، وأن يخرج منه بشيءٍ ما. يبدو أننا جميعًا نأتي إلى العالَم مزوَّدين بِفلاتر ومصافي في أرضيات عقولنا، وتلك المصافي تختلف من حيث الأحجام وفتحات التصريف، فَما يبقى في مصفاتي ربما يَمرُّ من فتحات مصفاتِكَ مباشرةً. وما تحتفظ به مِصفاتُكَ قد يمرُّ عبر مصفاتي، بلا مشقَّة. كما يبدو أننا جميعًا مُلزمون رغمًا عنَّا بغربلة الرواسب المتبقية داخل فلاترنا العقلية المختلفة والخاصَّة بكلٍّ منَّا، وما نعثر عليه هنالك كثيرًا ما يتطوَّر إلى نشاطٍ جانبي أو شيء كهذا. فالمُحاسِب قد يمارس أيضًا التصوير الفوتوغرافي، والفلكي قد يجمع العُملات المعدنية القديمة، ومعلِّمة المدرسة قد تهوى نَقل زخارف شواهد القبور بفَركها مِن الأحجار على الورق باستخدام الفحم. تلك الرواسب التي لا تمرُّ من ثقوب مصفاة عقولنا، تلك المادة التي تأبى أن تمضي وتتبدَّد، كثيرًا ما تصبح هي الهاجِس الخاص بكل شخص. وثمَّة اتفاق غير مُعلَن، في المجتمعات المتحضِّرة، على أن ندعو تلك الهواجس الاستحواذية "هوايات".

أحيانًا قد تصير الهواية وظيفةً بدوامٍ كامل. قد يكتشف المُحاسب أنه يستطيع أن يكسب مِن التقاط الصور الفوتوغرافية مالًا كافيًا ليعول أسرته؛ ومُعلِّمة المدرسة قد تكتسب خبرة كافية في طبع شواهد القبور على الورق بحيث تحاضِر الناس في هذا بمقابل مالي. وبعضُ المِهن يبدأ ويستمرُّ في نطاق الهواية، حتَّى بعد أن يكون بمقدورها

صاحب الهواية أن يكسب عيشه من مُزاولَتها؛ لكن بما أنَّ "الهواية" كلمة صغيرة ذات وَقعٍ مُبتَذَل وتوحي بعدم الانتظام، فإنَّ ثمة اتفاق آخر غير مُعلَن بأن ندعو الهوايات- المهن بكلمة "الفنون".

التصوير الزيتي. النَّحت. التأليف الموسيقي. الغناء. التمثيل. العزف على آلة موسيقية. الكتابة. إنَّ الكتب المؤلَّفَة حول تلك الموضوعات السَّبعة وحدها تكفي لإغراق أسطولٍ من بواخر الرُّكَّاب الفاخرة الكبرى. والأمر الوحيد الذي يبدو أننا نستطيع الاتفاق عليه حولها هو هذا: مَن يمارسون تلك الفنون بإخلاص سوف يواصلون ممارستها حتَّى لو لم يتلقَّوا أي أجر مقابل جهودهم؛ حتَّى ولو لم تَلقَ جهودهم غير الانتقاد بل الذَّم والتشهير؛ حتَّى ولو تعرَّضوا للسَّجن أو الموت. وبالنسبة لي، يبدو ذلك تعريفًا مناسبًا للسلوك الاستحواذي، بناءً على هاجسٍ يستولي على صاحبه. وهو يصْدُق على الهوايات العادية جدًّا، كما يصدق بنفس القدر على تلك الرفيعة التي ندعوها "فنونًا"؛ هواة جَمع الأسلحة يلصقون على سياراتهم مُلصقًا بشعارٍ يقول "على جُثَّتي أن تنتزع مني قطعة سلاحي"، وفي ضواحي بوسطن. أمَّا ربَّات البيوت اللاتي اكتشفن النشاط السياسي في أثناء أعمال الشغب الخاصة باستقلال التلاميذ حافلات المدارس بلا تمييز عنصري[1]، فَكُنَّ كثيرًا ما يضعن على المصدَّات الخلفية لسياراتهنَّ الفولكس مُلصَقات مُماثِلة تقول "اسجنوني أولًا قبل تأخذوا أبنائي بعيدًا عن الحي". وعلى الغرار نفسه، فإذا ما صارَ جَمعُ العملات ممنوعًا بحُكم القانون غدًا؛ فمن المُستَبعد تمامًا أن يُسلِّمَ ذلك الفلكيُّ للسُّلطات كلَّ ما لديه مِن سِنتات فولاذية أو نِكلات نحاسية؛ بل سوف يلفُّها في البلاستيك بكل عناية ويُسقطها في قعر خزَّان مقعد المرحاض، وبعد منتصف الليل يُخرجها ليُشبِع منها نظره في ظَفَرٍ وَوَلَه.

(1) خلال الفترة من 1974 حتى 1988 كانت المدارس الحكومية في ولاية بوسطن تحت الإشراف القضائي من أجل تطبيق قوانين الدَّمج العِرقي، ومن بينها الحق لجميع التلاميذ،

يبدو كأننا نشرد بعيدًا عن موضوع الخوف، غير أننا لم نبتعد عنه كثيرًا في حقيقة الأمر. الرواسب التي تظلُّ عالقة في فتحات مصفاتي غالبًا ما تكون موادَّ تتعلَّق بالخوف. يكمن هاجسي المسيطر في كل ما هو رهيب ومروِّع. لم أكتب أيًّا مِن القصص التالية لأجل المال، رغم أنَّ بعضها بيعَ لمجلَّاتٍ قبل أن تظهر هنا ومن ناحيتي لا أرفض شيئًا أبدًا. قد أكون مهووسًا، ولكني لستُ مخبولًا. ومعَ ذلك فلأكرِّر: لم أكتبها لأجل المال، كتبتها لأنه خطرَ لي أن أكتبها. لحُسن حظي أنَّ هاجسي المسيطِر له سوق ومشترون، ففي كافة أرجاء العالَم مجانين من النساء والرجال يُعزلون في زنازين مبطَّنة لم يحالفهم مِثل هذا الحظ.

لستُ فنَّانًا عظيمًا، لكني شعرتُ على الدوام بأنني مدفوعٌ للكتابة. وعلى هذا ففي كل يوم، أغربل رواسب عقلي وأنبشها مُجدَّدًا، فأبحث وسط ما تخلَّف مِن مِزَقٍ وقِطع ترسَّبَت عن ملاحظات، أو ذكريات، أو تأمُّلات، وأحاول أن أخرجَ بشيءٍ ما من المواد التي لم تَسقط عبر ثقوب المصفاة ومنها للمُزراب ومنه إلى اللاوعي.

لِنفترِض أنني بصحبة لوي لامور[1]، كاتب روايات مغامرات الغرب الأمريكي، فقد نكون واقفين معًا على حافَّة بِركة صغيرة في كولورادو، وقد تخطر لكلينا فكرة في الوقت ذاته تمامًا. وقد يشعر كلانا بالحافز إلى الجلوس ومحاولة صياغتها في كلمات. قد تكون قصَّته عن الحق في الحصول على المياه في موسم الجفاف، وأغلب الظَّنِّ أنَّ قصتي سوف تدور حول كائنٍ مُخيفٍ وشديد الضَّخامة يبزغ خارجًا مِن المياه السَّاكنة لِيَلتَهِم الشِّياه والخيول، والبَشَر في نهاية الأمر. إنَّ الهاجس

سودًا وبيضًا، في استقلال حافلات المدارس بلا تمييز، ما أثارَ موجةً من الاحتجاجات العُنصرية وأعمال الشغب والعنف وخصوصًا خلال الأعوام 1974 حتى 1976.

(1) Louis Dearborn L'Amour (1908-1988) : روائي وقاصٌّ أمريكي، كتب روايات الغرب الأمريكي والنوع التاريخي والخيال العِلمي، إلى جانب مجموعات مِن القِصَص والأشعار.

المُسيطر على لوي لامور هو تاريخ الغرب الأمريكي؛ وأنا بدوري أكثر مَيلًا للكائنات التي تتسلَّل وتزحف تحت ضوء النجوم. هو يكتب روايات الغرب الأمريكي؛ وأنا أكتب عن الرُّعب. وكلانا فيه قليلٌ مِن الجنون.

الفنون هواجس تستحوذ على أصحابها، وكل استحواذ خَطر. كأنَّ في عقلك سِكِّين. وفي بعض الحالات يمكن للسِّكِّين أن تنقلب بوحشيَّة على مَن يمسكها نفسه، يخطر على بالي الآن [كُتَّابٌ وشعراء] مِثل ديلان توماس وروس لوكريدج وهارت كرين وسليڤيا بلاث. الفن مرضٌ كامن في عضوٍ ما، غالبًا ما يكون حميدًا ويمكن التعايُش معه، فالمبدعون يُعمَّرون طويلًا، لكنه أحيانًا يكون خبيثًا وعدائيًّا بدرجة رهيبة. عليك أن تستخدم السِّكِّين بكل حرص؛ لأنك تعلم أنها لا يهمُّها ما تقطع أو مَن تجرح. وإن كنتَ حكيمًا فسوف تُغربل رواسب عقلك بكل حرص كذلك؛ لأنَّ بعض تلك المواد قد لا يكون ميتًا.

***

وبعدَ أن نفرغَ مِن سؤال لماذا تختار أن تكتب عن تلك الموضوعات؟، يأتي السؤال المصاحِب له: لماذا يقرأ الناس تلك الموضوعات؟ ما الذي يجعلها تبيع؟ وهذا السؤال يحمل في طيَّاته افتراضًا مُضمَرًا، وهو الافتراض القائل بأنَّ الإقبالَ على قصَّةٍ موضوعها الخوف، وعلى قصةٍ موضوعها الرُّعب، دليلٌ على ذوقٍ فاسد. القراء الذين يراسلونني كثيرًا ما يبدؤون بقولهم: "أفترضُ أنكَ ستعتقد أنني شخص غريب، لكني أحبَبتُ حقًّا رواية أرض مدينة سالم"، أو "ربما أكون معتلَّ الذِّهن، لكني استمتعتُ بكل صفحة من رواية البريق"...

أعتقدُ أنَّ السرَّ وراء ذلك قد يكمن في جُملةٍ من عرضٍ نقديٍّ لأحد الأفلام نُشِرَ في النيوزويك. كان العرض خاصًّا بفيلم رُعب، ولم يكن فيلمًا جيِّدًا جدًّا، وكانت الجملة تقول شيئًا مِن قبيل: "فيلم

رائع فقط بالنسبة لأولئك الأشخاص الذين قد يُبطئون سياراتهم ليتأمَّلوا حادثة سيارات على الطريق". إنها جملة جيدة لاذعة، لكن عندما تتوقَّف وتتأمَّلها؛ تجد أنها تَصدُق على جميع أفلام وقصص الرُّعب. إنَّ فيلم ليلة الموتى الأحياء، بما فيه مِن مشاهدَ رهيبةٍ لأكل لحوم البشر وجريمة قتل الأم، كان بلا شَكٍّ فيلمًا لأولئك الذي يحبُّون أن يبطئوا سياراتهم ليتأمَّلوا حادثة على الطريق؛ وماذا عن الصبية الصغيرة التي تتقيَّأ شوربة البازلَّاء فوق القِسِّ في فيلم طارِدِ الأرواح الشريرة؟ ورواية دراكولا لبرام ستوكر، وغالبًا ما تكون المرجع الذي تقارَن به قصص الرعب المعاصرة (وهكذا ينبغي لها؛ فهي أوَّل عمل يقدِّم بلا موارَبة تضمينات سيكولوچية- فرويدية)، وهي تُصوِّر مختلًّا اسمه رينفيلد يلتهم الذباب، ثم العناكب، وأخيرًا يلتهم عصفورًا حيًّا، لكنه يتقيَّأ العصفور، وقد أكله بريشه وكل شيء. كَما تُصوِّر الرواية أيضًا الإعدام بالخازوق -طقس الاختراق الجنسي، كما يمكن للمرء أن يقول- ضدَّ أنثى شابَّة وحلوة مِن مصَّاصي الدماء وجريمة قتل طفل رضيع وأم الرضيع أيضًا.

الأدب العظيم الذي يتناول ما وراء الطبيعة غالبًا ما يتضمَّن نفس مُتلازِمة "فلنُبطئ السَّير قليلًا لنتأمَّلَ هذا الحادث على الطريق": يذبح بيوولف[1] والدةَ جريندل؛ وفي قصة [إدجار آلان بو] "القلب الواشي" يَعمَدُ الرَّاوي إلى تقطيع أوصال العجوزَ ضعيف البصر والمحسن إليه، ثمَّ يضع أشلاء جثَّته تحت الألواح الخشبية لأرضية الغرفة؛ وهناك الهوبيت سام ومعركته العنيفة مع العنكبوت شيلوب في الجزء الأخير من ثلاثية سيِّد الخواتم لتولكين.

---

(1) Beowulf: ملحمة شِعريَّة إنجليزية قديمة، تتكوَّن من أكثر من ثلاثة آلاف بَيت، وثمة خلاف حول تاريخ كتابتها، كما أنَّ كاتبها مجهول، لكنها تُعَدُّ من أهم الأعمال الكلاسيكية في الأدب الأنجلوسكسوني.

سوف يُبدي البعض حيالَ هذه الفكرة احتجاجًا عنيدًا، بالقول إنَّ هنري چيمس لم يصف حادث سيارة في روايته دورة اللولب؛ وسوف يزعم هؤلاء بأنَّ قصص ناثانيل هاوثورن المشتملة على أشياء رهيبة ومروعة، مثل "الشاب جودمان براون"، و"الوشاح الأسود للوزير"، هي أيضًا أرفع ذائقةً مِن دراكولا. وهذا كلام فارغ. فتلك الأعمال ما تزال تعرض لنا حادث السيارة؛ صحيح أنَّ الجُثَث نفسها قد أُبعدَت، لكن لم يزل بوسعنا أن نرى الحطام المنبعج وأن نلاحظ لطخات الدم على قماش الأرائك والمقاعد. وعلى نحوٍ ما، فَلعلَّ الرهافة وتجنُّب الميلودرامية والنبرة الخفيضة المدروسة للصوت المتعقِّل التي تسود قصةً مثل "الوشاح الأسود للوزير" تكون كلها أمورًا أشدَّ فظاعةً وترويعًا مِن المسوخ الشبيهة بالضفادع في أعمال [كاتب الرعب والفانتازيا الأمريكي هوارد فيليبس] لَڤكرافت، أو مِن الإعدام حرقًا[1] في قصة إدجار آلان بو "الحُفرة والبندول".

الحقيقة التي يعلمها مُعظمنا في قلوبهم أنَّ عددًا قليلًا جدًّا منَّا يستطيع التخلِّي عن تلك النَّظرة المختلَسة المزعجة نحو مشهد حُطامٍ ما تحيط به سياراتُ الشرطة ووميض أضواء على بوَّابات المرور ليلًا. يلتقطُ المواطنون المُسِنُّون الجريدة في الصباح، وفي الحال يتَّجهون نحو أعمدة النعي والوفيات، بحيث يمكنهم أن يروا مَن مات وسوف يعيشون هُم عُمرًا أطول منه. تنتابنا جميعًا وخزة مُقلِقَة للحظة عابرة عندما نسمع خبر وفاة هذا الممثِّل أو هذه المغنية، كما حدثَ عند موت دان بلوكر أو فريدي برينزي أو چانيس جوبلين أو سواهم. إننا نشعر بالذُّعر ممزوجًا بنوعٍ غريبٍ مِن النشوة حينما نسمع

(1) بالإسبانية في الأصل "auto-da-fe"، وهي رسوم الإيمان، مجموعة مراسم وإجراءات كانت تتبعها محاكم التفتيش الإسبانية، بهدف إعلان التوبة والتكفير العلني عن الخطيئة، تَصدر بحقِّ المُدانين بالهرطقة والرِّدَّة، وقد تصل إلى مواكب الإذلال والتشنيع العَلني حتَّى الإعدام حرقًا على الملأ.

المذيع بول هارفي على الراديو يقول لنا إنَّ امرأةً دُفِعَت رغمًا عنها إلى مجال شفرة مروحة إحدى الطائرات في أثناء زوبعة مُمطِرة في مطار بلدة صغيرة، أو أنَّ رجلًا سقطَ في خلَّاطٍ صناعي عملاق وتبخَّر على الفور بعد أن تعثَّر زميلٌ له وضغط دون قصد على أزرار التحكُّم. لا حاجة للإسهاب في أمرٍ واضح؛ الحياة حافلةٌ بالأهوال: صُغراها وكُبراها، لكن لأنَّ الصُغرى فقط هي ما تستطيع عقولنا استيعابها؛ فهي التي تؤثِّر فينا بكلِّ ما للموت مِن جبروت.

لا نستطيع أن ننكر اهتمامنا بمثل تلك الأهوال الصغيرة نسبيًّا، كما لا نستطيع أن ننكر اشمئزازنا أيضًا، ولا يمتزجان بسهولة، وعلى ما يبدو فإنَّ المُنتَج الفَرعي لهذا المزيج هو الذنب، شعورٌ بالذنب لا يختلف كثيرًا عن الذنب المصاحِب للحظة الصحوة الجنسية عند أوَّل تجربة حميمة مع شخصٍ آخَر.

ليس مِن شأني أنا أن أخبرَك بألَّا تشعر بالذنب، كما ليس عليَّ بالمرة أن أقدِّم مُبرِّرات لرواياتي أو للقصص القصيرة التالية. بَيدَ أنه من الصعب ألَّا نلاحظ ما بين الجنس والخوف من توازٍ مثير للاهتمام. عندما نصل لمرحلة القدرة على إقامة علاقات جنسية، يصحو اهتمامنا بتلك العلاقات، وهو اهتمامٌ يميل -بحُكم الطبيعة والفطرة، ما لم يكن فيه انحرافٌ ما- إلى التكاثُر والحفاظ على النوع. وعندما نصل لمرحلة إدراك النهاية المحتومة لكل حيٍّ ينمو وعينا بشعور الخوف. وأعتقدُ من جانبي، أنه كما ينزع التكاثُر نحو حفظ الذات، فإن جميع مشاعر الخوف تَنزِع نحو محاولة استيعاب تلك الخاتمة الأخيرة.

هناك حكاية رمزية قديمة عن سبعة عُميان، أمسكَ كلٌّ منهم بجزء مختلف من جسم فيل. ظنَّ واحدٌ منهم أنه أمسك ثعبانًا، وظنَّ آخَر أنه أمسك سعفة نخلة عملاقة، وظنَّ آخَر أنه كان يلمس عمودًا حجريًّا. وعندما اجتمعوا معًا، قرَّروا أنهم كانوا يلمسون فيلًا.

الخوف هو الشعور الذي يجعل منّا عُميانًا. كَم عدد الأشياء التي نخافها؟ إننا نخاف أن ندوس زِرَّ الضوء في حجرة بأيدٍ مبتلّة. نخاف أن نضع سكينًا في المحمصة الكهربائية لنخرجَ كعكة "المَفِن" الإنجليزية الملتصقة، إلّا بعد أن نفصل الكهرباء أولًا. نخاف ممّا قد يقوله لنا الطبيب بعد انتهاء الفحص، وعندما تميل بنا الطائرة على جانبها ميلًا سماويًّا هائلًا وهي في وسط الهواء. نخاف من أن يَنفَدَ النفط، ونخاف من أن ينفد الهواء النظيف والماء النظيف، وأن تنتهي الحياة الطيبة. حين تَعِدُنا الابنة بأن تعود للبيت على الحادية عشرة مساءً، ثم تتجاوز الساعة منتصف الليل بربع ساعة، وكُريات البَرَد تنهمر وترتطم بالنافذة مثل رملٍ جاف، ونحن جالسون نتظاهر بأننا نشاهد چوني كارسون في برنامج السَّهرة وبين دقيقة وأخرى ننظر نحو الهاتف الأخرس وينتابنا ذلك الشعور الذي يجعل منّا عُميانًا، إنه المُخرِّب الصامت للقُدرَة على التفكير.

الطفلُ مخلوق لا يعرف الخوف، فقط حتَّى أوّل مرة لا تظهر الأمُّ لتدسّ الحلمة في فمه عندما يبكي. والصغير الدارج سرعان ما يكتشف الحقائق الفظّة والأليمة للباب المردود بشدَّة، وللموقد الساخن، وللحمَّى المصاحبة للإصابة بالتهاب الحلق أو الحصبة. يتعلّم الأطفال الخوفَ سريعًا؛ يلتقطونه مِن وجه الأم أو الأب عندما يدخل واحدٌ منهما الحمّام فيجد الطفلَ ممسكًا بقارورة أقراص دواء أو ماكينة حلاقة يدوية ولو من النوع الآمِن.

يجعلنا الخوف عميانًا، ونحن نتلّمس كلّ خوفٍ بكل الفضول الشَّرِه النابع مِن الحرص على مصالحنا الذاتية، محاولين الوصول إلى صورة كُلِّيَّة واحدة مِن جماع الأجزاء المتفرِّقة، شأننا شأن العميان مع فِيلهم.

إننا نحسُّ ذلك الشَّكل، وندركه فطريًّا. يفطنُ الأطفالُ إليه بلا مشقَّة، ثم ينسونه، ثم يتعلَّمونه مُجدَّدًا وهم كبارٌ راشدون. إنَّ الشكل هناك، وسوف يصل أغلبنا لإدراك ما هو، عاجلًا أو آجلًا: إنه شكل الجسم تحت ملاءة مفرودة عليه. كل مخاوفنا تجتمع وتتراكم في خوفٍ واحد كبير؛ كل مخاوفنا ليست سوى جزءٍ من ذلك الخوف الكبير- ذراعٌ، ساقٌ، إصبع، أذن. إننا نخافُ الجسمَ الممدَّد تحت الملاءة. إنه جسمنا نحن. وتنبع الجاذبية الهائلة لقَصص الرُّعب عبر العصور مِن أنه يلعبُ دور التمرين أو البروفة على موتنا نفسه.

غير أنَّ هذا المجال لم يُنظَر إليه بعين التقدير قبل ذلك قَطُّ؛ فلأَمَدٍ طويل كان الأصدقاء الوحيدون للكاتِبَيْن بو هم الفرنسيين، الذين توصَّلوا بطريقةٍ ما إلى اتفاقية تفاهُم مع كلٍّ مِن الجنس والموت، أمَّا أبناء جلدتهما مِن الأمريكيين فلا شكَّ أنهم لم يطيقوا على هذا التفاهم صبرًا. كان الأمريكيون منشغلين بمَدِّ السِّكك الحديدية، ومات كلٌّ مِن بو ولَڤ كرافت مُفلِسَيْن. وقد ظلَّت فانتازيا الأرض الوسطى في "سيِّد الخواتم" لتولكين تُرفَض وتُرفَس هنا وهناك لمدة عشرين عامًا قبل أن تظهر للنور وتحرز نجاحًا غير مسبوق، وكثيرًا ما تناولت كتبُ كيرت ڤونيجت فكرة البروڤة على الموت، وطالما واجهت رياحَ النَّقد العاتية، وكثيرًا ما كانت ترتفع نبرة هذا النقد لدرجة الصراخ الهِستيري.

ولعلَّ ذلك راجعٌ إلى أنَّ كاتب الرُّعب يجلبُ الأخبار السيئة على الدوام: فإنَّه مَن يقول لك إنك سوف تموت، إنَّه مَن يقول لكَ دعكَ مِن "الواعظ التليفزيوني" أورال روبرتس وقَوله "سيحدث لك شيءٌ جيِّد"، لأنَّه "سيحدث لكَ شيءٌ سيِّئ"؛ قد يكون مرض السرطان، وقد يكون سكتةً دماغيَّة، وقد يكون حادثَ سيَّارة، ولكنه سيحدث لك. وهو يتناول يدك ويقبض عليها بيده ويأخذك إلى الغرفة ويضع يديك

على ذلك الشكل تحت الملاءة المفرودة، ويخبرك بأن تلمس ذلك الجسد هنا، وهنا، وهنا.

بكل تأكيد، موضوعات الموت والخوف ليست منطقةً حصريَّةً لكُتَّاب الرُّعب دون غيرهم. فهناك عددٌ هائِل مِمَّن يسمَّون كُتَّاب "الاتجاه الرئيسي" للأدب تناوَلَت أعمالهم تلك الثيمات، وبطرق مختلفة ومتنوِّعة للغاية- مِن فيودور دوستويڤسكي في رواية "الجريمة والعقاب"، إلى مسرحية إدوارد آلبي "مَن يخاف ڤيرجينيا وولف؟"، إلى "سلسلة ألغاز وروايات المحقِّق الخاص لو آرشر" لكاتبها روس مكدونالد. لطالما كان الخوف أمرًا كبيرًا، ولطالما كان الموت أمرًا كبيرًا، وكلاهما مِن بين الثوابت الإنسانية. لكنَّ كاتب الرُّعب وما وراء الطبيعة هو فقط مَن يقدِّم للقارئ فرصةً من هذا النوع، فرصةً للتماهي الكامل للتطهُّر(1). يعرف المشتغلون في هذا النوع الفني الخاص، حتَّى ولو لم يكن لديهم إلَّا أبسط فهم لطبيعته، يعرفون أنَّ كامل مجال الرُّعب وما وراء الطبيعة ليس إلَّا حجابًا للترشيح والتصفية يفصل ما بين الوعي واللاوعي؛ فَكأنَّ قَصص الرُّعب محطَّةُ قطار أنفاقٍ مركزيَّة في داخل النفس الإنسانية، تربط ما بين خطِّ القطارات الأزرق لما نستطيعُ أن نطويه بداخلنا في أمانٍ، وذلك الخط الأحمر لما ينبغي علينا التخلُّص منه بطريقة أو بأخرى.

عندما تقرأ قصص الرعب، لا تصدق ما تقرأ حقًّا. لا تؤمن بوجود مصَّاصي الدماء، والمستذئبين، والشاحنات التي تدور فجأة تلقائيًّا وتقود نفسها بنفسها. إنَّ الأهوال التي نؤمن بها جميعًا مِن صنف ما يكتب عنه دوستويڤسكي وآلبي ومكدونالد: الكراهية، والاغتراب،

---

(1) Catharsis: كلمة يونانية الأصل، وكانت في الأصل تشير لما يشعر به مُشاهِد المسرح من تطهير للنفس أو تنفيس وجداني، عبر تعرُّضه لانفعالات وعواطف شخصيات المسرحية، وكان أرسطو أوَّل مَن قارن تأثير المأساة الإغريقية القديمة في نفس وعقل المشاهِد بتأثير تطهير الجسد في كتابه فن الشِعر.

والتقدُّم في السِّنِّ بدون الشعور بالحب، والخروج المتعثِّر إلى العالَم العدواني على قدَمَيْن مُزعزَعَتَيْن في سِنِّ المراهقة. في العالَم الحقيقي لحياتنا اليومية، غالبًا ما نكون مِثل أقنعة الكوميديا والتراجيديا، مبتسمين من الخارِج، ومتجهِّمين في الداخل. ثمة نقطة تبديل مركزية في موضعٍ ما بالداخل، مثل محوِّلٍ ربما، حيث ترتبط الأسلاك المؤدية إلى هذين القناعين. وذلك هو بيت القصيد، حيث تتَّضِح قصَّة الرُّعب وتكتسب مغزاها. إنَّ كاتب قصة الرُّعب لا يختلف كثيراً عن آكِل الذنوب، الشخصية الخيالية في الأساطير الويلزية، وهو مَن يُفترَض به أن يتحمَّل على كاهله ذنوب وخطايا الفقيد العزيز عبرَ تناولٍ طَقسيٍّ لطعام هذا الشخص المتوفَّى. وكأن الحكاية الحافلة بالمسوخ والأهوال سَلَّة مُزوَّدة كيفما اتفق بأصناف الرُّهاب المختلفة، وعندما يمرُّ الكاتب عابرًا بها، تتناول أنتَ صنفًا ممَّا لديه مِن المخاوف الخيالية الموجودة في السلَّة، وتضع مكانها مخاوفك الحقيقية- تضعها عنها ولو لبعض الوقت على الأقل.

في خمسينيات القرن العشرين، كانت هناك موجة هائلة مِن أفلام الحشرات العملاقة- مثل أفلام: Them!، وThe Beginning of the End، و Mantis The Deadly، وغيرها. وبلا استثناء تقريبًا، وبينما تتقدَّم أحداث هذا الفيلم أو ذاك، نكتشف أنَّ تلك المسوخ القبيحة هائلة الحجم هي نِتاج تجارب لاختراع قنبلة نووية في نيو ميكسيكو أو على جزيرة مهجورة من جزر الشِّعاب المرجانية وسط المحيط الهادئ (وفي أفلامٍ أحدث مِن تلك مثل Horror of Party Beach، والذي ربما كان عنوانه الفرعي Beach Blanket Armageddon، كان الذَّنب يقع على نفاية مُفاعِل نووي). وعندَ تأمُّل أفلام الحشرات العملاقة معًا، سنجد أنها تعكسُ نمطًا لا ريبَ فيه، وَضعًا عامًّا مُقلِقًا لذُعر بلدٍ كامل

حيال العصر الجديد الذي دشّنه مشروع مانهاتن(1). بعد ذلك، وفي وقت لاحق مِن العَقد نفسه بدأت حلقة مِن أفلام الرعب الخاصة بالمراهقين، بدايةً بأفلام ذات طابع ملحميٍّ مثل "مراهقون من الفضاء الخارجي"، وكذلك فيلم The Blob، الذي يحارب فيه ستيف ماكوين -وهو في شبابه الفَتيِّ- مسخًا مِن مادة هُلاميَّة، بمساعدة أصدقائه المراهقين. في عصرٍ كانت كل مجلَّة أسبوعية فيه تنشر موضوعًا واحدًا على الأقل حول الموجة المتصاعِدَة مِن حالات جنوح النشء وخروجهم على القانون، عبَّرت أفلام الرُّعب بأبطالها مِن اليافعين عن شعور بلدٍ بالكامل بالاضطراب والقلق إزاء ثورة الشباب، حتَّى في مَهدها وهي لم تزل تتخمَّر؛ فعندما كان الرَّجُل مِن هؤلاء يرى الممثِّل مايكل لاندون يتحوَّل إلى مذؤوب وهو مرتدٍ سُترةً جلديَّةً خاصَّة بالمدرسة العُليا، يحدث تلقائيًّا الرَّبط بين الخيال على الشاشة وبين مخاوفه المُفلتة بلا كابح إزاء ذلك الشاب الذي تواعده ابنته، غريب الأطوار ذي السيارة القديمة المعدَّلة. أمَّا بالنسبة للمراهقين أنفسهم (لقد كنتُ واحدًا منهم وأتحدَّث بناءً على تجربة)، فإنَّ تلك الوحوش، التي أخذت تتكاثر وتتوالد بسرعة في الاستوديوهات المستأجَرَة لشركة أمريكان- إنترناشيونال، قد منحتهم فرصة لرؤية شخصٍ أشدَّ قُبحًا ممَّا يشعرون بأنهم عليه مِن قبح؛ فما قيمة بضع بثور على الوجه مقارنةً بكائنٍ ممسوخ بالكاد يجرُّ قدميه على الأرض، وقد كان في السابق طالب مدرسة عُليَا، وذلك في فيلم "كنتُ فرانكنشتاين مراهق" I Was a Teen-Age Frankenstein؟ كما كانت هذه السلسلة نفسها من الأحداث تعبيرًا عن شعور المراهقين بأنَّ أهلهم يسيئون معاملتهم ويستهينون بهم بغير وجه حقٍّ، وبأنَّ الأهل ببساطة "لا يفهمون".

---

(1) Manhattan Project: مشروع بحث وتطوير لإنتاج الأسلحة النووية، خلال الحرب العالمية الثانية، قادته الولايات المتحدة الأمريكية بدعمٍ من المملكة المتحدة وكندا، وأشرف عليه الجنرال ليزيلي جروفز في الفترة من 1942 حتَّى 1946.

تتألَّـف الأفـلام مـن صِيَـغ معـادلات (وهكـذا أيضًـا الكثـير مِـن قَصـص الرُّعـب الخيـالي، في الأدب والسـينما)، ومـا كانـت تعـبِّر عنـه المعادلـة آنـذاك هـو بـكل وضـوحٍ إحسـاسُ جيـلٍ كامـل بجنـون الارتيـاب- إنهـا حالـة بارانويـا كان مِـن بـين أسـبابها -بـلا شـكٍّ- كل تلـك المقـالات التـي كانـت أهلهـم يقرؤونهـا. في تلـك الأفـلام، كان ثمَّـة كائـن مغطّـى بالثآليـل والبثـور وفظيـع للغايـة يُهـدِّد بلـدة صغـيرة، لتَكُـنْ إلمزفيـل مثـلًا. الشـباب الصغـار هُـم وحدهـم مَـن يعرفـون بأمـر هـذا التهديـد؛ فقـط لأنهـم رأوا الطبـق الطائـر يحـطُّ بجانـب شـارع العُشَّـاق الـذي يوقفـون فيـه السـيارات لتبـادُل القبـلات وخلافـه. خـلال أوَّل بَكـرة مِـن الفيلـم (حـوالي 10 دقائـق)، يفتـك المسـخ المرعِـب برجُـلٍ عجـوز في سـيارة نصـف نقـل (وكان الممثِّـل إليشـا كـوك الابـن يلعـبُ دورَ العجـوز دائمًـا بـلا كَلَـل)، وخـلال البَكـرات الثـلاث التاليـة مِـن الفيلـم، سـوف يحـاول الشـباب الصغـار إقنـاع أهلهـم بـأنَّ ذلـك المسـخ المقيـت يتسـلَّل خلسـة في الجـوار فعليًّـا. لكـنَّ مأمـور قِسـم شرطـة البلـدة سـوف يزمجـر في وجوههـم، قائـلًا: "ابتعـدوا عـن هنـا وإلَّا حبسـتُكم لانتهـاك حظـر التجـوُّل!"، ولا يـكاد ينهـي قولـه حتَّـى ينسـلَّ الوحـش سـائرًا عـلى امتـداد الشـارع الرئيـسي، مُحطِّـمًا مـا يقابلـه في جميـع الاتجاهـات. وفي نهايـة تلـك الأفـلام، لا بـدَّ أن يكـون الشـباب الصغـار بتفكيرهـم السريـع هُـم مَـن يضعـون حـدًّا لـشر الكائـن المقيـت المرعـب، ثـمَّ ينطلقـون بعـد ذلـك إلى المـكان الـذي يرتادونـه للمـرح والاسـتراحة لتنـاوُل شراب الشَّـعير بنكهـة الشـوكولاتة ويتراقصـون عـلى نغمـةٍ خفيفـة يسـهل نسـيانها بينـما تنـزل عـلى الشاشـة شـارات النهايـة.

تلـك إذَن ثـلاث فُـرص منفصلـة للتطهُّـر الوجـداني في موجـة واحـدة مِـن الأفـلام الجماهيريـة ذات الطابـع التجـاري- وهـو أمـر ليـس سـيئًا عـلى الإطـلاق بالنسـبة لمجموعـة مـن أفـلام الإثـارة ذات الميزانيـة المنخفضـة، والتـي لا يسـتغرق تنفيذهـا في الغالـب أكـثر مِـن عـشرة أيـام. حالـة التطهُّـر في تلـك الأفـلام لم تحـدث لأنَّهـا مقصـودة مِـن قِبـل الكتَّـاب

والمنتجين والمخرجين ممَّن عملوا فيها، بل حدثت لأنَّ حكاية الرُّعب تعيش بشكلٍ طبيعي للغاية في تلك النقطة الواصلة ما بين الوعي واللا وعي، في الموضع الذي تنشأ فيه كلٌّ مِن الصورة الخيالية والمجاز بشكلٍ طبيعي للغاية، وبالتأثير الأشد فتكًا وتدميرًا. ثمة خَطٌّ مباشر من التطوُّر يربط ما بين أفلام تجارية مثل "كنتُ مراهقًا مذؤوبًا"، وأفلام راقية مثل فيلم ستانلي كوبريك "البرتقالة الآلية"، بين الوحش المراهق وبين فيلم مثل "كاري" للمخرج براين دي بالما.

تتَّسم قَصص الرُّعب العظيم بطابعٍ مَجازيٍّ على الدوام؛ أحيانًا يكون المجاز مقصودًا، كما في "مزرعة الحيوان" و"1984"، وأحيانًا أخرى يحدث عَرَضًا وحسب (الكاتب جي آر. آر. توكلين أقسمَ مُغلِّظًا الأيمان بأنَّ أمير الظلام الشرير مِن موردور لم يكن هِتلر في ثوبٍ فانتازي، لكنَّ الأطروحات والأوراق البحثية الدراسية التي تؤكِّد تلك النتيجة لم تزل تتواصل وتتزايد- وربما يحدث المجاز عَرَضًا؛ لأنَّ الأمر -على قول بوب ديلان- عندما يكون لديك الكثير من السكاكين والشوكات، فلا بدَّ أن تقطعَ شيئًا ما.

إن أعمال كلٍّ مِن إدوارد آلبي، وشتاينبك، وكامو، وڤوكنر تتناول موضوعات الخوف والموت، وفي بعض الأحيان الرُّعب، لكنَّ كتَّاب أدب التيار الأساسي الرفيع هؤلاء يتناولون تلك الموضوعات بطريقة أكثر اعتيادية وأكثر اقترابًا مِن الحياة الواقعية. تدور أعمالهم داخل إطار العالَم العقلاني؛ إنها قصص "يمكنها أن تحدث حقًّا". إنهم كتَّاب على ذلك الخَطِّ المتَّجِه إلى العالَم الخارجي مِن قطار الأنفاق. وهناك كُتَّاب آخرون (جيمس جويس، ڤوكنر مرَّةً أخرى، وشعراء مثل تي إس إليوت وسيلڤيا بلاث وآن سكستون) تدور أعمالهم على أرض الرمزية واللا وعي. هؤلاء على خَطِّ قطار الأنفاق المتَّجِه إلى المنظر الداخلي. غير أنَّ كاتب الرُّعب يكون على الدوام تقريبًا في تلك المحطة الرئيسية التي تربط الاتجاهين معًا، على الأقل إن كان عمله يتَّسِم بالدقة والبراعة.

وعندما يكون كاتب الرعب في أفضل حالاته غالبًا ما يساورنا ونحن نقرؤه ذلك الإحساس الغريب بأننا لسنا نائمين تمامًا، ولسنا يَقِظين تمامًا، عندما يتمطَّى الزمن وينحرف مساره، عندما نستطيع أن نسمع أصواتًا تتحدَّث لكننا لا نستطيع أن نتبيَّن كلماتها أو فحواها، عندما يبدو الحُلم واقعيًّا ويبدو الواقع في هيئة الأحلام.

وتلك المحطة الرئيسية ما أغربها وما أروعها. هناك يقعُ المنزل المسكون على التل[1]، في ذلك المكان حيث تمضي القطارات في كِلَا الاتجاهين، وحيث الأبواب التي تتأرجح توصَد بروِيَّة وهدوء؛ والمرأة في الغرفة ذات ورق الحائط الأصفر هناك أيضًا ورأسها مضغوط فوق تلك العلامة الدهنية الباهتة؛ وهناك أيضًا المخلوقات الهائلة متحوِّلَة الشكل التي طاردت وهدَّدت فرودو وسام في "سيد الخواتم"؛ هناك نموذج بيكمان؛ وهناك وحش الويندیجو الخرافي؛ ونورمان بيتس وأمه الرهيبة[2]. في هذه المحطة لا صَحوَ ولا حُلم، ليس إلَّا صوت الكاتب، خفيضًا ومُتعقِّلًا، يُحدثنا عن النسيج المتين الجيد للأشياء من حولنا، وكيف يحدث أحيانًا أن يتداعى ويتفكَّك في مباغَتةٍ صادمة. إنه يخبرَك بأنكَ ترغب في رؤية حادث تَحطُّم السيَّارة، ونَعم، هو على حق؛ فتلك هي رغبتك. هناك صوتٌ ميت على الهاتف. هناك شيءٌ ما وراء جدران المنزل القديم يبدو أكبر من مجرَّد فأر. حركة عند نهاية الدَّرَج المؤدِّي للقبو. يريدُ منك صوتُ الكاتب أن ترى كل تلك الأشياء، وأكثر؛ يريدك أن تضع يديك على الشكل تحت الملاءة المفرودة. وأنت أيضًا تريد أن تضع يديكَ هناك. نَعم.

***

(1) The Haunting of Hill House- المنزل المسكون على التل: عنوان رواية رُعب للكاتبة شيرلي چاكسون، تحوَّلت لأكثر من عملٍ فنيٍّ درامي، أحدثها مسلسل عُرِض عام 2018.

(2) إشارات متفرِّقة إلى أعمال أدبية وفنية وخرافات تنتمي لنوع الرُّعب.

ذلك بعضٌ مِن الأمور التي تفعلها قصة الرعب على ما أظن، لكن ما أجدني شديدَ الاقتناع به هو أنَّ على كل قصة رعب أن تفعل أمرًا واحدًا إضافيًّا، وهو أهم مِن سائر الأمور الأخرى: لا بدَّ أن تحكي حكايةً قادرةً على الإمساك بتلابيب القارئ أو المستمع وتُبقيه تحت سِحرها لبُرهة مِن الوقت، بحيث يضيع في عالمٍ لم يُوجَد قَطُّ، ولا يمكن أن يُوجد أبدًا. مثل ذلك البحَّار العجوز في قصيدة كوليردج الذي يستوقف الشاعر وهو في طريقه لحفل زفافٍ على وشك أن يبدأ فيُنسيه كلَّ شيء إلَّا أمره وحكايته. طوال عُمري ككاتبٍ كنتُ مُخلِصًا لفكرة أنَّ قيمة الحكاية في الكتابة الخيالية تفوق أهمِّيَّة كلِّ جانبٍ آخَر مِن جوانب حرفة الكاتب؛ مِثل بناء الشخصيات والثيمة والمزاج العام، فكلُّ ذلك لا يُعدُّ شيئًا إن كانت الحكاية نفسها مُمِلَّة. وإذا كانت الحكاية نفسها قادرة على الإمساك بك فكلُّ ما عدا ذلك يمكنُ التسامحُ معه. ولعلَّ التعبير المُفضَّل عندي بشأن هذا التأثير كتبه إدجار رايس بوروز، وهو الذي لن يذكره أحدٌ مِن بين أعظم كُتَّاب العالَم، لكنه رَجُلٌ قد فهمَ قيمة الحكاية تمامَ الفهم. في الصفحة الأولى مِن روايته الفانتازية "الأرض التي نسيها الزمن"، يعثر الراوي على مخطوطٍ في زجاجة؛ وما تبقى من الرواية هو تقديم وعرض ذلك المخطوط. يقول الراوي: "اقرأ صفحة واحدة، وسوف تَنسَني تمامًا". إنه وعدٌ استطاع بوروز أن يفي به، بينما يعجز عن ذلك كُتَّابٌ كثيرون أعظم منه موهبةً.

في الختام، أيُّها القارئ الكريم، إليك حقيقةً تجعل أقوى الكتَّاب يصرُّ على أسنانه غيظًا، وهي أنه لا أحد يقرأ مقدِّمة الكاتب، باستثناء ثلاث مجموعات صغيرة مِن الأشخاص، وتلك الاستثناءات هي: أولًا، أقرب أفراد أسرة الكاتب (غالبًا زوجته وأمه)؛ ثانيًا، مَن يُمثِّلون الكاتب رسميًّا (والمحرِّرون وأعزاء آخرون بمهام متنوِّعة)، وهؤلاء هَمُّهم الأساسي اكتشاف أي شخص قد يكون الكاتب أشارَ إليه في

طَوافِه الشارد من نقطة إلى أخرى، إشارةً تتيح له أن يرفع قضية قذف وتشهير؛ وثالثًا، أولئك الأشخاص الذين مَدُّوا يدَ العون للكاتب خلال طريقه، وهؤلاء يريدون أن يعرفوا إذا كان رأس الكاتب قد أصبحَ كبيرًا للغاية بحيث أفلحَ في نسيان أنه لم يحرز النجاح بمفرده، أم أنه لم يزل يتذكَّر.

قُرَّاءٌ آخرون يعتبرون مُقدِّمة الكاتب ضريبة باهظة عليهم دَفعها، ومعهم كل الحق في ذلك، كأنَّ الكاتب يقدِّم لنفسه دعاية ترويجيَّة من عدَّة صفحات، ويعتبرون ذلك مُسيئًا أكثر حتَّى مِن إعلانات السجائر التي أخَذَت تنتشر في القسم الأوسط مِن الكُتب الشَّعبيَّة ذات الأغلفة الوَرقيَّة. يأتي أغلب القرَّاء لمشاهدة العَرض، وليس لمشاهدة مُدير المسرح وهو ينحني مرارًا قُبالة أضواء صدارة الخشبة. ومرة أخرى، معهم كل الحق في ذلك.

أغادر الآن؛ فهذا العَرض على وشك أن يبدأ. سوف نذهب معًا لندخل تلك الغرفة ونلمس ذلك الشكل تحت الملاءة. ولكن قبل أن أغادر، أريد أن آخذَ مِن وقتك دقيقتين أو ثلاثًا أخرى فقط؛ لكي أشكر بعض الأشخاص مِن كل واحدة مِن المجموعات المشار إليها سابقًا- ومِن مجموعة أخرى رابعة كذلك. فتَحمَّلْني بينما أُبدي بضعَ كلمات شُكر:

إلى زوجتي، تابيثا، أفضل نقَّادي وألذعهم. عندما ترى أنَّ العمل جيِّد فإنها تقول هذا ببساطة؛ أمَّا عندما ترى أنني خانني التعبير أو أفسدت الأمر فإنها تشدُّ أذني بألطف وأرقِّ طريقة مُمكِنة. إلى أولادي، ناعومي، جو، أوين، الذين كانوا في غاية التَّفهُّم بشأن تلك الأفعال الغريبة التي يقوم بها أبوهم في غرفة الطابق الأرضي. وإلى أمي، التي رحلت في 1973، وهذا الكتاب مُهدًى إليها. ظلَّ تشجيعها لي ثابتًا لا يتزحزح ولا يهتزُّ، وبدت كأنها قادرة على الدوام أن تجد الأربعين أو

الخمسين سنتًا اللازمة لشراء ذلك المغلّف الضروري والمزوّد بالطابع، والمختوم بعنوان المُرسِل مع دفع الرسوم البريديّة اللازمة لإرسال الرد، ولم يكن هناك إنسان آخَر على وجه الأرض، بما في ذلك أنا نفسي، أكثر سعادة منها عندما "شَقَقتُ طريقي إلى النجاح".

في تلك المجموعة الثانية، هناك مُحرِّري وليام چي. ثومبسون مِن شركة دابلداي وشُرَكاه، الذي يستحق تقديري وشكري الخاص، والذي تعاونَ معي بكل صبر، وعانى مِن اتصالاتي الهاتفية اليوميَّة بروحٍ حلوة وتشجيع متواصِل، والذي أبدى قبل بضع سنين رأفةً ودماثة نحو كاتبٍ شابٍّ ليس لديه نجاحات سابقة تُعزِّز موقفه، ومنذ ذلك الحين وهو متورِّط في دعمه ذلك الكاتب الشاب.

وفي المجموعة الثالثة الأشخاص الذين كانوا أوَّل مَن اشتروا أعمالًا لي: السيد روبرت أ. دابليو. لوندز، الذي اشترى أوَّل قصتين لي استطعتُ بيعهما على الإطلاق؛ والسيد دوجلاس آلان والسيد ني ويلدين مِن شركة ديوجينت للنشر، اللذين اشتريا الكثير للغاية مِن أعمالي التالية لصالح مَجلَّتَيْ كافالير وجنت، قديمًا عندما كنتُ أشتبك في شجارٍ مع الأيام وحين كانت الشيكات تصل أحيانًا في اللحظة ذاتها لتجنُّب "الانقطاع في الخدمة" حسب التسمية المخفَّفة لشركات الكهرباء؛ والشكر واجبٌ أيضًا إلى كلٍّ من إلين جيجير وهبربرت شنال وكارولين سترومبرج في دار نشر نيو أمريكان لايبراري؛ وأيضًا چيرارد ڤان دِر ليون في مجلة بِنت- هاوس، وهاريس دينستڤري في مجلة كوزموبوليتان. شكرًا لكم جميعًا.

هناك مجموعة أخيرة أودُّ أن أشكرها، وهم القرَّاء، كل واحد وواحدة منهم، كلَّ مَن أخرجَ حافظة نقوده ذات مرة من أجل شراء شيءٍ كتبتُه. فهذا الكتاب كتابكم، بطُرُق كثيرة وعظيمة؛ لأنه لولاكم لما خرج للوجود بكل تأكيد. فشكرًا جزيلًا.

حيث أوجد الآن، لم تَزَل السماء مُعتِمة، ولم يزل المطر متواصلًا. ما أنسبها مِن ليلة لما سنُقدم عليه. لديَّ شيءٌ أريد أن أريه لك، شيءٌ ما أريدكَ أن تلمسه، إنه في غرفة ليست بعيدةً عن هنا- بل في الحقيقة إنه على مسافة صفحة واحدة منك. هيَّا بنا.

بريدچتون، ماين

27 فبراير 1977.

مكتبة على تيليجرام

telegram @t_pdf

امسح الكود

أرض چيروسالِم

2 أكتوبر 1850

عزيزي بونز،

كـم كان جميـلًا أن أدخـل إلى ذلـك الـرواق البـارد المعـرَّض لتيـارات الهـواء في منـزل شـابل ويـت، وقـد كانـت كل عَظمـة في جسـدي تتوجَّـع مِـن تلك العَربـة البغيضـة، وبي حاجـةٌ ماسَّـة لأن أُفـرِغ مثانتـي المنتفخـة مِـن فـوري- وكـم كان جميـلًا أيضًـا أن أرى رسـالة تسـتند إلى منضـدة صغـيرة مـن خشـب الكـرز بجانـب البـاب، وعليهـا العنـوان بخربشـتك تلـك التـي لا يمكـن تقليدهـا عـلى الإطـلاق! ولتكُـنْ واثقًـا أننـي تفرَّغـتُ لفَـكِّ شـفرتها بمجـرد أن انتهيـت مـن تلبيـة حاجـاتي الجسـدية (في حـمَّام ذي زخـارف بالطابـق الأرضي، حيـث كان بوسـعي رؤيـة بخـار المـاء يصعـد مـع أنفـاسي أمـامَ عينـيَّ).

يسرُّني أن أعرفَ أنكَ تعافيتَ مِن وَبالة[1] الهواء الفاسد الذي استقرَّ في رئتيك طويلًا، ورغمَ ذلك فإني أؤكِّد لكَ تعاطفي الكامل مع المُعضلة الأخلاقية التي فرضها عليك أمرُ العِلاج. شخص مِثلك مناهض للعبودية ومؤيِّد لإلغاء الرِّقِّ يُضطرُّ إلى الاستشفاء في الطقس المشمس لمستعمرة هوندا، حيث لا شيء أكثر مِن تجارة العبيد! لكن مع هذا، يا بونز، فإنني بصفتي صديق اقترب هو أيضًا مِن وادي الظلال؛ أطلبُ منكَ أن تعتني كلَّ الاعتناء بصحتك، وألَّا تُغامر بالعودة إلى ماساتشوستس حتَّى تشعر بأنَّك تعافيتَ ويمنحك بدنك تصريح المغادرة؛ إذ لا يمكننا الانتفاع بعقلك الناصع ولا بقلمك القاطع إذا ما أصبحتَ جُثَّةً هامدة، وإن كان علاجك لا يُوجد إلَّا في الجنوب، أليس في ذلك نوعًا مِن العدالة الشِّعرية؟

نَعم، المنزل رائع تمامًا كما أكَّد لي ذلك القائمون على تنفيذ وصيَّة ابن عمي، لكنه مشوَّوم بدرجةٍ أكبر. إنه قائمٌ أعلى بقعةٍ ضخمة بارزة، ربما على مسافة ثلاثة أميال جنوب فالماوث، وتسعة أميال شمال بورتلاند. ومن ورائه مساحة نحو أربعة أفدنة مِن الأراضي، تمتدُّ للخلف حتَّى البَراري في روعةٍ تفوق الخيال- نبات العَرعر، وأيكات كروم، وآجام، وأشكال متنوِّعة من النباتات المُعترشة، جميعها تتسلَّق بعنفوانٍ على امتداد الأسوار الحجرية بديعة المنظر التي تفصل العِزبة عن نطاق البلدة. وتنتصبُ مجموعةٌ مِن التماثيل، هي محاكاة فظيعة للفَنِّ الإغريقي، تمعنُ النَظر بأعينٍ عمياء عبر الحطام والهَدَد من فوق روابٍ عديدة- وتبدو تلك التماثيل، في أغلب الأوقات،

(1) miasma- الوَبالة، أو الميازما: نظرية صحِّيَّة قديمة غير دقيقة، تفترض أنَّ بعض الأمراض مثل الكوليرا وغيرها تصيب الإنسان بسبب التلوث والهواء الفاسد، وأنَّ الأوبئة تنجم عن تعفُّن المواد العضوية.

كأنها على وشك أن تنقضَّ على العابرين لتفتك بهم. يبدو أنَّ ذائقة ابن عمي ستيفن كانت قادِرةً على استيعاب كلِّ بشاعة، تتدرَّج من المُستَهجَن إلى المروِّع الصِّرف. يوجد أيضًا منزلٌ صيفيٌّ صغير وغريب وهو شِبه مدفون تحت نباتات السُّماق القرمزية، وثمَّة ساعة شمسية في غاية البشاعة تقع وسط مساحة لا بدَّ أنها كانت حديقة زهور ذات يومٍ بعيد؛ ما يضيف لمسة الجنون الختامية على كل شيء.

لكنَّ المنظر مِن رُدهة المدخل يشفع لكل هذا وزيادة؛ إنني أطلُّ على منظر مدوِّخ من الصخور عند سفح مِلكية الشابل ويت، وأرى المحيط الأطلسي نفسه. هنا نافذة زجاجية بارزة للخارج بدَوران تشرفُ على هذا المنظر، وتنهضُ إلى جانبها خزانة كبيرة ذات أدراج وأرفف وتصلح للكتابة، مزخرفة على هيئة ضفدع. ستكون ملائمة تمامًا لأن أشرعَ في تأليف تلك الرواية التي لطالما أكثرتُ مِن الحديث عنها (إلى حدِّ الإضجار بلا ريب).

كان نهارُ اليوم رماديًّا غائمًا معَ مطرٍ خفيف مُتقطِّع. وإذ أرنو للخارج يبدو لي كل شيء كأنَّه رسمٌ سريع باللون الرمادي الداكن- الصخور، قديمةً وَرَثَّة بِقدرِ الزمان نفسه، وكذلك السماء، وبالطبع البحر، والذي لا يَنفكُّ يرتطم بأنيابٍ جرانيتة مُدبَّبة طالعة من الأرض بالأسفل مُصدرًا صوتًا لا يُعَدُّ صوتًا بقدر ما هو ذبذبة- يمكن لقدميَّ أن تحسَّا بذبذبة الأمواج حتَّى بينما أكتبُ الآن، وهو إحساس ليس سيئًا تمامًا.

إنني أعلمُ، يا عزيزي بونز، أنَّ مَيلي للعُزلة لا يجدُ في نفسك ترحيبًا، غير أني أؤكِّد لكَ أنني سعيد وبخير حال. كما أنَّ كالفن معي، وهو كشأنه دائمًا وأبدًا عَمليٌّ وصامت ويُعتمَد عليه، وأنا واثق أننا -بحلول منتصف هذا الأسبوع- سنكون أنا وهو قد رتَّبنا جميع أمورنا واتَّفقنا

على أن يصلنا كل ما يلزم مِن متاجر المدينة- وسنكون قد دبَّرنا أيضًا امرأة للتنظيف حتَّى تبدأ في إزالة الغبار عن هذا المكان!

سأُنهي رسالتي لك الآن؛ فثمَّة أمور كثيرة للغاية لم يزل عليَّ أن أعتني بها، غرفٌ أريدُ أن أستكشفها، وبالتأكيد هناك عددٌ لا يُحصَى من قطع الأثاث مُنكَرة الشَّكل ستقع عليها عيناي الحسَّاستان.

مرة أخرى، أشكر لك لمسة الأُلفَة التي حملها لي خطابك، ولعنايتك الدائمة بي.

أبلِغْ مَحبَّتي لزوجتك، بقدر محبَّتِكما لي.

تشارلز

***

6 أكتوبر 1850

عزيزي بونز،

يا له مِن مكانٍ هذا!

لم يزل يواصل إدهاشي، وبالقدر نفسه يدهشني رَدُّ فِعل أهل أقرب القرى إلينا على مسألة سُكناي هنا. تلك القرية مكان صغير غريب له اسم مثير للتأمُّل، هو بريشرز كورنرز (نواصي المبشَّرين)، إنه المكان الذي عقد فيه كالفن اتفاقات تزويدنا بالمؤن الأسبوعية. وقد أنجز المَهمَّة الأخرى هناك كذلك، وهي تأمين الإمداد بخشب التدفئة والوقود للشتاء. غير أنَّ كال عادَ مِن هناك وعلى ملامحه أماراتُ العبوس، وحينما سألتُه عمَّا به أجاب في تجهُّمٍ واضح:

"إنهم يعتقدون أنك مجنون، يا مستر بوون!".

ضحكتُ، وقلتُ: لعلَّهم سمعوا بما أصابني مِن حُمَّى وضعفٍ عقلي عارض بعد موت عزيزتي سارة- لا ريب أنني تحدَّثتُ بكلام المجانين في ذلك الحين، كما قد تشهد أنت بذلك.

غير أن كال خالفني الرأي، وقال إنه ما مِن أحد هُنا يعلم أي شيءٍ عني إلَّا مِن خلال ابن عمي ستيڤن، والذي كان قد اتَّفق معهم على تزويده بالخدمات نفسها التي دبَّرتها الآن. "ما قيل، يا سيدي، هو أنَّ أي إنسان يعيش في منزل الشابل ويت فإمَّا أنه مخبولٌ، وإمَّا أنه يجازف بأن يصير مخبولًا".

وكما لعلَّك تتخيَّل، أصابني هذا الكلام بحيرة تامة، فسألتُه مَن الذي تحدَّث إليه بهذا الحديث الغريب. أخبرني بأنَّ بعضهم دلَّه على رجُلٍ خشَّاب اسمه ثومبسون، يملك أربعمائة فدانٍ مِن أشجار الصنوبر والبتولا والتَّنُّوب، ويتاجر في لباب الخشب لتحضير عجينة الورق وخلافه، يساعده في ذلك خمسة أبناء له، ويبيع لمطاحن الورق في بورتلاند ولسكَّان المنازل في المنطقة المحيطة، فوجده كال رجُلًا كالِحًا شَكِسًا ومخمورًا إلى حدٍّ ما.

وعندما حدَّد له كال -وهو جاهلٌ بتحامُله العجيب- الموضعَ الذي سوف يُحمَل إليه الخشب المطلوب، حملقَ المدعو ثومبسون هذا وقد فشخ ضبَّه، ثم قال إنه سوف يرسل ابنيه بالخشب، لكن في عِزِّ النهار فقط، وسيذهبان عبرَ الطريق المحاذي للبحر.

على ما يظهر أن كالڤن أساء تفسير حيرتي؛ فظنَّها ضيقًا وهمًّا؛ فأسرعَ يقول إنَّ رائحة الويسكي الرخيص كانت تفوح من ذلك الرجل، وأنه بعد ذلك أخذ يخوض في كلام فارغ عن قرية مهجورة وعن أقارب لعمي ستيڤن- وعن ديدان! أنهى كالڤن عمله مع أحد أبناء ثومبسون، وكان هو أيضًا -على ما فهمت- عابسًا بدرجةٍ ما، وليس أشدَّ انتباهًا أو أطيب رائحةً مِن أبيه. فهمتُ أنَّ ردَّ الفعل هذا نفسه

لم يكن بعيدًا عن بلدة بريشرز كورنرز ذاتها، وهو ما بدا في المتجر مُتنوِّع البضائع حيث تحدَّث كال إلى مالكه، رغم أنَّ ذلك الرجل كان مِن النوع الميَّال للتهامُس وتبادل القيل والقال.

لم يزعجني أيٌّ مِن هذا كثيرًا؛ فإننا نعلم كيف هُم أهل الريف، وكَم يميلون بشدَّة لتتبيل حياتهم بنكهات الفضائح والخُرافات، وأفترضُ أنهم قد وجدوا فريستهم السَّهلة في المسكين ستيڤن وفي فَرعه من العائلة. وكَما قلتُ لكال، فإنَّ رجلًا سقط إلى حتفه فجأة وبلا سبب مفهوم مِن المُرجَّح جدًّا أن يثير الأقاويل.

أمَّا المنزل ذاته فهو مصدرُ دهشة لا تنقطع. ثلاثة وعشرون غرفة، تصوَّر يا بونز! الطابق العلوي وقاعة الصور الزيتية للوجوه تكسو جدرانهما ألواحٌ خشبية سوَّدتها الرطوبة والعَفن، غير أنها لم تزل متينةً وصلبة. بينما وقفتُ في غرفة نوم ابن عمي الراحل بالطابق العلوي كان بوسعي أن أسمع صوت حركة فئران وراء تلك الألواح، ولا بدَّ أنها فئران ضخمة، بناء على الصوت الذي تصدره- مثل بشرٍ يمشون تقريبًا. لا شكَّ أني سأكره أن أقابل واحدًا في الظلام؛ أو حتَّى في ضوء النهار، إن قلنا الحق. ورغم ذلك فما لاحظتُ ثقوبًا ولا فضلات فئران. أمرٌ مُحيِّر.

قاعة الجاليري في الطابق العلوي تصطفُّ على جدرانها بورتريهات سيئة في أُطرٍ تُقدَّر قيمتها بثروةٍ بكل تأكيد. بعض الأشخاص المرسومة يشبه ستيڤن كما أتذكَّر ملامحه. وأعتقد أنني تعرَّفت بشكل صحيح على عمي هنري بوون وزوجه جوديث؛ أمَّا الآخرون فمجهولون عندي. أحسبُ أنَّ أحدهم لا بدَّ أن يكون هو جدي روبرت ذا السُّمعة الشنيعة. غير أنَّ فَرع ستيڤن مِن العائلة مجهول تمامًا بالنسبة لي، وأشعر بأسف صادق لهذا الأمر. وَرَغم الصنعة الرديئة لتلك البورتريهات، تلتمعُ فيها الروح ذاتها التي كانت تشرق مِن سطور

رسائل ستيفن إليَّ أنا وسارة، رُوح الدُّعابة الحلوة ونور الذكاء والثقافة الرفيعة. أي أسبابٍ حمقاء تفرِّق أبناء العائلات بعضهم بعيدًا عن بعض! منضدة كتابة سلبها واحدٌ مِن آخر، كلمات قاسية يتبادلها شقيقان هما الآن في عداد الموتى منذ ثلاثة أجيال، فيتباعدُ الأحفاد ويتجافون من غير داعٍ ولا ذنب لهم في شيء. لا يسعني إلَّا أن أفكِّر في حُسن الحظ الذي أصبناه عندما نجحتَ أنت وجوين بيتي في التواصل مع ستيفن عندما بدا أنني قد ألحق بسارة وأمرُّ عبر تلك البوابة الرهيبة- وأن أفكِّر أيضًا في سوء الحظ الذي أصبناه عندما سلَبَتنا الأقدار فُرصة اللقاء وجهًا لوجه. لَكم كنتُ أودُّ أن أسمعه وهو يدافع عن تماثيل أسلافه وذوقهم في الأثاث!

لكن لا تتركني أُفرِط في الإساءة إلى هذا المكان لأبعد مَدى. مِن الصحيح أن ذوقي لن يتوافق مع ذوق ستيفن، ومع ذلك فثمَّة بعض القطع، وتحت القشرة الخارجية لإضافاته الشخصية، تُعدُّ تُحفًا حقيقية. كان عددٌ منها مكسوًّا بأغطيةٍ تَقيه الغبار في غرف الطابق العلوي. يوجدُ بعضُ الأَسِرَّة، والمناضد، وخزائن ثقيلة وداكنة ذات أدراج سهلة الجَرِّ، وقد صُنعَ هذا مِن أخشاب ثمينة مثل السَّاج والموجنة، وكثير مِن غرف النوم وغرف الاستقبال وغرفة الدرس والكتابة بالطابق العلوي والصالون الصغير، الكثير مِن ذلك يحتفظ بسِحرٍ قاتِم. ألواح الأرضيات مِن خشب الصنوبر الثري، تومضُ بنور جوَّاني كأنه سِرٌّ مكنون. ثمة جلالٌ هَا هُنا؛ جلالُ وثِقلُ السِّنين. لم أزل غير قادرٍ على أن أقول إنَّ هذا يروقني، لكني أحترمه حقًّا. أتوق لأن أرى هذا الحال يتبدَّل بينما نتبدَّل نحن ونتقلَّب مع تقلُّبات هذا الطقس الجنوبي.

ربَّاه، نسيت نفسي وأطلتُ عليك! اكتب لي قريبًا، يا بونز. أطْلِعني على ما تحرزه مِن تقدُّم، وأي أخبار جديدة تسمعها عن بيتي والآخرين. وأرجوك لا ترتكب خطأ محاولة إقناع أيٍّ مِن معارفك الجدد من الجنوب بآرائك وأفكارك بأشد ممَّا يطيقون صبرًا- على

ما أظنُّ فلن يكتفوا جميعًا بالرَّدِّ بأفواههم، كما يحدث مع صاحبنا السيد كالهون الحليم طويل البال.

صديقك المخلص

تشارلز

***

16 أكتوبر 1850

عزيزي ريتشارد،

أهلًا بكَ، وكيف حالكَ؟ لقد خطرتَ على بالي كثيرًا منذ بدأت إقامتي هنا في شابِل ويت، وظللتُ منتظرًا أن يصلني منكَ خبر- والآن أتلقَّى رسالةً مِن بونز يُخبرني فيها بأنني نسيتُ أن أترك عنواني هُنا في النادي! ليطمئنَّ قلبك بأنني كنتُ سأبادر بالكتابة لكَ في نهاية الأمر على كل حال؛ لأنَّه على ما يبدو أحيانًا لم يتبقَّ لي في هذا العالَم كله أي شيء مؤكَّد ومألوف ما خلا أصدقائي الصادقين المخلصين. ولكن، ربَّاه، كَم تفرَّقنا على كلِّ سبيل! أنتَ في بُوسطُن، تكتب بكل إخلاص لصحيفة الليبراتور[1] (وإليها أيضًا أرسلتُ عنواني البريدي، بالمناسبة)، وهانسُن في انجلترا في رحلة أخرى مِن أسفاره العجيبة المُحيِّرة، وصاحبنا العجوز المسكين بونز فمِن أجل أن يُعالِج رئتيه انتهى به الأمر في عرين الأُسود نفسِه.

تمضي الأمور هُنا على خير ما يُرام، يا دِك، ولتكن واثقًا مِن أنني سوف أزوِّدُك بتقرير مفصَّل في وقتٍ آخر، عندما لا أكون مضغوطًا بأحداث مُعيَّنة لم تزل قائمةً هَا هُنا- وأحسبُ أنَّ عقليتك القانونية ربما تنجذبُ بشدة نحو وقائع بعينها في عِزبة الشابل ويت والمنطقة المحيطة بها.

---

(1) The Liberator (1831-1865): صحيفة أسبوعية كانت اللسانَ الناطق لمناهضي الرِّقِّ والعبودية، ومعنى اسم الصحيفة: "المُحرِّر".

لكن حتَّى ذلك الحين أودُّ أن أسألَك معروفًا، إن كان سيطيب لك. أتتذكَّر ذلك المؤرِّخ الذي عرَّفتني به في حفل عشاء السيد كلاري مِن أجل جمع التبرُّعات لمناصرة قضيتنا؟ أعتقد أنَّ اسمه كان بيجَلو. على كُلٍّ، كان قد ذكر أنَّ لديه هواية جَمع قصاصات غريبة للمأثورات الشعبية والتقاليد التاريخية الخاصَّة بهذه المنطقة نفسها التي أسكن الآنَ فيها. ما أسألَك إياه، إذن، هو الآتي: هل تتكرَّم بالتواصل معه وتطلب منه أية حقائق، أو بعض المأثورات والحكايات الشعبية، أو الشائعات الرائجة -إن كان ثمَّة- قد يكون مُلِمًّا بها بشأن قرية صغيرة مهجورة مِن السُّكَّان تُسمَّى أرض چيروسالِم، وهي قريبة مِن بلدة اسمها بريشرز كورنرز، على الجهة المقابلة لنهر الرويال ريڤر؟ وهذا المجرى ليس إلَّا أحد روافد نهر الأندروسكوجين، ويتدفَّق من ذلك النهر على مسافة تُقارِب الأحد عشر ميلًا أعلى المصبِّ بالقرب مِن عِزبَتِنا الشابل ويت. مِن شأن هذا أن يرضيني ويسُرَّني للغاية، والأهم، أنَّ هذا الأمر كله قد ينطوي على شؤون خطيرة.

إذ ألقي نظرة الآن على هذا الخطاب أشعر بأنني كنتُ شديد الاقتضاب معك لدرجة الوقاحة، فعذرًا يا دِك، ولتقبَلْ أصدق اعتذاري. لكن فلتكن مطمئنًّا أنني سوف أشرح لك الأمر بنفسي في القريب العاجل، وحتَّى ذلك الحين أرسل تحياتي الدافئة لزوجتك الكريمة ولابنيك الرائعين، وبالطبع لكَ أنت.

صديقك المحِبّ

تشارلز

مكتبة
t.me/t_pdf

***

16 أكتوبر 1850

عزيزي بونز،

عندي لك حكاية تبدو غريبة قليلًا (بل ومثيرة للقلق) لي أنا وكال معًا- وسأرويها لك لأعرف رأيك. وعلى أقل الاحتمالات، ربما تجد فيها بعض التسلية فيما تصارع البعوض!

بعد يومين مِن آخر مرة أرسلتُ لك فيها خطابًا، وصلَ إلى هُنا أربع سيدات شابات من بلدة الكورنرز، تحت إشراف سيدة أكبر سنًّا لها سيماء ينمُّ عن كفاءة تبلغ حدًّا يبعث على الرهبة، واسمها السيدة كلوريس، من أجل أن يُرَتِّبن المكان ويُزِلن الغبار الذي كان يدفعني للعطاس تقريبًا مع كل خطوة أخطوها. وبينما مضين في مهام عَمَلهنَّ، كان يبدو عليهن جميعًا شيءٌ مِن التوتر العصبي؛ بل الواقع أنَّ آنسة خفيفة الروع منهنَّ أطلقت صرخة ذُعر صغيرة عندما دخلتُ صالون الطابق العلوي بينما كانت تنظفه مِن الغبار.

سألتُ السيدة كلوريس عن هذا الأمر (كانت تنظِّف الغبار عن ردهة الطابق الأرضي بعَزمٍ صارم وتجهُّم ملأني بحيرة تامة، كان شَعرُها ملمومًا للأعلى تحت منديل رأس حائل اللون)، التفتت نحوي وقالت بنبرة العزم الصارم ذاته: "إنهنَّ، يا سيدي، غير مرتاحات لهذا المنزل، وأنا أيضًا غير مرتاحة لهذا المنزل؛ لأنه كان دائمًا منزلًا سيئًا".

تدلَّى فَكِّي إزاء قولها اللاذع غير المتوقَّع هذا، وواصَلَت الحديث بنبرةٍ أكثر عطفًا ودماثة: "لا أقصد أن أقول إنَّ ستيڤن بوون لم يكن رجلًا ممتازًا، لأنه كان كذلك؛ وقد نظَّفتُ له المنزل مرَّة كُلَّ أسبوعين، آتي يوم خميس وأفوِّت الخميس التالي، طوال الوقت الذي كان موجودًا فيه هنا، كما نظَّفتُ لوالده، السيد راندولف بوون، حتَّى اختفى هو وزوجته في سنة 1816. كان السيد ستيڤن رجلًا صالحًا ودَمِثًا، وهكذا تبدو أنتَ أيضًا يا سيدي -إذا غفرتَ لي فظاظتي وصراحتي؛ فليسَ

لـديَّ طريقـة أخـرى أتحـدَّث بهـا- ولكـنَّ المنـزل فعـلًا سـيِّئ، وقـد كان عـلى الـدوام هكـذا، ولم يَسـعَد بالإقامـة هنـا أي فـرد مِـن عائلتكـم، آل بـوون، منـذ وقـوع الشِّـقاق والقطيعـة بـين جَدِّكـم روبـرت وأخيـه فيليـب بسـبب أشـياء مسروقـة (وهنـا سـكَتَت لحظـة، وقـد أحسَّـت بالذَّنـب تقريبًـا) وذلـك في سـنة 1789".

يا لقوة الذاكرة لدى أولئك القوم، يا بونز!

واصَلَـت السـيدة كلوريـس تقـول: "لقـد شُـيِّد المنـزل في التعاسـة، وسُـكنَ أيضًـا في التعاسـة، وسُـفِكت الدمـاء عـلى أرضياتـه (لعلَّـك تعـرف أو لا تعـرف، يـا بونـز، أنَّ عمـي راندولـف قـد شـهدَ حادثـةً مـا عـلى الـدرج المؤدِّي إلى القبـو فـأودت بحيـاة ابنتـه ماريـلا؛ ثـم أنهـى حياتـه بعـد ذلـك في نوبـة نَـدَمٍ. روى لي سـتيڤن هـذه الواقعـة في إحـدى رسـائله إليَّ، وقـد اسـتعادها في مناسـبة حزينـة وهـي ذكـرى يـوم ميـلاد أختـه الراحلـة)، ثـم كان اختفـاء وحـوادث.

لقـد كنـتُ أعمـل هُنـا، يـا سـيِّد بـوون، وأنـا لسـتُ عميـاء ولا صـمَّاء. لقـد سـمعتُ أصواتًـا رهيبـة في الجـدران، يـا سـيدي، أصواتًـا رهيبـة: طَرَقـات وارتطامـات، وذات مـرَّةٍ سـمعتُ عويـلًا غريبًـا كان كأنـه ضحكـة. وبالحـق قـد جمَّـد الدمـاء في عروقـي. إنـه مـكانٌ مُظلـم، يـا سـيدي". وعندئـذٍ توقَّفَـت عـن الـكلام تمامًـا؛ ربمـا خوفًـا مِـن أن تكـون قـد تكلَّمَـت أكـثر مـمَّا يجـب.

أمَّـا عـن نفـسي، فلـم أدرِ حقًّـا مـا إن كنـت أشـعر بالإسـاءة أو التسـلية، الفضـول أو مجـرَّد التسـليم بالأمـر الواقـع. وأخـشى أن إحسـاس التسـلية كانـت لـه الغَلبـة. "ومـاذا تظنِّـين ذلـك، يـا سـيدة كلوريـس؟ أهـي أشـباح تُجَرجِـرُ سلاسـل قيودهـا؟".

لكنهـا اكتفـت بـأن وجَّهـت لي نظـرة غريبـة. "قـد يكـون للأشـباح وجـود. لكنهـا ليسـت أشـباحًا تلـك التـي في الجـدران. ليسـت أشـباحًا تلـك

التي تعول وتنتحب مِثل الملعونين في الجحيم وتحطِّم وترتطم ساعةً هكذا في الظلام. بل...".

حَثَثُتها على الكلام: "هيَّا، يا سيدة كلوريس. ما دُمتِ وصلتِ لهذا الحَدِّ، ألا يمكنكِ الآن أن تُنهي ما بدأتِ؟".

رأيتُ على ملامح وجهها أغرب تعبير مُمكِن، مزيجٌ مِن الذُعر والسُّخط وأيضًا -أقسمُ على ذلك- الرَّهبة الدينية. همست قائلة: "البعض لا يموتون. البعض يبقون أحياء في ظلال الغسق، ما بين بين، من أجل خدمته هو!".

وكان ذلك ختامَ كلامها. لبعض الدقائق ظللتُ أُثقِل عليها بأسئلتي، لكن لم يزدها ذلك إلَّا عنادًا ولم تزد حرفًا على ما قالت. أخيرًا كففتُ عن استنطاقها، خشية أنها قد تحسم أمرها وتغادر.

كانت هذه نهاية واقعة واحدة مِن الحكاية، وسرعان ما تلتها واقعة ثانية في المساء التالي. كان كالڤن قد أوقد نارًا في المدفأة بالطابق الأرضي وكنتُ جالسًا في غرفة المعيشة، أناوش النُعاس متصفِّحًا نسخة مِن صحيفة الإنتلِچنسير، وأنصتُ إلى صوت المطر تدفعه الريح على زجاج النافذة الكبيرة البارزة للخارج. شعرتُ بالراحة التي قد يشعر بها أي شخص في ليلةٍ مثل تلك، بينما يجتمع كل ذلك البؤس في الخارج وهو موجودٌ في كنف الدفء والراحة بالداخل؛ ولكن ما هي إلا لحظة وظهرَ كال لدى الباب، وهو يبدو منفعلًا ومتوترًا بعض الشيء.

سألني: "هل أنت صاحٍ، يا سيدي؟".

فقلتُ: "بالكاد، ما الأمر؟".

أجابني بنبرة القلق المكبوح ذاته: "وجدتُ شيئًا بالأعلى أظنُّ أنَّكَ لا بدَّ أن تراه".

نهضتُ وتبعته. وبينما نصعدُ الدَّرَجَ العريض، قال كالڤن: "كنتُ أقرأ كتابًا في غرفة المكتب بالطابق العلوي- كتابًا غريبًا إلى حدٍّ ما، حينما سمعتُ جَلبةً تصدرُ مِن الجدار".

فقلتُ: "إنها فئران، فهل هذا كل شيء؟".

توقَّف على بَسطة الدَّرَج، وتطلَّع إليَّ بنظرةٍ جادَّة. عكسَ القنديلُ الذي يحمله ظلالًا غريبةً ومتربِّصة على الستائر الداكنة وعلى صور البورتريهات نصف المرئية، وقد بدت الآن وجوهها لا تبتسم، بل كأنها ترنو بخبثٍ وتَوَعُّد. وبالخارج ثارت الريحُ وأطلقت صرخة قصيرة لم تلبث أن خمدت على كُرهٍ منها.

قال كال: "ليست فئرانًا، كان هناك صوت مثل الخبط أو الطرق يصدر من وراء أرفف الكتب، ثم صوتُ بقبقة رهيب- رهيب حقًّا يا سيدي. وَحَكَّات وخربشات، كما لو أن شيئًا يصارع ليخرج، ليخرجَ ويصل إليَّ!".

لكَ أن تتخيَّل مقدار ذهولي، يا بونز. كالڤن ليس مِن النوع الذي يجمح مع خيالات هيستيرية. بدأ يبدو أنَّ ثمَّة لغز هَهنا على كل حال - وربما لغز بشع في الواقع.

سألتُه: "وماذا بَعد؟". واصلنا سيرنا على امتداد الردهة، وكان بوسعي أن أرى النور مِن غرفة المكتب ينسكب للأمام على أرضية الجاليري. تأمّلتُه بشيءٍ مِن رجفة الوَجل؛ وهكذا تبددت الراحة التي نعمت بها ليلتي.

"ثُمَّ توقفت ضجة الحك والخربشة. وبعد لحظة عادت مِن جديدة أصوات الارتطام والخبط، لكنها كانت هذه المرة تمضي مبتعدةً عني. توقفت عمَّا أفعل تمامًا، وأقسمُ لك إني سمعتُ ضحكةً غريبة، تكاد لا تُسمَع بالمرة! اتجهت نحو رفِّ المكتبة وبدأتُ أدفع

الكتب بعيدًا وأجذبها عن مواضعها، وفي ظني أنَّه ربما يكون وراءها حاجز ما أو باب سري".

"وهل وجدتَ ذلك؟".

توقَّف كال لدى باب غرفة المكتب. "كلَّا- لكني وجدتُ هذا!".

دخلنا ورأيتُ ثغرةً سوداء مربَّعة في خزانة الكتب على اليسار. ولم تكن الكتب في ذلك الموضع حقيقيَّةً، بل مُجرَّد نماذج زائفة لها شكل الكتب، وما وجده كال هناك كان مَخبأ صغيراً. دفعتُ مصباحي بداخله ولم أرَ شيئًا سوى كومة غليظة من الغبار، غبار لا بدَّ أنَّ عمره عشرات السنين.

"لم يكن هناك إلَّا هذا"، قال لي كال وهو يسلِّمني صفحة ورق كبيرة مصفرَّة. هذا الشيء كان خريطة، مرسومة بخطوط رفيعة ومتشابكة مثل خيط العنكبوت، وبحرٍ أسود- خريطة بلدة أو قرية. ربما كان مرسومًا فيها سبعة مبانٍ، وبُرج كنيسة واحد مميَّز بوضوح، وبالأسفل يوجد تعليق يقول: الدودة الجالبة للفساد.

في الركن الأعلى يسار الصفحة، في الجزء الذي لا بدَّ أنه جهة الشمال الغربي مِن هذه القرية الصغيرة، رُسِمَ سهمُ إشارة، وتحته كتبَ: شابل ويت.

قال كالڤن: "وأنا في البلدة، يا سيدي، ذكر لي أحدُهم بشيءٍ مِن التَّطيُّر تلك القريةَ المهجورة التي تسمَّى أرض چيروسالِم. المكان الذي يتجنَّبه الجميع هنا".

تساءلتُ وأنا أضع إصبعًا على التعليق المكتوب أسفل برج الكنيسة: "ولكن هذا؟".

"لا أدري".

عبَرَت خاطرى ذكرى السيدة كلوريس، عنيدة وممتلئة خوفًا رغم ذلك.

غمغمتُ: "الدودة".

"أتعرف شيئًا، يا سيد بوون".

"ربَّما، ربما يكون مِن المثير إلقاء نظرة على هذه البلدة المهجورة غدًا، ألا تعتقد هذا يا كال؟".

أومأ برأسه موافقًا. قضينا ما يقرب من ساعة بعد هذا نبحث عن أي شقٍّ في الجدار خلف الفجوة التي عثر عليها كال، دونما جدوى. كما لم تتكرَّر الضَّجَّة التي وصفها كال. خلد كلٌّ مِنَّا للنوم مكتفين من المغامرات في تلك الليلة.

في الصباح التالي انطلقتُ أنا وكالڤن في جولتنا عبر الغابة. انقطعت أمطار ليلة أمس، لكنَّ السماء كانت رمادية كئيبة وغائمة. لاحظتُ كال يرمقني بنظرة يشوبها الشكُّ، فأسرعتُ أُطَمئِنه بأنني لن أتردد في التوقُّف وإلغاء المَهمَّة إن أحسستُ بالتعب، أو اتَّضح أنَّ الرحلة أشقُّ وأبعد ممَّا يُحتمَل. تزوَّدنا بلُقمة غداء خفيف، وأخذنا معنا بوصلة ممتازة مِن نوع البَكويت، وبالتأكيد تلك الخريطة الغريبة العتيقة لأرض چيروسالِم.

كان يومًا غريبًا شديد السُّكون؛ فَلا سمعنا طيرًا يغرِّد ولا دابَّةً تتحرَّك بينما كُنَّا نشقُّ طريقنا نحو الجنوب والشرق عبرَ أشجار الصنوبر الضخمة والموحشة. لم نسمع إلَّا أصوات أقدامنا والضربات الثابتة لأمواج الأطلنطي على ألسنة اليابسة الممتدة داخل المياه. كانت رائحة البحر هي رفيقنا الذي لا يريم ولا يبتعد، تنبعث قويَّةً وثقيلة بدرجةٍ فائقة.

سِرنا ما لا يزيد عن ميلين فقط عندما صادفنا طريقًا تكاد تغطِّيه النباتات والأعشاب، ولعلَّه كما أعتقد كان ذات مرَّة ما سِكَّةً مرصوفة بجذوع الأشجار؛ بدا هذا السبيل مؤدِّيًا لاتجاهنا العام فلزمناه وقد خفَّف عنَّا لبعض الوقت. لم نتحدث إلَّا قليلًا، فكأنَّ هذا اليوم، بسكونه وشؤمه، قد رزح ثقيلًا على نفسَيْنا.

في نحو الساعة الحادية عشرة سمعنا صوت ماءٍ يندفع جيَّاشًا. اتخذ الجزء المتبقي مِن الطريق منعطفًا حادًّا نحو اليسار، وعلى الجهة الأخرى مِن جَدولٍ مِالح صغير وفوَّار، لاحت أرض چيروسالِم مِثل طيفٍ غير حقيقي.

ربما كان عَرض الجدول ثمانية أقدام، يمتدُّ عبره جسرٌ صغير للمُشاة مُغطَّى بالطَّحالب. وعلى الجانب الآخر، يا بونز، كانت تنتصب أمامنا قريةٌ صغيرة آية في الكمال الذي قد يصل إليه خيالك، طبعًا ترَكَت عوامِلُ الجَوِّ عليها أثرها، وهو أمرٌ مفهوم، غير أنها مصونة ومحفوظة على نحوٍ مذهل. عدَّةُ بيوتٍ تنتصب مُلتمَّةً معًا جنبًا إلى جنب بالقرب مِن الضفة المجزوزة بانحدارٍ وَعِر، شُيِّدَت على ذلك الطراز المتقشف، والمسيطِر مع ذلك، الذي اشتهر به البيوريتانيون عن جدارة.

فيما وراء ذلك، وعلى امتداد شارع رئيسي غزته الأعشاب والنباتات غير المشذبة، يقوم ثلاثة أو أربعة مبانٍ، لعلَّها كانت ذات يوم مؤسَّسات تجارية بدائية؛ وخلف ذلك، يبدو الطرف المدبَّب لبرج الكنيسة المؤشَّرة على الخريطة، يرتفع نحو السماء الرمادية ويبدو كئيبًا كآبة تستعصي على الوصف بطلائه المتقشر وصليبه المائل الباهت.

قال كال بصوت خفيضٍ مِن جانبي: "اسم هذه البلدة يليق بها".

عبرنا الجسر إلى البلدة، وشرعنا نخترقها مستكشفين- وهُنا، يا بونز، تأخذ قصتي منحًى عجيبًا بدرجةٍ ما، ولتستعدَّ لذلك!

كأنَّ الهواء أخذَ يرزح بينما سِرنا وسط المباني؛ يتثاقل إن صحَّ التعبير. كانت البنايات الشاهقة في حالة مِن التفسُّخ والتَّفكُّك: مصاريع الأبواب مخلوعة، والسقوف منهارة تحت وطأة الثلوج الثقيلة التي حطَّت عليها مرارًا، والنوافذ مُترَبة وترصد الخارج بنظراتٍ شرَّانية مُهدِّدة. والظلال تتجمَّع مِن أركانٍ غريبة وزوايا مائلة لتحطَّ معًا في بِركٍ من سوادٍ مشؤوم.

دَخلنا أولًا حانةً قديمة صارت رميمًا عَطِنًا- وعلى نحوٍ ما لم يبدُ فِعلنا هذا صائبًا، فلا يصحُّ أن نقتحم أيًّا مِن تلك الأماكن التي يقصدها الناس طَلبًا للخصوصية. فوق الباب متشقِّقِ الخشب لافتةٌ قديمة صوَّحها الطقس وبَرَاها تعلن أنَّ هذا المكان كان نُزلَ وحانَةَ رأسِ الخنزير. دفعنا البابَ المعلَّق على مِفصلة واحدة متبقِّية فأطلق صوت صرير جهنمي، وخطونا إلى الظلال في الداخل. كانت رائحةُ العَفن والعَطن تتطاير كالبخار وطاغية لا تُرَدُّ تقريبًا. بل بدا أنَّ تحتها تكمنُ رائحة أخرى أعمق، رائحة مُخاطية وخبيثة كالوباء الساري، رائحة الدهور والتفسُّخ لدهور، مِثل تلك النتانة التي قد تنبعث مِن الأكفان المتحلِّلة أو مِن القبور المنبوشة. وضعتُ منديلي على أنفي وكذلك فعل كال. أخذنا نفحص المكان.

قال كال بصوت غير واضح: "ربَّاه، يا سيدي".

فأكملتُ أنا فِكرته: "المكانُ لم يُمَسَّ".

وهكذا كان الأمرُ حقًّا. انتصبت المناضد والمقاعد في جنبات المكان مثل أشباح في نوبة حراسة ليلية، مغبَّرة ومائلة بسبب التغيُّرات المتطرِّفة لدرجة الحرارة والمعروفة عن طقس نيو إنجلاند، وَخَلا ذلك فكلُّ شيء بتمامه وكماله، كما لو أنَّ المكان بأثاثه قد ظلَّ -على مدى العقود الصامتة المتواترة- مُنتظرًا أولئك الذين رحلوا منذ أمدٍ بعيد، منتظرًا دخولهم إليه مرةً أخرى، ليطلبَ هذا نصف لتر بيرة أو

يطلب ذاك ثُمْنًا، ليلعب بعضهم الكوتشينة ويشعل آخرون غلايينهم المصنوعة مِن الفخَّار. عُلِّقَت على الجدار، إلى جانب لافتة الأسعار والقواعد، مِرآةٌ صغيرة مُربَّعة، وهي غير مكسورة. أترى دلالة هذا الأمر، يا بونز؟ إن الصبية الصغار معروفون بوَلعهم بالاستكشاف وتخريب الممتلكات والتعدِّي عليها؛ لا يُوجد منزل "مسكون" بالأشباح يبقى هكذا قائمًا بنوافذ سليمة، مَهما تردَّدت الشائعات بأنَّ في داخله شرًّا عظيمًا مُفزِعًا؛ ولا توجد مقبرة غامضة إلَّا وفيها شاهدة قبر واحدة على الأقل قَلَبها العابثون الصغار. ولا شكَّ أن هناك حفنة من هؤلاء العابثين الصغار في بلدة بريشرز كورنرز، التي لا تبعد أكثر مِن ميلين عن أرض چيروسالِم. ورغم ذلك فإنَّ زجاج هذه الحانة (ولا بدَّ أنه كان قد كلَّف مالكها مبلغًا لا بأس به) كان سليمًا تمامًا؛ شأنه شأن كل الأغراض القابلة للكسر التي وجدناها هناك في تطفُّلنا على المكان. الأضرار الوحيدة التي لحقت بأرض چيروسالِم أوقَعَتها بها أيدي الطبيعة المحايدة. والمعنى المضمر في هذا واضح:

إنَّ أرض چيروسالِم بلدة منبوذة، أصبحَ الجميع يتجنَّبونها. لكن لماذا؟ عندي فكرة أوَّليَّة عن السبب، لكن قبل أن أتجاسر على مُجرَّد التلميح به، عليَّ أن أكملَ لأصل إلى الخاتمة المثيرة المقلقة لزيارتنا تلك.

صعدنا إلى غرف النوم ووجدنا الأسِرَّة مرتَّبة ومفروشة، وقد وُضِعت إلى جانبها أباريق مياه مِن القصدير، بأناقة. وعلى الغرار نفسه كان المطبخ سليمًا لَم يَمسَّه سوى غبار السِّنين وتلك الرائحة الرهيبة الغائرة لنَتَن التفسُّخ. لا بدَّ أنَّ هذه الحانة وحدها ستكون لُقيا ثمينة لأي مُحبٍّ للآثار وخبير بالعاديات العتيقة؛ فَموقد المطبخ -الغريب بصورة مُعجِزَة- وحده يمكنه أن يجلب ثمنًا طيبًا في مزاد بوسطُن.

"ما رأيك، يا كال؟"، سألتُه عندما خرجنا مُجدَّدًا إلى الضوء الكابي لهذا اليوم.

أجابني بنبرة تفيض غمًّا: "رأيي أنَّ ثمة أمرًا سيِّئًا، يا سيد بوون، وأنَّ علينا أن نرى المزيد لكي نعرف المزيد".

مررنا بالمتاجر الأخرى فألقينا عليها نظرة سريعة غير مُدقِّقة- وجدنا نُزلًا للراحة وهناك بضائع جلدية معلَّقة وقد تعفَّنَت على مسامير مسطَّحة صدئة، ومحل بقالة، ومستودَع بداخله أكوام خشب السنديان والصنوبر كما هي، وورشة حِدادة.

دخلنا منزلين بينما كُنَّا نسير صوب الكنيسة في مركز القرية. كلا المنزلين كان نموذجيًّا على الطراز البيوريتاني، وكلاهما امتلأ بالأغراض التي قد يدفع جامِعُ تُحَف أيَّ شيءٍ مقابل الحصول عليها، وكلاهما مهجور وتسوده الرائحة العفنة ذاتها.

لم يبدُ أن هناك أي كائن يعيش أو يتحرَّك وسط هذا كله سوانا، فَما رأينا حشرات ولا طيورًا، ولا حتَّى بيت عنكبوت منسوجًا في رُكن إحدى النوافذ. لا شيء غير الغبار.

بَلَغنا الكنيسة أخيرًا، وقد بدت عاليةً مِن فوقنا، جهمةً وباردة وغير مُرحِّبة. كانت نوافذها سوداء بالظلال التي في الداخل، وقد بارَحَها كلُّ ما هو مقدَّس أو إلهيٌّ منذ أمد بعيد. وقد كنتُ على ثقةٍ مِن ذلك. صعدنا الدَّرَج الخارجي، ووضعتُ يدي على المقبض الحديدي الكبير. حانت مني التفاتة بنظرةٍ مظلمة جامدة نحو كالڤن فردَّ لي النظرة ذاتها مجدَّدًا. فتحتُ البوَّابة. متى كانت آخِر مرَّة لمسَ فيها شخصٌ هذا الباب؟ سأجيب بكل ثقة إنَّ يدي كانت أوَّل يد تلمسه منذ خمسين سنة؛ وربما أكثر. كانت مفصلات الباب صدئة لدرجة تعيقها عن الحركة، فأصدرت صريرًا عندما فتحتُه. كانت رائحة العطن والتفسُّخ، التي داهمتنا ولطمتنا بغتةً، تكاد تُلمَس في

الهواء مِن فرط كثافتها. صدرَ مِن حلق كال صوتُ اشمئزاز كأنه على وشك أن يستفرغ أمعاءه، وأدارَ رأسه بحركة لا إراديَّة بحثًا عن هواء أنقى.

سألني: "سيِّدي، هل أنت واثقٌ مِن أنك...".

فقلتُ بهدوء: "إنني بخير". لكنني لم أكن أشعر بأي خيرٍ ولا بأي هدوء، يا بونز، ليس أهدأ ممَّا قد أكون الآن، إنني أومنُ كما آمنَ موسى، أو يربعام بن نباط صانع العِجل الذهبي، أو إنكريز ماثر[1] حارق الساحرات، أو صديقنا هانسُن (فقط إن كان في مزاجٍ فلسفيٍّ)، بأنَّ هناك أماكن مؤذية روحيًّا كأنها مسمومة، مبانٍ فسدَ فيها حليبُ الكون وصارَ حامضًا زَنِخًا. وأقسمُ أنَّ هذه الكنيسة مِن بين تلك الأماكن.

ولجنا رواقًا طويلًا مزوَّدًا بمشجب مُترَب لتعليق المعاطف وكتب تراتيل مرصوصة على أرفف. كان بلا نوافذ، وثمَّة قناديل زيتية موضوعة داخل مِشكاوات هُنا وهناك. فكَّرتُ أنها غرفة عادية، إلى أن سمعت شهقةً حادَّةً أطلقها كالڤن ورأيت ما انتبه له مِن قبلي.

كان تدنيسًا تامًّا.

لا أجرؤ على وصف تلك الصورة ذات الإطار المتقن بأكثر مِن هذا: أنها كانت مُنفَّذة على نفس طراز لوحات الرسَّام الهولندي روبنز ذات الأجساد اللحيمة العارية؛ وأنها احتوت تقليدًا ساخرًا للعذراء والطفل، لكنه تقليدٌ يتَّسِم ببشاعَة وغرابة "الجروتسك"؛ مع وجود

---

(1) Increase Mather: رجل دين بيوريتاني واسع النفوذ، عاش ما بين القرنين السابع عشر والثامن عشر، وكان رئيسًا لجامعة هارڤارد لعشرين عامًا، وكان مسؤولًا في مستعمرة خليج ماساتشوستس الإنجليزية على الساحل الشرقي لأمريكا الشَمالية خلال الفترة التي شهدت محاكمة ساحرات سالِم سيئة السُّمعة، ما بين فبراير 1692 ومايو 1693، وأسفرت عن إعدام عشرين شخصًا -أكثرهم مِن النساء- وإدانة الكثيرين.

تلك المخلوقات الغريبة التي تكسوها الظلال تمزح وتلهو وهي تَنسَلُّ مُتسلِّلةً في خلفية اللوحة.

همستُ: "ربَّاه".

فقال كال: "لا وجودَ للرَّبِّ هنا"، وبدا كأنَّ كلماته ظلَّت مُعلَّقةً في الهواء. فتحتُ الباب المؤدِّي إلى الكنيسة نفسها، فأصبَحَت الرائحة الكريهة وبالًا وبائيًّا، طاغيةً بحيث لا سبيل لمقاومتها تقريبًا.

لم يكن إلَّا نصف ضوء للأصيل يومضُ واهنًا، وفيه رأينا صفوف مقاعد الكنيسة الخشبية تصطفُّ كالأشباح، ممتدَّة صوب المذبح. ومن فوقها بالأعلى المنبر المرتفع من خشب البلوط، والمجاز المؤدِّي إلى صحن الكنيسة، وقد استولت عليه الظلالُ، ورغم ذلك يلمع فيه شيءٌ ذهبي.

بصوت جهشة ثقيلة -أسرع كالڤن وهو البروتستاني الوَرِع- برسم إشارة الصليب، فحَذَوتُ حَذوَه؛ فقد كان الشيء الذهبي صليبًا ضخمًا جميل الصُّنع ومُتقَن الزخارف، غير أنه عُلِّق مقلوبًا رأسًا على عقب، وهو رمز معروفٌ للقدَّاس الأسود المكرَّس للشيطان.

"علينا بالهدوء والثبات"، هكذا سمعتُ نفسي أقول. "الهدوء والثبات، يا كالڤن. علينا بالهدوء والثبات".

لكنَّ ظِلًّا ما قد مسَّ قلبي، وانتابني خوفٌ لم أشعر بمثله مِن قبل. لقد سبقَ أن مشيتُ لبعض الوقت تحت مظلَّة الموت وظَنَنتُ آنذاك ألَّا شيء أشدَّ ظلامًا من تلك التجربة، لكن هناك ما هو أشدُّ ظلامًا. هناك ظلامٌ أبلغ وأشدُّ حقًّا.

سِرنا بامتداد الممرِّ الضيق بين جناحَيْ المقاعد الخشبية الطويلة، كان وَقعُ أقدامنا يَصدُر عنه صدى فوقنا وحولنا، وخلَّفت خطواتنا آثارًا في الغبار. ولدى المذبح كانت تُوجد أعمال فنية -إن صحَّ التعبير-

أخرى ليست أقلَّ إظلامًا وإبهامًا وشناعة. لن أترك عقلي يستعيدها ويفكِّر فيها الآن، لا أريد هذا ولا أقدر عليه.

بدأت أعتلي المنبر نفسه.

صاحَ كال فجأة: "لا تصعد يا سيد بوون، أخشى أن...".

لكنني كنتُ قد صعدتُ، وأمسكتُ به؛ كتابٌ ضخم كان موضوعًا ومفتوحًا على حامِل الكُتب، كان مكتوبًا بكلٍّ من اللاتينية وحروف رونية صعبة القراءة، بدت لعينيَّ غير المدرَّبَتيْن إمَّا أنها تنتمي لكتابة الدرويد، أو لحقبة ما بعد السِّلتيين[1]. لقد أرفقتُ رسالتي لك هذه ببطاقة فيها عدَّة من رموز تلك الكتابة، أعدتُ رسمها مِن الذاكرة.

أغلقتُ الكتاب ونظرت إلى الكلمات المنقوشة على غلافه الجلدي: De Vermis Mystenis. لغتي اللاتينية كساها الصدأ، ولكنها أسعفتني بما يكفي لأن أترجم: خَفَايا الدودة.

عندما لمستُه بدت الأشياء كأنها تسبح أمامَ عينيَّ في الهواء: تلك الكنيسة الملعونة، وكذلك وجه كالقن الشاحب المضطرب. كما ظننتُ أنني سمعتُ أصوات إنشادٍ خفيض، أصواتٍ مُترعة ببُغض شنيع، وأيضًا بخَوفٍ مندفع ملهوف- وتحت الإنشاد ذلك كان ثمَّة صوت آخر كأنه يملأ جوف الأرض. أتلك كانت هلاوس مِن صُنع خيالي،

---

(1) Runes: الرُّونية مجموعة من الحروف الأبجدية استُخدِمَت في كتابة لغات جرمانية مختلفة قبل اعتماد الأبجدية اللاتينية، ومن بعد ذلك اقتصر استخدامها على أغراض متخصِّصة. أبكر المخطوطات المكتوبة بهذه الأبجدية والتي تم اكتشافها تعود إلى 150 بعد الميلاد. والدرويد (Druidic) كَهَنة وأحبار الشعوب السِّلتية ورجال الطِّبِّ فيها، بخاصة في بلاد الغال وبريطانيا، وكانوا يمارسون التطبيب بالأعشاب، وسيطروا على العقول بشعائرهم الدينية التي تقوم على عبادة الشمس، واعتُبِروا مِن بين السَّحَرة الأشرار بعد ظهور المسيحية وانتشارها. حُقبة ما قبل السِّلتية هي عصور ما قبل التاريخ في وسط وغرب أوروبا قبل توسُّع السِّلتيين في أوروبا والأناضول خلال العصر الحديدي، ما بين القرن التاسع والسادس قبل الميلاد.

لا أظـنُّ! لكـن في اللحظـة ذاتهـا، كانـت الكنيسـة كلهـا تمتلـئ بصـوتٍ حقيقـيٍّ للغايـة، لا يسـعني وصفـه إلَّا بأنـه صـوت تقلُّـب وجَيشـان ضخـم ورهيـب تحـت قدمـيَّ. كان المنـبر يرتعـد تحـت أصابعـي، والصليـب الـذي نالتـه الإسـاءة والأذى كان هـو أيضًـا يرتجـف عـلى الجـدار.

خرجنـا أنـا وكال مِـن هنـاك معًـا، تاركـين ذلـك المـكان لظلامـه، ولم يجـرؤ أيٌّ منَّـا حتَّـى عـلى النظـر للخلـف حتَّـى عبرنـا ذلـك الجسر البسـيط الخشـن مِـن ألـواح الخشـب، والممتـد فـوق جـدول المـاء. لـن أقـول إننـا ركضنـا فَلوَّثنـا بذلـك حـوالي ألـف وتسـعمائة سـنة قضاهـا الإنسـان في الارتقـاء والصعـود بعـد القُرفصـاء والزحـف والإيمـان البـدائي بالخرافـات؛ ومـع ذلـك فسـوف أكـون كاذبًـا إن قلـتُ إننـا كنَّـا نمـشي الهُوينـا.

تلـك هـي حكايتـي. لا تخـشَ مِـن أن الحُمَّـى قـد اسـتولت عـليَّ مـن جديـد فتطيـل أمـدَ تعافيـك بالقلـق عـليَّ؛ لأنَّ كال كان معـي وهـو شـاهدٌ عـلى جميـع مـا وَرَدَ في تلـك الصفحـات، وصـولًا إلى -وبمـا في ذلـك- تلـك الضَّجَّـة الشـنيعة.

أُنهـي رسـالتي لـك الآن، قائـلًا إننـي أتمنَّـى لـو كان بوسـعي أن أراك (متأكِّـدًا مِـن أن قـدرًا هائـلًا مِـن حـيرتي سـوف يسـقط عـن كاهـلي في الحـال عندئـذٍ)، وأننـي مـا زلـتُ عـلى صداقتـي لـك وإعجـابي بشـخصك.

تشارلز

***

17 أكتوبر 1850

السَّادة الأعِزَّاء:

في النسـخة الأحـدث مِـن كاتالـوج منتجاتكـم للأغـراض المنزليـة (تحديـدًا، نسـخة صيـف عـام 1850)، لاحظـتُ مسـتحضرًا اسـمه "سُـمُّ فـئران". أودُّ أن أشـتري مِـن هـذا المُسـتحضَر عـددَ علبـة واحـدة مـن وزن خمسـة أرطـال، بالسِّـعر الـذي أعلنتـم عنـه، وهـو ثلاثـون سـنتًا (30. $). مُرفَـق هنـا طابـع ومظـروف للـرَّدِّ عـلى رسـالتي، أرجـو إرسـال الطلـب إلى: كالڤـن مَـاكان، شـابل ويـت، بريـشرز كورنـرز، مقاطعـة كمبرلانـد، ولايـة مـين.

شكرًا جزيلًا على عنايتكم بهذا الشأن.

تفضَّلوا بقبول وافر الاحترام أيُّها السادة

كالڤن ماكان

***

19 أكتوبر 1850

عزيزي بونز،

تطوُّرات مثيرة للقلق.

الضَّجَّـة التـي تصـدر مِـن جـدران المنـزل قـد اشـتدَّت، وقـد بـدأتُ أصبح أكـثر ميـلًا للاسـتنتاج بـأنَّ مـا يتحـرَّك في داخـل تلـك الجـدران ليـس فئرانًـا عـلى الإطـلاق. أجريـتُ أنـا وكالڤـن عمليـة تفتيـش أخـرى لا طائـل مـن ورائهـا؛ بحثًـا عـن أي شـقوق أو ممـرَّات خفيـة، لكننـا لم نعـثر عـلى شيء. بمثـل هـذا الأداء لـن نسـتطيع أبـدًا أن نكـون جـزءًا مِـن إحـدى

روايات السيدة رادكليف![1] على كلٍّ، زعمَ كال أنَّ أغلب تلك الأصوات تنبعث مِن القبو، وهناك ستجري عملية استكشافنا غدًا. إنني أعرف أن شقيقة قريبي ستيڤن قد لقيت نهايتها المؤسفة هنالك في القبو، وهو ما يزيد هذا الأمر صعوبة.

وعلى ذكر هذه الفتاة، فإنَّ صورتها مُعلَّقة في جاليري الصور العائلية بالطابق العلوي. وإذا كان الرسَّام قد نقل ملامحها كما ينبغي، فقد كانت مارسيلا بوون كائنًا جميلًا بدرجةٍ تثير الأسى، وإني أعلمُ أنها لم تتزوَّج قَطُّ. تَمرُّ بي لحظات أظنُّ خلالها أنَّ السيدة كلوريس على حقٍّ، وأنَّ هذا المنزل سيِّئ حقًّا. وأنه لم يقدم لسكَّانه السابقين غير الكآبة والمصائر المظلمة.

لكن عندي لك المزيد حول السيدة كلوريس ذات الهَيبة، بما أنني كانت لي معها اليوم مقابلة ثانية. لمَّا كانت هي الشخص الأشد ثباتًا ورباطة جأش من بين جميع مَن قابلتُ في بلدة كورنرز؛ فقد سعيتُ للقائها أصيل يومنا هذا، بعد لقاء غير مُستَحَبٍّ سوف أحكي لك عنه الآن.

كان مِن المُفترض أن يصل الخشب إلى المنزل هذا الصباح، وعندما انتصف النهار وتجاوز الوقت الثانية عشرة ظهرًا ولم يظهر معه أي خشب لدى الباب؛ قرَّرتُ أن أجعل نزهة تمشيتي اليومية باتجاه البلدة نفسها. كان هدفي زيارة ثومبسُن، الرجل الذي اتَّفق معه كال على توريد ما نحتاجه.

---

(1) Mrs Radcliffe: هي آن وارد رادكليف (1764 - 1823)، كاتبة إنجليزية ورائدة من روَّاد الروايات القوطية، وتميَّزَت أعمال بعرض عناصر ما وراء الطبيعة، واتبع أسلوبها الكثيرون غيرها، وكانت من أكثر الكتَّاب شعبيَّةً في زمانها، وامتدَّت شعبيتها حتَّى القرن التاسع عشر، وأطلق عليها بعض النقاد "شكسبير الروايات الرومانسية".

بقي كال في المنزل لمزيد من الفحص والاستكشاف في مكتبة عمي ستيڤن، وقد زوَّدَني بوصف دقيق للاتجاهات. كان يومًا جميلًا، حافلًا بهبَّات سريعةٍ منعشة من الخريف المشرق الرائق، وعندما بلغت منزل وأرض آل ثومبسُن، شعرتُ بأنني في أفضل مزاج عشتُه خلال تلك الأيام القليلة الماضية، وكنتُ على أتمِّ الاستعداد لأن أغفر لثومبسُن تأخُّرَه في تسليم الخشب.

كان المكانُ مساحةَ من أعشاب متشابكة نامية كيفما اتفق، ومبانٍ متهدِّمة بحاجةٍ ماسَّة إلى طلاء؛ عن يسار مخزن الحبوب خنزيرة ضخمة، جاهزة للذبح في نوڤمبر، كانت تنخر وتتمرَّغ في زريبة موحلة، وفي باحة لا تخلو مِن قمامةٍ بين المنزل الرئيسي والمباني الخارجية وجدتُ امرأةً مُرتدية ثوبًا باليًا مِن نسيج جينجهام ذي المربَّعات الصغيرة، وكانت تُطعمُ الدجاجَ من حِجْر مريولها المطوي. عندما ناديتُ لأنبِّهَها، نظَرَت إليَّ بوجه شحب لونه وتبلَّدت قسماته.

الحقيقة كان مِن الرائع أن يشهدَ المرءُ هذا التبدُّل المفاجئ في تعبير وجهها مِن الخواء المطبق والبلاهة التامَّة إلى رُعب مسعور. ما كان بوسعي إلَّا أن أعتقد أنها خلطت بيني وبين ستيڤن نفسه؛ وذلك لأنها صرخت ورفعت يدها وعقفت بعض أصابعها في إشارة الحماية من شَرِّ الأرواح والأشباح وما شابه. تناثر طعام الدجاج من مريلتها على الأرض هنا وهناك، أمَّا الدواجن نفسها فتفرَّقَت مبتعدةً وهي تقوقئ بصوتٍ كالصراخ.

وقبلَ أن أتمكَّن من التلفُّظ ولو بصوتٍ واحد، ظهَرَت هيئةٌ ضخمة لرجلٍ مَكسوٍّ بطَقم داخلي شتوي طويل الأكمام والسروال، يخرج بخُطًى مُتثاقِلَة من المنزل وفي إحدى يديه بندقية صغيرة الفوَّهة، وفي اليد الأخرى إبريق. ومن الضوء الأحمر في عينيه وحركة سَيرِه غير المتَّزِنة، خمَّنت بأنَّ هذا كان هو نفسه ثومبسُن الحطَّاب.

زأر قائلًا: "أنتَ واحد من آل بوون! مَلْوونة عيناك هذه![1]" وأسقطَ الإبريق فأخذ يتدحرج وصنعَ هو أيضًا بأصابعه شارةَ الحماية من الشر.

قلتُ بأكبر قدرٍ مُمكِن من الاتِّزان والرصانة في ظلِّ الظروف المحيطة: "لقد أتيتُ لأنَّ الخشب لم يأتِ. وحسب الاتفاق الذي التزمتَ به مع رَجلي...".

"ومَلْوون أبو رَجُلك هو الآخَر، أقول لك!". ولأول مرة لاحظتُ أنَّه -في حقيقة الأمر، وخلف كل فظاظته ووعيده- كان خائفًا. وقد بدأت أتساءل بجدٍّ ما إذا كان قد يستعمل البندقية ضدي حقًّا في خِضَمِّ انفعاله هذا.

بدأتُ أقول بحرص: "من باب الذوق لا أكثر، ربما تبعدَ هذه...".

"ومَلْوون أبو ذوقك يا أخي!".

فقلتُ بأكبر قدر استطعت استجماعه من الكبرياء والكرامة: "جيد جدًّا، إذًا، أتمنَّى لكَ يومًا طيبًا، وحتَّى نلتقي وتكون أكثر سيطرة على نفسك". وبقولي هذا استَدَرتُ وابتعدت سائرًا على طول الطريق نحو القرية.

"لا أريد أن أراكَ هنا مرَّةً ثانية!" زعق الرجل من خلفي. "خلِّيك في عِش الشَّر فوق هناك! ملعون! ملعون! ملعون!"، ورجمني بحجر فأصاب كتفي. لم أتفادَ حجره لِئلَّا يمنحه هذا بعض الرضا.

وعلى هذا انطلقتُ ملتمسًا السيدة كلوريس، عاقدًا العزم على أن أعرفَ على الأقل سرَّ العداوة والبغضاء مِن جانب ثومبسُن نحوي. إنَّها أرملة (كلَّا، ليست إحدى ترشيحاتك المذهلة لتزويجي، يا بونز؛

(1) المقصود "ملعونة عيناك"، ينطقها -وكلمات أخرى- مُقطَّعة الحروف؛ إمَّا لفرط سُكْرِه، وإمَّا أن تكون هذه هي طريقته في الكلام.

فهي أكبر مني بنحو خمسة عشر عامًا على أقل تقدير، وأنا تجاوَزتُ الأربعين) وتعيشُ بمفردها في بيت ريفي متواضِع، لكنه ساحر، يكاد المحيط يبلغُ عتبة بابه. وجدتُ السيدة تنشر غسيلها، وبدا عليها سرور صادق برؤيتي، وهو ما وجدتُ فيه راحةً كبرى؛ فأن يُطرَد المرء بعيدًا كأنه موصوم ومنبوذ، ولغير ما سببٍ مفهوم، هو أذى يفوق قدرة الكلمات على الوصف.

قالت: "سيد بوون"، وهي تقدِّم نصف إيماءة احترام. "إن كنتَ آتٍ لأجل غسيلٍ لديك فأنا لا آخذ غسيلًا منذ مطلع سبتمبر. آلام الروماتيزم تكون شديدة عليَّ جدًّا بحيث يكون في غسيلي الخاص مشقَّة كافية".

"ليتَ الغسيل كان سببَ زيارتي لكِ. لقد أتيتُ طلبًا لمساعدتكِ، يا سيدة كلوريس. لا بدَّ أن أعرف كلَّ ما يمكنكِ إخباري به عن شابل ويت وبلدة أرض چيروسالِم، وعن سبب تعامُل أهل البلد هنا لي بكل هذا القدر مِن الخوف والريبة!".

"أرض چيروسالِم! إنك تعرف ذلك الأمر إذًا".

أجبتُها: "نَعم، لقد زرتُ المكان مع مُرافقي منذ أسبوع".

صاحت: "ربَّاه!"، وصار وجهها شاحبًا كالحليب، وترنحَّت قليلًا فمَدَدتُ يدًا لأسندها. دارت حدقتاها في محجريهما على نحوٍ رهيب، وللحظة كنتُ واثقًا مِن أنها سيُغشَى عليها.

"سيدة كلوريس، آسف إذا كنتُ قد قلتُ أي شيء قد...".

فقالت: "تعالَ للداخل، لا بدَّ أن تعرف. يا يسوع الطيب، لقد عادت أيام الشر من جديد!".

لم تَقُل أكثر من ذلك حتَّى أعدَّت لنا شايًا قويًّا في مطبخها المُشمس. عندما صارَت أقداحُ الشاي بين أيدينا، تطلَّعت للخارج

لبعض الوقت نحو المحيط بنظرة المهموم. ورغمًا عنَّا، كانت عيناها وعيناي تنجذب نحو تلك الحافة الناتئة مِن رأس منزل الشابل ويت، حيث كان المنزل يشرفُ على المياه. النافذة الكبيرة البارزة خارج الجدار قليلًا كان زجاجها يلتمع بأشعة شمس الغروب، فَبدا مثل قطعةٍ مِن الماس. كان المنظر جميلًا، ولكنه أيضًا مثيرٌ للقلق بشكل لا تفسير له. التفتت السيدة نحوي فجأة وأعلنت بحَمية متَّقِدة:

"عليك أن ترحل عن شابل ويت فورًا، يا سيد بوون!".

أذهلني قولها.

"لقد ظلَّت تُخيِّم على الأجواء سحابةُ شَرٍّ منذ أن اتَّخَذتَ مسكنَكَ هُنا. في الأسبوع الماضي -منذ أن وضعتَ قدمكَ في ذلك المكان الملعون- ظهرت بعضُ النُّذُر وعلامات الشؤم. غشاء يغلِّف وجهَ القمر؛ أسرابٌ مِن طيور الليل[1] تجثم وتُعشِّش في المدافن؛ وحالة ولادة غير طبيعية. عليك أن ترحل!".

عندما انفكَّت عُقدة لساني أخيرًا، تحدَّثتُ بأرفق نبرة في استطاعتي. "سيدة كلوريس، تلك الأمور ليست سوى أوهام. ولا بدَّ أنكِ تعلمين ذلك".

"أهو وَهمٌ أن تلدَ باربارا براون طفلًا بلا عينين؟ أم هو وَهمٌ أن يجد كليفتُن بروكيت خلفَ عِزبتك سبيلًا سالكًا في قلب الغابة، مضغوطًا ومستويًا وسط العشب، بِسِعة خمسة أقدام، حيث كل شيء عليه قد ذبل وابيضَّ؟ وأنت نفسك، وقد زرتَ أرض چيروسالِم، أيمكنك القول صادقًا إنَّه ما مِن شيء لا يزال يسكن المكان؟".

---

(1) Whippoorwills: طائرٌ ليلي أو شفقي متوسِّط الحجم، له أجنحة طويلة وأرجل قصيرة ومناقير قصيرة للغاية، ويُطلَق على بعض أنواعه في أمريكا اسم صقر الليل، وهو من فصيلة السُّبد أو الضُّوع (الاسم العلمي Caprimulgidae).

لم أستطع الإجابة؛ فقد وثبَ أمام عينيَّ ما حدث في تلك الكنيسة الشنيعة.

شبكَت السيدة أصابع يديها المغضَّنة ذات العُقَد في جَهدٍ واضح لكي تهدِّئ من رَوع نفسها. "سمعتُ بتلك الأمور مِن أمي ومِن أمِّها قَبلها. أتعرف أنتَ تاريخ عائلتك في ما يتعلَّق بعزبة الشابل ويت؟".

قلتُ: "معرفة بسيطة، كان المنزل مَسْكنًا لنسل فيليب بوون، تقريبًا منذ العام 1870؛ وكان شقيقه روبرت، وهو جدي الأكبر، يقيم في ماساتشوستس بعد خلافٍ وقعَ بينهما حول وثائق مسروقة. لا أعلم الكثير عن جانب فيليب من العائلة، باستثناء ظِلال التَّعاسة التي سقطت عليهم، وأخذت تمتدُّ وتنتقل من الأب إلى الابن إلى الأحفاد- لقد ماتت مارسيلا في حادث مأساوي وسقط ستيڤن فَلقي مصرعه. كانت رغبته أن تصبح الشابل ويت مسكنًا لي وأن تؤول ملكيتها إليَّ، وأن يلتئم هكذا الانشقاق بين فرعيّ العائلة".

همَسَت: "لن يلتئم شيءٌ أبدًا، ألا تعلم أي شيء عن النزاع القديم؟".

"قيل إن روبرت بوون ضُبطَ وهو يختلس أشياءَ مِن مكتب أخيه".

قالت: "فيليب بوون كان مخبولًا، رجلًا يتاجر ويُهرِّب كل ما يُدنِّس العقيدة. كان الشيء الذي حاول روبرت بوون أن ينتزعه ويزيل شَرَّه آنجيلًا وثنيًّا كله تجديف، مكتوبًا بألسنة قديمة، لغات مثل اللاتينية والدرويدية وغيرها. كتاب من الجحيم".

"خَفَايا الدودة".

ارتدَّت للوراء كما لو لطمها شيء. "أتعلم بهذا؟".

"لقد رأيتُه. ولمستُه". مرَّةً أخرى بدا عليها أنها قد يُغشَى عليها وتفقد الوعي. امتدَّت إحدى يديها نحو فمها كما لو لتكبت صرخة

عاليـة قـد تغلبهـا. "نَعـم، في أرض چيروسـالِم. عـلى منـبر كنيسـةٍ تعفَّنـت وتدنسَّـت".

"لا يـزال يسـكن المـكان، إذًا. لا يـزال يسـكن هنـاك". اهتـزَّ جسـمها في مقعدهـا. "لكـم تمنَّيـتُ أن يكـون الـرب بحكمتـه قـد ألقـى بـه إلى هاويـة الجحيـم".

"ما الذي يربط فيليب بوون بقرية أرض چيروسالِم؟".

قالـت السـيدة في تَجهُّـم قاتـم: "رابطـة الـدم، لقـد تركـت الدابَّـةُ وَسـمَها عليـه، رغـم أنـه دخـلَ إلى هنـاك في ثـوب الحَمَـل الوديـع. وفي ليلـة 31 أكتوبـر عـام 1789 اختفـى فيليـب بـوون كأن لم يكـن، واختفـى معـه جميـع سـكَّان تلـك القريـة الملعونـة بكاملهـم".

لم تَقُـل إلَّا القليـل خـلا ذلـك، والحقيقـة أنهـا بـدت لا تعـرف إلَّا القليـل خـلا ذلـك. مـا كان منهـا إلَّا أن تعـاود ترديـد توسُّـلاتها لي بـأن أرحـل، مُـبرِّرةً ذلـك بأقـوال مثـل "الـدم ينـادي الـدم"، وغمغمـة حـول "هـؤلاء الذيـن يراقبـون، وهـؤلاء الذيـن يحرسـون". فيما أخـذ الغسـق يحـلُّ بـدا أن توتُّرَهـا يتزايـد ولا يهدأ، ولـكي أهـدِّئ مِـن رَوعهـا وعدتُهـا بأننـي سـوف أفكِّـر جدِّيًّـا في مـا طلبتـه منـي.

سرتُ عائـدًا إلى البيـت خـلال ظـلالٍ كئيبـة متطاولـة، وقـد تبـدَّد مزاجي الطيِّـب تمامًـا وأخـذ رأسي يـدور بأسـئلة لا تـزال تجتاحنـي. اسـتقبلني كال بالأخبـار الجديـدة؛ الضجـة التـي تصـدر عـن الجـدران ازدادت سـوءًا- وهـو مـا يمكننـي أن أشـهد عليـه في هـذه اللحظـة ذاتهـا. إننـي أحـاول أن أقـول لنفسي إنَّ مـا أسـمعه ليـس سـوى الفئـران، لكنـي أرى بعـين خيـالي وجـه السـيد كلوريـس المتجهِّـم المذعـور.

صعـدَ القمـر فـوق البحـر، بـدرًا كامـلًا ممتلئًـا، وملوَّنًـا بلـون الـدم، مُلقيًـا بظـلٍّ خبيـث عـلى المحيـط. عـادَ عقـلي إلى تلـك الكنيسـة مـن

جديد و(هُنا سَطر مشطوب عليه) لكن يجب ألَّا ترى ذلك، يا بونز. هذا جنون يفوق كلَّ حَدٍّ. لقد حان وقت نومي، على ما أظنُّ.

قلبي معك يا عزيزي

تحياتي

تشارلز

***

(التالي مأخوذٌ من دفتر بحجم الجيب خاص بتدوين يوميات كالڤن ماكان).

20 أكتوبر 1850

هذا الصباح سمحتُ لنفسي بأن أكسر القفل الذي يضمُّ صفحات الدفتر المغلق؛ فعلت ذلك قبل أن يظهر السيد بوون. لا فائدة في ذلك؛ كان كلُّه مكتوبًا بالشفرة. شَفرة بسيطة، على ما أعتقد. ربما يمكنني أن أفكَّها بنفس سهولة كسر القفل. إنها يوميَّاتٌ، وإني على ثقة مِن أنَّ خطَّ الكتابة يشبه خطَّ السيد بوون على نحوٍ عجيب. مَن هذا الذي وضعَ دفتر يومياته في أبعد ركن لهذه المكتبة، بل وأغلقَ الصفحات بقفل كذلك؟ يبدو قديمًا، ولكن كيف يمكن أن نتأكَّد؟ لم يؤثِّر الهواء الفاسد للجو المغلق على صفحاته بدرجة كبيرة. خلال هذا اليوم، إذا سنحَ الوقت؛ السيد بوون عاقد العزم على استكشاف القبو. أخشى أن تلك الأشياء والأحداث الرهيبة سوف تُثقل عليه بما لا تحتمل صِحَّتُه التي لم تستقرَّ تمامًا بَعدُ. لا بدَّ أن أحاول إقناعه بألَّا- لكن هَا هو يأتي.

***

20 أكتوبر 1850

بونز

لا أستطيع الكتابة، لا أتَّطيع [هكذا في الأصل] أكتب عن هذا الآن!

***

(من دفتر يوميات كالڤن ماكان)

20 أكتوبر 1850

وقعَ ما كنتُ أخشاه، انهارت صحته- يا ربنا، يا أبانا الذي في السماء!

لا يمكنني احتمال التفكير في ذلك الرُّعب الذي شهدناه في القبو! ومع ذلك فقد زُرِعَ فيَّ، بل انطبعَ عميقًا بداخلي مثل صورة حُفِرَت في عقلي.

أنا الآن بمفردي؛ الساعة الثامنة والنصف؛ والبيت يسوده السكون- وقد وجدته مُغشًى عليه فوق منضدة كتابته؛ لا يزال نائمًا؛ ومع ذلك فَما كان أنبله وأشجعه حين استطاع أن يُحرِّر نفسه بينما وقفتُ أنا مُتجمِّدًا ومُحطَّمًا!

بشرته مِثل الشَّمع، باردة. الشُّكر للرب، لم تعاوده الحُمَّى مِن جديد. لم أجرؤ على أن أحرِّكه من موضعه أو أن أتركه وأذهب إلى القرية. وحتَّى إذا تركته وذهبت، فمَن ذا الذي قد يرجع معي لمساعدته؟ مَن ذا الذي قد يأتي إلى هذا المنزل الملعون؟

ويحي، إنه القبو! وتلك الأشياء التي فيه هي التي سكنت البيت واحتلَّت ما وراء حيطانه!

***

22 أكتوبر 1850

عزيزي بونز

عـدتُ إلى نفسي مِـن جديـد، رغـم ضعـف بـدني، بعـد سـتٍّ وثلاثـين سـاعة كاملـة مِـن فقـدان الوَعـي. عُـدتُ لنفـسي مـن جديـد؟! يـا لهـا مِـن مزحـة حزينـة ومريـرة! لـن أعـودَ لنفـسي مـن جديـد، لـن أعـودَ كـما كنـتُ أبـدًا. لقـد وقفـتُ وجهًـا لوجـه قبالـةَ خَبـلٍ ورُعـبٍ يتجـاوزان حـدودَ قـدرة الإنسـان عـلى الوصـف والتعبـير. وهـي ليسـت النهايـة بَعـدُ.

وأعتقـدُ أنَّـه لـولا كال لكانـت حيـاتي قـد انقضـت الآن. إنـه جزيـرة وحيـدة مـن العقـل وسـط كل هـذا الجنـون التـام.

لا بدَّ أن أُطلِعَكَ على كل شيء.

تجهَّزنـا بشـموع لـكي نستكشـف القبـو، وقـد ألقـت وميضًـا قويًّـا كان كافيًـا وملائمًـا تمامًـا- ملائمًـا بصـورة جهنميَّـة! حـاول كالڤـن أن يُثنينـي عـن عزمـي، وذكـر مسـألة مَـرضي قريـب العهـد، قائـلًا إنَّ أقـصى مـا سـنجده عـلى الأرجـح بعـض فـئران فائضـة الصحـة والعافيـة بانتظـار أن نحـدِّد مكانهـا لنـترك السـمَّ فيـه.

لكنـي بقيـتُ رغـم ذلـك مُصمِّـمًا عـلى مـا انتويـت، فصـدَرَت تنهـدة إذعـان عـن كالڤـن وأجابنـي:

"إذًا فليكن الأمر كما تشاء، يا سيد بوون".

كان المدخـل إلى القبـو عـلى هيئـة بـاب سـحري يُفتَـح للأعـلى في أرضيـة المطبـخ (وكان كال قـد طمأننـي بأنـه منـذ علـم ذلـك أضـاف فوقـه ألواحًـا خشـبيَّةً متينـة)، وقـد رفعناهـا بقـدرٍ كبـيرٍ مِـن الشَّـدِّ والرَّفـع.

تصاعَـدَت مِـن العتمـة رائحـةٌ نَتِنَـة طاغيـة، لا تختلـف عـن تلـك التـي سـادت البلـدة المهجـورة الواقعـة عـلى الناحيـة الأخـرى مـن نهـر الرويـال ريڤـر. ألقـت الشـمعة التـي أمسـكها في يـدي بوميضهـا عـلى دَرَجٍ مائـل

بانحدار شديد يقود للأسفل، وينتهي غائصًا في الظلام. كان الدَّرَج في حالة يُرثَى لها، بحاجة ماسَّةٍ لإصلاح، وفي موضعٍ ما منه كانت سُلَّمة بكاملها مفقودة، وليس في محلها إلَّا فجوة سوداء- كان من اليسير عليَّ أن أرى كيف انقضت حياة مارسيلا تعيسة الحظ في هذا الموضع ذاته.

قال لي كال: "خُذ حَذرَك، يا سيد بوون!"، فأخبرته بأنه لا نيَّة لديَّ بالمرة إلَّا أن آخذَ كلَّ حذري، ونزلنا لنهاية الدرج.

كانت الأرضية على طبيعتها ترابًا وطينًا، والجدران من جرانيت متين، مُبتلَّة في مواضع قليلة جدًّا. لم يبدُ المكان ملاذًا جيِّدًا للفئران على الإطلاق، فَلم يكن هناك أيٌّ مِن الأشياء التي تحب الفئران أن تتَّخِذ فيها جحورًا، مِثل الصناديق القديمة، والأثاث المهمَل، وأكوام الورق، وما شابَه. رَفعنا شموعنا، فحصلنا على دائرة نورٍ صغيرة، لكن ما زلنا لا نرى إلَّا قليلًا. كانت الأرضية تنحدر تدريجيًّا باتجاه ما بدا أنه يمتدُّ أسفل قاعة الجلوس الرئيسية وغرفة تناول الطعام، أي أنَّ الانحدار صوبَ الغرب. وهكذا سرنا في هذا الاتجاه. كان الصمت مطبقًا. واشتدَّ زخمُ النَّتَن المتطاير في الهواء وازدادَ قوَّةً في ثبات، وبدت الظُّلمة التي تكتنفنا كأنها تتجمَّع وتنضغط مثل وَبر الصوف، كما لو أنَّ تلك الظُّلمة انتابتها الغيرة من هذا النور الصغير الذي جرَّدها مِن عرشها ولو لبرهة عابرة، بعد أن مرَّت سنوات عديدة للغاية كانت هي المهيمنة خلالها بلا منازع.

في الطرف القصي من المكان، انتهت جدرانُ الجرانيت وحلَّ محلَّها خشبٌ مصقول بدا مُسوَدًّا تمامًا بدون أية خواصَّ عاكِسةٍ للضوء. هنا كان ينتهي القبو، مُفسِحًا لما بدا كأنه تجويف في داخل أحد جدران الغرفة الأساسية للقبو. كان موقع التجويف في زاوية جعلت عملية تفقُّده مستحيلة من غير أن ندور حول الزاوية.

وهكذا فعلنا أنا وكال.

بـدا الأمـر كـما لـو أنَّ طيفًـا رميـمًا مُنتِنًـا للـماضي المشـؤوم في هـذا المسـكن قـد ارتفـع ونهـض متجسِّـدًا أمامنـا. انتصـبَ مقعـدٌ واحـدٌ في هـذا التجويـف بالجـدار، ومِـن فـوق هـذا المقعـد كانـت تتـدلَّى أنشـوطة مُتحلِّلـة مـن خيـوط القُنَّـب، ثُبِّتَـت في خُطَّـاف معـدني بأحـد القوائـم الخشـبية المتينـة للسـقف.

غمغم كال: "ربَّاه! هذا هو الموضع الذي شنقَ نفسه فيه".

"نَعم، وجُثَّة ابنته ملقاة أسفل الدرج من تحته".

أوشـكَ كال أن يقـول شـيئًا؛ وعندئـذٍ رأيـتُ عينيـه تـكاد ترتـجُّ متوجِّهـةً إلى نقطـةٍ خلفـي؛ ومـا لبثـت كلماتـه غـير المنطوقـة أن تحوَّلـت إلى صرخـة.

كيـف عسـاني، يـا بونـز، أن أصـف لـكَ المنظـر الـذي سـقط فـوق أعيننـا؟ كيـف عسـاني أن أخـبرك عـن أولئـك النـزلاء الفظيعـين المقيمـين بداخـل جدراننـا؟

تراجـعَ الجـدار البعيـد متأرجحًـا، ومِـن تلـك الظلمـة بداخلـه أطـلَّ وجـهٌ بخبـثٍ- وجـهٌ ذو عينـين حالِكَتَـيْ السَّـواد كأنهـما نهـر سـتيكس الجـاري في الجحيـم ذاتـه. وفـمٌ فاغـر بـلا أسـنان، يُسـفِر عـن تكشـيرة كَـربٍ وألم؛ وامتـدَّت نحونـا مـن ذلـك الـشيء يـدٌ صفـراء متفسِّـخة. أصـدرَ صـوتُ نشـيجٍ مـروِّع واتخـذ خطـوة واحـدة متثاقلـة ومترنحـة للأمـام. سـقط عليـه نـورُ شَـمعَتي- وقـد رأيـتُ بعينـي علامـةً زرقـاء مِـن أثـر التفـاف الحبـل حـول رقبـة ذلـك الـشيء!

ومـن خلفـه تحـرَّك شيءٌ آخَـر، شيءٌ سـوف يَظَـلُّ يطـاردني في الأحـلام حتَّـى اليـوم الـذي سـأنامُ فيـه نومًـا أخـيرًا فتنقطـع عنـي جميـع الأحـلام: صبيَّـة بوجـهٍ ممتقـع أصفـر وقـد تحلَّـل وتفسَّـخ، وانفتـح فمهـا بتكشـيرة جُثَّـة؛ صبيـة مـال رأسـها فـوق صدرهـا بزاويـةٍ عَبثيـة.

كانا يطلبانّنا ويريداننا نحن؛ أعلم هذا تمام العِلم. وأعلم أيضًا أنهم كانا سيجُرّاننا معهما داخل ذلك الظلام فنصبح ملكًا لهما؛ لو لم ألقِ شمعتي مباشرةً على ذلك الشيء الذي ظهر في الحاجز من داخل الجدار، وأتبعتُ الشمعة بالمقعد الموضوع تحت تلك الأنشوطة.

بعد ذلك، صار كل شيء ظلامًا مشوَّشًا. أُسدلَ ستارٌ سميك أمام عقلي، وحين أفقتُ، كما قلت، وجدتُ نفسي في غرفتي وإلى جانبي كال.

إن كان بوسعي أن أغادر، لطِرتُ عن منزل الرُّعب هذا وطرف رِداء نومي يرفرف حول كاحليَّ. لكنني غير قادر على المغادرة. لقد صرتُ بيدقَ شطرنج في لُعبة دراميـة أعمق وأشدَّ ظلامًا. لا تسألني كيف أعلم هذا؛ فإني أعلم وحسب. كانت السيدة كلوريس على حقٍّ عندما تحدَّثَت عن الدم الذي ينادي الدم؛ وكم كانت على حقٍّ بشكل رهيبٍ أيضًا عندما تحدَّثَت عن هؤلاء الذين يراقبون، وهؤلاء الذين يحرسون. أخشى أنني قد أيقظتُ قوَّةً ظلَّت هاجعة نصف قرنٍ من الزمان في قرية أرض چيروسالِم المشؤومة؛ قوَّةً قتلَت أسلافي واتَّخذتهم عبيدًا لها في استرقاق مُدنَّس، فأصبحوا ما يسمَّى نوسفيراتو[1] أو موتى- أحياء. وعندي مخاوف أخطر شأنًا مِن ذلك كله، يا بونز، غير أني لم أرَ بعد إلَّا جانبًا واحدًا مِن الأمر. آه لو استَطَعتُ فقط أن أطَّلع على كل شيء!

تشارلز

---

(1) Nosferatu: أغلب الظَّنِّ أنها كلمة رومانية قديمة مهجورة بمعنى الإساءة والمتاعب، غير أنَّ المعنى الحديث لها وهنا أيضًا هو وصف مخلوقات أقرب إلى مصَّاصي الدماء مِمَّن يعيشون خالدين، وقد ظهرت المفردة في أواخر القرن التاسع عشر ومطلع العشرين في أعمال قصصية غربية مثل دراكولا (1897) وغيرها.

ملاحظـة: بالطبـع أنـا أكتـب هـذا لنفـسي ليـس إلَّا؛ فنحـن منعـزلان عـن بريـشرز كورنـرز. لا أجـرؤ عـلى أن أحمـل تلـوُّثي وعـدواي إلى هنـاك لـكي أرسـل هـذا في البريـد، وكالڤـن لـن يتركنـي وحـدي. لكـن، مَـن يـدري، لعـلَّ هـذا يصـل إليـك بطريقـة مـا، إذا شـاء الـرَّبُّ الـرؤوف.

***

(من دفتر يوميات كالڤن ماكان)

23 أكتوبر 1850

إنـه اليـوم أقـوى؛ تحدَّثنـا بإيجـازٍ عـن تلـك الأشـياء التـي ظهـرت لنـا في القبـو؛ وقـد اتفقنـا عـلى أنَّ تلـك الأشـياء لم تكـن هـلاوس مِـن ثمـار عقولنـا، كـما لم تكُـن مِـن طبيعـة الإكتوبـلازم[1]، بـل كانـت حقيقيَّـة. هـل يشـعر السـيد بـوون، شـأنه شـأني، بـأنَّ تلـك الأشـياء قـد ذهبـت وتبـدَّدَت؟ ربمـا؛ غـير أنَّ الضجيـج قـد هـدأ تمامًـا؛ ومـع ذلـك تـرك وراءه تهديـدًا ووعيـدًا مُنـذِرًا، وجـوًّا مُلبَّـدًا بكآبـة قاتمـة. يبـدو أننـا نمكـث هَـا هُنـا في قلـب الهـدوء الخـادع للعاصفـة الوشـيكة.

كنـتُ قـد عـثرتُ عـلى حِزمـة أوراق في غرفـة نـومٍ بالطابـق العلـوي، موضوعـة بـأدنى الأدراج في منضـدة كتابـة كبـيرة، فيهـا بعـض المكاتبـات وفواتـير دَفـع وخلافـه، فهمـتُ منهـا أنَّ هـذه الغرفـة كانـت تخـصُّ روبـرت بـوون. لكـنَّ أكـثر تلـك الوثائـق إثـارة للاهتـمام كانـت كتابـات قليلـة عـلى ظهـر ورقـة إعـلان عـن قبَّعـات للسَّـادة مصنوعـة مـن فـراء القنـدس. عـلى رأس تلـك الكتابـة عبـارة:

---

(1) Ectoplasm: أصل الكلمـة المشـتق عـن اليونانيـة بمعنـى تَجسُّـد أو تَشـكُّل خارجـي، مصطلـح قديـم في العلـوم الروحانيـة يشـير لمـادة أو طاقـة روحانيـة تتشـكَّل خارجيًّـا عـبر وسـيط روحـي. صـاغَ المصطلـح شـارل ريشـيه في 1894، وانتـشر في الثقافـة الشـعبية المؤمنـة بالخرافـات، لكـن العِلـم لم يقبـل قَـطُّ أي وجـود مـادي حقيقـي للإكتوبـلازم، وقـد تبـيَّن أن كثـيرًا مـن نماذجـه المزعومـة هـي مجـرَّد خُـدَع مُصَنَّعـة مـن قـماشٍ قطنـيٍّ أو شـاش أو غيرهـا مـن مـواد طبيعيـة.

blessed are the meek

طوبى للوُدَعاء.

وتحتها، السطور التالية التي بدَت هُراءً صريحًا:

bke dshdermthes eak

elmsoerare shamded

أعتقد أنَّ تلك السطور هي مفتاح قُفلٍ ذلك الكتاب المشفَّر الذي وجدناه في المكتبة. كانت الشفرة أعلاه بلا شكٍّ ساذجة فجَّة، استُخدمَت إبَّان حرب الاستقلال الأمريكية، وأُسمِيَت بشفرة السياج[1]. عندما يحذف المرءُ الحروف (العاطلة) التي لا قيمةَ لها مِن الجزء الثاني من هذه الكتابة، يحصل على ما يلي:

مكتبة
t.me/t_pdf

besdrteek

lseaehme

وعند قراءته بالاتجاه بأخذ حرفٍ من الأعلى وآخر من الأسفل وليس أفقيًا، تكون النتيجة هي نفسها المقتبس الأصلي من تطويبات السيد المسيح.

قبل أن أتجرَّأ على عرض هذا الكشف على السيد بوون، لا بدَّ أن أكون واثقًا مِن طبيعة محتويات الكتاب.

***

(1) The War for Independence وتُسمَّى أيضًا (American Revolutionary War)- (1775- 1783)، ما بين بريطانيا العُظمى ومستعمراتها الثلاث عشرة في العالَم الجديد، والتي أعلنت استقلالها لتُشكِّل نواةَ ما سوف يكون بعد ذلك الولايات المتحدة الأمريكية. أمَّا شفرة السِّياج، أو السِّكَّة الحديد كما تُسمَّى أحيانًا، فهي طريقة بسيطة للتشفير تعمل على حذف ثلاثة حروف من بين كل حرفين حتَّى تَتِمَّ كلمة، وبالتبادُل في الاتجاهات ما بين الأعلى والأسفل والجانبي على شكل بعض أنواع السياج. للمزيد يمكن البحث تحت عبارة fence rail cipher.

24 أكتوبر 1850

عزيزي بونز

حدث أمرٌ مُذهِل- كال، الذي لطالما تكتَّم أموره إلى أن يصير واثقًا ممَّا لديه تمامَ الثقة (وهي فضيلة إنسانية نادرة وجديرة بالإعجاب!)، قد وجد مُذكِّرات جدِّي روبرت. غير أنَّ الوثيقة ذاتها كانت مكتوبةً بالشفرة، وقد استطاع كال بنفسه حلَّ شفرتها. وقد أعلنَ بكل تواضُع أنَّ اكتشاف هذا الأمر كان مَحضَ مُصادَفة، ولكني أحسبُ أنَّ للمثابرة وبذل الجهد دورٌ أكبر بكثير ممَّا للمصادفات.

على كل حال، فقد ألقت تلك الصفحات ضوءًا على الألغاز التي تحيط بنا ها هُنا، وإن كان ضوءًا كابيًا وكئيبًا.

أوَّل صفحات اليوميَّات تعود إلى تاريخ الأول من شهر يونيو عام 1789، وآخر ما كتب بتاريخ 27 أكتوبر 1789- أي قبل أربعة أيام فقط مِن الاختفاء الجماعي كالوباء الذي ذكرته السيدة كلوريس في حديثها. وتروي اليوميات حكاية استحواذ عقلي عميق للغاية -كلَّا، بل جنون مُسيطر- وتبين علاقة واضحة على نحو مُفزِع بين العَمِّ الأكبر فيليب، وبلدة أرض چيروسالِم، وذلك الكتاب المستقر في تلك الكنيسة المُنتَهكة.

وِفقًا لما كتبه روبرت بوون، فإنَّ البلدة نفسها يعود تاريخها لما قبل منزل ومِلكية الشابل ويت (شُيِّد في 1782) وما قبل بلدة البريشرز كورنرز (والتي كانت تُعرَف في تلك الأيام باسم بريشرز ريست، وتأسَّسَت عام 1741)؛ أمَّا تلك البلدة فقد أسَّستها جماعةٌ مُنشقَّة مِن أتباع المذهب البيوريتاني عام 1710، وهُم طائفةٌ تتبعُ متعصِّبًا صارمًا غليظًا يُدعى چيمس بوون. يا له مِن خيط بدايةٍ قدَّمه لي هذا الاسم! أعتقد أنَّه لا سبيل للتشكُّك في أنَّ هذا السيد بوون يَمُتُّ بِصِلة قرابة إلى عائلتي. ما كان بوسع السيدة كلوريس أن

تكون أكثر صوابًا في إيمانها المتطيِّر بأن خطَّ الدم العائلي له أهمية حاسمة في هذه المسألة ككل؛ وأتذكَّر مرعوبًا إجابتها على سؤالي حول فيليب وما يربطه بأرض سالِم تلك. فقد قالت "رابطة الدم"، وأخشى أنَّ هذه هي الحقيقة.

أصبحت البلدة مجتمعًا مستقرًا، يجتمعُ أهله وسُكَّانه حول الكنيسة حيث كان بوون يَعِظ، أو بالأحرى يخلب الألباب ويحشدُ التابعين. يُلمِّح جدي الأكبر في دفتره إلى أنَّ ذلك الواعظ عَقَدَ علاقات حميمة مع عدد كبير من سيدات البلدة، مؤكِّدًا لهم أنَّ ذلك هو سبيل الرب وتلك هي إرداته. ونتيجةً لذلك؛ أضحت البلدة تكوينًا شاذًّا خارجَ كل الأعراف، شيئًا ما كان له أن يوجد إلَّا في تلك الأيام المنعزلة والغريبة حينما كان الإيمان بالساحرات وبالولادة العُذرية للسيد المسيح يمضيان جنبًا إلى جنب: فَأمست البلدة مسخًا هجينًا؛ ظاهرها الدين وباطنها الانحلال، يحكمها واعِظٌ نِصفُ مجنون، لا يفرق بين الأناجيل الأربعة وبين كتب طرد الشياطين الرائجة آنذاك؛ مجتمعًا كانت تؤدَّى فيه بوَتيرَةٍ منتظمة طقوسُ طرد الأرواح الشريرة التي تسكن أجسام الناس؛ مجتمعًا مِن زِنَا المحارم وما يرافق تلك الخطيئة غالبًا مِن فقدانٍ للعقل وولادة المشوَّهين خِلقيًّا. أحسبُ (وأعتقد أنَّ روبرت بوون يشاركني الرأي) أنَّ واحدًا مِن نسل بوون غير الشرعيين لا بدَّ قد غادر بلدة أرض چيروسالِم (أو تمَّ إبعاده عنها) ليلتمس حظَّه صوب الجنوب- وهكذا قُدِّر له أن يُؤسِّس خَطَّ سلالتنا الراهن. إنني أعلم يقينًا عبر تتبُّع مسارنا العائلي، أنَّه مِن المفترض أنَّ عشيرتنا ترجع جذورها إلى ذلك الجزء مِن ماساتشوستس والذي صارَ في وقت قريب للغاية ولاية مين المستقلَّة هذه. أثرى جدِّي الكبير كينيث بوون بسبب تجارة الفراء التي كانت مزدهرة في ذلك الحين. تكاثَرَ مالُه مع الوقت والاستثمار الحكيم، وبهذا المال بُني منزل الأسلاف هذا بعد وقت طويل من موته عام 1763. شيَّد ابناه،

فيليب وروبرت، الشابل ويت. وكما قالت السيدة كلوريس: "الدم ينادي الدم". هل يمكن أن يكون كينيث ذلك هو نفسه الابن غير الشرعي لجيمس بوون، وقد لاذ بالفرار من جنون أبيه وجنون بلدة أبيه، فقط لكي يشيِّد ابناه -وهما يجهلان ذلك كله- منزلَ آل بوون على مسافة ميلين اثنين مِن حيث بدأ كل شيء؟ لو أنَّ هذا حقيقيٌّ، أفلا يبدو الأمر كما لو أن ثمَّة يدًا خفيَّةً هائلة تقودنا جميعًا؟

وفقًا ليوميات روبرت، كان جيمس بوون عامَ 1789 شيخًا طاعنًا في السِّنِّ- ولا بدَّ أنه كان كذلك. فلو سلَّمنا بأن عمره كان في نحو الخامسة والعشرين في عام تأسيس البلدة، فلا بدَّ أنه قد بلغ مائة وأربعة، وهو سِنٌّ استثنائي بكل تأكيد. ما يلي جزءٌ مُقتبس مباشرة مِن دفتر يوميات روبرت بوون:

4 أغسطس 1789

اليوم التقيتُ للمرة الأولى بهذا الرجل الذي انجذبَ إليه أخي إلى دَرجةٍ تفوق الحَدَّ المعقول؛ ولا بدَّ أنَّ أُقِرَّ بأنَّ سليل آل بوون هذا يملك قوة جاذبية غريبة، جاذبية أزعجتني لأقصى حدٍّ. إنه طاعنٌ في السِّنِّ حقًّا وصِدقًا، أبيض اللحية، ويرتدي ثوب الكاهن الأسود وهو ما أحسستُ أنه أمرٌ غير لائق بطريقةٍ ما. غير أنَّ الأشد إزعاجًا مِن كل هذا حقيقة أنه كان محاطًا بالنساء مِن كل جانب، وكأنه سلطان شرقي وسط حريمه؛ وقد أكَّد لي "ف" أنه لا يزال نشطًا مِن هذه الناحية، رغم أنه قد تجاوز الثمانين على أقل تقدير.

أمَّا القرية نفسها فقد زُرتُها مرَّة واحدة مِن قبل، ولن أعودَ إلى زيارتها مجدَّدًا؛ فإنَّ شوارعها صامتة ومشرَّبة بالخوف، ذلك الخوف الذي يوحي به الرجل الهرم مِن فوق منبر وعظه: كما أنني أخشى أن الطيور على أشكالها تقع، وهكذا فإنَّ كثيراً للغاية مِن الوجوه هنالك متشابهة، فقد خُيِّل إليَّ أنني أينما ولَّيتُ وجهي رأيتُ ملامح

ذلـك الشـيخ الطاعـن. وجميعهـا وجـوه صفـراء سـقيمة؛ كأنهـا تفتقـد للرونـق والبريـق؛ كـما لـو أنَّ شـيئًا مـا قـد امتـصَّ منهـا الحيويـة حتَّـى جفَّـت تمامًـا، وقـد رأيـتُ أيضًـا أطفـالًا بـلا أعـين وأطفـالًا بـلا أنـوف، والنسـاء يبكـين منتحبـاتٍ ويهـزرن مُغَمغِـماتٍ وهـنَّ يُـشِرن بأصابعهـنَّ نحـو السـماء لغيرمـا سـبب، خالطـاتٍ آيـات الأناجيـل بأحاديـث الشـاطين. أعـربَ أخـي "ف" عـن أمنيتـه أن أحـضر القـدَّاس في الكنيسـة معهـم، لكـنَّ مجـرد فكـرة صعـود هـذا الشـيخ الهَـرِم الناضـح بالـشَّرِّ والشـؤم عـلى المنـبر أمـام جمهـور هـذه البلـدة مِـن أبنـاء زنـا المحـارم والمشـوَّهين لم تُـثِر في نفـسي إلَّا النفـور الفظيـع؛ فاعتـذرتُ منـه.

التدوينـات السـابقة والتاليـة عـلى هـذه تـروي تزايُـدَ افتتـان فيليـب بجيمـس بـوون. في الأول مـن سـبتمبر 1789، عُمِّـد فيليـب في كنيسـة بـوون. يقـول شـقيقه: "إننـي مصعـوقٌ بالذهـول والهَـول -أخـى يتحـوَّل أمـامَ عينـيَّ- بـل إنـه يبـدو كأنـه يقـترب في الشَّـبه الشَّـكلي مـع ذلـك الشـقي الوضيـع".

يَـرِدُ أوَّلُ ذِكـرٍ للكتـاب في تدوينـة يـوم 23 يوليـو. تذكـره يوميـات روبـرت باقتضـاب عابـر: "عـادَ "ف" مِـن القريـة الصغـيرة الليلـة بوجـهٍ -عـلى مـا ظَنَنـتُ- تظهـر عليـه أمـارات الـشرود والاضطـراب. ولم يتكلـم حتَّـى حـلَّ موعـدُ النـوم، عندمـا قـالَ إنَّ بـوون قـد اسـتعلمَ عـن كتـابٍ عنوانـه خَفايـا الـدودة. لـكي أدخـل الـسرور عـلى قلـب "ف" وَعَدتُـه أن أكتـب رسـالة اسـتعلام عـن هـذا الكتـاب إلى مسـتودع كتـب چونـز آنـد جودفيلـو؛ وقـد أظهـرَ "ف" لي امتنانًـا يـكاد يشـارفُ حـدود التملُّـق".

في 12 أغسـطس، هـذه الملاحظـة: اسـتلمتُ رسـالتين في مكتـب البريـد اليـوم. إحداهـما مِـن مسـتودع چونـز آنـد جودفيلـو في بوسـطن. كانـوا يخطروننـي بأمـر المجلَّـد الـذي أعـربَ "ف" عـن اهتمامـه بـه. تتوفَّـر لديهـم خمـس نسـخ فقـط في هـذه المقاطعـة. كان الخطـاب فاتـرًا تُعوِزُه

نبرة الوُدِّ؛ وهو أمر غريب حقًّا، بما أنني تجمعني بكاتبه هنري جودفيلو معرفةٌ جيدة منذ سنوات".

13 أغسطس:

تحمَّس "ف" حماسًا جنونيًّا برسالة جودفيلو؛ وامتنع عن أن يعربَ عن سبب ذلك. لم يَقُل سوى إن بوون في غاية اللهفة والتعطُّش لأن يحصل على نسخة منه، ولم أستطع أن أفكِّر في سبب معقول وراء هذا، بما أنَّ العنوان لا يوحي إلَّا ببحثٍ بريء حول مكافحة الآفات الزراعية والديدان وما شابه.

أشعرُ بالقلق على فيليب؛ مع كل يومٍ يمرُّ يصبح أكثر غرابة بالنسبة لي. الآن أتمنى لو أننا لم نرجع إلى شابل ويت، وهذا الصيف شديد الحرارة، زامتٌ ومُقبِضٌ، والجو يمتلئ بنُذر الشؤم.

مرتان أخريان فقط ذُكر فيهما الكتاب سيِّئ السُّمعة في يوميات روبرت (ويبدو أنه لم يكن قد أدرك الأهمية الحقيقية له، حتَّى لدى النهاية). من تدوينة يوم 4 سبتمبر:

أرسلتُ أطلب مِن جودفيلو أن يتصرَّف كوكيلٍ له في مسألة شراء نسخة من الكتاب؛ رغم أن حدسي الداخلي كان يصرخ فيَّ بألَّا أفعل. ولكن ما نفع الاعتراض؟ أليس لديه ماله الخاص ويمكنه التصرُّف، إذا رفضتُ أنا؟ وبالمقابل استخلصتُ وعدًا من فيليب بأن يرتدَّ عن هذا التعميد الفاسد المؤذي.

وبما أنه كان في غاية الإثارة، بل كأنَّه مَسعورٌ من شدَّة الانفعال؛ فإني لا أثق بكلمته. وفي هذا الأمر أشعر بضعف الحيلة مِثل بحَّارٍ ضائع في وسط المحيط.

وأخيراً، في 16 سبتمبر:

وصلَ الكتاب اليوم، مع رسالة مقتضبة من جودفيلو يقول فيها إنه يرجو ألَّا يتعامل معي ثانيةً بعدَ اليوم. بلغت إثارة وفرحة "ف" بالكتاب درجةً غير طبيعية؛ لم يفعل إلَّا أن انتزع الكتاب من بين يديَّ. كان النص مكتوبًا بلغة لاتينية والحروف الرُّونية اللعينة، وكلاهما لا أفهم منهما شيئًا. بدا ذلك الشيء دافِئَ الملمس تقريبًا، بل كأنه ينبض بين يديَّ بذبذبةٍ ما كما لو أنه ينطوي بين غلافَيْه على قوَّةٍ هائلة. ذكَّرتُ "ف" بوعده لي بالارتداد فلم يزد إلَّا أن ضحك ضحكةً قبيحة مخبولة، ولوَّح أمامَ وجهي بذلك الكتاب، وهو يصيح مرارًا وتكرارًا: "بين أيدينا! بين أيدينا! الدودة! وسِرُّ الدودة!".

اختفى الآن، وقد ذهب مُسرِعًا، إلى مولاه المعتوه على ما أظن، ولم أره مرة أخرى في هذا اليوم.

لا مزيد من الكتابة في دفتر اليوميات، لكني توصَّلت إلى استنتاجات مُحدَّدة تبدو محتملة على الأقل. أوَّلًا، أنَّ هذا الكتاب كان سبب الشقاق بين الأخوين، كما قالت السيدة كلوريس؛ وثانيًا، أنه مصدر ومأوى التعويذة المدنَّسة الشيطانية، ربما تعود أصوله إلى الدرويد كهنة السِّلتيين (فإنَّ كثيراً مِن طقوسهم الدموية قد بقيت مكتوبةً على أيدي الرومان حينما غزوا بريطانيا بدعوى العِلم والمعرفة، وكثيرٌ مِن كتب الوصفات الجحيمية تلك محظورة ومحرَّمة في العالم كله)؛ وثالثًا، أنَّ بوون وفيليب كانا ينويان استخدام الكتاب لمقاصدهما الخاصة. ربما، وعلى نحوٍ ملتوٍ، كانت مقاصدهما طيبة، لكني لا أعتقد هذا، بل أعتقد أن مقاصدهما الطيبة تَبدَّدَت قبل وقتٍ طويل من تسليم روحيهما لتلك القوى مجهولة الوجه والاسم التي تقيم في ما وراء حدود هذا العالَم؛ تلك القوى التي قد تكون موجودة خارج نسيج الزمان نفسه. التدوينات الأخيرة في دفتر يوميات بوون تضفي

على تخميناتي تلك شيئًا طفيفًا مِن المصداقية، وسوف أدعها تتحدث عن نفسها:

26 أكتوبر 1789

سادت ضجَّةٌ هائلة في بلدة بريشرز كورنرز اليوم؛ الحدَّاد فراولي أمسكَ ذراعي وطالبَ بأن يعرف بالضبط "ما الذي يدبِّره أخي مع ذلك المسيخ المجنون بتلك الكنيسة هناك". يزعم الرجل الطيِّب راندال بأنَّ هناك إشارات في السماء عن كارثة عظمى وشيكة. وَلَدَت إحدى الأبقار عجلًا برأسين.

عَن نفسي، لا أدري ما هذا الشيء الوشيك؛ ربما هو فقدان أخي لعقله تمامًا. شابَ شعر رأسه وأصبح رماديًّا بين عشيةٍ وضحاها، أضحت عيناه كُرَتَيْن من الدم وانسحب منهما النور المبهج للعقل الراشد. يكشِّر فاتحًا فمه ويهمس بفحيحٍ غامض، وإن لم يكن في أرض چيروسالِم، بدأ يمكث، لسببٍ يخصُّه، في قبونا لا يكاد يبارحه.

طيور السُّبد الليلية المشؤومة تتجمَّع وتحيط بالمنزل وتجثم على العشب؛ ينبعث صياحها الموحَّد من الضباب، ويمتزج بصوت البحر مُشَكِّلين معًا صريرًا حادًّا يسرق النعاس من الأجفان.

27 أكتوبر 1789

تبعتُ أثر "ف" هذا المساء عندما غادرَ المنزل قاصدًا أرض چيروسالِم، واحتفظتُ بمسافة آمِنةٍ منه لأتجنَّب افتضاح أمر مراقبتي له. تلك الطيور الملعونة أخذت تتحرَّك عبرَ الغابات، مالِئةً الأجواء بنشيدها المهلك كأنه صوتُ مُرشدي الأرواح الذين يعبرون بالموتى إلى الدار الآخرة. لم أجرؤ على عبور الجسر؛ كانت البلدة كلها غارقة في الظلام، إلَّا الكنيسة، والمضاءة بوميضٍ أحمر مخيف بدا كأنه يحوِّل النوافذة العالية المدَبَّبة إلى عيون مفتوحة على قلب الجحيم. أخذَت الأصوات تعلو وتنخفض في ابتهالٍ موجَّه للشيطان، يتردَّد صداه، فكأنه

ضحكٌ تارةً، وكأنه بكاءٌ تارة أخرى. بدت الأرض ذاتها تعلو منتفخةً وتصدر أنينًا متوجِّعًا مِن تحت قدميَّ، كما لو كانت تنوء تحت ثقل رهيب، ولذتُ بالفرار، مذهولًا ومفعمًا بالرعب، والصراخ الجهنمي لطيور الشؤم تلك لا يزال يهدر في أذنيَّ بينما أركضُ عبر تلك الغابات التي مزَّقتها الظلال.

كل شيءٍ يمضي صوبَ الذروة الخطرة، والتي لا يمكن توقُّعها بَعد. لا أجرؤ على النوم خشية الأحلام التي قد تزروني، ورغم ذلك لا أجرؤ على البقاء ساهرًا خشية الأهوال الملعونة التي قد تزورني. الليل ممتلئ بأصواتٍ رهيبة وأنا يأكلني الخوف- ورغم ذلك أشعر بحافزٍ يحرِّضني على الذهاب إلى هناك مُجدَّدًا؛ لأشاهد، لأرى. يبدو الأمر كأنَّ فيليب نفسه هو مَن يدعوني، هو وذلك العجوز الهَرِم.

الطيور

كل شيء ملعون- ملعون- ملعون.

هُنا تنتهي يوميات روبرت بوون.

لكن لا بدَّ أنكَ، يا بونز، قد لاحظتَ أنه قرب الخاتمة يزعم أنَّ فيليب نفسه يبدو كأنه يدعوه ويناديه. وقد تشكَّل استنتاجي الأخير بناءً على تلك السطور، وعلى حديث السيدة كلوريس والآخرين، ومِن قبل أي شيءٍ آخَر بناء على تلك الهيئات المروِّعة التي ظهرت أمامنا في القبو، موتى لكنهم أحياء رغم ذلك. لقد حُكمَ على خطِّ سُلالَتِنا بالتعاسة والشؤم، ولم يزل الحُكم قائمًا يا بونز. ثمة لَعنة مُسلَّطة علينا تأبى أن تُدفَن وتتبدَّد؛ تعيش في الظلال الشنيعة لهذا المنزل وتلك البلدة. وقد أخذت الدائرة تدور من جديد وتضيق حلقتها نحو ذورتها المحتومة، وأنا آخِر مَن يحمل دم هذه العائلة. وأخشى أنَّ كيانًا ما على عِلمٍ هذا، وأنني صرتُ في مركز شيء فاسدٍ شرير، شيء

يفوق مسعاه قُدرةَ أيِّ عَقلٍ على الفهم. يحلُّ عيد جميع القديسين بعد أسبوعٍ مِن يومنا هذا.

كيف لي أن أواصل؟ لو أنك فقط كنتَ هنا لتنصحني، ولتساعدني! لو أنك فقط كنتَ هنا!

لا بدَّ أن أطَّلِع على كل شيء؛ لا بدَّ أن أعود إلى البلدة المهجورة المنبوذة من الجميع. ليكن الله في عوني!

تشارلز

***

(مِن دفتر يوميات كالڤن ماكان)

25 أكتوبر 1850

ظلَّ السيد بوون نائمًا طيلة اليوم. وجهه ممتقع شاحِبٌ وأشَدُّ هُزالًا. أخشى أنَّ نوبات الحُمَّى السابقة سوف تعاوده بلا شك.

بينما كنتُ أجدِّد الماء في الدورق المجاور لفراشه لمحتُ خطابين لم يُرسَلَا إلى السيد جرانسُن في فلوريدا. إنه يخطِّط للعودة إلى بلدة أرض چيروسالِم؛ إن تركتُه يفعل سيكون في هذا مقتله. وهَل أجرؤ على أن أتسلَّل خلسةً حتَّى بلدة بريشرز كورنرز وأستأجر عربة تجرُّها الخيول؟ هذا لزامٌ عليَّ، ولكن ماذا لو استيقظ؟ وماذا لو رجعتُ فوجدتُه قد ذهبَ إلى هناك؟

بدأ الضجيج ينبعث من داخل الجدران مرة أخرى. الحمد لله على أنه لم يَزَل نائمًا! إنَّ عقلي ليرتعد مِن مغزى تجدُّد الضجيج هذا.

في وقت تالٍ

حملتُ إليه عشاءه على صينية. إنه يُخطِّط للنهوض فيما بعد، وعلى الرغم مِن مُراوغته لي فإني أعلم ما يخطِّط لفعله بمجرَّد أن

أذهب إلى بريشرز كورنرز. ظلَّ معي في أمتعتي بعضٌ مِن المساحيق المنوِّمة التي وُصفَت له إبَّان فترة مرضه الأخيرة؛ وضعتُ له قرصًا مع الشاي فَشربه، على غير عِلمٍ منه. هو نائم الآن من جديد.

يرعبني مُجرَّد التفكير في أن أتركه هنا مع تلك الكائنات التي تجرجر نفسها وراء جدراننا؛ لكن يرعبني أكثر مِن هذا بكثير أن أدعه يمكث بداخل تلك الجدران ذاتها ولو حتَّى ليومٍ واحد آخر. أغلقت الأبواب بالمفاتيح قبل أن أذهب.

عسى الله أن يكتب له السلامة، فأجده عندما أعود بالعربة الصغيرة ما زال هناك آمنًا ناعسًا.

في وقتٍ تالٍ لما سَبَق

رجموني بالحجارة! رجموني كأنني كلب مسعور وهائج! الوحوش أولاد الأبالسة هؤلاء! يَدعونَ أنفسهم رجالًا! إننا سجينان هُنا- الطيور، طيور السُّبد الليلية، بدأت تجتمع وتجثم.

***

26 أكتوبر 1850

عزيزي بونز

أوشكَ أن يحلَّ الغَسَق، وقد استيقظتُ للتو، لقد نمتُ ما يقرب مِن أربع وعشرين ساعة نومًا متواصلًا. رغم أنَّ كال لم يَقُل شيئًا، لكني أشك أنه قد وضع لي مسحوقًا منوِّمًا في قدح الشاي، بعد أن خمَّن ما أنتويه. إنه صديق صالح ومُخلِص، ولا يقصد لي إلَّا كل الخير؛ ولذا لن أذكر هذا الأمر.

ورغم ذلك فما زلتُ مُصرًّا على قراري. غدًا هو اليوم المُنتظَر. إنني هادئ، عاقِدٌ العَزم، لكن يبدو أنني أشعر أيضًا بالحمَّى تتسلَّل

بخِفَّـة حتَّـى تطبـق علـيَّ مِـن جديـد. إن كان الأمـر كذلـك، فعلـيَّ أن أفعـل ذلـك غـدًا. وربمـا قـد تكـون هـذه الليلـة أفضـل مـع ذلـك، غـير أنـه لـن يدفعنـي أي شيء، ولا حتَّـى نـار جهنـم نفسـها، إلى وضـع قدمـي في تلـك القريـة وسـط ظـلالٍ تتحـرَّك مـع نـور مشـعلٍ أو قنديـل.

ربما لن يُقَدَّر لي أن أكتب المزيد، لبياركك الرَّبُّ ويحفظك، يا بونز.

تشارلز

ملحوظـة: مِـن جديـد اندلَعَـت صيحـات تلـك الطيـور، ومِـن جديـد أيضًـا عـادت تُسـمَع تلـك الأصـوات الرهيبـة للخرفشـة والخربطـة. يعتقـد كال أننـي لا أسـمع شـيئًا، بخـلاف الحقيقـة.

***

(مِن دفتر يوميَّات كالڤن ماكان)

27 أكتوبر 1850

لا سبيل لإقناعه بالمرَّة. لا بأس إذًا، سوف أذهب معه.

***

4 نوڤمبر 1850

عزيزي بونز

ضعيـف البـدن، لكـن صـافي الذهـن. لسـتُ واثقًـا مِـن صحَّـة تاريـخ اليـوم، غـير أن الرُّزنامـة بصورة مـدِّ المـوج وغـروب الشـمس تؤكِّـد لي أنـه لا بُـدَّ أن يكـون صحيحًـا. أجلـس إلى مكتبـي، حيـث جلسـتُ عندمـا كتبـتُ لـكَ أوَّل مـرة مـن شـابل ويـت، وأتطلَّـع للخـارج نحـو البحـر المظلـم الـذي تنسـحبُ مـن فـوق سـطحه بسرعـة آخِـرُ أذيـال الضـوء. منظـرٌ لـن

تقـع عليـه عينـاي مـرةً أخـرى. فالليلـة موعـدي؛ وأنـا تـاركٌ هـذا كلـه إلى الظـلال، لا يهمنـي عـلى أي صـورة سـتكون تلـك الظـلال.

عجبًـا لهـذا البحـر! وكيـف يطـرح نفسـه مرتميًـا عـلى الصخـور! إنـه يرمـي سـحبًا كثيفـة مِـن زبـد المـوج فتبـدو كأنهـا بيـارقُ مُرَفرِفـةٌ تحـت السـماء المسـوَدَّة، فترتعـدُ لذلـك أرضيـة المنـزل تحـت قدمـيَّ. أرى انعـكاس صـورتي عـلى زجـاج النافـذة، رجـلًا شـاحبًا مُصفـرًّا مثـل واحـدٍ مِـن جنـس مصَّـاصي الدمـاء. لم أتنـاول طعامًـا منـذ السـابع والعشريـن مِـن أكتوبـر، وربمـا حُرِمـتُ مِـن شرب المـاء أيضًـا لـولا أن كالڤـن قـد تـرك دورقَ المـاء إلى جانـب فـراشي في ذلـك اليـوم.

آه، يـا كال أيهـا المسـكين! لقـد انتهـى أمـره، يـا بونـز. لقـد ذهـب في مـكاني، مـكان هـذا المخلـوق التَّعِـس بذراعيـه النحيلتـين مثـل إبرتـين ووجـهٍ عَظمـيٍّ مثـل جمجمـة، هـذا المخلـوق الـذي أراه الآن منعكسًـا عـلى الزجـاج المسـودِّ أمامـي. ومـع ذلـك، فربمـا يكـون هـو الأفضـل حظًّـا؛ إذ لـن تطـارده بعـد الآن أيـة أحـلام مثـل تلـك التـي تطـاردني خـلال الأيـام الماضيـة- أشـكال ملتويـة تتربَّـص كامِنـةً في ممـرَّات الهذيـان الكابوسـية. إنَّ يـديَّ ترتعشـان حتَّـى في هـذه اللحظـة؛ فلوَّثَـت الصفحـة بالحـبر.

في ذلـك الصبـاح وأنـا عـلى وشـك أن أتسـلَّل خـارج المنـزل وقـف كالڤـن قُبالَتـي وواجَهَنـي- وقـد ظننـتُ أننـي كنـتُ شـديد المكـر والبراعـة. قبـل ذلـك كنـتُ قـد أخبرتُـه أننـي قـرَّرتُ أن علينا مغـادرة هـذا المـكان، وطلبتُ منـه أن يذهـب إلى بلـدة تدعـى تاندريـل عـلى مسـافة عـشرة أميـال فقـط، فهنـاك قـد نكـون أقـلَّ شـهرة وسـوء سُـمعة، ويمكنـه أن يسـتأجر عربـة بحصـان. وافـق عـلى أن يـؤدي هـذه المَهمَّـة سـيرًا، ورأيتُـه يغـادر مُتَّخِـذًا الطريـق المحـاذي للبحـر. بعـد أن اختفـى عـن نطـاق بـصري تمامًـا أسرعـتُ وأعـددتُ نفـسي للذهـاب، ارتديـتُ معطفًـا وتلفَّحـتُ بوشـاح (ذلـك لأنَّ الطقـس قـد صـار صقيعًـا؛ وكانـت أولى لمسـات الشـتاء الوشـيك

تدمغ نسيم ذلك الصباح القارس). لوَهلة عابِرَةٍ تمنَّيتُ لو أن لديَّ سلاحًا ناريًّا، ثم ضحكتُ مِن نفسي لسذاجة هذه الأمنية؛ فما نفعُ أي أسلحة نارية في أمرٍ كهذا؟

خرجتُ من ناحية غرفة الاحتفاظ بالمؤَن وتبريد اللحوم، وتوقَّفتُ لحظة لكي أتطلَّع إلى البحر والسماء لمرة أخيرة؛ ولكي أشعر برائحة الهواء النقي الطَّلق في مقابل ريح العَفَن والتَّفسُّخ التي أعلم أنني لا بدَّ أن أشمَّها بعد وقت قصير؛ ولكي أرى نورسًا يحوِّم تحت السحب مفتِّشًا عن طعام.

التفتُّ، وإذا بكالڤن ماكان واقفٌ أمامي.

قال: "لن تذهب وحدك"؛ وكان وجهه جادًّا مُتجهِّمًا كما لم أره من قبل قَطُّ.

شرعتُ أقول: "ولكن، يا كالڤن...".

"كلَّا، ولا كلمة واحدة! سنذهب معًا ونفعل ما يجب فعله، أو سأعيدك إلى المنزل ولو رغمًا عنك. أنتَ لست بخير حال. ولن تذهب بمفردك".

من المستحيل أن أصف العواطف المتنازعة التي غمرتني آنذاك؛ ارتباك، وإهانة، وامتنان- غير أنَّ العاطفة الأغلب كانت هي المَحبَّة.

اتَّخذنا طريقنا في صمت بجانب المنزل الصيفي والساعة الشمسية، وعلى امتداد المنحدر المغطَّى بالعشب، داخلين في الغابة. كان كل شيءٍ ساكِنًا سكونَ الموت؛ فَلا طائر يصيح ولا جُدجُد يصرُّ. بدا العالم مُلتفًّا بكامله في لفاحٍ من صمت. لم يكن هناك إلَّا رائحة المِلح الحاضرة أبدًا، ومِن بعيدٍ للغاية تهبُّ مسحة طفيفة من دخان حطب محترق. كانت الغابة فيضًا فاتنًا ومزَخرفًا مِن الألوان، لكن في عيني أنا، بدا كأنَّ اللون المسيطر عليها جميعًا هو الأحمر الدموي.

وسرعان ما تبدَّدَت رائحة الملح، وحلَّت أخرى محلَّها، أشدُّ شرًّا وشَناعةً؛ ذلك العفن الذي ذكرتُه. عندما بلغنا الجسر المائل والممتدَّ عبر نهر الرويال، توقَّعتُ مِن كال أن يطلب مني مرة أخرى أن أذعنَ لرأيه، لكنه لم يفعل. توقَّف لحظة، ونظر نحو ذلك البرج الكئيب الذي بدا كأنه يهزأ بالسماء الزرقاء أعلاه، ثم نظر نحوي، وواصلنا المسير.

سِرنا بخطوات سريعة وإن كانت مذعورة، متَّجِهَيْن صوب كنيسة جيمس بوون. كان الباب ما زال مواربًا منذ خروجنا الأخير، وبدت الظُّلمة بالداخل تُحدِّق إلينا عابِسةً. إذ صعدنا الدرج، شعرتُ كأنَّ قلبي يمتلئ بنحاسٍ بارد؛ ارتعشت يدي بينما ألمس مقبض الباب وأجذبه. كانت الرائحة بالداخل أبغَضَ وأخبَثَ مِن أي وقت سابق.

خطونا إلى غرفة الانتظار المظلَّلة، ودون أن نتلبَّث هناك، دخلنا إلى القاعة الرئيسية.

كانت حُطامًا وخرابًا.

لا بدَّ أنَّ شيئًا جبَّارًا فعلَ فِعله هناك حتَّى حلَّ بالمكان دمارٌ عظيم. انقلبت الآرائك الخشبية المثبتة في الأرضيات وتكوَّمت كأنها حِفنة عيدان ممَّا يتلاعب بها الأطفال. وصليبُ الشَّرِّ ذلك مُلقًى على الحائط الشرقي، وفي الجصِّ الذي يعلوه انفتحت ثغرةٌ مُثلَّمة شاهِدًا على مقدار القوة التي قُذف بها الصليب. انتُزِعَت المصابيح الزيتية مِن مواضعها، وامتزجت رائحة زيت الحوت بالنَّتَن الرهيب الذي سادَ البلدة بكاملها. وبامتداد الممرِّ الأوسط بين صفوف المقاعد، انشقَّ طريقٌ مِن صديد أسود ممتزج بعروقٍ دموية ملتفَّة في دوائر شريرة، كأنه طريق زفافٍ مروِّع فظيع، وتَبِعَته أعيُننا إلى أن رأينا منبر الوعظ- الشيء الوحيد الذي لم يُمَسَّ في محيط نظرنا. ومن فوق المنبر

حدَّقت إلينا عينان لامعتان، مِن وراء ذلك الكتاب المجدِّف، لجُثَّة حَمَلٍ ذَبيح.

همسَ كالقن: "ربَّاه!".

اقتربنا مِن المذبح، محاذِرَيْن لكيلا نطأ المادة اللَّزِجة على الأرض. ردَّدَت القاعة أصداء خطواتنا وبدت كأنها تُحوِّلها إلى صوت قهقهةٍ عملاقة.

صعدنا الدَّرَج معًا. لم يكن الحَمَلُ مُمزَّقًا أو مأكولًا؛ بل بدا كأنه قد عُصِرَ بشدَّة حتَّى أُرغمت الأوعية الدموية على التفصُّد والانفجار. كان الدم يلوِّث المِقرأ الخشبيَّ الحامل للكتاب في بِركٍ غليظة مُنتِنة، ويصل حتَّى قاعدته، ومع ذلك فقد كان السائل الواقع على الكتاب نفسه شفَّافًا، ومن الممكن رؤية الأحرف الرونية صعبة القراءة من خلاله كأنه مجرَّد زجاج ملوَّن!

سأل كال، في ثبات: "أيجب علينا أن نلمسه؟".

"نَعم. يجب عليَّ ذلك".

"ماذا ستفعل؟".

"ما كان لا بُدَّ مِنه منذ ستِّين عامًا مضت. سوف أدمِّر هذا الكتاب".

أَزَحنا جُثَّة الحَمَل بعيدًا عن الكتاب فتدحرجت ووقعت على الأرض منبطحة بصوت ارتطامٍ مخيف. بدت الآن الصفحات الملطَّخة بالدم كأنها حيَّة وتُشعُّ بوميضٍ أحمر فاقعٍ ينبعث من داخلها.

بدأتُ أسمعُ في أذنيَّ جلجلة أجراسٍ وطنينًا وهديرًا؛ كأنَّ إنشادًا خفيضًا ينبعث مِن الجدران ذاتها. أدركتُ مِن التعبير المشوَّه على وجه كال أنه سمعَ ما سمعتُ. اهتزَّت الأرض مِن تحتنا، كما لو أنَّ ذلك الشيطان الذي استولى على هذه الكنيسة قد أتى الآن إلينا

بنفسـه، ليَـذودَ عـن مُلْكـه. خُيِّـل لي أنَّ النسـيج السـليم للمـكان والزمـان قـد التـوى وتصـدَّع؛ بـدت الكنيسـة حافلـةً بأطيـافٍ وأضيئـت ببريـقٍ مـن جهنَّـم لنـيران بـاردة أبديَّـة. وخُيِّـل إليَّ أيضًـا أننـي رأيـتُ جيمـس بـوون، مسـخًا بَشِـعًا مشـوَّه الخِلقـة، يتوثَّـب حـول جُثَّـة مُـدَّدَت أرضًـا لامـرأةٍ مـا، ومـن خلفـه عـم أبي فيليـب، شـمَّاس معـاون في رداء كهنـوتي أسـود ذي غطـاء للـرأس، ويحمـل سـكِّينًا ووعـاءً.

'Deum vobiscum magna vermis'.

أخـذت الكلـمات المرتسـمة عـلى الصفحـة قُبالتـي تنتفـض وتتلـوَّى، وتتـشرَّب بـدَم الأضحيـة البشريـة، قربانًـا لمخلـوق يجرجـر نفسـه متثاقـلًا في موضـعٍ مـا وراء النجـوم- ورَعيَّتـه مجتمعـة أمامـه، أنـاسٌ بـلا أبصـار مُهجَّنـين وأبنـاء زنـا محـارم، وقـد أخـذوا يتمايلـون ويتأرجحـون في مديـحٍ شـيطاني غابـت فيـه العقـول؛ بوجـوهٍ تشـوَّهت وامتـلأت بلهفـةٍ جائعـة وترقُّـبٍ عَـصيٍّ عـلى الوصـف- وفجـأة اسـتبدلوا باللاتينيـة لسـانًا آخـر أقـدَمَ كثـيرًا، لسـانًا كان عتيقًـا حـين كانـت مِـصرُ لم تَـزل شـابَّةً وأهراماتهـا لم تُشـيَّد بَعـدُ، لسـانًا كان عتيقًـا في أوان الخلـق إذ الأرض مُعلَّقـة في كتلـة مِـن جَلَـد السـماء المشـوَّهة تغـلي بأبخـرة وغـازات خاويـة: ڤـچ

'Gyyagin vardar Yogsoggoth! Verminis! Gyyagin! Gyyagin! Gyyagin!'.

أخـذَ خشـبُ المنـبر ينشـقُّ وينفصـل بعضـه عـن بعـض، ويندفـع بقـوةٍ للأعـلى- صرخَ كالڤـن ورفـع ذراعًـا ليحمـي وجهـه. ارتعـدَ الـدرج في رَجَّـةٍ مُدلهمَّـة كأنـه سـفينة تتحطَّـم وسـطَ ريـحٍ صرصرٍ عاتيـة. اختطفـتُ الكتـاب بيـدي ورفعتـُه بعيـدًا عنـي؛ وأحسسـتُ بـه ممتلئًـا بسـخونة كأنهـا قلـب الشـمس وأحسسـتُ أننـي لا بـدَّ سـوف أحـترق ويعمـى بـصري.

صرخَ كالڤن: "اركض! اركض!".

لكننـي وقفـتُ متجمِّدًا في موضعـي، وذلـك الكيـانُ الدخيـل الآتي مِـن البعيـد تـسرَّب إليَّ وأخـذ يملـؤني وكأننـي وعـاء لـه، وعـاء ظـلَّ في انتظـاره لسـنوات- بـل لأجيـال!

وجدتُنـي أصيـح: "جيياجـين فـاردار! خَـادِم اليوجسـوجوث، الـذي لا يسـمَّى! الـدودة الآتيـة مـن وراء المـكان! آكلـةَ النجـوم! حاجبـةَ الزمـان! فيرمينيـز! الآن حانـت سـاعة المـلء والإشـباع، حـانَ وقـت التمـزُّق والهَتـك! فيرمينيـز! آليـاه! آليـاه! جيياجـين!".

دَفعنـي كالقـن فترنَّحـتُ، دارت الكنيسـة كلهـا أمـام عينـيَّ، وسـقطتُ عـلى الأرض. ارتطـم رأسي بحافَّـة أحـد المقاعـد المقلوبـة، وملَأَت رأسي نيران حمـراء، ومـع ذلـك فقـد بـدت كأنهـا تُطهِّـره وتُصفِّـي عقـلي.

مددتُ يدي أتلمَّس في الظلام ثِقابَ الكبريت التي أحضرتُها معي.

امتـلأ المـكانُ بـدَويٍ باطنـي كأنـه يصـدر مـن تحـت الأرض. تسـاقط الجَـصُّ. دوَّى صـوتُ الجـرس الصدئ في بـرج الكنيسـة بجلجلـة شـيطانية مختنقـة ذات ذبذبـة متجانِسـة.

اشـتعل عـود الثقـاب. لمسـتُ بـه الكتـاب في اللحظـة ذاتهـا التـي أخـذ فيهـا المنـبر كلـه يتفجَّـر للأعلى وتنشـقُّ أخشـابه مندفعـة في كل اتجـاه، وإذ اختفـى تكشَّـف مِـن تحتـه عـن فوَّهـة هائلـة سـوداء؛ ترنَّـح كال وسـقط فيهـا، لكنـه تَعلَّـق بحوافِّهـا بيديـه؛ تضخَّـم وجهـه في صرخـةٍ بـلا كلـمات سـوف أظـل أسـمعها في أذنيَّ إلى الأبـد.

وعندئـذٍ انبثـقَ جَيَشـانٌ هائـل الضخامـة مِـن جسَـدٍ لَحمـيٍّ رمـادي مُترَجـرِجٍ. أصبحـت الرائحـة فيضًـا كابوسـيًّا كاسـحًا. كأنَّ بركانًـا انفتـح وأخـذ يقـذف حممًـا مِـن مـادة هلاميـة دَبِقـة ومُتقيِّحـة وذات بثـور، شـكلٌ بشـع وكبـير كأنـه أخـذ يندفـع مـن الأسـفل للأعـلى بقـوةٍ شـديدة طالعًـا مِـن باطـن الأرض. ورغـم ذلـك، حلَّـت بي فجـأة لحظـة إدراك رهيـب، بمـا يتجـاوز عِلـم أي إنسـان؛ إذ أدركـتُ أنَّ ذلـك الـذي ظهـرَ كلـه ليـس إلَّا

دائـرة واحـدة صغـيرة للغايـة، قِطعـة صغـيرة للغايـة، مِـن وحـش دُودِيٍّ كان موجـودًا في حالـة عَـماء منـذ سـنوات في الظـلام المجـوَّف أسـفل تلـك الكنيسـة المقيتـة!

توهَّـج الكتـاب محترقًـا بـين يـديَّ، وبـدا الـشيء كأنـه يـصرخ بـلا صـوت مِـن فـوق. تلقـى كالقـن ضربـةً جانبيـة فانقـذف طائـرًا عـلى امتـداد الكنيسـة كأنـه مجـرَّد دُميـة هشَّـة مكسـورة الرقبـة.

خمـدَ- همـدَ ذلـك الـشيء وغـارَ عميقًـا، تـاركًا خلفـه هُـوَّة هائلـة محطَّمـة، يحيـط بهـا ذلـك القيـح والصديـد الأسـود، وصرخـة هائلـة، صـوت بـكاء خفيـض مكتـوم بـدا كأنـه يتقهقـر عـبر مسـافاتٍ كونيـة جبَّـارة، إلى أن تبـدَّد تمامًـا.

نظرتُ للأسفل. كان الكتاب رمادًا.

أخذتُ أضحك، ثم أعوي مثل حيوانٍ جريح.

غـادرني كل عَقـلٍ ورشـاد، فجلسـتُ عـلى الأرض والـدم ينـزف مـن صدغـي، أصرخ وأبربـر بـكلامٍ بـلا معنـى نحـو تلـك الظِّـلال المُدنَّسـة، بينـما كان كالقـن مُمـدَّدًا في الركـن القَـصيِّ، ناظـرًا نحـوي في ثبـاتٍ بعينـين لامعتـين ومصعوقتـين هَـولًا.

لا عِلـم لـديَّ بالمـرة كَـم مِـن الوقـت بقيـت عـلى تلـك الحـال؛ فذلـك أمـرٌ لا سـبيل لتحديـده. لكنـي بعـد أن عـدتُ إلى رُشـدي، كانـت الظِّـلال قـد رسـمت مسـاراتٍ طويلـة مـن حـولي، وجلسـتُ في الغسـق، وشـدَّت عينـيَّ حركـةٌ مـا، حركـةٌ صـادرة عـن الهُـوَّة المحطَّمـة في أرضيـة مجـاز الكنيسـة.

شقَّت يدٌ طريقها من بين ألواح الخشب المتشقِّقة.

اختنقـت ضحكتـي المخبولـة ووقفـت في حلقـي، وانصهـرت حالتـي الهيسـتيرية بكاملها في بـؤرة جمَّـدَت الـدَّمَ في عروقـي وأفقدتنـي الحِسَّ والشـعور.

في تباطـؤٍ انتقامـيٍّ رهيـب، بَـدَت هيئـة محطَّمـة تشـدُّ نفسـها للأعـلى مـن الظلـمات، وتطلَّعَـت نحـوي شـذرًا نصـفُ جمجمـةٍ، والخنافـس تزحف فـوق جبهتهـا التـي تسـاقط عنهـا الجِلـدُ واللحـم. في الفجوتـين المائلتـين لعظمَتَـيْ الترقـوة المتحلِّلَتـين تعلَّـق بقايـا رداءٍ رهبـانيٍّ تَحلَّـل نسـيجه. لم يبـق إلَّا العينـان تُشِـعَّان بوميـض أحمـر، مثـل حفرتـين مـن جنـون تحدِّقان إليَّ بنظـرة ناريـة مسـعورة تجاوَزَت كُلَّ حَـدٍّ؛ وتسـطعان بالحيـاة الخاويـة لـكل القِفـار والخرائـب غـير المطروقـة وراءَ حـواف هـذا العالَـم.

لقد أتى هذا الشيء لكي يجرَّني للأسفل نحو الظلام.

في هـذه اللحظـة فَـرَرتُ صارخًـا، تـاركًا جُثَّـة صديق عمـري مُهمَلَـةً بغير اعتنـاء ولا تكريـم في مـأوى الأهـوال ذلـك. جريـتُ حتَّـى كاد الهـواء ينفجر كالحِمـم البركانيـة في رئتـيَّ وعقـلي. جريـتُ حتَّـى بلغـتُ مـن جديـد هـذا المنـزل المسـكون والموصـوم بالشـؤم واللعنـات، ثـم غرفتـي، حيـث انهـرتُ تمامًـا وظللـتُ راقـدًا رقـادَ المـوتى إلى هـذا اليـوم. جريـتُ لأننـي حتَّـى في قلـب لوثتـي تلـك، وحتَّـى في تلـك الصـورة المحطَّمـة المنحطَّـة التـي ظهـر عليهـا ذلـك الشـكل الهالـك والمتمسِّـكُ بنـوعٍ مـن الحيـاة معًـا، حتَّـى وسـط ذلـك كلـه تعرَّفـت فيـه عـلى الشَّـبَه العائـلي. ومـع ذلـك، فلـم يكـن هـذا الشَّـبه يخـصُّ فيليـب ولا روبـرت، واللذيـن أعـرف قسـماتهما المعلَّقـة في جاليـري الصـور العائليـة المرسـومة بالطابـق العلـوي. كان ذلـك الوجـه المتفسِّـخ العَفِـن يَخـصُّ جيمـس بـوون، حـارس الـدودة!

لم يـزل حيًّـا، وإن لم يَعُـد شـخصًا؛ بـل شـيئًا، حيًّـا في موضـعٍ مـا مـن المتاهـات التَّحتيَّـة الملتفَّـة والتـي لا ينفـذ إليهـا الضـوء، تحـت بلـدة أرض

چيروسالِم وعزبة الشابل ويت- ذلك الشيء لم يزل حيًّا. وقد أحبطه وأعجزه احتراقُ الكتاب، ولكن هناك نسخٌ أخرى.

ومع ذلك فإنني أنا بوَّابته للوجود، وأنا آخِر مَن تبقى مِن نسل سلالة بوون. ومن أجل خير الإنسانية كلها لا بدَّ مِن مَوتي، ولا بدَّ مِن كسر حلقات تلك السلسلة اللعينة إلى الأبد.

سوف أذهب إلى البحر، يا بونز. رحلتي -شأنها شأن قصتي- بلغت نهايتها. لعلَّ الرب يكتب لك الراحة وينعم عليك بالسكينة والسلام.

تشارلز

***

وصلت الحكايات العجيبة المدوَّنة في تلك الأوراق أعلاه، في نهاية المطاف، إلى السيد إيڤريت جرانسُن، الذي كانت موجَّهة إليه في الأساس. افتُرِضَ أن حمَّى الدماغ اللعينة عاوَدَت السيد تشارلز بوون، وكانت قد أصابته أوَّل مرَّةٍ عقب وفاة زوجته عام 1848، فأفقدته هذه المرة عقله حتَّى دفعته إلى قتل مُرافِقه وصديق عمره السيد كالڤن ماكان.

أمَّا التدوينات الواردة في دفتر يوميات السيد ماكان فليست سوى تزويرٍ على درجة مُبهِرة من الإتقان، اقترفه من غير شكٍّ السيد تشارلز بوون نفسه، في جهدٍ منه لتعزيز أوهامه وضلالات جنونه الارتيابي.

ومع ذلك، فقد ثبتَ خطأ تشارلز بوون في نقطتين على الأقل. أولًا، عندما جرى "إعادة اكتشاف" بلدة أرض چيروسالِم (أستخدم هنا المصطلح بالمعنى التاريخي، بطبيعة الحال)، كان مجاز الكنيسة -رغم العَفَن والتحلُّل- سليمًا بلا أيَّة علامة على انفجار أو تَلَفٍ بهذه الضخامة. ورغم أنَّ المقاعد الخشبية العتيقة كانت مقلوبةً وبعض النوافذ مُحطَّمة، فمن الممكن أن يُعزى هذا إلى أفعال مُخرِّبين

أشـقياء مـن البلـدات المجـاورة عـلى مـدى السـنوات. ولم يـزل يَـسري بـين المعمَّريـن مـن سُـكَّان بلـدتَيْ بريـشرز كورنـرز وتاندريـل بعـض شـائعات تافهـة حـول بلـدة أرض چيروسالِم (ربَّمـا، عـلى أيـام تشـارلز بـوون، كانـت تلـك الأسـطورة الشـعبية البريئـة هـي الحافـز الـذي دفعَ عقلـه إلى مسـيره نحـو النهايـة المحتومـة)، غـير أنَّ هـذا الـكلام يبـدو غـير ذي صِلـةٍ بالأمـر تقريبًـا.

وثانيًـا، لم يَكُـن تشـارلز بـوون آخـر مَـن تبقَّـى مِـن نسـل هـذه العائلـة؛ لأن جـدَّه روبـرت بـوون قـد أنجـب ولديـن غـير شرعيَّيْن. مـات أحدهـما في طفولتـه، أمَّـا الآخَـر فقـد حمـل اسـم بـوون وعـاش وأقـام في مدينـة سـنترال فولـز، بولايـة رود آيلانـد. وأنـا آخِـر مَـن تبقَّـى مـن ذُرِّيَـة هـذا الفَـرع البعيـد مِـن عائلـة بـوون؛ أي أننـي أحـد أبنـاء عـم تشـارلز بـوون الثـاني، وقـد نُبِـذَ لثلاثـة أجيـال متواليـة. ظلَّـت تلـك الأوراق في حـوزتي لعشرة أعـوام، وإني أتيحهـا الآن للنـشر والذيـوع عـلى الملأ بمناسـبة اتِّخاذي مسـكنًا في منـزل أسـلافي مِـن آل بـوون، في عزبـة شـابل ويـت، مُتمنِّيًـا مِـن القـارئ أن يجـد في قلبـه بعـض التعاطُـف نحـو المسـكين تشـارلز بـوون، وروحـه التـي ضلَّـت السـبيل. ومـع ذلـك، يمكننـي أن أؤكِّـد أنَّ الرجـل كان مُحِقًّـا بشـأن مسـألة واحـدة فقـط: هـذا المـكان بحاجـة ماسَّـةٍ إلى خدمـات أحـد العاملـين في إبـادة القـوارض.

فـإذا مـا حكمـتُ بمـا أسـمع فقـط؛ لا بـدَّ أن تلـك الجـدران مسـكونة بفـئران ضخمـة الحجـم.

التوقيع: چيمس روبرت بوون- في 2 أكتوبر 1971.

وَرديَّة مُنتَصَف اللّيل

الجمعة، الثانية صباحًا.

كان هـول جالسًـا عـلى دكَّـة خشـبية بجانـب المصعـد، المـكان الوحيد في الطابـق الثالـث الـذي يمكـن فيـه لواحـدٍ مـن العُـمَّال أن يُدخِّـن سـيجارةً، عندمـا صعـد وورِك، ولم يَسـعَد هـول برؤيتـه، فَليـس مِـن المُفـترض أن يظهـر رئيـس العُـمَّال في الطابـق الثالـث خـلال ورديَّـة منتصـف الليـل؛ بـل مـن المفـترض أن يبقـى بالأسـفل في مكتبـه بالقبـو يصـبُّ لنفسـه فناجـين القهـوة مـن ذلـك القِـدر المنتصِـب في ركـن مكتبـه. وفـوق ذلـك، كان الجـو حـارًّا.

كان شـهر يونيـو هـذا هـو الأشـد حـرارةً الـذي مـرَّ ببلـدة جيتـس فولـز عـلى الإطـلاق، وكان الترمومـتر المُثبَّـت عـلى لـوح دعايـة شراب أورانـچ كـراش، والموجـود بجانـب المصعـد كذلـك بلـغَ ذات مـرَّة درجـة 94 فهرنهايـت (حـوالي 35 سيليزيَّة) في الثالثـة صباحًـا، فـلا يعلـم إلَّا اللـه

إلى أيِّ حفرة من جهنَّم يتحوَّل هذا المصنع في وردية بعد الظهر من الثالثة للحادية عشرة.

كان هول يعمل على ماكينة حَلْج تيل القطن الخام وتمشيطه، وهي آلة غير سهلة المراس كانت قد صنعتها شركة، توقَّف نشاطها الآن، في كليفلاند عام 1934. إنه يعمل هنا منذ شهر أبريل فقط؛ ما يعني أنه ما زال يجني أجر الحَدِّ الأدنى، وهو 1.78 دولارًا في الساعة، ولا يجد مشكلة في هذا. لا زوجة، ولا صديقة مستقرَّة، ولا نفقات مُلزِمة تجاه أي إنسان. كان ينتقل من مكان إلى آخر بلا ثبات، وخلال السنوات الثلاث الماضية فقط واصل الانتقال، بالتطفُّل على أي سيارة مارَّةٍ على الطريق السريع، مِن بيركلي (طالب في إحدى الكليات)، إلى بحيرة تاهو (مساعد نادل)، إلى جالفستون (عامل شحن وتفريغ سُفُن)، إلى ميامي (طاهي وجبات سريعة) إلى ويلينج (سائق تاكسي وغاسل صحون)، وصولًا إلى بلدة جيتس فولز في ولاية مين (مُشغِّل ماكينة سَحب وتمشيط القطن). لم يكُن يفكر في الانتقال مجدَّدًا حتَّى موسم سقوط الجليد. كان مَيَّالًا للعُزلة والانفراد بنفسه؛ ولذا أحبَّ تلك الساعات ما بين الحادية عشرة والسابعة صباحًا حيث تكون الدماء المتدفقة في أوردة المصنع في أهدأ حالاتها، فضلًا عن درجة الحرارة.

كانت الفئران هي الشيء الوحيد الذي لم يحبه.

كان الطابق الثالث ممتدًّا ومهجورًا، غير مُضاء إلَّا بوميض النيون يتقطَّع ويُطَقطِق. وعلى عكس طوابق المصنع الأخرى، كان ساكنًا وشاغرًا مُقارنةً بها- أو على الأقل شاغرًا مِن البشر. كانت الفئران مسألةً أخرى. الماكينة الوحيدة في الطابق الثالث هي المحلج؛ وبقية المكان مخصَّص لتخزين أجولة الخام بوزن تسعين رطلًا للجوال، هذا الخام الذي سوف تبتلعه ماكينة هول الطويلة بتروسها المُسنَّنة ليُفرَز

ويُحلَج. كانت أجولة الخام مكوَّمةً في صفوفٍ طويلة، مثل سلاسل من قطع السجق المترابطة. كان بعضها قديمًا ومتروكًا هناك منذ سنوات وصارَ رماديًّا من القذارة والمخلَّفات الصناعية (خصوصًا الأنواع التي ليس عليها طلب مثل الملتون المفكَّك والشرائح المتفاوتة). وجدت الفئران فيها أماكِنَ مثالية للاختباء والعيش، مخلوقات ضخمة ذات بطون سمينة، وأعيُن سريعة الحركة، وأجسامٍ تحفل بالقمل والحشرات الصغيرة.

اكتسبَ هول عادةَ جمع زخيرة صغيرة مِن عُلب المشروبات الغازية من برميل القمامة في أثناء استراحته. وعندما يكون إيقاع العمل هادئًا يسدِّدها نحو الفئران، ثم يستعيدها بعد ذلك عندما يُتاح له الوقت. في هذه المرة فقط ضبطه رئيسُ العُمَّال، حينما صعد الدَّرج مُتسلِّلًا بهدوء، بدلًا من أن يستخدم المصعد؛ وذلك لأنه ابن كلب حقير كما يقول عنه الجميع.

"ماذا تفعل يا هول؟".

"الفئران"، قال هول، ثم أدركَ كم يبدو هذا كلامًا واهيًا الآن وقد تراجَعَت جميع الفئران واستكانت بأمانٍ من جديد في جحورها. "أرميها بعُلَب الصفيح كُلما رأيتُها".

حرَّك ووروِك رأسه في إيماءة بسرعة. كان رجلًا ضخمًا ممتلئًا، شَعره قصيرٌ للغاية من الجانبين على طريقة البحَّارة، قميصه مشمور الكُمَّيْن ورباط عنقه مَحلولٌ ومُرتخٍ للأسفل. نظر إلى هول محدِّقًا: "أنت لا تقبض مرتَّبًا لكي تقذف علب الصفيح على الفئران، يا حضرة. حتَّى ولو التقطتَ العُلَب مرَّةً أخرى".

أجابه هول: "لم يُرسِل لي هاري أمر تشغيل منذ ثلث ساعة"، وفكَّر في نفسه: "لِمَ لا تبقى محطوطًا في مكانك وتشرب قهوتك وخلاص؟". أكمل قائلًا له: "لا يمكنني أن ألقم المحلج شيئًا بلا أمر تشغيل".

أومأ ووروِك برأسه كما لو كان الموضوع لم يَعُد يثير اهتمامه.

قال: "ربما سأصعدُ لأرى ويسكونسي".

"لا شكَّ أنه يُطالِع مجلَّةً بينما تتكوَّم الفضلات في صناديقه".

لم يَقُل هول شيئًا.

أشارَ ووروِك فجأة: "هناك فأر! اضربه ابن الحرام!".

صوَّب هول عُلبة مشروب نيهي التي كان يُمسكها بحركة يَدٍ سريعة من فوق كتفه فأطلقت صفيرًا. كان الفأر يراقبه من فوق أحد أجولة الخام بعينين برَّاقتَيْن ومستديرتين مثل الخرطوش، فلاذ سريعًا بالفرار وهو يطلق صريرًا خافتًا. ألقى ووروِك رأسه للوراء وأخذ يضحك بينما ذهب هول ليجلب العلبة.

قال ووروِك: "أتيتُ لأراكَ بشأن موضوع آخَر".

"وما هو؟".

أجابه: "الأسبوع القادم هو أسبوع الرابع من يوليو"، فأومأ هول، كان يعلم أنَّ المصنع سوف يغلق أبوابه من الاثنين للسبت- أسبوع إجازة مدفوعة للرجال المثبَّتين في وظائفهم منذ عامٍ واحد على الأقل، أمَّا مَن اشتغلوا أقلَّ من عام فسوف يُصرفَون بلا أجر. "أتريد أن تعمل خلاله؟".

هزَّ هول منكبيه بلا اكتراث، وقال: "أعمل ماذا؟".

"سوف نُجري عملية تنظيف لطابق القبو بالكامل. لم يلمسه أحدٌ منذ اثني عشر عامًا. فوضى ودمار رهيبان. سوف نستخدم خراطيم".

"من المؤكَّد أن لجنة البلدية صدَّعت رؤوس مجلس الإدارة، صحيح؟".

وجَّـه وورِوك نظـرة ثابتـة لعينَـيْ هـول. "أتريـد العمـل أم لا؟ دولاران في السـاعة، وضِعـف هـذا في يـوم العيـد نفسـه. سـوف نشـتغل ورديَّـة منتصـف الليـل لأن الجـوَّ سـيكون ألطـف".

حَسَـبها بسرعـة. يمكنـه أن يجنـي حـوالي خمسـة وسـبعين دولارًا بعـد خصـم الضريبـة. أفضـل مِـن لا شيء.

"موافق".

"كُنْ موجودًا بالأسفل جنبَ المصبغة يوم الاثنين القادم".

راقبـه هـول وهـو يـشرع في الرجـوع نحـو الـدَّرج. توقَّـف وورِوك للحظـة في منتصـف الطريـق واسـتدار ناظـرًا نحـو هـول، وسـأله: "أنـت كنـتَ طالـبَ جامعـة، صحيـح؟".

أومأ هول مؤيدًا.

"أوكي يا حضرة الطالب الجامعي، سوف أتذكَّر هذه المعلومة".

ذهـب، فجلـسَ هـول وأشـعلَ سـيجارة أخـرى، ممسـكًا علبـة صـودا بإحـدى يديـه ومترقِّبًـا ظهـور الفـئران. يسـتطيع أن يتخيَّـل مـاذا سـيكون عليـه الحـال في القبـو- والحقيقـة أنـه قبـوٌ فَرعـيٌّ، طابـق كامـل أسـفل المصبغـة. رَطـب، مُظلـم، ممتلـئ بالعناكـب وقطـع الأقمشـة المتحلِّلـة والرَّشح مـن النهـر- وطبعًـا الفـئران. وربمـا حتَّـى خفافيـش، الفـرع الطائـر مِـن عائلـة القـوارض. قَـرف.

قـذفَ العُلبـة بقـوة، ثـم ارتسـمت عـلى وجهـه ابتسـامة خفيفـة عندمـا تناهـى إليـه صـوتٌ واهٍ عـبر القنـوات الواهيـة في السـقف، وتبـيَّن أنـه صـوت وورِوك يُرَنِّـم ويقسِّـم في عبـارات التوبيـخ والتهديـد عـلى مسـمع هـاري ويسكونسـكي.

أوكي يا حضرة الطالب الجامعي، سوف أتذكَّر هذه المعلومة.

تلاشت ابتسامته بسرعةٍ وبلا مُقدِّمات، فَدعسَ عقب سيجارته. ما هي إلَّا لحظات بعد ذلك وبدأ ويسكونسكي يرسل له خام النايلون عبر الأنابيب الهوائية، فقامَ هول إلى العمل. بعد بُرهة خرجت الفئران من جديد واستقرَّت فوق الأجولة في خلفية الغرفة الطويلة وهي تراقبه بأعينها السوداء التي لا تطرف ولا ترفُّ، فَبَدَت كأنها مجموعة من المحلَّفين أو قضاة على وشك إصدار حُكمٍ ما.

***

الاثنين، الحادية عشر مساءً.

كان هناك حوالي ستة وثلاثين رجُلًا يجلسون هنا وهناك، عندما دخل وورِوك مُرتديًا سروالًا من الچينز، وقد دسَّ طرفيه في داخل حذاء مطَّاطي عالي الرقبة. كان هول يستمع إلى هاري ويسكونسكي، الذي كان بالِغ البدانة، وبالِغ الكسل، وبالِغ الكآبة.

كان ويسكونسكي يقول عند دخول رئيس العُمَّال: "ستكون ليلةً سوداء، انتظروا وسوف ترون، سوف نرجع جميعًا إلى بيوتنا ونحن أَسْود من الليل الغطيس".

قال وورِوك: "أوكي! مَددنا أسلاكًا للأسفل ووصَّلنا سِتِّين مصباح كهرباء صغيرًا، وهكذا لا بُدَّ أن تكون إضاءة كافيةً لِترَوا ما تفعلون. أنتم..."، وأشارَ إلى حفنة رجال مستندين إلى أسطوانات المجفِّف- "أريد منكم أن تُثبِّتوا هذه الخراطيم التي هناك بمضخِّ الماء الرئيسيِّ بجانب بئر السُّلَّم. يمكنكم أن تمدُّوا الخراطيم نزولًا عبر الدَّرَج. لدينا خرطوم طوله حوالي ثمانين ياردة لكل رَجُل، لا بدَّ أن هذا فيه الكفاية. لا تتظارفوا فَيرشَّ بعضكُم بعضًا بالماء، فمَن سيتعرَّض للمياه سيُرسَل للمستشفى فورًا؛ فالماء يندفع منها بمنتهى الشدَّة".

تنبَّأ ويسكونسكي في تجهُّم ونَكَد: "سوف يتأذَّى شخصٌ ما. انتظروا وسوف ترون".

"أمَّا أنتم"، قالَ وورِوك وهو يشير إلى المجموعة التي كان من بين أفرادها هول وويسكونسكي. "أنتم فريق الفَضَلات الليلة. ستعملون في ثنائيَّات، وكل فريق معه عربة كهربية صغيرة لنقل الأشياء. سوف تجدون أثاثًا مكتبيًّا قديمًا، وأجولة قماش، وتلالًا صغيرة من مُعدَّات وآلات مكسَّرة وعطلانة، وكل ما تتخيَّلونه. سوف تكوِّمون ذلك كله إلى جانب برج التَّهوية في الطرف الغربي. هل يوجد مِن بينكم أي شخص لا يعرف كيف يدير عربة كهربية؟".

لم يرفع أحدهم يده. كانت العربات الكهربائية أداةً نافعة، تتحرَّك بالبطاريات، وصغيرة الحجم كأنها شاحنات قمامة ولكن مُنَمنَمَة. بعد الاستعمال المتواصل، كانت تنبعث منها رائحة نتانة مقزِّزة ذكَّرت هول بأسلاك كهربية محترقة.

قال وورِوك: "تمام، قسَّمنا منطقة القبو لأقسام مختلفة، وسوف ننتهي منها بحلول الخميس. ويوم الجمعة سوف نرفع القمامة والفضلات بالونش. أي أسئلة؟".

لم يكن هناك أي أسئلة. تمعَّن هول في وجه رئيس العمل، وانتابه فجأة هاجسٌ كأنه نذير بشيءٍ غريب سيقعُ له قريبًا. وسرَّته الفكرة، فهو لم يكن يميل لهذا الوورِوك كثيرًا.

صاح وورِوك: "ممتاز، إلى العمل".

***

الثلاثاء، الثانية بعد منتصف الليل.

ظلَّ هول يستمع إلى ثرثرة ويسكونسكي المتواصلة وجأره بالشكوى الحافلة بالسبِّ والتجديف حتَّى طفح به الكيل وشعرَ بسأم شديد. تساءل في نفسه هل سيكون مِن المجدي لو أحضرَ سوطًا وجلدَ ويسكونسكي. لكنه شكَّ في جدوى هذا، فَلن يفيد إلَّا أن يمنحه سببًا آخر للشكوى والتذمُّر.

كان هول يعلم مِن قبل أنَّ هذه المهمة ستكون سيِّئة، لكن هذا كان قتلًا مُتعمَّدًا. على سبيل المثال، لم يتوقَّع مِثل تلك الرائحة. الزَّخَم الملوَّث المنبعث من النهر، والممتزج بفَوح نسيج متفسِّخ، وأحجار بناء تعفَّنت، ومادة نباتية متحلِّلة. اكتشفَ هول في الركن القصي، حيث بدآ العَمل، وجودَ مُستعمرة مِن فِطر الغاريقون السام، فِطر أبيض كبير الحجم يشقُّ طريقه صعودًا خلال الإسمنت المحطَّم. وقد مسَّت يداه هذا الفِطر وهو يجذب ويرفع عجلة تروس مسنَّنة صَدِئة، وشعرَ حين لمسه بدفء وانتفاخ غريبين، كأنه لحم رجلٍ مصابٍ بداء الاستسقاء.

عجزت المصابيح الكهربائية الصغيرة عن طَرد ظُلمَة اثنتي عشرة سنة؛ لم يسعها إلَّا أن تدفعها للوراء قليلًا وترمي ضوءًا شاحبًا كالمرض على كامل مشهد الفوضى. بدا المكان أقرب إلى صحن مهدَّم لكنيسة مستباحة ومدنَّسة، بسقفه المرتفع وتلك المعدَّات والآلات المهمَلة المستغنى عنها التي تشبه هياكل الماموث المنقرض، والتي لن يكون بوسعهم تحريكها أبدًا، والجدران المبلَّلة تنتشر عليها رُقَعٌ من طحالب صفراء، وتلك الجوقة النشاز المزعجة للمياه المندفعة في الخراطيم، تجري في شبكة مجارٍ نصف مسدودة تصبُّ أخيرًا في النهر أسفل الشلالات.

ثم الفئران- فئران ضخمة جعلت تلك التي ظهرت في الطابق الثالث تبدو مثل أقزام. ويعلم الله وحده ماذا كانوا يأكلون هُنا.

كانـوا باسـتمرارٍ يَقلِبـون الألـواح والأجولـة فيكتشـفون وجـود جحـورٍ ضخمـة مـن ورق صحـف ممـزَّق، فيشـاهدون في اشـمئزازٍ مـوروثٍ عَـبرَ أسلافهم الأوائـل تلـك الفـئران الأقـرب لحجـم الجِـراء وهـي تلـوذ بالهـرب في الشـقوق والصـدوع والزوايـا، بأعينهـا الضخمـة العميـاء مـن طـول المكـوث في ظـلام متَّصِـل.

قـال ويسكونسـكي: "لنتوقَّـفْ ونُدخِّـنْ سـيجارة"، بـدا لاهـث الأنفـاس، ولم يـدرِ هُـول لذلـك سـببًا؛ فقـد ظـلَّ يتظاهـر بالعمـل طـوال الليـل. ومـع ذلـك، فالوقـت وقـت سـيجارة فعـلًا، وكانـا الآن بعيـدًا عـن نظـر أي شـخصٍ آخَـر.

"ماشي". واستندَ على حافة العربة الكهربائية وأشعلَ واحدة.

قـال ويسكونسـكي في هَـمٍّ وغَـمٍّ: "مـا كان يجـب علـيَّ أن أدع وورِك يجـرُّني إلى هـذه المَهمَّـة. ليـس هـذا عمـلًا يليـق برجـل. لكنـه كان مجنونًـا بالغضـب مِنـي في تلـك الليلـة حينـما ضبطني أسـتريحُ في المرحـاض وسروالي عـلى وسـطي غـير مفكـوكٍ ولا شيء، كان مجنونًـا مِنِّـي".

لم يَقُـل هـول شـيئًا. كان يفكـر في وورِك، وفي الفـئران. أمـرٌ غريـب، كيـف بـدا كلاهـما لـه مربوطـين معًـا. بـدا كأنَّ الفـئران قـد نسـيت كل شيء بخصـوص وجـود البـشر، خـلال إقامتهـا الطويلـة تحـت المصنـع؛ كانـت جريئـة حـدَّ الوقاحـة، وبالـكاد تخـافُ عـلى الإطـلاق. وقـف واحـدٌ منهـم عـلى سـاقيه الخلفيتـين كـما تفعـل السـناجب وانتظـرَ حتَّـى أصبـحَ هـول قريبًـا منـه مسـافة ركلـة، وعندئـذٍ ألقـى بنفسـه عـلى حذائـه العـالي الرقبة وجعـلَ يقـرض الجلـد. مئـات مـن ذلـك الصنـف، ربمـا آلاف.

تسـاءلَ كـم نـوعٍ مـن الأمـراض كانـت تحملهـا معهـا هنـا وهنـاك في هـذه البالوعـة. ثُـمَّ وورِك. شيءٌ مـا فيـه...

قـال ويسكونسـكي: "أنـا بحاجـة للـمال، ولكـن بحـقِّ يسـوع المسـيح، يـا زميـلي، ليـس هـذا عمـلًا يليـق برجـل! وتلـك الفـئران". أجـالَ بـصره حولـه

مُترَعًا بالخوف. "إنها تبدو وكأنها تفكِّر تقريبًا. عمرك سألت نفسك ماذا سيكون الحال لو كُنَّا نحنُ صغارَ الحجم وكانوا هُم كبارَ الحجم ثم..."، فقاطعه هول: "يااااه، تعرف تخرس؟".

نظر ويسكونسكي نحوه، مجروحَ الشعور. "أَصْل...، آسف، يا زميلي. كل ما هنالك..."، وانخفض صوته حتَّى سكت تمامًا. ثم صاحَ: "يا يسوع! هذا المكان تعفَّن! و ليس هذا عملًا يليق برجل!"، زحفَ عنكبوت من على حافة العربة وتسلَّق ذراعه. نتره بعيدًا عنه بصوت تَقَزُّز مُختَنِق.

قالَ هول وهو يشدُّ نَفَسًا من سيجارته: "هيا بنا، كلَّما أسرعنا انتهينا في وقت أقرب".

"أظنُّ ذلك"، قال ويسكونسكي في بؤس. "أظن ذلك".

***

الثلاثاء، الواحدة بعد منتصف الليل. وقت الطعام.

جلسَ هول وويسكونسكي مع ثلاثة أو أربعة رجال آخرين، يأكلون ساندوتشاتهم بأيدٍ مسودَّة لا يمكن أن يزيل الأوساخَ عنها ولا حتَّى أقوى المنظِّفات الصناعية. أكلَ هول وهو ينظر نحو المكتب الزجاجي الصغير لرئيس العمَّال. كان وورِك يشرب قهوة ويأكل ساندوتشات هامبرجر باردة بتلذُّذٍ كبير.

قال تشارلي بروشو: "اضطرَّ راي أبسون أن يعود لبيته".

سأله أحدهم: "هل تقيَّأ؟ لقد أوشكت أن أموت".

"أبدًا. راي هذا لن يتقيَّأ إلَّا إذا أكلَ روث البقر. لكن عضَّه فأر". تطلَّع هول بجدِّيَّة، راجعًا ببصره مِن تفحُّص وورِك. سأل: "صحيح ذلك؟".

"صحيح بجد". قال بروشو وهو يهزُّ رأسه. "أنا كنت في نفس الفريق معه. هذا ألعن شيء رأيته في حياتي. قفز طالعًا مِن فجوة في واحد من أجولة القماش القديمة تلك. كان كبيرًا في حجم قطَّة على الأقل. تشبَّث بِيَدِ المسكين وأخذَ يمضغ".

"يا يسوع!"، هتف أحدُ الرجال، بدا مستجَدًّا عديمَ الخبرة.

فقالَ بروشو: "صحيح بجد. صرخ راي مثل النساء، ولا لومَ عليه. ونزف الدم منه كأنه خنزير مذبوح. فهل اكتفى منه ذلك الشيء وذهب عنه؟ أبدًا يا سيدي. واضطررت أن أضربه بخشبةٍ ثلاثَ أو أربع مرات حتَّى وقعَ على الأرض. كان راي على وشك الجنون. داس عليه وسحقه بقدميه إلى أن لم يَعُد إلَّا كومَةَ فَروٍ. ألعن شيء رأيته في حياتي. وضع وورِوك ضِمادة عليه وأرسله لبيته. وأخبره بأن يذهب ليرى طبيبًا صباح الغد".

قالَ أحدُهم: "كان ذلك الملعون كبيرًا حقًّا".

وَكَما لو أنَّ وورِوك قد سمعَ حديثهم، فقد نهضَ واقفًا في مكتبه، وتمطَّى، وأتى لدى الباب. "وقت العودة للعمل".

نهض الرجال مُتثاقِلين، وببطء بقدر الإمكان حتَّى يتسنَّى لهم إنهاء طعامهم وتغليف طعام عشائهم، وأخذ عُلب مشروبات باردة أو شراء قطع حلوى. ثم أخذوا ينزلون، وكعوبهم تُقعقِع بانقباضٍ وتَخاذُلٍ على درجات السُّلَّم الحديدية المشغولة من قضبان متقاطِعَة.

مرَّ وورِوك بهول، ربت على كتفه. "كيف الحال يا حضرة طالب الجامعة؟" لم ينتظر منه جوابًا.

"هيَّا بنا"، قال هول في نفاد صبر لويسكونسكي الذي كان يعقد رباط حذائه. ثم نزلا السُّلَّم.

***

الثلاثاء، السابعة صباحًا.

خرجَ هول وويسكونسكي مِن العمل وسارا معًا؛ بدا لهُول وكأنَّ هذا البولندي البدين طلعَ له في البخت أو ورثه بطريقةٍ ما. كان ويسكونسكي قذرًا ولكن بطريقةٍ كوميدية تقريبًا، وجهه البدين المستدير كان ملطَّخًا وكأنه وجه صبي صغير أمسكه متنمِّرُ البلدة منذ قليل وأوسعه ضربًا وركلًا.

لم يَصدُر عن الرجال الآخرين أيٌّ مِن المشاكسات الخشنة المعتادة ولا شَدُّ أطراف قمصان بعضهم لبعض، ولا نكات خبيثة حول زوجة توني ويا تُرى مَن ذا الذي كان يدفئها في برد الليل ما بين الواحدة للرابعة فجرًا. لا شيء غير الصمت وبين حين وآخر صوت أحدهم يتنخَّم ويبصق فوق الأرضية القذرة.

سأله ويسكونسكي في تردُّد: "تحب أوصلكَ معي؟".

"شكرًا".

لم يتكلَّما بينما يسيران صُعدًا في شارع المصنع ويعبران الجسر، ولم يتبادلا سوى كلمة موجزة عندما أنزله ويسكونسكي من السيارة أمام شقته.

اتجه مباشرةً إلى الحمَّام ليغتسل، وهو ما زال مشغولًا بووروك، ويحاول أن يحدِّد ما الذي يجعله مشغولًا برئيس العمَّال هكذا، بل وجعله يشعر بأنهما أصبحا مرتبطين معًا على نحوٍ ما.

نام بمجرَّد أن وضع رأسه على المخدَّة، ولكنه كان نومًا متقطعًا ومُضطربًا: رأى في منامه فئرانًا.

***

الأربعاء، الواحدة صباحًا.

كانت مَهمَّة العَمل بالخراطيم هي الأفضل.

لم يستطيعا الدخول حتَّى أنهى فريق إزالة الفضلات قسمًا ما، وكثيرًا ما انتهيا مِن رشِّ المياه بالخرطوم قبل الانتهاء مِن تنظيف القسم التالي- وهو ما كان يعني وقتًا لتدخين سيجارة. أمسكَ هول فُوَّهة أحد الخراطيم الطويلة وأخذ ويسكونسكي يروح ويجيء للأمام والوراء وهو يفكُّ أي التفافات أو عُقَدٍ بامتداد الخرطوم، ويفتح محبس المياه أو يغلقه، ويزيل العوائق والعراقيل في طريقهما.

كان وورِوك منفعلًا وغاضبًا لأنَّ العمل يتقدَّم ببطء بالغ، وبهذه الوتيرة لن ينتهوا بالمرة بحلول يوم الخميس.

كانوا الآن يعملون على كومة مرتبكة ومختلطة من أثاث مكتبي ينتمي للقرن التاسع عشر تكوَّم في أحد الأركان: مناضد كتابة محطَّمة، سجلَّات مُتحلِّلة، ورُزَم من الفواتير، مقاعد تكسرت أجزاء الجلوس فيها- وكانت تلك الكومة جنَّةً للفئران. أطلق العشرات منهم صريرًا حادًّا وركضت عبر ممرَّاتٍ مُظلِمة ومجنونة نُخِرَت في الكومة، وبعد أن عضَّت الفئران رَجُلَين رفضَ الآخرون العمل حتَّى يُرسل وورِوك أحدهم إلى الأعلى ليحضرَ قفَّازات مطَّاطية ثقيلة، مِن النوع الذي يُحفَظ غالبًا لفريق العمل في المصبغة لأنه يتحتَّم عليهم التعامُل مع الأحماض الكاوية.

كان هول وويسكونسكي منتظرين للدخول بخراطيمهما عندما اندفعَ رجلٌ متقهقرًا، ثخين الرقبة كالثور وبشعرٍ أشقر فاتح ويُدعَى كارمايكل، وهو يعوي ويصيح باللعنات، ويلطم صدره بيدين مختبئتين في قُفَّازين.

فأرٌ ضخم بفراء فيه خطوط رمادية وعينين قبيحتين براقتين، كان قد عضَّه من قميصه وتعلَّق هناك، يطلق صريرًا ويرفس بطن كارمايكل

بقدميه الخلفيتين، إلى أن استطاع كارمايكل أخيرًا أن يطرحه بعيدًا عنه بقبضته، لكن كانت هناك فجوة كبيرة في قميصه، وخيط دمٍ رفيع ينزُّ من فوق إحدى حلمتي صدره. تلاشى الغضب من وجهه، واستدارَ عن الآخرين وهو يغالبُ القيء.

وجَّه هول الخرطوم على الفأر، الذي كان عجوزًا وبطيء الحركة، ولم تزل بين فكَّيه مِزقَةٌ من قميص كارمايكل. ضغط الماء الهادر أبعده للوراء عند الجدار، حيث انسحقَ هامدًا.

أتى ووروِك وعلى شفتيه رسمَ ابتسامة غريبة مصطنعة. ربَّت على كتف هول. "أليس هذا المنظر أحسن مِن إلقاء عُلب الصفيح على الملاعين الصغار، هه يا فتى الجامعة؟".

فقال ويسكونسكي: "يا له من ملعون صغير، إنه بطول قَدم".

قال ووروِك مُشيرًا نحو كومة الأثاث: "وجِّه ذلك الخرطوم هناك. وأنتم أفسحوا الطريق!".

غمغم أحدهم: "بكل سرور".

توجَّه كارمايكل إلى ووروِك في تحفُّز، بوجهٍ ملتوٍ يبدو عليه الغثيان: "سوف أطالب بتعويضٍ عن هذا! وسوفَ..."،

فقاطعه ووروِك مبتسمًا: "طبعًا، طبعًا، عضَّك الشرير في الحَلَمة. ابعد عن طريق الخرطوم قبل أن يهرسك هذا الماء ويلصقك في الجدار".

وَجَّه هول فوَّهة الخرطوم وتركَ الماء يضرب بانفجارٍ أبيض من الرشاش، محطِّمًا مكتبًا ومُحوِّلًا مقعدين إلى كسرات خشب. اندفعت الفئران راكِضةً في كل مكان، وكانت أكبر حجمًا ممَّا سبق لهُول أن رأى طيلة عمره. سمعَ الرجالَ يُطلقون صيحات التقزُّز والرُّعب بينما كانت تلك الكائنات تَفرُّ، بأعينها الضخمة وأجسامها الملساء الممتلئة

لحمًا. لمحَ بطرف عينه فأرًا كان كبيرًا في حجم جروٍ موفور الصحة عمره شهرٌ ونصف على الأقل. واصل عمله حتَّى لم يَعُد بوسعه أن يرى المزيد منهم، فأغلق عندئذٍ الفوَّهة.

صاحَ وورِوك: "أوكي! فلنجمعها الآن!".

أعلنَ أحدهم العصيان، يُدعَى سي واي إبستُن، إذ صاحَ قائلًا: "أنا لم آتِ للعمل في مكافحة القوارض!". كان هول قد تناول معه شرابًا مرة أو مرتين في الأسبوع السابق. كان شابًّا، على رأسه قبعة بيسبول لوَّثها السخام، ومرتديًا تيشيرت.

تساءل وورِوك في نبرة دمثة: "أهذا أنت يا إِبستُن؟".

بدا التردُّد على إبستُن، لكنه اتخذ خطوةً للأمام. "نعم، أنا. لا أريد مزيدًا من تلك الفئران. لقد تمَّ توظيفي في هذه المهمة للتنظيف، وليس لاحتمال أن أُصابَ بالسُعار أو التيفود أو مرضٍ ما. ربما يكون من الأفضل أن تستبعدني مِن هذا العمل".

سرَت بين الآخرين غمغمة موافَقة على كلامه. اختلسَ ويسكونسكي نظرة نحو هول، لكن هول كان منشغلًا بتفحُّص فوَّهة الخرطوم الذي بين يديه. كان عيار الماسورة مثل سلاح ناري عيار 45 ويمكن لاندفاع الماء منه أن يزيح رجلًا للأمام مسافة عشرين قدمًا.

"هل أفهم مِن كلامك يا سي واي أنك تريد أن تضرب بطاقتك في الساعة وتمشي الآن؟".

فقال إبستُن: "هذا ما أفكِّر فيه فعلًا".

فأومأ وورِوك. "تمام. أنت وأي شخص آخر غيرك يريد أن يمشي فليمشِ. ولكن هذه ليست منشأة تابعة للنقابة يا جماعة، ولم تكن كذلك يومًا ما. اضرب بطاقتك الآن وامشِ ولن تضع قدمًا في هذا المكان مرة ثانية. صدقني سوف أحرص على هذا".

غمغم هول: "ما أبدعك، ما أروعك".

استدار وورِوك بسرعة ملتفتًا له. "قلت شيئًا، يا حضرة طالب الجامعة؟".

نظر هول إليه بوَجه لا مُبالٍ. " كنتُ أتنحنح، يا ريِّس".

فابتسم وورِوك: "شيء واقف في زورك؟".

لم يردَّ هول.

جعجع وورِوك: "تمام، فلنجمعها!".

عادوا جميعًا إلى العمل.

***

الخميس، الثانية صباحًا

كان هول وويسكونسكي يعملان مِن جديد على رَفْع المخلَّفات ونقلها بعيدًا. غربَ بئر التهوية، كانت الكومة قد كبرت وعَلت حتَّى بلغت أبعادًا مُذهِلة، غير أنهما لم يكونا قد أنهيا إلَّا نصف العمل بَعدُ.

عندما توقَّفا لتدخين سيجارة، قال ويسكونسكي: "رابع مِن يوليو سعيد عليك". كانا يعملان قريبًا مِن السور الشَّمالي، بعيدًا عن السلالم. وكان الضوء كابيًا لأقصى حَدٍّ، وقد جعلت خدعةٌ ما في انتقال موجات الصوت الرجالَ الآخرين يبدون كأنهم على مسافة أميال عديدة.

أجابه هول: "شكرًا لك"، وأخذ نفسًا مِن سيجارته. "لم أرَ فئرانًا كثيرة الليلة".

فقال ويسكونسكي: "ولا أحد غيرك رآها، ربما تعقَّلت".

كانا يقفان عند طرف زقاقٍ متعرِّج مجنون، تشكَّل مِن كومات السِّجلَّات والفواتير القديمة، وجوالات القماش المتحلِّل، ونولي نسيج

ضخمين ومُسطَّحين مِن طرازٍ عتيق للغاية. قال ويسكونسكي، باصقًا: "قرف! ذلك الووروِك...".

تساءلَ هول، مُحدِّثًا نفسه تقريبًا: "تُرى إلى أين ذهبت كل تلك الفئران؟ ليس وراء الجدران..."، ونظرَ نحو البناء الحجري المبتلّ والمفَتَّت المحيط بأحجار الأساس الضخمة. "لو فعلت ستغرق. فَماء النهر يصل لكل شيءٍ".

فجأة انقضَّ عليهم مِن الأعلى شيءٌ ما أسود مرفرفًا. صرخَ ويسكونسكي ووضعَ يديه فوق رأسه.

"خُفَّاش"، هكذا قال هول، وهو يتابعه بعينيه بينما ينتصب ويسكونسكي واقفًا من جديد.

ثارَ ويسكونسكي مُهتاجًا: "خفَّاش! خفَّاش! ماذا يفعل خُفَّاش في القبو؟ مفترض أن يكونوا في الأشجار أو تحت الأفاريز والـ...".

قال هول بصوتٍ خفيض: "كان خفاشًا كبيرًا، وما الخفَّاش إلَّا فأرًا بجناحين؟".

تأوَّه ويسكونسكي في عويل: "آه، يا يسوع، كيف أمكنه أن...".

"أن يدخل القبو؟ ربما بنفس طريقة خروج الفئران منه".

"ما الذي يجري لديكم هناك؟"، صاح ووروِك مِن مكان ما وراءهما. "أين أنتما؟".

فقال هول بهدوء: "لا داعي للقلق". برقت عيناه في الظلام.

نادى ووروِك، وقد بدا صوته أقرب: "أكانت تلك صرختك أنت، يا فتى الجامعة؟".

صاحَ هول: "لا بأس! لقد خدشتُ ذقني!"، فضحكَ ووروِك ضحكة قصيرة كأنها زمجرة. "والآن هل تريد وسام القلب القرمزي مكافأةً على شجاعتك؟".

نظر ويسكونسكي نحو هول. "لماذا تقول ذلك؟".

"انظر". انحنى هول وأشعل عود ثقاب. كان هناك مربَّعٌ في وسط الإسمنت المبلَّل والمفتَّت. "انقر هُنا".

فَنقرَ ويسكونسكي، وقال: "إنه خشب".

أومأ هول برأسه اتفاقًا. "إنه قِمَّة دُعامة سقف. لقد رأيتُ بعضًا آخَر منها في الأنحاء هَا هُنا. يوجد مستوى آخَر تحت هذا الجزء من القبو".

"ربَّاه"، قال ويسكونسكي في اشمئزاز تام.

مكتبة
t.me/t_pdf

***

الخميس، الثالثة والنصف صباحًا.

كانا في الركن الشمالي الشرقي، ومِن خلفهما إبستُن وبروشو ومعهما أحد خراطيم الضغط العالي، عندما توقَّف هول وأشارَ نحو الأرضية. "هناك، أظنُّ أننا عثرنا عليه في ذلك الموضع".

كان هناك بابٌ سِرِّيٌّ خشبي في الأرضية، مثبَّت بمسمار برغي حديدي قديم ومقشَّر بالقرب من المركز.

سارَ راجعًا إلى إبستُن وقال: "أغلق الماء لدقيقة". وعندما اختنقَ صوت الماء وتراجع حتَّى تقطَّر، رفعَ صوته وصاحَ: "وورِك، يا وورِك! من الأفضل أن تأتي إلى هنا دقيقة!".

أتى وورِك، يطرطش الماء حولَ قدميه، ونظرَ نحو هول وفي عينيه نفس تلك الابتسامة الجافَّة الصلبة. "ماذا حدث هذه المرة؟ انفكَّ رباط حذاءك يا فتى الجامعة؟".

فقالَ هول: "انظر"، وركلَ الباب السريَّ بقدمه. "هذا قبو فرعي".

سألَ وورِوك: "وماذا إذن؟ هذه ليست فترة راحة، لا بدَّ...".

فقال له هول: "هذا هو مكان فئرانك، إنها تتناسلُ هناك بالأسفل. بل إننا، أنا وويسكونسكي، رأينا خفاشًا منذ قليل".

تجمَّع حولهما بعض الرجال الآخرين وأخذوا ينظرون نحو فتحة الباب السري في الأرضية.

قال وورِوك: "لا يهمني، كانت المهمة تنظيف القبو، وليس...".

كان هول يقول: "ستكون بحاجة إلى فريق من مكافحة القوارض، حوالي عشرين فردًا منهم، ومدرَّبين جيدًا".

"بكل أسف، سيكلِّف هذا الإدارةَ مبلغًا معتبرًا".

ضحك أحد الرجال، قائلًا: "رابِع المستحيلات".

نظرَ وورِوك إلى هُول كما قد ينظر صبيٌّ يعذِّب حشرة تحت عدسة مكبِّرة في نور الشمس. قال له بنبرة تتظاهر بالافتتان: "أنت فعلًا تحفة فريدة، أتظن أنني أهتم أدنى اهتمام بعدد الفئران الموجودة هناك بالأسفل؟".

فقال هول: "مِن الجيد أنك لا تتوقَّف عن تذكيري بأني كنتُ طالبًا جامعيًّا ذات يوم، لقد زرتُ المكتبة العامة عصر هذا اليوم، وأمس أيضًا. وهناك اطَّلعتُ على القوانين المنظمة لتقسم المنشآت العامة في البلدة، وُضعت عام 1911 يا وورِوك، قبل أن يصبحَ هذا المصنع كبيرًا بما يكفي للانضمام إلى مجلس تقسيم المدينة. أتعرف ماذا اكتشفت؟".

كانت عينا وورِوك باردتين. "خُذْ لك سِكَّة، يا فتى الجامعة. أنت مفصول من العمل".

"اكتشفت"، واصل هول حديثه كما لو أنه لم يسمع ما قيل: "اكتشفتُ أنَّ هناك قانون تقسيم لبلدة جيتس فولز خاصًّا بمكافحة الآفات والدُّويبات الضارَّة. د-و-ي-ب-ا-ت، هذا هجاؤها في حالة إن

كنت تتساءل. والمقصود جميع الحيوانات الحاملة للأمراض مثل الخفافيش والظرابين -والكلاب غير المرخَّصة- والفئران. وخصوصًا الفئران. بل إن الفئران وحدها ذُكرَت أربع عشرة مرَّة في فقرتين اثنتين فقط، يا حضرة ريس العمَّال. لذلك فليكن في معلومك أنني في نفس دقيقة فصلي من العمل سأتوجَّه مباشرة إلى مكتب مأمور البلدة المفوَّض من الحكومة، وأُطلِعه على تفاصيل الوضع بالأسفل هنا".

توقَّف هُنيهة، كأنما ليلتذَّ برؤية وجه ووروِك محتقنًا بالبُغض. "أعتقد أنَّ الأمر سيكون بيننا، أنا وهو ولجنة مجلس البلدة، ونستطيع أن نستصدر أمرًا قضائيًّا بإغلاق هذا المكان. وهكذا سوف تغلق المصنع فترة أطول كثيرًا من يوم سبتٍ واحد، يا ريِّس. وأنا أتخيَّل ما سوف يقوله لك رئيسك عندما يحضر. أتمنَّى ألَّا تكون نسيت دَفع أقساط تأمين البطالة لأنك قد تحتاج إليه قريبًا، يا ووروِك".

اتَّخَذَت يدا ووروِك شكل المخالب. "أنت أيها اللعين، يا طفلًا يسيل مخاطه من أنفه، كان عليَّ أن..."، ثم حانت منه نظرة إلى الباب السِّرِّيِّ، وفجأة استعادت ابتسامته مكانها على وجهه. "اعتبر نفسك غير مفصول، يا فتى الجامعة".

"قلتُ لنفسي إنك قد تفتح عينيك وتتفهم الموقف".

أومأ ووروِك برأسه إيجابًا، وعلى وجهه نفس الابتسامة الغريبة.

"أنتَ فعلًا ذكيٌّ جدًّا. أعتقد أنه ربما عليك أن تنزل إلى هناك، يا هول، بحيث يكون لدينا شخص له تعليم عالي يعطينا رأي واحد مثقَّف. أنت وويسكونسكي".

صاح ويسكونسكي: "أنا لا! ليس أنا، أنا...".

رماه ووروِك بنظرة. "أنت ماذا؟".

أطبق ويسكونسكي فمه.

قـال هـول في مـرح: "جيـد، سـوف نحتـاج إلى ثلاثـة كشَّـافات يدويـة. أظـنُّ أننـي رأيـتُ رفًّـا كامـلًا ممتلئًـا بذلـك النـوع ذي السـت بطاريـات في المكتـب الرئيـسي، صحيـح؟".

سـأله وورِوك بابتسـامة عريضـة: "أتريـد أن تأخـذ شـخصًا آخَـر معكـما؟ بالتأكيـد، اخـتَرْ مَـن تشـاء".

فقـال هـول برِفـق: "أنـتَ". وعـاد ذلـك التعبـير الغريـب إلى ملامـح وجهـه مـن جديـد. "فَعـلى كل حـال، لا بـدَّ أن يكـون معنـا مُمثِّـلٌ لـلإدارة، ألا تظـنُّ ذلـك؟ فقـط في حالـة إن لم نـرَ أنـا وويسكونسـكي كثـيراً مِـن الفـئران هنـاك بالأسـفل؟".

أطلقَ أحد الرجال ضحكة عالية، بدا مِن صوته كأنه إبستُن.

وجَّـه وورِوك نظـرة ثاقبـة نحـو الرجـال، كان كلٌّ منهـم يُحـدِّق في مقدِّمـة حذائـه. وأخـيراً أشـارَ نحـو بروشـو، وقـال: "يـا بروشـو، اصعـد إلى المكتـب وأحـضِرْ ثـلاث كشَّـافات يدويـة. وأخـبر الحـارس أننـي سـمحتُ لـك بالدخـول".

سـأل ويسكونسـكي هـول بنـبرةٍ مُتألِّمـة: "لمـاذا أقحمتنـي في هـذا الأمـر، أنـت تعـرف أننـي أكـره تلـك...".

فقال هول ناظرًا نحو وورِوك: "ليس أنا مَن أقحمك".

عادَ وورِوك ينظر إليه، لم يحوِّل أيٌّ منهما عينيه بعيدًا.

***

الخميس، الرابعة صباحًا.

رجعَ بروشـو بالكشَّـافات، أعطـى واحـدًا لهـول، وواحـدًا لويسـكونسي، وواحـدًا لـووروك.

"يا إبستُن! أعطِ الخرطوم لويسكونسكي"، ففعلَ إبستُن كما قيل له. ارتعشت فوّهة الخرطوم برِقَّةٍ بين يديَّ البولندي.

قال وورِوك لويسكونسكي: "تمام جدًّا، أنت في الوسط. إن وجدنا فئرانًا تُفتح عليهم الخرطوم".

طبعًا، قال هول في نفسه. وإن وجدنا فئرانًا هناك فلن يراها وورِوك بالمرة، ولن يراها ويسكونسكي هو الآخَر، وبعد ذلك سيجد في مظروف راتبه عشرة دولارات إضافية.

أشارَ وورِوك إلى اثنين من الرجال. "ارفعا".

انحنى أحدهما على المسمار ذي الحلقة وشدَّ. ظنَّ هول للحظة أن الباب السري لن يستجيب ويُفتَح، وعندئذٍ ارتفع الباب متحرِّرًا بصوت طقطقة غريب كأنَّ شيئًا يُسحَق. وضع الرجل الآخر أصابعه على الجانب السُّفليِّ مِن الغطاء ليساعدَ في الشَّدِّ، ثم انسحب مطلقًا صيحة. كانت يداه مُغطَّاتين بِخنافس تدبُّ عليها، ضخمة وخفية لا تُرى.

أمَّا الرجل الذي يرفع حلقة الباب السري للأعلى فقد أفلته وتركه يسقط أرضًا وهو يطلق نخرة اشمئزاز، كان الجانب السفلي مِن الباب مسودًّا بِفعل فُطرٍ غريب لم يسبق لهول أن رأى مثله قط. تساقطت الخنافس نحو الظلام بالأسفل أو ركضت على الأرضية لتسحقها أقدام الرجال على الفور.

قال هول: "انظروا".

كان هناك قُفلٌ صدئ مُغلَق على الجانب السُّفلي من الباب، وهو الآن مكسور. قال وورِوك: "لكنه لا يجب أن يكون مِن الأسفل، كان يجب أن يكون مِن الأعلى. فلماذا...".

قاطعه هول: "لأسباب كثيرة، ربما لكيلا يتمكَّن أي كائن مِن فتحه على هذا الجانب- على الأقل عندما كان القفل جديدًا. وربما لكيلا يتمكَّن أي كائن على الجانب الآخَر مِن الصعود والخروج".

تساءلَ ويسكونسكي: "ولكن مَن أغلقه؟".

فقالَ هول ساخرًا، وهو ينظر نحو وورِوك: "آه، هذا لغز".

همس بروشو: "اسمعوا".

قال ويسكونسكي بصوتٍ باكٍ: "آه، يا ربي، أنا لن أنزل تحت!".

كان صوتًا ناعمًا، وهو الصوت المتوقَّع تقريبًا؛ الحركة الخاطفة والدقدقة الخفيضة لآلاف المخالب الصغيرة، وصوت صرير فئران.

قال وورِوك: "قد تكون ضفادع".

ضحكَ هول بصوتٍ عال.

أضاء وورِوك كشَّافه ونظر، رأى مجموعة دَرجات خشبية واهنة ومتراخية هابطةً نحو الأحجار السوداء للأرضية بالأسفل. لم يبدُ أي فأر في محيط رؤيته.

قال وورِوك بنبرة حَسم: "تلك السلالِم لن تتحمَّلنا".

تقدَّم بروشو خطوتين وأخذ يقفز طالعًا ونازلًا على دَرجة السُّلَّم الأولى، أصدرت طقطقةً، لكنها لم توحِ بأنها ستنهار.

فقال وورِوك: "لم أطلب منكَ أن تفعل ذلك".

قال بروشو بهدوء: "لم تكن موجودًا عندما عضَّ الفأر راي".

قال هول: "هيَّا بنا".

ألقى وورِوك نظرة أخيرة على حلقة الرجال كلها استهزاء ومرارة، ثم سارَ إلى الحافة مع هول. مضى ويسكونسكي بينهما بخطواتٍ

هيَّابة. نزلوا واحدًا بعد الآخر، هول، ثم ويسكونسكي، ثم ووروِيك. تلاعبت أشِعَّةُ الضوء الساقطة من كشّافاتهم على الأرضية التي كانت ذات انحناءات وانخفاضات وتتَّخذ مئات الأشكال المخبولة من التلال والوهاد. كان الخرطوم يتبع ويسكونسكي متخبِّطًا مثل ثعبانٍ عسير الحركة.

عندما بلغوا القاعَ أدارَ وورِوك ضوءَ كشَّافه في ما حوله، فأظهرَ وجودَ بضعة صناديق متعفِّنة، وبعض البراميل، وأشياء قليلة أخرى. كان ارتشاح الماء من النهر راكدًا في بِركٍ صغيرة ارتفعت حتَّى كاحل أحذيتهم الطويلة.

همسَ وورِوك: "ما عدتُ أسمعُ أيًّا منهم".

ساروا ببطء بعيدًا عن منفذ الباب السري فوقهم، وأقدامهم تخوضُ بخرفشةٍ عبرَ لُزوجة الوَحل. توقَّف هول قليلًا ووجَّه ضوءه على صندوق خشبي كبير عليه حروف بيضاء. قرأ: "إلياس فارني، 1841. أكان المصنع موجودًا آنذاك؟".

فقالَ وورِوك: "لا، لم يكن قد شُيِّدَ حتَّى سنة 1897. ولكن ما الفرق في هذا؟".

لم يُجبه هول. تقدَّموا ببطء من جديد. بدا أنَّ القبو الفرعي يمتدُّ لمسافةٍ أطول ممَّا ينبغي أن يكون.

كان النَّتَن أشد، رائحة تَحلُّل وتَفسُّخ وأشياء دفينة، وما زال الصوت الوحيد المسموع كان صوت تصبُّب الماء الخافت كأنما في كهف.

"ما ذلك؟" تساءل هول، وهو يشير بضوئه نحو نتوءٍ إسمنتي كان يبرز عن مساحة القبو الأصلي بمسافة قدمَيْن تقريبًا. ووراءه، كان الظلام يتواصل وبدا لهول أنه يستطيع الآن أن يسمع أصوات تنبعث من هناك، مُختلَسة ومستترة على نحوٍ يثير الفضول.

حدَّق ووروِك فيه. "إنه... لا، لا يمكن أن يكون ذلك صحيحًا".

"أليس هذا هو الجدار الخارجي للمصنع؟ وفوق بالأعلى...".

قال ووروِك: "أنا سأعود"، واستدار فجأة.

قبضَ هول على عنقه بخشونة. "لن تذهب إلى أي مكان، يا سعادة ريِّس العمَّال".

رمقه ووروك، كان عبوسه يجرح الظلام. "أنت مجنون، يا فتى الجامعة. صحيح؟ فقدتَ عقلك تمامًا".

"يجب ألَّا تضغط على الناس، يا صاحبي، واصل السير".

صاح ويسكونسكي في عويل: "يا هول...".

"أعطِني هذا". تناول هول الخرطوم وأمسكه بين يديه. أفلتَ عنق ووروِك وأشارَ بفوهة الخرطوم نحو رأسه. استدار ويسكونسكي بغتةً وشَقَّ طريقه مسرعًا نحو الباب السري. لم يهتمَّ هول بأن يلتفت نحوه حتَّى. "تقدَّم حضرتك أولًا، يا ريس".

خَطَا ووروك للأمام، سائرًا تحت الموضع الذي ينتهي فيه بناء المصنع فوقهما. أدار هول ضوءه في المكان من حولهما، وأحسَّ بارتياحٍ بارد- كأنَّ الهاجس الغامض الذي أنبأه بوقوع شيءٍ سيِّئ قد تحقَّق الآن. تحلَّقت الفئران من حولهما، صامتة صمتَ الموت. يحفل المكان بها، صفوفًا فوق صفوف. ألوفُ الأعين تتطلَّع نحوهما في نَهَمٍ وجشع. مصطفَّةً على الجدار، حتَّى يبلغ بعضها ارتفاع ذَقنِ رَجُل.

رآها ووروِك بعد ذلك بلحظة فجمُدَ في موضعه تمامًا. "إنها تحيط بنا من كل جانب، يا فتى الجامعة". كان صوته لا يزال هادئًا، لا يزال تحت سيطرته، وإن تراخت حدَّتُه قليلًا.

فقالَ هول: "نَعم، واصِلْ السَّير".

تقدَّما ومن ورائهما يتجرجر الخرطوم. ألقى هول نظرة للوراء فرأى الفئران قد أغلقت الممرَّ من خلفهما، وأخذت تقرض في النسيج الخشن الثقيل للخرطوم. فأرٌ منها رفعَ رأسه وتطلَّع إليه وبدا تقريبًا كأنه يكشِّر في وجهه قبل أن يخفض رأسه من جديد. كان يستطيع الآن أن يرى الخفافيش أيضًا. كانت جاثِمةً ومتدلِّية مِن أخشاب السقف غير المصقولة، كانت خفافيش ضخمةً وكلٌّ منها في حجم غراب أو غُداف.

قال ووروِك: "انظر"، مُوجِّهًا ضوء كشَّافه مسافة خمس أقدام إلى الأمام.

كانت جُمجمة، مُخضرَّة مِن فرط العَفَن، بِفكٍّ مفتوح كأنها تضحك لهما. أبعد قليلًا منها، استطاع هول أن يرى عظمة زندٍ، وأحد جانِبَي حوض، وجزء من قفص صدري. قال هول: "واصِلْ السَّير". شعرَ بشيءٍ ما ينبثق في باطنه، شيء مخبول وقاتم الألوان. لا بدَّ أن تنهار قبل أن أنهارَ أنا، يا سعادة ريِّس العُمَّال، فليَكُن الله في عوني.

سارا متجاوزَين العِظام. لم تحتشد الفئران مِن حولهما؛ بدا أنها تحتفظ بمسافةٍ ثابتة منهما. للأمام قليلًا رأى هول أحدها يقطع طريق مسارهما، أخفته الظلال، لكنه استطاع أن يلمح ذيلًا ورديًّا يختلج، وكان سميكًا كأنه سِلك تليفون.

للأمام قليلًا ارتفعت الأرضية ارتفاعًا حادًّا، ثم انحدرت. استطاعَ هول أن يسمع صوتًا مختلسًا، حفيفًا وهسهسةً، صوت قَرضٍ ومضغ. ثمَّة شيء ما هُنا، شيء ربما لم يسبق لأي رجلٍ حيٍّ أن رآه. خطرَ لهول أنه خلال جميع أيام تجواله المجنون مِن مكانٍ إلى آخر، كان يمضي مفتِّشًا عن شيءٍ مثل هذا.

كانت الفئران تواصل تقدُّمَها إلى داخل المكان، زاحفةً على بطونها، بحيث ترغمهما على مواصلة التقدُّم للأمام. قال وورِك في برود: "انظر".

ونظر هول فرأى. لقد حدثَ شيءٌ ما للفئران الموجودة في الخلف هَهُنا، طَفرة وراثية شنيعة؛ طفرةٌ ما كانت لتستمرَّ أبدًا تحت عين الشمس؛ فَما كانت الطبيعة لتسمح بها. أمَّا بالأسفل هنا، فقد كانت الطبيعة تتَّخِذ وجهًا آخر؛ وجهًا قبيحًا رهيبًا.

كانت فئران هائلة الحجم، بعضٌ منها بارتفاع ثلاثة أقدام. غير أنَّ أرجلها الخلفية قد اختفت وكانت عمياء تمامًا، مِثل أبناء عمومتها الطَّيَّارين، وكانت تُجَرجِر نفسها للأمام في تَلهفٍ فظيع.

استدارَ وورِك وواجهَ هول، ظلَّت الابتسامة مُثبتة في موضعها بِفعل إرادةٍ وحشية؛ ولذلك أوشكَ هول أن يعجبَ به حقًّا. "لا يمكننا مواصلة هذا، يا هول. لا بدَّ أن ترى ذلك".

قال هول: "الفئران لديها عملٌ معكَ، على ما أظن".

انهارَت سيطرة وورِك على نفسه، فقال: "أرجوك، أرجوك".

ابتسم هول: "واصِلْ السير".

ألقى وورِك نظرة خلفه. "إنها تقرض خيش الخرطوم، وإذا نجحوا في تمزيقه فليس لنا خطٌّ رَجعَةٍ بالمرَّة".

"أعرف. واصِلْ السَّير".

"أنت مجنون...". ركضَ فأر فوق حذاء وورِك فصرخَ. ابتسم هول وأدار كشَّافه، كانت تحيط بهما مِن كل جانب، وأقربها إليهما الآن على مسافة أقل مِن قدمٍ واحدة.

شرعَ وورِك يسير مِن جديد، وأخذت الفئران تتراجع.

اعتليا مُرتَقًى صغيراً ونظرا للأسفل، بلغه ووروِك أولًا، ورأى هول أنَّ وجهه كان أبيض شاحبًا مثل صفحة ورق، ويسيل على ذقنه لُعاب. "آه، يا ربي. يا يسوع الحبيب".

واستدارَ ليركض.

فتحَ هول فوَّهة الخرطوم فاندفعت دَفقَةٌ شديدة من مياه الضغط العالي وأصابت ووروك بضربة مباشرة في صدره، ودفعته للوراء فاختفى عن النظر. عَلت صرخة ممدودة وطغى صوتها على صوت الماء، ثم أصوات ارتطام وخبطات.

صرخ شاهقًا: "هول". ثم اندلعت صيحة هائلة مُظلِمَة بدت كأنها تملأ الأرض كلها. "أرجوك يا هول بحق الله...".

انبعثت بغتة ضجَّةُ تمزيقٍ مُبلَّلة. وصرخة أخرى، أوهن. تحرَّك شيءٌ ما، شيء ضخم، تقلَّب واضطرب. وسمعَ هول بوضوحٍ تام الطقطقة المبللة التي يصدرها عَظمٌ يتحطَّم.

انقضَّ عليه فأرٌ بلا أقدام وأخذ يقرض، مسترشدًا بنوعٍ ملعون مِن الاستشعار بالموجات الصوتية. كان جسمه رخوًا دافئًا. بلا وعي تقريبًا أدار هول الخرطوم نحوه، وضربه به بعيدًا. لم تَعُد قوة مياه الخرطوم الآن ذات ضغط شديد.

سارَ حتَّى حافة التَّلِّ المبلَّل ونظر للأسفل. فأرة واحدة كانت تملأ الوَهدة المنخفضة بكاملها حتَّى الطرف الأقصى لذلك المدفن الخبيث السام. كانت ذات جُرم هائل الحجم، رمادي نابض، عمياء، وبلا أقدام على الإطلاق. لكن عندما لطمها ضوءُ كشَّاف هول أصدرت ضجَّةً بَشِعة كأنها بكاء خافت. إنها ملكتهم، إذن، الإلهة الأم. كائن ضخم ولا اسم له، قد يطوِّر نَسلُه ذات يوم أجنحةً. بدا أنَّ ما تبقى مِن ووروِك تضاءل، لكنَّ ذلك على الأرجح كان وهمًا. كانت صدمةً عاتية رؤيَةُ فأرة في ضخامة عجل هولندي.

قـال هـول: "وداعًـا، ووروك"، جَثَمَـت الفـأرة فـوق رئيـس العـمَّال حريصـةً عليـه، وقـد انتزعـت إحـدى ذراعيـه.

اسـتدار هـول مبتعـدًا وشرع يشـق طريـق العـودة عـلى عجـل، مُوقِفًـا تَقَـدُّم الفـئران بمـاء خرطومـه، والـذي كان قـد بـدأ يفقـد قوَّتـه شـيئًا فشـيئًا. اسـتطاع بعضهـا أن يتخطَّـى الميـاه وينقـضَّ عـلى سـاقيه فـوق حـواف حذائـه طويـل الرقبـة بهجـمات قارضـة. تعلَّـق واحـدٌ منهـا بعنـاد عـلى فخـذه، ممزقًـا قـماش سرواله القطيفـة المضلَّـع. كـوَّر هـول يـده في قبضـة وسـحقه بهـا ورمـاه جانبًـا.

كان قـد قطـعَ ثلاثـة أربـاع طريـق العـودة تقريبًـا عندمـا مـلأ الظـلام هديـرٌ مـا. تطلَّـع فـإذا بشـكلٍ ضخـم طـار مرتطـمًا بوجهـه.

الخفافيـش التـي تعرَّضـت لطفـرة مـن طفـرات الطبيعـة لم تكـن قـد فقـدت ذيولهـا بَعـد. أخـذ يرفـرف حـول عنـق هـول في لفيفـةٍ مُريعـة، ويـصرُّ بينـما تفتِّـش أسـنانه عـن النقطـة الطريـة تحـت عنقـه. تلـوَّى وتذبـذب بأجنحتـه الغشـائية، ممسـكًا بتلابيـب قميصـه ليُحكِـم سـيطرته عليـه.

وجَّـه هـول فوَّهـة الخرطـوم للأعـلى وهـو لا يـرى شـيئًا وضرب بهـا جسـده اللَّـدِن مـرَّةً بعـد أخـرى. سـقط بعيـدًا فدعسـه تحـت قدميـه، وهـو لا يـكاد يعـي أنـه كان يـصرخ. ركضـت الفـئران في طوفـانٍ جـارف فـوق قدميـه، وصعـدت عـلى طـول سـاقيه.

انطلـق يركـض مترنِّحًـا، وهـو ينـتر عنـه بعضهـا، فيـما يواصـل الآخـرون قـرض بطنـه وصـدره. صعـد أحدهـا إلى كتفـه ودسَّ خطمـه المُنقِّـب داخـل تجويـف أذنـه.

اصطـدمَ بالخفَّـاش الثـاني. جثـمَ عـلى رأس هـول للحظـة، مطلقًـا صريـره، ثـم انتـزع بمنقـاره شريحـة مـن قـشرة رأسـه.

أحـسَّ بجســده يتخـدَّر أكـثر فأكـثر. امتـلأت أذنـاه بالنعيـق الحـاد وفحيـح ألـوفٍ وألـوفٍ مِـن الفـئرانِ. ترنَّـح جسـده وأطلـقَ زفـرة أخـيرة، تعـثَّر فـوق الأجسـام المكسـوة بالفـراء، وسـقط عـلى ركبتـه. أخـذ يضحـك، بصـوتٍ عـالٍ وصـارخ.

***

الجمعة، الخامسة صباحًا.

قال بروشو في تردُّد: "من المستحسَن أن ينزل شخص ما إلى هناك".

همسَ ويسكونسكي: "ليس أنا، ليس أنا".

فقال إبستُن بمرح: "لا، لستَ أنت، يا تختوخة".

قـال بروجـان وهـو يتنـاول خرطومًـا آخـر: "حسـنًا، لنذهـب. أنـا وإبستُن ودانجرفيلـد ونيـدو. ستيڤنسُـن، اصعـد إلى المكتـب وأحـضِرْ مزيـدًا مِـن الكشـافات".

نظـرَ إبسـتُن للأسـفل نحـو الظـلام متفكـِّرًا، وقـال: "لعلَّهـما توقَّفـا لتدخـين سـيجارة. إنهـا حفنـة فـئران، فـما الأمـر بحـقِّ جهنـم؟".

عادَ ستيڤنسُن بالكشَّافات؛ بعد بضع لحظات بدؤوا النزول للأسفل.

مَوجٌ لَيليّ

بعـد أن مـات ذلـك الرجـل وتلاشـت رائحـة لحمـه المحـترق مِـن الهـواء، عُدنـا جميعًـا سـائرين نـزولًا نحـو الشـاطئ. كان كـوري معـه جهـاز راديـو، أحـد تلـك الأجهـزة الترانزسـتور بحجـم حقيبـة صغـيرة والتـي يلزمهـا أربعـون بطَّاريـة لتعمـل، كـما يمكنهـا أن تسـجِّل شرائـط الكاسـيت وتُشـغِّلها. لا يمكـن أن نعتـبر الصـوت المسـجَّل عليهـا رائـعَ الوضـوح، لكنـه كان عاليًـا بـكل تأكيـد. قبـل انتشـار ڤـيروس "أ6" كان كـوري ميسـورَ الحـال، لكـنَّ تلـك الأمـور لم تَعُـد لهـا أيـة أهميـة الآن. حتَّـى جهـاز الراديـو المسـجِّل هـذا لا يعـدو كونـه قِطعـةَ خُـردة ظريفـة الشَّـكل. لم نسـتطع استقبال إلَّا بـث محطَّتـيْن إذاعيَّتـين فقـط، إحداهـما اسـمها WKDM مـن بورتسـماوث، ويعمـل عليهـا منسِّـق أغنيـات جِلـف أصيـبَ بلوثـةٍ دينيـة بعـدَ أن جـرى مـا جـرى. كان يشـغِّل أغنيـة لبـيري كومـو، ويتلـو صـلاةً،

ثُـمَّ يُصـوِّت ويبـكي، ثـم يُشـغِّل أغنيـة لجـوني راي[1]، ثـم يقـرأ شـيئًا مِـن المزامـير (بكامـل النـص حتَّـى مـع كل كلمـة "سـيلاه")[2]، تمامًـا كـما كان يفعـل جيمـس ديـن في فيلـم "شرق عـدن"، ثـم يُصـوِّت ويبـكي مِـن جديـد. أغنيـات مِـن هـذا النـوع الـذي يعـود للأيـام الخـوالي السـعيدة. ذات يـومٍ شرعَ يُغنـي بنفسـه أغنيـة "هيَّـا اجمعـوا الحصـاد"[3]، بصـوتٍ معطـوب ورفيـع كأنـه الـصراخ دفعنـا أنـا ونيدلـز إلى نوبـة ضحـك هيسـتيرية.

محطَّـة ماساشسـتوس كانـت أفضـل، لكننـا لم نكـن نسـتطيع اسـتقبالها إلَّا ليـلًا. كانـوا مجموعـة مِـن الفِتيـة، وأحسـب أنهـم قـد اسـتولوا عـلى أجهـزة البـث مـن إحـدى المحطتـين: WRKO أو WBZ، بعـد أن غـادر الجميـع أو ماتـوا. لا أسـماء لهـم، يكتفـون فقـط بحـروف كوميديَّـة لـكلٍّ منهـم، مثـل WDOPE، أو KUNT، أو WA6، أو أشـياء مـن هـذا القبيـل. وهـم مُضحِكـون جـدًّا، بالمناسـبة، يقتلونـك مـن الضحـك. تلـك هـي المحطـة التـي كُنَّـا نسـتمعُ لهـا في طريـق عودتنـا إلى الشـاطئ. كنـتُ أشـبك يـدي في يـد سـوزي، يتقدَّمُنـا كيـلي وجـوان، وكان نيدلـز قـد بلـغَ حافَّـة الشـفير بالفعـل وغـاب عـن أنظارنـا. كـوري يتبعنـا في المؤخِّـرة، مؤرجحًـا الراديـو تَبعـه. فرقـة السـتونز تغنـي "آنجـي".

---

(1) Perry Como (1912-2001): مغـنٍّ وممثِّـل ومقـدِّم برامـج أمريـكي. John Alvin Ray (1927-1990): مغـنٍّ وكاتـب أغنيـات وعـازف بيانـو أمريـكي.

(2) Selah: كلمـة عبريـة غـير محـدَّدة المعنـى، تَـرِدُ كثـيرًا في المزامـير، وهي حسـب بعض التفسـيرات قـد تكـون مجـرَّد إشـارة للصمـت؛ بمعنـى "توقَّـفْ واصمـتْ"، أو علامـة موسـيقية مـا بحيـث تشـير لوقفـة موسـيقية في بعـض مواضـع المزامـير التـي كانـت تُغنَّـى بمصاحبـة الموسـيقى، كـما أنهـا قـد تكـون إشـارةَ وَقـفٍ قبـل قـراءة فقـرة تاليـة.

(3) "Bringing in the Sheaves": ترنيمـة شـعبية أمريكيـة، مُسـتمدَّة مـن المزامـير، تنتمـي للطائفـة البروتسـتانية عـلى الخصـوص، كتـب كلماتهـا Knowles Shaw مؤلِّـف وكاتِـبُ ترانيـمَ إنجيليَّـة، في سـنة 1874.

سـألتني سـوزي: "هـل تحبنـي؟ ذلـك كل مـا أريـد أن أعـرف، هـل تحبنـي؟". سـوزي في احتيـاجٍ دائـم إلى طَمأنَـةٍ وتوكيـد. كنـتُ دبدوبَهـا القُطنـيَّ الـذي تعانقـه فتطمـئن.

"لا"، قلـتُ لهـا، كانـت بدانتهـا تـزداد، وإذا كُتِـبَ لهـا أن تعيـش وقتًـا طويـلًا بمـا يكفـي -وهـو أمـر مُسـتبَعدٌ- سـوف تصـير مُرَبرَبـةً حقًّـا. أصبَحَـت كثـيرة الـكلام بالفعـل.

قالت لي: "أنتَ مُتعفن"، ووضعت يدًا على وجهها.

التمعـت أظافرهـا المطليـة بضـوء شـاحبٍ منعكـس مـن نصـف قمـرٍ بـدأ صعـوده منـذ نحـو سـاعة.

"هل ستبكين ثانيةً؟".

"اخرس!". بدا مِن صوتها أنها سوف تبكي ثانيةً، لا بأس.

بلغنـا أعـلى الأخـدود فترَيَّثـت. دائمًـا مـا أتوقَّـف قليـلًا هنـا. قبـل وبـاء "أ6"، كان هـذا شـاطئًا عامًّـا، يقصـده السُّـيَّاح والمتنزهـون والأطفـال ذوو المخـاط والجَـدَّات ذوات الأجسـاد الممتلئـة المترهلـة بمرافقهـنَّ التـي أحرقتهـا الشـمس. وفي الرمـل أغلفـة حلـوى وعيـدان مصَّاصـات مرميـة، وأشـخاص جميلـون يتعانقـون عـلى بطَّانيـات الشـاطئ، والزَّهَـم المختلَـط لِروائـح العـادِم المنبعـث مـن موقـف السـيارات، وطحالـب البحـر، وزيـت الوقايـة مِـن الشـمس.

لكـن الآن اختفـت كل القـذارة والفضـلات. أكلهـا المحيـط، فـما أبقـى مِنهـا عـلى شيءٍ، بـكل بسـاطة كـما قـد يـأتي المـرء عـلى حفنـة مُقَرمشـات. مـا عـادَ هنـاك بَشر ليعـودوا ويوسِّـخوا المـكان مِـن جديـد. نحـن فقـط، ولسـنا كثيريـن كفايـة لنخلِّـف فـوضى كبـيرة. نحـن أيضًـا كنَّـا نحـب الشـاطئ، عـلى مـا أظـن- ألم نُقـدِّم لـه منـذ قليـل قربانًـا مِـن نـوعٍ مـا؟

حتَّى سوزي، القحبة الصغيرة سوزي، بمؤخِّرتها البدينة وبنطالها العنَّابي بساقيه المنتفختين من الأسفل كالأجراس.

كانت الرمال بيضاء ومتكوِّمة كثبانًا صغيرة، لا علامات عليها سوى الخَطِّ الذي خلَّفه المدُّ العالي- شَلَّة ملتوية مِن أعشاب بحرية، وطحالب الكِلب البُنِّيَّة، وكتل من خشب جرفه الموج. طرَّز نور القمر ظلالًا هلالية داكنة كالحِبر تطوي كلَّ شيء. على مسافة نحو خمسين ياردة مِن كبائن تغيير الملابس والمراحيض، انتصبَ بُرج حُرَّاس الإنقاذ المهجور هيكلًا أبيض، مُصوَّبًا نحو السماء مِثل إصبع عَظميٍّ.

والموج، الموجُ الليليُّ، يرمي عاليًا دفقات هائلة مِن الزَّبَد، متكسِّرًا على ألسنة اليابسة الممتدَّة في هجمات لا تنقطع، بعيدًا للغاية بقدر ما يمكن أن تصل إليه أبصارنا. لعلَّ تلك المياه كانت في منتصف طريق رحلتها من انجلترا ليلة أمس فقط.

انبعث الصوت المخربش مِن راديو كوري، قائلًا: "استمعتم معنا إلى أغنية آنجي لفرقة ستونز، وأنا واثق أنها أعجبتكم جدًّا، نفحة هواء عليل مِن الماضي الجميل وعصر الوقود الذهبي، مباشرةً مِن جروفيارد، تسجيل جميل. معكم بوبي. كان يفترض أن تكون هذه ليلة فِريد، لكن فِريد عنده إنفلونزا. وهو الآن منفوخ تمامًا كأنه سينفجر في أي لحظة". ضحكت سوزي، مع أنَّ أولى الدَّمعات لم تزل مُعلَّقة بين رموشها. أخذتُ أنزل نحو الشاطئ أسرع قليلًا لأبقيها هادئة.

صاحَ بي كوري: "انتظر! بيرني؟ أنت، بيرني، انتظرني يا عم!".

كان الرجل الذي في المحطة الإذاعية يقرأ بعض قصائد قصيرة كوميدية وفاحشة، وظهرَ صوت فتاة في الخلفية تسأله أين وضعَ البيرة. ردَّ عليها بشيءٍ ما، ولكن عند ذلك كُنَّا على الشاطئ. نظرت خلفي لأرى كيف كان حال كوري، كان ينزل منبطحًا على مؤخرته، كالمعتاد، كان شكله مسخرة، لدرجة أني أسفتُ له قليلًا.

قلتُ لسوزي: "اجري معي".

"لماذا؟".

صفعتها على ردفها فصاحت بصرخة حادَّة. "لمجرَّد متعة الجري".

ركضنا. تخلَّفَت عني، وهي تلهث مثل حصانٍ وتناديني لأبطئ قليلًا، لكني خلعتها من دماغي. اندفعت الريح جنبَ أذنيَّ وطيَّرَت الشَّعر عن جبيني. كنت أشمُّ الملحَ في الهواء؛ حادًّا وحرِّيفًا. الموجُ ضربَ وقرعَ، كانت الموجات مثل زجاج أسود رغويٍّ. خلعتُ صندلي المطاطي وركلته بعيدًا وأخذت أركض على الرمل حافيًا، غير مبالٍ بالحواف الحادَّة لقوقعة هُنا أو هناك. أحسستُ بدَمي في عروقي يجأر ويزأر.

وعندئذٍ بدأ المُنحدَر، وكان نيدلز قد أصبح بداخله بالفعل، أمَّا كيلي وچوان فكانا بجانبه متشابكي اليدين وينظران نحو الماء. أخذتُ أتدحرج مندفعًا للأمام، وأنا أحسُّ بالرمل ينزل تحت قميصي من الخلف، حتَّى ارتطمتُ بساقَيْ كيلي، فسقطَ فوقي وأخذ يفرُكُ وجهي في الرمل بينما چوان تضحك.

نهضنا وكلٌّ منَّا يبتسم للآخَر. توقَّفت سوزي عن محاولة الركض وكانت تكدح لتلحق بنا في خطوٍ ثقيل، وقد أوشكَ كوري على اللحاق بها .

قال كيلي: "نشعلُ نارًا".

سألَت چوان: "أتظنُّ حقًّا أنه قطعَ كل تلك المسافة من نيويورك، كما زعم؟".

"لا أدري". لم أرَ أهمية ذلك على كل حال. عندما عثرنا عليه كان جالسًا خلف عجلة قيادة سيارته اللِّنكُن الكبيرة، نِصفَ غائبٍ عن الوعي ويهذي بالكلام. كان رأسه منتفخًا حتَّى بلغ حجمَ كرة قَدمٍ

ورقبتـه مثـل إصبـع سـجق. كان مصابًـا بفـيروس كابـتن ترايبـز، وليـس أمامـه كثـيرًا ليهلـك تمامًـا. وهكـذا أخذنـاه إلى الشـفير المُطـلِّ عـلى الشـاطئ وأحرقنـاه. كان اسـمه آلفـين سـاكهايم، وقـد ظـلَّ ينـادي عـلى جدَّتـه، وظنَّ أنَّ سـوزي هـي جدَّتـه. وجَـدَت سـوزي هـذا الأمـر مضحـكًا للغايـة، يعلـم اللـه لمـاذا. أغـرب الأمـور يمكنهـا أن تُضحـك سـوزي.

كان إحـراق جُثَّتـه فكـرة كـوري، لكنهـا بـدأت نُكتـةً لا أكـثر. وهـو في الجامعـة، كان كـوري يقـرأ كل تلـك الكتـب حـول أعـمال السـاحرات والسِّـحر الأسـود، وأخـذ ينظـر إلينـا عابسًـا في الظـلام بجانـب سيارة آلفـين سـاكهايم اللينكُـن وهـو يخبرنـا أننـا إذا مـا قدَّمنـا قربانًـا لآلهـة الظـلام؛ فلعـلَّ الأرواح تحمينـا مِـن الإصابـة بوبـاء "أ6".

بـكل تأكيـدٍ لم يصـدِّق أحـدٌ منَّـا كل ذلـك الـكلام الفـارغ، لكـن الحديث أخـذ يـزداد جديَّـةً شـيئًا فشـيئًا. كان أمـرًا جديـدًا، لم نفعلـه مِـن قبـل، وفي النهايـة قرَّرنـا ونفَّذنـا. قيَّدنـاه إلى المنظـار المقـرِّب الموجـود هنـاك- يمكنـكَ أن تضـع فيـه عُملَـةً معدنيَّـة وفي يـومٍ صحـو تسـتطيع أن تـرى كل شيءٍ لمسـافة بعيـدة حتَّـى منـارة بورتلانـد التاريخيـة. قيَّدنـاه بأحزمتنـا، ثـم أخذنـا ننبـش الأرض هنـا وهنـاك عـن غصـون جافَّـة أو أخشـاب جرفهـا المـوج وكأننـا بضعـة أطفـال يلعبـون نوعًـا جديـدًا مِـن لعبـة الغمِّيضـة. وبينـما نفعـل هـذا كان آلفـين سـاكهايم طيلـة الوقـت مائـلًا هنـاك وحسـب، يُغَمغِـم بـكلامٍ مُوجَّـه إلى جدَّتـه. التمتعـت عينـا سـوزي للغايـة وتسـارعت أنفاسـها، كان مِـن الواضـح أنَّ الأمـر أثارهـا جنسـيًّا. وحينـما نزلنـا إلى الوَهـدة عـلى الجانـب الآخَـر مِـن النتـوء الصخـري مالـت علـيَّ وقبَّلَتنـي. كانـت تضـع كميـة كبيرة مـن طـلاء الشِّـفاه، فـكان الأمـر كأن الواحـد يُقبِّـل طبقًـا ملوثًـا بالدهـون.

دفعتها بعيدًا عني وآنذاك بدأت تلوي بوزها.

صعدنا من جديد، جميعنا، وكوَّمنا الأغصان والفروع اليابسة حتَّى بلغت وسط آلفين ساكهايم. أشعلَ نيدلز المَحرَقَة بولَّاعته الزِّيبو، وسرعان ما ارتفع اللهب. في النهاية، وقبلَ أن تنشب النار في شَعره، شرعَ الرجل يصرخ. فاحت رائحةٌ تُشبِه تمامًا رائحة شواء لحم خنزير حُلو على الطريقة الصينية.

سأل نيدلز: "ألديك سيجارة، يا بيرني؟".

"خلفكَ مباشرةً، يوجد حوالي خمسين خرطوشة سجائر".

ابتسم ابتسامة عريضة وصفع بعوضة كانت تستكشف ذراعه، وقال: "لا أريد أن أتحرَّك".

أعطيته سيجارة وجلست. أنا وسوزي قابلنا نيدلز في بورتلاند. كان جالسًا على حافَّة رصيف أمام مسرح الولاية، ويعزف بعض ألحان ليد بيلي على جيتار ضخم من نوع چيبسون اغتنمه مِن مكانٍ ما. تردَّد صوت عَزفِه عاليًا على امتداد شارع الكونجرِس كما لو كان يعزف في قاعة حفلات كبرى.

توقَّفت سوزي قبالتنا، وهي لم تزل تلهث.

"أنتَ مُعفَّن، يا بيرني".

"خلاص، يا سوزي. اقلبي الشريط، فهذا الجانب زبالة".

"حقير. وغبي، وعديم الإحساس ابن وسخة. حشرة مقرفة!".

قلتُ لها: "غوري مِن وجهي يا سوزي، وإلَّا سأقتلع عينيكِ، انتظري لتعرفي إن كنتُ لن أفعل".

بدَأَت تبكي من جديد، كَم كانت بارعة في ذلك. اقترب منها كوري وحاول أن يضعَ ذراعًا حولها، لكنها ضربته بمرفقها في منفرج ما بين فخذيه فبصق هو على وجهها.

"سوفَ أقتلكَ!"، هجَمَت عليه، وهي تصرخ وتبكي، وتدير يديها كشفراتٍ مروحيَّة. تراجع كوري هاربًا منها، وكاد يسقط، ثم أدبر مولِّيًا وأخذ يركض. تبعته سوزي، وهي تقذف بسباب هيستيري من أفحش ما يكون. أرجعَ نيدلز رأسه للوراء وجعلَ يضحك. تناهى إلينا صوت راديو كوري واهنًا مِن فوق الموج.

شردَ كيلي وجوان بعيدًا. يمكنني أن أراهما بالأسفل لدى حافة الماء، يسيران وكلٌّ منهما يُطوِّق بذراعه خصر الآخَر. بدت صورتهما مِثل إعلان تجاري في واجهة وكالة سفريَّات ورحلات- حَلِّقْ إلى سانت لوركا حيث الجمَال. لا بأس في ذلك، كان بينهما شيء طيِّب.

"بيرني؟".

"نَعم؟" جلستُ ودخَّنتُ وفكَّرت في نيدلز وهو ينقر أعلى ولَّاعته الزيبو ليفتحها، ويدير عَجلتها الصغيرة، مُشعِلًا النار بحَجَر القَدح والصلب بالضبط مثل ساكني الكهوف.

قال نيدلز: "أنا أُصِبتُ بالڤيروس".

"ماذا؟"، نظرت نحوه. "هل أنت متأكِّد؟".

"متأكِّدٌ تمامًا؛ رأسي يؤلمني. معدتي تؤلمني. وحُرقة في البول".

"ربما تكون إنفلونزا هونج كونج وحسب. لقد أصيبت بها سوزي مِن قبل. ورغبت في كتابٍ مقدَّس". ضحكتُ. كان ذلك أيامَ كُنَّا لم نزل في الجامعة، قبل نحو أسبوعٍ مِن إغلاق الجامعة إلى الأبد، وقبل شهر مِن بَدء نقل الجُثَث بعيدًا في شاحنات القمامة ودفنها في قبور جماعية باستخدام اللوادر والجرَّافات.

"انظر"، وأشعلَ عودَ ثقاب وحمله تحت زاوية فكِّه. استطعتُ أن أرى أوَّل البُقَع مُثلَّثة الشكل، وأوَّل التورمات. كان "أ6"، لا شكَّ في هذا.

قلتُ: "تمام".

فقالَ: "أنا بخير. من ناحية عقلي، أقصد. لكنَّك لستَ كذلك. أنت تفكِّر كثيرًا. أعرف ذلك".

"أبدًا، لا أفكِّر". كذبة.

"بل تفكر في الأمر بكل تأكيد. مثل ذلك الرجل في هذه الليلة. أنت تفكر في ذلك، أيضًا. الأرجح أننا قدَّمنا له معروفًا، إذا نظرتَ إلى صُلب الموضوع. لا أظنُّ أنه حتَّى أدرك ما كان يحدث له".

"بل أَدرك".

رفعَ منكبيه بهزَّةٍ لا مبالاة ونام على جانبه. "لا يهم...".

دَخَّنَّا وراقبنا حركة الموج وهو يتقدَّم ويتراجع. أصيبَ نيدلز بالڤيروس الذي نُسمِّيه كابتن ترايبز، وقد جعلَ ذلك كلَّ شيء حقيقيًّا مِن جديد. كُنَّا في أواخِر أغسطس، وفي غضون أسبوعين أو ثلاثة ستكون أولى رعشات برودة الخريف قد بدأت تزحف نحونا. سيكون قد حان الوقت للإقامة داخل مكانٍ ما بعيدًا عن الخلاء. ثُمَّ الشتاء. وربما بحلول أعياد رأس السنة، سنكون جميعًا في عِداد الموتى. في الغرفة الأمامية لبيت شخصٍ ما لا نعرفه، وجهاز كوري الراديو- المسجِّل الغالي الثمن موضوعٌ فوق رَفِّ خِزانة كُتُبٍ مكتظَّة بسلسلة مجلَّة الريدرز دايجست للكتب الملخَّصة، وشمس الشتاء الواهنة ترسم على السجادة أشكال زجاج النوافذ التي لا معنى لها.

كانت هذه الرؤيا التي طافت ببالي واضِحةً بما يكفي لأن تجعلَ جسدي يرتعد. لا أحد ينبغي له أن يفكِّر في الشتاء وهو في أغسطس. كان حدسًا غامضًا ومشؤومًا سيطر عليَّ.

ضحكَ نيدلز. "أرأيتَ؟ إنك بالفعل تفكر في الأمر".

ماذا عساي أن أقول؟ نهضتُ. "سأذهب لأبحث عن سوزي".

"ربما نكون آخِر البشر الموجودين على ظهر الأرض، يا بيرني. هل سبقَ لكَ أن فكَّرت في ذلك؟". في نور القمر الواهن بدا لي كأنه قد مات بالفعل، بدوائر تحت عينيه وأصابع متجمِّدة ومُصفَرَّة مثل أقلام رصاص.

سرتُ نزولًا نحو المياه ونظرت لما وراءها. لم يكن هناك ما يُرى سوى ربوات الأمواج التي لا تني تتحرَّك بلا هوادة، مُكلَّلة بأقواس رقيقة من الزَّبَد. كان هدير تكسُّر الأمواج هائلًا هنا بالأسفل، أكبر مِن العالَم نفسه. مثل الوقوف في قلب عاصفة رعديَّة. أغمضتُ عينيَّ وأخذت أهتزُّ وأتأرجح يمينًا ويسارًا على قدميَّ الحافيتين. كان الرمل باردًا ورطبًا ومضغوطًا. وماذا لو كنَّا نحن آخِر البشر الموجودين على سطح الأرض؟ ما أراه الآن سوف يستمرُّ ويدوم ما دام القمر وما دام ظلَّ قادرًا على شَدِّ المياه في حركته.

كانت سوزي مع كوري على الشاطئ، هي تركبه كما لو كان فرسًا بريًّا متقافزًا، يضرب رأسه في الماء المندفع الفوّار. كان كوري يخبط ويطرطش المياه من حوله، وقد انتقع كلاهما في الماء. سرتُ إليهما ودفعتُها بقدمي لتقعَ من فوقه. مضى كوري على أربعٍ مطرطشًا المياه، وهو يصدر أصوات بقبقة وخَنفرة.

صاحت سوزي بي: "أنا أكرهك!". كان فمها مثل قوس قاتم في تكشيرة واسعة، بدا لي كأنه مدخل إلى بيتٍ للعب. عندما كنت صبيًّا صغيرًا اعتادت أمي أن تأخذنا نحن الأطفال إلى منتزه هاريسون ستيت وكان فيه بيت للعب واجهته عبارة عن وجه كبير لمهرِّج، ويدخل الواحد إلى بيت اللعب عبر فم المهرج.

"كَفى يا سوزي، هيَّا تعالي إلى هُنا يا حيواني الأليف المخلص...". فتحتُ ذراعي لها. تقبَّلَت كلامي ببعض الشَّكِّ ونهَضَت واقِفةً. على بلوزتها وجلدها تجمَّعَت كُتَلُ رمل رطبة.

"ليس مِن حقِّكَ أن تدفعني هكذا، يا بيرني. ليس من حقِّكَ أبدًا...".

"اهدئي وتعالي". لم تكن تشبه صندوق الموسيقى؛ فلا يمكنك أبدًا أن تضعَ في داخلها عُملَة معدنية لتشتغل، كما لا يمكنك أبدًا أن تفصل عنها الكهرباء لتتوقَّف عن العمل. سرنا معًا بامتداد الشاطئ نحو المقرِّ الرئيسي لعمَّال وموظَّفي الشاطئ. كان الرجل الذي يدير هذا المكان لديه شقَّة صغيرة علويَّة، يوجد في الشَّقَّة فِراش. سوزي لا تستحق فِراشًا حقًا، أمَّا نيدلز فقد كان رأيه صائبًا. لا يهم. لا شيء يهم. وما مِن أحد سيُكتَب له الفوز في هذه اللعبة بعد الآن.

كان الدَّرَج خارجيًّا على جانب المبنى، لكني توقَّفت عن الصعود لدقيقة واحدة فقط لكي أطلَّ مِن الواجهة الزجاجية المحطَّمة، حيث بالداخل السِّلع والبضائع التي كساها الغبار، لم يهتم بها أحد ليأتي وينهبها- أكوام مِن القُمصان القطنية (مطبوع على صدرها كلمة "شاطئ آنسُن" وصورة للسماء والأمواج)، وأساور لامعة تترك أثرًا أخضر على الرُّسغ في اليوم التالي لارتدائها، وحُلقان فالصو برَّاقة، وكُرات شاطئ، وبطاقات بريدية قذرة، وتماثيل خزفية سيئة الطِّلاء للسيدة العذراء، ومقلب القيء البلاستيكي (حقيقي جدًّا! جرِّبْه على زوجَتِك!)، وألماسات ضَوِّ الليل ذات الشَّرَر مِن أجل عيد الرابع مِن يوليو، العيد الذي لم يأتِ بالمرة، ومناشف شاطئ عليها فتاة ذات مظهر شهواني بمايوه بيكيني واقفة وسط أسماء مائة من مناطق المنتجعات الشهيرة، ورايات مثلَّثة صغيرة (تذكار مِن شاطئ ومنتزه آنسُن)، بالونات، ومايوهات. كان هناك مقصف صغير وعليه لافتة كبيرة تقول "جرِّبوا كعك المحار المتميِّز".

كنتُ آتي إلى شاطئ آنسُن كثيراً حينما كنت لم أزل في المدرسة الثانوية، قبل تفشِّي الوباء بسبع سنوات، وكنتُ آتي برُفقَة فتاة اسمها

مورين. كانت صبيَّة ضخمة، وترتدي مايوه بقماش كاروهات صغيرة، فكنتُ أقول لها إنه يبدو مثل مفارش الموائد. كنَّا نسير على الممشى الخشبي قبالة هذا المكان، حافيين، نشعر بالألواح الخشبية تحت كعوبنا ساخنة ورملية. لم نجرب قَطُّ كعك المحار المميَّز.

"إلامَ تنظر؟".

"لا شيء. هيَّا تعالي".

***

زارتني أحلامٌ قبيحة ومُرهِقة جعلتني أتعرَّق حول آلفين ساكهايم. كان مُتَّكئًا خلف عجلة قيادة سيارته اللنكُن الصفراء اللامعة، يتحدَّث عن جدَّته. لم يكن شيئًا سوى رأس منتفخ ومُسْوَدٍّ، وهيكل عظمي تحوَّل إلى فحم. فاحت رائحة الاحتراق منه، واستمرَّ يتحدَّث ويتحدَّث، وبعد وهلة لم أعُد أفهم مِن حديثه كلمة واحدة. استيقظت وأنا أتنفس بصعوبة.

كانت سوزي نائِمةً وساقاها ممدَّدتان بجانب فخذيَّ، شاحبة ومنتفخة. كان الوقت في ساعتي يشير للثالثة وخمسين دقيقة، لكنها كانت متوقِّفة. لم تزل الدنيا ظلامًا في الخارج. الموج يضرب ويخبط ويتكسَّر. المدُّ عالٍ. لعلَّها الرابعة والربع. سيظهر الضوء عمَّا قريب. قمت من الفراش وذهبت إلى المدخل. أحسستُ بأنسام البحر عذبة على جسدي الساخن. رغم كل شيء لم أكن أريد أن أموت.

ذهبتُ إلى الرُّكن وتناوَلتُ علبة بيرة. كان يوجد أربع عبوات كبيرة منها مكدَّسة بجانب الجدار. كانت دافئة؛ إذ لم تَعُد هناك كهرباء. لا مشكلة عندي في تناول البيرة دافئة كما هو حال البعض. كل ما هنالك أن رغوتها أكثر، وتبقى البيرة هي البيرة. خرجتُ إلى البسطة وجلست وخلعت الحلقة المعدنية الصغيرة وشربت.

وهكذا هَا نحنُ هُنا، حيث يُمحى الجنس البشري كامِلًا مِن الوجود، وليس ذلك بسبب الأسلحة النووية أو حرب بيولوچية أو التلوُّث أو أي شيء خطير مثل ذلك. مجرد إنفلونزا. أودُّ لو استطعتُ وَضع لافتةٍ ضخمة في مكانٍ ما، ربما عند المسطَّحات المائية المِلحيَّة في بونفيل. لافتة مربَّعة من البرونز، وكل ضلع منها بامتداد ثلاثة أميال. وبحروف كبيرة بارزة سأكتب، فقط لأجل خاطر الكائنات الفضائية التي ستهبط على الأرض: "مجرَّد إنفلونزا".

ألقيت علبة البيرة مِن فوق، فحطَّت بصوت قرقعة مُجوَّفة على الممشى الإسمنتي المحيط بالمبنى. أمَّا المبنى الخشبي الملحق فقد كان مجرَّدَ مُثلَّث مظلم على الرمل. تساءلتُ هل كان نيدلز مستيقظًا، وتساءَلتُ إن كنتُ...

"بيرني؟".

كانت واقفة في المدخل، وهي مرتدية أحد قمصاني. كَم أكره ذلك، فهي تتعرَّق كخنزير.

"أنا لم أعد أعجبكَ كثيراً، يا بيرني، صح؟".

لم أَقُل أي شيء. تمرُّ بي أوقاتٌ أستطيع فيها أن أشعر بالأسف على كل شيء. وهي لم تستحقَّني بقدر ما أنا لا أستحقُّها.

"أيمكنني أن أجلسَ معك؟".

"أشكُّ أن هذا الموضع يمكن أن يتَّسِع لنا نحن الاثنين".

أصدرت صوت فواق مختنق وبدأت ترجع للداخل.

قلتُ لها: "نيدلز مصاب ب أ6".

توقَّفَت ونظَرَت إليَّ. كان وجهها ثابتًا جامِدًا للغاية. "لا تمزح، يا بيرني".

أشعلتُ سيجارة.

"لا يمكن! فقد أصيبَ...".

"نَعم، أصيب بـ أ2 مِن قبل، إنفلونزا هونج كونج. بالضبط مثلي أنا ومثلك أنتِ ومثل كوري وكيلي وچوان".

"ولكن معنى ذلك أنه ليس لديه...".

"مَناعة".

"نَعم، وهكذا فيمكن أن نصاب به نحن أيضًا".

قلتُ: "ربما يكون قد كذبَ عندما قال إنه أصيب مِن قبل بـ أ2، لكي نضمَّه إلينا في ذلك الحين".

كسا الارتياحُ وجهها. "الأمر كذلك بالتأكيد. لو كنتُ أنا مكانه لكذبتُ أيضًا. لا أحد يحب أن يكون وحده تمامًا، صحيح؟". تردَّدَت. "هل ستعود للفِراش؟".

"ليس الآن".

دخلَت. لم أضطرَّ أن أخبرها بأن الإصابة بـ "أ2" ليست ضمانًا مؤكَّدًا ضدَّ "أ6"، فهي كانت تعلم ذلك، لكنها فقط أزاحت المعلومة جانبًا. جلستُ مراقبًا الأمواج. كانت عالية حقًّا. كان شاطئ آنسُن الموقِعَ الوحيد في منتصف الولاية واللائق الذي تُمكِن فيها ممارَسةُ ركوب الأمواج. كانت الربوة مُعتِمَة، حدبة بارزة في وجه السماء. فكَّرتُ أن بوسعي رؤية البروز الذي كان موقع الرصد فيه، لكن الأغلب أنه خيال ليس أكثر. أحيانًا كان كيلي يصحب چوان حتَّى أعلى الربوة، لا أظن أنهما كان هنالك الليلة. وضعتُ وجهي بين يديَّ وقبضتُ عليه، متحسِّسًا الجلد، ملمسه ونسيجه. كان كل شيءٍ يضيق حولنا بسرعة رهيبة، كل شيء يصير خسيسًا شريرًا- لا كرامة في ذلك بالمرَّة.

والأمـواج تـأتي وتقـترب، تـأتي وتقـترب. بـلا نهايـة لهـا. نظيفـة وعميقـة. لقـد أتينـا إلى هنـا في الصيـف، أنـا وموريـن، في الصيـف التـالي مبـاشرةً عـلى المدرسـة العُليـا، الصيـف السـابق مبـاشرةً عـلى مرحلـة الجامعـة والواقِـع وتفـشّي وبـاء "أ6" انطلاقًا مِـن جنـوب شرق آسـيا وانتشـاره فـوق العالَـم كلـه مثـل غطـاء يتمـدَّد، كان يوليـو، وقـد أكلنـا بيتـزا واسـتمعنا إلى الراديـو، ومسـحتُ ظهرهـا بالزيـت، ومسَّـحَت هـي ظهـري بالزيـت، كان الهـواء سـاخنًا، والرمـل لامعًـا، والشـمس مثـل عَدسـة حارقـة.

أنا المَدخَل

كُنَّا أنا وريتشارد جالسَيْن على الرُّواق الأمامي لمنزلي، نرسلُ بصَرَيْنا فوق كثبان الرمل الممتدَّة حتَّى الخليج، والدُّخانُ المنبعث مِن سيجاره ينجرف لَيِّنًا في الهواء، مُبعدًا عنَّا البعوض. كانت زُرقة المياه رائِقةً لطيفة بلونٍ سماويٍّ مائل لخُضرَة فاتِحة، أمَّا زُرقة السماء فكانت أعمقَ وحقيقيَّة أكثر. كان هذا مزيجًا يسرُّ النَّفس.

كرَّر ريتشارد قَولي في تفكُّر: "أنتَ المدَخل"، وأضاف: "هل أنتَ متأكِّد مِن أنكَ قتلتَ الصبي- ألم يكن الأمر كله مجرَّدَ حُلم؟".

"لم أكن أحلم. وأنا لم أقتله، أيضًا- قلتُ لك ذلك. بل هُم مَن فعلوا، فأنا المَدخَل لهم".

تنهدَّ ريتشارد. "هل دفنتَه؟".

"أَجل".

"وتتذكَّر الموضِع؟".

"أَجل". مَدَدتُ يدي لجيب صدر القميص لأخرجَ سيجارة. كانت حركة يديَّ صعبة وغير بارعة بسبب الضِّمَادات التي تكسوهما، وتثيرُ فيَّ رغبةً فظيعة في حكِّهما. "إن أردتَ أن ترى الموضع لا بدَّ أن تأخذ عربة الشاطئ ذات العجلات السميكة. فلا يمكنك أن تدفعَ هذا (وأشرتُ إلى مقعدي المتحرِّك) عبرَ الرمال". لدى ريتشارد عربة شاطئ ڤولكسواجن موديل 1959، ذات إطارات بحجم الوسائد، كان يستخدمها في جمع الأخشاب التي يلقي بها الموج إلى الشاطئ. منذ أن تقاعدَ مِن عمله في مجال تجارة العقارات في ولاية ميريلاند وأصبح يعيش هنا على طريق كارولين في جزيرة كي ويست، ويشيِّد منحوتات فنية مِن الأخشاب التي يجرفها الموج ثم يبيعها لسُيَّاح الشتاء بأثمانٍ فاحشة.

نفخَ دخان سيجاره وتطلَّع ناظرًا نحو الخليج. "ليس الآن. أيمكنك أن تحكي لي مرة أخرى؟".

تنهَّدتُ وحاولتُ أن أشعلَ سيجارة. أخذ مني الثقاب وأشعلها بنفسه. أخذتُ نَفَسَين، متنشِّقًا الدخان عميقًا كانت الحكَّة التي في أصابعي تُفقدني صوابي.

قلتُ له: "لا بأس، ليلة أمس في الساعة السابعة كنتُ بالخارج هُنا بالضبط، أتطلَّع نحو الخليج وأُدخِّن، مِثل الآن بالضبط، ثُمَّ...".

لكنه قاطعني قائلًا: "لا، ارجع للوراء أكثر".

"الوراء؟".

"احكِ لي عن رحلة الطيران".

أدرتُ رأسي يمينا ويسارًا. "لكن يا ريتشارد، لقد تكلَّمنا في هذه المسألة مرَّةً بعد مرَّة. ولا يوجد شيء...".

بـدا لي وجهـه مُشـقَّق البـشرة والمُخـدَّد بالتجاعيـد مُحـيِّرًا وغامضًـا تمامًـا مثـل منحوتاتـه الخشـبية. قـال: "ربمـا تسـتطيع أن تتذكَّـر، الآن ربمـا تتذكَّـر".

"أهكذا تظنُّ؟".

"احتـمالٌ مُمكِـن. وعندمـا ننتهـي مـن هـذه المسـألة، نسـتطيع أن نبحـث عـن القـبر".

قلـتُ: "القـبر"، كان للكلمـة صـدًى أجـوفُ رهيـبٌ، وأشـدُّ ظُلمـةً مِـن أي شيءٍ، حتَّـى مـن ذلـك المحيـط الرهيـب الـذي أبحـرتُ عـبره مـع كـوري منـذ خمـس سـنوات. مُظلـم، مظلـم، مظلـم.

تحـت هـذه الضِّـمادات، كانـت عيـوني الجديـدة تُحـدِّق بعَـماء في الظُّلمـة التـي فرَضَتهـا عليهـا الضِّـمادات. كانـت تحكُّنـي.

***

حلَّقنـا أنـا وكـوري إلى مـدارٍ فضـائي حُـرٍّ، دُفِعنـا إليـه باسـتخدام زُحـل 16، ذلـك الـذي قـال عنـه جميـع المعلِّقـين إنـه بمثابـة مبنـى الإمبايـر سـتات وسـط محـرِّكات الصواريـخ العاديـة، فقـد كان مثـل وحـشٍ هائـل الضخامـة بالفـعل. وقـد جعـل المحـرِّكُ القديـم زُحَـلَ 1-ب يبـدو مثـل صـاروخ رِدسـتون باليسـتيٍّ صغـير، وقـد أقلـعَ مِـن خنـدقٍ بلـغ عُمقُـه مائتـي قـدم- وكان لا بـدَّ مِـن ذلـك، لكيـلا ينتـزع معـه نِصـف مركـز كيـب كينيـدي الفضـائي.

وهكـذا أخذنـا نتهـادى متأرجحـين حـول الأرض، بينـما نتأكَّـد مِـن عَمـل جميـع أنظمتنـا عـلى مـا يُـرام، وبعـد ذلـك انطلقنـا لنضَـع أنفسـنا عـلى المـدار المحـدَّد. وبـدأت رحلتنـا إلى كوكـب الزُهـرة، تاركـين خلفنـا أعضـاء مجلـس الشـيوخ يتشـاجرون حـول الاعتـمادات الماليـة التـي خُصِّصَـت مـن أجـل رحلـة اسـتطلاع فضائيـة تمـضي إلى شـوطٍ أبعـد، وحِفنـة مِـن العاملـين

في وكالـة ناسـا يُصلُّـون متوسِّـلين أن نعـثرَ في رحلتنـا عـلى أي شيءٍ، مهـما كان ذلـك الـشيء.

"اعـثرا عـلى أي شيء، أي شيءٍ كان، لا يهمنـي مـاذا يكـون"، هكـذا أحـبَّ دُنْ لوفنجـر أن يُـردِّد كلَّـما شَرِب كأسـين زيـادة، إنـه العبقـري الخصـوصي لمـشروع زيـوس الفضـائي، أو الطفـل المعجـزة -كـما يقولـون؛ لصِغـر سِـنِّه-. "لديكـما جميـع الأجهـزة والأدوات اللازمـة، زائـد خمـس كامـيرات تليفزيونيـة معـزَّزة وتيليسـكوب صغـير ممتـاز، مـزوَّد بعـددٍ لا يُحصى مِـن العدسـات والفلاتـر. اعـثرا عـلى بعـض الذهـب أو البلاتينيـوم. ولـو أنَّ الأفضـل مِـن ذلـك أن تعـثُرَا عـلى بـشرٍ بُلَهاء صغـار الحجـم ببشرةٍ زرقـاء؛ لـكي ندرسـهم، ونسـتغلَّهم، ونسـتمتع بشـعور التفـوُّق والسـيادة عليهـم. حتَّـى لـو كان مـا تعـثران عليـه هـو شَـبح هـودي دودي[1] سَـتكون بدايـة لا بـأس بهـا".

كنـتُ أنـا وكـوري في غايـة اللَّهفـة لـكي نحقِّـق هـذا الفضـل، إن اسـتطعنا. لم يكـن برنامـج الفضـاء العميـق يـؤتي أي نفـعٍ. منـذ الـروَّاد الثلاثـة: بورمـان وأندريـس ولوفيـل، الذيـن داروا حـول القمـر عـام 1968، ولم يجـدوا سـوى عالَـمٍ موحِـشٍ خـاوٍ بـدا أقـرب إلى شـاطئٍ رَمـليٍّ قَـذِر، ثـم أتى مارخـان وچاكـس، اللـذان لمسـا سـطح المريـخ بعـد ذلـك بأحـد عـشر عامًـا ليجـدا قَفـرًا قاحـلًا مِـن رمـالٍ مُتجمِّـدة وبضـع أَشَـنات تصـارع للبقـاء، وهكـذا صـار برنامـج الفضـاء العميـق إخفاقًـا يكلِّـف أمـوالًا بـلا طائـل. كـما كانـت هنـاك أيضًـا خسـائر في الأرواح- بيدرسُـن، وليـدرِر، اللـذان أخـذا يـدوران للأبـد حـول الشـمس عندمـا أخفقـت فجـأةً رحلـةُ أبوللـو مـا قبـل الأخـيرة. وچـون داڤيـز، الـذي صـدمَ أحـدُ النيـازك مَرصدَه المـداري الصغـير، وهكـذا فـإنَّ رحلتنـا للـدوران حـول كوكـب الزُّهـرة ربمـا

---

(1) Howdy Doody: برنامـج تليفزيـوني أمريـكي للأطفـال واسـم دُميـة لطِفـل في نفـس البرنامـج، بـدأ عرضـه منـذ ديسـمبر 1947 وحتَّـى سـبتمبر 1960.

تكـون فُرصتَنـا الأخـيرة لإثبـات جدوانـا ولنقـولَ لهـم هـذا مـا وعدناكـم بـهِ.

أمضينـا سِـتَّة عـشر يومًـا هنالـك- تناولنـا خلالهـا الكثـير مِـن الأطعمـة المركَّـزة، ولعبنـا عــشرات أدوار الكوتشـينة، وتبادلنـا نوبـة الـبرد ذاتهـا جيئـة وذهابًـا. ومـن الناحيـة التكنولوچيـة كانـت الرحلـة روتينيَّـةً بجميـع مراحلهـا المتوقَّعـة. خسرنـا مُحـوِّلًا لرطوبـة الهـواء في يومنـا الثالـث مـن الرحلـة؛ فاعتمدنـا عـلى الاحتياطـي، لم نواجـه مشـكلة غـير ذلـك، فيـما عـدا السَّفاسِـف الصغـيرة المزعجـة، حتَّـى بدأنـا رحلـة العـودة إلى مجـال الأرض الجـوي. أخذنـا نراقـب ڤينـوس وهـو يقـترب منَّـا، متحـوِّلًا مِـن نجمـةٍ بعيـدة إلى عُملـة معدنيـة صغـيرة إلى كُـرة بلوريـة حليبيـة اللـون، بينـما كنَّـا نتبـادل النِّـكات مـع العاملـين في مركـز التحكُّـم في هانتسـفيل، واسـتمعنا إلى شرائـط تسـجيلات ڤاجـنر والبيتلـز، وأشرفنـا عـلى جميـع التجـارب التـي تعمـل أوتوماتيكيًّـا والتـي تتَّصِـل بـكل شيءٍ؛ بدايـةً مِـن قياسـات الريـح الشمسـية إلى الإبحـار في الفضـاء العميـق. لمرتـين فقـط أجرينـا تعديـلًا عـلى المسـار المخطَّـط لـه للرحلـة، وكان كِلَا التعديلـين أصغـر مِـن أن يُذكَـر، وبعـد تسـعة أيـام مِـن انطـلاق الرحلـة خـرج كـوري لـكي يخبـط عـلى جهـاز الديسـا القابـل للطَّـيِّ والسَّـحب إلى أنَّ قـرَّر الجهـاز أن يشـتغل. ولم يكـن هنـاك أي شيءٍ آخَـر بعيـدًا عـن العـادي والمألـوف إلى أن...

قال ريتشارد: "مهلًا، قلتَ ديسا، ما هذا؟".

"كانـت تجربـة لم يُكتـب لهـا النجـاح والاسـتمرار. اسـتخدام المجسَّـات الهوائيـة في الفضـاء العميـق، تَبـع مـشروع علـوم الأرض لوكالـة ناسـا- يعنـي كنَّـا نبـثُّ إشـارات خفَّاقـة عـبرَ نبضـات تـردُّدٍ عـالٍ لأيِّ كائـنٍ يكـون مُهتـمًّا بالإنصـات". أخـذتُ أفـركُ أصابعـي في سروالي، لكـن بـلا جـدوى؛ بـل زاد هـذا إحسـاسي بالحكَّـة سـوءًا. "إنهـا نفـس فِكـرة التيليسـكوب الراديـو، ذلـك الموجـود في ويسـت ڤيرچينيـا- لـو تعلـم بـه، إنـه ذلـك الـشيء الـذي

يتنصَّت على النجوم. لكن بدلًا مِن الإنصات كنا نحنُ نبثُّ، في المقام الأوَّل نبثُّ لكواكب الفضاء الأبعد: المُشتري، وزُحل، وأورانوس. لكن لم يسمعنا أحدٌ، فلو وُجِدَت أية حياة ذكية هنالك على أيٍّ منها؛ فلا بدَّ أنها كانت تأخذ غفوةً".

"كوري فقط هو الذي خرج؟".

"نعم. وإذا كان قد جلبَ أي وباء مِن الفضاء بين النَّجمي؛ فإنَّ جهاز القياس عَن بُعد لم يُظهره".

"ومع ذلك...".

قلتُ له بفظاظة: "ليس لهذا أهمِّيَّة، ما يهم هو الحاضر، هُنا والآن فقط. لقد قتلوا الصبي ليلة أمس، يا ريتشارد. لم يكن أمرًا مِن اللطيف رؤيته، أو الشعور به. إنَّ رأسه... انفجر، كما لو كان شخصٌ ما قد أفرغَ جمجمته من عقله ووضعَ قنبلة يدوية مكانه".

قال: "أَنهِ قِصَّتَك".

ضحكتُ ضحكةً مكتومة. "ماذا لديَّ لأحكيه؟".

***

حَلَّقنا حولَ الكوكب في مدارٍ غير منتظِم المركز، كان مدارًا متطرِّفًا يتقدَّم ويتراجع، ثلاثة وعشرون ميلًا في ستة وسبعين ميلًا. كانت تلك دورتنا الأولى، أمَّا الثانية فقد ارتفعت حتَّى أبعد نقطة على المدار، أمَّا أقرب نقطة من الكوكب فقد انخفضت أكثر. كان الحدُّ الأقصى لنا هو أربع دورات، وقد نفَّذناها جميعها، واستطعنا أن نلقي نظرة جيدة على الكوكب. كما أخذنا أكثر مِن ستمائة صورة ثابتة له، إلى جانب عددٍ لا يُحصَى من الشرائط الفيلمية.

السُّحب التي تكسوه تتألَّف بأقسامٍ متساوية مِن الميثان، والأمونيا، والغبار، يعني خراء مُتطايِر. كان الكوكب برُمَّته أقرب إلى صخور وادي جراند كانيون، ولكن في نَفقٍ هوائيٍّ[1]. قدَّر كوري سرعة الرياح بحوالي ستمائة ميلٍ في الساعة قرب السَّطح. أخذ مسبارنا يُطلِق صفيره طوال طريقه للأسفل ثم انفصل بصوت نعيقٍ عنيف. لم نرَ أيَّ أثر لحياة نباتية ولا علامة واحدة تدلُّ على الحياة. أشارَ منظار التحليل الطيفي فقط إلى وجود آثار معادن ثمينة. وهكذا كان كوكب الزُّهرة. لا شيء سوى اللا شيء- باستثناء أنه أخافني. كان الأمر يشبه الدوران حول منزل تَسكُنه الأشباح في منتصف الفضاء العميق. أعرفُ كم يبدو هذا كلامًا غير علميٍّ بالمرَّة، لكني كنتُ مرعوبًا، وظَلَلتُ هكذا حتَّى خرجنا من هناك. أظن أنَّه لو لم ينطلق صاروخنا لكنتُ ذبحتُ نفسي في الطريق للأسفل. إنه لا يشبه القمر في شيء. القمر موحِشٌ ومهجور، لكنه مُطهَّر بطريقة ما. أمَّا ذلك العالَم الذي رأيته فقد بدا بخلاف أي شيءٍ سبق لي أن رأيته. ولعلَّه مِن الجيد أنه مكسوٌّ بغلالة من السحب. كان مثل جمجمة اقتُطِعَت بعناية ونظافة- ذلك أقرب تشبيه يخطر لي.

في طريق عودتنا سمعنا أنَّ مجلس الشيوخ قد صوَّت على تخفيض ميزانية برامج استكشاف الفضاء إلى النصف. قال كوري عبارة مِن قبيل "يبدو لي يا آرتي أننا سنرجع إلى مجال الأقمار الصناعية لرصد حالة الطقس". ولكنني كنت مسرورًا تقريبًا؛ فَربما نحنُ لا ننتمي إلى هناك.

بعد اثني عشر يومًا مِن ذلك توفي كوري وأُصِبتُ أنا بشللٍ تام لبقية حياتي. واجهنا كل أنواع المشكلات المتخيَّلة في طريق هبوطنا. الباراشوت كان معطَّلًا. ما رأيك في هذه كإحدى المفارقات الصغيرة في

(1) Wind tunnel: أنابيب ضخمة يندفع فيها الهواء بشدَّة، وتستخدم لمحاكاة ردود أفعال الأجرام الطائرة عبر الفضاء، كوسيلة لدراسة حركة الهواء على الأجسام، وخصوصًا الطائرات.

الحياة؟ لقد كُنَّا في الفضاء لأكثر مِن شهر، وذهبنا إلى نقطةٍ أبعدَ ممَّا بلغه أي إنسان آخر سابقًا، وانتهى هذا كله كما جرى لأنَّ شخصًا ما كان متعجِّلًا في الذهاب لاستراحة قهوته فلم يعتنِ جيدًا ببضع مسائل صغيرة وتركها كيفما اتفق.

هبطنا بصعوبة شديدة. قال أحد الأشخاص ممَّن كانوا في المروحيَّات إنَّ الأمر بدا شبيهًا بطفل عملاق يسقط خارجًا مِن رَحِم السماء، ومن ورائه المشيمة تتبعه مثل ذيلٍ طويل. فقدتُ الوعي بمجرَّد أن اصطدمنا بالأرض.

واسترجعتُ الوعي حينما كانوا يحملونني سائرين بي لنصعد على متن سفينة بورتلاند. لم تُتَح لهم حتَّى الفرصة لطَيِّ السجادة الحمراء التي كان مِن المفترض بنا أن نسير عليها. كنتُ أنزف، أنزف وهم يسرعون بي صاعدين لمركز الرعاية الطبية عبرَ سجادة حمراء لم تكن حُمرتُها شيئًا يُقارَن بالحُمرَة التي تغطِّيني أنا...

***

"أقمتُ في مدينة بيثيسدا لعامين. منحوني وسامَ الشرف والكثير مِن المال وهذا المقعد المتحرِّك. ثم أتيتُ إلى هنا في العالم التالي. يروق لي أن أراقب انطلاقَ الصواريخ".

قال ريتشارد: "أنا أعلم هذا"، سكتَ لحظة. "لكن أرني يديكَ".

"كلَّا". خرَجَت مني بسرعة شديدة وبكل حدَّة. "لا يمكنني أن أدعهم يرون. لقد قلتُ لكَ ذلك".

قال ريتشارد: "لقد مرَّت خمسة أعوام، فلماذا الآن، يا آرثر؟ أيمكنك أن تخبرني بذلك؟".

"لا أدري. لا أدري! ربمّا لأنَّ ذلك الشيء -أيًّا ما كان- يحتاج إلى فترة حَمل وتطوُّر طويلة. أو مَن يمكنه أن يزعم أنني ابتُليتُ به هناك بعيدًا؟ فربما يكون ذلك الشيء قد دخلَ إليَّ بينما أنا في مدينة فورت لاودردال. أو هنا تمامًا بينما أجلس على هذا الرواق، فما أدراني؟".

تنهَّد ريتشارد وأرسل بصره نحو المياه، التي يميل لونها الآن للحُمرة مع شمس آخر الأصيل. "إنني أحاول. فأنا لا أريد أن أعتقد أنك فقدت عقلك يا آرثر".

قلتُ: "إذا اضطررتُ فسوف أريك يديَّ". كلَّفني قولُ هذا جهدًا. "لكن فقط إذا اضطُرِرتُ".

نهضَ ريتشارد وتناول عصاه. بدا عجوزًا وهزيلًا. "سأجلب عربة الرمل. سوف نبحث عن الصبي".

"شكرًا لكَ يا ريتشارد".

خرجَ متَّجهًا صوبَ الطريق الترابي المليء بالأخاديد، المؤدِّي إلى كابينته- لا أرى إلَّا سقف تلك الكابينة من وراء الكثبان الرملية الكبيرة، تلك الممتدَّة على طول طريق كي كارولين تقريبًا. فوق المياه وصوبَ لسان اليابسة الداخل في البحر، كانت السماء قد اكتست لونًا بنفسجيًّا قبيحًا، وتناهى إلى أذنيَّ دَوي الرعد خفيضًا للغاية.

***

لم أعرف اسم الصبي لكنني كنتُ أراه بين الحين والآخر، سائرًا بمحاذاة الشاطئ وقت الغروب، وتحت ذراعه غِرباله. كانت بشرته تكاد تكون سوداء مِن فرط ما لوَّحتها الشمس، وكل ما يستر به بدنه شورت جينز متهرِّئ النسيج. كان ثمة شاطئ عام على الطرف الآخَر مِن طريق كي كارولين، ويمكن لفتى جريء أن يجمع ربما ما يصل إلى خمسة دولارات في يومٍ طيب، إذا صبر على غَربَلَة رمل الشاطئ

مُنقِّبًا عن العملات المعدنية الصغيرة. كنتُ ألوِّح له مرة كل حين وآخر وكان هو يلوِّح لي أيضًا، غريبان لا يعرف أحدهما الآخَر معرفة شخصية، ولكن أخوان لأننا مقيمان هُنا على مدار العام في مقابِل وابلٍ مِن السُّيَّاح بإسرافهم وجعجعتهم وسياراتهم الكاديلاك. أتخيَّل أنه كان يعيشُ في قرية صغيرة تبعدُ عَن هنا نصف ميلٍ تقريبًا، تتجمَّع بيوتها حول مكتب البريد.

عندما مرَّ بي في ذلك المساء كنتُ قد مكثتُ جالسًا على الرُّواق لساعةٍ، بلا حراك، أكتفي بالنَظر. وكنتُ قد نزعتُ الضِّمَادات عن يدي مِن قبل ذلك؛ لأنَّ الحكَّة كانت غير محتَملة، وكان الأمر أفضل على الدوام عندما يتاحُ لهم النظر عبرَ أعيُنهم.

كان إحساسًا لا مثيل له في هذا العالَم- كما لو أنني كنتُ بابًا موارَبًا بفتحةٍ صغيرة، وعبرها كانوا يختلسون النظر إلى عالِمٍ كانوا يكرهونه ويخافونه. غير أنَّ الجزء الأسوأ كان أنني أنا أيضًا، كان بوسعي أن أرى. تخيَّل عقلك وقد تحوَّل إلى جسدٍ لذبابة، ذبابة تُمعِن النَّظر في وجهك نفسه بألف عين. وربما عندئذٍ يمكنك أن تبدأ في إدراك سبب الاحتفاظ بالضِّمادات فوق يدي حتَّى لو لم يكن هناك أحدٌ بالقُرب مني يمكنه أن يراهما.

بدأ الأمرُ في ميامي. كان لديَّ عملٌ ما هناك مع رجل يُدعى كروسويل، محقِّق من البحرية الأمريكية. كان يتفقَّد أحوالي مرَّةً كُلَّ سنة- لفترة من الوقت كنتُ مُطَّلِعًا على ما لم يَطَّلِع عليه أحدٌ سواي، من معلومات شديدة السرية تابعة لبرنامجنا الفضائي. ومع ذلك فلم أعرف ما الذي كان يبحث عنه؛ ربما وَمضة خداع في عيني، أو ربما وَصمة الخاطئين موسومة على جبيني. يعلم الله السبب. كما أنَّ راتب تقاعدي كان ضخمًا لدرجة تكاد تُخجِلني.

كنَّا أنا وكروسويل جالسين على شرفة غرفته في الفندق، نحسو مشروبَيْنا ونناقش مستقبل البرنامج الفضائي الأمريكي. كانت الساعة حوالي الثالثة والربع، حين بدأت الحكَّة في أناملي. لم يحدث الأمر تدريجيًّا بالمرَّة، بل اندلعَ فجأة كأنه تيار كهربائي. فذكرتُ لكروسويل ما أحسُّ به.

فقالَ مبتسمًا: "لا بدَّ أنك قد التقطتَ التهابًا جلديًّا مِن تلك الجزيرة الصغيرة الملوَّثة".

قلتُ له: "النبات الوحيد الموجود في كي كارولين هو نخيل البالميتو الصغير، ربما تكون هرشة السَّنَة السابعة[1]". خفضتُ بصري نحو أصابعي، كانت يدَيْن عاديَّتَيْن تمامًا، لكن حَكَّتها تأكلني أكلًا.

في وقتٍ تالٍ مِن هذا الأصيل نفسه وقَّعت على الوثيقة القديمة ذاتها والتي تقول "أقسم مخلصًا على أنني لم أطَّلِع على معلومات سرية، ولم أُعلِنها ولم أُفشِها، بحيث يمكن أن..."، ثم قُدتُ السيارة راجعًا إلى الكي. كنتُ قد حصلتُ على سيارة فورد قديمة، مجهَّزة بمكابح ومُحوِّل سرعات يعملان يدويًّا. أحبُّها؛ فهي تجعلني أشعر بالاكتفاء الذاتي.

كانت رحلة عودة طويلة، على امتداد الطريق السريع رقم 1، وعندما حان وقت ابتعادي عن الطريق الكبير والنزول نحو المخرج المنحدر المؤدِّي إلى كي كارولين، كنتُ قد فقدتُ صوابي تقريبًا؛ فقد كانت يداي تأكلانني بشكل يدفع للجنون. إذا كنتَ قد عانيتَ ذات مرة مِن التئام جرحٍ عميق أو شقٍّ بسبب جراحة؛ فَلعلَّك تعرف شيئًا عن نوع الحكَّة التي أقصدها. بدا لي أنَّ ثمة كائنات حية في داخل لحمي وأنها تدبُّ وتحفر.

---

(1) the seven- year itch: فيلم رومانسي كوميدي إنتاج أمريكي سنة 1955 إخراج بيلي وايلدر، وبطولة مارلين مونرو وتوم إيوِل، ومذكور هنا على سبيل الدعابة.

كانت الشمس قد غربت تقريبًا ونظرتُ إلى يديَّ بتفحُّص على بريق إشارات تابلوه السيارة. أطراف أصابعي حمراء الآن، حمراء ولها دوائر صغيرة للغاية ومكتملة الاستدارة، فوق الجزء الخاص ببصمات الأصابع مباشرةً، في الموضع الذي يطلع لكَ فيه كالُّو صغير إن كنت عازفَ جيتار. كانت هناك أيضًا دوائر حمراء من الالتهاب على المساحة بين المفصل الأوَّل والثاني لكل إصبع، بما فيها الإبهام، وعلى الجلد ما بين المفصل الثاني والبرجمة. ضغطتُ أصابع يدي اليمنى على شفتيَّ وأبعدتُها على الفور، في تقزُّز مفاجئ. صعدَ إلى حلقي شعورٌ برُعبٍ أخرس، خانق كأنه كتلة صوف. كان الجِلدُ في الأجزاء التي ظهرت عليها النقاط الحمراء حارًّا، بل ساخنًا للغاية، وكان اللحم طريًّا وله ملمس قشرة جليد، مِثل تفاحة تعفَّنَت.

أكملت ما تبقَّى من رحلة العودة وأنا أحاول أن أقنع نفسي بأنني قد أُصِبتُ فعلًا بالتهابٍ جلديٍّ بطريقةٍ ما. ولكن في جزء خلفي من عقلي كمنَت فكرة أخرى قبيحة. كانت لي خالَة، بعيدًا في أيام طفولتي، عاشت آخِر عشر سنوات من حياتها معزولةً عن العالَم في غرفة موصَدةٍ عليها بالطابق العلوي. كانت أمي تصعد إليها بالوجبات، وكان مجرَّد النُّطق باسمها مُحرَّمًا علينا. اكتشفتُ فيما بعد أنها كانت مُصابَة بالجُذام.

عندما رجعتُ إلى البيت اتَّصلتُ بالدكتور فلاندرز في منطقة البر الرئيسي بعيدًا عن الجُزر. لم يرد عليَّ، وبدلًا من ذلك تلقَّيتُ ردًّا مِن أحد مساعديه. كان د. فلاندرز في رحلة صيد بحرية، ولكن إن كانت الحالة طارئة، فإنَّ د. بالانجر...

"متى سيعود دكتور فلاندرز؟".

"غدًا بعد الظهر على أبعد تقدير. فهل هذا...".

"بالتأكيد".

وضعتُ السمَّاعة ببطء، ثم اتصلتُ بريتشارد. ترَكتُ الجرس يدقُّ نحو عشر مرات قبل أن أغلق الخطَّ. بعد ذلك جلستُ لبُرهة متردِّدًا. كانت الحكَّة تزداد عُمقًا، وبدت كأنها تنبعث مِن اللحم نفسه.

وجَّهتُ مقعدي ذا العجلات نحو خزانة الكتب وسحبتُ من على الرَّفِّ نُسخةً مُتهَرِّئة من الموسوعة الطبية التي أمتلكها منذ سنين. كان الواردُ في الكتاب غامضًا إلى درجة تبعث على الجنون. فقد يكون ما أصابني أي شيء، أو لا شيء على الإطلاق.

اضطجعتُ في مجلسي وأغمضتُ عينيَّ. كنتُ أسمع دقَّات الساعة القديمة بصوت جرس سفينة مِن موضعها على الرَّفِّ في الناحية الأخرى من الغرفة. وكان هناك طنينٌ عالٍ ورفيع لطائرة في طريقها إلى ميامي. وأيضًا الهسيس الناعم لصوت أنفاسي.

كنتُ لا أزال ناظرًا في الكتاب.

زحفَ هذا الإدراكُ إليَّ، ثم غاص عميقًا بداخلي بانقباضة مُفزِعة. كانت عيناي مُغلَقتَيْن، ولكني كنتُ لا أزال ناظرًا إلى الكتاب. ما كنتُ أراه هو شكلٌ نظيرٌ لكتابٍ رُباعيِّ الأبعاد ومُضبَّب ووحشي، ورغم ذلك كله فَلم يزل واضحًا بصورة لا تُخطَأ.

ولم أكن الوحيدَ الذي يشاهِد.

فتحتُ عينيَّ بسرعة، بينما أشعرُ بانقباض قلبي. هدأ الإحساس قليلًا، لكن دون أن ينقضي تمامًا. كنتُ أنظر إلى الكتاب، وأرى الطباعة والأشكال بعينيَّ، تجربة يومية عادية لأقصى حدٍّ، وكنتُ أيضًا أراه من زاوية مختلفة، زاوية أدنى وأراه بأعينهم هُم. لم أكن أرى كتابًا بل شيئًا غريبًا مجهولًا، شيئًا ما له شكلٌ وحشيٌّ ونِيَّة مُنذِرة بالشَّر.

رفعتُ يديَّ ببطءٍ إلى وجهي، وقد لمحتُ رؤيةً مُخيفة لغرفة معيشتي وقد تحوَّلت إلى منزل رعب. صرختُ.

عـبرَ شـقوقٍ في لحـم أناملي، كانـت هنـاك أعـين تحـدِّق فيَّ. وحتَّـى بينـما كنـتُ أنظـر كان اللحـمُ يتسـع ويتراجـع، بينـما كانـت تلـك الأعـين تشـقُّ طريقهـا نحـو السـطح بـلا مبـالاة.

لم يكـن هـذا مـا دفعنـي للـصراخ. فقـد نظـرتُ ورأيـتُ وجهـي بأعينهم، فلـمَ أرَ إلَّا وَحشًـا مخيفًا.

***

ارتفَعَـت مُقدِّمـة العَربـة الصغـيرة عـلى التـل وأوقفهـا ريتشـارد إلى جانـب الـرواق الأمامـي. أصـدرَ مُحرِّكُهـا هديـرًا وحشرجـة متقطِّعـة. وجَّهـت مقعـدي لأنـزل عـلى المنبسِـط المائـل عـن يمـين الـدَّرَج العـادي وسـاعدني ريتشـارد عـلى الركـوب.

قالَ: "والآن، يا آرثر، الكلمة كلمتك. إلى أين؟".

أشرتُ للأسـفل نحـو الميـاه، حيـث تبـدأ الكثبـان الكبـيرة بالتَّلاشي أخـيرًا. أومـأ ريتشـارد برأسـه. أثـارت العجلتـان الخلفيَّتـان الرَّمـلَ حولهـما وانطلقنـا. كنـتُ في الأحـوال المعتـادة أجـد الوقـت لـكي أسـخرَ مِـن سياقة ريتشـارد، لكنـي لم أهتـم بذلـك الليلـة. هنـاك أمـور أخـرى كثيرة للغايـة لأفكـر بهـا، ولأشـعر بهـا: لم يكونـوا يريـدون الظلام، وكان بوسـعي أن أشـعر بهـم يجاهـدون للنَّظـر عـبرَ الضِّمادات، يريدوننـي أن أنزعهـا عـن يـديَّ.

تَقافَـزَت العربـة الصغـيرة وهـدرت عـبر الرمـل نحـو الميـاه، وبـدت كأنهـا تطـير تقريبًـا مِـن فـوق رؤوس الكثبـان الصغـيرة. عـلى يسـارنا كانـت الشـمس تغـرب في هالـة داميـة. وفي المواجهـة مباشرةً، عـبرَ الميـاه، كانـت السُّـحب الرعديـة تشـقُّ طريقهـا نحونـا خفَّاقـة. وتشـعَّب الـبرقُ عـلى الميـاه.

قلتُ له: "اتَّجِه يمينًا، بجانب تلك الحظيرة الخشبية".

أثـارَ ريتشـارد الرمـالَ حـول العربـة حـينَ أوقفهـا فجـأة بجانـب البقايـا المتحلِّلـة مـن الحظـيرة الصغـيرة، ومـدَّ يـده للخلـف وتنـاولَ مجرافًـا. أجفلـتُ عندمـا رأيتُـه. سـألَني ريتشـارد بوجـهٍ بـلا تعبـير: "أيـن؟".

"هناك بالضبط". وأشرتُ إلى الموضع.

نـزل مِـن العربـة وسـارَ متمهِّلًا عـبر الرمـل إلى البقعـة المحـدَّدة، تـردَّد لثانيـة، ثـم أغمـدَ رأسَ المجـراف في الرمـل. تهيَّـأ لي أنـه ظـلَّ يحفـر لفـترة طويلـة جـدًّا. بَـدَت الرمـال التـي أخـذ يلقيهـا للـوراء مـن فـوق كتفيـه مخضلَّـة ورطبـة. كانـت السـحب الرُّكاميـة أشـد ظُلمـة وارتفاعًـا، وبـدا البحـر غاضبًـا وهائجًـا تحـت ظلالهـا والوَهـج المنعكـس مـن غـروب الشـمس.

حتَّـى قبـل فـترة طويلـة مـن توقُّفـه عـن الحفـر، علمـتُ أنـه لـن يعـثر عـلى الفتـى. لقـد نقلـوا جُثَّتـه. لم أضمِّـد يـديَّ ليلـة أمـس، بحيـث يمكنهـم أن يـروا- ويتصرَّفـوا. إذا كان بمقدورهـم اسـتخدامي لقتـل الصبـي، فـإن بمقدورهـم اسـتخدامي لنقلـه، حتَّـى بينـما كنـتُ نائمًـا.

"لا وجـود لصبـي، يـا آرثـر". ألقـى المجـراف المتَّسِـخ في العربـة وجلـس بإنهـاك عـلى المقعـد. ألقـت العاصفـة الوشـيكة ظـلالًا زاحفـة، هلاليَّـة الشـكل، عـلى امتـداد الرمـال. ضرب الهـواء المتصاعِـدُ هيـكلَ العربـة الصـدئ بالرمـال. شـعرتُ بحكَّـة في أصابعـي.

قلـتُ بـبرود: "لقـد اسـتخدموني لأنقلـه، صـارت لهـم اليـدُ العليـا، يـا ريتشـارد. إنهـم يجـبرون مدخلهـم عـلى أن ينفتـح، ولـو بقـدر ضئيـل في كل مـرَّة. مائـة مـرة في اليـوم أجـدُ نفـسي واقفًـا أمـام غَـرضٍ مـا مألـوف تمامًـا -مِلـوَق، صـورة، أو حتَّـى عُلبـة فاصوليـا- وأنـا لا أعـرف بالمـرَّة كيـف أصبحـتُ هنـاك، رافعًـا يـديَّ أمامـي، لأريهـم إيَّـاه، وأراه كـما يرونـه، مِثـل بـذاءة، مثـل شيءٍ مشـوَّه وبشـعٍ...".

قالَ: "لا، يا آرثر، لا تفعل هذا يا آرثر، لا تفعل...". كان وجهه في الضوء الساقط ممتقعًا مِن فرط التعاطف. "قلتَ "واقفًا أمام غرض ما"، وقلتَ "نقلتَ جُثَّة الصبي". لكنكَ غير قادرٍ على المشي يا آرثر. نصفُكَ السُّفليُّ ميِّتٌ تمامًا".

لمستُ لوحة تابلوه العربة. "وهذه أيضًا ميتة تمامًا، لكنك عندما تدخلها تستطيع أن تجعلها تتحرّك. ويمكنك أن تجعلها تقتل. ولا يمكنها أن تمنعك حتَّى لو أرادت". سمعتُ صوتي يرتفع لدرجةٍ هيستيريَّة. "أنا المَدخل، ألا يمكنكَ أن تفهم ذلك؟ لقد قتلوا الصبي، يا ريتشارد! وقد نقلوا جثَّته!".

قال بهدوء: "أعتقد أنَّه مِن الأفضل أن تزور طبيبًا. هيا نرجع، و...".

"اذهب واسأل! اسأل عن الصبي، إذًا! واكتَشِف إن...".

"قلتَ إنَّكَ لا تعرف حتَّى اسمه".

"لا بدَّ أنه كان مِن أهل القرية. إنها قرية صغيرة. فلتسأل...".

"تحدَّثتُ مع مود هارنجتون على الهاتف عندما أحضرت العربة. وأنا لا أعرف في الولاية كلِّها شخصًا أكثر منها فضولًا وحِشريَّة. سألتُها إن كانت قد سمعت عن فتى صغير ابنٍ لأيِّ أسرة لم يرجع إلى البيت ليلةَ أمس. فنفت أن تكون سمعت شيئًا كهذا".

"لكنه من أهل المنطقة! لا بدَّ أنه كذلك!".

مدَّ يده نحو مفتاح المحرِّك، ولكني أوقفته. التفتَ نحوي فبدأتُ أنزع الضِّمادات عن يديَّ.

من ناحية الخليج، كان الرعدُ يدمدم ويُزَمجر.

***

لم أذهب لزيارة الطبيب الذي اتَّصلتُ به، كما لم أعاود الاتصال بريتشارد. أمضيتُ ثلاثة أسابيع حريصًا على إخفاء يديَّ بالضمادات كلَّما خرجتُ من المنزل. ثلاثة أسابيع يراودني خلالها أملٌ لا أساس له بأن يختفي هذا الأمر كما ظهر. لم يكن تصرُّفًا عاقلًا؛ يمكن لي أن أعترف بهذا. لو أنني كنتُ رجلًا كاملًا ليس بحاجةٍ إلى مقعد ذي عجلات بديلًا لساقيه، أو رَجُلًا عاش حياة عاديَّة يشتغلُ في وظيفة عادية؛ لرُبَّما كنتُ ذهبتُ إلى دكتور فلاندرز أو تواصَلتُ مع ريتشارد. وربما كنتُ فعلتُ ذلك لولا ذِكرَى عَمَّتي، وهي منبوذة، سجينة عمليًّا، يأكلها لحمُها نفسه وهي حيَّة تُرزَق. وهكذا احتفظتُ بصمتٍ يائس وتوسَّلتُ لله أن أستيقظَ ذات صباح لأجد هذا الأمر قد تبدَّد مثل كابوس فظيع.

قليلًا... قليلًا، أخذتُ أشعرُ بهم. هُم. ذكاءٌ مجهول. لم أتساءل حقًّا من قبل كيف شكلهم أو مِن أين أتوا. تلك أمور غير ذات أهمية. كنتُ مَدخَلَهم، ونافذتهم على العالَم. وقد وردتني استجابةٌ كافية منهم لأشعر بنفورهم ورعبهم، ولأعرفَ أن عالمنا كان شديد الاختلاف عن عالمهم. استجابة كافية لأشعرَ بكراهيتهم العمياء. لكنهم مع ذلك ظلُّوا يشاهدون. كان لحمهم مدموجًا في لحمي. بدأتُ أدرك أنهم كانوا يستخدمونني، بل في الحقيقة يتلاعبون بي.

عندما مرَّ الفتى، رافعًا يدًا واحدة بتحيَّته المحايدة المعتادة، كنتُ على وشك أن أتَّخِذ قرارًا بالتواصُل مع كريسويل على رقم القوات البحرية الخاص به. كان ريتشارد مُحِقًّا بشأن أمر واحد، كنتُ على يقين مِن أنَّه أيًّا كان ذلك الشيء الذي استحوذ عليَّ فقد فعلَ ذلك في الفضاء العميق أو عبرَ ذلك المدار الغريب حول الزُّهرة. سوف يدرس الجيش حالتي، لكنهم لن يصنعوا مني أعجوبة للفُرجة. لن أكون مضطرًّا بعد ذلك لأن أستيقظ وسط ظلام ما قبل الفجر وأخنق صرخةً في حلقي إذ أشعرُ بهم ينظرون، وينظرون، وينظرون.

خرَجت يداي صوبَ الفتى وأدركتُ أنني لم أضمِّدهما. كنتُ أرى الأعين في الضوء المحتضَر، وهي تنظر في صمت. كانت كبيرة، متَّسِعَة، مُذهَّبة وقزَحيَّة. ذات مرَّة وخزتُها بطرف قلم رصاص فأحسَستُ بألمٍ بالغ يضرب ذراعي. حدَّقَت العينُ التي وخزتُها فيَّ بكراهيةٍ مُقيَّدة كانت أسوأ مِن الألم البدني. لم أكرِّر هذه الفعلة ثانية.

والآن كانت الأعين تنظر إلى الفتى. شعرتُ بعقلي ينزلقُ وينتحي جانبًا، وما هي إلَّا لحظة واحدة وفقدتُ كل سيطرتي. لقد فُتحَ الباب. سِرتُ نحوه متمايلًا على الرمال، وساقاي تتحرَّكان كالمقص في تراخٍ، أقرب إلى أغصان يابسة مدفوعة قسرًا. بدا كأنَّ عيناي أُغلِقَتا ورأيتُ فقط عبرَ تلك الأعين الدخيلة الغريبة- رأيتُ منظرًا بحريًّا مرمريًّا وحشيًّا تعلوه قُبَّة سماء كأنها طريق أرجوانية هائلة، رأيتُ عُشَّة متآكِلة مائِلة، ربما كانت جُثَّةَ مخلوقٍ مجهول مِن آكلي اللحوم، رأيتُ مخلوقًا كريهًا يتحرَّك ويتنفَّس ويحمل تحت إبطه أداةً مِن خشب وسِلك، أداة تتألَّف من زوايا قائمة مستحيلة هندسيًّا.

أتساءلُ: تُرى ما الذي فكَّر فيه، ذلك الفتى المسكين مجهول الاسم، بغِرباله تحت إبطه، وجيوبه المنتفخة بمزيجٍ غريب مِن عُملات السُّيَّاح المعدنية الملوَّثة بالرِّمال؟ ما الذي فكَّر فيه عندما رآني أتمايل متوجِّهًا نحوه مثل مايسترو أعمى يمدُّ يديه عاليًا فوق أوركسترا مخبول؟ ما الذي فكَّر فيه بينما سقطَ آخر ضوء كاشفًا يديَّ أمامه، بحُمرتهما وفتحاتهما وبريقهما وحمولتهما من الأعين؟ ما الذي فكَّر فيه عندما أقدَمَت اليدان على تلك الإشارة المفاجئة الملوِّحة في الهواء، تمامًا قبل أن ينفجر دماغه؟!

أعرف ما الذي فكَّر فيه!

حسبتُ أنني قد اختلستُ نظرةً مِن فوق حافَّة العالَم وفي قلب نيران الجحيم ذاته.

***

جذَبَت الرِّيحُ الضِّمادات وفَكَّكَتها وجعلتها شرائط ضئيلةً متطايرة بينما كنتُ أفكُّها عن يديَّ. مسحت السحب البقايا الحمراء للغروب، وأظلمت الكثبان وكَسَتها الظِّلالُ. من فوقنا واصَلَت السُّحبُ سباقها وغليانها.

قلتُ بصوتٍ يُجاهدُ الرياح المتصاعدة: "لا بدَّ أن تعدني بأمرٍ واحد يا ريتشارد. عليكَ أن تجري إذا بدا لك أنني قد أحاول... أن أوذيك. أتفهم ذلك؟".

"نعم". كان قميصه بفتحة الرقبة الواسعة يتطاير ويرفرف مع الريح. كان وجهه متأهِّبًا، وفي طلائع الظُّلمة بَدَت عيناه أكبر قليلًا مِن مقابس الكهرباء.

سقطت آخر الضمادات.

نظرتُ إلى ريتشارد ونظروا إلى ريتشاد. رأيتُ وجهًا عرفته وأحببتُه منذ خمس سنوات، وهُم رأوا عمودًا حيًّا شائِهًا.

قلتُ بصوتٍ أجشّ: "هأنتَ تراهم، الآن تراهم".

بلا إرادة، تراجع خطوةً وحدة. لوَّثَ وجهه رُعبٌ مفاجئ غير مصدِّق. مزَّق السماء بَرقٌ، وسرى الرعدُ في السحب واسودَّ الماء كأنه نهر الجحيم ستيكس.

"آرثر...".

كم كان منظره بشعًا! كيف استطعتُ أن أعيش بالقُرب منه، وأن أتحدَّث إليه؟ لم يكن مخلوقًا، بل كان آفَةً خرساء، كان...

"اجرِ يا ريتشارد! اجرِ!"...

وجرى. جرى بوثباتٍ كبيرة متقافزة. صارَ محضَ هَيكلٍ أمام السماء الكابية. حلّقَت يداي عاليًا، حلّقَت فوق رأسي بإشارةٍ صارخة ودوَّارة، امتدَّت الأصابع للشيء الوحيد المألوف لها في هذا العالَم الكابوسي- امتدت نحو السُّحب.

وقد استجابت السُّحُب للنداء.

امتدَّ شريطُ برقٍ هائل أزرق وأبيض، بدا كأنه نهاية العالَم، وضربَ ريتشارد محيطًا إياه من كل جانب. آخر ما أتذكَّره هي الرائحة الكهربية الكريهة لغاز الأوزون ولاحتراق اللحم.

عندما أفقتُ وجدتُ نفسي جالسًا بكل هدوء على الرواق الأمامي لمنزلي، أتطلَّع نحو الكثيب الرملي الكبير. انقَضَت العاصفةُ وصَفَا الهواء وصارَ منعشًا. وبالأعلى شريحة فضية رقيقة تَبِينُ من القمر. كانت الرمال ملساء عذراء- بلا إشارة واحدة تنمُّ عن وجود ريتشارد أو العربة الصغيرة.

خفضتُ عينيَّ نحو يديَّ. كانت الأعين مفتوحة لكن لامعة. لقد أنهَكَت نفسها، وغَفَت.

علمت تمامَ العِلم ما كان يتوجَّب عليَّ عمله. قبل أن ينفتح الباب أكثر بأيِّ درجة؛ لا بدَّ مِن أن يُقفَل بإحكام. وللأبد. بدأت ألحظُ بالفعل أولى علامات التغيير في تركيب يديَّ نفسهما. أخذت الأصابع تقصر... وتتغيَّر.

كانت هناك مدفأة صغيرة في غرفة المعيشة، واعتدتُ في فصل الشتاء أن أضرم بعض النار إزاء برودة فلوريدا المبلَّلة. أشعلُ الآن نارًا، وأتحرَّك في عجلة، لم تكن لدي أي فكرة متى قد يستيقظون وينتبهون لما أفعل.

حين اشتعلت النار جيدًا ذهبت لخلفيَّة المنزل وأحضرت صفيحة كيروسين ونقَعتُ فيه كلتا يديَّ. استيقظوا على الفور، وصرخوا من الألم. أوشكتُ ألَّا أتمكَّن مِن الرجوع لغرفة المعيشة وللنيران هناك.

لكنني فعلت.

***

حدث كل ذلك منذ سبعة أعوام.

لم أزل هُنا، لم أزل أشاهدُ الصواريخ تنطلق. صار عددها أكثر في الفترة الأخيرة. لا بدَّ أنَّ الحكومة الحالية تحب برامج الفضاء. وقد تردَّد الحديث عن سلسلة أخرى مِن إطلاق مسابير مأهولة إلى كوكب الزهرة.

اكتشفتُ ما اسم الفتى، لكن ذلك لا يهمُّ. كان من أهل القرية، تمامًا كما ظَنَنتُ. لكنَّ أمه توقَّعَت أن يكون بات لدى صديقٍ في البَرِّ الرئيسي تلك الليلة، ولم تشعر بالقلق حتَّى يوم الاثنين التالي. أمَّا عن ريتشارد- يعني، اعتقدَ الجميعُ أن ريتشارد غريب الأطوار على كل حال. شكُّوا في أنه ربما عاد إلى ميريلاند أو استغرق في نزوةٍ مع امرأة ما.

أمَّا أنا، فقد تغاضَوا عني، مع أني، أنا نفسي، اكتسبتُ سُمعَةَ الشخص غريب الأطوار. على كل حال، كم عدد روَّاد الفضاء السابقين الذي يكتبون رسائل بوتيرة منتظمة إلى المسؤولين الحكوميين في واشنطن لإيصال فكرة مفادها أن أموال برامج استكشاف الفضاء من الخير أن تُنفَق في سُبُلٍ أخرى؟

صرتُ معتادًا تمامًا على تلك الخطَّافات المعدنية في نهاية ذراعيَّ. خلال السنة الأولى أو نحوها كنتُ أشعر بألم لا يطاق، لكن الجسد البشري قادِرٌ على التكيُّف مع أي شيء تقريبًا. وهكذا كما يُمكِنُك أن

تـرى الآن، فـإني أسـتطيع النَّقـر عـلى لوحـة مفاتيـح الآلـة الكاتبـة بدقَّـة ولُطـف. لا أتوقَّـع أننـي سـأجدُ أي صعوبـة مـع الخُطَّافَـيْن حـين أمسـك بالمسـدَّس وأضعـه فوَّهَتـه في فمـي وأضغـط الزنـاد. كـما تـرى، لقـد عـادوا مـن جديـد منـذ نحـو ثلاثـة أسـابيع.

ظَهرَت على صدري دوائر كامِلةٌ لاثنتي عشرة عينٍ ذهبية.

العصَّارة[1]

وصل الضابط هَنتون إلى المغسلة في اللحظة ذاتها التي كانت فيها سيارة الإسعاف تغادر المكان ببطء، مِن غير إطلاق سَرينة وبلا أضواء وامضة. علامة شؤم. بالداخل، كان المكتب مكتظًّا بالعمَّال الصامتين، وبعضهم يبكي. كانت مساحة المغْسَلة خاوية من الناس؛ المغاسل الأوتوماتيكية الضخمة في الطرف البعيد لم توقَف بَعد. وقد جعلَ هذا كله هنتون يتوجَّس شرًّا. ينبغي أن يكون الحشد مجتمعًا في مسرح وقوع الحادث، وليس في المكتب، فهكذا كانت تمضي الأمور دائمًا- إن الحيوان البشري فيه نزوعٌ غريزي لأن ينظر للبقايا والأشلاء. لا بدَّ إذَن أنَّ الحادث كان في غاية السوء. أحسَّ هنتون بأنَّ معدته تنقبض، كما اعتادَ عندما يكون الحادث شديد البشاعة. أربع عشرة سنة من

(1) عنوان القصة بالإنجليزية هو THE MANGLER، وهو تسمية دارجة للماكينة العملاقة التي تُجفِّف وتكوي الغسيل والبيَّاضات بالضغط الشديد، كما يتبيَّن من السياق، غير أن كلمة mangle تتضمَّن من بين معانيها الأخرى القتل والتمزيق والتشويه.

جمع الأشلاء البشرية مِن الطُّرُق السريعة والشوارع وأرصفة المشاة أسفل مبانٍ شاهقة الارتفاع، أربعة عشر عامًا لم تستطِع أن تمحو تلك الأنشوطة الصغيرة المعقودة في معدته، كما لو أنَّ شيئًا شريرًا قد تكتَّل هناك.

رجلٌ ذو قميص أبيض رأي هنتون فسارَ نحوه بخطًى متردِّدة، كان عريضَ الرقبة والصدر مثل الثيران، وقد برزَ رأسه للأمام من بين كتفيه، وعلى أنفه ووجنتيه ارتسمت بوضوحٍ الشُّعيراتُ الدموية المتَّسِعة؛ إمَّا نتيجة ضغط دمٍ مرتفع وإمَّا حوارات زائدة عن اللزوم يجريها مع زجاجات الشراب. كان يحاول أن يصيغ عبارة واضحة، لكن بعد محاولتين قاطعه هنتون بسُرعة:

"هل أنت السيد جارتلي؟ مالك المكان؟".

"لا... لا. أنا ستانر. رئيس العُمَّال. ربَّاه، كان ذلك...".

أخرج هنتون دفترَ ملاحظاته. "من فضلك يا سيد ستانر، أرِني مَوقعَ الحادث، وأخبرني بما حدث".

بدا أنَّ وجه ستانر يزداد شحوبًا؛ فبرزت اللطخ الحمراء على أنفه ووجنتيه كأنها وَحَمات.

"هل.. هل ينبغي عليَّ هذا؟".

رفع هنتون حاجبيه. "أخشى أنه كذلك. الاتصال الذي تلقيتُه أنبأني بأنَّ الأمر خطير".

"خطير...". بدا ستانر كأنه يصارع بلعومه؛ وللحظة أخذَت حنجرته تصعد وتهبط مثل قرد على غصن شجرة. "السيدة فراولي ماتت. بحقّ الله، أتمنَّى لو أنَّ بيل جارتلي كان هُنا".

"ما الذي حدث؟".

فقالَ ستانر: "يُستحسَن أن تتفضَّل حضرتك إلى هنا".

قـادَ هنتـون إلى جانـب صـفٍّ مِـن المكابِـس اليدويـة، ووِحـدة لِطَـيِّ القمصـان المكويـة، ثـم توقَّـف عنـد ماكينـة كبـيرة للغسـل والوَسـم. مـرَّر عـلى جبينـه يـدًا مرتعشـة. "سـيكون عليـك أن تذهـب إلى هنـاك بمفـردك، يـا حـضرة الضابـط. فأنـا لا أسـتطيع أن أرى ذلـك مـرة ثانيـة. يجعلنـي... أنـا لا أسـتطيع. أنـا آسـف".

سـارَ هنتـون حـولَ ماكينـة الوسـم يسـاوره شيءٌ مِـن الاحتقـار نحـو هـذا الرجـل. أمثـال هـؤلاء يسـتهينون بتأمـين منشـآتهم، ويوفـرون النفقات قـدرَ مـا اسـتطاعوا، ويُشـغِّلون مِرجـلًا يطلـق البخـار الحـيَّ عـبر أنابيـب ملحومـة مُعَـدَّة أساسًـا للاسـتخدامات المنزليـة، ويسـتعملون في التنظيـف مـوادَّ كيماويـة خطـرة مـن غـير اتخـاذ تدابـير وقائيـة مناسـبة، وفي نهايـة الأمـر، يتـأذَّى شـخصٌ مـا، أو يمـوت. ثـم إنهـم لا يسـتطيعون إلقـاء نظـرة. لا يسـتطيعون...

ورأى هنتون.

كانـت الماكينـة الكبـيرة لا تـزال تعمـل؛ إذ لم يوقفهـا أحـد. الماكينـة التـي سـوف يعرفهـا بعـد ذلـك معرفـة وثيقـة: هادلي-واتسُـن موديـل- 6 للـكَيِّ والطَّـيِّ السريعَـيْن. اسـم طويـل ومرتبـك. وقـد اختـارَ لهـا العاملـون هنـا وسـط البخـار والبَلَـل اسـمًا أفضـل: العصَّـارة.

رمـى هنتـون نظـرةَ طويلـة متجمِّـدة، ثـم بـدرَ منـه شيءٌ لم يسـبق أن فعلـه عـلى مـدى أربـع عـشرة سـنة مـن العمـل كضابـط مُنفِّـذ للقانـون؛ اسـتدارَ ووضـعَ يـدًا مرتعـدة عـلى فمـه، وتقيَّـأ.

***

قال چاكسُن: "أنتَ لم تأكل الكثير".

كانـت المرأتـان بالداخـل، تغسـلان الأطبـاق وتتحدثـان مـع الصِّغـار في مُلاطَفـة، بينـما كان چـون هنتـون ومـارك چاكسُـن جالسَـين في مقاعـد

الباحة الخفيفة بالقرب من الشِّواء ذي الرائحة الزَّكيَّة. ابتسم هنتون للتعبير المخفَّف، فهو لم يأكل شيئًا بالمرة.

قال: "كان هناك حادثًا سيئًا اليوم، بل إنَّه الأسوأ".

"حادث سيارة؟".

"لا. مُنشأة صناعية".

"أحدثَ فوضى كبيرة؟".

لم يُجِبه هنتون مِن فوره، لكنَّ تكشيرةَ أَلمٍ ارتسمت على وجهه رغمًا عنه. أخرج زجاجة بيرة من صندوق المبرِّد بينهما، فتحها، تجرَّع نصفها. "أفترضُ أنَّ الأساتذة الجامعيين مِثلك لا يعرفون أي شيء عن المغاسِل الصناعية الضخمة، صحيح؟".

ضحكَ چاكسُن ضحكةً صغيرة. "ليس في حالتي أنا، عندي فكرة جيدة. فقبل التخرُّج في الجامعة، قضيتُ إجازة صيفية أعمل في مغسلة صناعية".

"إذَن فأنتَ تعرف الماكينة التي يسمونها الكَي السريع؟".

أومأ چاكسُن برأسه. "طبعًا. يُدخِلون فيها الأشياء مفرودةً ومُبلَّلة، على الأغلب ملاءات وبياضات الأسِرَّة. إنها ماكينة كبيرة وطويلة".

قال هنتون: "هي تلك، امرأة تُدعَى آديل فراولي عَلقَت بداخلها في مَغسلة بلو ريبون على الناحية الأخرى من البلدة. لقد ابتلعتها الماكينة وامتصَّتها بداخلها".

بدا چاكسُن سقيمًا فجأة. "لكن... ذلك أمرٌ غير ممكن، يا چوني؛ فهناك قضيب أمان. إن حدثَ عَرَضًا أنَّ امرأة ممَّن يُدخِلون الملاءات في الماكينة وصلت يدها تحت السَّير فسوف يرتفع هذا القضيب بسرعة تلقائيًّا ويوقف الماكينة. أو على الأقل هذا ما أتذكَّره".

أومأ هنتون برأسه. "صحيح، هذا قانون الولاية. لكن هذا ما حدث".

أغمضَ هنتون عينيه، وفي الظلام كان بوسعه أن يرى مرة أخرى ماكينة هادلي-واتسن للكَيِّ السريع، كما رآها بعد ظهر هذا اليوم. تتَّخِذ شكلَ صندوق مستطيل ممتدٍّ، حوالي ثلاثين قَدَمًا في ستِّ أقدام. لدى الطرف الذي تُغذَّى بالغسيل مِنه، حِزامٌ من قماش القنَّب السميك يتحرّك تحت قضيب الأمان، يرتفع بزاوية طفيفة ثم ينزل من جديد. يحمل الحزامُ الملاءات المجعَّدة، نصف جافَّة نصف رطبة، في حلقة متواصلة، فوق وتحت ست عشرة أسطوانة دوَّارة ضخمة هي التي تشكِّل الكتلة الرئيسية للماكينة. بالأعلى ثماني أسطوانات وبالأسفل ثماني، ينضغط بينهما الغسيل كأنه شريحة رهيفةٌ للغاية من اللحم المقدَّد مضغوطة بين طبقات من الخبز شديد السخونة. يمكن ضبط درجة حرارة البخار في تلك الأسطوانات حتى تبلغ 300 درجة للوصول لأقصى تجفيفٍ مُمكِن. أمَّا درجة الضغط على الملاءات التي تمتطي ذلك الحزام القنَّب المتحرّك فيمكن ضبطها حتَّى تبلغ 800 رطلًا لكل قدَمٍ مربَّعةٍ بحيث تنفرد تمامًا كل تجعيدة في القماش.

وبطريقةٍ ما، فقد علَقَت السيدة فراولي وجُرجِرَت إلى داخل الماكينة. كانت أسطوانات الكي المغلَّفة بالحرير الصخريِّ حمراءَ مثل قرميد الحظائر، والبخار الصاعد مِن الماكينة فاحَ بالرائحة البشعة المثيرة للغثيان، رائحة الدم الساخن. كانت هناك مِزقٌ مِن بلوزتها البيضاء وسروالها الأزرق، بل حتَّى شرائط رفيعة من سوتيانها وسروالها التحتي، وقد تمزَّقَت وتفَكَّكَت وانقذفت على مسافة ثلاثين قدمًا بعيدًا عن الماكينة، الأجزاء الأكبر من ثيابها وصلت للجزء الخاص بالطي الأوتوماتيكي، فطوَتها الماكينة بدقَّةٍ ونظام وهي مُلطَّخة بالدم؛ فبدا منظرها غريبًا وبشعًا. غير أنَّ ذلك كله لم يكن هو الأسوأ.

***

قـالَ لچاكسُـن، وفي حلقـه طعـمُ مـرارة: "لقـد حاولَـت الماكينـة أن تطـوي كل شيء، لكـنَّ جسـد إنسـانٍ ليـس مِثـل مـلاءة، يـا مـارك. مـا رأيتُـه... مـا تبقّـى مِنهـا... مـن جسـدها..."، حـدث لـه عندئـذٍ مـا حـدث لسـتانر، رئيـس العـمّال تَعِـسِ الطّالـع، حـينَ عجـزَ عـن إنهـاء جملتـه. قـال بصـوتٍ ضعيـف: "لقـد حملوهـا في سـلّة غسـيل".

أطلـقَ چاكسُـن صفـيراً سريعًـا. "ومَـن الـذي سـيتحمّل المسـؤولية؟ المغسـلة أم مفتّشـو الولايـة؟".

فقـالَ هنتـون: "لسـتُ أعلـم بَعـد". كانـت الصـورة المؤذيـة لم تـزل معلّقـة وراء عينيـه، صـورة العصّـارة وهـي تنبـض مُصـدرةً فحيحهـا وهسيسـها، والـدم المتقطّـر منهـا عـلى الجوانـب الخـضراء للمقاصـير الطويلـة في القنـوات، ونَـتن احـتراق الجسـد، جسـدها... "يتوقّـف الأمـر عـلى مَـن الـذي صرّح بـأنّ قضيـب الأمـان اللعـين ذلـك لا خطَـرَ منـه، وتحـت أيـة ظـروف".

"إن كانت مسؤولية الإدارة، ألا يستطيعون التملُّص والإفلات؟".

ابتسـم هنتـون مـن غـير دعابـة. "لقـد ماتـت المـرأة، يـا مـارك. وإذا كان كلٌّ مِـن جارتـلي وسـتانر يوفِّـر مِـن نفقـات صيانـة ماكينـة الـكَيِّ السريـع؛ فسـوف يُسـجنَان. مهـما كان مقـام معارفهـما في مجلـس المدينـة".

"أتظنُّ أنهما كانا يوفِّران مِن نفقات الصيانة؟".

فكّـر هنتـون في مغسـلة البلـو ريبـون، بإضاءتهـا الضعيفـة، وأرضياتهـا المبتلّـة والزّلقـة، وبعـض ماكيناتهـا العتيقـة بدرجـة غـير معقولـة والصريـر المزعـج الـذي يصـدر عنهـا، وقـال بهـدوء: "أظـن أنَّ هـذا مُحتَمَـل".

نهضـا واقِفَـيْن ليدخُـلَا المنـزل معًـا. قـال چاكسُـن: "أخـبرني كيـف انتهـى الأمـر، يـا چـوني، فأنـا مُهتمٌّ".

***

كان هنتـون مُخطئًـا بشـأن العصَّارة، فقـد كانـت الماكينـة عـلى خـير مـا يُـرام.

ذهـبَ سِـتّة مِـن مفتِّـشي الولايـة وفحصوهـا قطعـةً قطعـة قبـل بـدء التحقيـق. وكانـت النتيجـة النهائيـة ألَّا شيء فيهـا بالمـرة. انتهـى التحقيـق إلى الحُكـم بأنَّهـا وفـاة عـن طريـق الخطـأ ولا ذنـب فيهـا لأحـد. شـعرَ هنتـون بالذهـول جـرَّاء هـذا، وحـاصرَ بالأسـئلة روجـر مارتِـن وهـو أحـد المفتِّشـين السِّـتَّة، بعـد جلسـة نَظـر القضيـة. كان مارتـن رجـلًا وسـيمًا لطيفًـا، يضـع نظَّـارات لهـا عدسـتان سـميكتان مثـل قعـر كـوب المـاء. أخـذ يحـرك بعصبيَّـة قَلـمَ حـبر جـافٍّ بـين أصابعـه تحـت وابـل أسـئلة هنتـون.

"لا شيء؟ لا شيء بالمرة في الماكينة؟".

فقـال مارتـن: "لا شيء، بـكل تأكيـد، كان قضيـب الأمـان هـو جوهـر المسـألة. وهـو سـليم ويعمـل عـلى أفضـل نحـو. لقـد سـمعتَ شـهادة السـيدة چيليـان بنفسـك. لا بـدَّ أنَّ السـيدة فـراولي قـد دفعـت يدهـا لأبعـد مـمَّا يجـب. لم يـرَ أحـدٌ ذلـك؛ كان كلٌّ يراقـب عملـه. بـدأت تـصرخ. كانـت يدهـا قـد سُـحِبَت عندئـذٍ، وأخـذت الماكينـة تسـحب ذراعهـا. حاولـوا شـدَّها للخـارج بـدلًا مِـن أن يوقِفـوا الماكينـة- بسـبب الذُّعـر التـام. قالـت امـرأة أخـرى، السـيدة كـين، إنهـا حاولـت أن توقِـفَ الماكينـة، ولكـن مـن المنطقـي افـتراض أنهـا ضغطـت زرَّ التشـغيل بـدلًا مـن زر الإيقـاف في ارتباكهـا، وعندئـذٍ كان قـد فـات أوان فِعـل أي شيء".

"كان قضيـب الأمـان معطَّـلًا إذَن، وإلَّا لوضعَـت يدهـا فوقـه وليـس تحتـه؟".

"ليـس بوسـعها ذلـك؛ إذ تُوجـد واجهـةٌ مِـن الصُّلـب المقـاوم للصـدأ فـوق قضيـب الأمـان. كـما أنَّ القضيـب نفسـه لم يكـن مُعطَّـلًا؛ فهـو موصـول بعَمـل الماكينـة ذاتهـا، فـإن تعطَّـل القضيـب سـوف تُوقِـفُ الماكينـة ذاتهـا تلقائيًّـا".

"فَكيف حدثَ هذا بحقِّ الله؟".

"لا ندري. الرأي الذي اتَّفقنا عليه أنا وزملائي هو أنَّ السبيل الوحيد لحدوث ذلك أن تكون السيدة فراولي قد سقطت داخل ماكينة الكي السريع مِن الأعلى فالتهمتها الماكينة عندئذٍ. وقد كانت كلتا قَدَمَا السيدة على الأرض عندما وقعت الحادثة. أكثر من عشرة أشخاص كانوا حاضرين وشهدوا بذلك".

فقالَ هنتون: "أنتَ تصف حادثًا مستحيلًا".

"غير صحيح، إنه فقط حادثٌ لا نفهمه". توقَّف لحظة وبدا عليه التردُّد، ثم قال: "سأخبركَ بأمرٍ واحد، يا هنتون، بما أنك تبدو متأثرًا فعلًا بهذه القضية. لكن إذا ذكرتَ هذا لأي شخص فسوف أنكر أنني قلتُه لك. أنا لم أشعر بالارتياح لتلك الماكينة. فقد بَدَت... كأنها تسخر منَّا تقريبًا. لقد أجريتُ تفتيشًا على أكثر مِن عشر ماكينات كَي سريع خلال الخمس سنوات الأخيرة بوتيرة منتظمة. وبعضها في حالة سيئة للغاية بحيث لن أدعَ مخلوقًا يقترب منها ولو كان كلبًا مِن غير رِسْن- قانون الولاية رَخوٌ لدرجة مُحزِنة. لكنها جميعها كانت مجرَّدَ ماكينات على كل حال، أمَّا هذه بالذات... فهي مثل شبحٍ مخيف. لا أدري سببًا لذلك، ولكن هكذا الأمر. أعتقدُ أنني إذا وجدتُ عيبًا واحدًا، ولو مِن الناحية التقنية؛ لكان ذلك سببَ العُطل، ولكنتُ أصدرتُ قرارًا بإيقافها. جنون، صح؟".

قال هنتون: "لا، فقد أحسستُ بمثل هذا تمامًا".

قال المفتش: "دعني أحكِ لك أمرًا حدث منذ عامين في ميلتون"، وخلع نظارته وأخذ يمسحها ببطء في صِدارِه. "وضعَ شخصٌ ما صندوقَ ثلجٍ قديمًا في باحة بيته بالخارج. ثم اتَّصلَت بنا امرأة وقالت إن كلبها عَلَقَ بداخل الصندوق حتَّى اختنق. توصَّلنا لرجل شرطة الولاية المسؤول عن المنطقة لإبلاغ صاحب الصندوق القديم بأنَّ عليه أن

يأخـذه إلى مكـبِّ نفايـات البلـدة. هـذا رجـلٌ لطيـفٌ ودَمِـث، واعتـذر بشـأن الكلـب، وحمَّـل الصنـدوق عـلى سـيارة نصـف نقـل وأخـذه إلى المكـبِّ في الصبـاح التـالي. في أصيـل ذلـك اليـوم نفسـه أبلغـت امـرأة في الحـيِّ عـن اختفـاء ابنهـا".

قال هنتون: "ربَّاه".

"كان صنـدوقُ الثلـج في المكـبِّ والولـد بداخلـه، ميِّتًـا. وهـو ولَـدٌ ذكيٌّ، وفقًـا لـكلام والدتـه. قالـت إنـه لـن يلعـب في صنـدوق ثلـج فـارغ بقـدر مـا أنـه لـن يركـب سـيَّارةً مـع رجـل غريـب. تمـام، لكنـه فعـل. وحرَّرنـا المحـضر وانتهينـا، فهـل أُغلِقَـت القضيـة؟".

قال هنتون: "أظنُّ هذا".

"أبـدًا. الرجـل المسـؤول عـن المكـبِّ ذهـب في اليـوم التـالي ليخلـع البـاب عـن الصنـدوق. بهـذا يقـضي قانـون المدينـة رقـم 58 لصيانـة ورعايـة مكبَّـات القمامـة العامـة". نظـرَ مارتـن إليـه بوجـهٍ جامـد الملامـح. "فوجـدَ سـتَّةَ طيـور ميِّتـة بداخلـه. نـوارس، وعصافـير دُوري، وطـير أبي الحنَّـاء. وقـالَ إن البـاب انغلـق عـلى ذراعـه بينـما كان يكنسـها خارجـه؛ مـا جعلـه يقفـز بعيـدًا وهـو مذعـور. تبـدو لي تلـك العصَّـارة في مغسـلة بلـو روبِـن مثـل ذلـك الصنـدوق تمامًـا، يـا هنتـون. لا أرتـاحُ لهـا".

نظـر كلٌّ منهـما إلى الآخـر دونمـا كلمـة واحـدة مـن أيِّهـما في غُرفـة التحقيـق الخاليـة إلَّا منهـما، وعـلى مسـافة سِـتِّ نـواصٍ مـن شـوارع المدينـة مِـن موضعهـما هـذا كانـت ماكينـة هادلي-واتسـن موديـل 6 للـكي والطـي السريـع قائمـةً جاثمـة في المغسـلة التـي تعـجُّ بالعمـل والحركـة، نافثـةً بخارهـا ودخانهـا فـوق المـلاءات.

***

مكتبة
t.me/t_pdf

ما هو إلَّا أسبوع حتى صُرِفَت القضية مِن عقله تحت ضغوط أعمال شُرطيَّة أخرى لا يعوزها الإملال والروتين. ولم تخطر بباله مِن جديد إلَّا عندما ذهب هو وزوجته في زيارة سريعة إلى منزل مارك چاكسُن ذات مساء من أجل لَعب مباراة كوتشينة رباعية مع شرب بعض البيرة.

عاجله چاكسُن قبل التحية قائلًا: "هل سبقَ أن تساءلتَ يا چوني، إن كانت ماكينة المغسلة التي حكيتَ لي عنها مسكونة؟".

طرفَ هنتون بعينيه، في حيرة: "ماذا؟".

"ماكينة الكي السريع في مغسلة بلو ريبون، أظن أنَّ الصراخ لم يبلغ مَسمعك هذه المرة".

تساءل هنتون وقد ثار اهتمامه: "صراخ؟ أي صراخ؟".

ناوله چاكسُن جريدة المساء وأشارَ إلى خبر في أسفل الصفحة الثانية. ذكرت القصَّة أنَّ خطَّ بُخار قد انفكَّ منفلتًا على ماكينة الكي السريع الكبيرة في مغسلة بلو ريبون؛ ما تسبَّب في إحراق ثلاث سيدات مِن ستٍّ يَعمَلن على تغذية الماكينة بالبياضات. وقع الحادث في الساعة الثالثة وخمس وأربعين دقيقة بعد الظهر، ويُعزى سببه إلى ارتفاع مفاجئ في ضغط البخار مِن مِرجَل المغسلة. نُقِلَت إحدى السيدات -وهي السيدة آنيت چيليان- إلى مستشفى المدينة لاستقبال الحالات الطارئة، وقد أصيبت بحروقٍ مِن الدرجة الثانية.

قال: "حادث غريب"، لكنَّ ذكرى كلمات المفتش مارتن في غرفة التحقيق الخالية قد عاوده فجأة: مِثل شبحٍ مخيف... وكذلك تلك القصة عن الكلب والصبي والطيور الذين علقوا جميعًا داخل الثلَّاجة التي رماها صاحبها.

كان أداؤه في لعب الورق ضعيفًا للغاية تلك الليلة.

***

كانت السيدة چيليان مُمدَّدة على سريرها، ومستندة بظهرها على الوسائد، وهي تقرأ مجلة أسرار الشاشة عندما دخل هنتون إلى عنبر المستشفى ذي الأربعة أسرَّة. كانت إحدى ذراعيها مغطاةً بضِمادةٍ كبيرة وجانب عنقها أيضًا. النزيلة الأخرى في الغرفة شابَّة مُمتَقَعة الوجه، وكانت نائمة.

طرفت السيدة چيليان بعينيها عند رؤية الزِّيِّ الرسمي الأزرق، ثم رسمت ابتسامة متردِّدةً على وجهها. "إذا كنتَ قد أتيتَ مِن أجل السيدة شيرنيكوف فسوف تضطرٌ لأن تعود لاحقًا؛ فقد أعطوها دواءها توًّا".

"لا، أنا هنا مِن أجلك، يا سيدة چيليان". تَقلَّصَت ابتسامتها قليلًا. "إنني هنا بشكلٍ غير رسمي- ما يعني أنِّي مُهتمٌّ بأن أعرف أكثر حول الحادث في المغسلة الصناعية. أنا چون هنتون". ومدَّ يده مصافحًا.

كانت هذه هي الخطوة الصحيحة، فقد أشرَقَت ابتسامة السيدة چيليان وصافَحَته بصعوبةٍ بِيَدِها غير المحروقة. "سأخبرك بكل ما تريد، يا سيِّد هنتون. ربَّاه، لقد ظننتُ أنَّك أتيتَ لأنَّ ابني آندي تسبَّب في مشكلة في المدرسة مرَّةً أخرى".

"ما الذي حدث؟".

"كنَّا نُدخِل الملاءات في الماكينة عندما انفجرت ببساطة- أو هكذا بدا الأمر. كنتُ أفكر في أن أذهب للبيت وأُخرِجَ الكلاب قليلًا عندما دوَّى هذا الانفجار الكبير، كأنه قنبلة. كان البخار في كل مكان وضجَّة الفحيح هذه... شيء فظيع". ارتعَشَت ابتسامتها وأصبحت على وشك أن تختفي تمامًا. "بدا الأمر كما لو أنَّ الماكينة كانت تتنفَّس، بدت كأنها تنِّين. وآلبرتا صاحت -آلبرتا كين تلك- بأنَّ شيئًا ما ينفجر فأخذ الجميع يركضون ويصرخون، وبدأت چيني چاسُن تصيح بأنها احترَقَت. أخذتُ أجري مبتَعِدةً فسقطتُ على الأرض. لم أكن أعلم

مـدى سـوء حالتـي حتَّـى تلـك اللحظـة. لكـن اللـه سـلَّم ولم يقـع لي مـا هـو أشـدُّ سـوءًا. ذلـك البخـار الحـي الصاعـد مـن المِرجَـل هنـاك كانـت حرارتـه ثلاثمائـة درجـة".

"ذكرت الصحيفة أنَّ خط البخار قد أفلتَ. ماذا يعني ذلك؟".

"معنـاه أن يسـقط الأنبـوب العلـوي عـلى هـذا الخَـطِّ المَـرِن نوعًـا الـذي يُغـذِّي الماكينـة بالبخـار. چـورچ -أقصـد السـيد سـتانر- قـالَ إنـه لا بـدَّ أن هنـاك فَـوَران انبعـث مِـن المِرجَـل أو شيء مـا. انشـقَّ الخَـطُّ وانفتـح عـلى وسـعه".

لم يخطـر لهنتـون أي شيء آخـر يمكـن أن يسـتفسر عنـه. كان يتأهَّـب للرحيـل حينـما قالـت بتفكُّـر: "لم نَعتـد أبـدًا عـلى أن يقـع هـذا النـوع مِـن الحـوادث مـع تلـك الماكينـة. بـدأ هـذا في الفـترة الأخـيرة فقـط. انفجـار خَـطِّ البخـار. وذلـك الحـادث الفظيـع الشـنيع الـذي وقـعَ للسـيدة فـراولي، رحمهـا اللـه. وأشـياء صغـيرة. مِثـل ذلـك اليـوم الـذي اشـتبك فيـه طـرف ثـوب إيـزي في أحـد السلاسـل الـدَّوَّارة، كان يمكـن لذلـك أن يكـون خطـيرًا لـو أنهـا لم تُمزِّقـه في الحـال. صواميـل تَنفَـكُّ وأشـياء تتسـاقط. آه، قـضى هـيرب ديمنـت -وهـو عامـل الصيانـة والإصلاحـات في المغسـلة- وقتًـا عصيبًا مـع ذلـك كلـه. الملاءات تَعلَـق داخـل ماكينـة الطَّيِّ. يقـول چـورچ إن ذلك بسـبب اسـتخدام كميـات مفرطـة مـن المبيِّضـات في المغاسـل، لكـن ذلـك لم يحـدث مـن قبـل بالمـرة. الآن صـارت البنـات يكرهـن العمـل عليهـا. بـل إنَّ إيـزي قالـت إنَّـه مـا زال بداخلهـا قِطَـعٌ مـن آديـل فـراولي عالِقَـة، وأنَّ هـذا تدنيـسٌ لحُرمَـة المـوتى أو أمـر كهـذا. كـما لـو أنَّ هنـاك لعنـة مـا. كان الأمـر عـلى ذلـك النحـو منـذ أن جَرحـت شـيري يدهـا في أحـد الكلابـات".

تساءل هنتون: "شيري؟".

"شيري أوليت. صبية صغيرة جميلة، أنهت المدرسة الثانوية لتوِّها. عاملة جيدة. لكنها "تضرب لخمة" أحيانًا. أنت تعرف كيف هُنَّ البنات الصغيرات".

"جرحت يدها على شيءٍ ما؟".

"لا شيء غريب في ذلك. هناك كُلّابات لرَبط وإحكام حزام التغذية بالملاءات، فاهمني؟ كانت شيري تضبطها بحيث يمكننا أن نُدخلَ طلبيَّةً أثقل في الماكينة، وغالبًا كانت شارِدةً في أحلامها بشابٍّ ما. جرحت أصابعها وسال الدم في كل مكان". بَدَت الحيرة على وجه السيدة چيليان. "منذ ذلك الحادث بالضبط بدأت الصواميل تنفكُّ. ووقَعَت حادثة آديل.... كما تعلم... بعد ذلك بنحو أسبوع. كما لو أنَّ تلك الماكينة تذوَّقَت طعمَ الدم فأعجبها. اعذرني، ولكن النساء يراودهنَّ أغرب الأفكار، صحيح يا حضرة الضابط هِنتان؟".

"هَنتُون"، قال شاردَ البال، ناظرًا أعلى رأسها في الفراغ.

***

كانت مُفارقة مُضحِكة أنه التقى بمارك چاكسُن في مغسلة ثياب صغيرة، عند الناصية التي تفصل بين منزليهما، وفي هذا المكان تحديدًا لطالما أجرى ضابط الشرطة وأستاذ اللغة الإنجليزية أشد حواراتهما تشويقًا.

الآن هُما جالسان جنبًا إلى جَنبٍ في مقاعد بلاستيكية لَدِنَة، وغسيل كلٍّ منهما يدور ويدور وراء الكوَّتين الزُّجاجيَّتين في الغسَّالات التي تُشَغَّل بالعُملات المعدنية. وقد وضعَ چاكسُن نسخته ذات الغلاف الورقي مِن مختارات مِلتون إلى جانبه مُعرِضًا عنها بينما يُنصِت إلى هَنتون وهو يحكي له قصة السيدة چيليان.

عندما أتمَّ هنتون القصة قال له چاكسُن: "سألتك مرة إن كنت تعتقد أن العصَّارة قد تكون مسكونة. آنذاك كنتُ أقول ذلك نصف مازح، والآن سوف أكرِّر نفس السؤال مرة ثانية".

فقالَ هنتون بانزعاج: "كلَّا، دعكَ مِن الحماقة".

نظرَ چاكسُن للغسيل الدوَّار متأمِّلًا. "ربما تكون مسكونة كلمة غير مناسبة، فلنَقُل إنَّ شيئًا ما استحوذ عليها وتملَّكها. ثمَّة تعاويذ كثيرة للغاية لاستحضار الشياطين، تقريبًا بنفس كثرة التعاويذ التي تطردها. كتاب "الغُصن الذَّهبي" لفريزر حافلٌ بها، كما أنَّ المعتقدات التقليدية لكَهَنة الكلتيين وشعب الأزتيك تحتوي على تعاويذ أخرى. حتَّى الحضارات الأقدم، وصولًا إلى الحضارة المصرية. وجميع تلك التعاويذ تقريبًا يمكن اختزالها في بعض القواسم المشتركة بينها بشكلٍ مُذهِل. والعنصر الأشد شيوعًا بينها، بالتأكيد، هو دَمُ صبيَّةٍ عذراء". ونظرَ إلى هنتون. "قالت السيدة چيليان إنَّ المشاكل بدأت بعد أن جَرحت شيرلي أوليت هذه نفسها من غير قصد".

قال هنتون: "باللهِ، تعقَّل".

فقال چاكسُن: "لا بدَّ أن تعترف بأنَّ هذا يبدو مثل النمط الشائع تمامًا".

قال هنتون بابتسامة صغيرة: "سوف أركض إلى منزلها. أستطيع تخيُّل المنظر. (آنسة أوليت، اسمحي لي، أنا الضابط چون هَنتون. أحقِّق في قضية سيئة لماكينة الكي التي استحوذ عليها شيطانٌ ما، وأريد أن أعرف إن كنتِ عذراء). هل تظنُّ أنني ستتاحُ لي فرصة لأودِّع ساندرا والأطفال قبل أن يشحنوني إلى سرايا المجانين؟".

قال چاكسُن مِن غير أن يبتسم: "كنتُ واثقًا أنكَ ستردُّ عليَّ بكلام مثل ذلك. إنني جاد، يا چوني. تلك الماكينة تصيبني بالذعر الشديد دون حتَّى أن تقع عيناي عليها".

قال هنتون: "على سبيل الافتراض، ليس أكثر، ما هي بعض تلك القواسم المشتركة المزعومة؟".

رفعَ چاكسُن منكبيه في حيرة. "يصعب عليَّ القول بدون دراسة. أغلب صِيغ التعاويذ والرُّقَى الأنجلوسكونية تشير إلى تراب من المقابر أو عين ضفدع. كثيراً ما تذكر التعاويذ الأوروبية يدَ السمو، والتي يمكن تأويلها على أنها يد حقيقية لرجلٍ ميِّت أو على أنها أحد العقاقير المسبِّبة للهلوسة التي ارتبطَ استخدامها بطقوس تجمُّعات الساحرات في العصور الوسطى- غالبًا نبتة "ست الحُسن" أو أحد مشتقَّات السيلوسيبين. وقد تكون هناك أشياء أخرى".

"وأنت تظنُّ أنَّ كل تلك الأشياء قد دخلت إلى ماكينة البلو ريبون؟ بالله عليك، يا مارك، أراهن أنه لا وجود لنبتة "ست الحُسن" على مسافة خمسمائة ميلٍ من هُنا في كل الاتجاهات. أم أنَّكَ تظنُّ أنَّ أحدهم خلع يَدَ عمِّه الراحل فريد ورمى بها في الماكينة؟".

"إذا واصلَ سبعمائة قرد النَّقرَ على آلة كاتبة لسبعمائة عام...".

أنهى هنتون جملته في حِدَّة: "فسوف ينتهي أحد القرود إلى كتابة أعمال شكسبير، "غُور في داهية". إنه دورك لتعبر الشارع حتَّى الصيدلية وتجلب بعض الأرباع المعدنية من أجل ماكينات التجفيف".

***

ما أشد غَرابة الطريقة التي فقدَ بها چورچ ستانر ذراعه في العصَّارة.

في السابعة مِن صباح الاثنين كانت المغسلة خالية مِن العُمَّال، فيما عدا ستانر وهيرب ديمنت، عامل الصيانة. كانا يُجريان العملية نصف السنوية لفحص وتشحيم تروس ومحامِل العصَّارة، قبل أن يبدأ يوم العمل الاعتيادي للمغسلة في السابعة والنصف. كان ديمنت في

الطرف البعيد للماكينة، يشحِّم الخطوط الاحتياطية الأربعة ويفكِّر في هذه الماكينة وكيف انتابته نحوها مشاعر سيئة في الفترة الأخيرة، وحينذاك زمجرت العصَّارة وسَرَت فيها الحياة فجأة.

كان يمسك عاليًا بأحزمة القنَّب الخارجية الأربعة حتَّى يستطيع الوصول إلى المحرِّك مِن تحتها، وفجأة أخذت الأحزمة تتحرَّك وتدور بين يديه، مُنتزعةً اللحم من راحتيه، وساحبةً إيَّاه معها.

قبل أن تحملَ الأحزمة يديه إلى داخل الحاوية بثوانٍ معدودة تمكَّن من انتزاع نفسه بعيدًا بنَفْضة لا إرادية.

صاحَ: "بحقِّ الله، يا چورچ! أوقِفْ ذلك الشيء اللعين فورًا!".

غير أنَّ چورچ ستانر بدأ يصرخ.

كان عويلًا عاليًا، داميًا مُثيرًا للجنون، ملأ أركان المغسلة وردَّدَت صداه الواجهاتُ الصُّلب للغسَّالات والأفواهُ الفارغة لمكابس البخار والأعينُ الخاوية للمجفِّفات الضخمة. شهق ستانر شهقةً لاهثة من الهواء وصرخ من جديد: "آه، ربَّاه، أنا عَلقت، أنا عَلقت...".

بدأت الأسطوانات تُصدِر بخارًا متصاعدًا. وحاوية الطَّي أخذت تصرُّ وتخفق وتنبض. وبدا كأنَّ التروس والسيور والمحرِّكات تهدرُ بحياةٍ خفِيَّة خاصَّة بها.

هُرعَ ديمنت إلى الطرف الآخَر للماكينة.

كانت الأسطوانة الأولى بدأت بالفعل تصطبغ بحُمرَةٍ شريرة. صدرَ عن حَلق ديمنت صوت أنين وابتلاع الريق. وكانت العصَّارة لا تزال تصدر عواء وخفقانًا وفحيحًا.

لو أنَّ شخصًا أصمَّ تابع هذا المشهد لربَّما ظنَّ للوهلة الأولى أنَّ ستانر كان منحنيًا وحسب فوق الماكينة، ولكن بزاوية غريبة. ولكن حتَّى هذا الأصمُّ كان سيرى وجهه المتقع وعينيه الجاحظتين وفمه

الملتوي في صرخة ممتدَّة لا تنقطع. كانت الذراع مختفية تحت قضيب الأمان وتحت أوَّل الأسطوانات الدوَّارة؛ وقماش قميصه مُمزَّقًا من عند خياطة الكتف وقد انتفخَ عضده حتَّى المرفق بصورة بشعة غريبة؛ إذ كان الضَّغطُ يدفع الدماء للخلف في اطِّراد.

صرخَ ستانر: "أوْقِفْها!". وصدرَ صوت طقطقة إذ انكسرَ مرفقه.

ضغطَ ديمنت على زِر الإيقاف بإبهامه.

واصَلَت العصَّارة الهمهمة والزمجرة والدوران.

لم يصدق ما يحدث، فأخذَ يضربُ الزِّرَّ مرَّةً بعد أخرى بلا طائل. ازدادَ جِلدُ ذراع ستانر بياضًا وانشدادًا. وسرعان ما سوف ينشقُّ ويتصدَّع تحت الضغط الواقع عليه مِن الأسطوانة الدوَّارة؛ وكان هو لم يزل واعيًا ولم يزل صارخًا. راودت ديمنت صورة كارتونية لرجلٍ يُفرَد جسده تحت أسطوانة بخار حتَّى يصبح مسطَّحًا تمامًا، ولا يتبقَّى منه غير ظِلٍّ.

صرخَ ستانر بصوتٍ كالعواء: "الصِّمامات...". كان رأسُه ينجرُّ لأسفل، وأسفل، بينما كان يُسحَب أكثر فأكثر.

استدارَ ديمنت بسرعة وركضَ إلى غرفة المِرجَل، كانت صرخات ستانر تطارده مثل أشباحٍ مسعورة، وتَعَبَّق الهواء بزَنَخ الدم والبخار.

على الجدار عن يساره وجدَ ثلاثة صناديق رمادية ثقيلة تحتوي صمامات كهرباء المغسلة بالكامل. فتحَها ديمنت بعُنفٍ وبدأ ينزع الصمامات الأسطوانية الطويلة مثل مجنون، ويرمي بها وراء ظهره. انطفأت الأنوار التي في الأسقف؛ ثُمَّ آلة ضغط الهواء؛ ثم المرجل نفسه، بصوت حشرجة احتضار غليظة.

ومع ذلك ظلَّت العصَّارة دائرة، وصرخات ستانر قد تقلَّصَت إلى أنَّات فُقَاعيَّة.

بالمصادفة وقعت عينا ديمنت على بلطة الحريق في صندوقها ذي الباب الزجاجي، فأمسكها بِآهةٍ مكتومة وركض عائدًا. كانت ذراع ستانر قد اختفت تقريبًا حتَّى الكتف. في غضون ثوانٍ سينكسر ظهره المنحني وعنقه المشدود تحت وطأة قضيب الأمان.

قال ديمنت بانتحاب، ممسكًا البلطة: "يا ربي، لا أستطيع، يا چورچ، لا، لا أستطيع...".

الماكينة صارت الآن مَسْلخًا. بصقت الحاوية خارجها مِزقًا مِن كُم القميص، ونتفًا مِن اللحم، وإصبع. صرخَ ستانر بشهقة هائلة وأرجحَ ديمنت البَلطَة للأعلى ونزل بها وسط الظلمة المهيمنة على المغسلة مرةً. مرتين. ثم ثالثة.

سقطَ ستانر بعيدًا، فاقدًا للوعي والدم المائل للزُّرقة يتفصَّد مِن الجَدَعة التي خلَّفتها الذراع المبتورة أسفل الكتف مباشرة. امتصَّت العصَّارة ما تبقَّى بداخلها... ثم توقَّفَت عن العمل.

كان ديمنت يبكي بينما انتزع حزامه من عُرَاه وبدأ يعقد مِرقأةً لوقف النزيف.

***

كان هنتون يتحدَّث على الهاتف مع المفتِّش روجر مارتن. وأخذ چاكسُن يتابعه بعينيه بينما يدحرج كرةً للأمام وللوراء حتَّى تلاحقها باتي ابنة هنتون ذات الثلاثة أعوام.

كان هنتون يتساءل: "نزعَ جميع الصمامات؟ وضغطَ زِر الإيقاف ولم يعمل، ها؟.. هل تمَّ إيقاف ماكينة الكي؟ جيد. ممتاز. ها؟... لا، هذا ليس بصفةٍ رسميَّة". قطَّب هنتون جبينه، ثم ألقى نظرة بطرف عينيه نحو چاكسُن. "ألا يزال ما يقع يُذكِّرك بحادث تلك الثلَّاجة، يا روجر؟... نعم، وأنا أيضًا. مع السلامة".

وضع السمَّاعة ونظر نحو چاكسُن. "لنذهب ونرَ تلك الفتاة، يا مارك".

***

كانت تملك شقَّةً خاصَّةً بها. كشفَ لها هنتون عن شَارة الشرطة، وخمَّن أنَّها امتلكت هذه الشقة منذ فترة قريبة، عبرَ طريقتها في مُرافَقَتِهم للداخل في تردُّدٍ وإن لم تَخلُ من تباهٍ بما تملك. جلسَت قُبالتهم في حرجٍ، في غرفة الجلوس المعتَنَى بأثاثها وزينتها، والمعلَّق على جدرانها صور طوابع بريدية مُكبَّرة.

"أنا الضابط هنتون وهذا زميلي، السَّيِّد چاكسُن. أتينا بخصوص حادث المغسلة". شعرَ بتوتُّر هائل إزاء هذه الصَّبيَّة سوداء الشَّعر، بحُسنها وحيائها.

غمغمت شيري أوليت: "أمرٌ رهيب، أنا لم أعمل قَطُّ في مكانٍ آخَر غير هذا. فالسَّيِّد جارتلي عَمِّي. أحببتُ العمل لأنه يسمح لي بأن أقيم في هذا المكان وأن أكتسب صديقات. ولكن الآن... أصبحَ مخيفًا جدًّا".

قال هنتون: "أصدرَ مجلس الولاية لأمان المنشآت الصناعية قرارًا بإيقاف ماكينة الكيِّ تمامًا إلى حين إنهاء تحقيق كامل في الأمر. هل بلغكِ هذا؟".

"بالتأكيد". زَفَرَت في قلق. "لا أدري ماذا سأفعل...".

قاطعها چاكسُن: "آنسة أوليت، لقد وقعَ لك حادث مع نفس الماكينة، صحيح؟ جرَحتِ يَدَكِ في أحد الكلَّابات، على ما أظن؟".

"صحيـح، جرحـت إصبعـي". وفجـأة تكـدَّرَت ملامـح وجههـا. "كان ذلـك هـو أوَّل شيء يحـدث". نظَـرَت نحوهـما في حُـزن. "أشـعرُ أحيانًـا كأنَّ الفتيـات لم يَعُـدن يحببنني بعـد مـا حـدث، كـما لـو كان الذنـب ذنبـي".

قـال چاكسُـن ببطء: "ينبغـي علـيَّ أن أطـرح عليـكِ سـؤالًا صعبًا، سـؤالًا لـن يعجبـكِ. إنـه يبـدو أمـرًا خاصًّـا وشـخصيًا بدرجـة مُذهِلَـة، وبعيـدًا عـن موضوعنـا كذلـك، لكنـي أؤكِّـد لـكِ أنـه ليـس خـارج الموضـوع، وأنَّ إجاباتـك لـن تُسـجَّل عـلى الإطـلاق في تقريـر أو مَحضَر".

بدا عليها الذُّعر. "هل... هل فعلتُ شيئًا؟".

ابتسـم چاكسُـن وهـزَّ رأسـه نافيًـا ذلـك؛ فلانـت ملامحهـا. قلـتُ في نفـسي الحمـدُ للـه عـلى وجـود مـارك معـي.

"سـوفَ أضيـف لمـا قلتُـه، مـع ذلـك: إن إجابتَـكِ ربمـا تسـاعدكِ عـلى الاحتفـاظ بهـذه الشـقة الصغـيرة اللطيفـة، وأن تسـتردِّي عملـكِ مـرة أخـرى، وأن تعـود الأمـور لطبيعتهـا في المغسـلة".

فقالت: "لأجل ذلك كله سأجيب عن أي سؤال".

"شيري، هل أنتِ عذراء؟".

بَـدَت الصبيَّـةُ مَذهولـةً تمامًـا، ومصدومـة تمامًـا، كـما لـو أنَّ قسِّيسًـا في الكنيسـة ناولهـا القربـان ثـم صفعهـا عـلى خدِّهـا. ثـم رفعـت رأسـها، وأشـارت بيدهـا نحـو شـقتها الصغـيرة المرتَّبـة، كـما لـو أنهـا تسـألهما كيـف يمكـن لهـما أن يعتقـدا أنَّ هـذا المـكان يصلـح عُشًـا للغراميـات السريـة.

قال ببساطة: "إنني أدَّخِر نفسي لمَن سيكون زوجي".

نظـر هنتـون وچاكسُـن إلى أحدهـما الآخَـر في هـدوء، وفي تَكَّـة تلـك الثانيـة، أدركَ هنتـون أنَّ ذلـك بكاملـه كان حقيقـة: لقـد اسـتحوذ شـيطانٌ مـا عـلى تلـك العصَّـارة الجامـدة المصنوعـة مـن الصلـب، بتروسـها

وأسطواناتها، استحوذ عليها شيطانٌ ما وحوَّلها إلى كائنٍ آخر له حياته الخاصة.

قال چاكسُن بهدوء: "شكرًا لكِ".

***

تَساءلَ هنتون في فتورٍ وغَمٍّ بينما يقودان السيارة في طريق العودة: "وماذا الآن؟ هل نعثر على قِسٍّ قادر على طرد الشياطين مِن الماكينة؟".

أصدرَ چاكسُن نخرةً ساخرة. "سيكون عليكَ أن تقطع مسافات بعيدة لكي تعثر على واحد لا يأخذكَ على قدر عقلك ويناولك بضعة منشورات دعائية تقرؤها بينما يتَّصِل هو بسرايا المجانين. لا بدَّ أن نمسك الزمام بين أيدينا، يا چوني".

"وهل نقدرُ على هذا؟".

"ربما. مُشكِلَتُنا كالتالي: إننا نعلم أنَّ ثمة شيئًا ما في العصَّارة، لكننا لا نعلم ماذا يكون". سَرَت قشعريرة برد في بدن هنتون، كأنما لمسته إصبعٌ مِن عَظم. "ثمَّة شياطين كبرى عديدة. فهل هذا الذي نتعامل معه من دائرة باستيت أم بان؟ أم بَعل؟ أم الكيان الذي نسمِّيه الشَّيطان؟ إننا لا نعلم. إذا كان الشَّيطان استُدعِيَ عن عمدٍ وقَصدٍ لكانت فرصتنا في طرده أفضل، لكنَّ هذه تبدو حالة استحواذ وقعَ بمحض صُدفة عشوائية".

مرَّر چاكسُن أصابعه خلال شَعره. "دَمُ عذراء، نعم. لكنَّ هذا لا يُضَيِّق النطاق إلَّا بالكاد. لا بدَّ أن نكون واثقين ممَّا نفعل، واثقين تمامًا".

"ولكـن لمـاذا؟". سـأل هنتـون بصراحـة فجَّـة. "لمـاذا لا نجمـع حِفنـةً مـن صِيـغ ووصفـات طـرد الشـياطين ونُجرِّبهـا؟".

تجمَّـدت ملامـح چاكسُـن في بـرود. "هـذه ليسـت لعبـة عَسـكر وحراميـة، يـا چـوني. باللـه عليـك، لا تحسـبها كذلـك. إن طقـوس طـرد الشـياطين خطـيرة بدرجـة رهيبـة. إنهـا عـلى نحـوٍ مـا مثـل إجـراء تجربـة انشـطار نـووي تحـت السـيطرة التامَّـة. يمكـن أن نقـترف خطـأ فندمِّـر أنفسـنا. إن الشـيطان عالِـقٌ في تلـك الماكينـة، ولكـن امنحـه فقـط فرصـة وسـوف...".

"يخرج حُرًّا؟".

فأجـابَ چاكسُـن في عبـوس: "إنـه يتـوق للخـروج بقـدر مـا يحـب القتـل".

***

كان هنتـون قـد أرسـل زوجتـه وابنتـه إلى السـينما، عندمـا زاره چاكسـن مسـاء اليـوم التـالي مبـاشرة. كانـت غرفـة الجلـوس تحـت تصرُّفهـما بمفردهـما، وكَـم اسـتراح هنتـون لذلـك. لم يـزل غـيرَ مُصـدِّقٍ هـذا الـذي تـورَّطَ فيـه.

قـالَ چاكسُـن: "ألغيـتُ فصـولي اليـوم، وقضيـتُ النهـار بطولـه مـع كُتُـبٍ تتنـاول أَشرس الأربـاب والشـياطين التـي يمكنـك أن تتخيَّلهـا. وسـاعةَ العصر غذَّيـتُ جهـازَ الكمبيوتـر بأكـثر مِـن ثلاثـين وصفـة مـن وصفـات اسـتدعاء الشـياطين. وحصلـت عـلى عـدد مـن العنـاصر المشـتركة، والمفاجـأة أنهـا قليلـة".

عـرضَ القائمـة عـلى هنتـون: دم عـذراء، تـراب مقابـر، يـد السـمو، دم خفَّـاش، طحالـب ليليـة، حافـر حصـان، وعـين ضفـدع.

كانت هناك عناصر أخرى، اعتُبِرَت جميعها ثانويَّةً.

قال هنتون مفكِّرًا: "حافر حصان، غريب...".

"إنه شائعٌ جدًّا. في الحقيقة أنَّ...".

قاطعه هنتون: "هل يمكن لتلك الأشياء -أو لأيٍّ منهم- ألَّا يؤخَذ بمعناه الحرفي؟".

"تقصد مثلًا إذا جُمِعَت الأَشنات ليلًا أَفلا تكون بديلًا لطحالب الليل؟".

"أَجَل".

قال چاكسُن: "هذا محتَملٌ جدًّا، لَطالما كانت الوصفات السِّحرية غامضة ومطَّاطة. وقد تَركت تلك الفنون السوداء على الدوام مساحةً للإبداع الشخصي".

قال هنتون: "وهكذا تحلُّ حلوى الچيلي محلَّ حافِر الحصان، إنه صنف شائع جدًّا في أكياس غداء العمَّال. وقد لاحظتُ إناءً صغيرًا يحوي بعضًا منه موضوعًا تحت منصَّةِ فَردِ الملاءات قبل إدخالها ماكينة الكَيِّ، في ذلك اليوم الذي تُوفِّيت فيه السيدة فراولي. يُقَالُ إنَّ الچيلاتين يُصنَع من حوافر الخيل".

أومأ چاكسُن موافقًا. "وماذا أيضًا؟".

"دمُ الخفاش... تَمام، إنه مكان ضخمٌ، ومليءٌ بالكثير مِن الأركان والشقوق غير المضاءة. ويبدو وجود الخفافيش أمرًا واردًا، مع أنني أشكُّ في أنَّ الإدارة قد تعترف به. ومِن الجائز جدًّا أن يكون أحد الخفافيش قد وجد نفسه محبوسًا داخل العصَّارة".

مالَ چاكسُن برأسه للوراء، وبمفاصل إصبعين فركَ عينيه المحمَرَّتَين. "معقول... هذا كله معقول ومنطقي".

"أهو كذلك؟".

"نَعم. يمكننا أن نستبعد يدَ السمو مطمئنين، على ما أعتقد. بكل تأكيد لم يُسقِط أحدٌ يدًا في الماكينة قبل وفاة السيدة فراولي، ونبتة "ست الحسن" عنصر غريب على المنطقة بلا شك".

"وتراب المقابر؟".

"ماذا تعتقد؟".

قال هنتون: "ستكون هذه مُصادَفَة عجيبة بعيدة الاحتمال، فإنَّ أقرب مقبرة هي بيلزنت هيل، وتلك على مسافة خمسة أميال من مغسلة بلو ريبون".

قال چاكسُن: "تَمام، لقد جعلتُ زميلي مُشَغِّل الكمبيوتر، الذي لا بدَّ أنه اعتقد أنني أستعدُّ لأعياد الهالووين، جعلتُه يُجري تحليلًا مُثبتًا لجميع عناصر القائمة، سواء الأساسية أو الثانوية، بحيث يصل إلى كل تركيبة ممكنة. وقد تخلَّصت مِن نحو أربع وعشرين وصفة بدت عقيمةً تمامًا. أما الأخرى التي تبقَّت فقد شكَّلت فئاتٍ واضحة ومُحدَّدة بدرجة معقولة، والعناصر التي عزلناها تُشكِّل معًا إحدى تلك الوصفات".

"ما هي؟".

ابتسم چاكسُن: "وصفة سهلة. إنها تخصُّ تعاويذَ مَركَزُها أمريكا الجنوبية، ولها أفرع في منطقة الكاريبي، تتَّصِل بممارسات سِحر القودو. الكتب التي اطَّلعتُ عليها تعتبر تلك الكيانات أدنى منزلةً بمنتهى الحسم، مقارنةً بساداث أو ذلك-الذي-لا-يُسمَّى. أراهنكَ بأنَّ الشيء المستحوذ على الماكينة سوف ينسلُّ بعيدًا مثل متنمِّر الحَيِّ".

"كيف سنجعله يفعل؟".

"ماءٌ مُقدَّس وقدر قليل من خبز القربان المقدَّس، لا بدَّ أن يكونا كافِيَيْن. ويمكننا أن نقرأ بعضًا مِن سِفر اللاويِّين عليه؛ سِحر مسيحي أبيض لا تشوبه شائبة".

"أأنت متأكِّد من أنَّنا لن نزيد المبلة طينًا؟".

فقالَ چاكسُن متفكِّرًا: "لا أرى ما قد يؤدي لهذا. لا بأس مِن أن أخبرك بأن القلق ساورني من ناحية يد السمّو تلك. فتلك مسألة سحر أسود خالِصَة، من نوع الچوچو، سِحرٌ شديد".

"ولن يُبطله الماء المقدَّس؟".

"لو استُخدِمَت يد السمّو تلك في طقس استدعاء أحد الشياطين؛ يكون بوسعه أن يتناول دستةَ نُسَخ من الكتاب المقدَّس على الفطور. وسنكون في موقفٍ عسير جدًّا إن نحنُ استثرنا كيانًا مثل ذلك بالمرة. وسيكون مِن الأفضل آنذاك تمزيق ذلك الشيء اللعين إربًا".

"طيِّب، لكن هل أنت واثق تمامًا...".

"ليس تمامًا، أنا واثق بدرجةٍ معقولة. فكل شيء يبدو منطقيًّا ومتماسكًا على خير نحو".

"فَمتى إذَن؟".

قال چاكسُن: "كُلَّما أسرعنا كان خيرًا. لكن كيف سندخل؟ هل هنكسر نافذة؟".

ابتسم هنتون، ومدَّ يده في جيبه، وأخرج مفتاحًا يتلاعب به أمامَ أنف چاكسُن.

"كيف حَصَلتَ على ذلك؟ مِن جارتلي؟".

فقال هنتون: "بل مِن أحد مُفتِّشي الولاية، اسمه مارتن".

"وهل يعرف ماذا نفعل؟".

"أعتقد أنه يشكُّ في الأمر. وقد حكى لي حكايةً غريبة منذ أسبوعين تقريبًا".

"حكاية تخصُّ العَصَّارة؟".

فقال هنتون: "لا، بل تخصُّ ثلَّاجة. هيًّا بنا".

***

تُوفِّيت آديل فراولي؛ وخِيطَ جسدها معًا على يد مُتعهِّد موتى يتحلَّى بالصبر، وهي راقدةٌ في كفنها. ومع ذلك فربما بقي في الماكينة جزءٌ مِن روحها، وإن كان كذلك فقد صرخَ هذا الجزء عاليًا. لو أنها كانت تعلم لحذَّرتهم. كانت عُرضة لمشكلات عُسر الهضم، ومن أجل هذا المرض الشائع كانت تتناول أقراصًا رائجةً للمعدة تسمَّى إي-زد چيل، يَسهُلُ شراؤها من فوق نُضُدِ أيِّ صيدليَّةٍ بتسعة وسبعين سنتًا. ثمَّة تحذير مطبوع على جانب العبوة يقول: يحظر تناول هذا الدواء على مَن يعانون مِن المياه الزرقاء؛ لأنَّ العنصر الفعَّال يُفاقِم مِن تلك الحالة. وبكل أسف، لم تكن آديل فراولي تعاني مِن تلك الحالة. لو كانت لا تزال حيَّة لربما تذكَّرَت أنها قد أسقطت مِن غير قصد عبوة كاملة من تلك الأقراص في داخل العصَّارة، حدث ذلك قُبيل أن تجرح شيري أوليت يدها. لكنها الآن ميتة، وغير مدركة أنَّ العنصر الفعَّال لهذا الدواء الذي يُخفِّف من حُرقة معدتها كان أحد المشتقَّات الكيماوية من نبتة "سِتّ الحسن"، والمعروفة باسمٍ غريبٍ وجَذَّاب في بعض الدول الأوروبية، وهو يد السمّو.

في الصمت الشبحي المخيِّم على مغسلة بلو ريبون، سَرَى فجأةً صوتُ تَجشُّؤ رهيب- رفرفَ خفَّاشٌ بجنون مفتِّشًا عن كوَّته المحفورة في المواد العازلة فوق المجفِّفات حيث جثم وقد لفَّ جناحيه حول وجهه الأعمى.

كانت أصوات غريبة كأنها ضحكات مكتومة.

أخذت العصَّارة تدور برضرضة مفاجئة ومترنِّحة- أسرعت الأحزمة تتسابق وسط الظلام، والتروس تتباعد وتشتبك وتسحق، والبكرات الأسطوانية الثقيلة تضغط وتطحن، بينما تتعاقب وتواصل الدوران مرَّةً بعد مرَّة.

كانت الماكينة مستعدةً لاستقبالهما.

***

تجاوز الوقتُ منتصفَ الليل بقليل والقمر محجوب وراء كُتلة طافية مِن السُّحب، حينما قادَ هنتون سيارته إلى ساحة الانتظار. ضغطَ على المكابح وأطفأ الأضواء بحركة واحدة؛ كاد رأسُ چاكسُن أن يرتطم بالتابلوه المبطَّن.

بمجرَّدَ أن أطفأ مُحرِّك السيارة حتَّى اتَّضح الضجيج الثابت مِن الطَّرق والفحيح المتواصِلَيْن. قال ببطء: "إنها العصَّارة، إنها العصَّارة. تدير نفسها بنفسها، في منتصف الليل".

لبثا جالسَين وَهلة في صمت، وكلٌّ منهما يشعرُ بالخوف يزحف صاعدًا على ساقيه.

قال هنتون: "لا بأس. هيَّا، لنعمل ما علينا".

خرجا من السيارة وسارا إلى المبنى، كان صوت العصَّارة يَعلو أكثر فأكثر. حين وضع هنتون المفتاح في قفل باب الخدمة الخلفي فكَّر في أنَّ الماكينة بدت من صوتها حيَّةً حقًّا- كما لو كانت تتنفَّس بشهقات حارَّة هائلة وتتحدَّث لنفسها عبرَ الفحيح بهمساتٍ هازئة ذات فحيح.

قالَ چاكسُن: "لأوَّل مرَّة أشعرُ بالسرور لأنني برفقة رَجُل شرطة". ونقل الكيس الورقيَّ الذي حمله معه من ذراعٍ إلى أخرى، في الكيس

كان برطمان صغير ممتلئ بالماء المقدَّس، وقد لفَّ البرطمان بورقٍ مُشمَّع، وأيضًا نسخة جمعية جدعون من الكتاب المقدَّس.

اجتازا الباب ودخلا، ومدَّ هنتون يده وضغط أزرار النُّور بجانب الباب، فومضت مصابيح النيون وأضاءت بحياةٍ باردة. في اللحظة نفسها توقَّفت العصَّارة عن العمل.

وفوق أسطواناتها تَدلَّى غشاءٌ مِن البخار. كانت بانتظارهما في صمتها الجديد المُنذِر بالشَّرِّ.

همسَ چاكسُن: "ربَّاه، إنها شيءٌ قبيح".

قال هنتون: "هيَّا، قبل أن تخوننا شجاعتنا".

سارا حتَّى العصَّارة، كان قضيب الأمان في موقعه، فوق الحزام الذي يغذِّي الماكينة بالغسيل.

مدَّ هنتون إحدى يديه. "نحن قريبان بما في الكفاية، يا مارك. أعطني الأشياء وأخبِرْني بما عليَّ أن أفعل".

"لكن...".

"لا مجال للنِّقاش".

ناوله چاكسُن الكيس الورقيَّ ووضعه هنتون على منضدة الملاءات قبالة الماكينة. أعطى الكتاب المقدس لچاكسُن.

قال چاكسُن: "سوف أقرأ، وعندما أعطيك إشارة، انثُر الماء المقدَّس على الماكينة بأصابعك. وأنت تقول: باسم الآب، والابن، والروح القدس، اخرُج مِن هذا المكان، أيها النَّجِس. فَهِمتَني؟".

"أَجَل".

"وحين أعطيك إشارةً في المرة الثانية، اكسَر رقاقة القربان وكَرِّر نفس التعويذة مرة أخرى".

"وكيف سنعلم إن كان هذا ناجعًا؟".

"ستعلم. الأرجح أنَّ هذا الشيء في خروجه سيكسر كل نافذة موجودة في المكان. وإن لم نفلح في المحاولة الأولى سوف نواصل تكرار الطقس نفسه مرة بعد أخرى حتى ننجح".

قال هنتون: "أنا ميِّت مِن الرُّعب".

"وأنا أيضًا، بكل صراحة".

"وماذا لو كنَّا مُخطِئين بخصوص يد السمّو...؟".

چاكسُن: "لسنا مُخطِئين، هيا بنا".

وبدأ يتلو، ملأ صوته المغسلة الخاوية بأصداء شَبَحيَّة. "لا تلتفتوا إلى الأوثان، وآلهةً مسبوكةً لا تصنعوا لأنفسكم. أنا الرَّب إلهكم...". كانت الكلمات تتساقط كالحصوات في صمتٍ أصبحَ فجأة مشحونًا ببردٍ مخيف كأنه برد القبور. ظلَّت العصَّارة ساكِنةً وصامتة تحت أضواء النيون، أمَّا بالنسبة لهنتون فقد بدت كأنها لا تزال تبتسم باستهزاء. "فلا تقذفكم الأرضُ بتنجيسكم إيَّاها كما قذَفَت الشعوبَ التي قَبلكم". رفع چاكسُن بصره، كانت ملامح وجهه مُتوتِّرة مشدودة، وأعطى صاحِبَه الإشارة.

نثرَ هنتون الماء المقدَّس عبرَ حزام الماكينة.

انبعثت فجأة صرخةٌ كأنها صرير أسنان لمعدنٍ يتعذَّب. صعدَ البخارُ مِن المواضع التي لمسها الماء المقدَّس على أحزمة القنَّب الخَشِن، وأخذت تتلوَّى وظهرت أشكالٌ مخضَّبة بالحُمرة. في لمح البصر كانت العصَّارة تهتزُّ وتنتفض بالحياة.

صاحَ چاكسُن بصوتٍ يعلو الضجيج المتصاعد: "لقد نلنا منه! إنه يحاول الفرار!".

شرعَ يقـرأ مـن جديـد، وعـلا صوتـه فـوق صـوت الماكينـة. وأعطـى هنتـون الإشـارة الثانيـة، وأخـذ هنتـون ينـثر بعضًـا مِـن فُتـات القُربـان. وبينـما كان يفعـل هـذا اجتاحتـه بغتـةً مَوجَـةُ ذُعـرٍ يُجمِّـد العظـام، إحسـاسٌ مفاجـئ وواضـح بـأنَّ خطـأً مـا قـد وقـع، وبـأنَّ الماكينـة قـد نجحـت في خداعهـم- وبأنهـا كانـت الطـرف الأقـوى.

كان صوت جاكسن لا يزال يتصاعد، مقاربًا لحظة الذروة.

بـدأت شرارات تومـض متواثِبـةً عـبر القـوس مـا بـين المحـرِّك الرئيـسي والمحـرِّك الثانـوي؛ وامتـلأ الهـواء بِنَفـح غـاز الأوزون، مثـل رائحـةٍ نُحاسـيَّةٍ لـدمٍ سـاخن. يُطلـقُ المحـرِّكُ الرئيـسي الآن دخانًـا؛ وصـارت العصَّـارة تـدور بسرعـة مجنونـة تغـشى الأبصـار؛ لـو أنَّ إصبعًـا واحـدة لمسـت الحـزام المركـزي فسـوف يُسـحَب جسـد صاحـب هـذه الإصبـع كامـلًا ويُلتَهـم بالداخـل ويتحـوَّل إلى بِسـاطٍ دمـوي في خمـس ثـوانٍ لا أكـثر. كانـت أرضيَّـة الإسـمنت تحـت أقدامهـم ترتـجُّ وتُدَمـدِمُ.

انفجـرَت إحـدى سـبائك المحَـرِّك الرئيسـية بوميـض احـتراق بنفسـجيٍّ، ومـلأت الهـواء البـارد برائحـة عواصـف رعديَّـة، ولم تَـزَل العصَّـارة تـدور، أسرع فـأسرع، والأحزمـة والأسـطوانات الـدوَّارة والـتروس تتحـرَّك بسرعـةٍ تجعلهـا جميعًـا تختلـط وتندمـج معًـا، وتتغـيَّر، وتـذوب، وتتحـوَّل شـيئًا آخَـر...

هنتـون، الـذي ظـلَّ واقفًـا في موضعـه يـكاد يكـون منوَّمًـا، تراجـع خطـوة للـوراء فجـأة. وصرخ عاليًـا فـوق الضَّجَّـة المدويـة "اهـرَبْ!".

أجابه جاكسُن صائحًا: "أوشكنا أن ننالَ منه! فلماذا...".

انبثعـت فجـأةً جَلجلـة انشـقاقٍ لا سـبيل لوصفهـا، وأخـذ شِـقٌّ يـسري ممتـدًّا في الأرضيـة الإسـمنتية فجـأة ويتَّجـه صوبهـم ويتجاوزهـم مُتَّسِـعًا أكـثر فأكـثر. تطايـرَت شـظايا مـن الإسـمنت القديـم لأعـلى مثـل انفجـارات نجميـة.

نظر چاكسُن نحو العصَّارة وصرخ.

كانت الماكينة تحاول أن تخلع جذورها مِن أرضية الإسمنت، مثل ديناصور يحاول الفرار مِن حفرة ممتَلِئَة بالقطران. ولم تَعُد ماكينةً بالضبط، كانت لم تزل تتغيَّر، وتنصهر. سقط كابل الكهرباء بقوة 550 ڤولت على الأسطوانات الدَّوَّارة، وهو يفحُّ نارًا زرقاء، ويتآكل متضائلًا. للحظة حَدَّقَت إليهما كرتان ناريَّتان كأنهما عينان برَّاقتان، عينان مترعتان بجوعٍ عظيم بارد.

انفتحَ شِقٌّ ممدود آخر. ومالَت العصَّارة نحوهما ما إن تحرَّرَت مِن القواعد الإسمنتية التي ترتكز عليها. حدَّقت فيهما شذرًا؛ ارتفعَ قضيبُ الأمان بصوت لَطمةٍ، فأصبح ما رآه هنتون هو فمٌ فاغرٌ وجائع ممتلئ بخارًا.

استدارا ليَركُضَا فانفتح شِقٌّ آخَر من تحت أقدامهما. ومن ورائهما، عَلَت زَمجَرةُ صيحةٍ كبرى حينما أصبحَ الشيء حُرًّا تمامًا. وثب هنتون للأعلى، ولكن چاكسُن تعثَّر ووقع منبطحًا.

استدار هنتون إليه ليساعده، فسقط فوقه ظلٌّ عظيم لا شكل له، وحجب عنه أنوار مصابيح النيون.

وقفَ الشيءُ فوق چاكسُن، الذي رقد على ظهره، يحدِّق إلى الأعلى بفَمٍ فاغرٍ في صرخة رُعبٍ صامتة- الأُضحية المثالية. لم يَبقَ في وعي هنتون إلَّا انطباعٌ مُرتَبِكٌ بشيء ما أسود يتحرَّك ويبلغ جُرمه ارتفاعًا شاهقًا فوقهما كليهما، شيء بعينين تبرقان بوميض كهربيٍّ وكل عين في حجم كرة قدم، وفمٍ فاغرٍ على آخره فيه لسان مِن حزام القنَّب المتحرِّك.

ركضَ؛ بينما تتبعه صرخة چاكسُن وهي تتلاشى وتغيب.

***

عندما استطاع روجر مارتن أن ينزل أخيراً عن فِراشه ليجيب على مَن يدقُّ جرس بابه، كان لم يُفِق بعدُ ولو ثُلُث إفاقة؛ لكن حينما رأى هنتون يدخل مترنِّحًا، تيقَّظ تمامًا على إثر صدمة صفعته بيدٍ شديدة ودفعته إلى العالم الحقيقي.

جحظت عينا هنتون من رأسه في جنون، وتحوَّلت يداه إلى مخالب إذ أخذ يخربش قميص نوم مارتن مِن قُبُل. كان على خدِّه جُرحٌ صغير يتفصَّد منه الدم، ووجه مغطًّى بفتات رمادي من غبار مسحوق الإسمنت.

وقد صار شَعرُه أبيضَ شاحِبًا منطفئًا.

"ساعِدْني... بحقِّ المسيح، ساعِدْني. مارك مات. چاكسُن مات".

فقال مارتن: "على مهلك، تعال لغرفة المعيشة".

تبعه هنتون، مُصدِرًا أصوات نحيب ونشيج غليظة، تشبه ما قد يصدر عن كلب.

صبَّ له مارتن مقدارًا كبيراً مِن ويسكي جِم بيم، فأمسك هنتون القدحَ بكلتا يديه، وصبَّ الخمر غير المُخفَّف في جوفه بجرعة خانقة. ثم أسقطَ القدحَ على السجادة بلا اهتمام، ومن جديد عادت يداه، مثل شَبحَيْن هائِمَيْن، تبحثان عن تلابيب مارتن للإمساك بها من جديد.

"العصَّارة قتلت مارك چاكسُن. إنها... إنها... آه، يا ربي، ربما تكون قد خَرَجَت! لا يمكننا أن ندعها تَخرُج! لا يمكن..لا يمكننا... آه". وبدأ يصرخ، شهقات مجنونة ترتفع وتنخفض في حلقات خشنة مسنَّنة.

حاولَ مارتن أن يناوله شرابًا آخَر، لكن هنتون دفع القدح جانبًا. قال: "لا بدَّ أن نحرقها. نحرقها قبل أن تتمكَّن من الخروج. آه، ماذا لو أنها خرجت؟ آه، يا يسوع، ماذا لو...". فجأة طرفت عيناه، والتمعت،

ودارت في محجريها للأعلى حتَّى ظهر بياضُهما، وسقطَ على السجادة فاقدًا الوعي مثل حَجر.

كانت السيدة مارتن تقف بمدخل الباب، تقبض على ياقة روبها حول رقبتها. "مَن يكون هذا، يا روچ؟ وهل هو مجنون؟ اعتقَدتُ أنَّ...". واستولت عليها رجفة.

"لا أظنُّه مجنونًا". شعرت بالرُّعب فجأة مِن الظِّلّ السميك للخوف الذي كسا وجه زوجها. "كم أدعو الله أن يكون قد وصل إلى هنا بسرعة كافية".

واستدار نحو الهاتف، والتقط السمَّاعة، ثم تجمَّد في موضعه.

سمع أصواتًا خافتة، تعلو وتتَّضِح، من ناحية شرق المنزل، نفس الطريق الذي أتى منه هنتون. قرقعة طاحنة، ذات إيقاع ثابت، ترتفع أكثر فأكثر. كانت نافِذَة غُرفَة المعيشة نِصفَ مفتوحة، وتَبيَّن مارتن الآن في الهواء رائحةً قاتمة. نفحة من غاز الأوزون.... أو الدماء.

وقفَ ويده على الهاتف الذي لا نفع منه الآن، بينما أخذ صوت الطحن والسَّحق يعلو والدخان يقترب، وكان شيء ما في الشوارع ساخنًا ويطلق بخارًا. وامتلأت الغرفة بزَنخ الدماء.

سقَطَت يَدُه عن الهاتف.

فات الأوان، فإنها الآن في الخارج.

البُعبُع

"أتيتُ إليكَ لأنني أريدُ أن أحكي قصتي لشخصٍ ما"، هذا ما قاله الرجل الجالس على أريكة دكتور هاربر. كان اسمُ الرجل ليستر بيلينجز من واتربيري، كونيتكِت. وِفقًا لبياناته التي أخذها الطبيب مِن الممرِّضة فيكرس، كان يبلغ ثمانية وعشرين عامًا، موظَّفًا في شركة صناعية مقرُّها نيويورك، ومطلَّق، وأب لثلاثة أطفال. مات ثلاثتهم.

"لا أستطيعُ الذهاب إلى قِسٍّ لأنني لستُ كاثوليكيًّا. ولا أستطيع الذهاب إلى محامٍ لأنني لم أفعل أي شيء تلزمه استشارة محامٍ. كل ما فعلتُ هو أنني قتلتُ أطفالي. واحدًا منهم كلَّ مرة. قتلتُهم جميعًا".

شغَّل دكتور هاربر جهاز مسجِّل الشرائط الصغير.

تمدَّد بيلينجز على الأريكة مستقيمًا تمامًا كأنَّه مسطرة قياس خشبية طويلة، من غير أن يسترخي ولو بأهون قدر مُمكِن. برزت قدماه متصلِّبَتَيْن فوق حافة الأريكة. المثال الحي لشخصٍ مُضطر

لتحمُّل مَذلَّةٍ لا مهربَ له منها. طوى يديه معًا على صدره كما يفعلون مع الجُثَث المُعَدَّة للدفن. وحرص على أن يحتفظ بوجهه جامدًا تمامًا. نظرَ للسقف الأبيض الصريح كما لو كان شاشةً يرى عليها مشاهدَ وصُوَرًا تتجسَّد هنالك.

"أتقصد أنكَ قتلتهم فِعلًا، أم...".

"لا". انتفضت يدُه في ضيق. "لكني كنتُ مسؤولًا. مات داني في 1967. وشيريل في 1971. وآندي هذا العام. أريد أن أحكي لك القصة".

لم يَقُل دكتور هاربر شيئًا. فكَّر في أنَّ بيلينجز يبدو مهزولًا مُسِنًّا، كان شعره خفيفًا وبشرته شاحبة. حملت عيناه كلَّ أسرار الويسكي التعِسة.

"لقد قُتلوا، تفهمني؟ المشكلة أنه لا أحد يصدِّق ذلك. لو أنهم يُصدِّقون فسوف ينصلح الحال".

"لكن لماذا؟".

"لأنَّ...".

توقَّف بيلينجز عن الكلام فجأة ونهض قليلًا معتمدًا على مرفقه، مُحدِّقًا إلى نقطةٍ ما على الناحية الأخرى من الغرفة. سأل بصوتٍ حاد: "ما ذلك؟"، ضاقت عيناه فكأنهما فتحتان سوداوان.

"ماذا تقصد؟".

"ذلك الباب".

فقال دكتور هاربر: "إنها الخزانة، حيث أعلِّق مِعطفي وأترك حذائي المطَّاطي العازِل".

"افتَحْه. أريد أن أرى بنفسي".

فقـامَ دكتـور هاربـر دونمـا كلام، واجتـاز الغرفـة، وفتـح الخزانـة. في الداخـل، معطـف مطـر حِنطـيُّ اللـون مُعلَّـق عـلى واحـدٍ مِـن أربعـة أو خمسـة مشـاجب. بالأسـفل كان حـذاء مطَّاطـي طويـل الرقبـة لامـع، وفي إحـدى فردتيـه نُسـخَة مـن مجلـة نيويـورك تايمـز مدسوسـة بعنايـة. ولا شيء غـير ذلـك.

سأله دكتور هاربر: "تمام؟".

"تمام"، أجابَ بيلينجز وفردَ مرفقيه مُستعيدًا وضعه السابق.

قـال دكتـور هاربـر بينـما يعـود للجلـوس في مقعـده ثانيـة: "كنـتَ تقـول إنـه إذا أمكـنَ إثبـات جريمـة قتـل أطفالـك الثلاثـة فـإنَّ جميـع مشـكلاتك سـوف تنتهـي. لمـاذا؟".

فقـال بيلينجـز عـلى الفـور: "لأننـي سـوف أُسـجَن، سـجنًا مؤبَّـدًا. وفي الزنازيـن يمكـن للمـرء أن يـرى كامـل المسـاحة ولا يمكـن أن يختفـي فيهـا شيء. كامـل المسـاحة". ابتسـم بـلا سـبب.

"كيف قُتلَ أطفالك؟".

"لا تحاول أن تستعجلني!".

ارتعد جسد بيلينجز وحدَّق في حنقٍ نحو هاربر.

"سـأحكي لـك، لا تقلـق. لسـتُ واحـدًا مِـن مخابيلـك الذيـن يتبخـترون متباهـين ومتظاهريـن بأنهـم نابليـون، أو أحـد الذيـن يـبرِّرون قائلـين أنـا أدمنـتُ الهيرويـن لأنَّ أمـي لم تحبنـي. أعلـم أنـك لـن تصدقنـي، ولا أكـترث. هـذه مسـألة غـير مهمـة. يكفينـي أن أحـكي قصتـي".

"تمام"، قال دكتور هاربر وأخرج غَليونه.

"تزوَّجـتُ ريتـا سـنة 1965- كنـتُ في الحاديـة والعشريـن وهـي في الثامنـة عـشرة. كانـت حُبـلى. كان ذلـك هـو داني". الْتَـوَت شـفتاه بتكشـيرة ممطوطـة مخيفـة وسرعـان مـا اختفـت في لمـح البـصر. "اضطرتنـي هـذه

الظـروف لأن أهجـر الدراسـة في الجامعـة وأن أشـتغل، ولكنـي لم أمانـع. فقـد أحببتهـما كليهـما. كُنّـا في غايـة السـعادة.

حملَـت ريتـا مُجـدَّدًا بعـد فـترة قصـيرة مِـن ولادة داني، فأتـت شـيريل في ديسـمبر 1966. وأتى آنـدي في صيـف 1969، وكان داني قـد مـات قبـل ذلـك. كان آنـدي غلطـةً، أو ذلـك مـا قالتـه ريتـا. قالـت إنَّ وسـائل منـع الحَمـل لا تمنعـه في بعـض الأحيـان. أنـا أظـنُّ أنَّ ذلـك كان أكـبر مـن مجـرَّد غلطـة. الأطفـال يقيِّـدون الرَّجُـل، كـما يمكنـك أن تتخيَّـل. وذلـك مـا تحبُّـه النسـاء، وخصوصًـا إذا كان الرجـل أذكى منهـنَّ. ألا تـرى ذلـك صحيحًـا؟".

أصدرَ هاربر همهمة مجاراة دون أن يعلِّق بكلمة.

"ومـع ذلـك، لا يهـمُّ. أحببتُـه هـو أيضًـا عـلى كل حـال". قالهـا بنـبرة تشـفٍّ تقريبًـا، كـما لـو أنَّـه أحـبَّ الطفـل نكايـة في زوجتـه.

سأل هاربر: "مَن الذي قتلَ الأطفال؟".

"البُعبع". هكذا أجابه بيلينجز في الحال.

"البعبـع قتلهـم جميعًـا. خـرج مـن الخزانـة بـكل بسـاطة وقتلهـم". مـالَ عـلى جانبـه ملتويًـا وابتسـم. "أنـت تعتقـد أننـي مجنـون، لا بـأس. هـذا واضـح عـلى وجهـك وضـوح الشـمس. ولكنـي لا أهتـم. كل مـا أريـده أن أحـكي لـكَ ثـم أغـور في داهيـة".

قال هاربر: "أنا مُنصت".

"بـدأ الأمـر عندمـا كان داني عمـره سـنتين تقريبًـا، وشـيريل طفلـة رضيعـة. بـدأ الولـد يبـكي كُلَّـما وضعتـه ريتـا في الفـراش لينـام. كان لدينـا منـزل صغـير بغرفتَـيْ نـوم. كانـت شـيريل تنـام في مَهـدٍ صغـير في نفـس غرفتنـا. في البدايـة ظننـتُ أنـه كان يبـكي لأنـه حُـرِمَ مِـن زجاجـة الرَّضعـة ولم يَعُـد يأخذهـا إلى الفِـراش كـما اعتـادَ سـابقًا. قالـت لي ريتـا ألَّا أضخِّـم الأمـر، وأن أكـبِّر دماغـي، وأدعـه يأخذهـا إلى أن يسـتغني عنهـا مـن

نفسه. ولكن هذه هي الطريقة التي يبدأ بها الأطفال طريق الفساد. تتساهل معهم وتفسدهم بالتدليل. ثم يحطِّمون قلبك. ينامون مع صبية ويجعلونها تحمل، مثلًا، أو يبدؤون في تعاطي المخدرات. إمَّا ذلك أو يصحبون مُخنَّثين. أيمكنك أن تتخيَّل أن تصحو من نومك ذات صباح لتجد طفلك -ابنك الولد- صارَ مخنَّثًا طريًّا؟

"ومع ذلك، صبرتُ فترة، وعندما لم يتوقَّف عن ذلك بدأتُ أضعه بنفسي في فراشه وقت النوم. وإذا لم يتوقَّف عن البكاء كنتُ أعطيه صفعة سريعة. ثم قالت ريتا إنه كان يقول كلمة "نور"، مرارًا وتكرارًا. طيِّب، لستُ متأكِّدًا. الأطفال في هذه السِّنِّ الصغيرة، كيف يمكنك أن تعرف ماذا يقولون. الأم فقط تفهمهم.

أرادت ريتا أن تضع له لمبة ونَّاسة، واحدة من تلك الأشياء التي توضَع في مقبس كهرباء الجدار مباشرة ويكون عليها صورة ميكي ماوس أو الكلب هاكلبري أو شيء مثل هذا. لم أدعها تفعل ذلك؛ لأن الطفل إن لم يتغلَّب على خوفه من الظلام وهو صغير فلن يتغلَّب عليه بعد ذلك أبدًا.

على كلٍّ، مات في الصيف الذي أعقب مولد شيريل. وضعته في الفراش تلك الليلة وأخذ يبكي مباشرةً. وفي هذه المرة سمعتُ ما قاله. أشارَ نحو الخزانة مباشرة وقالها. "البُعبُع"، قال الولد، "البعبع يا بابا".

أطفأتُ النور وذهبتُ إلى غرفتنا وسألتُ ريتا عن السبب الذي يجعلها تُعلِّم الطفل كلمة مثل تلك. ورغبتُ بشدَّة في صفعها قليلًا، لكني لم أفعل. قالت إنها لم تعلمه أن يقول ذلك أبدًا. فقلتُ لها إنها كذَّابة حقيرة.

كان ذلك صيفًا صعبًا عليَّ، كما تتخيَّل. العمل الوحيد الذي استطعت العثور عليه هو شحن وتفريغ سيارات نقل عبوات البيبسي

كـولا في أحـد المخـازن، وكنـتُ أشـعر بالتعـب طـوال الوقـت. وشـيريل كانـت تسـتيقظ وتظـلُّ تبـكي كل ليلـة وريتـا تأخذهـا وتتشـمَّمها. بـكل صراحـة، أحيانًـا رغبـتُ بشـدَّة في أن ألقـي الاثنتـين معًـا مـن النافـذة. ربَّـاه، الأطفـال يقودونـك للجنـون أحيانًـا، ويمكنـك أن تقتلهـم.

تمـام، تلـك الطفلـة أيقظتنـي في الثالثـة صباحًـا، في موعدهـا الثابـت تمامًـا. ذهبـتُ للحـمام، رُبـع صاحٍ فقـط، كـما تتخيَّـل، وطلبـت منـي ريتـا أن أتفقَّـد داني. أخبرتهـا أن تفعـل ذلـك بنفسـها وعـدتُ للفـراش. كنـتُ داخـلًا في النـوم حينـما أخـذت تـصرخ.

قمـتُ وذهبـت إليهـا. كان الطفـل راقـدًا عـلى ظهـره، وميِّتًـا. أبيـض تمامًـا مثـل الطحـين، عـدا تلـك المواضـع التـي كان الـدم قـد... قـد غـاصَ فيهـا. باطـن سـاقيه، وقفـا رأسـه، وردفـاه. كانـت عينـاه مفتوحتـين، وذلـك أسـوأ شيء، لـو تتخيَّـل. كانتـا مفتوحتـين عـلى آخرهـما وزُجاجيَّتَـيْن، مِثـل أعـين تلـك الأيائـل المحنَّطـة التـي يضـعُ بعـضُ النـاس رؤوسـها فـوق المدفـأة. مِثـل أولئـك الصِّبيـة الآسـيويين هنـاك في ڤيتنـام. لكـنَّ طفـلًا أمريكيًّـا لا ينبغـي أن يبـدو بذلـك الشـكل. ميِّتًـا وراقـدًا عـلى ظهـره، مرتديًـا حَفَّاضـات وسروالًا مطَّاطيًّـا لأنـه عـادَ للتَّبـوُّل عـلى نفسـه مـن جديـد خـلال الأسـبوعين الأخيريـن. أمـرٌ رهيـب، لَكَـم أحببـتُ ذلـك الطفـل".

أدارَ بيلينجـز رأسـه يمينًـا ويسـارًا ببـطء، ثـم أسـفرَ وجهـه مـرة ثانيـة عـن تلـك التكشـيرة المطاطيـة المخيفـة. "كانـت ريتـا تمـلأ الدنيـا صراخًـا، حاولـت أن ترفـعَ داني وتأخـذه وتهدهـده، لكنـي لم أدعهـا تفعـل. لا تحـب الشرطـة أن يلمـس أحـدُ أيًّـا مِـن الأدلَّـة. أعـرف أنَّ...".

سألَ هاربر بهدوء: "هل علمتَ آنذاك أنَّ القاتل كان البُعبع؟".

"لا، لا. ليـس آنـذاك. لكنـي رأيـتُ شـيئًا واحـدًا، لم يعـنِ لي أي شيء سـاعتها، ولكـنَّ عقـلي اختزنـه وحفظـه لحـين الرجـوع إليـه".

"وما كان ذلك؟".

"كان باب الخزانة مفتوحًا. ليس كثيراً، مجرَّد شِقٍّ رفيع، لكني كنتُ موقنًا مِن أنني تركتُه مُغلَقًا بإحكام، أتفهمني؟ إذ يوجد فيه أكياس المنظِّفات الجافَّة. يمكن لطفل أن يعبث بأحد تلك الأشياء وخلاص. اختناق. تعلم ذلك؟".

"صحيح. وماذا حدثَ بعد ذلك؟".

رفعَ بيلينجز منكبيه. "زرعناه كالبذرة في الأرض". ورنا في حُزنٍ نحو يديه، اليدين اللتين أهالتا التراب فوق ثلاثة توابيت صغيرة.

"هل أُجريَ تحقيق؟".

"طبعًا". ومضت عينا بيلينجز بذكاءٍ تهكُّميٍّ. "أتى واحدٌ متخلِّفٌ عقليًّا يبدو أنه نشأ في آخِر الدنيا، بسمَّاعة طبية وكيس أسود ممتلئ بحلوى النعناع وشهادة مثل عَدمها أعطوها له في كلية لتخريج البقر والجاموس. وشخَّص الأمر بحالة موتٍ في المهد![1] هل سبقَ لك أن سمعتَ كتلة هراء عَفِنة مثل تلك؟ كان الولد عنده ثلاث سنين!".

قال هاربر في حرص: "صحيح أنَّ الموت في المهد أكثر شيوعًا خلال السنة الأولى، لكنَّ ذلك التشخيص يُثبَت أحيانًا في شهادات وفاة لأطفال أكبر سنًّا، وصولًا لسِنِّ الخامسة في حال عَدم توفُّر ما هو أفضل مِن...".

"كلام فارغ!" بصقها بيلينجز في عنف.

أعادَ هاربر إشعال غليونه.

"نقلنا شيريل إلى غرفة داني القديمة بعد مرور شهرٍ على الجِنازة. قاومت ريتا ذلك بكل ضراوة، لكنَّ الكلمة الأخيرة كانت لي. آلمني

---

(1) Crib death: الموت في المَهد، أو حالة الموت المفاجئ للرَّضع، تحدث غالبًا في أثناء النوم لطفلٍ حالته الصحية لا تشوبها شائبة وعمره أقل مِن سنة واحدة، ولا يُعرَف في أغلب الحالات له سببٌ مُحدَّد قاطع.

هذا، بالطبع آلمني. ربَّاه، لقد أحببتُ وجود الطفلة معنا في غرفتنا. لكن على المرء ألَّا يُفرط في حماية أطفاله؛ فَبهذا تصنعُ منهم مخلوقاتٍ عاجزةً. عندما كنتُ طفلًا كانت أمي تأخذني إلى الشاطئ ثم تبدأ في وصلة الصراخ عليَّ حتَّى يُبَحَّ صوتها. "لا تدخل بعيدًا! لا تذهب إلى هناك! هناك تيَّار تَحتيٌّ مُعاكِس قد يسحبك! أنت أكَلتَ منذ ساعة واحدة فقط! لا تُغطِّس رأسك تحت الماء!". بل كانت تقف مترقِّبةً ظهور أسماك القرش، أقسم بالله. وانظر ماذا حدث؟ لا أستطيع مجرَّدَ الاقتراب من أي شاطئ. هذه هي الحقيقة. تتقلَّص عضلاتي وتتخشَّب إذا اقتربت من شاطئ. ذاتَ مرة جعلتني ريتا آخذها هي والأطفال إلى مُنتزه سافين روك عندما كان داني لم يزل حيًّا. أُصِبتُ بوعكة وغثيان فظيعَيْن. أنا أعرف هذا، أتفهمني؟ على المرء ألَّا يُفرط في حماية أطفاله. وعليكَ أيضًا ألَّا تفسد نفسك بالتدليل. الحياة تستمر. ذهبت شيريل إلى مَهد داني مباشرةً. لكننا تخلَّصنا مِن حشية الفراش القديمة، فلم أرغب أن تُصاب ابنتي بأية جراثيم.

"وهكذا تمرُّ سنة أخرى، وذات ليلة وبينما أضع شيريل في مهدها لتنام انفتحت فجأة في العواء والصراخ والبكاء. "البعبع يا بابا، البعبع، البعبع!".

"جعلني ذلك أجفل وأنتبه. كان الأمر كما حدث مع داني. وبدأتُ أتذكَّر مسألة باب الخزانة، وكيف كان مفتوحًا فتحة صغيرة عندما وجدتُ الولد. أردتُ أن آخذها إلى غرفتنا لتبيت معنا تلك الليلة".

"وهل أخذتَها؟".

"لا". رمقَ بيلينجز يديه واختلجَ وجهه. "كيف كان عساي أن أذهب إلى ريتا وأقرَّ بأنني كنتُ مُخطئًا؟ كان عليَّ أن أكون قويًّا. كانت هي دائمًا خَرِعَة وضعيفة الشخصية مثل قنديل البحر الرَّخو... انظر كم كان من السهل عليها أن تنام معي دون أن يجمعنا زواج".

قـال هاربـر: "ومِـن ناحيـة أخـرى، انظـر كـم كان مـن السـهل عليـك أنـت أن تنـام معهـا هـي".

أوقـفَ بيلينجـز حركـة ضبـط يديـه فجـأة وأدار رأسـه ببـطء لينظـر إلى هاربـر: "هـل تحـاول أن تكـون حكيـمَ زمانِـكَ؟".

فقال هاربر: "لا، أبدًا".

فـردَّ عليـه بيلينجـز بسرعـة وحـدة: "إذًا، فلتتركنـي أحـكِ بطريقتـي، فأنـا أتيـتُ إلى هُنـا لـكي أزيـح هـذا الهـمَّ عـن صـدري. لـكي أحـكي قصتـي. لـن أتحـدَّث عـن حيـاتي الجنسـية، إذا كان هـذا مـا تنتظـره. أنـا وريتـا عشـنا حيـاة جنسـيَّةً عاديَّـة جـدًّا، ليـس فيهـا أي مـن تلـك الأمـور المقرفـة. أعلـمُ أنَّ بعـضَ النـاس يجـدون لـذَّةً في الحديـث عـن حياتهـم الجنسـية، لكنـي لسـتُ واحـدًا مِـن هـؤلاء".

فقال هاربر: "أوكي".

"أوكي"، ردَّد بيلينجـز كلمتـه بغطرسـةٍ لا تخلـو مِـن سـأم. بـدا كأنـه فقـدَ خيـط أفـكاره، وجـالَ بـصره واتجـه في قلـقٍ نحـو بـاب الخزانـة، الـذي كان مغلقًـا بإحكام.

سأله هاربر: "هل تريد أن أُبقِيَه مفتوحًا؟".

فقـال بيلينجـز في هـدوء: "لا!"، وأطلـق ضحكـة متوتـرة صغـيرة. "لأي سـببٍ قـد أرغـبُ في النَّظـر إلى حذائـك المطاطـي؟".

قـال بيلينجـز: "وقـد نـالَ البُعبُـع منهـا، هـي أيضًـا". مسـح بأصابعـه عـلى جبينـه، كأنـه يخطِّـط صـورة سريعـة لذكرياتـه. "بعـد ذلـك بشـهر واحـد. لكـنَّ شـيئًا مـا قـد حـدث قبـل ذلـك. سـمعتُ جلبـة بالداخـل ذات ليلـة. ثـم صرخَـت. فتحـتُ البـاب بمنتهـى السرعـة -كان مصبـاح الطُّرقـة مُضـاءً- وهـي... كانـت هـي جالسـةً في مهدهـا تبـكي و... تَحـرَّك شيٌ مـا. بالخلـف وسـط الظـلال، بجانـب الخزانـة. شيءٌ مـا انزلـق".

"هل كان باب الخزانة مفتوحًا؟".

"قليلًا. مجرَّد شقٍّ". لعقَ بيلينجز شفتيه. "كانت شيريل تصيح عن البُعبع. وقالت كلمة أخرى بَدَت مِثل "مخالب"، لكنها لم تنطقها إلَّا "خِلانا"، كما تعلم. الأطفال الصغار لديهم مشكلة أحيانًا في نطق الكلمات. صعدت ريتا للطابق العلوي وسألت ما الأمر. فقلتُ لها إنها شعرَت بالخوف من ظلال فروع الأشجار تتحرَّك على السقف".

فقال هاربر: "أو خِزانا...".

"هه؟".

"خِزانا... خِزانة. ربما كانت تحاول أن تقول (خزانة)...".

قال بيلينجز: "ربما، ربما كان الأمر كذلك. لكني لا أظنُّ. أعتقد أنها كانت تحاول أن تقول (مخالب)"... بدأت عيناه تفتِّش عن باب الخزانة مِن جديد. "مخالب، مخالب طويلة". انخفضَ صوته إلى حَدِّ الهَمس.

"هل نظرتَ بداخل الخزانة؟".

"نَـ... نَعم". كانت يدا بيلينجز معقودَتَيْن بإحكام على صدره، بإحكامٍ شديد بما يكفي لأن تظهر حلقة صغيرة بيضاء عند كل مفصل مِن مفاصل أصابعه.

"أكانَ هناك أي شيء بداخلها؟ هل رأيت الـ...".

صرخَ بيلينجز فجأة: "أنا لم أرَ أي شيء!". اندفعت الكلمات خارِجةً منه كما لو كانت سدَّادة سوداء قد انتُزِعَت من قاع روحه. "عثرتُ عليها عندما ماتت. كانت سوداء. سوداء كلها. ابتَلَعَت لسانها، وكانت سوداء كأنها أحد هؤلاء الزنوج في عروض التسلية الجوَّالة، وكانت تحدِّق فيَّ. عيناها، بدت عيناها مثل تلك التي تراها مُثبَّتة في وجوه دُمى الحيوانات المحشوَّة، لامعة جدًّا ورهيبة، مثل كُريَّات زجاجية

ولكـن حيَّـة، وكانتـا تقـولان لقـد أخـذني، يـا بابـا، أنـت تركتـه يأخـذني، أنـت قتلتنـي، سـاعدته في قتـلي...". انخفـض صوتـه وتلاشـت كلماتـه شـيئًا فشـيئًا. تكـوَّرَت دمعـة واحـدة كبـيرة جـدًّا في صمـت، وانحـدرت عـلى جانـب وجهـه.

"كانـت حالـة تشـنُّج عصبـي، أتـرى؟ ذلـك يحـدث للأطفـال أحيانًـا. إشـارة سـيئة مِـن المـخ. قامـوا بتشريـح الجثـة في مستشـفى هارتفـورد وأخـبروني أنهـا اختنقـت بلسـانها مِـن التشـنُّج. وكان عـليَّ أن أرجـع للمنـزل بمفـردي لأنهـم أبقـوا ريتـا تحـت تأثـير المهدِّئـات. كانـت قـد فقـدت صوابهـا. كان عـليَّ أن أرجـع لذلـك المنـزل بمفـردي تمامًـا، وأنـا أعلـم أنَّـه مِـن المسـتحيل أن يصـاب طفـل بالتشـنُّجات لمجـرَّد أنَّ عقلـه اضطـرب فجـأة، لكـن يمكـن لـك أن تخيـف طفـلًا إلى أن تصيبـه تشـنُّجات. وكان عـليَّ أن أرجـع لذلـك المنـزل حيـث كان ذلـك الـشيء موجـودًا".

همسَ: "نمتُ على الأريكة، وتركتُ المصابيح مُضاءَة".

"هل حدث أي شيء؟".

قـال بيلينجـز: "رأيـتُ حُلـمًا، رأيـتُ نفسي في غرفـة مُظلِمـة وكان هنـاك شيءٌ مـا لم أسـتطع... لم أسـتطع أن أتبيَّنـه بوضـوح، في الخزانـة. وكان يصـدر جلبـة... جلبـة تُشـبه خطـوات تخـوض في الوحـل. وذكَّـرني هـذا بكتـاب مصـوَّر قرأتـه عندمـا كنـتُ طفـلًا. حكايـات مِـن السِّـرداب، لعلَّـك تتذكَّـره. يـا ربي! كان لديهـم ذلـك الرسَّـام جراهـام إنجلـز[1]؛ كان يسـتطيع أن يرسـم أبشـع وأفظـع الأشـياء في العالَـم كلـه- وبعـض أشـياء مِـن خـارج هـذا العالَـم أصـلًا. في هـذه القصـة امـرأة مـا أغرقـت زوجهـا، أتـرى؟ رَبطـت كُتَـلًا إسـمنتية في قدميـه وأسـقطته في مَسـيل أحـد المحاجـر. المشـكلة أنـه عـاد. كان مجـرَّد جثَّـة متفسِّـخة تمامًـا لونهـا أخـضر مُسـودٌّ وقـد التهـم السـمك إحـدى عينيـه وعلقـت أعشـاب البحـر في شَـعر رأسـه. عـادَ

(1) Graham Ingles: (1915-1991).

وقتلها. وعندما استيقظتُ في منتصف الليل، ظننتُ أنه كان ينحني عليَّ. بمخالب... مخالب طويلة...".

نظرَ دكتور هاربر نحو الساعة الرقمية المثبَّتة في سطح مكتبه. كان ليستر بيلينجز يتحدَّث لما يقرب مِن نصف ساعة. قالَ: "عندما رجعت زوجتك إلى المنزل، ماذا كان موقفها منك؟".

أجابَ بيلينجز في افتخار: "كانت لا تزال تحبُّني، ولا تزال ترغب في عَمل ما آمرها به. ذلك هو المكان المناسب للزوجة، صحيح؟ كل هذا الكلام حول تحرُّر المرأة لا يصنع إلَّا أشخاصًا مرضى. أهم شيء في الحياة أن يعرف كلُّ واحد مكانه المناسب. وأن يجد... يجد في الحياة... آااا...".

"موقعه في الحياة؟".

"بالضبط!". قال بيلينجز مُطَرِقعًا إصبعيه. "تلك هي الكلمة بالضبط. وعلى المرأة أن تتبع زوجها أينما ذهب. آه، لكنها ظلَّت باهتة وبلا حيوية خلال الأربعة أو الخمسة أشهر التالية- تُجَرجِر نفسها من هنا لهناك في المنزل، لم تُغنِّ، ولم تشاهد التليفزيون، ولم تضحك. كنتُ أعرف أنها سوف تتجاوز الأمر. حينما يرحلَ الأطفال في سِنٍّ صغيرة هكذا لا تكون مرتبطًا بهم للغاية. وبعد فترة يتحتَّم عليك أن تستخرج صورهم من دُرج المكتب لكي تتذكَّر كيف كان شكلهم بالضبط".

أضافَ مُغتمًّا: "أرادت طفلًا آخَر، قلتُ لها إنَّها فكرة سيئة. آه، طبعًا ليس للأبد، ولكن لفترة ما. قلتُ لها إنَّ هذا الوقت لنا نحن؛ لكي نتجاوز ما مرَّ، ونبدأ في الاستمتاع ببعضنا بعضًا. لم تُتَح لنا الفرصة لأن نفعل ذلك مِن قبل. كُلَّما أراد المرء أن يذهب للسينما كان عليه أن يعاني بحثًا عن جليسة أطفال، كما لا يمكنني النزول للبلدة لمشاهدة مباراة كرة يلعبها فريق الميتس إلَّا إذا وافق أهلها على أن يستضيفوا

الأطفال؛ لأنَّ أمي تجنَّبَتنا وقطعت صِلَتَها بنا تمامًا. وُلِدَ داني بعد أن تزوَّجنا مباشرةً، أترى؟ قالت إن ريتا لم تكن إلَّا أفَّاقة، مجرد متسكِّعة أرصِفَة صغيرة مُبتَذَلَة. دائمًا كانت ماما تسميهنَّ هكذا: متسكِّعات الأرصفة. أليس ذلك عجيبًا؟ ذات مرَّة أجلستني وأخبرتني بالأمراض التي يمكن أن تصيبني إذا ذهبتُ إلى واحدة من المتسكِّ.... إلى مومس يعني. وكيف أنَّ شَيئك.. ذَكَرَك يعني، يتكوَّن عليه التهابٌ صغير للغاية في أوَّل يوم، وفي اليوم التالي يتقيَّح تمامًا. إنها حتَّى لم تحضر زفافنا".

نقرَ بيلنيجز على صدره بأصابعه.

"طبيب النساء الذي تتردَّد عليه ريتا أخبرها عن هذا الشيء الذي يُسمَّى اللَّولَب- جهاز صغير يُزرَع في الرَّحم. مضمون المفعول، هكذا قال الطبيب. ودسَّه ببساطة في داخل... شَيئها، وانتهى الأمر. إذا كان هناك أي شيء بالداخل فلا يمكن أن تتخصَّب البويضة. لا تشعر حتَّى بوجوده هناك". ابتسم ناظرًا للسقف باستمتاعٍ قاتم. "لا أحد يعلم إن كان هناك شيء بالداخل أم لا. وفي العام التالي حمَلت من جديد. مضمون المفعول فِعلًا!".

قال هاربر: "لا توجد وسيلة مضمونة مائة في المائة لمنع الحمل، الأقراص لا تتجاوز نسبَةُ كفاءتها الثمانية وتسعين بالمئة. واللولب ربما يُلفَظ خارج الرحم بسبب تقلُّصات، أو تدفُّق قوي لدَمِ الدَّورة الشهرية، أو في حالات استثنائية بسبب التبوُّل".

"صحيح. أو يمكن للمرأة أن تُخرجه".

"ذلك ممكن".

"وماذا حدثَ بعد ذلك؟ ها هي تحيكُ ثيابًا صغيرة بخيوط الصوف، وتغني وهي تأخذ حمَّامًا، وتأكل مخلِّلات كالمسعورة، وتجلس على حِجري وتقول لي لا بدَّ أنها إرادة الله. فليأخذكِ الله".

"ووُلِدَ الطفل في نهاية أوّل سنة مرّت على موت شيريل؟".

"صحيح. وَلَد. أسمته آندرو ليستر بيلينجز. لم أرغب في التدخُّل ولو بأي قَدر، في البداية على الأقل. كان شِعاري هي مَن أخطأت فلتتركها تعتني بكل شيء. أعرف كيف يبدو هذا، ولكن عليك أن تتذكّر أنني واجهتُ الكثير حتّى ذلك الحين.

لكنَّ قلبي لانَ له، أتفهمني؟ كان الابن الوحيد بين كل مَن أنجبتَهم لي الذي يشبهني، لهذا السبب على الأقل. كان داني يشبه أمه، وشيريل لم تشبه أحدًا، ما عدا ربّما جدّتي آن. لكنَّ آندي كان شَبهي الخالق الناطق.

أصبحتُ بمجرّد أن أرجع للبيت من العمل أجدني ألعب معه وهو في مَهد اللعب الخشبي الخاص به، وكان يمسك إصبعي فقط ويبتسم لي ويغرغر ويُقَرقِر. الولد عمره تسعة أسابيع وكان يبتسم لأبيه. أتصدِّق ذلك؟

ثم ذات ليلة، ها أنا خارجٌ مِن متجرٍ ما ومعي لُعبة ذات أشكالٍ وألوان جميلة ممّا يُعلَّق فوق مهود الرُّضَّع. أنا! الذي كان شعاري طوال الوقت أنَّ الأطفال لا يقدِّرون الهدايا حتى يكبروا بما يكفي لقول "شُكرًا". ولكن هأنذا، أشتري له هذا الشيء السخيف، فأدركُ فجأة عندئذٍ أنني أحبُّه أكثر مِن أي شيءٍ آخَر في الدنيا. كنتُ في وظيفة أخرى آنذاك، وظيفة جيدة جدًّا، أبيع أَسِنَّة المثقاب الفولاذية لصالح شركة كلويت وأبنائه. وكان وَضعي فيها لا بأس به بالمرة، وعندما بلغ آندي سنته الأولى انتقلنا إلى واتربري. كان المنزل القديم فيه الكثير من الذكريات السيئة.

والكثير للغاية من الخزانات.

كان ذلك العام التالي هو الأفضل في حياتنا. إنني على استعدادٍ أن أتخلّى عن كل أصابع يدي اليُمنى لأستعيد ذلك العام مرة أخرى.

صحيح، كانت الحرب في ڤيتنام ما زالت متواصِلةً، وأولئك الهيبيز ما زالوا يركضون هنا وهناك وهم عَرايا تقريبًا، والزنوج كانوا يصرخون ويصيحون كثيراً، لكنَّ شيئًا مِن هذا لم يمسَّنا. كُنَّا نعيش في شارعٍ هادئ وسط جيران دَمِثين. كُنَّا سعداء". هكذا أوجز الأمر. "سألتْ ريتا ذات مرة إن لم تكن تشعر بالقلق. يعني، كما تعرف، يقولون إنَّ الحظ السيِّئ يضرب دائمًا ثلاث مرات، وكل ذلك الكلام. لكنها قالت ليس بالنسبة لنا. وقالت إنَّ آندي كان مميَّزًا، وأنَّ الله وضعَ عليه حارسًا يحميه من كل سوء".

نظرَ بيلينجز إلى السقف في غَمٍّ.

"لم يكن العام الماضي جيِّدًا للغاية. شيءٌ غير مُحَدَّد تبدَّل في المنزل. بدأتُ أحتفظ بأحذيتي الطويلة في الرَّدهة لأني لم أوَدَّ أن أفتح باب الخزانة بعد ذلك. ظللتُ أفكِّر: حسنًا، ماذا لو كان موجودًا بالداخل؟ رابضًا بالأسفل ومستعدًّا ليثبَ فجأة في الثانية التي أفتح فيها الباب؟ وبدأتُ أعتقد أنني أسمع جلبة موحلة، كأنَّ شيئًا أخضر وأسود ومُبتَلًّا يتحرَّك بالداخل حركةً محدودة.

سألتني ريتا إن كنتُ أرهق نفسي في العمل، وبدأت أحدثها بحدَّة وزَهق، كما كنتُ أفعل في الأيام القديمة تمامًا. تؤلمني معدتي كلَّما تركتهما بمفردهما لأذهب للعمل، ومع ذلك فكان يسرُّني أن أخرج. فليكن الله في عوني، كان يسرُّني أن أخرج. بدأتُ أقول لنفسي، أرأيت؟ لقد ضلَّ عنَّا وفقدنا لفترة عندما انتقلنا لمنزل جديد. كان عليه أن يخرج ليتصيَّدَنا هنا وهناك، ينسلَّ خفيًّا عبر الشوارع في الليل وربما زاحفًا في المجارير، متشمِّمًا بحثًا عنَّا. اقتضى الأمر منه سنة، لكنه عثر علينا. عادَ. يريد آندي ويريدني. بدأتُ أفكِّر، ربما إذا فكَّر المرء في شيءٍ ما وقتًا طويلًا بما فيه الكفاية، وآمن به؛ فإنه يصبح حقيقيًّا. ربما جميع الوحوش التي كانت تُفزِعنا ونحن صغار -فرانكشتاين والرجل

الذئب والمومياء- ربما كانت جميعها حقيقيَّة. حقيقية بما فيه الكفاية لأن تقتل الأطفال الذين افترَض الآخرون أنهم قد سقطوا في مقلع حجارة أو غرقوا في بحيرات أو فُقِدوا بالمطلق فَلم يُعثَر لهم على أثرٍ أبدًا. ربما...".

"هل تحاول تجنُّب الحديث عن أمرٍ ما، يا سيِّد بيلينجز؟".

ظلَّ بيلينجز صامتًا لبرهة طويلة- مرَّت دقيقتان كما ظهر من إشارات الساعة الرقمية. ثم قال فجأة: "مات آندي في فبراير. لم تكن ريتا موجودة. كانت قد تلقَّت اتصالًا من أبيها، أخبرها بأن أمها أصيبت في حادث سيارة في اليوم التالي على ليلة رأس السنة الجديدة ومِن المُستَبعد أن تنجو. أخذت حافلة وذهبت إليهما في نفس الليلة.

لم تَمُت أمُّها، لكنها ظلَّت في حالة خطيرة لا يُرجى شفاؤها لفترة طويلة- شهرين. كان لديَّ سيدة جيدة جدًّا لكي تبقى مع آندي في النهار، وكنَّا نهتمُّ بشؤون المنزل في الليل. وأبقينا أبواب الخزائن مفتوحة. ربما يكون [دكتور بنچامين] سبوك أو واحدٌ آخَر مِن أولئك الدجَّالين الآخَرين قال إنه من السيِّئ للأطفال النوم مع والديهم، تفهمني؟ لأنه من المحتمل أن تحدث لهم صدمية عصبية بسبب الجنس وما إلى ذلك. لكننا لم نمارس الجنس أبدًا إلَّا إن كان الطفل نائمًا. ولم أرغب في أن أنقله إلى غرفة أخرى. كنتُ خائفًا مِن ذلك، بعدما حدث مع داني وشيريل".

سأل دكتور هاربر: "لكنكَ نقلته إلى غرفة أخرى، صحيح؟".

قال بيلينجز: "صحيح"، وابتسم ابتسامةً صفراء سقيمة. "نقلته فعلًا".

الصمت من جديد، كان بيلينجز يغالبُ الصمت.

"كنتُ مُضطرًّا!". صاحَ أخيرًا. "كنتُ مُضطرًّا! ظلَّت الأمور مُحتملة طالما كانت ريتا موجودة معنا، ولكن عندما ذهبت بدأ ذلك الشيء يصبح أجرأ. بدأ...". أدار عينيه نحو هاربر وكشَّر عن أنيابه في صورة وحشية. "آه، لن تصدِّقَني. أعرف فيمَ تفكِّر، إنه مجرَّد معتوه آخر ينضمُّ لملف حالاتك، أعرف ذلك، لكنَّكَ لم تكن هناك، أيُّها المتعجرف القذر المُحِبُّ للتَّلصُّص على خصوصيات الآخرين.

ذات ليلة دُفعَ كلُّ باب في المنزل لينفتحَ على آخِره. وذات صباح نهضتُ من الفراش فوجدتُ أثرًا طويلًا مِن الوَحل والقَذر يمتدُّ عبرَ الرَّدهة ما بين خزانة المعاطف والباب الأمامي. هل كان خارجًا؟ أم كان داخلًا؟ لا أعرف! المسيح يشهد عليَّ، أنا ببساطة لا أعرف! جميع الأسطوانات مُخربَشة وتكسوها مادة لزجة، ومرايا مكسورة... والأصوات... الأصوات...".

مرَّر يدًا في شَعره. "يستيقظ المرء في الثالثة صباحًا ويحدِّق في الظلام ولأوَّل وهلة يقول: "ما هو إلَّا صوت ساعة الحائط". لكن تحت ذلك الصوت يمكنه أن يسمع شيئًا يتحرَّك خِلسةً. ولكن ليس خِلسةً أشدَّ ممَّا يجب؛ لأنه يريدك أن تسمعه. صوت لَزِج ومنزلق كأنه صادر عن ماسورة حوض المطبخ. أو مثل تكتكة، كأنها مخالب تُجَرجِر بخفَّة فوق درابزين السُّلَّم. ويغمض المرء عينيه، وهو يعلم أنَّ مجرد السمع كان سيئًا، أمَّا أن يرى بعينيه فهذا...

ودائمًا ستكون في خوفٍ مِن أنَّ الجلبة قد تتوقَّف لوهلة يسيرة، ثم تتفجَّر ضحكة فوق رأسك مباشرة ويلفح وجهك نَفسٌ مثل كرنب حامض، ثم تجد يدين حول رقبتك".

كان بيلينجز ممتقعًا ومرتعدًا.

"وهكذا نقلتُه لغرفةٍ أخرى. علمتُ أنه سيذهب لينالَ منه، تفهمني؟ لأنه كان أضعف. وهذا ما كان. في الليلة الأولى تلك نفسها

صرخَ في منتصف الليل وأخيراً، عندما استطعتُ أن أستجمع شجاعتي وأدخل، كان يقف في فراشه ويصرخ. "البُعبع، يا بابا... البعبع. أريد أذهب معك بابا، أذهب معك بابا"". صارَ صوت بيلينجز مرتفعًا حادًّا، مثل صوت الأطفال. وبدا كأنَّ عينيه اتَّسَعَتَا فملأت وجهه بكامله؛ وأنَّ جسده انكمش تقريبًا على الأريكة.

"لكني لم أستطع"، تواصَل الصوت الطفولي المتقصِّف. "لم أستطع. وبعد ساعةٍ على ذلك انبعثت صرخة. كانت صرخةً رهيبة ذات قرقرة. وأدركتُ كم أحببته لأنني ركضتُ إليه، لم أشعل الأضواء حتَّى، ركضت، ركضت، ركضت، وآه، يا ربُّ، يا مسيح، يا عذراء، أمسكَ به ونالَ منه؛ كان يهزُّه، تمامًا كما قد يهزُّ كلبُ صيدٍ خِرقَةً هشَّة ورأيتُ شيئًا بكتفين منخفضتين رهيبتين ورأس فزّاعة حقل وشممتُ شيئًا مثل فأر ميت في زجاجة مشروب غازي وسمعت...". انخفض صوته وانقطع، ثم انبعثَ من جديد مُستعيدًا نبرة البالغين. "سمعتُ صوت انكسار رقبة آندي". كان صوت بيلينجز باردًا وميتًا. "لقد صدر عنها صوتٌ يشبه تكسُّرَ طبقة الثلج عند التزلُّج على بحيرة ريفيةٍ في الشتاء".

"ثُمَّ ماذا حدث؟".

"آه، فَرَرتُ". قال بيلينجز بنفس الصوت البارد الميت. "ذهبتُ إلى مطعم يفتح أبوابه طوال الليل. أليس في ذلك علامة جُبنٍ تام؟ ركضتُ لمطعم يفتح طوال الليل وشربت ستَّةَ أقداح قهوة. ثم رجعت إلى البيت. كان الفجر قد طلع من قبل. اتَّصلتُ بالشرطة حتَّى قبل أن أصعد للطابق العلوي حيث غرف النوم. كان راقدًا على الأرض محدِّقًا فيَّ. يتَّهِمني. قدرٌ ضئيل للغاية من الدم نزف من إحدى أذنيه. مجرَّد قطرة، حقًّا. وكان باب الخزانة مفتوحًا- لكن مجرَّد شِقٍّ صغير".

توقَّف الصوت. نظر هاربر إلى الساعة الرقمية. مرَّت خمسون دقيقة.

قال له: "حدِّد موعدًا مع الممرِّضة. بل في الحقيقة، حدِّد مواعيد عدَّة. أيام الثلاثاء والخميس تناسبك؟".

قال بيلينجز: "أتيتُ فقط لأحكي قصتي، لأزيحها عن صدري. كذبتُ على الشرطة، كما ترى. قلتُ لهم إنَّ الطفل لا بدَّ قد حاول أن يخرج من مهده في الليل و... هُم ابتلعوا الأمر. بالطبع ابتلعوه. فذلك ما بدا عليه الأمر فعلًا. مجرَّد حادث، مثل الحوادث الأخرى. لكنَّ ريتا عرفت. ريتا... أخيرًا... عرفت...".

غطَّى عينيه بذراعه اليمنى وشرعَ يبكي.

قال دكتور هاربر بعد وقفة صمت: "سيد بيلينجز، سيكون لدينا الكثير لنتحدَّث عنه، وأعتقد أننا نستطيع التخلُّص مِن بعض الذنب الذي ظللت تحمله، ولكن أوَّلًا لا بدَّ أن تكون راغبًا في التخلُّص منه".

صاح بيلينجز: "ألا تعتقد أنني أرغب؟"، رافعًا ذراعه عن عينيه. كانت عيناه محمرَّتَين، داميتين، جريحتين.

فقالَ هاربر بهدوء: "ليس بَعد، هل أيام الثلاثاء والخميس تناسبك؟".

بعد صمت طويل، دمدمَ بيلينجز قائلًا: "إخصائيٌّ نفسي لعين. تمام. تمام".

"حدِّدْ موعدًا مع الممرضة، يا سيد بيلينجز. وأتمنَّى لك يومًا طيِّبًا".

ضحكَ بيلينجز ضحكةً فارغة وخرج من غرفة مكتب الطبيب بسرعة، من غير أن يلتفت خلفه.

كان مكان جلوس الممرضة فارغًا. وثمَّة لافتة صغيرة على نشَّافة المكتب تقول: سأعود بعد دقيقة.

استدارَ بيلينجز وعاد للمكتب. "يا دكتور، مُمرِّضتُكَ...".

كانت الغرفة خاوية.

لكنَّ باب الخزانة كان مفتوحًا. مجرد شِقٍّ رفيع.

"لطيف جدًّا"، هكذا ردَّد الصوت المنبعث من الخزانة. "لطيف جدًّا." بدا وقع الكلمات وكأنها ربما تصدر عن فمٍ ممتلئ بأعشاب البحر العَفِنة.

انغرسَ بيلينجز في موضعه حينما تأرجحَ باب الخزانة منفتحًا، وبالكاد أحسَّ بالدفء في حوضه إذ بلَّل نفسه.

"لطيف جدًّا"، قال البُعبع وهو يخرج مُتثاقِلًا مجرجرًا نفسه.

كان لا يزال يحمل قناعَ دكتور هاربر بين مخالب يدٍ مُتفسِّخة وعريضة كالمجراف.

مكتبة
t.me/t_pdf

مادَّة رَماديَّة

منـذ بدايـة الأسـبوع كانـوا يتنبَّـؤون أن تهـبَّ ريـح شـمالية عاصفـة حتَّـى أتتنـا مـع يـوم الخميـس، عاصفـة حقيقيـة ذات جلبـة كوَّمـت الثلوج بارتفـاع ثمـاني بوصـات بحلـول الرابعـة بعـد الظهـر، ولم يبـدُ أي شيء يـدل عـلى أنَّهـا سـوف تخفِّـف مـن حدَّتهـا قريبًـا. كُنَّـا نفـس الخمسـة أو السِّـتَّة رجـال، الشِّـلَّة المعتـادة، مُتجمِّعـين حـول المدفـأة (الريلايبـل) في متجـر نايـت- أُول، لصاحبـه هـنري، وهـو متجـر البقالـة الصغـير الوحيـد عـلى هـذه الناحيـة مـن بانجـور الـذي يبقـى مفتوحًـا خـلال الأربـع وعشريـن سـاعة.

حركـة البيـع في متجـر هـنري ليسـت عـلى أفضـل مـا يُـرام -أغلـب الأوقـات، يقتـصر الأمـر عـلى بيـع البـيرة والنبيـذ لطلبـة الجامعـة- لكـنَّ هـنري يعـرف كيـف يدبِّـر أمـوره، كـما أنـه مـكان لنـا، نحـنُ شِـلَّةَ الحمقـى المُسـنِّين ممَّـن يعيشـون عـلى معونـات الضـمان الاجتماعـي، نجتمـع فيـه ونتحـدَّث عمَّـن تـوفِّي حديثًـا وكيـف ينهـار العالَـم وينحـدر نحـو الجحيـم.

في ساعة الأصيل هذه كان هنري لدى نُضُد البيع؛ وبقيَّتنا أنا وبيل بيلهام وبيرتي كونورز وكارل ليتيلفيل نميلُ متحلِّقين حول المدفأة. خارج المتجر، لم تكن هناك سيارة واحدة تتحرَّك في شارع أوهايو، وجرَّافات الثلج تتقدَّم بمشقَّة بالِغةٍ. كانت الريح تضرب وتجرف أمامها قطعًا جليديَّة مموَّجة مثل عمود فقري لديناصور.

لم يدخل متجر هنري سوى ثلاثة زبائن طوال فترة العصر- هذا إن احتسبنا إيدي الأعمى. كان إيدي في نحو السبعين من عمره، ولم يكن أعمى تمام العَمَى، غير أنه كان يرتطم بالأشياء معظم الوقت. كان يأتي إلى المتجر مرَّةً أو اثنتين كل أسبوع، ويدسُّ رغيف خبز داخل معطفه ثم يخرج وعلى وجهه تعبيرٌ يقول: ها، أيُّها الحمقى أولاد القحبة، استغفلتكم مرة ثانية.

ذات مرة سأل بيرتي هنري لماذا لا يعترض على ذلك أبدًا.

فقال هنري: "سوف أخبرك، منذ بضع سنين احتاجت القوات الجوِّيَّة إلى عشرين مليون دولار لكي تنفِّذ نموذجًا قادرًا على التَّحليق لطائرةٍ ما كانوا قد صمَّموها. ماشي، كلَّفهم تنفيذها خمسة وسبعين مليون، وبعد ذلك لم يفلح ذلك الشيء اللعين ولم يَطِر. جرى هذا منذ عشر سنين، عندما كنتُ أنا وإيدي الأعمى صغارًا في السِّنِّ إلى حدٍّ ما، وقد أعطيتُ صوتي في الانتخابات للمرأة التي دعَّمَت دَفع تكلفة ذلك الشيء اللعين، أمَّا إيدي الأعمى فلم يعطِها صوته. ومنذ ذلك الحين أعتبر نفسي أدفع له ثمن خبزه".

لم يبدُ على بيرتي أنه فهمَ الغرض من هذه القصة، فاضطجع في مجلسه وأخذ يتأمَّلها.

الآن يُفتحُ البابُ من جديد، فتسنح الفرصة لدخول هبَّة من هواء رمادي بارد، ويدخل للمكان فتى يافع، يطبع بحذائه طويل الرقبة لطخاتٍ من الثلج على الأرض. عرفتُ مَن يكون بعد ثانية. إنه ابن

ريتشي جرانادين، وقد بَدَت على وجهه أمارات القرف والبؤس، تفَّاحة آدم في عنقه كانت تعلو وتهبط ولون وجهه مثل مفرَشٍ مشمَّع قديم حائل.

خاطبَ هنري قائلًا: "سيد بارمالي،" وعيناه تدوران في رأسه كأنهما كُرَيَّات رصاصيَّة في عجلة، "لا بُدَّ أن تأتي. لا بُدَّ أن تأخذ له بِيرته وتأتي. لا أظن أنني سوف أتحمَّل الرجوع إلى هنالك. أنا خائف".

فقال هنري وهو يخلع مريول الجِزارة الأبيض ويخرج من وراء النُّضُد: "الآن اهدأ وأفهِمْني بلا عجلة. ما الأمر؟ هل شربَ أبوك حتى سَكر؟".

حينما قال ذلك انتبهتُ إلى أنَّ ريتشي لم يأتِ إلى هنا منذ فترة لا بأس بها. في العادة كان يمرُّ بالمتجر مرَّةً كلَّ يوم لكي يأخذ صندوقًا صغيرًا مِن أي نوع بيرة هي الأرخص سِعرًا في ذلك الوقت، رجلٌ بدينٌ ضخم، له لُغدٌ مثل ردف خنزيرٍ، وذراعان مثل فخذي خنزير. لَطالما كان ريتشي خنزيرًا شَديد الشراهة لشرب البيرة، لكنه ظلَّ مسيطرًا على عادته عندما كان يعمل في مطحنة لُباب خشَبٍ تقع في كليفتن، ثم حدثَ أمرٌ ما -حمولة فاسدة من ماكينة فَصل اللُّباب أصابته بسوء، أو ربما ريتشي هو مَن جعلَ الأمر يبدو على هذا النحو- فصُرفَ مِن العمل، حرًّا وخالي البال، مع تعويض دفعته له الشركة. شيءٌ ما في ظَهره.

على أي حال، أصبحَ بدينًا بَدانةً لا تُصدَّق. لم يأتِ إلى المتجر منذ فترة، ومع ذلك فقد كنتُ أرى ابنه بين الحين والآخر يأتي ليحصل على صندوق البيرة الليليِّ الخاص بأبيه. ولدٌ لطيفٌ جدًّا. وكان هنري يبيعه البيرة فقط لأنه يعرف أنَّ الولد ينفِّذ أوامر أبيه.

كان الصبي يقول الآن: "نَعم، كان يسكر، لكن ليست هذه هي المشكلة. الأمر... إنَّه... آه، يا ربي، شيء رهيب!".

رأى هـنري أنَّ الولـد أجهـش بالبـكاء، فقـالَ مِـن فـوره: "كارل، أيمكنـك أن تأخـذ مـكاني دقيقـة واحـدة؟".

"بكل تأكيد".

"والآن، يـا تيمـي، تعـالَ معـي إلى المخـزن في الخلـف واحـكِ لي كل شيء".

قـادَ الولـدَ بعيـدًا، والتـفَّ كارل وجلـس عـلى المقعـد المرتفـع وراء النُّضُـد. لم يَقُـل أحـدٌ شيئًا لبرهـة. كان بوسـعنا أن نسـمع صوتيهـما هنـاك في الخلـف، صـوت هـنري الأجـش البطـيء، ثـم صـوت تيمـي جرانادين المرتفـع، وهـو يتكلَّـم بسرعـة بالغـة. ثـم شرعَ الصبـي يبـكي، فتنحنحَ بيـل بيلهـام وأخـذ يمـلأ غليونـه بالتبـغ.

قلتُ: "أنا لم أرَ ريتشي منذ شهرين أو نحوهما".

نخر بيل وقال: "من حسن حظِّكَ".

فقـال كارل: "أتى إلى هنـا... إمممـ، في أواخـر أكتوبـر، في عيـد الهالويـن تقريبًـا. واشـتري صندوقًـا صغـيرًا مـن بـيرة شـليتز. وكان يـزداد بدانـةً بشـكل مُخيـف".

لم نجد مـا يُقـالُ أكـثر مِـن هـذا. كان الصبـي لم يـزل يبـكي، لكنـه كان يتحـدث في الوقـت نفسـه. بالخـارج، واصلَـت الريـحُ زمجرتهـا وعواءهـا، وقـال الراديـو إنَّ عُمـقَ طبقـة الثلـوج سـوف تصـل إلى سـتِّ بوصـات أخرى بحلـول الصبـاح. كنـا في منتصـف ينايـر؛ مـا جعلنـي أتسـاءل إن كان هنـاك أي شـخص قـد رأى ريتـشي منـذ شـهر أكتوبـر- أي مـا عـدا ابنـه.

تواصـل حديثهـما فـترة لا بـأس بهـا، لكـنَّ هـنري والولـد خرَجَـا أخـيرًا عائِدَيْـن. كان الولـد قـد خلـع معطفـه، لكـنَّ هـنري قـد ارتـدى معطفـه. كان الولـد يلتقـطُ أنفاسًـا سريعـة فيعلـو صـدره ويهبـط كـما يفعـل مَـن

أزاحَ عبئًا عن صدره، لكنَّ عينيه كانتا حمروايـن وما إن ينظر في وجهك حتَّى يخفض بصره للأرض.

بدا هنري قلقًا. "فكَّرتُ أن أرسلَ تيمي للطابق العلوي حتَّى تعدَّ له زوجتي شطيرة جُبنٍ مُحمَّصة أو لُقمةً ما. ربما يودُّ بعضٌ منكم أن يذهب معي إلى بيت ريتشي. فإنَّ تيمي يقول إنه يرغب في بعض البيرة. وقد أعطاني النقود". حاولَ أن يبتسم، لكن المسألة برُمَّتها كانت مزعجة فأقلع عن المحاولة. قال بيرتي: "طبعًا، أي نوعٍ مِن البيرة؟ سأحضرها بنفسي".

قال هنري: "هاروز سوبريم، لدينا في الخلف بعض الصناديق عليها تخفيض".

أنا أيضًا نهضت. لا بدَّ أنَّ مَن سيذهب أنا وبيرتي. كارل يعاني التهاب المفاصيل وتزداد حالته سوءًا في مثل هذه الأيام شديدة البرودة، وبيلي بيلهام لم يعد قادرًا على الانتفاع بذراعه اليمنى كثيرًا.

أحضر بيرتي أربعَ كراتين من بيرة هاروز، في الواحدة سِتُّ عُلب، وحزمتُها في صندوق بينما أخذ هنري الصبي وصعدا إلى حيث الشقَّة في الطابق العلوي.

تمام، ضبط أموره مع السيدة زوجته ونزل عائدًا إلينا، وألقى نظرة سريعة للوراء ليتأكَّد مِن أنَّ باب الطابق العلوي مُغلَقٌ. بادرَ بيلي بالحديث بما لديه، منفجرًا تقريبًا: "ما الحكاية؟ هل كان ريتشي يضرب هذا الفتى؟".

فقالَ هنري: "كلَّا، لكني أُفضِّل ألَّا أقول أي شيء الآن. سيبدو كلامي جُنونًا. سوف أريكم شيئًا ما. النقود التي كان على تيمي أن يدفعها ثمنَ البيرة". أخرجَ من جيبه أربع ورقات نقدية فئة الدولار، وأمسكها من طرفها، ولا لومَ عليه. بدت كلها مُغطَّاة بمادة رماديَّة لَزِجة أَشبه بطبقةٍ الخَبَث فوق الأغذية المحفوظة حين تفسَد. وضعَ الأوراق

النقديـة عـلى النُّضـد بابتسـامة غريبـة وقـال مخاطبًـا كارل: "لا تَـدع أي شـخص يلمسـها. يجـب تَجنُّبهـا ولـو كان مـا يصفـه الفتـى هـو نصـف الحقيقـة فقـط!".

واتجه نحو حوض الصنبور بجانب نضد بيع اللحوم وغسل يديه.

نهضـتُ وارتديـتُ معطفـي القصـير والكوفيـة وأغلقـت الأزرار. لم تكـن هنـاك جـدوى مِـن ركـوب سـيارة؛ لأنَّ ريتـشي يعيـش في مبنـى شُـقَقٍ سـكنية بشـارع كـيرف، وهـو قريـب للغايـة بحيـث يمكـن أن نسـير إليـه مُبـاشرةً كـما يجيـز القانـون في مثـل هـذا الطقـس، وهـو آخِـر موضـع تصلـه جَرَّافـات الثلـج.

بينـما كنَّـا خارجـين، صـاح بيـل بيلهـام مِـن وراءنـا: "والآن سـيروا بحـرص".

أومـأ لـه هـنري وحسـب ووضـع صنـدوق البـيرة عـلى عربـة اليـد الصغـيرة التـي يحتفـظ بهـا بجانـب البـاب، وشرعنـا نتدحـرج عـلى مَهلنـا.

ضربتنـا الريـح بحـدَّةِ شَـفرةِ مِنشـارٍ، ومـن فـوري شـددتُ الكوفيـة للأعـلى حـول أذنيَّ. توقَّفنـا لـدى المدخـل لثانيـة واحـدة ريثـما يُحكـم بـيرتي قفازيـه حـول أصابعـه. ارتسـم عـلى وجهـه نـوعٌ مِـن الجفـول المتألِّـم، وكنـتُ أدرك طبيعـة شـعوره. لا بـأس بالمـرة للشـباب الصغـار أن يخرجـوا ويتزلَّجـوا عـلى الجليـد طـوال النهـار أو يتراكضـون بعربـات الثلـج اللعينـة تلـك التـي تسـمَّى جنـاح البعوضـة طـوال نصـف الليـل، ولكـن حينـما تكـون قـد تجـاوزت السـبعين فـإنَّ نهوضـك مـن مكانـك يحتـاج لتغيـير زيـت، كـما أنـك تشـعر بتلـك الريـح الشـمالية الشرقيَّـة تهـب حـول قلبـك نفسـه.

خاطبنـا هـنري ولم تَـزَل تلـك الابتسـامة الغريبـة تعلـو وجهـه، ابتسـامة أقـرب للاشـمئزاز: "لا أريـد أن أخيفكـم يـا أولاد، ولكنـي سـأريكم هـذا

رغم كل شيء. وسوف أخبركم بما حدَّثني به الفتى بينما نسير إلى هناك... لأنني أريدكم أن تعرفوا، تفهمونني؟".

وسحبَ مِن جيب معطفه مسدَّس هوللِج عيار 45، نفس المسدس الذي احتفظ به مُذَخَّرًا تحت نُضُد البيع منذ أن بدأ يفتح المتجر طوال الأربع والعشرين ساعة في عام 1958. لا أعلمُ مِن أين أتى به، لكنني أعلم أنه أظهره لسارقٍ فاستدارَ الرجل للباب وخرجَ في لمح البصر. كان هنري رابط الجأش، بلا شك. رأيتُه يطرد شابًّا جامعيًّا دخل ذات مرَّة وأثار أعصابه بسبب مُلاحَقَته لصبية. سار الصبي مبتعدًا كما لو كان يوشك أن يتغوَّط على نفسه.

تَمام، أقول لكم ذلك لأن هنري أرادَ مني أنا وبيرتي أن نعلم أنه لم يكن يمزح، وقد علمنا.

وهكذا انطلقنا، نميل في الريح مثل غاسلات الثياب على النَّبع قديمًا، دحرجَ هنري عربة اليد تلك وأخبرنا بما قال الفتى. كانت الريح تحاول أن تقتلع الكلمات وتلقي بها بعيدًا قبل أن نتمكَّن من سماعها، غير أن آذاننا تصيَّدَت أكثرها- بل أكثر ممَّا أردنا. وكم كنتُ مسرورًا لأنَّ هنري أبعدَ صاحبه المعدني الصغير وأودعه جيبَ معطفه.

قال الفتى إنَّ البيرة هي السبب بلا شك- تعلم كيف يمكن للمرء أن يشربَ عُلبة فاسدة بين حينٍ وآخَر. عُلبة تافهة المذاق بلا نكهة، أو ذات رائحة كريهة، أو مخضرَّة مثل قطرات بول أيرلندي في لباسه الداخلي. أخبرني أحدُهم ذات يوم أنَّ الأمر لا يحتاج لأكثر مِن ثقب دقيق جدًّا حتَّى يسمح بدخول بَكتيريا وسوف تفعل أشياء غريبة ملعونة، وقد يكون هذا الثقب صغيرًا للغاية بحيث لا تكاد تتسرَّب منه بيرة، لكن البكتيريا يمكنها الدخول. والبيرة غذاء طيِّب لبعض أنواع البَقِّ.

على أي حال، قال الفتى إنَّ ريتشي أحضر معه كرتونة من عُلب الجولدن لايت كما هو الحال دائمًا، في تلك الليلة من شهر أكتوبر، وجلس ليأتي عليها سريعًا بينما عكفَ تيمي على واجباته الدراسية. حينَ كان تيمي على وشك الرقاد في فراشه سمعَ ريتشي يقول: "يا يسوع المسيح، ذلك ليس جيدًا".

فيسأله تيمي: "ما الأمر، يا بابا؟".

فيقول ريتشي: "البيرة، ربَّاه، إنَّ لها أسوأ مذاق دخل فمي طوال عُمري".

قد يتساءل أغلب الناس لأي سببٍ مجنون شربَها ما دام كان مذاقها بهذا السوء، ولكن مهلًا، فأغلب الناس لم يسبق لهم أن رأوا ريتشي جراناديـن وهو يعبُّ بيرته. وقد كنتُ في "والي سبَا"، ذات أصيلٍ، ورأيتُه بعينيَّ يكسب أشنَعَ رهانٍ مُمكِن. راهنَ رجلًا أنَّه قادر على شرب عشرين كأسًا طويلة من البيرة في دقيقة واحدة. لا أحد مِن السُّكَّان المحليين قد يتحدَّاه في شيءٍ كهذا، لكنَّ بائعًا جوَّالًا مِن مونتبليير وضعَ على الطاولة عشرين دولارًا ووضعَ ريتشي مثلها. شرب العشرين كأسًا كلها وقد تبقَّت سبع ثوانٍ مِن الدقيقة- بالرغم مِن أنه عندما سارَ خارجًا كان يترنَّح مثل شراعٍ تتلاعب به الريح؛ ولهذا أتوقَّع أنَّ أغلب محتوى علبة البيرة الفاسدة تلك كان قد أصبحَ في جوفه مِن قبل أن ينتبه عقله ويحذِّره.

يقول ريتشي: "سوف أتقيَّأ، انتبِه!".

لكن حينما شرعَ يسمع تنبيه عقله كان الأوان قد فات واستقرَّ في جوفه ما شرب، وهكذا انتهى الأمر. قال الفتى إنه شمَّ رائحة العلبة، وكانت رائحتها كأنَّ شيئًا ما زحف لداخلها ومات فيها. كما كان هناك على رأس العلبة أيضًا قَطرة رمادية صغيرة.

مرَّ يومان على تلك الواقعة، ثم عادَ الفتى للبيت من المدرسة ذات مرَّة فإذا بريتشي جالسًا قبالة جهاز التليفزيون يشاهد برامج آخِر النهار المؤثِّرة المبكية، وقد أسدلَ جميع خصاص النوافذ في الشقة فحجبَ كلَّ ضوء.

سأله تيمي: "ما الأمر؟"، فقد كان مِن النادر أن يرجعَ ريتشي إلى البيت قبل التاسعة مساءً.

فيقول له ريتشي: "أنا أشاهد التليفزيون، لم أشعر برغبة في الخروج اليوم".

أضاء تيمي مصباحًا أعلى حوض المطبخ، فصاحَ فيه ريتشي: "وأطفئ ذلك النور المقرف!".

وأطاعَ تيمي أمرَ أبيه، ولم يسأل حتَّى كيف سيؤدِّي واجباته الدراسية في الظلام. فعندما يكون ريتشي في تلك الحالة المزاجية من الأفضل ألَّا تسأله عن شيء.

ويقول ريتشي: "واخرُجْ هات لي كرتونة أخرى، النقود على المائدة".

وعندما يعود الفتى مِن الخارج يجد والده لم يزل جالسًا في الظلام، الفرق الوحيد أنَّ الظلمة حلَّت بالخارج أيضًا. وكان جهاز التليفزيون مطفأ، ويبدأ الخوف يعتري الفتى، طبعًا، ومَن لا يخاف لو كان في مكانه؟ لا شيء حوله إلَّا شقة تُغلِّفها الظُّلمَة الحالِكَة، وأبوه جالسٌ في الركن مثل كُتلة ضخمة.

وهكذا يضعُ الفتى البيرة على المائدة؛ لِعلمه أنَّ ريتشي لا يُحبُّها شديدة البرودة فتَخِزُ جبينه، وحين يقترب مِن أبيه يبدأ في ملاحظة رائحة شيءٍ عَفِن، مثل جبن قديم تركه شخصٌ ما هنالك على النضد طوال نهاية الأسبوع. لا يقول كلمةَ ضِيق ولا يغمضُ عينيه، فالرجل الكبير لم يكن أبدًا ممَّا يمكن أن ندعوه شديد النظافة. وبدلًا مِن ذلك

يدخلُ غرفته ويغلق على نفسه بابها ويؤدي واجباته المدرسية، وبعد بُرهة يتناهى إليه صوت التليفزيون وقد بدأ يشتغل وصوت ريتشي وهو يفتح بيرته الأولى للمساء.

واستمرَّت الأمور على هذا المنوال لمدة أسبوعين أو نحوهما. ينهض الفتى في الصباح ويذهب إلى المدرسة وحينما يرجع للبيت يكون ريتشي أمامَ التليفزيون، ونقود البيرة على المائدة.

كما كانت رائحة الشقَّة تزداد نتنًا وخُبثًا. لم يكن ريتشي يرفع خصاص النوافذ على الإطلاق، وفي منتصف نوڤمبر تقريبًا جعل تيمي يتوقَّف عن استذكار دروسه في غرفته. قال إنه لم يَعُد يحتمل النور المنبعث مِن تحت عقب الباب. فبدأ تيمي يذهب إلى بيت صديق له غير بعيد بعد أن يحضر لأبيه البيرة.

ثمَّ ذات يوم بعد أن عادَ تيمي للبيت من المدرسة -كانت الرابعة مساءً وتكاد الظلمة تحلُّ- قال له ريتشي: "أشعل النور".

أشعلَ الولد النور الذي فوق حوض المطبخ، ولولا أن كان ريتشي مُدثَّرًا تمامًا في بطانية لرأى مشهدًا مريعًا.

"انظر"، هكذا يقول ريتشي بينما تزحف إحدى يديه لتظهر من تحت البطانية. غير أنها لم تكن يدًا بالمرة. شيء رمادي، هذا هو كل ما استطاع الفتى أن يقوله لهنري. لم تبدُ مثل يدٍ بالمرة. مجرد كتلة رمادية.

حسنًا، استولى الذعر على تيمي جرانادين. يقول: "بابا، ماذا يحدث لك؟".

فيقول ريتشي: "لا أعلم. ولكنه غير مؤلم. إنه شعور... لطيف نوعًا".

وهكذا، يقول تيمي: "سوف أتصل بدكتور ويستفيل".

فتبدأ البطَّانيـة ترتعـش بكاملهـا، كـما لـو كان شيء مـا يرجُّهـا رجًّـا -بكاملهـا- مـن تحتهـا. ويقـول ريتـشي: "إيَّـاك أن تفعـل. لـو فعلـت سـوف ألمسـك وهكـذا سـتصير". ويزيـح البطانيـة مـن عـلى وجهـه لدقيقـة واحدة.

آنـذاك كنَّـا قـد بلغنـا تقاطُـع هارلـو مـع شـارع كـيرف، وكنـت أشـد بـرودة مـن درجـة الحـرارة التـي يُظهِرهـا الترمومـتر المثبَّـت عـلى إعـلان زجاجـة كـراش برتقـال في متجـر هـنري عندمـا خرجنـا. لا يريـد أي شـخص أن يصـدِّق وقـوع مثـل تلـك الأمـور، ومـع ذلـك فـلا زالـت هنـاك أمـور شـديدة الغرابـة في هـذا العالَـم.

ذات مـرة عرفـت رجـلًا اسـمه چـورچ كيلسـو، وكان يعمـل في قسـم الأشـغال العامـة في بانجـور، أمـضى خمـسَ عـشرةَ سـنة في تثبيـت خطـوط المياه الرئيسـية وإصـلاح كابـلات الكهربـاء وكل ذلـك، ثـم ذات يوم اسـتقالَ فجـأة، قبـل عامـين أو أقـل مـن موعـد تقاعُـدِه الرسـمي. قـال فرانـكي هالدمـان، والـذي كان يعرفـه، أنَّ چـورچ نـزل في بالوعـة مجـاري في منطقـة إسـكس وهـو يضحـك ويمـزح كعادتـه دائمًـا وخـرج منهـا بعـد رُبـع سـاعة وقـد غـزا الشـيبُ شـعرَ رأسـه كلـه، صـارَ في بيـاض الثلـج وكانـت عينـاه تحدِّقـان مثـل مَـن نظـرَ مِـن نافـذة تطـلُّ عـلى الجحيـم. سـارَ مباشرةً نحـو مـرآب قسـم الأشـغال العامَّـة، وختـم بطاقـة حضـوره في السـاعة الإلكترونيـة، واتَّجـه رأسًـا إلى حانـة والي سـبا، وبـدأ يـشرب واسـتمرَّ يـشرب حتَّـى هلـك مـن الـشراب بعـد مـرور عامـين. قـال فرانـكي إنـه حـاول أن يتحـدث معـه عـن الأمـر، وأخـبره چـورچ بـشيءٍ مـا في إحـدى المـرَّات، كان ذلـك ذات مـرة بلـغ بـه السُّـكر مَـداه. التفـت چـورچ نحـوه وهـو جالـس عـلى مقعـد البـار المرتفـع، وسـأل فرانـكي هالدمـان إن كان قـد سـبقَ لـه أن رأى عنكبوتًـا ضخـمًا ضخامـة كلـبٍ متوسـط الحجـم، مسـتقرًّا في قلـب شـبكة ممتلئـة بِهـرَرَةٍ وكلهـا ملفوفـة بخيـوط نسـيجه. تمـام، ومـاذا عسـاه يقـول في ذلـك؟ أنـا لا أقـول إنَّ مثـل هـذا الأمـر حقيقـي بـأي درجـة،

لكنـي أقـول إنَّ هنـاك أمـورًا في أركان العالَـم قـد تُفقـد المـرء عقلـه بمجـرد أن تنظـرَ في عينيـه مباشرةً.

وهكـذا توقَّفنـا دقيقـة عنـد الناصيـة، عـلى الرغـم مِـن الريـح التـي كنـت تهـبُّ مُزَمجِـرَةً بامتـداد الشـارع.

سأل بيرتي: "ما الذي رآه؟".

فأجـابَ هـنري: "قـال إنـه كان لا يـزال بوسـعه رؤيـة أبيـه، ولكنـه قـال إنَّـه كان مدفونًـا تحـت هُـلامٍ رمـادي... وكان كل شيء مهروسًـا معًـا في كتلـة واحـدة، قـال إنَّ ملابسـه كانـت ملتصقـة تحـت وفـوق بشرتـه، كأنهـا ذابـت وانصهـرت في جسـمه".

قال بيرتي: "يا مُغيث يا رب".

"ثُـمَّ غطَّـى نفسـه تمامًـا مـن جديـد وشرعَ يـصرخ عـلى الفتـى ليطفـئ النور".

فقلتُ: "كما لو كان مِن الفِطريَّات".

فقال هنري: "نَعم، شيء من هذا القبيل".

قال له بيرتي: "احتفظ بذلك المسدس قريبًا مِن يدك".

فأجابـه: "نَعـم، هكـذا سـأفعل"، وعندئـذٍ بدأنـا ننقـل الخطـى داخلـين في شـارع كـيرڤ.

كانـت البنايـة السـكنية التـي تقـع فيهـا شـقة ريتـشي جرانادیـن تـكاد تكـون عـلى رأس التـل، أحـد تلـك الوحـوش المعماريـة عـلى الطـراز الڤكتـوري والتـي شـيَّدها أباطـرة صناعـة لُبـاب الخشـب والـورق عنـد بدايـة القـرن. وكانـت قـد تحوَّلَـت، جميعهـا تقريبًـا، إلى مبـاني شـقق سـكنية في الوقـت الراهـن. عندمـا التقـط بـيرتي أنفاسـه أخبرنـا بـأنَّ ريتـشي يعيـش في الطابـق الثالـث، تحـت ذلـك الجملـون المدبَّـب البـارز للأعـلى

كأنـه حاجـب مرفـوع. انتهـزت فرصـة وقفتنـا لأسـأل هـنري عـمَّا جـرى للفتـى بعـد ذلـك.

في وقـت مـا مِـن الأسـبوع الثالـث في شـهر نوڤمـبر، عـادَ الفتـى للبيـت ذاتَ أصيلٍ ليجـدَ ريتـشي وقـد انتقـل درجـةً أخـرى زائـدة بعـد مرحلـة الاكتفـاء بإسـدال خصـاص النوافـذ. فقـد فـردَ بطاطـين وثبَّتهـا بمسـامير أمـام أي وكل نافـذة موجـودة في المـكان. كـما كانـت رائحـة النَّـتَن قـد بـدأت تـزداد سـوءًا، نـوع مـن النَّـتَن الرخـوي، كـما يحـدث للفاكهـة عندمـا تُـترك فتتخمَّـر ويعلوهـا زَبـدٌ لَـزج.

بعـد أسـبوعٍ أو نحـوه، بـدأ ريتـشي يجعـلُ الفتـى يسـخِّن لـه بيرتـه عـلى موقـد الغـاز. أيمكنهـم تخيُّـل ذلـك؟ الفتـى بمفـرده تمامًـا في تلـك الشـقة، مـع أبيـه الـذي تحـوَّل إلى... إمممـم، إلى شيءٍ مـا... وهـو يسـخِّن لـه بيرتـه، ثـم يكـون عليـه أن يسـمع صوتـه هـذا الرجـل -بـل هـذا الشيء- وهـو يشربهـا بأصـوات شَـفْطٍ غليظـة رهيبـة، كـما قـد يـأكل رجـلٌ عجـوز حسـاءً غليـظ القـوام: أيمكنكـم تخيُّـل ذلـك؟

وعـلى هـذا النحـو مَضَـت الأمـور حتَّـى اليـوم، عندمـا سـمحوا للطُّـلَّاب بالخـروج مبكِّـرًا مِـن مدرسـة الفتـى بسـبب العاصفـة.

حـكى لنـا هـنري قائـلًا: "يقـول الفتـى إنـه ذهـب للبيـت مبـاشرة، لم يجـد مصبـاح إضـاءة في طرقـة السُّـلَّم -يزعـم الفتـى أنَّ أبـاه لا بُـدَّ تسـلَّل للخـارج في ليلـةٍ مـا وحطَّمـه- وهكـذا كان عليـه أن يتلمَّـس طريقـه حتَّـى بـاب شـقَّته.

طيـب، سـمعَ شـيئًا يتحـرَّك في داخـل الشـقة هنـاك، وهكـذا فجـأة قفـز إلى عقلـه أنَّـه لا يعـرف شـيئًا عـمَّا يفعلـه ريتـشي طـوال النهـار خـلال أيـام الأسـبوع. فَلـم يكـن قـد رأى أبـاه ينهـض واقفًـا مِـن ذلـك المقعـد لقرابـة شـهرٍ، وعـلى كل إنسـانٍ أن ينـام أو حتـى يذهـب لقضـاء حاجتـه في بعـض الأحيـان.

ثمة عين سِحرية مثبتة في منتصف الباب، وكان يُفترض أنَّ لها مزلاجًا صغيرًا من الداخل لإغلاقها، ولكنه كان مكسورًا منذ أن سكنا هناك. وهكذا فقد اقترب الفتى من الباب بهدوء وخفَّة، ودفعَ مزلاجَ العين السحرية قليلًا بإبهامه واختلس النظر".

آنذاك كنَّا واقفين أدنى الدَّرَج والمنزل ينهض مِن فوقنا مثل وجه عالٍ وقبيح، وكأنَّ النافذتين في الطابق الثالث عينا ذلك الوجه. رفعتُ بصري إليهما، وبكل تأكيد كانت النافذتين حالِكَتان، كأنَّ شخصًا غطَّاهما بالبطاطين أو طلاهما بالسَّواد.

"لزمته دقيقة حتَّى تعتاد عيناه العَتمة. ثم رأى كتلة رمادية كبيرة هائلة، لا تشبه الإنسان في شيءٍ بالمرة، تزحف فوق الأرض، تاركةً وراءها خطًّا رماديًّا رفيعًا. ثم مدَّت ذراعًا -أو شيئًا كالذراع- تتلوَّى كالحيَّة وتنزع عن الجدار لوحًا خشبيًّا، وتتناول من ورائه قطَّة". توقَّف هنري لثانية. كان يضرب يديه معًا؛ فقد كان البرد لعينًا بالخارج في الشارع، ومع ذلك فلا أحد منَّا كان مستعدًّا للصعود بعدُ. واصلَ هنري حديثه قائلًا: "قطَّة ميِّتة قد تفسَّخَت. قال الفتى إنها بدت منتفخة ومتخشِّبة... وكانت هناك كائنات بيضاء صغيرة تزحف على كل موضعٍ منها...".

قال بيرتي: "كفاية، باللهِ عليكَ كفاية".

"ثم أكلها أبوه".

حاولتُ أن أبلعَ ريقي لكنَّ مذاقًا لزجًا مرَّ بحلقي.

أنهى هنري حديثه بصوتٍ خفيض: "وعندئذٍ أغلق تيمي العين السحرية وجرى بعيدًا".

قال بيرتي: "لا أظنُّ أنني قادر على الصعود إلى هناك".

لم يَقُل هنري شيئًا، فقط نقلَ بصره بيني وبين بيرتي مرة بعد أخرى.

فقلتُ: "أظن أنَّ علينا الصعود، فقد أحضرنا البيرة لريتشي".

لم يُعقِّب بيرتي بشيءٍ على ذلك، فأخذنا نصعد الدرج الخارجي ودخلنا من باب الردهة الأمامية. كانت الرائحة واضحة مِن هناك.

أتعرف ما هي رائحة معمل تخمير شراب التُّفَّاح المُسكِر في فصل الصيف؟ لا يمكنك بالمرة أن تُميِّز فيها رائحة التفاح، ولكن في فصل الخريف لا بأس هناك؛ لأن الرائحة تكون لاذعة وحادَّةً بما يكفي لأن تخترق أنفك وتَبريها. أمَّا في الصيف، تكون مجرَّدَ رائحة خبيثة، كانت هذه الرائحة مثل تلك، لكنها أسوأ قليلًا.

كان هناك مصباح واحد فقط في ردهة الطابق الأرضي، شيء أصفر شحيح في زجاجٍ مبرقش يرمي ضوءًا ضعيفًا يشبه مخيض اللبن. ثم تلك الدرجات الصاعدة غارقة في الظلال.

أوقفَ هنري عربة اليد الصغيرة، وبينما كان يرفع منها صندوق البيرة، ضغطتُ الزِّرَّ الموجود عند أسفل الدَّرَج لإضاءة مصباح بَسْطَة سُلَّم الطابق الثاني، غير أن المصباح كان مكسورًا، كما قال الفتى تمامًا.

قال بيرتي بصوتٍ مرتعش: "سأحمل أنا البيرة. اهتم أنت فقط بذلك المسدَّس".

لم يجادله هنري في هذا، وناوله الصندوق وبدأنا نصعد، هنري أولًا، ثم أنا، ثم بيرتي مع الصندوق بين ذراعيه. حينما بلغنا بسطة الطابق الثاني كانت رائحة النَّتَن أشدَّ وأشنع كثيرًا. مثل تفَّاحٍ تَعَفَّن، تخمَّر واهترأ تمامًا، تحت تلك الرائحة ثمَّة زَنَخٌ أبشَعُ.

عندما عشتُ فترةً في بلاد المشرق العربي كان لديَّ كلبٌ ذات مرة، وكان رِكس، هذا هو اسمه، كلبًا هجينًا جيِّدًا، غير أنه كان متهوِّرًا

بخصوص السيارات، فارتطم بسيارة مُسرِعة للغاية ذات أصيل بينما كنتُ في العمل وزحفَ في فجوة تحت أساس البيت وهنالك مات. ربَّاه، ما أبشع الرائحة. كان عليَّ في نهاية الأمر أن أنزل تحت وأسحبه للخارج بقضيبٍ معدني طويل. كانت تلك الرائحة الكريهة الأخرى مشابهة لذلك؛ عَفنة وفاسدة وقذرة بقدر عرنوس ذرة منخور.

حتَّى تلك اللحظة ظللتُ أفكر بأنَّ ذلك كله ربما يكون مَزحَة ما، ولكني رأيتُ أنه ليس كذلك. سألتُ: "ربَّاه، لماذا لم يتقدَّم الجيران بشكوى ضدَّه؟".

تساءل هنري: "أي جيران؟"، وكان يبتسم من جديد تلك الابتسامة الغريبة.

نظرتُ حولي فرأيتُ الطُّرقة مُغَبَّرة نوعًا ما، وتبدو غير مُستَخدَمَة وأبواب جميع الشقق الثلاثة في الطابق الثاني موصدة ومقفولة بإحكام.

تساءل بيرتي: "تُرى مَن يكون صاحب العقار؟"، وهو يضع الصندوق على قائم الدرابزين ويلتقط أنفاسه. "عجيب أنه لم يأتِ إلى هنا ويطرده للشارع".

سأل هنري: "مَن سيجرؤ أن يصعد إلى هنا ويطرده؟ هل ستفعل أنت؟".

لم يَقُل بيرتي شيئًا.

والآن شرعنا نصعد درج الطابق التالي، والذي كان أشدَّ ضيقًا وانحدارًا مِن الطابق السابق. كما كان أشدَّ حرارة أيضًا، وبدا كأنَّ كل مِشعاع حرارة في المكان يُصدِر قعقعةً وهسيسًا. وكانت الرائحة لا تُطاق، وبدأت أشعرُ كأنَّ أحدًا يقلِّب أمعائي بعَصا.

في أعلى نقطة وجدنا ردهة قصيرة وبابًا واحدًا في منتصفه عين سحرية صغيرة.

أطلقَ بيرتي شهقةً صغيرة ناعمة، وهمس قائلًا: "انظرا ما الذي نخطو عليه!".

نظرتُ للأسفل فرأيتُ هذه المادة الغرويَّة اللَّزِجَة على أرضية الرَّدهة؛ في بِرَكٍ صغيرة. بدا أنَّه كانت هناك سجَّادة ذات مرة، لكن المادة الرمادية أذابتها وأكلتها كلها تدريجيًّا.

خطا هنري نحو الباب، وخطونا خلفه. لا أعرف بماذا كان يشعر بيرتي، لكنَّ ساقَيَّ كانتا ترتعدان. ورغم ذلك فَلم يتردَّد هنري بالمرة؛ أشهرَ المسدَّس ونقر بكعبه على الباب.

صاحَ: "ريتشي؟"، ولم يَنُمَّ صوته عن خوفٍ ولو قليلًا، على الرغم من أنَّ وجهه شاحب شحوبَ الموتى. "أنا هنري بارمالاي من متجر النايت أُول، وأحضرتُ لك بيرتَك".

لم يكن هناك جواب ربما لدقيقة كاملة، ثم قال صوتٌ ما: "أين تيمي؟ أين ولدي؟".

عندئذٍ أوشكتُ على أن أركض هاربًا، فذلك لم يكن صوتًا آدميًّا بالمرة. كان غريبًا وخفيضًا وفقَّاعيًّا، كأنَّ شخصًا يتكلم بفمٍ مكتظٍّ بشَحم ودُهْنٍ.

قال هنري: "إنه في متجري، يأكل لُقمة طَيبة. فَهو نحيف كأنه قطَّة بانت ضلوعها من الجوع يا ريتشي".

لم يكن هناك أي شيء لوَهلة، ثم سمعنا جلبةً رهيبة كأنها طرطشة، كأنَّ رجلًا في حذاء مطاطي طويل يخوض في الوحل. ثم عادَ ذلك الصوت الرميم المضعضع يُحدِّثنا مِن الجانب الآخَر للباب.

قـال: "افتـحَ البـاب وادفـع البـيرة عـبره، ولكـن قبـل ذلـك عليـك أن تفتـح كل العُلـب بنفسـك، فأنـا لـن أسـتطيع".

قال هنري: "حاضر، في دقيقة واحدة، لكن ماذا أصابك يا ريتشي؟".

أجابـه الصـوت، وكان متلهِّفًـا ونافِـدَ الصـبر بدرجـة رهيبـة: "لا تشـغل بالـك، فقـط ادفـع البـيرة مـن البـاب واذهـب!".

فقـال هـنري: "لم يَعُـد الأمـر قـاصرًا عـلى القطـط الميتـة، صحيـح؟"، وبـدا صوتـه حزينًـا. لم يَعُـد يرفـع كعـب المسـدس؛ بـل كان يوجِّـه الآن فوَّهَتـه للأمـام.

وفجـأة، في لمـح البـصر، ربـطَ عقـلي بـين نفـس الأمريـن اللَّذَيْـن ربـط بينهـما هـنري مـن قبـل، وربمـا حتَّـى فعـلَ ذلـك بينـما كان تيمـي يـروي لـه قصتـه. بـدت رائحـة التَّفسُّـخ والتَّحلُّـل تتضاعـفُ في منخـاريَّ عندمـا تذكَّـرتُ. فتاتـان صغيرتـان وعجـوز سِـكِّير يتبـع جيـش الخـلاص الخـيري قـد اختفـوا جميعًـا في البلـدة خـلال الأسـابيع الثلاثـة الأخـيرة تقريبًـا- جميعهـم اختفـوا في ظـلام الليـل.

قال الصوت: "ادفع البيرة وإلَّا سأخرج لكم وأحصل عليها بنفسي".

أشارَ هنري لنا بالتَّراجُع، ففعلنا.

أشهر مسدسه: "أظنُّ من الأفضل أن تخرج، يا ريتشي".

لم يحـدث أي شيء عنـدئـذٍ، ولكـن ليـس لوقـت طويـل. ولأقـول الحـق، بـدأتُ أشـعر كـما لـو كان الأمـر كلـه قـد انتهـى. ثـم اندفـع ذلـك البـاب للأمـام مفتوحًـا، بغتـةً تمامًـا وبقـوَّةٍ شـديدة بحيـث انبعـجَ للأمـام قبـل أن ينخلـع مرتطـمًا بالجـدار، ويظهـر مـن خلفـه ريتـشي.

كانـت ثانيـة واحـدة لا أكـثر، مجـرَّد ثانيـة مـرت قبـل أن نركـض أنـا وبـيرتي نازلـين الـدَّرج مثـل تلميذيـن صغيريـن، كل خطـوة ننـزل أربـع

أو خمس درجات، ثم نخرج من الباب إلى الثلوج في الخارج، ونحن ننزلق ونتعثَّر.

حين صرنا بالأسفل سمعنا هنري يطلق ثلاث رصاصات، وتَرَدَّد صداها عاليًا كأنها قنابل في تلك الرَّدهات المغلَقَة للمنزل الملعون الخاوي.

ما رأيناه في مدة الثانية أو الثانيتين تلك سوف يبقى معي طوال عمري- أو ما تبقَّى لي منه أيًّا كان. كان أقرب لموجةٍ هائلة من هُلامٍ رمادي، هُلام له صورة إنسان وليس بإنسان، مُخلِّفًا أثرًا ممتدًّا من مخاطٍ لَزِج.

غير أن ذلك لم يكن أسوأ ما في الأمر. كانت عينا ذلك الشيء مُسطَّحتَيْن وصفراوين وضاريتين، لا تطلُّ منهما روحٌ إنسانية بالمرة. كما لم تكن عينين اثنتين فقط، بل أربع أعين، وفي منتصف ذلك الشيء تمامًا، ما بين زوجَيْ الأعين خطٌّ لِيفيٌّ أبيض له لحمٌ قرنفلي نابض يُظهر ما خلفه مثل شِقٍّ في بطن خنزير.

كان ينقسم، تفهمني؟ كان ذلك الشيء ينقسم إلى اثنين.

لا أنا ولا بيرتي وجَّه أحدنا كلمة واحدة للآخر بينما نرجع إلى المتجر. لم أعرف ما الذي كان يدور في عقله، لكني أعرف جيِّدًا ما الذي كان يدور في عقلي أنا: جدول الضرب. اثنين في اثنين أربعة، وأربعة في اثنين ثمانية، وثمانية في اثنين ستة عشر، وستة عشر في اثنين...

رجعنا. وَثَبَ كلٌّ مِن كارل وبيل بيلهام واقِفَيْن وأخذا يُمطرانِنا بالأسئلة مباشرة. لم نُجِب عليهما، لا أنا ولا بيرتي. فقط استدرنا ناظِرين نحو الباب، في انتظار أن نرى إن كان هنري سوف يطلُّ علينا من وسط هذا الثلج. كنتُ قد وصلت لرقم 32,768 في اثنين، وهي ستكون نهاية النوع البشري، وهكذا جلسنا هنالك في الدفء وسط كل تلك

البـيرة، في انتظـار أن نـرى أي الاثنـين سـوف يرجـع في نهايـة المطـاف؛ وهـا نحـنُ لم نـزل جالسـين ننتظـر.

أتمنَّى أن يكون هنري هو مَن سيأتي. أتمنَّى ذلك بكل تأكيد.

ساحَةُ المعرَكَة

"سيد رينشو؟".

استوقفه صوتُ موظف الاستقبال وهو في منتصف المسافة إلى المصعد، فاستدار له رينشو بنَفاد صَبرٍ، وهو ينقل حقيبة سَفَرِه مِن يدٍ إلى الأخرى. المظروف الذي في جيب معطفه محشوٌّ بأوراق نقدية فئة العشرين والخمسين، تصدرُ عنه خشخشةٌ ذاتُ ثِقَل. أتمَّ المَهمَّة على ما يُرام، وكان الأجر ممتازًا- حتَّى بعد كَشْط نسبة الوسيط (15 بالمائة) لصالح المنظَّمة. والآن كان كل ما يريده حمَّامًا ساخنًا وكأسَ جِن وتونيك، ثم ينام.

"ما هذا؟".

"طَرد، يا سيدي. هلَّا وقَّعتَ لي بالاستلام؟".

وقَّع رينشو ونظر متفكِّرًا في الطرد المستطيل. كان اسمه وعنوانه مكتوبين على وريقة ملصوقة وبخطِّ يَدٍ مائل لليسار ومُدبَّب النهايات

بدا له مألوفًا. هزَّ الحزمة قليلًا على سطح مكتب الاستقبال من الرخام المقلَّد، وأصدر شيءٌ ما مِن داخلها قعقعةً مكتومة.

"هل أرسلها لك بالأعلى، سيد رينشو؟".

"كلَّا، سآخذها معي". كان الطَّرد حوالي ثماني عشرة بوصة من جانبه الطويل فحمله بغير ارتياحٍ تحت إبطه. وضعه على السجادة المخملية التي تغطِّي أرضية المصعد وأدارَ مفتاحه في فُرجة أعلى المستطيل المعتاد لأزرار بقية الطوابق، فُرجة مفتاح جناحه الخاص أعلى البناية. ارتفع المصعد به في سَلاسَةٍ وصمت. أغمض عينيه وترك أحداث المَهمَّة تُعرَض مُجدَّدًا على الشاشة المعتمة لعقله.

أولًا، وكما هو الحال على الدوام، اتصال مِن كال بيتس: "هل أنت متاح، يا چوني؟".

كان متاحًا مرَّتَين في العام، بأجر عشرة آلاف دولار حدًّا أدنى. كان ماهرًا للغاية، وجديرًا بالثقة للغاية، لكنَّ موهبته التي لا تُخطئ في الافتراس هي الشيء الذي كان عملاؤه يدفعون مقابله. كان چون رينشو صقرًا بشريًّا، أهَّلَته الچينات الوراثية والبيئة ليؤدِّي مَهمَّتَين على أكفأ نحو: أن يَقتل وأن يُفلت.

بعد اتصال بيتس، وصل إلى صندوق بريد رينشو ظرفٌ رسميٌّ بلونٍ بُنِّيٍّ فاتح، وفيه اسم وعنوان وصورة فوتوغرافية. عهدَ بها جميعًا لذاكِرَته؛ ثُمَّ أسقط رماد الظرف المحترق بمحتوياته في سلَّة المهملات.

في هذه المهمة كان وجهًا شاحبًا لرجل أعمال مِن ميامي يُدعَى هانز موريس، مؤسِّس ومالِك شركة لعب أطفال موريس. وقد أرادَ شخصٌ ما أن يتخلَّص مِن موريس فتوجَّه إلى المنظمة، وبدورها تحدَّثَت المنظمة إلى چون رينشو، ممثَّلة في شخص كالڤن بيتس. ثم طاخ! ثم نعيٌ في الصحف، ويُرجَى من المعزِّين عدم إرسال الزهور.

انفتح مصراعا الباب على الجانبين، رفعَ طرده وخرج. فتح باب جناحه ودخل. في هذا الوقت من اليوم، بعد الثالثة عصرًا بقليل، كانت غرفة المعيشة الواسعة تستحمُّ في ضوء شمس أبريل. توقَّف لحظة ليستمتع بها، ثم وضع الطَّرد على طرف طاولة مجاورة للباب وفكَّ رباط عنقه. أسقطَ المظروف فوقها وسارَ نحو الشرفة.

دفع الباب الزجاجيَّ المُنزَلِق ودخل الشرفة. كان الجوُّ باردًا، والريح تشقُّ طريقها عبر معطفه الخفيف. غير أنه لبث بُرهةً هنالك، يرنو للمدينة من أعلى كما قد يستطلع قائد جيش بلدةً وقعت أسيرةً بين يديه. ازدحمت السيارات المارَّة في الشوارع كأنها مجرَّد خنافس. وبعيدًا للغاية، يبدو جسر خليج سان فرانسيسكو لامعًا كأنه سراب رَجُلٍ مجنون، يكاد يُدفَن في ضباب الأصيل الذهبي. أمَّا جهة الشرق، فكل شيء مَخفي وراء البنايات الشاهقة في وسط المدينة، تلك العمائر السكنية القذرة والمكتظَّة بالناس، تُكلِّلها غاباتٌ مِن هوائيات التليفزيون من الصُّلب المقاوم للصدأ. مِن الأفضل له أن يكون بالأعلى هُنا، أفضل كثيرًا مِن العيش في البالوعات والمجارير.

عادَ إلى داخل الجناح، وجرَّ الباب فأغلقه، ودخل إلى الحمام مِن أجل حمامٍ ساخن طويل.

حينَما جلسَ بعد خمسٍ وأربعين دقيقة ليتفقَّد طرده، ومشروبه في يده، كانت الظِّلال قد زحفت واحتلَّت نصف مساحة السجَّادة النبيذيَّة وقد انقضى معظم الأصيل.

كانت قنبلة.

بالطبع لم تكن قنبلة، ولكن عليه (هو بالذات) أن يتعامل كما لو كانت كذلك، فلهذا السبب ظلَّ (هو بالذات) حيًّا يمشي على قدميه ويتنفَّس ويتغذَّى، بينما ذهبَ كثيرون غيره إلى مكتب البطالة الهائل الذي في السماء.

لـو كانـت قنبلـة، فإنهـا غـير مؤقَّتـة. ظـلَّ ذلـك الـشيء سـاكنًا هنـاك في صمـتٍ مُطبِـق؛ غامضًـا وغـير مبـالٍ. لكـن عـلى أي حـال، صـارت القنابـل البلاسـتيكية هـي الأكـثر رواجًـا في تلـك الأيـام، فهـي أضمـن وأضبـط مِـن نوابـض السـاعات التـي تُصنِّعهـا شركات وسـتكلوكس وبيـج بـين.

نظـرَ رينشـو إلى خاتـم البريـد. ميامـي، 15 أبريـل. منـذ خمسـة أيـام. وهكـذا فـإن القنبلـة لم تكـن مضبوطـةً عـلى وقـتٍ مُحـدَّد، وإلَّا لانفجـرت في خزانـة أمانـات الفنـدق.

ميامـي. نَعـم. وذلـك الخـطُّ المائـل حـادُّ الزوايـا. كانـت هنـاك صـورة فوتوغرافيـة مؤطَّـرة عـلى مكتـب رجـل الأعـمال الشـاحب، صـورة حيزبـون عجـوز أشـدَّ حتَّـى شـحوبًا مِـن القتيـل، تضـع عـلى رأسـها وشـاحًا مُزركَشًـا معقـودًا. وثمـة كتابـة بخـطٍّ مائِـلٍ حـادِّ الزوايـا عـلى حافَّـة الصـورة الدنيـا: "أفضـل الأمنيـات مِـن أفضـل فكـرة لـك عـن الفتيـات- مامـا".

تُـرى، يـا مامـا، أي نـوعٍ مِـن أفضـل فكـرة في هـذا الطـرد؟ مجموعـة أدوات لإعـداد هَـلاكَكَ بنفسـك؟

رمـقَ الطـردَ بتركيـزٍ تـام، دون أن يُبـدي حـراكًا، بيديـن مطويَّتَـيْن. لم تعترضـه أسـئلة طارئـة ليـس هـذا وقتهـا، مِـن قبيـل كيـف عـسى لمامـا أو أفضـل فكـرة عـن الفتيـات عنـد الأخ موريـس أن تكتشـف عنوانـه. سـيحين لهـا وقتهـا، وسـوف يطرحهـا عـلى كال بيتـس، لكـن لا أهميـة لهـا الآن.

وبحركـة مفاجئـة، تـكاد تكـون غـير واعيـة، أخـرجَ مِـن محفظـة نقـوده بطاقـة روزنامـة صغـيرة ومغلَّفـة بالسِّـلولويد وأقحمهـا برشـاقة ورفـق تحـت الدُّوبـارة المعقـودة حـول ورقِ التغليـف البُنِّـيِّ. مـرَّ بالبطاقـة تحـت الشريـط اللاصـق الـذي يلصـق طيَّـةً مُثلَّثـة للـورق، فانفكَّـت الطَّيَّـة وارتخـت أمـام الدوبـارة.

توقَّـف لوهلـة، مكتفيًـا بالمُراقَبَـة، ثـم انحنـى قريبًـا وتشـمَّم. روائـح كرتـون وورق وخيـط. لا شيء أكـثر. دار حـول الصنـدوق، وأقعـى بسـهولة

معتمـدًا عـلى وَرِكَيـه، وكـرَّر العمليـة ثانيـة. كان الغسـق يغـزو شـقَّته بأصابـع رماديـة ظليلـة.

انفلتـت إحـدى طيَّـات ورق التغليـف وتحـرَّرَت مـن خيـط الدوبـارة المُحكَـم، وكشـفت مِـن تحتهـا صنـدوق أخـضر باهتـًا. صندوقـًا معدنيـًا ذا مفصـلات. تنـاولَ مطـواةَ جَيـبٍ وقطـع خيـط الدوبـارة، فسـقطَ مفكـوكًا، وبضربـات مسـاعدة قليلـة بطـرف المطـواة انكشـف الصنـدوق تمامًـا.

كان أخـضر بعلامـاتٍ سـوداء، مـع كتابـة مطبوعـة على واجهتـه بحروف بيضـاء: كتيبـة ڤيتنـام چـي آي چـو[1]. وتحـت ذلـك: عـشرون جنـدي مُشـاة، عـشر طائـرات هليكوبـتر، عـشرون جنديًـا ببنـادق أوتوماتيكيـة، جنديَّـان بمدافـع البـازوكا، مُسـعِفان، 4 سـيارات چيـب. وتحـت ذلـك: أعـلام قابلـة لِلَّصـق. وتحـت ذلـك، في الرُّكـن: شركـة موريـس لألعـاب الأطفـال، ميامـي، فلوريدا.

مدَّ يده متلمسًا، ثم سحبها. شيءٌ ما تحرَّك في الصندوق.

نهـض رينشـو واقفًـا، بـلا تَعجُّـل، وتراجـع عـبرَ الغرفـة نحـو المطبـخ والطرقـة. أضـاء المصابيـح الكهربائيـة.

إن صنـدوق الكتيبـة الڤيتناميـة كان يرتـجُّ في موضعـه؛ مـا جعـل ورق التغليـف مِـن تحتـه يُخَشـخِش. وفجـأة فقـد الصنـدوق توازُنَـه وسـقط عـلى السـجادة في صـوت رضَّـةٍ مكتومـة، واقعًـا عـلى أحـد أطرافـه الرفيعـة، غـير أن الطـرف ذا المفصـلات انفـرجَ قليـلًا عـن شِـقٍّ قـد لا يزيـد عـلى البوصتـين.

بـدأ يزحـف خـارج الصنـدوق جنـودٌ مُشـاة صغـار، طـول الواحـد منهـم بوصـة ونصـف. راقبهـم رينشـو دون أن تطـرَف لـه عـينٌ. لم يبـذل عقلـه أيَّ

---

(1) G.I. JOE: اسـم شـهرة لمجموعـات دُمـى للأطفـال، رائجـة منـذ سـتينيات القـرن العشريـن في أمريـكا، تُمثِّـل مجموعـات شـخصيات إثـارة وحركـة مـن إنتـاج شركـة ألعـاب هسـبرو، وتتضمَّـن منتجاتهـا جنـود وأسـلحة الفـروع الأربعـة المختلفـة للقـوات المسـلحة الأمريكيـة.

جَهدٍ لكي يُميِّز ما الجانب الحقيقي وما الجانب الوهمي فيما يبصر- فقد انشغلَ بالعواقب المحتَملَة لما يرى وتهديدها لحياته.

كان الجنود مرتدين زِيَّ قتالٍ مصغَّر، وعلى رؤوسهم الخوذات، وعلى ظهورهم حقائب لوازم الميدان، وتتدلَّى من أكتافهم بنادق قصيرة دقيقة الحجم. عبرَ الغُرفة، ألقى اثنان منهم نظرةً سريعة نحو رينشو. التمعت أعينهم التي ليست أكبر من سِنِّ قلم رصاص.

خمسة، عشرة، اثنا عشر، ثم العشرون جميعهم. أحدهم كان يومئ ويشير ويُوجِّه الأوامر للآخرين. اصطفُّوا على امتداد الشقِّ الذي صنعه سقوط العلبة وأخذوا يدفعون معًا فأخذ الشق يتَّسع.

رفعَ رينشو إحدى الوسائد الكبيرة عن الأريكة وأخذَ يسير نحوهم. التفتَ الضابط الآمِر وأومأ نحوه، فاستدار الآخرون ونزعوا بنادقهم مِن أكتافهم. صدرت أصوات فرقعة ضئيلة للغاية، تكاد تكون رقيقة هشَّة، وأحسَّ رينشو فجأة كما لو كان لَدَغَه النَّحل.

رمى الوسادة فَارتطمت بهم ودفعتهم فتناثروا وانتشروا، ثم ارتطمت بالصندوق وفتحته على اتِّساعه. سحابةٌ مِن طائرات هليكوبتر مُنَمنَمَة، مطليَّة بأخضر زيتي، خرجت مِن الصندوق وحلَّقت، مِثل سربٍ مِن الحشرات، بصوت طنين حادٍّ وخافت كأنها براغيث.

فرقعة واهنة! طك! بلغت الأصوات أذنَيْ رينشو ورأى ومضاتٍ بحجم رؤوس الدبابيس تصدر من أبواب المروحيات المفتوحة، وانغرست إبرٌ في بطنه، وفي ذراعه اليُمنى، وفي جانب عنقه. مدَّ أصابعه كالمخالب وأمسك بإحداها- ألمٌ مباغِت في أصابعه؛ ودمٌ يطفر منها. الشفرات الحادة المدوِّمة للمروحيات قطَّعت أصابعه حتى بلغت عِظامَها، تاركةً علامات نهشٍ قرمزيَّة مائلة. ابتعدت الطائرات الأخرى عن مجاله، وأخذت تدور حوله مِثل ذباب الخيل. سقطت المروحية المحطَّمة على السجادة ومكثَت هناك جامدة.

أحسَّ بألمٍ مُبرّح في قدمه دفعه لأن يصرخ. كان أحد جنود المشاة مرتكزًا على حذائه بينما يطعن كاحله. تطلّع الوجه الصغير نحوه، لاهثًا مكشّرًا.

ركله رينشو بعيدًا فطارَ الجسد الدقيق عبرَ الغرفة حتّى ارتطم بالجدار فتركَ لطخة هناك، لم يخلّف دمًا بل بقعة بنفسجية لَزِجَة.

ثم انبعث صوتُ انفجارٍ صغيرٍ كالسُّعال ومزّق فخذه ألمٌ بالغ يُعشي البصر. كان أحد رجال البازوكا قد خرج من العُلبة، وارتفعت من سلاحه في كَسَلٍ ضَفيرةُ دخان. خفض رينشو بصره نحو قدمه ورأي ثقبًا مسودًا مدخَّنًا في سرواله بحجم عُملَة معدنية صغيرة، كان اللحم من تحته متفحِّمًا.

ابن الحرام الصغير فتح عليَّ النار!

استدار وركض في الرَّدهة ثم نحو غرفة نومه. واحدة مِن المروحيات أزَّت بجوار وجنته، بينما شفرات مروحتها تدوِّم هادِرةً. انطلقت منها دفقة صغيرة مِن إحدى البنادق الأوتوماتيكية، ثم اندفعت مبتعدة.

كان المسدَّس الموضوع تحت وسادته مِن نوع ماجنوم 44. وكبيرًا بما يكفي لأن يصنع فجوة بحجم قبضتَيْن في أي شيءٍ يُطلَق عليه. استدار رينشو، وهو مُمسِكٌ بالمسدَّس بكلتَا يديه. أدركَ بهدوء أنه سوف يطلق على هدفٍ متحرّك ليس أكبرَ من لمبة صغيرة طائرة.

حوَّمت مروحيَّتان داخِلَتَيْن للغرفة. جالسًا على الفراش، أطلق رينشو رصاصة. انفجرت إحدى المروحيَّتين فصارت هباءً منثورًا. ذلك يجعلهما اثنتين مُحطَّمَتَيْن، هكذا فكَّر. أحكمَ التصويب على الثانية... وضغطَ الزناد... اللعنة! اهتزَّت وارتجَّت!

انقضَّت عليه مروحية بمنحنى مفاجئ قاتل، وأخذت تلك اللُّعب الصغيرة تُدَوِّم فوق رأسه للأمام والوراء بسرعة لاهثة. لمحَ رينشو

خطفًا أحد الرجال المسلَّحين ببنادق آلية وقد أقعى عند الباب المفتوح لمقصورة المروحية، ويطلق من سلاحه دفعات قصيرة مُميتة، فألقى رينشو نفسه على الأرض وأخذ يتقلَّب.

عيناي، ابن الحرام كان يصوب على عينيَّ!

ارتمى على ظهره عند الجدار البعيد، ممسكًا بالمسدس عند مستوى صدره. غير أنَّ المروحية تقهقرت، بدا أنها توقَّفت لوهلة ثم غطست للأسفل؛ اعترافًا بتفوُّق القدرة النارية لسلاح رينشو. ثم ذهبت بعد ذلك، رجوعًا نحو غرفة المعيشة.

نهضَ رينشو، وقد جفلَ فزعًا إذ اعتمدَ بثقله على الساق الجريحة. كان الدَّمُ ينزف منها مِدرارًا. ولِمَ لا؟ هكذا فكَّر مُغتمًّا. كَم من الناس قد يُصاب إصابةً مباشرة بقذيفة بازوكا ويظلُّ حيًّا ليحكي عن الأمر.

إذَن فقد كانت ماما هي أفضل فكرة عن الفتيات لديه، ألم تكن كذلك؟ كانت ذلك كله وزيادة.

أفرغَ وسادةً صغيرة مِن كيسها ومزَّقه وعمل منه ضِمادَةً لساقه، ثم تناول مرآةَ الحلاقة عن منضدة الزينة وذهب نحو الباب المؤدِّي للرُّواق. راكعًا، دفعَ المرآة للخارج على السجادة بزاوية مائلة وتطلَّع فيها.

كانوا يقيمون معسكرهم بجانب الصندوق، بالطبع كانوا يفعلون. جنودٌ مصَغَّرون ينتشرون ويتحرَّكون مِن هنا إلى هناك، ينصبون الخيام. سيارات چيب بِطول بوصتين تجري في الأنحاء بإحساس الأهمية. ورجل إسعاف كان يعتني بالجندي الذي ركله رينشو. والمروحيَّات الثماني المتبقية تُحلِّق في سِربٍ حمايةً فوقهم، على مستوى منضدة القهوة الصغيرة.

فجأة انتبهوا للمِرآة، وركعَ ثلاثة جنود مُشاة على رُكَبهم وشرعوا في إطلاق الرصاص. ما هي إلَّا ثواني بعد ذلك وتكسَّرَت المرآة متناثِرةً في أربعة مواضع. أوكي، أوكي، ماشي.

عادَ رينشو إلى منضدة الزينة وأحضر صندوقًا ثقيلًا من خشب الموجنا يحتفظ فيه بأشياء صغيرة متنوِّعة كانت قد أهدتها له ليندا بمناسبة الكريسماس. رفعه مختبرًا وزنه، وأومأ في رضا، وذهب إلى فتحة الباب واندفع خلاله. اندفع وأطلق الرصاص عليهم مثل لاعب بيسبول يرمي كرةً سريعة، وكان الصندوق نصرًا خاطفًا مُحقَّقًا فقد حطَّم الرجال الصغار كما لو كانوا قناني خشبيَّةً أمام كرة البولِنج الثقيلة. إحدى سيارات الجيب انقلبت مرَّتَين. تقدَّم رينشو نحو مدخل غرفة الجلوس، مُسدِّدًا نحو أحد الجنود المنتشرين حتَّى أرداه.

تعافى عدد كبير مِن الآخرين. بعضهم راكِعٌ على ركبته ويطلق النار بهيئة رسميَّة وقورة، وغيرهم اتَّخذوا سواتِرَ، بينما آثر آخرون الانسحاب إلى داخل صندوقهم المعدني.

بدأت قَرصات النحل تُمطر ساقيه وجذعه، لكنَّ أيًّا منها لم تصل أعلى من قفصه الصدري. ربما كان النطاق أوسع مِن أن تبلغه رمياتهم. لم يهتم؛ فلم يكن لديه أي نية للتراجع أو الهرب. حُسِمَ الأمر.

طاشت رميته الثانية، فقد كان الملعونون صغارًا جدًّا جدًّا، غير أنَّ الرمية التالية أطارت جنديًّا آخَرَ فانبطحَ مُكَسَّرًا.

كانت المروحيات تُحلِّق صوبه وهي تطنُّ بعنفٍ وضراوة، وقد أخذت الطلقات الضئيلة الآن ترتطم بوجهه، فوق عينيه وتحتهما. قبضَ على المروحية القائدة للسِّرب، ثم على الثانية. ضبَّبت رؤيته شرائط مُسنَّنة مِن الألم.

انشقَّ سِربُ المروحيات السِّتِّ المتبقية إلى جناحين متراجِعَيْن. كان وجهه مُبلَّلًا بالدماء، فمسحه بساعده. كان متأهِّبًا لإطلاق النار من

جديد عندما ثبتَ متوقِّفًا. الجنود الذين تراجعوا ودخلوا إلى صندوقهم قد خرجوا الآن وأخذوا يدحرجون شيئًا ما. بدا ذلك الشيء مِثل...

انبعث أزيز سريع عن نار صفراء تعمي البصر، وانفجرت مِن الحائط على يساره كتلةٌ من الخشب والجبس.

... مِثل قاذفة صواريخ!

صوَّب نحوها رميةً لم تُصِبها، فاستدار وركض نحوَ الحمَّام في طرف الرَّدهة البعيد. ردَّ الباب بشدَّة خلفه ثم قفله بالمزلاج. طالَعَه في مِرآة الحمَّام وجهُ مُحارِب مِن الهنود الحُمر بعينين مذهولتين ملتاعتين، هندي أطارت المعركة صوابه وقد ارتسمت على وجهه شرائط رفيعة مِن طلاءٍ أحمر نازف، تمتدُّ نازِلةً مِن ثقوب ليست أكبر من حبَّات الفلفل، وتدلَّت مِزقَةٌ مُتهرِّئة مِن جلده على إحدى وجنتيه، وفي عنقه تغضُّنٌ أجوفُ.

إنني أخسر المعركة!

مرَّر يدًا مُرتعشة خلال شَعره. قُطِعَ أمامه الطريق إلى الباب الأمامي، وكذلك إلى الهاتف أو رُكن الطَّبخ. كان لديهم قاذفة صواريخ لعينة وإصابة مباشرة يمكنها أن تنزع رأسه مِن جسده.

اللعنة، لم يكن ذلك حتَّى مكتوبًا على الصندوق!

بدأ يأخذ شهيقًا طويلًا غير أنه أطلقه بنَخرَةٍ مباغتة عندما انخلع جزءٌ مِن أسفل باب الحمام بحجم قبضة يد واندفعت للداخل كتلة متفحِّمة من الخشب. لوَهلة وَمَضَت ألسنةُ لهبٍ صغيرة للغاية حول الحواف المسنَّنة للفجوة التي في الباب، ورأى بريقًا ساطعًا إذ أطلقوا رميةً أخرى. اندفع مزيدٌ مِن الخشب إلى الداخل، وتناثَرَت قِطَعٌ فضِّيَّة ملتهبة على سجادة الحمَّام، فداسَها بقدميه ليطفئها بينما

مـرَّت عـبر الفجـوة مروحيَّتـان تهـدران في غضـب. طلقـات متتاليـة مِـن بندقيـة أوتوماتيكيـة خاطـت صَـدره مثـل إبـرٍ متسـارعة.

مـع أنـين متوجِّـع وزمجـرة غضـب حطَّـم إحـدى المروحيَّتـين وهـي في الهـواء بيـده المجـرَّدة، مُتحمِّـلًا سلسـلة الشَّرطـات القصـيرة العميقـة التـي ارتسـمت عـلى راحتـه مثـل سـياج حديقـة. وفي نوبـة كَشـفٍ يائسـة داهمتـه، ألقـى منشـفة اسـتحمامٍ ثقيلـة فـوق المروحيـة الثانيـة. سـقطت عـلى الأرض ملتويـة متمعِّجـة، فأخـذ يدوسـها حتـى خمـدت الحيـاة فيهـا. كانـت أنفاسـه تخـرج في شـهقات خَشِـنة، والـدم يسـيل عـلى إحـدى عينيـه، سـاخنًا ولاسـعًا، فمسـحه عنهـا.

هكذا، يا ملاعين. هكذا. سوف يجعلكم هذا تفكِّرون.

ويبـدو حقًّـا أنَّ هـذا جعلهـم يفكِّـرون. لم تَبـدر عنهـم حركـة لنحـو خمـسَ عـشرةَ دقيقـة. جلـس رينشـو عـلى حافَّـة حـوض الاسـتحمام، بأفـكارٍ محمومـة. لا بـدَّ مِـن وجـود وسـيلة مـا للخـروج مِـن هـذا الزُّقـاق المسـدود، لا بـدَّ مِـن وجودهـا. لـو أنَّ لديـه فقـط طريقـة لتجنُّبهـم...

واسـتدار فجـأة ونظـر نحـو النافـذة الصغـيرة فـوق حـوض الاسـتحمام. نَعـم، تُوجَـد وسـيلة. بـكل تأكيـد تُوجـد وسـيلة.

وقعـت عينـاه عـلى عُلبـة صغـيرة لسـائل مَـلء الولَّاعـات فـوق خزانـة الأدويـة. كان يمـدُّ يـده يتناولهـا حـين سـمع الحفيـف.

دارَ بسرعـة، وهـو يشـهر مسدسـه الماجنـوم... لكنَّهـا لم تكـن أكـثرَ مِـن قصاصـة صغـيرة مـن الـورق دُسَّـت مِـن تحـت عقـب البـاب. كان العقـب، كـما لاحـظ رينشـو في غَـمٍّ، أضيَـقَ مِـن أن يَنفُـذَ عَـبرَه حتَّـى واحِـدٌ منهـم.

كانت هناك كلمة واحدة صغيرة مكتوبة على الورقة:

"استَسلِمْ".

ابتسم رينشو في ضيق ووضع سائل القدّاحات في جيبه فوق صدره. وجد إلى جانب السائل كعب قلم رصاص مُضَعضَع كأنه ممضوغ، فخربشَ كلمة واحدة على الورقة وردَّها إليهم مِن تحت عقب الباب. كانت الكلمة:

"مجانين".

عندئذٍ باغته وابلٌ يُعشي البصر مِن القذائف الصاروخية، فتراجعَ رينشو بعيدًا عن مرماها. مرَّت القذائف راسِمةً قوسًا عبر فجوة الباب وانفجرت على بلاطات الجدار فاتحة الزُّرقة فوق حامِل المناشِف، فجعلت الجدارَ الأنيق أقرب إلى صورة من سطح القمر ذي النُّقَر والتجاويف. حَمَى رينشو عينيه بإحدى يديه إذ تطايرت قطع الجصّ في مطرٍ ساخن من الشظايا. وتوالت الثقوب الحارقة مُمزِّقَةً قميصَه من قُبُل ومن دُبُر.

حينما توقَّف الوابل تحرَّك رينشو. صعدَ فوق حوض الاستحمام وانزلق نحو فتحة النافذة. أرسلت نجومٌ باردة نظرتها ترمقه. كانت نافذة ضيقة، ومِن تحتها إفريز ضيق، غير أنه ليس لديه وقت للتفكير في ذلك.

رفعَ نفسه ليمُرَّ عبرها، ولطمه الهواء البارد مِثل راحة يد مفرودة على وجهه ورقبته المنقوشين بالثقوب. كان محنيًّا للأمام معتمدًا على نقطة توازُن يديه، مُحدِّقًا للأسفل مباشرةً، حيث الأرض بعيدة بمسافة أربعين طابقًا. بدا الشارع مِن ارتفاعه هذا ليس أوسعَ مِن قضبان قطار لعبة أطفال. الأضواء الساطعة للمدينة كانت تومض وتنطفئ، لامعةً بجنون مِن تحته مثل جواهر مَرمية منثورة.

بسهولة خادعة وجديرة برياضيٍّ مُدرَّب مثل رينشو، رفعَ ركبتيه عاليًا ليستريحَ على الحافة المنخفضة للنافذة. إذا ما طارت الآن إحدى تلك المروحيَّات التي في حجم الدبابير عبرَ فجوة الباب فإنَّ رمية

واحـدة منهـا يتلقَّاهـا في مؤخِّرَتـه كفيلـة بإرسـاله للأسـفل مبـاشرة، صارخًـا طـوال رحلـة الأربعـين طابقًـا.

لكنَّ أيًّا منها لم يظهر.

التـوى وأخـرج سـاقًا واحـدة، ويـدًا امتـدَّت وتشـبَّثَت جيـدًا بالكورنيـش الـذي يعلـوه. بعـد لحظـة واحـدة كان واقفًـا عـلى الإفريـز خـارج النافـذة.

تجنَّـبَ عامـدًا التفكـير في الهـوَّة الرهيبـة أسـفل كعبيـه، كـما تجنَّـب التفكـير فيـما قـد يحـدث إن لاحقتـه إحـدى المروحيـات بطنينهـا إلى موضعـه هـذا. نقـل رينشـو خطواتـه عـلى الحافـة متَّجِهًـا نحـو زاويـة المبنـى.

بقيـت خمـسَ عـشرةَ خُطـوَة... عـشر خطـوات... ثـلاثٌ فقـط. توقَّـف، كان صـدره منضغطًـا إلى الجـدار، وراحتـاه مفرودتَـيْن على سـطحه الخشـن. كان بوسـعه أن يحـسَّ بعبـوة سـائل الولَّاعـات في جيبـه العلـوي، والثِّقَـل المُطَمـئِن للمسـدَّس مدسوسًـا بـين نطـاق سرواله وخـصره.

عليه الآن أن يلتفَّ حول الزاوية الملعونة.

بهـدوء ورِفـق، دفـعَ إحـدى قدميـه حـول الزاويـة وأزاحَ ثِقَلَـه عليهـا. كانـت الزاويـة اليُمنـى الآن مضغوطـة مثـل حَـدِّ الشـفرة في صـدره وبطنـه. وجـدَ لطخـة ذُراق طائـرٍ مـا قبالـة عينيـه عـلى الحجـر الخَشِـن. ربَّـاه، فكَّـر في جنـون، لم أكُـن أعلـم أنهـا تسـتطيع الطـيران حتَّـى هـذا الارتفـاع.

زَلَّت قدمه اليسرى بعيدًا عن موضعها.

وللحظـة عجيبـة توقَّـف فيهـا الزَّمـن، تزعـزع وتمايَـلَ فـوق شـفير الهاويـة، وذراعـه اليُمنـى تُرَفـرِف للخلـف بجنـونٍ لاسـتعادة التـوازن، ثـم كان يقبـض عـلى كلا جانِبَـيْ المبنـى في عنـاق عاشـق، ووجهـه مضغـوط عـلى الزاويـة الحـادَّة الصُّلبـة، وقـد تهدَّجـت أنفاسـه في رئتيـه خروجًـا ودخـولًا.

قليـلًا قليـلًا في كل مـرة، نقـلَ قدمـه الأخـرى للجانـب الآخَـر مِـن زاويـة المبنى.

عـلى مسـافة ثلاثـين قدمًـا كانـت شرفـة غرفـة جلوسـه ناتِئـةً عـن الجـدار.

اتَّخـذ طريقـه نحوهـا، وأنفاسـه تنزلـق شـهيقًا وزفـيرًا مـن رئتيـه بقـوة ضَحلَـة. اضطـرَّ للوقـوف مرَّتَـيْن حـين حاولـت هبَّـات هـواء حـادة أن تقتلعـه بعيـدًا عـن الحافَّـة.

ثـم وجـدَ نفسـه هنالـك أخـيرًا، قابضًـا عـلى درابزيـن الحديـد المطـروق في زخـارف.

اعتـلى الدرابزيـن دونمـا أي جلبـة. كان قـد تـرك السـتائر نصـف مُسـدَلة أمـام جانبَـيْ البـاب الزجاجـي الجـرَّار، والآن نظـر للداخـل وكلـه حـذر. كانـوا كـما أرادهـم تمامًـا- مُوَلِّـين الأدبـار لـه.

تُـرِكَ أربعـة جنـود ومروحيـة لحراسـة صندوقهـم المعـدني بمـا فيـه، وعـلى هـذا فـإن مَـن تبقَّـى مِنهـم كانـوا مرابطـين أمـامَ بـاب الحـمَّام مع قاذفـة الصواريـخ.

تمـام. عليـه أن يقتحـم فتحـة الشرفـة بعنـف مثـل رَجُـل عصابـات، وأن يحطِّـم الجنـود بجانـب الصنـدوق المعـدني، ثـم إلى بـاب الشـقة مبـاشرة. وبعـد ذلـك سـيارة أجـرة سريعـة إلى المطـار، ومنـه يطـير إلى ميامـي لـكي يعـثر عـلى المامـا، أفضـل فكـرة عـن الفتـاة لـدى السَّـيِّد موريـس. فكَّـر في أنـه قـد يحـرق وجههـا بقاذفـة لهـب، سـيكون هـذا جـزاءً مِـن جِنـس العَمـل.

خلـع قميصـه ومـزعَ شريطًـا طويـلًا مـن أحـد كُمَّيْـه. أسـقط مـا تبقـى منـه فرفـرفَ مهلهـلًا لـدى قدميـه، وأزالَ الغطـاء البلاسـتيكي الصغـير عـن علبـة سـائِلِ مـلء الولَّاعـات. حـشرَ أحـد طـرفي الشريـط القـماشي بداخـل

العُلبة، وسحبه، وحشر الطرف الآخر بالداخل بحيث يكون يتدلّى منه حُرًّا شريطٌ قُطنيٌّ مُبلَّل بطول ست بوصات فقط.

أخرجَ ولّاعته، وأخذ نفسًا عميقًا، وضغط على عجلتها. أمالَ لسان اللهب نحو خرقة القماش المبللة وفي نفس اللحظة التي اشتعلت باللهب أزاح مصراع الباب الزجاجي وفتحه واندفع للداخل عبره.

على الفور استجابت المروحية بردِّ الفعل، وغطست نحوه في حركة انتحارية إذ هجم هو عبر السجادة، تتساقط منه بقعٌ ورشاشات مِن نارٍ سائلة. هجم رينشو هجومًا مباشرًا، حتَّى إنه لم يلحظ إلا بالكاد رَجَّة الألم التي سَرَت عبر ذراعه حينَ قطَّعت الشفرات الدوَّارة للمروحية لحمه وزخرفته جراحًا مفتوحة.

انتشر جنود المشاة الصِّغار على الفور واختبؤوا داخل الصندوق المعدني. بعد ذلك، وقع كل شيء بسرعة خاطفة.

صبَّ رينشو سائل الولّاعات، اشتعلت العلبة وتحوَّلت إلى كرة من اللهب تحرق ما حولها. في اللحظة التالية كان يستدير ليركض نحو باب الشقة.

لم يعرف قَطُّ ولن يعرف أبدًا بماذا رَموه فأصابوه.

كان الأمر أقرب للخبطة التي قد تُحدِثها خزانة من الصُّلب إذا ما سقطت من ارتفاع معقول، غير أن هذه الخبطة تردَّدَت عبر كامل المبنى السكني شاهق الارتفاع، مُقرقعةً إطارها الصُّلب مثل تَردُّد شوكة رنَّانة.

كان باب جناح السطح الفاخر قد انفجر منخلعًا عن مفصلاته وتهشم قطعًا في الجدار البعيد.

كان رجلٌ وامـرأة يسـيران يـدًا في يـد بالأسـفل أمـام المبنـى، فرفعـا ناظريهـما يتطلّعـان في اللحظـة المناسـبة ليريـا وميضًـا أبيـض هائـلًا للغايـة، كـما لـو مائـة آلـة وميـض للتصويـر انطلقـت معًـا في اللحظـة ذاتهـا.

قال الرجل: "الكهرباء ضربت في شقَّة أحدهم، على ما أظنُّ...".

سألت الفتاة: "لكن ما ذلك الشيء؟".

كان شيءٌ مـا يُرَفـرِف في تكاسُـل نحوهـما؛ فمـدَّ هـو يـده وأمسـك بـه. "ربَّـاه، إنـه قميـص رجـلٍ مـا. ممتلـئ بثقـوبٍ صغـيرة، وعليـه دمـاء أيضًـا".

فقالـت في انفعـال: "لا أرتـاح لهـذا. اسـتَوقِفْ سـيارة تاكـسي، هـه، يـا رالـف؟ سـوف نضطـرُّ للتحـدُّث مـع رجـال الشرطـة إذا وقـع شيء هنـاك بالأعـلى، ولا يُفـترض أصلًا أن أخـرج معـك".

"صحيح، طبعًا".

نظـر حولـه، ورأى سـيارة أجـرى فصفَّـر لهـا. ومَضَـت أضـواء مكابحهـا فركضـا يقطعـان الشـارع نحوهـا.

ووراءهـما، مِـن غـير أن يشـاهد أحـد، طَفَـت في الهـواء قصاصـة ورق صغـيرة جـدًّا وهبطـت حتَّـى حطَّـت قريبًـا مِـن بقايـا قميـص چـون رينشـو. كانـت عليهـا كتابـة بخـط اليـد المائـل مُدبَّـب الحـروف:

"مرحبًـا يـا أطفـال! خصِّيصًـا وحصريًّـا في هـذه المجموعـة لحـرب ڤيتنـام!

(فقط لفترة محدودة)

مكتبة
t.me/t_pdf

عدد واحد قاذفة صواريخ

عدد 20 صاروخ "إعصاري" أرض- جَوّ

عدد واحد نموذج مصغَّر مِن سلاح حراري- نووي".

شاحِنات

كان اسمُ الرجل سوندجراس وكنتُ أراه يتأهَّب لعملٍ مجنون. اتَّسعَت عيناه واستولى على حدقتيه البياضُ، مثل كلبٍ يتأهَّب لعِراك. كان الشابَّان اللذان دخلا إلى موقف انتظار السيارات منزلقين ومُتَدحرِجَيْن في سيارتهما الفيري القديمة يحاولان التحدُّث إليه، لكن رأسه كان مائلًا ومتصلِّبًا كما لو كان يسمع أصواتًا أخرى. كان له كَرِشٌ صغير مُكتَنِز تكسوه بدلة جيدة يلتمعُ قماشها قليلًا مِن عند مِقعدته. كان مندوب مبيعات جوَّالًا واحتفظ بحقيبة عَرض بضائعه قريبةً منه، كأنها كلب أليف استغرقَ في النُعاس.

قال سائق الشاحنة الواقف عند الكاونتر: "جرِّب الراديو مرة أخرى".

طاهـي الوجبـات السريعـة رفـع منكبيـه بقلّـة حيلـةٍ وشـغّل الراديـو، أخـذ ينتقـل بالمـؤشِّر عـبر الأطـوال الموجيـة دون أن يحصـل عـلى شيء أكـثر مِـن الخروشـة والخشخشـة.

احتـجَّ سـائق الشـاحنة: "أنـتَ حرَّكـت المـؤشِّر أسرع مِـن الـلازم، ربمـا فَـوَّت شـيئًا".

فقـالَ الطاهـي: "أُف". كان رجـلًا مُسِـنًّا أسـود لـه بعـض أسـنان ذهبيـة ولم يكـن ينظـر نحـو سـائق الشـاحنة، بـل كان ينظـر نحـو سـاحة إيقـاف السـيارات عـبر الواجهـة الزجاجيـة الممتـدَّة بامتـداد المطعـم الصغـير.

وهنـاك بالخـارج كانـت سـبعُ أو ثمـاني شـاحنات نقـلٍ ثقيـل متوقِّفـة بينـما تزمجـر محرِّكاتهـا وهـي تـدور بحركـة بطيئـة بـدا هديرهـا مثـل صـوت قطـطٍ كبـيرة تَهِـرُّ وتخرخـر. كانـت هنـاك شـاحنتان مـن نـوع ماكـس، واثنتـان أخريـان مـن نـوع هيمنجـواي، وأربـع أو خمـس مـن نـوع ريـو. مقطـورات هائلـة، وسـيارات نقـل ضخمـة تسـافر بـين الولايـات المختلفـة بكثـيرٍ مِـن ألـواح الأرقـام والبيانـات وفـوق ظهورهـا تعلـو الهوائيـات الخفاقـة المرنـة.

كانـت سـيارة الصبيَّـيْن "الفـيري" مقلوبـة عـلى سـقفها عنـد نهايـة علامـات التَّدحـرُج اللولبيـة التـي تركتهـا العجـلات عـلى الصخـور الصغـيرة المفتَّتـة المنفلتـة لسـاحة الانتظـار. كانـت السـيارة قـد تحطَّمَـت حتَّـى صـارت كَومـةَ خُـردَة لا نفـع فيهـا. عنـد مدخـل المنعطـف الخـاص بموقـف الشـاحنات، كانـت هنـاك سـيارة كاديـلاك مُدمَّـرة، وصاحبهـا يحـدِّق بنظـرة جامـدة خـارج الزجـاج الأمامـي المـشروخ عـلى شـكل نجمـة، ونظَّارتـه، بإطارهـا تقليـد العَظـم، متدلِّيـة مِـن إحـدى أذنيـه.

في منتصـف المسـافة مِـن موضـع السـيارة حتَّـى نهايـة سـاحة السـيارات كانـت جُثَّـة الفتـاة ذات الثـوب الزهـري راقِـدةً هنـاك. كانـت قـد قفـزت مِـن الكاديـلاك عندمـا رأت أنَّ السـيارة لـن تنجـو مِـن الهجـوم. كانـت قـد

انطلقت تركض، لكنَّ نجاتها كان مستحيلة. كانت إصابتها هي الأسوأ، حتى وإن كانت مقلوبةً ووجهها نحو الأرض. اجتَمَعَت حول جُثَّتها سُحُبٌ مِن الذُّباب.

على الناحية الأخرى مِن الطريق سيارة قديمة من نوع فورد ستيشن واجن ارتطَمَت بحواجز الأمان على جانب الطريق. مرَّت ساعة واحدة على ذلك. ولم يَمرَّ أيُّ أحد منذ ذلك الحين. ليس بوسع أحد أن يرى بوابة دفع الرسوم على الطريق السريع مِن واجهة المطعم، وكان الهاتف خارجَ الخدمة.

كان سائق الشاحنة يواصل احتجاجه: " أنتَ حرَّكتَ المؤشِّر أسرع مِن اللازم، عليكَ أن...".

وفي هذه اللحظة انفجرَ المَدعو سوندجراس. قلبَ المائدة ونهض واقفًا، فحطَّم أقداح القهوة ونثرَ السكَّر في فوضى عارمة. كانت عيناه أشدَّ ضَراوةً مِن أيِّ وقتٍ سابق، وفمه مفتوحًا وفَكُّه مُتدلِّيًا رخوًا، وأخذت الكلمات تتدافع خارِجةً منه بلا كابح: "لا بدَّ أن نخرجَ مِن هُنا. لا بدَّ أنخرج نخرجهُنا لابدَّنخرمِهُنا...".

صاح الشاب وأخذت فتاته تصرخ.

كنتُ جالسًا على مقعدٍ مرتفع هو الأقرب للباب، فقبضتُ على قطعةٍ مِن قيمصه لكنه مزَّقه وانفلَتَ. كان قد بلغَ منتهاه ونفَدَ صَبرُه تمامًا، وكان سيمرُّ حتَّى ولو مِن باب خزانة مصفَّحة في بنك.

فتحَ البابَ بِدَفعَةٍ عنيفة ثم ركض بسرعة خاطفة عبر الساحة المفروشة بالحصى صوب القناة الضيقة لتصريف المياه جهةَ اليسار. اندفعت شاحنتان خلفه، ومدخناتهما تطلقان عادمَ الوقود بُنِّيًا داكنًا على خلفية السماء، بينما تنثر العجلات الخلفية العملاقة الحصى وتدفعه عاليًا مِن حولها مثل طلقات مدافع آلية.

لم يستطع أن يقطع أكثر مِن خمس أو سِت خطوات راكضة مِن حافة ساحة انتظار السيارات المسطَّحة عندما استدار ليلقي نظرة، وقد شخبطَ الخوف على وجهه، واشتبكت قَدَمُه اليسرى باليمنى فَتعثَّرَ وكاد يسقط استعاد توازنه مِن جديد، لكن كان أوانُ الهَرب قد فات.

أفسحَت إحدى الشاحِنَتَيْن السبيلَ فانقضَّت الأخرى، كانت الشَّبكَة الأمامية الضَّخمة تلتمع بهمجيَّةٍ في ضوء الشمس. صرخَ سوندجراس، خرجَ صوته عاليًا حادًّا، لكنه تبدَّد تقريبًا تحت هدير الديزل الثقيل لشاحنة الريو.

لم تُجَرجِره الشاحنة تحت مقدِّمَتها، ولو حدثَ هذا لكان أفضل كَما تبيَّن، فبدلًا مِن ذلك فقد قذفته عاليًا وبعيدًا كما قد يركل لاعبٌ كرةً في بداية مباراة بيسبول. وللحظةٍ قصيرة بدا مجرَّد كتلةٍ مُظلَّلة أمام سماء الأصيل الساخنة، فَكأنَّه فزَّاعة حقلٍ عاجزة عن الحركة، ثم اختفى تمامًا في قناة تصريف المياه.

ثم أطلقت مكابح الشَّاحِنة الكبيرة فحيحًا مثل أنفاس تنِّين، واتَّخَذَت عجلاتها الأمامية وضعَ الإغلاق، شاقَّةً أخاديد في قشرة الحصى التي تغطِّي أرض ساحة الانتظار، وتوقَّفَت قبل أن تميل مُقدِّمتها للأمام ببوصات قليلة. بنت الحرام.

صرخت الفتاة الجالسة في مقصورة الركن، وكلتا يديها تضغطان على وجنتيها وتشدَّان لحم وجهها للأسفل، فتجعله أقرب لقناع عرَّافة حيزبون.

سمعتُ صوتَ انكسار زجاج، التفتُّ فرأيتُ سائق الشاحنة قد اعتصر كأسه بيده حتَّى هشَّمه. لا أعتقد أنه أدرك ما حدث بعدُ. انسكب الحليب على الكاونتر الخشبي مع بضع قطرات مِن الدم.

كان الطاهي الأسود متجمِّدًا جنبَ جهاز الراديو، وفي يده خرقة تنظيف، وعلى وجهه تعبير ذهول. التمعَ ذهبُ أسنانه. وللحظة لم

يكـن هنـاك أي صـوت عـدا أزيـز سـاعة الويسـتكلوكس وهديـر محـرِّك شـاحنة الريـو إذ رجعـت لتنضـمَّ إلى رفيقاتهـا. ثـم أخـذت الفتـاة تبـكي وقـد كان هـذا مقبـولًا- أو عـلى الأقـل أفضـل.

كانـت سـيارتي لـدى المنعطـف لا تَبـينُ مِـن هُنـا، وهـي الأخـرى قـد تحطَّمـت تمامًـا. كانـت سـيارة كامـارو موديـل 1971، لا أزال أُسَـدِّد أقسـاط ثمنهـا، لكنـي لا أظـن أنَّ لذلـك أي أهميـة الآن.

لم يكن هناك أي إنسان في داخل تلك الشاحنات بالخارج.

انعكسـت الشـمس وومضـت لامِعـةً عـلى كبائـن قيـادة خاليـة، والعجـلات تديـر نفسـها بنفسـها. لا يمكنـكَ أن تطيـل التفكـير في الأمـر، فَسـوف تفقـد عقلـك إن فعلـت. مثـل سـوندجراس.

مـرَّت سـاعتان. بـدأت الشـمس رحلـة هبوطهـا. بالخـارج، أخـذت الشـاحنات تـدور بنظـام بحركـة بطيئـة في دوائـر أو أشـكال رقـم 8، وقـد أضيئـت فيهـا مصابيـح الإيقـاف ومصابيـح التشـغيل معًـا.

سِرتُ عـلى امتـداد الكاونـتر مرَّتَـيْن لأفـكَّ عُقَـد سـاقيَّ، ثـم جلسـتُ في مقصـورةٍ إلى جانـب الواجهـة الأماميـة الطويلـة. كانـت محطَّـة عاديـة لتَوَقُّـف الشـاحنات، قريبـة مِـن الطريـق السريـع متعـدِّد الحـارات، وتُوجـد بالخلـف منشـأة توفِّـر كافـة الخدمـات، كلًّا مِـن البنزيـن ووقـود الديـزل. يـأتي سـائقو الشـاحنات إلى هنـا لتنـاول كعكـة وشُرْب قهـوة.

"سيدي؟"، كان الصوتُ متردِّدًا.

التفـتُّ. كانـا الشَّـابَّيْن مِـن السـيارة الفـيري. بـدا الفتـى في نحـو الثامنـة عـشرة. كان شَـعر رأسـه طويـلًا، ولحيتـه بـدأت للتَّـوِّ تتَّضِـح وتنتـشر. وبـدت فتاتـه أصغـر منـه سـنًّا.

"نَعم؟".

"ماذا حدث لك؟".

رفعتُ منكبيَّ، وقلتُ: "كنتُ أقود سيارتي على الطريق بين الولايات قاصدًا بيلسون، رأيتُ شاحنةً آتية مِن خلفي بأقصى سُرعة لها، كان بوسعي رؤيتها في المِرآة مِن مسافة بعيدة، ويمكنك سماع صوتها مِن مسافة ميلٍ على الطريق. دَفعت جانبيًا سيارة (خُنفسة) ڤولكس واجن، فدَفعَتها خارج الطريق تمامًا بضربة سريعة من المقطورة، تمامًا كما قد تدفع بإصبعك كُرَةً من ورق عن منضدة. ظننتُ أنَّ الشاحنة سوف تنزلق عن الطريق هي أيضًا، فَلا يوجد سائق يمكنه أن يسيطر عليها بهذا الوضع بينما مقطورتها تتلوَّى مثل السوط. لكنها لم تختفِ. أما الخنفسة فقد راحت تتشقلب ستَّ أو سَبعَ مرات قبل أن تنفجر. والشاحنة كرَّرَت نفس الضربة مع السيارة التي أتت بعدها مباشرة. كانت تتَّجِه نحوي؛ فَعلى الفور أخذتُ أوَّلَ مُنحَدَر يخرج بي عن الطريق السريع". ضحكتُ، ولكن مِن غير قَلب. "لأجد نفسي هُنا، أمام محطَّة انتظار شاحنات، مِن بين كل الأماكن الأخرى. يعني هربتُ مِن الجمر للنار".

بلَعَت الفتاة ريقها، وقالت: "رأينا حافلة رُكَّاب تبع شركة جرايهاوند تسير صوب الشَّمال في الطريق المتَّجِه نحو الجنوب. كانت... كانت تشقُّ طريقها... فوق السيارات الأخرى. انفجرت واحترقت ولكن بعد... بعد المجزرة".

حافلة رُكَّاب. كان هذا أمرًا جديدًا. ومخيفًا.

بالخارج، أُنيرت جميع الأضواء الأمامية فجأة في حركة مُوحَّدة، فأغرقت ساحة السيارات في وَهجٍ ضحل وغريب على نحوٍ مخيف. أخذت تسير للوراء وللأمام، بأصوات دَمدَمةٍ. بَدَت الأضواء الأمامية كأنها تمنحها عيونًا، وفي العَتَمَة المتزايدة، ظهرت صناديق المقطورات المُعتِمة مثل أكتاف مَحنيَّة ومربَّعة لعمالقة مِن عصور ما قبل التاريخ.

قال الطاهي: "هل مِن الأمان أن نُشعِلَ الأضواء؟".

فقلتُ له: "أشعِلْها واكتشِفْ".

نقر الأزرار في المقابس فأنيرت سلسلةٌ مِن كراتٍ بالسقف تُغطِّيها فضلات الذباب. وفي اللحظة ذاتها استردَّت حياتَها بتردُّد وتَلعثُم لافتةُ نيون بالواجهة في الخارج: كونانت، استراحة شاحنات ومطعم- مأكولات شهية. لم يحدث شيء. واصَلَت الشاحنات دوريَّات طوافها كالحَرَس.

قال سائق الشاحنة: "لا أستطيع أن أفهم هذا". كان قد نزل عن مقعده المرتفع وأخذ يسير في المكان جيئةً وذهابًا، وقد ضمَّد يَدَه بوشاح رأس أحمر مزركش. "لم تكن عندي أي مشكلة مع شاحنتي المقطورة. إنها عجوزٌ طيِّبة. وقد توقَّفتُ هُنا بعد الواحدة بقليل لآكل طبق "إسباجيتي"، فيحدث كل هذا". لوَّح بذراعه فانفكَّ الوشاحُ الصغير عن يده. "شاحنتي هناك بالخارج الآن حالًا، إنها ذات المصباح الخلفي الضعيف، ظللتُ أسوقها سِتَّ سنوات. ومع ذلك فإذا خطوتُ خطوةً واحدة فقط خارج هذا الباب...".

قال الطاهي مِن خلف الكاونتر: "إنها البداية فقط". كانت جفونه بارزةً، وحَولَ عينيه ظِلالٌ داكِنَة. "لا بدَّ أنَّ الوضع خطيرٌ ما دام ذلك الراديو قد تعطَّل. إنها البداية فقط".

غاضَ لونُ وجه الفتاة فصار شاحبًا أبيض كالحليب. قلتُ للبائع: "لا عليك مِن ذلك، ليس هو المشكلة الآن".

تساءل سائق الشاحنة في قلق: "وماذا قد يكون سبب ذلك؟ عواصف كهربية في الغلاف الجوي؟ اختبارات نووية؟ ماذا؟".

فقلتُ: "ربما جُنَّت الشاحنات وحسب".

***

في حوالي السابعة سِرتُ إلى الطاهي، وسألته: "كيف حال مؤونتنا هُنا؟ أعني إذا ما اضطررنا للمكوث بعض الوقت؟".

قطَّب مُفكِّرًا. "وَضعُنا ليس بالِغَ السُّوء. أمس فقط تسلَّمنا المؤونة. لدينا مائة أو مائتان من فطائر مَحشوَّة باللحم البقري، والفواكه والخضروات المعَلَّبة، والحبوب الجافَّة، والبيض... لا يوجد حليبٌ غير الموجود في الثلاجة، ولكن الماء مِن البئر. إذا اضطررنا فيمكن لنا نحن الخمسة أن نجد ما يكفينا لشهرٍ أو أكثر".

اقتربَ سائق الشاحنة وقال وهو يغمز لنا: "لقد نَفَدَت سجائري. والآن هل ماكينة السجائر هذه تَبعك...".

فقاطعه الطاهي قائلًا: "لا يا سيدي، ليست تَبعي".

كان مع سائق الشاحنة عَتلةِ صُلب قد جاء بها مِن حجرة الخزين التي في الخلف، وأخذَ يُعالِج بها الماكينة.

ذهبَ الفتى إلى حيث كان صندوق الموسيقى يلتمع ويومض ودَسَّ في فتحته عُملَة معدنية برُبع دولار، فبدأ چون فوجارتي يغنِّي عن كونه مولودًا عندَ الغدير.

جلستُ ونظرتُ عبر الواجهة الزجاجيَّة. رأيتُ شيئًا أثار قلقي في الحال. تحرَّكَت سيارة نقل خفيف من نوع الشيڤروليه، انضمَّت لدوريات الحراسة كما قد يدخل مُهرُ شِتلاند ضئيلٌ وسط قطيع من خيول الجَرِّ الضخمة. راقبتُها إلى أن دَهست بتَجرُّدٍ وحياد فوق جسد الفتاة من السيارة الكاديلاك، ثم أشحتُ بنظري بعيدًا.

صاحت الفتاة في سَورة تعاسة مفاجِئَة: "نحنُ صنعناها! لا يمكنها هذا!".

أخبرها فتاها أن تسكت. نجحَ سائق الشاحنة في أن يفتح ماكينة بيع السجائر وخدمَ نفسه بِستٍّ أو ثماني عُلَب ڤايسروي، ووزَّعها على

جيوب مختلفة في ثيابه، ثم فتحَ واحدة منها. ومِن تعبير التصميم والعزم المرتَسِم على وجهه، لم أكن متأكِّدًا إن كان سيُدخِّنها أم سيأكلها.

انبعثت أغنية أخرى مِن صندوق الموسيقى. كانت الثامِنةَ تمامًا.

في الثامنة والنصف انقطعت الكهرباء.

حينما انطفأت الأضواء صرخت الفتاة، وانقطعت صرختها بغتةً، كما لو أنَّ فتاها قد وضع يده على فمها. توقَّف صندوق الموسيقى عن العمل بصوت خمودٍ يغور عميقًا.

قال سائق الشاحنة: "أخ، ماذا الآن؟".

ناديت على الطاهي: "ألديك أي شموع؟".

"أظنُّ ذلك. انتَظِر... نَعم. عندي قليل منها".

قمتُ وتناولتُ منه الشموع، وبدأنا أنا وهو نضعها هنا وهناك. قلتُ له: "كُنْ حَذِرًا، إذا احترقَ المكان لأي خطأ سوف تُفتَح أبواب جهنم حرفيًّا".

فأطلق ضحكة خافتة تقطرُ مرارةً. "هذا لا شكَّ فيه".

عندما انتهينا مِن تثبيت الشموع، كان الفتى والفتاة متحاضِنَيْن معًا، وسائق الشاحنة لدى الباب الخلفي، يراقبُ سِتَّ شاحنات أخرى مِن النقل الثقيل تتلوَّى داخِلةً طالِعةً مِن بين الجُزر الإسمنتية لمضخَّات الوقود. قلتُ: "هكذا تتغيَّر أمور المؤونة، صحيح؟".

"صحيح للأسف، سوف يسوء حالنا لو استمرَّ انقطاع الكهرباء هكذا".

"بأي درجة؟".

"الهامبرجر سوف يَفسَد خلال ثلاثة أيام. أمَّا البيض وبقية اللحوم ستكون انتهت بأسرع مِن هذا. أمَّا المُعلَّبات فسوف تبقى بخير، هي

والمأكولات الجافَّة. غير أن هذا ليس أسوأ شيء، فلن نستطيع الحصول على ماء من غير الطُلمبة".

"كَم نستطيع الاستمرار؟".

"مِن غير ماء؟ أسبوع".

"املأ كل وعاء فارغ لديك. املأها جميعًا حتى لا يمكنك أن تشدَّ أي شيء سوى الهواء. أين دورات المياه؟ يوجد ماء صالح للشُّرب في الخزَّانات".

"حمَّامات العاملين في المكان هُنا في الخلف. أمَّا حمَّامات الرجال والنساء فلا بدَّ أن تخرج لكي تصل إليها".

"عبرَ مبنى خِدمة السيارات؟". لم أكن واثقًا مِن ذلك. ربما فيما بعد، لكن ليس الآن.

"لا. عند الباب الجانبي وبعيدة قليلًا".

"أعطِني دلوَيْن أو ثلاثة".

وجدَ دلوَيْن من المعدن المطلي بطبقة حماية من التآكُل. تمشَّى الفتى قريبًا منَّا.

"ماذا تفعل؟".

"لا بدَّ أن يكون لدينا ماء. كل ما يمكننا الحصول عليه".

"أعطِني دلوًا إذَن".

ناولتُه واحدًا.

صاحت الفتاة عليه: "يا چيري! أنت...".

رماهـا بنظـرةٍ فلـم تَقُـل أي كلمـة أخـرى، لكنهـا التقطـت منديـلًا ورقيًّـا مِـن مناديـل المائـدة وأخـذت تُمزِّقـه مِـن الأركان. كان سـائق الشـاحنة يُدخِّـن سـيجارة أخـرى ويرنـو في عبـوسٍ نحـو الأرضيـة. لم ينطـق بكلمـة.

سِرنـا حتَّـى البـاب الجانبـي الـذي دخلـتُ منـه في أصيـل هـذا اليـوم نفسـه ووقفنـا لـدى البـاب للحظـة، وراقبنـا الظِّـلال تمتـدُّ وتنكمـش مسـتجيبة لحركـة الشـاحنات للـوراء والأمـام.

قـال الفتـى: "الآن؟". مسَّـت ذراعـه ذراعـي مسًّـا خفيفًـا فأحسسـتُ بعضلاتـه متوتِّـرة ومتوثِّبـة كأنهـا أسـلاك مشـدودة، ولـو أنَّ أي شـخص ارتطـمَ بـه لاندفـع للسـماء مبـاشرة.

قلتُ له: "اهدَأ".

ابتسم قليلًا. كانت ابتسامة سقيمة، لكنها خير مِن لا شيء.

"أوكي".

تسلَّلنا للخارج.

كان هـواء الليـل قـد ابـترد، ويُسـمَع صريـر الجداجـد بـين الأعشـاب ونقيـق الضفـادع وقَرعهـا وسـط ميـاه مجـرى التصريـف. هنـا في الخـارج كانـت جلبـة الشـاحنات أعـلى وأوضـح، أشـدَّ تهديـدًا، صـوت الوحـوش. مِـن الداخـل الأمـر أقـرب لمشـاهدة فيلـم، أمَّـا هنـا في الخـارج فقـد كان حقيقـةً، وهـلاكُكَ احتـمالٌ وارِد.

أخذنـا نتسـحَّب عـلى امتـداد الجـدار الخارجـي المبلَّـط، وقـد منحنـا بـروزٌ طفيـفٌ بعـضَ الظِّـلِّ. كانـت سـيارتي الكامـارو رابضـةً بجانـب السـياج المشـبَّك عـلى الناحيـة الأخـرى مـن موضعنـا، وثمَّـة ضـوء ضعيـف مِـن لافتـة عـلى جانـب الطريـق ينعكـس وميضهـا عـلى المعـدن المتكسِّر وبِـرك الوقـود والزيـت.

همست: "خُذْ أنت حمَّام السيدات، املأ دلوك مِن خزان المرحاض وانتظرني".

دمدمة وزمجرة ثابتة مِن محرِّكات الديزل. كانت خدعة؛ إذ تظنُّ أنها آتية إليك، لكنها كانت فقط أصداء تتردَّد من جانب لآخر في الأركان الغريبة للمبنى. كانت المسافة عشرين قدمًا فقط، لكنها بَدَت أبعد مِن ذلك كثيراً.

فتحَ باب حمَّام السيدات ودخله. ومضيتُ أنا إلى حمَّام الرجال حتَّى دخلتُه. شعرتُ بعضلاتي تنبسط بعد توتُّرها وبزفيرٍ طويل يخرج مصفِّرًا من صدري. لمحت صورتي في المرآة، وجهٌ شاحبٌ مُجهَد وعينان داكنتان.

رفعتُ الغطاء الخَزَفيَّ لخزَّان المرحاض وغطَّست الدلو حتَّى امتلأ. أعدتُ صَبَّ قليلٍ منه لكيلا يندلق ويُهدَر ثم سرتُ حتَّى الباب. "ها؟".

تنفَّس قائلًا: "نَعم".

"جاهز؟".

"نَعم".

خرجنا مِن جديد. كنَّا قد سِرنا ربما سِتَّ خطوات قبل أن تتوهَّج الأضواء في وجهينا. كانت قد زحَفَت خِلسةً حتَّى هنا، العجلات الكبيرة لم تكد تلتفُّ فوق الحصى. كانت رابضةً في انتظارٍ، والآن وَثَبَت نحونا، الكشَّافات الأمامية الكهربائية تسطع في دوائر همجية، والهوَّايات الكروم الضخمة بدت كأنها تزمجر في غضب.

جمُدَ الفتى في موضعه، وانطبع الرُّعب على مُحيَّاه، ابيَضَّت عيناه وتقلَّصَت حدقتاه حتَّى صارت كل حدقة مثل رأس دبوس. أعطيتُه دفعة قوية فاندلقَ نصف مائِه.

"تحرَّكْ!".

ارتفعَ هديرُ محرِّك الديزل حتَّى صار صرخةً حادَّة. مددتُ يدي نحو كتف الفتى ليفتح الباب، لكن قبل أن أتمكَّن من ذلك دُفعَ الباب بشدَّة مِن الداخل. دخلَ الفتى بسرعة خاطفة وتبعته على الفور. نظرتُ للوراء فرأيتُ الشاحنة -كانت بيتيربليت ضخمةً- يحتكُّ بوزها المسطَّح ببلاطات الجدار الخارجي وينتزعها في كتلٍ مُسنَّنة. كانت تنبعث ضوضاء حادَّة تطحن الأذن، مثل صوت أصابع عملاقة تحك سُبُّورة. ثم تحطِّم الرفرف الأيمن وأركان الهوَّاية في الباب الذي لم يزل مفتوحًا، فقذف زجاجًا متكسِّرًا ونثره وخلع مفصلات الباب التي من الصُّلب كأنها مناديل ورقية. طارَ الباب في قلب الليل مثل شيءٍ خارجٍ مِن إحدى لوحات سلڤادور دالي، ورفعت الشاحنة سرعتها نحو ساحة الانتظار الأمامية، وهي تقصف عادمها مثل نيران مدفع رشاش. أطلَقَت صوتًا محبطًا غاضبًا.

وضعَ الفتى دلوه على الأرض وارتمى منهارًا بين ذراعي فتاته، وجسده ينتفض.

كان قلبي يضرب بقوة ثقيلًا في صدري ومفاصل وسْطي سائِبةً كأنها ماء، وبمناسبة الماء، فقد استطعنا نحن الاثنين معًا إحضارَ نحو دلوٍ ورُبع. لم يبدُ أنَّ هذا استحقَّ المخاطَرَة.

قلتُ للطاهي: "أريد أن أسدَّ ذلك المدخل أمامهم تمامًا، ماذا يمكننا أن نستخدم؟".

"إممم...".

تدخَّل سائق الشاحنة: "لماذا؟ فلا واحدة مِن تلك الشاحنات الضخمة يمكنها أن تُدخلَ عجلةً واحدة من خلاله".

"ليست الشاحنات الضخمة هي سبب قلقي".

بدأ سائق الشاحنة يشعل سيجارة أخرى.

قـال الطاهـي: "لدينـا بعـض ألـواح خشـبية في غرفـة المؤونـة، كان صاحـب المـكان ينـوي أن يبنـي سـقيفةً لتخزيـن غـاز البيوتـان فيهـا".

"سوف نضعها بالعَرض وندعِّمها باثنتين مِن المقاصير الخشبيَّة".

قال سائق الشاحنة: "سَأساعدك".

اسـتغرقَ الأمـر حـوالي سـاعة، وفي نهايتهـا كنَّـا قـد تعاوَنَّـا عـلى العمـل جميعًـا، حتَّـى الفتـاة. كان الحاجـز صُلبًـا بدرجـةٍ لا بـأس بهـا. وبالطبـع، هـذه الدرجـة لـن تكـون جيِّـدة بمـا فيـه الكفايـة، وخصوصًـا لـو صدمـه شيءٌ مـا يتحـرَّك بأقـصى سرعـة مُمكِنَـة. أعتقـد أنَّ جميـع الموجوديـن علمـوا بذلـك.

لم تـزل هنـاك ثـلاث مقاصـير للجلـوس بامتـداد الواجهـة الزجاجيـة الكبـيرة، فجلسـتُ في إحداهـا. توقَّفَـت عقـارب السـاعة التـي وراء الكاونـتر عـلى 8:32، لكـن بـدا الوقـت في العـاشرة تقريبًـا. بالخـارج واصَلَـت الشـاحنات دوريَّاتهـا ودَويَّهـا. غـادر البعـض منهـا، في عَجلـة مُنطَلِقـين نحـو مهـامَّ مجهولـة، وأتى بعـضٌ آخـر. انضمَّـت الآن ثـلاث سـيارات بيـك آب، تلـفُّ وتـدور شـاعرةً بأهمِّيَّتهـا وسـط شـقيقاتها الأكـبر.

بـدأ يناوشـني النُّعـاس، وبـدلًا مِـن أن أحـصي الشـياه كـما يفعـل مَـن يبتغـي النـوم أخـذتُ أحـصي الشَّـاحنات. كَـم منهـا في الولايـة، وكـم في أمريـكا كلهـا؟ المقطـورات، والنقـل، والشـاحنات المسـطَّحة المكشـوفة، وناقـلات البضائـع الضَّخمـة، وسـيارات النقـل الصغـيرة بحمولـة ثلاثـة أربـاع طِـن، وشـاحنات النقـل التابعـة للجيـش وعددهـا عـشرات الآلاف، وحافـلات الـركَّاب. لاحـت أمامـي رؤيـا كابوسـيَّة لإحـدى حافـلات المدينـة، عجلتـان مـن جانـب في قُنيَّـة تصريـف الميـاه بمحـاذاة الرصيـف، وعجلتـان مـن جانبهـا الآخـر فـوق رصيـف المُشـاة نفسـه، تَهـدِرُ وتُزَمجِـر وهـي تحصـد النـاس السـائرين أمامهـا كأنهـم قنـاني خشـبية في لعبـة بولنـج.

هـزتُ رأسي ونفضت عنـي هـذه الرؤيـة، ورحـتُ في نـومٍ خفيـف قَلِـق.

***

حينـما أخـذ سـوندجراس يـصرخ كانَ ذلـك في أولى سـاعات اليـوم الجديـد بـلا شـك. ارتفـع في السـماء هـلالٌ نحيـل وأخـذ يـبرق بوميـضٍ جليدي مِـن خـلال غيمـة عاليـة مِـن السُّحب. أضيفـت نغمـة خشخشـة جديـدة، ممتزجـة ومتناغمـة مـع الهديـر الخَشِـن للمحـرِّكات الدائـرة للشـاحنات الضخمـة. بحثـتُ عنهـا فرأيـتُ عربـة زراعيَّـة لقَطـع وحَـزم القَشِّ تـدور بالخـارج قريبًـا مِـن اللافتـة المعتمـة. سـقط نـور القمـر عـلى السُّـنون الحـادَّة الـدوَّارة لبَكـرة حَـزم القـش.

ثـم انبعـثَ الـصراخ مِـن جديـد، بـلا أدنى شـكٍّ أتى مـن مجـرى تصريـف الميـاه: "انجـدووو.. نييي...".

تسـاءلَت الفتـاة: "مـا ذلـك الصـوت؟". كانـت عيناهـا وسـط الظـلام واسِـعَتَيْن، وبَـدَت مذعـورةً لأقـصى حـدٍّ.

قلتُ: "لا شيء".

"ساعدووو... نيييي".

همست الفتاة: "إنه حَيٌّ، آه، يا الله. حيٌّ".

لم أكـن بحاجـةٍ لأن أراه، فقـد كان بوسـعي أن أتخيَّـل الأمـر كلـه بأوضح مـا يمكـن. سـوندجراس راقـدٌ نِصفـه في مـصرف الميـاه ونصفـه خارجـه، مكسـور الظهـر والسـاقين، وبدلتـه المكويَّـة جيِّـدًا معجونـة بالوحـل، ووجـهٌ شـاحِب منقطـع الأنفـاس ملتَفِـتٌ للأعـلى نحـو الهـلال غـير المبـالي...

قلتُ: "أنا لا أسمع أي شيء، أتسمعين أنتِ؟".

نظَرَت نحوي. "كيف يُمكِنكَ هذا؟ كيف؟".

قلتُ لها وأنا أشير بإبهامي نحو صديقها الفتى: "الآن إن أيقظتِه من نومه فربَّما يسمع هو شيئًا ما. بل ربما يخرج إلى هناك. أيعجبكِ ذلك؟".

بدأ وجهها يختلج ويتوتَّر كأنَّ إبَرًا خَفيَّةً تخيطه. همسَت: "لا شيء، لا شيء يوجَد هناك".

رجعت إلى حبيبها ودسَّت رأسها في صدره. مدَّ ذراعيه وأحاطها بهما وهو نائم.

لم يستيقِظْ أحدٌ آخر. أخذ سوندجراس يصيح وينتحب ويصرخ وقتًا طويلًا، ثم كَفَّ.

***

الفَجر.

وصلت شاحنة أخرى، كانت هذه من النوع المسطَّح المكشوف لها محفَّة عملاقة لقَطر السيارات فوقها. وأتى في إثرها بلدوزر، وقد أخافني ذلك.

اقتربَ سائق الشاحنة مني وشدَّ ذراعي بقوَّة. همسَ في انفعال: "تعالَ إلى الخلف"، كان الآخرون لا يزالون نائمين. "تعالَ لتنظر إلى هذا".

تبعته للخلف نحو غرفة المؤونة. بالخارج كانت حوالي عشر شاحنات تطوف في جَولات حراسة، ولم أرَ أي شيء جديدًا.

قال هو: "أترى؟"، وأشار. "هناك تحديدًا".

وعندئذٍ رأيت. إحدى سيارات البيك أب خمَدَت وتوقَّفَت عن الحركة تمامًا. كانت رابِضةً هناك مثل كُتلَة ميِّتة، وقد انسحب منها كل التهديد المخيف.

"نفد وقودها؟".

"هـو كذلـك، يـا صاحبـي. وهـم لا يمكنهـم أن يملـؤوا أنفسـهم بالوقـود. لقـد ضَمَنَّـا الفـوز عليهـم. كل مـا علينـا هـو الانتظـار". وابتسـم وتلمَّـس جيوبـه ليأخـذ سـيجارة.

كانـت السـاعة التاسـعة صباحًـا وكنـتُ آكل قِطعـةً مِـن فطـيرة أمـس عـلى سـبيل الفطـور عندمـا بـدأ إطـلاق النفـير الهـوائي- انفجـارات صوتيـة طويلـة وجيَّاشـة تفلـق الجمجمـة. ذهبنـا جميعًـا إلى الواجهـة الزجاجيـة ونظرنـا عبرهـا. كانـت السـيارات تربـض ثابِتـةً، تهـدر لكـن بـلا حـراك. إحـدى الشـاحنات المقطـورة، مـن نـوع ريـو الضخـم بكابينـة حمـراء، كادت أن تصعـد عـلى حافَّـة العُشـب الضيقـة مـا بـين المطعـم وسـاحة انتظـار السـيارات. ومِـن هـذه المسـافة بـدت الهَوَّايـة المعدنيـة لهـا ضخمـةً وقاتِلـة. كانـت إطاراتهـا تصـل إلى مسـتوى القفـص الصـدري لأي رجـل.

بـدأ البـوق يزعـق مُدويًّـا مـرةً أخـرى؛ صرخـات صلبـة وجائعـة تنتقـل في خطـوطٍ مباشرة ومسـتقيمة وتـترك خلفهـا صـدى يـتردَّد. كان هنـاك نمـطٌ مُتكـرِّر في زعقـات البـوق، قصـارٍ وطـوالٍ، بإيقـاعٍ منتظـم نوعًـا مـا.

قال الفتى چيري، وقد تحمَّس فجأة: "إنها شَفرة مورس!".

نظر سائق الشاحنة إليه. "وكيف تعلم؟".

تـضرَّج وجـه الفتـى بـشيءٍ مِـن الخجـل. "تعلَّمتُهـا في فريـق جوَّالـة الصِّبيـة".

فتسـاءل سـائق الشـاحنة وهـو يهـزُّ رأسـه عجبًـا: "أنـتَ؟ أنـتَ؟ عجيبـة".

فقلتُ: "دعكَ مِن هذا، هل تتذكَّرها بما يكفي لأن...".

"طبعًا. دعني أستمع. معك قلم رصاص؟".

ناوله الطاهي قلمًا، وأخذ الفتى يكتب حروفًا على منديل مائدة. بعد بُرهة توقَّف عن الكتابة. "إنها فقط تقول "انتباه"، وتُكرِّر هذه الكلمة مرَّةً بعد مرَّة. انتظروا".

وانتظرنا وأخذَ البوق الهوائيُّ يضرب إشاراته الطويلة والقصيرة في هواء الصباح الساكن. ثم تبدَّل النَّمطُ وشرعَ الفتى يكتب مِن جديد. تجمَّعنا مِن وراء ظهره وراقبنا الرسالة بينما تتشكَّل. "شخصٌ ما لا بدَّ يضخُّ الوقود. شخصٌ ما لن يتعرَّض لأذًى. كل الوقود لا بدَّ أن يُضَخَّ. لا بدَّ أن يحدث هذا الآن. شخص ما سوف يضخُّ الوقود لنا الآن".

تواصَلَت زعقات البوق الهوائي، غيرَ أن الفتى توقَّف عن الكتابة. قال: "إنها فقط تُكرِّر كلمة "انتباه" مِن جديد".

كرَّرَت الشاحنة رسالتها مرَّةً بعد أخرى. لم يعجبني منظر الكلمات، مكتوبة هكذا بحروف متفرِّقة على منديل المائدة. بدت مثل آلاتٍ بلا قلب ولا رحمة. لن يكون هناك أيَّة حلول وَسط قد نتوصَّل إليها مع تلك الكلمات. فإمَّا أن نفعل وإمَّا ألَّا نفعل.

قال الفتى: "والآن، ما العَمل؟".

قال سائق الشاحنة: "لا شيء". ارتَسَمَت على وجهه أمارات الانفعال والتحفُّز. " كل ما علينا هو الانتظار. لا بدَّ أنها جميعًا تعاني نقصًا في الوقود، واحدة من الصغيرات هناك بالخلف توقَّفَت عن الحركة وخلاص. كل ما علينا هو...".

توقَّف صوتُ البوق. تراجَعَت الشاحنة ولحقت برفيقاتها، وانتظروا جميعًا هناك في شِبه دائرة، والمصابيح الأمامية مصوَّبة نحونا.

قلتُ: "يُوجد بلدوزر هناك معها".

نظر چيري إليَّ. "تعتقد أنها سوف تهدم المكان علينا؟".

"نَعم".

فنظرَ إلى الطاهي، وسأله: "لا يستطيعون ذلك، صحيح؟".

رفعَ الطاهي منكبَيْه.

قال سائق الشاحنة: "فلنأخذ الأصوات. لا للابتزاز، ملعون أبوهم. كل ما علينا هو الانتظار". كان قد أخذ يُكرِّر عبارته هذه لثلاث مرات حتَّى الآن، كأنها تعويذة.

قلتُ: "تمام، فلنأخذ الأصوات".

قال سائق الشاحنة في الحال: "ننتظر".

قلتُ: "أعتقد أن علينا أن نُزوِّدها بالوقود، يمكننا أن ننتظر فرصةً أفضل للنجاة. ما رأيك أيُّها الطاهي؟".

قال: "نبقى هنا، أم تريد أن نصير عبيدًا لهم؟ هذا هو ما سيحدث. أتريد أن تقضي بقية حياتك تُغيِّر لهم فلاتر الزيت في كل مرَّة تَقرَع فيها واحِدةٌ مِن تلك... الأشياء بُوقَها؟ أنا لن أفعل، ليس أنا". ونظر باغتمامٍ وغَيظٍ عبر الواجهة الزجاجية. "دَعهم يتضوَّروا جوعًا".

نظرتُ إلى الفتى والفتاة.

قال: "أظنُّ أنَّه مُحِقٌّ، هذه هي الطريقة الوحيدة لإيقافهم. لو أنَّ شخصًا ما سوف ينجدنا لكان قد فعل. ويعلم الله ما الذي يحدث في الأماكن الأخرى". أمَّا الفتاة، فقد أومَأَت برأسها، وفي عينيها ذِكرى سوندجراس، واقترَبَت خطوةً مِن فتاها.

قلتُ: "حُسمَ الأمر إذن".

اتَّجهتُ نحو ماكينة السجائر وحصلتُ على علبة من غير أن أنظر نحو نوعها. كنتُ قد أقلعتُ عن التدخين منذ عام، ولكن بدا هذا الوقت مناسبًا للبدء من جديد. كشطَ الدخانُ رئتيَّ حادًّا حارقًا.

مـرَّت عـشرون دقيقـة زاحفـة ببطء. ظلَّـت الشاحنات التـي في الأمـام منتظـرة، أمَّـا التـي في الخلـف فقـد اصطفَّـت أمـام مضخَّـات الوقـود.

قال سائق الشاحنة: "أظنُّ أن الحكاية كلها كانت خدعة. مجرَّد...".

وعندئـذٍ داهمنـا صـوتٌ أعـلى وأشـد حِـدَّة وهياجًـا، صـوت محـرِّك يتسـارع ويصمـت، ثـم يتسـارع مـرَّةً أخـرى. إنـه البلـدوزر.

كان يلتمـع مثـل دبُّـور أصفـر في ضـوء الشـمس، كان جـرَّارًا مـن نـوع "كاتـر بيلـر" لـه سيورٌ دوَّارة مـن صُلـبٍ غليـظ تُقَعقِـع وتُصَلصِـل، وينفـثُ دخانًـا أسـود مِـن مدخنتـه القصيرة بينـما يديـر عجلاتـه ليواجهنـا.

قـالَ سـائق الشـاحنة: "سـوف يهجـم". كان عـلى وجهـه تعبـير دهشـة تامَّـة. "سـوف يهجـم!".

قلتُ: "ارجعوا للخلف، وراء الكاونتر".

كان البلـدورز لا يـزال يديـر مُحرِّكَـه متأهِّبًـا، وذراع تغيـير السُّرعـات تُحـرِّك نفسـها بنفسـها، ومِـن فـوق مدخنتـه تَعلَّـق وميضٌ حـادٌّ مِـن فـرط الحـرارة. ارتفعـت فجـأة شـفرته الأماميـة، مُنحنـى ثقيـلٌ مـن الصلـب تجمَّـد عليـه تـرابٌ جـافٌّ. ثـم انبعـث عـواء صـارخ مِـن الطاقـة، هـدرَ وزمجـر في مواجهتنـا مبـاشرة.

قلتُ: "إلى الكاونتر!". ونخستُ سائق الشاحنة فانتبه وتحرَّك.

كانـت هنـاك حافَّـة إسـمنتيَّة صغيرة بـين سـاحة السـيارات والعشـب، فطلـعَ عليهـا البلـدوزر، ورفـع شـفرته للحظـة، ثـم انقـضَّ بهـا عـلى الجـدار الأمامـي بحركـة رأسـية. انفجـرَ الزجـاج في الداخـل بصـوت تهشُّـمٍ ثقيـل حـادٍّ، وتحطَّـم الإطـار الخشـبي إلى كـسرات وشـظايا حـادَّة. سـقط أحـد مصابيـح السـقف المكـوَّرة، فتناثـر المزيـد مـن الزجـاج. وتسـاقطت آنِيَـةٌ خَزفيَّـة مـن عـلى الأرفـف. كانـت الفتـاة تـصرخ ولكـن صـوت صراخهـا تـاه تقريبًـا تحـت القـرع الثابـت المتواصـل لمحـرك البلـدوزر.

تراجـعَ، وأخـذَ يُقعقـع عـبر شريـط العشـب المهـروس، وانقـضَّ إلى الأمـام مِـن جديـد، فأطـاح بمـا تبقـى مِـن مقصـورات خشـبية مهشَّـمة ومتناثـرة. الحافظـة الزجاجيـة للفطائـر سـقطت عـن الكاونـتر، فانزلقـت مثلثَّـات الفطائـر المقطَّعـة عـلى طـول الأرضيـة.

كان الطاهـي مُقعيًـا وعينـاه مغمضتـان، والفتـى يضـمُّ فتاتـه إليـه، وازوَّرَت عينـا سـائق الشـاحنة مـن الرُّعـب.

غمغـم بغـير وضـوح: "لا بـدَّ مـن إيقافـه... قُـل لهـم إننـا سـنفعل مـا يريـدون، سـنفعل أي شيء...".

"فات الأوان، أليس كذلك؟".

تراجـعَ البلـدورز وأخـذَ يتأهَّـب لهَجمـةٍ أخـرى. ظهـرت في شـفرته أخاديـد وأثـلامٌ جديـدةٌ، والتمعـت كالمرايـا في ضـوء الشـمس. تقـدَّم مُتمايـلًا بصـوت زَمجَـرةٍ هـادِرَة، وفي هـذه المـرة هـدَّم العمـود الرئيـسي لبقايـا مـا كان قبـل قليـل الواجهـةَ الزُّجاجيَّـةَ، فسـقط في داخـل المـكان ذلـك الجـزء مـن السـقف بصـوت تحطُّـم طاحِـن، تموَّجَـت سُـحبٌ مـن غبـار الجـصِّ.

جـرَّ البلـدوزر نفسـه وتراجـعَ متحـرِّرًا، ومِـن خلفـه كان بوسـعي أن أرى جماعـة الشـاحنات، تنتظـر.

أمسكتُ الطاهـي. "أيـن براميـل الوقـود؟". كانـت أفـران الطهـي تُـزوَّد بغـاز البيوتـان، لكنـي قـد رأيـتُ فتحـات تهويـة لفُـرن هـواء ساخِـن.

قال: "بالمخزن في الخلف".

أمسكتُ الفتي: "هيَّا".

نهضنـا وركضنـا حتَّـى دخلنـا المخـزن. ضربَ البلـدوزر ضربـةً أخـرى فانتفـض المبنـى. ضربتـان أو ثـلاثٌ أخـرى وسـيكون بوسـعه أن يسـير مبـاشرة حتَّـى يصـل إلى الكاونـتر ويطلـب قهـوة.

كان هنـاك برميـلان كبـيران بسِـعة خمسـين جالـون بخراطيـم تغذيـة للفـرن وصنابـير للتحكُّـم في الوقـود. رأيـتُ بالقـرب مـن البـاب الخلفـي صندوقًـا ورقيًّـا لقواريـر "الكَتشَـب" الفارغـة. "أحـضِرْ تلـك، يـا چـيري".

بينـما كان يحضرهـا، خلعـتُ قميـصي ومزَّعتـه خرقًـا. ضرب البلـدوزر ضربـة ثـم أخـرى، وكل ضربـة صحبهـا صـوتُ المزيـد مـن التحطُّـم والانهـداد.

مـلأتُ أربـع قواريـر "كتشـب" مِـن صُنبـور الوقـود، ودسَّ هـو فيهـا الخِـرَق المُمزَّقـة. سـألته: "هـل لـكَ في كـرة القـدم الأمريكيـة؟".

"كنتُ، أيامَ المدرسة الثانوية".

"تمام. تظاهَرْ بأنَّكَ تُراوغ الفريق الخصم محتضنًا كُرتك للنهاية".

عُدنـا إلى المطعـم. كان الجـدار الأمامـي مكشـوفًا بكاملـه الآن عـلى السـماء. جـزازات متناثـرة مـن الزجـاج التَمَعَـت مثـل فُتـات المـاس. سـقطت عارضـة خشـبية ثقيلـةٌ بمَيـلٍ أمـام الفجـوة. كان البلـدوزر يتراجـع قليـلًا لينتزعهـا وفكَّـرتُ أنـه سـوف يواصـل التقـدُّم هـذه المـرة، شـاقًّا طريقـه عـبر المقاعـد المخلَّعـة حتَّـى الكاونـتر نفسـه ليقوِّضَـه تمامًـا.

ركعنا أرضًا وأخرجنا القوارير. قلتُ لسائق الشاحنة: "أشعِلْها".

أخـرجَ عُلبـة ثقابـه، لكـنَّ يديـه كانتـا ترتعشـان بشـدَّة فأسـقط الثقاب، التقطهـا الطاهـي وأشـعل عـودًا منهـا وسرعـان مـا توهَّجَـت مِـزقُ القميـص بلهـبٍ زيتـيٍّ ناعم.

قلتُ: "بسرعة".

ركضنـا، الفتـى يسـبقني قليـلًا. تحـت أقدامنـا أصـدرَ الزجـاج أصـوات جَـرشٍ وصَحـنٍ. كانـت هنـاك رائحـة زيتيَّـة سـاخنة في الهـواء. كلُّ شيءٍ كان صَخبًـا ولمعانًـا شـديدَيْن.

تقـدَّم البلـدوزر مهاجـمًا. انحنـى الفتـى وتملَّـص خارجًـا مِـن تحـت العارضـة الخشـبية ووقـف هيـكلًا مُعتِـمًا قُبالَـةَ تلـك الشـفرة الثقيلـة مِـن الصُّلـب المقـسَّى. خرجـتُ إلى جهـة اليمـين. الرميـة الأولى للفتـى كانـت أقـرب مـمَّا يجب فلـم تُصِـب البلـدوزر، رميتـه الثانيـة ضربـت الشـفرة وانتـثر اللهـب دون أن يُصيبها بـضَرَر.

حـاولَ أن يلتفـت وعندئـذٍ انقـضَّ عليـه، قـوة طاغيـة عـلى عجـلات، قـوة تَـزِنُ أربعـة أطنـان مـن الصُّلـب. ارتفعـت يـدا الفتـى فـوق رأسـه كأنهـما جناحـين ثـم اختفـى، ممضوغًـا تحـت البلـدوزر.

التففـتُ وقذفـتُ برميـة مقوَّسـة قـارورةً في مقصـورة القيـادة المفتوحـة والقـارورة الثانيـة إلى الأجـزاء الداخليـة. انفجـرت العبوتـان معًـا في صيحـة لهـبٍ واثبـة.

للحظـة ارتفـع صـوت مُحـرِّك البلـدوزر بصرخـة حـادَّة الصـوت، صرخـة غضـبٍ وألم، تـكاد تكـون إنسـانيَّةً. أخـذَ يرتـجُّ بحركـةٍ مُخبَّلـة نصـف دائريـةً، منتزعًـا الرُّكـنَ الأيـسر مـن مبنـى المطعـم، ومتدحرجًـا كالمخمـور نحـو قنـاة تصريـف الميـاه.

سيور الصُّلـب الـدوَّارة ارتسـمت عليهـا خطـوط وبقـعٌ مِـن دَمٍ متجلِّط، وفي الموضـع الـذي كان فيـه الفتـى بـدا شيءٌ مـا مثـل منشـفة مُجعَّـدة ومُكوَّمـة.

لم يكـد البلـدوزر يصـل إلى قُنَيَّـة تصريـف الميـاه، وكانـت النـيران تمـور مِـن تحـت غطـاء مُحرِّكـه ومـن مقصـورة القيـادة، ثـم انفجـرَ نافـورةً مِـن لَهـب.

تراجعـتُ متعـثِّرًا وأوشـكتُ أن أسـقط فـوق كومـة مـن الحُطـام. كان ثمَّـة رائحـة حـارَّة ليسـت مجـرَّد زيـت، بـل رائحـة شَـعر يشـيط. كانـت النـار مُمسِـكةً بي.

جذبتُ مفرش مائدة، وكبستُه على رأسي، وركضتُ نحو الكاونتر، وغطستُ رأسي في حوض الماء بشدَّة كافية لأن يرتطم جبيني بقعر الحوض. كانت الفتاة تصيحُ باسم چيري مرارًا وتكرارًا كأنه ابتهالٌ مجنونٌ صارِخ.

التفتُّ فرأيتُ حاملة السيارات الهائلة تتقدَّم ببطء نحو واجهة المطعم المكشوفة الآن بلا حماية.

صرخ سائق الشاحنة واندفع هاربًا مِن الباب الجانبي.

صاح به الطاهي: "لا! لا تفعل هذا..."، لكنه كان قد خرج وشرعَ يركض بسرعة نحو مصرف المياه والحقل المفتوح وراءه.

لا بدَّ أنَّ الشاحنة كانت تقف حِراسة خارج مرمى البصر قريبًا للغاية مِن الباب الجانبي- وعلى جانبها مُلصَقٌ تجاريٌّ صغير مكتوب عليه "مغسلة وونج- ادفع واستَلِم". لقد طَرحته أرضًا تقريبًا قبل أن تستوعب عينا المرء ما يحدث. ثم مضت ولم يتبقَّ سوى سائق الشاحنة، ملتوي الأطراف وسط الأرض المرصوفة بالحصى والزلط. لقد بوغتَ الرجل وانتهى في غمضة عين.

دارت حاملة السيارات ببطء فوق الحافَّة الإسمنتية، وفوق العشب، وفوق رفات الفتى، ثُمَّ توقَّفَت وخَطمُها يمتدُّ ويجوس داخل المطعم.

أطلقَ بوقها الهوائيُّ نفيرًا مفاجئًا مُزَلزِلًا، تبعه آخر، وآخر.

صاحت الفتاة باكيةً: "كفى! كفى، آه، كفاية، رجاءً...".

غيرَ أن النفير استمرَّ لوقتٍ طويل. لم نكن بحاجةٍ لأكثر مِن دقيقة حتَّى نتبيَّن النمط المتكرِّر، كان على نفس منوال النمط السابق. كانت تطالبُ بأن يخرجَ واحدٌ منَّا ليطعمها هي والأخريات.

قلتُ: "سوف أذهب، هل المضخَّات مفتوحة؟".

أومأ الطاهي برأسه إيجابًا، كان قد شاخَ عامًا فوق عمره.

صرخت الفتاة: "لا!". رَمَت نفسها عليَّ. "لا بُدَّ أن توقفها! اضربها، أحرِقْها، اكسَرْها...". كان صوتها يتهدَّج ويرتعد ويتكسَّر إلى شهقاتٍ مُترَعة بالحسرة والفقد.

أمسكَها الطاهي. درتُ حولَ رُكن الكاونتر، شاقًّا طريقي بصعوبة عبر الحُطام، وللخارج عبر غرفة المؤونة. كان قلبي يضرب بقوة وثِقَل حينما خطوتُ خارج المبنى وصرتُ تحت الشمس الدافئة. رغبتُ في تدخين سيجارة أخرى، لكن هذا محظور بالقرب من مضخَّات الوقود.

كانت الشاحنات لا تزال مُصطفَّةً. ربضَت شاحنة المغسلة على الناحية الأخرى من الدرب المرصوف كأنها كلب صيد، يُزَمجِر ويخربش الأرض بقدميه الأماميتين. مجرَّد حركة واحدة غريبة مني وسوف تَعجِنُني عجنًا. التمعت الشمس على الزجاج الأمامي لها وانتفض جسمي، كان الأمر أقرب للتحديق في وجه شخص مخبول.

أدرتُ مفتاح المضخة لأفتحها، وجذبتُ فوهة الخرطوم؛ وفككتُ أول غطاء وقود وبدأت أضخُّه.

استغرقتُ نصف ساعة ثم نضب الوقود في أوّل خزان ثم انتقلتُ إلى المضخة الثانية. كنتُ أتنقَّل بين مضخَّات البنزين والديزل. كانت الشاحنات تمرُّ متقاطرة بلا نهاية. الآن فقط بدأتُ أفهم. الآن فقط بدأت أرى. كان الناس في كل مكان مِن البلاد يفعلون هذا الأمر نفسه، وإلَّا فَهم راقدون موتى مثل سائق الشاحنة، وقد أُخذوا على حين غرَّة مع علامات العَجل العريض الثقيل منطبعة فوق أحشائهم.

جفَّ خزان الوقود الثاني فانتقلتُ إلى الثالث. كانت الشمس تدقُّ كالمطرقة وأخذت رأسي تتألَّم من الأدخنة والروائح. كانت هناك قروحٌ بسبب الوقود في النسيج اللحميِّ الناعم بين إصبعي السبابة والإبهام. غير أنَّ هذه الشاحنات لا تعرفُ عن ذلك شيئًا، هي تعرفُ فقط الصِّمامات التي تُسرِّب والحشوات السيئة والوصلات المفصلية

المتجمِّدة، ولكن ليس القروح ولا ضربة الشمس ولا الرغبة في الصراخ. لم يكونوا بحاجةٍ لأن يعرفوا إلَّا شيئًا واحدًا فقط عن سادتهم السابقين، وقد عرفوه؛ أنَّنا ننزف.

امتَصَصتُ آخر قطرةٍ مِن آخِر خزَّان وقود ورميتُ فوهة الخرطوم على الأرض. لم يَزَل هناك المزيد من الشاحنات، مصطفَّةً في طابور عند الزاوية. ثنيتُ رأسي لأريحَ تيبُّسًا في عنقي وحدَّقتُ، كان الطابور يتجاوز ساحة الانتظار الأمامية ويمضي حتى الطريق العام ويمتدُّ إلى أن يغيب عن بصري، بعُمق حارتين أو ثلاث. كان المشهد مثل كابوس لطريق لوس أنجلس السريع في ساعة الذُّروة. والأفق يلتمع ويتراقص من فرط حرارة عادمها؛ وأنتنَ الهواء برائحة احتراق الوقود.

قلتُ: "كلَّا، نَفَدَ الوقود. انتهى كله، يا جماعة".

ثم انطلقَت قعقعة أثقل، صوتٌ جهير خشِنٌ يجعل الأسنان تصرُّ. كانت شاحنة فضِّيَّة عِملاقة متوقِّفة، ناقلة بترول، كُتِبَ على جانبها: "املأ سيارتك ببنزين فيليبس -66 وقود چيت بورت"!

ومِن مؤخِّرة الناقلة أُسقطَ خرطومٌ ثقيل.

ذهبتُ إلى هناك وتناولتُه، ورفعتُ قُرصَ التغذية لخزَّان الوقود الأول، ووصَّلتُ الخرطوم. أخذت الناقلة تضخُّ الوقود تلقائيًّا. هبطت عليَّ الرائحة البترولية الزَّنخة- لا بدَّ أنَّ الديناصورات كانوا يشمُّون نفس هذه الرائحة الزنخة بينما يتساقطون في مهاوي القطران. ملأتُ الخزانين الآخرين وعندئذٍ رجعتُ للعَمل من جديد.

بدأ إدراكي يتقلَّص مثل ضوءٍ يبتعد حتَّى بلغتُ حدًّا فقَدتُ عنده إحساسي بالوقت وبعدد الشاحنات. كنتُ أفتح غطاء التانك وأحشر فوَّهة الخرطوم في الفجوة وأضخُّ البنزين حتَّى يطرطش السائل الساخن الثقيل خارجها، ثم أضع الغطاء في موضعه. انفتحت قروحُ أصابعي وتقطَّر الصديد منها على طول رسغيَّ. وكان رأسي يدقُّ بوجع

كأنـه سِـنٌّ مُسوَّسـة، ومعـدتي تضطـرب عاجـزةً عـن تحمُّـل زَنَـخ مُركّبـات الكربـون والهيدروچـين تلـك.

سـوف يغـشى عـليَّ. سـوف يغـشى عـليَّ وسـتكون هـذه هـي نهايتـي. سـوف أظـل أضـخ البنزيـن لهـا حتَّـى أقـع مِـن طـولي.

ثـم أحسسـتُ بيديـن عـلى كتفـيَّ، اليـدان السـودوان للطاهـي في المطعـم. قـال لي: "ادخـل أنـت، اسـترِح. سـوف أتـولَّى الأمـر حتَّـى يحـلَّ الظـلام. حـاوِلْ أن تنـام".

أسلمتُه المضخَّة.

***

لكني عجزتُ عن النوم.

الفتـاة نائمـة. تمـدَّدَت أرضًـا في أحـد الأركان ورأسـها عـلى مفـرش مائـدة ووجهها مُنعقِـد الملامـح حتَّـى في سُـبُاتها. إنـه وجـهٌ بـلا عُمـر، وجـه عجـوز شـمطاء مكلومـة مـن الحـرب. سـيكون عـليَّ أن أوقظهـا في وقـت قريـب، فقـد حـلَّ الغسـق والطاهـي ظـلَّ هنـاك بالخـارج لخمـس سـاعات.

لم تـزل الشـاحنات تواصـل المجـيء. أرنـو عـبر الواجهـة المحطَّمـة فـأرى كشَّـافاتها الأماميـة تمتـدُّ لمسـافة ميـلٍ أو أكـثر، تومـض مثـل يواقيـت صُفـرٍ في الحلكـة الزاحفـة. لا بـدَّ أنهـا مُصطفَّـة في طابـورٍ طويـل يصـل حتَّـى بوابـات دفـع الرسـوم، وربمـا لنقطـة أبعـد مـن تلـك.

سـيكون عـلى الفتـاة أن تأخـذ دورهـا. يمكننـي أن أريهـا مـاذا عليهـا أن تفعـل. سـتقول إنهـا لا تسـتطيع، لكنهـا سـتفعل؛ فهـي تريـد أن تعيـش.

تريـد أن نصـير عبيـدًا لهـم؟ هكـذا قـال الطاهـي. هـذا هـو مـا سـيحدث. أتريـد أن تقضي بقيـة حياتـك تُغـيِّر لهـم فلاتـر الزيـت في كل مـرة تقـرع فيهـا واحـدة مِـن تلـك... الأشـياء بوقهـا؟

نستطيع أن نهرب، ربما. سيكون من السهل عبور مصرف المياه الآن، بالطريقة التي تتكدَّس بها هكذا على المضخَّات. أن نجري عبر الحقول، عبر المواضع السَّبِخة الراكدة حيث الشاحنات سوف تغوص مثل حيوانات الماستودون الضخمة البائدة وتذهب- عائِدةً إلى الكهوف.

تصاوير بالفحم الحجري. هذا هو القمر الرَّبُّ. وهذه شجرة. وهذه شاحنة "ماك" تكاد تتغلَّب على صيَّادٍ بَرِّيٍّ.

لكن حتَّى ذلك غير ممكن؛ إذ تُوجُد الآن طرق معبَّدة تقود إلى أي موضع في العالَم، حتَّى الملاعب صارت معبَّدة بحيث تتحمَّل العجلات. أمَّا الحقول والسَّبخات والغابات العميقة فيُوجد مِن أجلها دبَّابات ونصف مُجَنزَرات وشاحنات مسطَّحة مكشوفة، وكلها مُجهَّزة بالليزر والميزر والرادار الكاشف عن الحرارة. وشيئًا فشيئًا، يمكنهم أن يجعلوا العالَم كله مواتيًا لهم وفقَ مشيئتهم.

يمكنني أن أتصوَّر أرتالًا مِن الشاحنات تملأ مستنقعات أوكفينوكي بالرمال، وبلدوزرات تُسقط كل شجرة أو نبتة في الحدائق الوطنية والمحميَّات الطبيعية، وتُمهِّد الأرض وتبسطها وتدعسها حتَّى تصير بكاملها سَهلًا مُسطَّحًا هائلًا. وبعد ذلك تصل شاحنات المعادن المُذابَة.

لكنها مجرَّد آلات. وأيًّا كان ما جرى لها، وأيًّا كان الوعي الجمعي الذي منحناه لها، فهي لا تستطيع التكاثر. وفي غضون خمسين أو ستين عامًا سوف تنتهي إلى هياكل صَدِئَة وقد تبخَّرَت منها كلُّ قُوَّة مُهدِّدة، جُثَث هامدة عاجزة يمكن للبشر الأحرار أن يرجموها أو يبصقوا عليها.

وإذ أغمض عينيَّ أستطيع أن أتصوَّر خطوط إنتاج تعمل في ديترويت وفي ديربورن، في يونجستاون وماكيناك، وشاحنات جديدة يتمُّ تجميعها بأيدي عُمَّال لم يعودوا مضطرِّين لدَقِّ بطاقات الحضور والانصراف في

الساعة الإلكترونية، بل فقط يَسقطون صرعى ليحلَّ مَحلَّهم آخرون في الحال.

بائع المطعم يترنَّح قليلًا الآن. إنه هَرِم، مِثل حالي. عليَّ أن أوقظ الفتاة.

بالأعلى طيَّارتان ترسمان خلفهما ذيولًا فضية طويلة منقوشة عبر الأفق الشرقي المظلم.

ليتني أستطيع أن أُصدِّق أن بداخلهما بَشَرًا.

أحيانًا يعودون

كانت زوجة چيم نورمان في انتظاره منذ الساعة الثانية، وحين رأت السيارة تقف أمام مسكنهما، خرجت لتلقاه، ذهبت قبلها إلى المتجر وابتاعت وجبة للاحتفال: بضعة شرائح من اللحم، وزجاجة نبيذ لانسرز، ورأس من الخس، وصلصة الألف جزيرة. الآن، وهي تراقبه خارجًا من السيارة، وجدت نفسها تأمل مع شيء من الاستماتة (وليس للمرة الأولى هذا اليوم) أن يوجد شيء ما يحتفلان به.

تقدَّم نحو الممشى، حاملًا حقيبته الجديدة في يد، وأربعة كتب في الأخرى، استطاعت أن ترى عنوان الكتاب العلوي: "مقدِّمة في النحو"، وضعت يديها على كتفه وسألت: "كيف صار الأمر؟".

وابتسم.

لكن في تلك الليلة، راوده الحلم القديم للمرة الأولى منذ وقت طويل جدًّا، واستيقظ متعرِّقًا مع صرخة وراء شفتيه.

أجرى معه المقابلة ناظر مدرسة هارولد داڤيس الثانوية ورئيس قسم اللغة الإنجليزية، وأثير موضوع انهياره العصبي.

توقَّع حدوث ذلك.

مال الناظر إلى الوراء، وهو رجل أصلع شديد الشحوب يُدعى ڤينتون، وتطلع إلى السقف، وأشعل سيمونز رئيس قسم اللغة الإنجليزية غليونه.

قال چيم نورمان: "كنتُ وقتَئِذٍ تحت ضغط رهيب". أرادت أصابعه أن تتراقص في حِجرِه، لكنه لم يسمح لها.

قال ڤينتون مبتسمًا: "أظنُّ أننا نفهم ذلك، وفي حين أنه لا رغبة لدينا في التفتيش عن الأسرار، فأنا متأكِّد أننا مُتَّفقون أن التدريس مهنة ضاغطة، خاصة في المرحلة الثانوية، أنت تقف على خشبة المسرح في خمس حصص دراسية من أصل سبعة، وتؤدِّي دورك أمام أقسى جمهور في العالم، هذا هو السبب".

أنهى حديثه بشيء من التفاخُر.

"يعاني المدرِّسون من تَقَرُّح المعدة أكثر من أصحاب أي مهنة أخرى، باستثناء المراقبين الجويِّين".

قال چيم: "كانت الضغوط التي ساهمت في انهياري العصبي شديدةَ الوَطأَة".

أومأ ڤينتون وسيمونز بتشجيعٍ غير مُلزم، وطقطق سيمونز قدَّاحته كي يؤجِّج غليونه. فجأة بدا المكتب ضيقًا جدًّا وقريبًا جدًّا. انتاب چيم ذلك الإحساس الغريب أن شخصًا ما أشعل مصباحًا حراريًّا خلف عُنُقه. أرادت أصابعه أن تتراقص في حِجرِه، لكنه أوقفها.

"كنت في سنتي النهائية وأزاول التدريس. ماتت أمي في الصيف الذي يسبقه -بالسرطان- وفي محاورتي الأخيرة معها، طلَبَت مني أن

أمضي في طريقي وأسوِّي أموري. شقيقي، شقيقي الأكبر، مات حين كنَّا صغارًا. كان يُخطِّط أن يصير مدرِّسًا، وهي ظَنَّت...".

رأى في عيونهم أنه كان يتساءل ويفكِّر: ربَّاه، إني اقترف حماقةً.

"نَفَّذتُ ما طلَبَته منِّي". هكذا قال، تاركًا العلاقة المعقَّدَة لأمِّه وشقيقه واين، واين المسكين القتيل، وذاته وراء ظهره.

"خلال الأسبوع الثاني من تدرُّبي على التدريس، وقعت خطيبتي في حادثة اصطدام وهروب بالسيارة، وكانت هي التي تعرَّضَت للاصطدام، من قِبَل فتًى يقود سيارة مُعدَّلة، لم يقبضوا عليه قطُّ".

أصدر سيمونز صوت تشجيع رقيق.

"ذهبتُ من فوري، لم يبدُ أن هناك سبيلًا آخر، كانت تُقاسي ألمًا عظيمًا: ساق مكسورة بشدَّة، وأربعة أضلاع متكسِّرة، ولكن لا شيء خطير، لا أظن أني عرفت الضغط الذي رزحت تحته حقَّ المعرفة".

احترس الآن، فهنا تنحدر الأرض بشدَّة.

قال چيم: "تدرَّبتُ في مدرسة سنتر ستريت الثانوية للتعليم المهني".

قال ڤينتون: "إنها فردوس المدينة: مطاوي، أحذية طويلة للدراجات البخارية، أسلحة مُصنَّعة يدويًّا في الدواليب، مضارب لحراسة أموال الغداء، وواحد من كل ثلاثة فتيان يبيع المخدرات للولدين الآخرَيْن، أعلم بشأن المدرسة".

قال چيم: "كان هناك فتى يُدعى ماك زيمرمان، فتى حسَّاس يعزف على الجيتار، حظيت به في فصل التأليف الموسيقيِّ، وكان موهوبًا. جئتُ ذات صباح حيث كان يمسك به ولدان بينما يحطِّم الثالثُ جيتاره الياماها قُبالَةَ المُبرِّد. كان زيمرمان يصرخ. صرخت فيهم كي يتوقَّفوا ويعطوني الجيتار، تحرَّكتُ نحوهم، ولكمني أحدهم". هَزَّ

جيـم كتفيـه "قُـضيَ الأمـر، انهَـرتُ عصبيًّـا، لم أصرخ هسـتيريًّا أو أنـزوِ في ركـن الفصـل. لم أقـدر فحسـب عـلى العـودة. حـين أقـترب مـن المدرسـة، يضيـق صـدري، ولا أسـتطيع التَّنفُّـس كـما يجـب، وأتعـرَّق عرقًـا بـاردًا...".

قال ڤينتون بودٍّ: "هذا أيضًا يحدث لي".

"خضَعـتُ للتحليـل النفـسي، ضمـن برنامـج علاجـي مُجتَمعـيٍّ، لم أقـدر عـلى تحمُّـل تكاليـف طبيـبٍ نفـسي، نفـع الأمـر معـي. سـالي وأنـا تزوَّجنـا، كان لديهـا عَـرَجٌ بسـيط وندبـة، وفيـما عـدا ذلـك، طابـت حالتهـا مـن جديـد". نظـر إليهـما مبـاشرة. "أظـنُّ أنـه يمكنكـما قـول نفـس الـشيء بخصـوصي".

قـال ڤينتـون: "أَتمَمـتَ شرطَ تدريبـك عـلى التدريـس في مدرسـة كورتيـز الثانويـة، هكـذا أظـنُّ".

قال سيمونز: "ولم يكن الطريق مفروشًا بالورود أيضًا".

قـال چيـم: "أردتُ مَدرسـةً صعبـة، بادَلـتُ مـع شـابٍّ آخـر لأكـون في كورتيـز".

علَّق سيمونز: "حصلتَ على درجات الامتياز من مُشرِفك ومُوَجِّهك".

"نعم".

"مـع مُعـدَّل تَراكُمـي 3.88 في السـنوات الأربـع، اقترَبـتُ بشـدَّة مـن درجـات الامتيـاز".

"استَمتَعتُ بمُنجَزي الجامعي".

تبـادل ڤينتـون وسـيمونز النظـرات فيـما بينهـما، ثـم وقفـا، ووقـف چيـم.

قـال ڤينتـون: "سـنبقى عـلى اتِّصـال يـا سـيد نورمـان، لدينـا المزيـد مـن المتقدِّمـين كي نقابلهـم بالتأكيـد".

"نعم، بالطَّبع".

"لكن بيني وبين نفسي، فأنا مُنبَهِرٌ بدرجاتك الجامعية، وصراحتك الشخصية".

"أمرٌ طيِّب منكَ قَولُ هذا".

"سيم، ربما يَوَدُّ السيد نورمان فنجانًا من القهوة قبل أن يغادر".

تصافَحَا.

في القاعة، قال سيمونز: "أظنُّ أنَّكَ حصَلتَ على الوظيفة إن كُنتَ تريدها. هذا الكلام بيني وبينكَ بالطَّبع".

أومأ چيم، فقد أبقى الكثير بينه وبين نفسه.

كانت مدرسة ديڤيس الثانوية صخرةً مَنيعةً، تشتمل على معمَلٍ فائِقِ العصريَّة، فقد مُوِّلَ الجَناحُ العِلميُّ وحده بمليون ونصف مليون دولار في ميزانية العام الفائت. أمَّا الفصول التي ما زالت مأهولةً بأشباح عُمَّال "م. ت. م"[1] وأطفال فترة ما بعد الحرب الذين كانوا أوَّلَ رُوَّادها، فقد فُرِشَت بتُخَت حديثة وسَبُّورَات ملساء. كان الطلاب نظيفين، ومُهندمين في الملبس، ونشيطين، ومُوسرين. يمتلك سِتَّةٌ من كُلِّ عشرة طُلَّاب في السنة النهائية سياراتهم الخاصة. مدرسة جيدة في المُجمل، مدرسة ممتازة للتدريس فيها خلال حقبة السبعينات المُقزِّزة. إنها تجعل مدرسة سنتر ستريت الثانوية للتعليم المهني تبدو وكأنها مجاهِلُ إفريقيا.

ولكن بعد ذهاب الفتية، تتَّضِح هَيمَنةُ شيء ما ساكِنٍ وعتيق على القاعات، ويهمس في الغُرَف الخاوية. شبح أسود مُؤذٍ لا يظهر أبدًا للعَيَان. أحيانًا، حين يتمشَّى في ممرِّ الجناح الرابع نحو المرآب مع

(1) اختصارًا لـ(منظمة تقدم المهن) (المترجم)

حقيبته الجديدة في يد واحدة، يَظنُّ نورمان أنه تقريبًا يسمعه وهو يتنفَّس.

راوده الحلم ثانية في نهاية أكتوبر، وهذه المرة صرخ، خمش بأظافره طريقه إلى الواقع اليَقِظ ليجِدَ زوجته جالِسةً في الفراش بجواره، مُمسِكةً كتفه. كان قلبه يجلجل بشدَّة.

قال: "ربَّاه"، وفَرَكَ وجهه بيَدِه.

"هل أنتَ بخير؟".

"بالتأكيد، أنا صرختُ، أليس كذلك؟".

"ويحي، طبعًا، أكان كابوسًا؟".

"نعم".

"شيء ما من وقت كَسرِ أولئك الفتية جيتار ذلك الولد؟".

قال: "لا، بل أقدم بكثير من هذا، أحيانًا يعود إليَّ، هذا كل شيء. ليست مشكلةً".

"متأكِّد؟".

"نعم".

"أتريد كوبًا من الحليب؟". كانت عيناها داكِنَتَيْن مع الانشغال.

قَبَّل كتفها "لا، اخلدي إلى النوم".

أطفأت المصباح، ورقد هناك، محدِّقًا إلى الظلام.

حظي بجدول حصص جيِّد بالنسبة لمدرِّس جديد ضمن طاقم العمل، الحصَّة الأولى حصة حُرَّة، والثانية والثالثة حصَّتا كتابة لطلبة السَّنة الأولى، توجد مجموعة بليدة، ومجموعة مَرِحَة بعض الشيء، والحصة الرابعة حصته المُثلَى: أدب أمريكي مع طلبة في السنة النهائية

ينـوون الالتحـاق بالجامعـة ويتلـذَّذون بتقريـع المدَرِّسـين القدامـى يوميًّـا لمـدَّة حصَّـة، الحصـة الخامسـة "حصَّـة استشـارية"، حيـث يتوجَّـب مقابلـة الطلبـة ذوي المشـاكل الشـخصية أو الأكاديميـة. ثمَّـة قِلَّـة قليلـة مِمَّـن يبـدو أن لديهـما الاثنـين (أو أرادوا مناقشـتها معـه)، وأمـضى أغلـب هـذه الحصـص مـع روايـة جيِّـدة. الحصـة السادسـة دورة في النحـو، جافَّـة مثـل غُبـار الطُّبشـور.

كانـت الحصـة السـابعة هـي صليبـه الوحيـد، تُدعـى الحصـة "الحيـاة مـع الأدب"، وتُعقـد في فصـل كالعُلبَـة الصغـيرة في الطابـق الثالـث. كانـت الغرفـة حـارَّةً في بواكـيرِ الخريـف، وبـاردة مـع اقـتراب الشـتاء. الحصـة في حـدِّ ذاتهـا اختياريـة لمـن تُطلِـق عليـه كتالوجـات المدرسـة تأدُّبًـا "بطـيء التَّعلُّـم".

كان يوجـد 27 فتـى "بطـيء التَّعلُّـم" في فصـل جيـم، أغلبهـم مـن الرياضيِّـين في المدرسـة. أكـثر شيء مهـذب يمكنـك اتهامهـم بـه هـو عـدم الاكـتراث، ولـدى بعضهـم نـزوع إلى العـداء الصريـح، دخـل في يـوم مـن الأيـام ليجـد رسـمًا كاريكاتوريًّـا لـه، فاحِشًـا وقاسـيًا في دِقَّتـه، على السـبورة، مـع عبـارة "الأسـتاذ نورمـان"، مكتوبـة تحتهـا بـلا داعٍ.

مسحها دون تعليق، وباشر الدرس رغم أنف "الأحذية الرياضية".

وضـع خططًـا مثـيرة للـدروس، تشـتمل عـلى مـواد سـمعية/ بصريـة، مع طَلَبِـه بضعـة كتـب رفيعـة الـذوق تتطلَّـب إدراكًا عاليًـا، وذهـب كل هـذا سُـدًى. تراوَحَـت حالـة الفصـل بـين الصَّخـب الجامـح والصمـت المتجهِّـم. في بواكـير نوفمـبر، اندلعـت مشـاجرة بـين ولدَيْـن خـلال مناقشـة لروايـة "عـن الرجـال والفـئران". فضَّهـا جيـم وأرسـل الولديـن إلى المكتـب. حـين فتـح كتابـه حيـث تركـه، وجـد عبـارة "غـور في داهيـة" سـاطِعةً أمامـه.

حمـل المشـكلة إلى سـيمونز الـذي رفـع كتفيـه وأشـعل غليونـه، "ليـس لـديَّ حَـلٌّ فِعـليٌّ يـا جيـم. الحصَّـة الأخـيرة دائمًـا ملعونـة، والحصـول

على تقدير "مقبول" بالنسبة لهم معناه أنه لا مزيد من كرة القدم الأمريكية أو كرة السلة، ولديهم دورات يسيرة أخرى في اللغة الإنجليزية؛ لذا فهم عالقون".

قال چيم بكآبة: "وأنا أيضًا".

أومأ سيمونز: "أظهِرْ لهم الجدِّيَّة، وسيعملون بجدٍّ، ولو حتى فقط ليحافظوا على جدارتهم الرياضية".

ولكن بقيت الحصة السابعة شوكةً دائمةً في خاصرته.

من أكبر مشاكل فصل "الحياة مع الأدب" حيوان موظ ضخم بطيء الحركة يُدعى شيب أوزواي، في بداية سبتمبر، وخلال الوقفة الوجيزة بين كرة القدم الأمريكية وكرة السلة (أوزواي لعب كلتيهما)، ضبط معه چيم قصاصة ورق يغشُّ منها، وطرده من الفصل.

صاح أوزواي في الممرِّ المعتم للدور الثالث: "إذا أسقطتني في الامتحان، سننال منك يا ابن العاهرة!".

قال چيم: "اذهب، لا تُهدِرْ أنفاسَكَ".

"سننال منك أيها المسخ!".

عاد چيم إلى فصله، نظروا إليه مُداهنين، فالوجوه لا تخدع أحدًا. شعر بدَفقَةٍ من اللا واقعيَّة، مثل إحساسٍ غَمَرَه من قبل.

"سننال منكَ أيُّها المسخ!".

أخذ دفتر الدرجات من على مكتبه، وفتحه على صفحة تحت عنوان "الحياة مع الأدب"، وبحرصٍ كَتَبَ تقدير "ضعيف" في خانة الامتحان بجوار اسم شيب أوزواي.

في تلك الليلة عاوَدَه الحُلمُ مرَّةً أخرى.

كان الحلم على الدوام قاسِيًا في بُطئِه، حيث يتَّسِع الوقتُ لرؤية كل شيء والإحساس به، مع حضور الرُّعب الإضافي في مُعايَشَة الأحداث من جديد، وهو مغلوبٌ على أمره مثل رجلٍ مُقيَّد داخل سيارة مُتَّجِهَة نحو جُرفٍ.

في الحلم، كان في التاسعة من عمره، وشقيقه واين في الحادية عشرة من عمره، كانا ذاهبين إلى شارعٍ فسيح في ستراتفورد، كونتيكنت، في الطريق إلى مكتبة ستراتفورد العامة. كُتُب چيم متأخِّرة يومَيْن عن موعد إعادتها، وتَحتَّم عليه سرقة أربعة سنتات من الزبدية في دولاب المطبخ لدفع الغرامة. كانت عطلةً صيفيَّةً، حيث تُشَمُّ رائحة العشب المجزوز لتوِّه، وتُسمَع أصداء مباراة كروية من نافذة شَقَّة في الدور الثاني، حيث يتقدَّم فريق "يانكيز" على فريق "ريد سوكس" بستَّة مقابل لا شيء في النصف الأول من الشوط الثامن، وتيد ويليامز يضرب الكرة، وترى الظِّلالَ الآتية من مبنى شركة بوريتس وهي تتكاثف على مهلٍ عبر الشارع بينما تُظلِمُ السَّماء رُوَيدًا رويدًا.

وراء متجر تيدي وبوريتس، كان ثمَّة جسرٌ علويٌّ للسِّكَّة الحديد، وعلى الناحية الأخرى، يحوم عدد من فشلة المنطقة حول محطة غاز مُغلَقَة، خمسة أو ستة فتية يرتدون معاطِفَ جِلديَّةً وبناطيل چينز منثنية. كره چيم المرور عليهم، كانوا يصيحون منادين إياه بـ "يا ذا العيون الأربعة"، و"يا صاحب كعوب الأحذية الخرائيَّة"، و"هاي... ألَدَيكَ رُبع دولار؟"، وذات مرة طاردوه حتى منتصف حيٍّ سَكنيٍّ، لكن واين لن يأخذ الطريق الطويل، سيعدُّ هذا جُبنًا.

في الحلم، لاح الجسر أقربَ فأقربَ، حيث تبدأ في الشعور بنزاع مُقلِق في حلقِكَ مثل طائر أسود كبير. أنت ترى كل شيء: لافتة بوريتس الفلورية- تبدأ لتَوِّها في التذبذب بين إضاءةٍ وانطفاء، والتقشُّرات على

الجسر الأخضر من الصدأ، وبهارِجَ الزُّجاج المنكسر في رماد قاعدة السِّكَّة الحديد، وإطار دراجة مكسورًا في القناة.

تحاول إخبار واين أنَّكَ مَرَرتَ بهذا من قبل مائة مرَّة. هذه المرَّة لا يحوم فَشَلةُ المنطقة حول محطَّة الغاز، وإنما يختبئون في الظلال تحت دعامة الجسر، لكنه لن يظهر. أنت عاجِزٌ.

بعدها أنت بالأسفل، وتتحرَّر بعض الظلال من الجدران، ويُدفَع واين على يَدِ فَتًى طويلٍ ذي قَصَّة شَعرٍ مُتدرِّجة شقراء وأنفٍ مكسورٍ قُبالَةَ قوالب الرَّماد قائلًا: "أَعطِنا بعضَ المال".

"دَعني وشأني".

تحاول الهروب، ولكن يشدُّكَ فتى بدينٌ ذو شعر أسود دُهنيٍّ ويُلقي بك قبالةَ الجدار جوار شقيقك، ويرفُّ جَفنُ عينه اليسرى لأعلى وأسفل بعصبيَّةٍ ويقول: "هيَّا يا ولد، كم معكَ من المال؟".

"أ... أربعة سنتات".

"يا لكَ من كذَّاب لعين".

يحاول واين الإفلات، ويساعد ولد ذو شَعر غريبٍ بُرتقاليِّ اللَّون الوَلَدَ الأشقرَ في الإمساك به، والفتى ذو الجفن المهتاج يُناوِلُكَ لَكمَةً في الفم. تشعر بثِقَلٍ مفاجئ في فَخِذِكَ، وتظهر بقعةٌ داكِنةٌ على بنطالك الجينز.

"انظُرْ يا ڤيني، لقد بَلَّل نَفسَه".

اهتاج واين في نزاعه، وأوشك أو لم يوشك على التحرُّر، وألقى به إلى مكانه فتًى آخر يرتدي بنطال شينو أسود وتي- شيرت أبيض. كانت توجد وَحمَة فراولة صغيرة على ذقنه. بدأ الحَلقُ الصَّخريُّ للجسر في الارتعاش، والتقطت العوارضُ المعدنية ذبذباتٍ رتيبةً. القطار قادم.

يُوقِع فتًى ما الكُتُبَ من بين يديك، ويركلها الفتى ذو الوحمة على الذَّقن إلى القناة المائية، وأفلَتَت فجأةً قَدَمُ واين اليمنى، وضربت الفتى ذا الوجه الغضوب بين منفرج ساقيه. صرخ.

"ڤيني، إنه يهرب".

صرخ الفتى ذو الوجه الغضوب بسبب خصيتَيْه، لكنَّ عواءه ضاع مع الدَّويِّ المُزَلزِل المتصاعد للقطار المُقترب، ثم طغى عليهم، وملأ الدنيا بضجيجه.

تومض الأضواء على المطاوي. يمسك الفتى ذو قصَّة الشَّعر المُتدرِّجة الشقراء بواحدة، والوحمة بالأخرى. لا تقدر على سماع واين، لكن كلماته المتشكِّلة على هيئة شفاه كانت:

"اجري يا چيمي، اجري".

تتعثَّر على رُكبَتَيْك، وقد رحَلَت الأيادي القابضة عليك، وتنزلق بين زوجٍ من السيقان مثل ضفدعة. تصفعك كفٌّ على ظهرك، تحاول أن تجرَّك، فتعود صفرًا. ثم تركض عائدًا من حيث أتيت، مع كل البطء اللزج المُريع للأحلام. تنظر للوراء من فوق كتفك وترى. استيقظ في الظلام، وسالي نائمة بجواره في سلام. كتم الصرخة، وحين اختنقت، تراجع إلى الوراء.

حين تطلَّع إلى الوراء، إلى الوراء نحو الظُّلمة المنفغرة للجسر، رأى الفتى الأشقر والفتى ذا الوحمة يُوَجِّهان نصالهم نحو شقيقه: نصل الأشقر أسفل عظم الصدر، ونصل الوحمة مُوَجَّه مباشرة نحو مَغْبِن شقيقه.

رقد في الظلام، متنفِّسًا بصعوبة، ومنتظرًا رحيل الشبح صاحب السنوات التِّسع، ومنتظرًا نومًا خالِصًا يُبطل وجود كلِّ هذا.

وبعد وقت لاحق غير معلوم، حدث هذا.

اندمجت عطلة الكريسماس مع إجازة نصف السنة في إدارة المدينة التعليمية، وامتدَّت الإجازة شهرًا تقريبًا. حضر الحُلم خلالها مرَّتَيْن، ولم يحضر ثانيةً. توجَّه هو وسالي لزيارة شقيقتها في فيرمونت، وتزلَّجا كثيرًا، كانا سعداء.

بدت مشكلة چيم مع فصل "الحياة مع الأدب" غيرَ مُهِمَّة وتافهة بعض الشيء في الهواء المفتوح الشفَّاف. عاد إلى المدرسة مع اسمرارٍ شِتائيٍّ للبَشرة، شاعرًا بالانتعاش ورباطة الجأش.

استوقفه سيمونز في الطريق إلى حصَّته الثانية وناوله ملفًّا، "طالب جديد، الحصَّة السابعة، الاسم روبرت لاوسون، مُحوَّل".

"ويحك، لديَّ 27 طالبًا الآن في الداخل يا سيم، أنا مُثقل".

"ما زال لديكَ 27، فقد قُتل بيل ستيرنز يوم الثلاثاء بعد الكريسماس، حادث سيارة، اصطدام وهروب بالسيارة".

"بيلي؟".

تكوَّنَت الصورة في ذهنه بالأبيض والأسود، مثل صورة عتيقة. ويليام ستيرنز: رابطة كاي كلوب (1)، كرة القدم (1، 2)، بن آند لانس (2)، كان من الجيِّدين القلائل في فصل "الحياة مع الأدب". هادئ، ودائم الحصول على تقديرات "امتياز" و"جيِّد جدًّا" في الامتحانات، لم يكن مبادِرًا على الدوام، لكنه استدعى في العادة الإجاباتِ الصَّحيحةَ (معجونة بحسٍّ ساخر مُحبَّب) عند سؤاله. مات؟ في الخامسة عشرة من عمره. ترك فَناءُ ذاته فجأة أثرًا في عظامه مثل تيَّار هواء بارد تحت عُقب باب.

"يا للمسيح! هذا رهيب، هل يعرفون ماذا حدث؟".

"رجال الشرطة يُحقِّقون في هذا، كان في وسط المدينة يبدِّل هدية كريسماس. بدأ المسير عبر شارع رامبارت، فصدمته سيَّارة فورد سيدان

قديمة. لم يلتقط أحدٌ رقمَ لوحة السيارة، بينما كُتِبَت كلمَتَيْ "عيني الثعبان" على الباب الجانبي، بطريقة قد يفعلها طفل".

قال چيم ثانية: "يا للمسيح!".

قال سيمونز: "ها هو الجرس".

أسرَعَ الخُطى، وتوقَّف ليُفرِّق جمعًا من الفتية حول نافورة شُرب الماء. توجَّه چيم نحو فصله، شاعرًا بالفراغ.

خلال حصَّته الحُرَّة، قلَّب في ملف روبرت لاوسون. أول صفحة كانت ورقة خضراء من مدرسة ميلفورد الثانوية التي لم يسمع عنها چيم قطُّ. الصفحة الثانية وثيقة تعريفية طُلَّابيَّة. مُعدَّل الذكاء 78. مع بعض المهارات اليدوية، ليست كثيرة. أجوبة غير اجتماعية على اختبار بارنيت- هدسون لتحديد الشخصية. درجات ضعيفة في القدرات. فكَّر چيم بمرارة أنه كان ابنًا لـ "الحياة مع الأدب" على طول الخَطِّ.

كانت الصفحة التالية سِجِلًّا انضباطيًّا، الورقة الصفراء. كانت ورقة ميلفورد بيضاء بإطار أسود، حَسَنَة التعبئة بشكل مُحبط. كان لاوسون يقاسي مائة صنف من المشاكل.

قلب إلى الصفحة التالية، لمح تحتها صورةً مدرسيَّة لروبرت لاوسون، ثم نظر ثانية. زحف الرُّعبُ فجأةً إلى تجويف بطنه وتلوَّى هناك، دافئًا ومهسهسًا.

كان لاوسون يحدِّق بعدوانية إلى الكاميرا، كما لو كان يَتَموضَع من أجل صورة جنائية للشرطة وليس أمام مصوِّر مدرسي. كانت توجد وحمة فراولة صغيرة على ذقنه.

بحلول الحصة السابعة، كان قد استحضر كلَّ المُبرِّرات العقلانية في أفق النظر، حَدَّث نفسه بحتميَّة وجود الآف الفِتيَة أصحاب الوحمات الحمراء على ذقونهم. قال لنفسه إن ابن الضواحي الذي طعن

شـقيقه في ذلـك اليـوم منـذ 16 عامًـا فاتـت وماتـت سـيكون سِـنُّه الآن اثنـين وعشريـن عامًـا عـلى الأقـل.

ولكـن بقيـت الفكـرة في أثنـاء صعـوده إلى الطابـق الثالـث، مـع خـوفٍ آخـرَ مُصاحِـب: هـذا مـا شـعرت بـه حـين انهـرت عصبيًّـا. تـذوَّقَ في فمـه الطعـم الفـولاذيَّ اللامـع للذُّعـر.

كانـت عُصبَـة الفتيـة المعتـادة تعبـث حـول بـاب الغرفـة 33، ودخـل بعضهـم حـين رأوا چيـم يخـرج، تـسكَّع عـددٌ منهـم، متحدِّثـين بأصـوات خفيضـة مـع ابتسـامات. رأى الولـد الجديـد واقفًـا خلـف شـيب أوزواي. كان روبـرت لاوسـون يرتـدي چينـز أزرق وحـذاءً طويـلًا تراكتـور أصفـر؛ موضـة هـذا العـام.

"شيب، تعال".

ابتسم ببلاهة في وجه چيم، "أهذا أمر؟".

مكتبة
t.me/t_pdf

"بالتأكيد".

"هل أسقطتَني في هذا الامتحان؟".

"طبعًا".

"نعم، هذا.."، وجاء بقيَّة الكلام غَمغَمَةً غير مسموعة.

اسـتدار چيـم إلى روبـرت لاوسـون، وقـال: "أنـت مُستَجِدٌّ، أردت فقـط إخبـارك كيـف نديـر الأمـور هنـا".

"بالتأكيـد يـا سـيد نورمـان"، يقسـم حاجبـه الأيمـن جُـرح صغـير، جُـرح مَيَّـزه چيـم، لا يمكـن أن يُصيبَـه اللبَّـس. كان محـضَ جنـون، خَبـلًا تامًّـا، لكنـه أيضًـا حقيقـة. منـذ سـتة عـشر عامًـا، دفـع هـذا الفتـى مُديَـةً في جسـد شـقيقه.

رأى نفسه وهو فاقد الإحساس، كما لو كان من مسافة بعيدة، حيث شرع في تلخيص قواعد وتوجيهات الفصل. شَبَكَ روبرت لاوسون إبهامَيْه على حزامه العسكري، واستمع، وابتسم، وبدأ الإيماء، كما لو كانا أصدقاء قدامى.

"چيم؟".

"هاااا؟".

"أيوجد خَطبٌ ما؟".

"لا".

"أيُضايِقُكَ أحدٌ من فتية "الحياة مع الأدب؟"".

لا جواب.

"چيم؟".

"لا".

"لِمَ لا تذهب إلى الفراش مُبكِّرًا الليلة؟". لكنه لم يفعل.

كان الحلم سيِّئًا جدًّا تلك الليلة، حين طعن الفتى ذو وحمة الفراولة شقيقَه بمُديَته، نادى على چيم: "أنت التالي يا ولد، وبكل ما في حوزتي مباشرة".

استيقظ صارخًا.

كان يُدرِّس رواية "أمير الذباب" هذا الأسبوع، ويتحدَّث عن الرمزية حين رفع لاوسون يده.

قال في هدوء: "روبرت؟".

"لماذا تستمرُّ في التحديق إليَّ؟".

طرفت عين چيم وشعر بجفاف فمه.

"أترى شيئًا أخضر؟ أم أن سَحّاب بنطالي مفتوح؟".

انبعثت ضحكة مكتومة مُهتاجة من الفصل.

ردَّ چيم بهدوء: "لم أكُن أُحدِّق إليك يا سيد لاوسون، أيمكنك أن تخبرنا لماذا اختلف رالف وچاك على...".

"كُنتَ تُحدِّق إليَّ".

"أتريد أن نتحدث في الأمر مع السيد ڤينتون؟". بدا على لاوسون أنه يفكِّر مليًّا.

"لا".

"جيد، إذن أخبِرني لماذا اختلف رالف وچاك...".

"لم أقرأه، أظنُّ أنه كتاب غبي".

ابتسم چيم في ضيق.

"أهذا رأيُكَ، الآن؟ ينبغي عليك التذكُّر أنه حينما تحكم على الكتاب، فالكتاب أيضًا يحكم عليك. والآن أيمكن لأحد آخر أن يخبرني عن سبب اختلافهما على وجود الوحش؟".

رفَعَت كاثي سلاڤن يدها، وتَمعَّن فيها لاوسون بسخرية، وقال شيئًا ما لشيب أوزواي. بدت الكلمات التي غادرت شفتيه على شاكلة "ثديين جميلين". أومأ شيب.

"كاثي؟".

"أليس هذا لأن چاك أراد اصطياد الوحش؟".

"رائع"، استدار وبدأ الكتابة على السبورة. ولحظة استدار بظهره، انسحقت ثمرة جريب فروت قُبالةَ السبُّورة بجوار رأسه.

اهتزَّ للخلف واستدار. ضحك بعض طلاب الفصل، لكن أوزواي ولاوسون فقط نظَرَا إلى چيم ببراءة.

انحنى چيم والتقط ثمرة الجريب فروت، قال وهو ينظر إلى جدار الحجرة: "شخص ما ينبغي عليه أن يحشر هذه في حنجرته اللعينة".

شهقَت كاثي سلاڤن.

ألقى ثمرة الجريب فروت في سَلَّة المهملات، وعاد إلى السبورة.

فتح جريدة الصباح، محتسيًا قهوته، ورأى العنوان الرئيسي أثناء مطالعته تقريبًا. قال: "يا إلهي!"، كاسِرًا بذلك التدفُّقَ اليَسيرَ لثرثرة زوجَتِه الصباحية. شعر فجأة بامتلاء بطنه بالشظايا، "سقوط فتاة مراهقة نحو حتفها": كاثرين سلاڤن، طالبة السنة الثالثة في مدرسة هارولد داڤيس الثانوية ذات السبعة عشر عامًا، إمَّا أنها سقطت أو دُفِع بها من فوق سطح مسكنها في وسط المدينة في وقت مبكر من مساء الأمس. الفتاة التي أبقت على عُشِّ حَمامٍ على السطح وصعدت إلى الأعلى ومعها جوالُ الطَّعام، حسبما تقول أمُّها.

"ذكَرَت الشرطة أن سيدة غير معروفة الهوية في حيٍّ سكَنيٍّ قَيدِ التطوير رأت ثلاثة صبية يركضون على السطح في الساعة السادسة إلا الربع مساءً، بعد أن كانت جُثَّة الفتاة... (يُتبع في صفحة 3)".

"چيم، أكانت طالِبةً من طُلَّابِك؟". لكن لم يَسَعه سوى النظر إليها صامتًا.

بعد أسبوعين، قابله سيمونز في القاعة بعد جرس وقت الغداء مع مُلفٍّ في يده، وشعر چيم بانقباض رهيب في بطنه.

قال لسيمونز برتابة: "طالِبٌ جديد، فصل "الحياة مع الأدب"".

ارتفع حاجِبَا سيم: "كيف عَرَفتَ؟".

هزَّ چيم كتفيه، ومدَّ يده لأجل الملف.

قال سيمونز: "عليَّ أن أركض؛ رؤساء الأقسام مجتمعون بخصوص تقييم المقرَّرات الدراسية، تبدو مُرهَقًا، هل أنتَ بخير؟".

هذا صحيح، مُرهَقٌ قليلًا، مثل بيلي ستيرنز.

قال: "طبعًا".

قال سيمونز: "كم هذا عظيم"، وربت على ظهره.

حين ذهب، فتح چيم الملف على الصورة، وجَفَلَ مسبقًا، مثل رَجُلٍ على وشك أن يُضرب.

لكنه لم يألف وجهه في الحال، مجرَّد وجهِ فتًى، ربما رآه من قبل، وربما لا. الفتى داڤيد جارسيا كان ولدًا ضخمَ الجُثَّة، داكِنَ الشَّعر، وله شفاهٌ داكنة شبه زنجية، وعينان ناعستان. تقول الورقة الصفراء إنه هو الآخر من مدرسة ميلفورد الثانوية، وقضى عامين في إصلاحية جرانفيل. سرقة سيارة.

أغلق چيم الملفَّ بأيدٍ مُرتَعِشة، بخِفَّة.

"سالي؟".

نَظَرت إليه من عند طاولة الكي. كان يُحدِّق إلى مباراة كرة سلة على التلفاز دون مشاهدته فعليًّا.

قال: "لا شيء، انسَيْ ما كنتُ سأقوله".

"حتمًا كانت كذبةً".

ابتسم بطريقة آليَّةٍ ونظر مُجدَّدًا إلى التلفاز، كان سيفصح بكل شيء كان على طرف لسانه، لكن كيف يمكنه ذلك؟ كان الأمر أسوأ من الجنون. من أين تبدأ؟ الحلم؟ الانهيار العصبي؟ ظهور روبرت لاوسون؟

لا، ابدأ مع واين، شقيقِك.

لكنـه لم يخـبر أحـدًا بهـذا، ولا حتـى في جلسـات التحليـل. تحوَّلَـت أفـكاره نحـو داڤيـد جارسـيا، والرعـب الحُلمـي الـذي غمـره حـين نظـر أحدهـما للآخـر في القاعـة. بالطبـع بـدا في الصـورة مألوفًـا بطريقـة غامضة. الصـور لا تتحـرَّك ولا تتنفـض.

كان جارسـيا واقفًـا مـع لاوسـون وشـيب أوزواي، وحـين تطلَّـع ورأى چيـم نورمـان، ابتسـم وبـدأ جَفنُـه يَـرِفُّ لأعـلى ولأسـفل، وتحدَّثَـت الأصـوات في رأس چيـم بوضـوحٍ خـارق للمألـوف:

تعال يا ولد، كم معك من المال؟ أ... أربعة سِنتات.

أيُّها الكاذب اللعين، انظُر يا ڤيني، لقد بَلَّل نفسه.

"چيم، هل كنتَ تقول شيئًا؟".

"لا". لكنه لم يتأكَّد سواء أقال شيئًا أم لم يَقُل، صار خائفًا جدًّا.

ذات يـوم بعـد المدرسـة في بواكـير فبرايـر، قُـرِعَ بـاب غرفـة المُعلِّمـين، وحـين فتحـه چـاك، كان شـيب أوزواي واقفًـا عنـده، بـدا مُرتَعِـدًا. كان چيـم بمفـرده، كانـت السـاعة الرابعـة وعـشر دقائـق، وعـاد آخـر المدرِّسـين إلى منزلـه منـذ سـاعة مضـت. كان يصحِّـح حزمـة مـن مواضيـع الأدب الأمريـكي.

قال چيم بهدوء: "شيب".

تحـرَّك شـيب مُتثاقِـلًا: "أيمكننـي التحـدُّث معـك دقيقـة يـا سـيد نورمـان؟".

"بالتأكيد، ولكن إن كان الأمر بخصوص الامتحان، فأنت تُضيع...".

"ليس بخصوص هذا، آآ، أيمكنني التدخين هنا؟".

"تَفضَّل".

أشعل سيجارة بِيَدٍ مرتعشة بعض الشيء، لم يتفوَّه بكلمة ربما لأكثر من دقيقة، بدا أنه غير قادر، شفتاه ترتعشان، ويداه متلاقيتان، وعيناه ضيقتان، كأنَّ شخصًا في داخله يجاهد لإيجاد تعبير.

فجأة اندفع في الحديث: "إذا فعلوها، أريدك أن تعرف أني لم أكن متورِّطًا! لست مثل أولئك الفتية، إنهم مسوخ".

"أي فتية يا شيب؟".

"لاوسون، وذلك المسخ جارسيا".

"هل يُخطِّطان للنَّيل منِّي؟". سيطر عليه الرعب الحُلميُّ الرهيب، وعرف الإجابة.

قال شيب: "أحببتهما في البداية، خرجنا معًا وشربنا بعض البيرة، بدأت أشكو منك ومن الامتحان، وكيف كنتُ سأنال منك، لكن الأمر لم يتعدَّ حاجز الكلام، أقسم لك".

"ماذا حدث؟".

"اشتركا معي في الحال، سألنا في أي وقت تغادر المدرسة، وأي طراز سيارة تقوده، كل هذه الأشياء، فقلتُ ماذا لديكما ضِدَّه، وقال جارسيا إنهما يعرفانك منذ وقت طويل، هاي، هل أنت بخير؟".

قال بغلظة: "السيجارة، لم أعتَد قَطُّ على الدُّخان".

داس شيب عليها.

"سألتهما متى عَرَفاكَ، وقال بوب لاوسون إني كنتُ وَقتَئذٍ ما زِلتُ أُبلِّل حفَّاضاتي، لكنهما في السابعة عشرة من العمر، مثلي".

"ماذا إذن؟".

"طيِّب، لاوسون مال على الطاولة وقال لي: لن تستطيع النَّيل منه بشدَّة إن كنت حتى لا تعرف موعد مغادرته المدرسة اللعينة، ماذا

كنتَ ستفعل؟ لذا قلت إني كنتُ سأثقب عجلات سيَّارَتك وأتركك مع أربع عجلات فارغة". نظر إلى چيم بعينين متضرِّعَتَيْن "ما كنت سأقترف هذا، قلت هذا لأني...".

"كنتَ خائفًا؟". هكذا سأل چيم بسرعة.

"نعم، وما زِلتُ خائفًا".

"ماذا كان ظنُّهم بخصوص فكرتك؟".

ارتعد شيب. "قال بوب لارسون: أهذا ما كنتَ ستفعله يا وجه القضيب؟ وقلت في محاولةٍ لأكون صارمًا: ماذا كنت ستفعل، تقتله؟، وأخرج جارسيا -الذي بدأت عيناه تعلوان وتهبطان- شيئًا ما من جيبه، وفتحه، وكانت مطواةً. كان هذا وقتما غادرت".

"متى كان هذا يا شيب؟".

"يوم أمس، أنا خائف من القعود مع أولئك الفتية الآن يا سيد نورمان".

قال چيم: "حسنًا".

"حسنًا". أخفض رأسه نحو الأوراق التي كان يُصحِّحها دون النظر فيها.

"ماذا ستفعل؟".

"لا أعلم، حقيقةً لا أعلم".

في صباح يوم الاثنين، كان ما يزال لا يعلم، كانت أوَّلَ خاطِرَةٍ لديه أن يُخبِرِ سالي بكل شيء، بدايةً من مَقتَل شقيقه منذ ستة عشر عامًا، لكن هذا مستحيل، ستتعاطف، ولكن بخوفٍ وعدم تصديق.

سيمونز؟ مستحيلٌ أيضًا، قد يظنُّ سيمونز أنك مجنون، وربما هكذا يَظنُّ بالفعل. قال رجلٌ في جلسة تعارُفٍ جماعيَّة حضرها إن الانهيار

العصبي يُشبه كسر مزهريَّةٍ، ثم لصق كسراتِها معًا من جديد، حيث لن تَثِقَ أبدًا في نفسِكَ بخصوص التعامُل مع تلك المزهرية مرَّةً أخرى بأي يقين، لن تستطيع وضع زهرة فيها لأن الزهور تحتاج إلى الماء، والماء قد يذيب الغراء.

إذن، هل أنا مجنون؟

إن كان هو كذلك، فشيب أوزاوي هو الآخر هكذا، خطَرَت له هذه الخاطِرةُ وهو يركب سيارته، واجتاحته صاعِقَةٌ من الإثارة.

بالطَّبع! لاوسون وجارسيا هدَّداه في حضور شيب أوزواي. قد لا يُعترف بهذا أمام الجهات القضائية، لكنه سيتسبَّب في فصلهما إذا جعل شيب يعيد سَردَ قِصَّته في مكتب ڤينتون. وكان على يقين تقريبًا أنه يقدر على دفع شيب لفِعلِ ذلك. لدى شيب أسبابه الخاصَّة في رغبته في إبعادهما.

كان يقود السيارة إلى المرآب حين فكَّر فيما حدث لبيلي ستيرنز وكاتي سلاڤن.

خلال حِصَّته الحُرَّة، اتَّجه إلى المكتب، ومال على مكتب سكرتيرة تسجيل الحضور. كانت تُعِدُّ قائمة الغائبين.

سأل بشكلٍ عارِضٍ: "هل شيب أوزواي هنا اليوم؟".

نظَرَت إليه متشكِّكةً: "شيب؟".

صحَّح چيم: "تشارلز أوزواي، واسم شُهرَته شيب".

قلَّبَت في كومَةٍ من القصاصات، ولمحت واحِدةً وأخرَجَتها.

"إنه غائِبٌ يا سيد نورمان".

"أيُمكِنُك أن تعطيني رقم هاتفه؟".

حشَرَت قلمها الرصاص في شعرها، وقالت: "طبعًا"، فتَّشت عنه داخل الملف وناوَلَته إيَّاه. اتَّصل چيم بالرقم من هاتف مكتبي.

رنَّ الجرس بضعةَ مَرَّاتٍ، كان على وشك إغلاق الخط حين ردَّ عليه صوتٌ فَظٌّ يَغْشاه النوم: "ألو؟".

"سيِّد أوزواي؟".

"باري أوزواي مات منذ ست سنوات، أنا جاري دينكينجر".

"هل أنت زوج والدة شيب أوزواي؟".

"ماذا فعل؟".

"عفوًا؟".

"لقد هرب، أريد أن أعرف ماذا فعل".

"لا شيء حسبما أعرف حتى الآن، أرَدتُ فقط التَّحدُّث إليه، ألديكَ أيُّ فكرةٍ أين قد يكون؟".

"لا؛ فأنا أعمل ليلًا، لا أعرف أحدًا من أصدقائه".

"ألديكَ فِكرة عن...".

"لا؛ فقد أخذ حقيبته القديمة وخمسين دولارًا ادَّخَرها من سرقة قطع السيارات أو بيع المخدِّرات- أو أيًّا كان ما يفعله الفتية من أجل المال. ذهب على حَدِّ علمي إلى سان فرانسيسكو ليصير هيبيًّا".

"لو عَرَفتَ عنه شيئًا، أيُمكِنُكَ الاتِّصال بي في المدرسة؟ أنا چيم نورمان، من جناح اللغة الإنجليزية".

"سأفعل بالتأكيد".

وضع چيم السَّمَّاعة. تطلَّعَت سكرتيرة مكتب التسجيل وأظهَرَت ابتسامةً وجيزةً لا معنى لها. لم يبادلها چيم الابتسام.

بعـد يومـين، ظهـرت كلِمَتَـا "غـادَرَ المدرسـة" بعـد اسـم شـيب أوزواي في ورقـة الحضـور الصباحـي. بـدأ چيـم ينتظـر ظهـور سـيمونز مـع ملـفٍّ جديـد، وقـد فعلهـا بعـد أسـبوع.

نظـر مُتَملمِـلًا إلى الصـورة. لا حـيرة في أمـر هـذا الطالـب. اسـتُبدِلَ الشَّـعر الطويـل مـع قَصَّـة الشَّـعر المتَدرِّجـة، لكنـه مـا يـزال أشـقرَ، والوجـه هـو ذاتـه، ڤِنسِـنت كـوري، أو "ڤينـي" بالنسـبة لأصدقائـه ورفاقـه. حـدَّق إلى چيـم مـن الصـورة. ابتسـامة وَقِحَـة عـلى شـفتيه.

حين قـارب عـلى حصَّتـه السـابعة، خفـق قلبـه خفقًـا مُميتًـا في صـدره. كان لاوسـون وجارسـيا وڤينـي كـوري واقفـين بمحـاذاة لوحـة الإعلانـات خـارج البـاب، واعتدلـوا حـين جـاء نحوهـم.

ابتسـم ڤينـي ابتسـامته الوقحـة، بينـما كانـت عينـاه بارِدَتـيْن وميِّتَتَـيْن مثـل أطـواف الجليـد.

"حتمًا أنت السيد نورمان، أهلًا يا نورم".

ضحك لاوسون وجارسيا ضحكةً خافِتَة.

قـال چيـم مُتجاهِـلًا يـد ڤينـي الممـدودة إليـه: "أنـا السَّـيِّد نورمـان، هـل سـتتذكَّر هـذا؟".

"بالتأكيد سأتذكَّره، كيف حال أخيك؟".

تجمَّـدَ چيـم، وشـعر بارتخـاء مَثانَتِـه، وكـما لـو كان مـن مبعـدة، مـن أسـفل ممـرٍّ طويـل في موضـعٍ مـا داخـل جُمجُمَتِـه، سـمع صوتًـا شـبحيًا: انظـر، لقـد بَلَّـل نفسـه.

سأل بغِلظةٍ: "ماذا تعرف عن أخي؟".

قـال ڤينـي: "لا شيء، ليـس الكثـير"، ابتسـموا لـه ابتسـاماتهم الخاويـة الخَطِـرَة.

دقَّ الجرس، ومشوا على مَهلٍ إلى الداخل.

في كابينـة الهاتـف داخـل الدّرَجسـتور، السـاعة العـاشرة مـن هـذه الليلـة.

"يـا مُشَـغِّل الهاتـف، أريـد الاتصـال بقسـم الشرطـة في سـتراتفورد بكونيتيكـت. لا، لا أعـرف الرقـم".

تكتكات على الخَطِّ. مُداوَلات.

كان الشرطـي هـو السـيد نيـل، أبيـض الشَّـعر في تلـك الأيـام، وربمـا في منتصـف الخمسـينيات مـن عمـره. يصعـب التمييـز حـين تكـون طفـلًا فحسـب. والدهـما ميِّـت، وعـرف السـيد نيـل هـذا بطريقـة مـا.

نادوني السيد نيل يا أولاد.

التقـي چيـم وشـقيقه يوميًـا في وقـت الغـداء، وذهبـا إلى حافلـة الطعام لتنـاوُلِ محتويـات أكيـاس غذائهـما. أعطـت الأمُّ لِـكُلٍّ منهـما خمسـةَ سِـنتات لـشراء الحليـب، وكان هـذا قبـل بـدء تطبيـق برامـج الحليـب المـدرسي، وفي بعـض الأحيـان يدخـل السـيد نيـل، حيـث يُصـدِر حزامُـه الجلـديُّ صريـرًا مـن حِمـل كَرِشـه ومسدَّسـه طـراز 38، ويبتـاع لـكُلٍّ منهـما فطـيرة آلا مـود[1].

أين كُنتَ حين طعنوا شقيقي يا سيد نيل؟

أجرى الاتصال، ورنَّ جَرسُ الهاتف مرَّةً واحدة.

"شرطة ستراتفورد".

"مرحبًـا، اسـمي چيمـس نورمـان أيُّهـا الضابـط، وأتَّصِـل مـن مـكانٍ بعيـد"، ذكـر اسـم المدينـة، "أريـد أن أعـرف إن أمكَنـكَ توصيـلي بِرَجُـلٍ كان عـلى قـوة الشرطـة في العـام 1957 تقريبًـا".

(1) حلوى أمريكية تقدم مع الآيس كريم، والترجمة الحرفية لاسمها (فطيرة على الموضة) (المترجم)

"ابقَ على الخَطِّ لحظة يا سيد نورمان".

وقفة، ثم صوت جديد.

"أنا الرقيب مورتون ليفنجستون يا سيد نورمان، مَن الذي تحاول الوصول إليه؟".

قال جيم: "طيِّب، في الصِّغَر كُنَّا نناديه فحسب السيد نيل، هل هذا...؟".

"سحقًا، نعم! دون نيل مُحال إلى التقاعُد الآن، إنه في الثالثة والسبعين أو الرابعة والسبعين".

"هل ما يزال يعيش في ستراتفورد؟".

"نعم، في بارنوم آڤينيو، أتريد العنوان؟".

"ورقم الهاتف إن كان لديكَ".

"حسنًا، هل تعرف دون؟".

"اعتاد أن يبتاع لي ولأخي فطيرة تفاح آلا مود في حافلة طعام ستراتفورد".

"يا للمسيح! لقد وَلَّت هذه منذ عشر سنوات. انتَظِرْ دقيقة".

عاد على الخَطِّ وأملى عنوانًا ورقم هاتف. دوَّنهما جيم، وشكر ليفنجستون، وأغلق الخطَّ.

اتَّصل مرَّةً أخرى، وأعطى الرقم وانتظر. حين بدأ جرس الهاتف يرنُّ، ملأه توتُّرٌ حارٌّ مُفاجئ وانحنى إلى الإمام، مبتعدًا بتلقائيَّةٍ عن ماكينة المشروبات الغازية في الدّرَجستور، رغم عدم وجود أحد هناك ما عدا فتاة مراهقة ممتلئة الجسم تقرأ مجلة.

ردَّ على الهاتف صوتٌ أنيق، ذكوريٌّ، لا يبدو عجوزًا على الإطلاق، "ألو؟"، أطلقت هذه الكلمة الوحيدة سلسلةَ تفاعُلاتٍ مُغبرَّة من

الذكريـات والمشـاعر، مُذهلـة، مثـل اسـتجابةٍ انعكاسـيَّةٍ تنطلـق عـن طريـق سـماع تسـجيل قديـم عـلى المذيـاع.

"سيد نيل؟ دونالد نيل؟".

"نعم".

"اسمي چيمس نورمان يا سيد نيل، تتذكَّرني، أليس كذلك؟".

"نعـم". هكـذا ردَّ الصـوت في الحـال "فطـيرة آلا مـود، قُتِـلَ شـقيقُكَ بمُديَـةٍ، يـا للعـار! كان ولـدًا محبوبًـا".

انهـار چيـم قُبالـةَ إحـدى الجـدران الزجاجيـة للكابينـة، تركـه الرحيـلُ المفاجـئ للتوتُّـر ضعيفًـا مثـل دُميَـةٍ مَحشـوَّة. وجـد نفسـه عـلى حافَّـة البـوح بـكل شيء واسـتمات في كبـح هـذه الرغبـة.

"سيد نيل، لم يُقبَض قَطُّ على أولئك الفِتيَة".

قـال نيـل: "لا، كان لدينـا مُشـتَبَهٌ بهـم، وحسـبما أتذكَّـر، أوقفناهـم في طابـور عـرض في قسـم شرطـة بريدجبـورت".

"هل كان أولئك المشبوهون معروفين لي بالاسم؟".

"لا، فالإجراء المُتَّبـع في العـرض الشُّرَطـيِ هـو منـاداة المشـاركين بالأرقام، مـا سـبب اهتمامـك بهـذا الآن يـا سـيد نورمـان؟".

قـال چيـم: "دعنـي أُلـقِ عـلى مسـامِعِكَ بضعـة أسـماء، أريـد معرفـة إن كانـوا يُذكِّرونـكَ بـشيء ذي صِلـةٍ بالقضيـة".

"يا بُنيَّ، أنا لن...".

"ربَّمـا تتذكَّـر". هكـذا قـال چيـم، شـاعِرًا بـشيء مـن الاسـتماتة. "روبـرت لاوسـون، داڤيـد جارسـيا، ڤنسـنت كـوري، هـل أحـدٌ مـن هـؤلاء...".

"كـوري". هكـذا قـال السـيد نيـل بنـبرةٍ قاطِعَـة. "أتذكَّـرُه، ڤينـي الأفعى، نعـم، كان في حَوزَتِنـا في هـذه القضيـة. قَدَّمَـت أمُّـه حجَّـةً تفيـد غيابـه عـن

موقع الجريمة. لم أتلقَّ أي شيء عن روبرت لاوسون. قد يكون اسمًا لأي شخص، بينما جارسيا هذا يُذكِّرني بشيء ما، ولا أعلم السبب. سُحقًا، أنا رجُلٌ مُسِنٌّ". بدا صوته شاعِرًا بالاشمئزاز.

"يا سيد نيل، أتوجد طريقةٌ للتأكُّد من أولئك الفتية؟".

"في الحقيقة نعم، لم يعودوا صِبيةً بعد الآن".

أوه، حقًّا؟

"اسمع يا چيمي، هل ظَهَرَ واحِدٌ من هؤلاء الفتية وضايَقَكَ؟".

"لا أعرف، حدَثَت بعض الوقائع الغريبة، وقائِعُ تَتعلَّق بطَعْن شقيقي".

"أيُّ وقائع؟".

"يا سيد نيل، لا أستطيع إخبارَك، ستَظنُّ أني كنتُ مجنونًا".

جاء رَدُّه سريعًا وحاسِمًا ومُهتمًّا: "هل أنتَ كذلك؟".

تجمَّد چيم. قال: "لا".

"حسنًا، يمكنني فَحصُ الأسماء من خلال سجلَّات ستراتفورد المدنيَّة، كيف أتواصل معك؟".

أعطاه چيم رقم هاتفه، "ستجدني على الأرجح مساء الثلاثاء"، كان يتواجد كلَّ لَيلةٍ تقريبًا، بينما تذهب زوجته في ليالي الثلاثاء إلى درس الفخَّار.

"ماذا تفعل هذه الأيام يا سيد چيم؟".

"أعمل مُدرِّسًا في المدرسة".

"جيِّد، سيستغرق الأمرُ أيامًا قليلة؛ فأنتَ تَعلمُ، أنا الآن مُحالٌ إلى التَّقاعُد".

"يبدو صوتُك كسابِقِ عَهدِه".

ضحك مُتكتِّمًا: "آه لو أَمكَنَكَ رؤيتي، أما زِلتَ تَودُّ قطعةً شهيَّةً من فطيرة آلا مود يا چيمي؟".

قال چيم: "بالتأكيد"، كانت كِذبةً؛ كان يَكرَه فطيرة آلا مود.

"مسرورٌ لِسَماع هذا، طيِّب، إذا لم يوجد أمرٌ آخر، فأنا سـ...".

"هناك أمرٌ آخر، أتوجد في ستراتفورد مدرسة ميلفورد الثانوية؟".

"لم أسمع بها".

"هذا ما كنت آ...".

"مكانٌ واحِدٌ فقط في الجوار باسم ميلفورد، وهي مقبرة ميلفورد على طريق آش هايتس، ولم يتخرَّج أحدٌ قَطٌّ منها". ضحك ضحكةً خافِتةً جافَّة، بَدَت في أذنَيْ چيم مثل قَعقَعَةٍ مُفاجِئة للعظام في حُفرَة.

سمع نفسه يقول: "شكرًا لك، إلى اللقاء".

ذهب السيد نيل، طلب منه مُشغِّل الهاتف أن يُودِعَ سِتِّين سِنتًا، ووضعها أوتوماتيكيًّا. استدار وحَملَقَ إلى وجهٍ مُروِّع مُنسَحِق مُلتَصِق قُبالَةَ الزُّجاج، تُؤَطِّره يدان متباعدتان، مع أصابع مُفَلطَحَة تسطَّحَت حتى ابيَضَّت قُبالَةَ الزُّجاج، وكذلك كانت أرنبة أنفه.

كان ڤيني، يبتسم ابتسامةً عريضةً له.

صرخ چيم.

الفصل مرَّة أخرى.

كان طُلَّابُ فصل "الحياة مع الأدب" يُنجزون تمرينًا كتابيًّا، وأغلبهم مُنكَفِئون على أوراقهم كادحين، يصبُّون أفكارهم بإحباطٍ على الصفحة كما لو كانوا ينشرون الخَشَب. كلُّهم إلَّا ثلاثة: روبرت لاوسون- الجالس

في مقعَدِ بيلي ستيم، وداڤيد جارسيا- مكان كاتي سلاڤن، وڤيني كوري- محل شيب أوزواي. جلسوا وأمامهم أوراقهم البيضاء وهم يراقبونه.

قبل الجرس بهُنَيْهَة، قال چيم بنبرة ليِّنة: "أريد التَّحدُّث معك لدقيقة بعد الحِصَّة يا سيد كوري".

"بالتأكيد يا نورم".

ضحك لاوسون وجارسيا بصخب، أمَّا بقيَّة الفصل فلا. حين دَقَّ الجَرسُ، سَلَّموا أوراقهم وانسحبوا من الباب بلياقة. بَقِيَ لاوسون وجارسيا، وشعر چيم بانقباضٍ في مَعِدَته.

كيف سيصير الأمر الآن؟

ثم أومأ لاوسون إلى ڤيني، "أراكَ لاحقًا".

"حسنًا".

غادَروا. أغلق لاوسون الباب، ومن وراء الزُّجاج المُصَنفَر، صاح داڤيد جارسيا فجأةً بصوتٍ أجشّ: "نورم يأكله!"، تطلَّع ڤيني إلى الباب، ثم إلى چاك ثانيةً، وابتسم.

قال: "كنتُ أتساءَلُ إن كُنتَ سَتُزاوِل عملَكَ أصلًا".

قال چيم: "حَقًّا؟".

"أَخَفتُكَ تلك الليلةَ في كابينة الهاتف، أليس كذلك يا والدي؟".

"لم يَعُد أحدٌ يقول "والدي" يا ڤيني، هذا ليس طريفًا، وهذا لا يخلو فحَسبُ من الطَّرافة، وإنما مات مثل بادي هولي".

قال ڤيني: "أتحدَّث بالطَّريقة التي تروق لي".

"أين الآخر؟ ذلك الفتى ذو الشَّعر الأحمر الغريب".

"افترَقنا يا رَجُل"، ولكن تحت لا مُبالاتِه المدروسَةِ، استشعَرَ چيم حَذرًا.

"إنه على قَيْدِ الحياة، أليس كذلك؟ لهذا هو ليس هنا، إنه حيٌّ يُرزَق، وفي سِنِّ الثانية والثلاثين أو الثالثة والثلاثين، نفس ما كُنتَ سَتصير عليه لو كُنتَ...".

"أعاقنا "المُبيض" على الدَّوام، إنه نَكِرَة".

جلس ڤيني وراء تَختَتِه، وفرَدَ يديه على الجراڤيتي القديم. وَمَضَت عيناه.

"يا رَجُل، أتذَكَّرُكَ عند طابور العرض هذا، بَدَوتَ على وَشكِ أن تُبلِّل سِروالَكَ القصير القديم. رأيتُكَ تنظر إليَّ وإلى دايڤي، فألقَيتُ عليكَ تعويذتي".

قال چيم: "أظُنُّكَ فَعلتَها، مَنَحتَني سِتَّة عشر عامًا من الكوابيس، ألم يكن هذا كافيًا؟ لِمَ لا؟ لماذا أنا؟".

بدا ڤيني حائرًا، ثم ابتسم ثانية، "لأنَّكَ مُشكِلة مُعلَّقة يا رَجُل، ويَجِبُ مَحْوُكَ".

سأل چيم: "أين كُنتَ؟ قبلها".

نَحَفَت شَفَتا ڤيني: "نحن لا نتحدَّث عن هذا. أتَودُّ هذا؟".

"حفروا لك حُفرةً، أليس كذلك يا ڤيني؟ على عُمق سِتِّ أقدام، في قلب مقبرة ميلفورد، سِتِّ أقدامٍ من...".

"اخرَسْ!".

كان على قدميه. وقعت التَّختَة في الممشى. قال چيم: "لن أتساهَلَ، لن أُسَهِّلَ الأمرَ عليكَ".

"سنَقتُلُكَ يا والدي، ستكتشف أمرَ هذه الحُفرَة".

"اخرُجْ من هنا".

"وربُّما زوجتك الشابَّة أيضًا".

"أيُّها السَّافِل الملعون، إذا لمستَها...". تحرَّك إلى الأمام مُتعامِيًا، شاعرًا بالاختراق ومُرتَعِدًا من ذِكر سالي.

ابتسم ڤيني وتحرَّك نحو الباب. "اهدأ فحسب، هادئ مثل الأبله"، وضحك في خفوت.

"إذا لَمستَ زوجتي، سأقتلك".

اتَّسَعَت ابتسامة ڤيني، "تَقتُلُني؟ يا رَجُل، ظَنَنتُ أنَّكَ تدري، أنا ميِّت فعلًا".

غادر، وتردَّد وَقعُ أقدامه في الدِّهليز لوقتٍ طويل.

"ماذا تقرأ يا حُبِّي؟".

أمسَكَ چيم بغلاف كتاب "تربية الشياطين" من أجلها كي تقرأ العنوان.

"يع...".

استدارت من جديدٍ إلى المرآة كي تتفحَّص شَعرَها.

سأل: "هل ستستَقِلِّين سيارة أجرة إلى المنزل؟".

"إنه على بُعد أربعة أحياء فقط، كما أن المشي مفيدٌ لقوامي".

كذب قائلًا: "شخصٌ ما اختطف إحدى فتياتي من شارع سمر، ظنَّت أن الاغتصاب كان مبتغاه".

"حقًّا؟ مَن؟".

قال مختلقًا اسمًا عشوائيًّا: "ديانا سنو، فتاة هادئة الطِّباع، رَفِّهي عن نفسك بركوب سيارة أجرة، اتَّفَقنا؟".

قالـت: "اتَّفقنـا"، توقَّفَـت بمحـاذاة كُرسـيِّه، وجَثَـت عـلى ركبتيهـا، ووضعـت يديهـا عـلى خدَّيـه، وتطلَّعَـت إلى عينيـه.

"ما خَطبُكَ يا چيم؟".

"لا شيء".

"بل هناك شيء ما".

"ليس بشيءٍ لا يمكنني التعامُلُ معه".

"أهناك خَطبٌ ما بخصوص شَقيقِكَ؟".

داهَمَته رياحُ الخوف، كما لو انفتح بابٌ داخليٌّ.

"لِمَ تقولين هذا؟".

"كُنـتَ تَنـوح باسـمه خـلال نَومِـكَ في الليلـة الفائتـة. "وايـن، وايـن". كنـتَ تقـول: "اجـري يـا وايـن"".

"هذا لا شيء".

لكنـه ليـس كذلـك، أدرك كلاهـما هـذا. راقَبَهـا وهـي ذاهبـة. اتَّصـل السـيد نيـل في السـاعة الثامنـة والربـع. قـال:"لا ينبغـي عليـكَ القَلَـقُ بخصـوص أولئـك الفتيـة، فجميعهـم أمـواتٌ".

"أهكذا حقًّا؟".

علَّـم موضـع قراءتـه في كتـاب "تربيـة الشـياطين" بسـبَّابَتِه وهـو يتحـدَّث.

"حـادث اصطـدام سـيارة، بعـد سـتة أشـهر مـن مقتـل أخيـكَ. كان يلاحقهـم شُرطـيٌّ، والشُّرطـيُّ في الحقيقـة كان فرانـك سيمون. يعمـل حاليًـا في شركـة سيكورسـكاي، ربمـا يجنـي مـالًا أكـثر".

"واصطدموا بالسيارة".

"خرجت السيارة عن الطريق عند سُرعَةٍ تَجاوَزَت المائة ميل في الساعة، واصطَدَمَت بِبُرج رئيسيٍّ لنقل الكهرباء، وحين نجحوا في النهاية في إغلاق الكهرباء، وأخرجوهم منها، استوت لحوم أجسادهم لدرجة متوسِّطة".

أغلق چيم عينيه.

"هل رأيتَ التقرير؟".

"طالَعتُه بنفسي".

"أيُّ شيءٍ بخصوص السَّيَّارة؟".

"كانت سيارة مُعَدَّلة".

"أيوجد وَصفٌ لها؟".

"سيارة فورد سيدان سوداء طراز 1954، ومكتوبٌ على جانبها "عيني الثعبان"، تُطابِق الأوصافَ بما يكفي، لقد قضوا نحبهم حقًّا".

"كان معهم مُرافِقٌ يا سيِّد نيل، لا أعرف اسمه، لكنه مُلقَّب بالمُبيِّض".

قال السيد نيل بلا تَردُّد: "إنه تشارلي سبوندر، بَيَّض شَعرَه بالكلوروكس ذات مرَّة. أتذكَّر هذا. صار شَعرُه أبيضَ مُخطَّطًا، وحاول أن يصبغه ثانية، فصارت الخطوط برتقاليَّةَ اللون".

"أتعرف ماذا يفعل الآن؟".

"تَطوَّع في الجيش، انضمَّ إليه سنة 58 أو 59، بعد أن حبَّل فتاةً مَحلِّيَّة".

"أيُمكِنُني التَّواصُلَ معه؟".

"والدته تعيش في ستراتفورد. هي أدرى".

"أيُمكِنُكَ أن تُعطيَني عنوانَها؟".

"لن أقدر يا چيمي، إلى أن تخبرني ما الذي يَشغَلُكَ".

"لا أستطيع يا سيد نيل، ستظنُّ أنِّي مجنون".

"جَرِّبْني".

"لا أستطيع".

"حسنًا يا بُنيَّ".

"هل سـ..."، لكنَّ الخَطَّ انقطع.

قال چيم: "يا لكَ من لقيط"، ووضع الهاتف على الحامل، رنَّ تَحتَ يَدِه وابتعدَ عنه مُرتَجِفًا كما لو أحرَقَه فجأةً. نظر إليه، مُتنفِّسًا بصعوبة. رنَّ ثلاث مرات، أربع. رفع السماعة، واستمع، وأغمض عينيه.

أوقفه شُرطيٌّ في طريقه إلى المستشفى، ثم اتَّجه رأسًا نحوه، وصُفَّارة الإنذار تصرخ. تواجَدَ طبيبٌ شابٌّ له شارِبٌ بهيئة فُرشاة أسنان في غرفة الطوارئ. نظر إلى چيم بعيونٍ مُظلِمَة بلا عاطفة.

"اعذُرْني، أنا چيمس نورمان و...".

"أنا آسف يا سيد نورمان، لقد ماتت في الساعة التاسعة وأربع دقائق مساء".

كان سيُغمَى عليه، صار العالم بعيدًا وزائغًا، وسرى صفيرٌ عالٍ في أذنيه. جالت عيناه بلا هدف، تريان جدرانَ قرميديَّةً خضراء، ونقَّالة مُتحرِّكة تلمع تحت المصابيح الفلوريَّة فوق الرؤوس، ومُمرِّضة مع قُبَّعَتها المعوجَّة، حان الوقت لتنتعش يا حبيبي. مال مُمرِّضٌ قُبالةَ الجدار خارج غرفة الطوارئ رقم 1، يرتدي ملابِسَ بيضاء قَذِرَة مع بضعة قطراتٍ من الدِّماء الجافَّة المتناثرة عبر الواجهة، وينظِّف أظافِرَه

بمُديَـةٍ. تطلَّـع المُمـرِّض إلى عينَـيْ چيـم وابتسـم، كان المُمـرِّض داڤيـد جارسـيا.

چيمي أغمى عليه.

الجنـازة، مثـل رقصـة في ثـلاث حـركات: المنـزل، دار الجنـازات، وجـوه آتيـة مـن اللامـكان، تغـدو مُقتَرِبَـة، وتـروح خارِجـةً إلى الظـلام ثانيـة. والدة سـالي: تنهمـر عيناهـا بالدُّمـوع وراء خـمار أسـود. والدهـا: يبـدو مصدومًـا ومُسِـنًّا. الآخـرون: عَرَّفـوا بأنفسـهم وصافحـوا يـده. أومـأ برأسـه وهـو لا يتذكَّـر أسـماءهم. أحضَـرَت بعـضُ النسـاء أطعِمَـةً، وجلبـت سـيِّدةٌ فطـيرةَ تُفَّـاح، وأكل شـخصٌ مـا قطعـةً، وحـين توجَّـه إلى المطبـخ، رآهـا قابِعـةً عـلى المنضـدة، قُطِعَـت حتـى بانـت حَشْـوَتُها، تنِـزُّ عُصـارةً مثـل دمـاء كهرمانيَّـة في طبـق الفطـيرة، وأطـرق مُفكِّـرًا: ينبغـي وضـع بولـة كبـيرة مـن الآيـس كريـم فوقهـا مباشرة.

شعر بيديـه ورجليـه ترتعشـان، راغبًـا في المـرور جـوار المنضـدة والإلقاء بالفطـيرة عـلى الجدار.

ثـم ذهبـوا، وكان يراقـب نفسـه، كمثـل الطريقـة التـي تـرى بها نفسـك في فيلـمٍ منـزليٍّ، وهـو يصافـح ويومـئ ويقـول: شـكرًا لـك، نعم سـأفعل.

شكرًا لكِ، أنا متأكِّد أنها كذلك، شكرًا لك.

حـين ذهبـوا، وصـار المنـزل لـه مـن جديـد. توجَّـه إلى الـرف، حيـث تراكمـت عليـه تـذكاراتُ زواجهـما: دُميَـة كلـبٍ مَحشـوَّة ذات عينـين مُرَصَّعَتَـيْن بالجواهـر فـازت بهـا في كـوني آيلانـد خـلال شـهر عسـلهما، حافظتـان جلديَّتـان فيهـما شـهادات دبلومِـه مـن جامعـة بوسـطن، ودبلومِهـا مـن جامعـة ماساتشوسـتس. زوجـان ضخـمان مـن أحجـار الـنَّرد مـن السـتايروفوم أعطتهـما إيَّـاه كمزحَـةٍ بعدمـا أهـدر سـتة عـشر دولارًا في لعبـة بوكـر بينـكي سيلڤرسـتاين منـذ عـام أو نحـو ذلـك قبلهـا، كـوبٌ رفيـع مـن الخـزف الصينـي اشـترته مـن مَتجـرٍ للأشـياء المسـتعملة في كليفلانـد

في العام الماضي، وفي منتصف الرف صورةُ زفافهما. أدارها ثم قعد في كرسيه ونظر إلى التلفاز الخاوي. بدأت فكرةٌ في التَّشكُّل وراء عينيه.

بعد ساعةٍ رَنَّ جرس الهاتف؛ ممَّا أخرجه من نومٍ خفيف، وتلمَّس طريقه إليه.

"أنت التالي يا نورم".

"ڤيني؟".

"يا رَجُل، كانت مثلَ واحِدةٍ من تلك الأقراص الطائرة في مضمارٍ للرِّماية، تضربها بالرصاص فتتناثر".

"سأكون في المدرسة الليلة يا ڤيني، غرفة رقم 33، سأطفئ الأضواء، ستكون مثل الجسر في اليوم إيَّاه، وأظنُّ أني أقدر على إحضار القطار".

"تريد أن تُنهي الأمر بِرُمَّتِه، أليس كذلك؟".

قال چيم: "هذا صحيح، أستأتي؟".

"ربما".

قال چيم: "ستكون هناك"، ثم أغلق الخَطَّ.

كانت السماء مُظلِمَةً تقريبًا حين وصل إلى المدرسة. ركن السيارة في مكانه المعتاد، وفتح الباب الخلفي بمفتاح مروره، واتَّجه أولًا إلى مكتب قسم اللغة الإنجليزية في الطابق الثاني. دخل، وفتح خزانة الأسطوانات، وبدأ التقليب بين الأسطوانات. توقَّف في منتصف عمليَّة البحث بين الكومة، وأخرج ألبومًا يُدعى "مؤثِّرات صوتية عالية الجودة"، وقلَّبه. كان المقطع الثالث من الوجه الأول بعنوان "قطار بضائع 3:04". وضع الألبوم على رأس جهاز الستيريو النَّقَّال للقسم، وأخرج كتاب "تربية الشياطين" من جيب معطفه، وفتحه على فقرة مُعَلَّمة، وقرأ شيئًا ما، وأومأ برأسه، وأطفأ الأضواء.

غرفة رقم 33.

أعدَّ جهاز الستيريو، حيث وسَّع مجال السَّمَّاعات إلى أبعد مدى، وشغَّل مقطع قطار الشَّحن، جاء الصوت رنَّانًا من اللا شيء إلى أن ملأت الغرفة بأسرها القَعقَعةُ المزعجة لمحَرِّكات الديزل واحتكاك الفولاذ بالفولاذ.

بعينين مُغمضتين، صدَّق بالكاد أنه أسفل منصَّة الشارع العريضة، مدفوعًا إلى ركبتيه، مراقبًا وصول الدراما الوحشية الصغيرة إلى خاتمتها المحتومة.

فتح عينيه، وأخرج الأسطوانة ثم أعادها لوضعها السابق، جلس خلف المكتب وفتح كتاب "تربية الشياطين" على فصلٍ بعنوان "الأرواح المؤذية وكيفيَّة استدعائها". تحرَّكت شفتاه وهو يقرأ، وتوقَّف عند الفواصل ليُخرِجَ أشياء من جيبه ووضعها على المكتب.

أولًا: صورة كوداك قديمة ومتجعِّدة له ولشقيقه، وهما واقفان على المرج أمام البناية السكنية في الشارع العريض حيث عاشا، لدى كلاهما قَصَّات شَعرٍ مُتدرِّجة، مبتَسِمَيْن بخجلٍ إلى الكاميرا.

ثانيًا: زجاجة صغيرة من الدماء، حيث أمسك قطَّة شارِعٍ ضالَّة وذبحها بمطواة جيبه.

ثالثًا: مطواة الجيب ذاتها.

أخيرًا: عصابة رأس مقطوعة من بطانة قُبَّعة صغيرة قديمة لرابطة البيسبول. قبَّعة واين. أبقاها جيم في الخفاء على أمل أن يُرزَق هو وسالي بابنٍ يرتديها.

قام من مقعده، وتوجَّه إلى النافذة، ونظر إلى الخارج. المرآب خاوٍ.

بدأ يدفع تُخَت المدرسة نحو الجدران، صانعًا دائرة متماسِكَة في منتصف الغرفة، وحين أنجز هذا، أحضر طبشورةً من دُرج مكتبه،

ومع اتِّباعه الرسم الموجود في الكتاب بدِقَّةٍ واستخدامه عصا قياس، رسم نجمةً خُماسيَّة على الأرض.

اشتدَّ نَفَسُه الآن، أطفأ الأنوار، وجمع أشيائه في يَدٍ واحدة، وبدأ الترديد.

"أيُّها الأب المُظلم، اسمعني لأجل خاطر روحي، أنا امرؤ يَعِدُ بأُضحِيَة، أنا امرؤٌ يتوسَّل لأجل هبة شريرة كأضحية، أنا امرؤ يَنشُد انتقام اليد اليُسرى، أجلب الدماء وعدًا بالأضحية".

أدار غطاء البرطمان، الذي حوى في الأصل زُبدَة الفول السوداني، وسكبه داخل النجمة الخماسية.

حدث شيء ما في الغرفة المظلمة، لم يكن من الممكن تحديد ماهيَّته، لكنَّ الهواءَ صار أثقل، وسَرَت فيه كثافة تبدو أنها تملأ الحَلقَ والبَطن بفولاذٍ رماديٍّ. تنامى الصَّمتُ العميق، يزيد من وطأته صمتٌ لا مَرئيٌّ.

فَعَلَ مثلما تُملِي الشَّعائِرُ القديمة.

الآن، إحساس في الهواء يُذكِّر چيم بوقت حصوله على فصلٍ دراسي لزيارة محطَّةٍ للجهد العالي، إحساس اكتظَّ فيه الهواءُ ذاته بتيَّارٍ كهربائي وبات مُزَلزِلًا، ثم جاء صوتٌ، خفيض بشكل غريب، وكريه، متحدِّثًا إليه:

"ماذا تطلب؟".

لم يستَطِع التمييز إن كان يسمعه حقًّا أم أنه يَظنُّ أنه سَمِعَه.

تفوَّه بجُملتَيْن.

"إنها هِبَّةٌ صغيرة، ماذا ستقدِّم؟".

تحدَّث چيم بكلمتين.

همس الصوتُ: "كلاهما، اليُمنى واليُسرى، موافق؟".

"نعم".

"إذن امنحني ما هو لي".

فتح مطواته، واستدار نحو مكتبه، وفرد عليها يده اليمنى، وقطع سبَّابته اليُمنى بأربع قَطعاتٍ قاسية. تطايَرَت الدِّماء على الورق النَّشَّاف في أشكالٍ داكنة. لم يؤلم الأمرُ إطلاقًا، نَحَّى الأصبع جانبًا، وحوَّل المطواة إلى يَدِه اليُمنى. كان قَطعُ الأصبع اليسرى أصعبَ، بدت يَدُه الممدودة غريبةً وغيرَ مألوفَةٍ مع الأصبع المنقوص، واستمرَّت المُديَةُ تَنزَلِق. في النهاية، ومع نَخرَةٍ من نَفاد الصبر، رمى المُديَةَ بعيدًا، وكسر العظمة، واقتلع الأصبع فتحرَّرت. التقط كلتيهما مثل أصابع البقسماط، وألقى بهما في النجمة الخماسية. بزغ شُعاعٌ ساطِعٌ من الضوء، مثل بودرة فلاش المصوِّر عتيقة الطراز. لاحظ عدم وجود دخان، ولا رائحة للكبريت.

"أي أشياء أحضرتها؟".

"صورة فوتوغرافية، ورباط قماشي غُمِسَ بِعَرَقِه".

"العَرَقُ شيءٌ نفيس". هكذا أشار الصوت، وفي نبرته جَشَعٌ بارد جعل چيم يرتعش "أعطِهم لي".

ألقى بهم چيم في النجمة الخماسية، وومض الضوء.

قال الصوت: "هذا جيِّد".

قال چيم: "هذا إذا جاؤوا".

لا رَدَّ، ذهب الصوت، هذا إنْ وُجِدَ من الأساس. انحنى مقتربًا من النجمة الخماسية. كانت الصورة ما زالت موجودةً، لكنها اسوَدَّت وتَفحَّمَت، واختفت عصابة الرأس.

في الشارع سَرَت ضوضاء، خافتة في البدء، ثم تزايَدَت. وفدت سيَّارة مُعدَّلة مُزوَّدة بكاتم صوتٍ زُجاجيٍّ، انعطفت في البداية إلى شارع داڤيس، ثم اقتربت. جلس چيم، مُصغيًا كي يسمع إن كانت السيارة ستمرُّ أم ستستدير.

واستدارت.

وَقعُ أقدامٍ على السلالم، وصدى يتردَّد.

قهقهة روبرت لاوسون عالِيَة النَّبرة، وبعدها شخصٌ ما يقول "شششششش!"، وبعدها يُقَهقِه لاوسون ثانية. صار وَقْعُ الأقدام أقربَ، وفقدت صداها، ثم انفتح الباب الزجاجي عند رأس السلالم بخبطة.

"يوو-هوو، نورمي!". هكذا نادى داڤيد جارسيا بنبرةٍ عالية مُصطَنَعة.

همس لاوسون ثم قهقه: "هل أنت هناك يا نورمي؟ إنته كونتي هيناك يا شولي؟".

ڤيني لم يتكلَّم، لكن كلما حثُّوا المسير في الصالة، استطاع چيم رؤية ظلالهم، ڤيني كان الأطولَ بينهم، مُمسِكًا بشيء طويل في يَدٍ واحدة. صدر صوتُ قَرقَعةٍ خفيفة، وصار الشيء الطويل أطولَ.

كانوا يقفون عند الباب، ڤيني في المنتصف، حملوا جميعهم مَطاوي.

قال ڤيني بِرقَّة: "ها قد جئنا يا رجل، ها قد جئنا من أجل مؤخِّرتِك".

تحرَّك چيم إلى مُشغِّل الأسطوانات.

صرخ جارسيا قافزًا: "يا للمسيح، ما هذا؟"، كان قطار الشحن يقترب. يمكنك الإحساسُ تقريبًا بالقرع على الجدران معه.

لم يَبدُ الصَّوتُ بعد الآن خارجًا من السَّمَّاعات، وإنما من الصالةِ، من مساراتٍ سُفليَّة من مكانٍ ما بعيدٍ في الزمان مثلما يبعد في المكان.

قال لاوسون: "لستُ مرتاحًا لهذا يا رجل".

قال ڤيني: "فات الأوان"، خطى للأمام ولوَّح بمُديَةٍ، "أعطِنا أموالَكَ يا والدي".

هيا بنا نذهب.

ارتَدَّ جارسيا، "ماذا بحقِّ الجحيم..."، لكن ڤيني لم يتراجع، أشار إلى الآخرين كي ينتشروا، وربما كان ذلك الشيء في عينيه مصدرَ راحَةٍ.

سأل جارسيا فجأة: "تعال يا وَلَد، كم معك من المال؟".

قال چيم: "أربعة سِنتات"، كان هذا صحيحًا، فقد التقطهم من برطمان الفَكَّة في غرفة النوم، وأحدثهم تاريخًا كان من سنة1956.

"أيُّها الكاذِبُ اللَّعين".

دَعْه وشأنه.

ألقى لاوسون نظرةً من فوق كتفه، وضاقت عيناه. صارت الجدران ضبابيَّةً وغير ملموسة. عوى قِطارُ الشَّحن، واحمَرَّت الإضاءة الآتية من مصباح الشارع عند المرآب مثل لافِتَةِ بناية شركة بورتيس، المتذبذبة قُبالَةَ الغَسَق في السماء.

شيء ما خرج من النجمة الخماسية، شيء ما له وَجهُ فَتًى صغيرٍ في الحادية عشرة من عُمره ربما، فتًى ذي قَصَّة شَعرٍ مُتدرِّجة.

وَثَبَ جارسيا للأمام، ولكم چيم في الفم. شمَّ في نَفَسِه خليطَ الثَّوم مع البيروني. كان الأمرُ بطيئًا ولا يؤلم.

شعر چيم بثِقَلٍ مفاجئ، مثل الرصاص في فخذه، وتحرَّرَت مَثانَتُه.

نظر إلى الأسفل ورأى بُقعَةً داكِنةً تَظهَر وتنتشر على بنطاله.

صرخ لاوسون: "انظر يا ڤيني، لقد بَلَّل نفسه". كانت نبرة الصوت صحيحةً، لكنَّ التعبير على وجهه تعبيرُ ذُعرٍ، تعبير وَجهٍ لدُميَةٍ عادت إلى الحياة لتكتشف أنها مربوطة بخيطان.

"دعوه وشأنه". هكذا قال الشيء حامل هيئة واين، لكنه لم يَكُن صوتَ واين، كان الصوت البارد الجَشِع للشيء الخارج من النجمة الخماسية. "اجري يا چيمي! اجري! اجري! اجري!".

انزلق چيم على ركبتيه، وصَفَعَته كَفٌّ على ظهره، تُحاوِلُ أن تَجُرَّه، فتعود صفرًا.

نظر إلى أعلى ورأى ڤيني، وجهه مشدودٌ، حتى بات صورةً ساخرة عن الكراهية، وجَّه مُديَتَه نحو الشيء حامل هيئة واين أسفل عظم الصَّدر بالضبط، ثم صرخ، انطوى وجهه على ذاته، واحترق، واسوَدَّ، وصار بشعًا.

ثم رحل.

بعدها بهُنَيهَةٍ، صُعِق جارسيا ولاوسون، وانطويا، واحترقا، واختفيا.

رقد چيم على الأرض، مُتنفِّسًا بصعوبةٍ، وتلاشى صوتُ قطار الشَّحن.

كانِ شقيقه يدنو بنَظَرِه إليه.

"واين؟". قال وهو يتنفَّس.

ثم تَبَدَّل الوجه، بدا أنه يذوب ويسيل معًا. اصفرَّت العينان، وتطلَّع إليه خُبثٌ مُتبَسِم مُريع.

همس الصوتُ البارد: :سأعود يا چيم".

واختفى.

قام على مهل، وأطفأ مُشغِّل الأسطوانات بِيَدٍ واحدة مُشوَّهة. لمس فمه، كان ينزف من لكمة جارسيا، تحرَّك وأطفأ الأنوار. كانت

الغُرفَـةُ خاويَـةً. تَطلَّـع إلى المـرآب وكان خاويًـا هـو الآخـر، إلَّا مـن طاسـة إطـار سـيَّارة انعكـس عليهـا القمـر في أداءٍ إيمـائيٍّ أحمـق. بَـدَت رائحـة الفصـل قديمـةً وعَفِنَـة، أجـواء المقابـر. مسـح النَّجمَـة الخماسـية مـن عـلى الأرض، وبـدأ يصـفُّ التُّخَـت مـن أجـل المُـدرِّس البديـل في اليـوم التـالي. آلمتـه أصابِعُـه لأسـوأ درجـة، أي أصابـع؟ ينبغـي عليـه زيـارة طبيـب. أغلـق البـاب ونـزل السَّـلالم ببُـطء، عاقـدًا يديـه عـلى صـدره. في منتصـف طريقـه للأسـفل، شيءُ مـا غامـض دفعـه لأن يسـتدير، لعلَّـه ظِـل أو لعلـه مجـرد حـدس.

يبدو أن شيء ما غير مرئي قد وَثَبَ.

تذكَّـر چيـم التحذيـر مـن كتـاب "تربيـة الشـياطين"، والخطـر الـذي يتضمَّنـه.

يُمكِنُـك بالطَّبـع اسـتدعاؤهم، وربمـا توجيههـم لإنجـاز أعمالـك، ويمكنـك حتَّـى التَّخلُّـص منهـم.

لكنهم أحيانًا يعودون.

نزل السلالم ثانية، مُتسائِلًا إن كان الكابوس قد انقضى من الأساس.

رَبيعُ الفَراولَة

سبرنجهيل چاك.

رأيت هاتين الكلمتين في الجريدة هذا الصباح، ويا إلهي، كم أعادتاني بالزمن إلى الوراء. حدث كل هذا تقريبًا منذ ثماني سنوات مضت بالتمام والكمال. في وقت حدوث هذا، رأيتُ نفسي ذاتَ مَرَّة على شاشة التِّلفاز الوطني ضمن تقريرٍ للمُذيع والتر كرونكيت. مُجرَّد وجه مُسرِع في الخلفية الواسعة خلف المذيع، لكن رفاقي عرفوني في الحال، واتَّصلوا بي من خارج المدينة. طلب مني أبي المُفعم بالانفتاح والودِّ والتَّكتُّم تحليلي للموقف، وأرادت أمي فقط أن أعود للمنزل، لكني لم أُرِد العودة للمنزل. كنتُ مفتونًا.

مفتونًا بربيع الفراولة المُظلِم المأهول بالضَّباب، وبِظلِّ الموت العنيف الذي سار في تلك الليالي منذ ثماني سنوات. ظِلِّ سبرنجهيل چاك.

في نيو إنجلاند يطلقون عليه ربيع الفراولة. لا أحد يعلم لماذا، مُجرَّد عبارة يستخدمها كبار السن. يقولون إنه يحلُّ مَرَّة واحدة كل ثماني أو عشر سنوات. قد يكون ما جرى في كلية نيو شارون للمُعلِّمين في ربيع الفراولة هذا دورة ملازمة له أيضًا، لكن لو عرف أحدٌ ما جرى، ما كان سيفتح فمه أبدًا.

في نيو شارون، بدأ ربيع الفراولة في السادس عشر من مارس 1968، حيث حَلَّ في هذا اليوم أبردُ شتاءٍ مُنذُ عشرين عامًا. أمطرت الدنيا، وكان يُمكِنُكَ شَمُّ رائحة البحر من مسافة عشرين ميلًا غرب الشواطئ، وبدأ الجليدُ البالغُ عُمقُه 35 إنشًا في بعض المواضع في الذَّوبان، وجرى الثَّلجُ السَّائِلُ في ممرَّات الحرم الجامعي، وأخيرًا بدأ ارتخاء وتقلُّص المنحوتات الثلجية لكرنڤال الشتاء التي حافَظَت على دقَّتها ووضوح معالمها لمدَّة شهرين تحت درجات حرارةٍ تحت صِفريَّة، وذرف الرسم الكاريكاتوري للرئيس ليندون چونسون قُبالَةَ مَقرِّ أَخَويَّة "تيب" دموعًا ذائبة، وفقَدَت الحمامة أمام قاعة براشنر ريشاتِها المُتجمِّدة، وظهرت جمجمتها من الخشب الرقيق في هيئة مُحزِنة على مرأى من الجميع في بعض الأماكن.

وحين حلَّ الليل، أتى معه الضباب، متحرِّكًا في صمتٍ، ومُتَّشِحًا بالبياض عبر الممرَّات والطرقات الضيقة للكُلِّيَّة. بزغ بين أشجار الصنوبر على الجدار مثل أصابع يُعدُّ عليها، كان ينجرف بطيئًا مثل دخان سيجارة، أسفل الجسر الصغير عند مدافع الحرب الأهلية؛ ممَّا جعل الأشياء تبدو غير مترابطة وعجيبة وساحرة. قد يخرج المسافر الغافِلُ من فوضى الأضواء الساطعة والإيقاعات الصاخبة في مطعم "جريندر"، متوقِّعًا أن يُهَيمِن عليه البزوغُ الصافي الساطع للنجوم في الشتاء، لكنه بدلًا من ذلك، يجد نفسه فجأة في عالم صامت مُغطًّى بضباب أبيض جارف، حيث الأصوات الوحيدة هي وقع أقدامه، والتقاطر الرقيق للماء من المزاريب القديمة. كنت تتنظر تقريبًا أن

تـرى جولـوم أو فـرودو وسـام يهرعـون بعيـدًا، أو أن تسـتدير لتكتشـف أن "جرينـدر" اختفـى، راح، حـلَّ مَحلَّـه بانوراما ضبابيَّـة مـن المسـتنقعات وأشـجار الطقسـوس وربمـا حلقـة درويديَّـة، أو خاتـم سـحري لامـع.

شـغَّل صُنـدوق الموسـيقى أغنيـة "لاڤ إيـز بلـو" هـذا العـام. وشـغَّل أغنيـة "هـاي، جـود" بـلا نهايـة، بـلا نهايـة. وشـغَّل أغنيـة "سـكاربورو فير".

وبعـد عـشر دقائـق مـن حلـول السـاعة الحاديـة عـشرة مـن تلـك الليلـة، شرع طالِـبٌ في السـنة الأولى يُدعـى چـون دانـسي في طريقـه إلى مسـكنه في الـصراخ عـبر الضبـاب، مُوقِعًـا كُتبـه مـا بـين وعـلى السـاقين المنفرِجَتَـيْن للفتـاة الميتـة الراقـدة في رُكـنٍ ظليـلٍ مـن مـرآب قسـم الدراسـات الحيوانيـة، رقبتهـا مشـقوقة مـن الأذن لـلأذن، لكـنْ عيناهـا مفتوحتـان، تبـدوان كأنهـما وامِضَتـان، كـما لـو أنهـا ألقـت أطـرَفَ مَزحَـةٍ في حياتهـا القصـيرة. صرخ دانـسي طالـب التربيـة مـع تخصُّـصٍ فرعـيٍّ في الخطابـة، وصرخ ثـم صرخ.

كان اليـوم التـالي غائمًـا وكئيبًـا، توجَّهنـا إلى قاعـات المحـاضرات مـع أسـئلة مُلِحَّـة عـلى أفواهنـا: مـن؟ لمـاذا؟ متـى تظـنُّ أنهـم سـيقبضون عليـه؟ والسـؤال الختامـي المثـير؟ هـل كنـتَ تعرفهـا؟ هـل كنـتَ تعرفهـا؟

نعم، حَضرتُ فصلَ الفن معها.

نعـم، واعَدَهـا أحـدُ أصدقـاء شريـكي في السَّـكن في الفصـل الـدراسي الأخـير.

نعـم، طلَبَـت منِّـي مـرة إشـعال سـيجارتها في "جرينـدر". كانـت جالسـة في الطاولـة المجاورة.

نعم. نعم. أنا...

نعم، نعم، أوه نعم، أنا...

كنَّا جميعًا نعرفها، كان اسمها جايل كيرمان، وتُنطق "كير- مان"، كان تدرس الفن. ارتدت نظَّارة الجَدَّة، وتمتَّعت بشخصية طيبة. كانت محبوبة، رغم كراهية شريكاتها في السكن لها. لم تكن تخرج كثيرًا، رغم أنها من أكثر فتيات الحرم الجامعي انحلالًا. كانت قبيحةً، لكنها رقيقة. كانت فتاةً مَرِحَة، قليلًا ما تتحدَّث، ونادرًا ما تبتسم. كانت حُبلَى ومصابة بسرطان الدم. كانت مثليَّةً قُتِلَت على يد حبيبها. كان أوان ربيع الفراولة، وفي صباح السابع عشر من مارس كلُّنا عرفنا جايل كيرمان.

زحَفَت إلى الحرم الجامعي نصفُ دستة من سيارات شرطة الولاية، أغلبها مركونة أمام قاعة جوديث فرانكلين، حيث عاشت الفتاة كيرمان. في طريقي خلال مروري، طُلِب مني إظهار بطاقة هويَّتي الطُّلَّابية، كنتُ حاذقًا، أريته بطاقتي ذات الصورة بدون النابَيْن.

سأل الشرطي بكياسة: "هل تحمل سكِّينًا؟".

بعد أن أخبرته أن أكثر غَرَضٍ فَتَّاك أحمله معي ميدالية مفاتيح على هيئة قدم أرنب، سألته: "هل هذا بخصوص جايل كيرمان؟".

انقض عليَّ: "ما دافِعُكَ للسُّؤال؟".

كنتُ مُتأخِّرًا خمس دقائق على الفصل.

كان أوان ربيع الفراولة، ولم يتحرَّك أحدٌ بمفرده في هذا الحرم الجامعي الأكاديمي نصف الخيالي في الليل. هبط الضباب ثانية، يفوح منه رائحة البحر، هادئًا وعميقًا.

في حوالي الساعة التاسعة، اندفع شريكي في السَّكن إلى غرفتي، وأنا أعصر دماغي على مقالة عن ميلتون منذ الساعة السابعة. قال: "قبضوا عليه، سمعت بالأمر في مطعم "جريندر"".

"مِمَّن؟".

"لا أعلم، شخصٌ ما، حبيبها ارتكب الجريمة، اسمه كارل آمالارا".

رجعتُ للوراء، مسترخيًا ومُحبَطًا، مع اسمٍ كهذا ينبغي أن يكون الأمر حقيقيًّا. جريمة عشق خسيسة ومميتة.

قُلت: "حسنًا، هذا جيد".

غادر الغرفة كي ينشر الأخبار في السكن الجامعي. أعدتُ قراءة مقالتي عن ميلتون، لم أفهم ما كنت أحاول قوله، مزَّقتُها وبدأت من جديد.

نُشِرَ الخبر في الصحف في اليوم التالي. كانت صورةً أنيقة لآمالارا بما لا يتلاءم معه، ربما صورة التخرُّج من المدرسة الثانوية، حيث أظهرت فتى على سيمائه الحزن مع بشرة زيتونية وعيون داكنة وبثور على أنفه. لم يعترف الفتى بعد، لكنَّ الدليل ضده قويٌّ. اختلف هو وجايل كيرمان كثيرًا في الشهر الفائت أو نحو ذلك، وانفصلا في الأسبوع الماضي. قال شريك آمالارا في السكن إنه كان "قانِطًا". عثَرَت الشرطة في خزانة صغيرة تحت السرير على سكِّين صَيدٍ ذي 7 إنشات من متجر ل. ل. بين، وصورة للفتاة يبدو أنها قُطِعَت بالمقص.

تجاوَرَت صورة لجايل كيرمان مع صورة آمالارا، أظهرت كلبًا بشكلٍ غائم، وطائر فلامنجو مقصوصًا على المرج، وأيضًا فتاة شقراء ضئيلة الجسد ترتدي نظارة. انقلبت شفتاها بابتسامةٍ غير مُريحة، وانحرفت عيناها. وُضعت يدٌ واحدة على رأس الكلب، كان الأمر حقيقيًّا وقتئذ، كان ينبغي أن يكون حقيقيًّا.

حلَّ الضباب ثانية تلك الليلة، ليس في هدوء وخفَّة، وإنما في تَمدُّد صامت غير ملائم. تمشَّيتُ في هذه الليلة، كان عندي صداع وخرجت لشَمِّ الهواء، الفائح برائحة الربيع الرطبة الغامضة التي كانت تجلو الثلجَ العنيد ببطء، مخلِّفة رُقعًا لا حياة فيها من عشب العام الماضي عارية دون غطاء، كمثل رأس جَدَّة عجوز أنانة.

بالنسـبة لي، كانـت هـذه واحـدة مـن أجمـل الليـالي التـي يَسَـعُني تَذكُّرهـا. كان الأشـخاص الذيـن مـرَرتُ عليهـم تحـت الأضـواء المُشـعَّة ظـلالًا مُتهامِسَـة، بـدوا جميعهـم عُشّـاقًا، سـائرين بأيـدٍ وأعـيُن مُتواصِلـَة، والثلـج الذائـب سـال وجـرى، وسـال وجـرى، واندفـع صـوت البحـر مـن كل مـصرف مُظلِـمٍ لمياه الأمطـار، وانحسر الآن بقـوَّة بحـر الشـتاء الداكـن.

تمشَّـيتُ حتـى منتصـف الليـل تقريبًـا إلى أن تعفَّنـتُ تمامًـا، ومَـرَرتُ عـلى كثـير مـن الظـلال، وسـمعت كثـيرًا مـن خطـوات الأقـدام تنقـر عـلى الطرقـات المتعرِّجـة، مَـن كان يقـول إن واحـدة مـن تلـك الظـلال لم تكـن للرجـل أو الـشيء الـذي بـات يُعـرف بسـبرنجهيل چـاك؟ ليـس أنـا، لأني مـرَرتُ عـلى كثـير مـن الظـلال، لكنّـي في الضبـاب لم أرَ وجوهًـا.

في الصبـاح التـالي، أيقظنـي الصخـب في السـكن الجامعـي، اندفعـت لمعرفـة مـن جُنِّـد إجباريًـا، ممشِّـطًا شَـعري بكلتـا يـديَّ، وسـاحبًا اليرقـة الزَّغِبَـة التـي حلَّـت مَحـلَّ لسـاني بمهـارة عـبر سـقف حلقـي الجـاف.

قـال لي شـخصٌ مـا، ووجهـه شـاحب مـن الانفعـال: "نـال مـن شـخص آخـر، عليهـم أن يدعـوه وشـأنه".

"مَن يَدعونه وشأنه؟".

قـال شـخصٌ آخـر بابتهـاجٍ: "آمـالارا، كان قابعًـا في السـجن حـين حـدث مـا حـدث".

سـألتُ في صبر: "متـى.. مـاذا حـدث؟"، عاجـلًا أم آجـلًا كنـتُ سـأعرف، كنـتُ مُتيقِّنًـا مـن ذلـك.

"الرجـل قتـل شـخصًا آخـر في الليلـة الماضيـة، وجميعهـم الآن يفتشـون الأرجـاء كافـة".

"بحثًا عن ماذا؟".

ترنَّح ذو الوجه الشاحب أمامي ثانية: "عن رأسها، قاتِلُها أخذَ رأسَها معه".

نيو شارون ليست كُلِّيَّةً كبيرة، وكانت حتى وقتئذ أصغر، كانت من نوعية المنشآت التي يشير إليها مُوظَّفو العلاقات العامة بصدقٍ على أنها "كُلِّيَّة مُجتَمَعيَّة"، وكانت حقًّا أشبه بمجتمع صغير، على الأقل في تلك الأيام: بينك وبين أصدقائك، من المحتمل أنك تعرفت على الجميع مع أصدقائهم ولو بالإيماء على الأقل.

جايل كيرمان كانت من صنف الفتيات التي كنتَ تومئ لها لِتَوِّكَ؛ فينتابك تفكيرٌ ضبابيٌّ أنَّكَ رأيتَها في الجوار.

عرفنا جميعًا آن براي. كانت أوَّلَ مُتنافِسَة في مسابقة ملكة جمال نيو إنجلاند في العام الفائت، واشتمل عرضها الأدائي على تدوير قضيبٍ مُشتَعِل على أنغام أغنية "هاي، لوك مي أوفر". كانت ذكيَّة أيضًا، عملت حتى وفاتها محرِّرةً في جريدة الكُلِّيَّة (قصاصة ورقية أسبوعية تحوي العديد من الرسوم الكاريكاتورية السياسية والرسائل المُنمَّقة)، وعضوة في جمعية المسرح الطلابي، ورئيسة نادي الطالبات للخدمة الوطنية، شعبة نيو شارون. خلال فورة حماسي وعنفواني الشبابي في السَّنَة الأولى، تقدَّمتُ للجريدة بفكرةِ مقالٍ، وعرَضتُ عليها الخروج في موعدٍ غرامي، وردَّت على كليهما بالرَّفض.

والآن هي ميِّتة، بل أسوأ من ميتة.

تمشَّيتُ كي أحضر فصولي لفترة بعد الظهيرة مثل الجميع، مومِئًا برأسي لمن أعرفهم حيث ألقي التحيات مع اضطرار أَزيَدَ عن المعتاد، كما لو كان هذا سيعوِّض عن طريقة تَفرُّسي وجوههم عن قرب، وهي نفس الطريقة التي تفرَّسوا بها وجهي. كان يوجد بيننا شخص مُظلِمٌ، مُظلمٌ مثل الطُّرقات الملتوية عبر المركز التجاري، أو الملتفة بين أشجار البلوط ذات المائة عام في ساحة الكُلِّيَّة وراء الصالة الرياضية.

مُظلم مثل المدافع الثقيلة من الحرب الأهلية، المرئية عبر الغشاء الضبابي المتماوج. تطلّعنا إلى وجوه بعضنا البعض، وحاولنا استنطاق الظلام وراء أي منها.

لم تقبض الشرطة على أحدٍ هذه المرة. تجوَّلَت الخنافس الزرقاء في دوريات بلا توقُّف في الليالي الربيعية الضبابية الثامنة عشرة والتاسعة عشرة والعشرين، وغُرِزَت الكشَّافاتُ في الأركان والزوايا المظلِمَة بحماسٍ غير معتاد. فرضت الإدارةُ حَظرَ تِجوالٍ إلزاميٍّ ابتداءً من الساعة التاسعة. ضُبِط حبيبان طائشان وهما يتبادلان القبلات بين الشجيرات المتناسِقَة الواقعة شمال مبنى خرِّيجي تيت، واقتيدا إلى قسم شرطة نيو شارون، وتعرَّضا للاستجواب بلا هَوادَةٍ لمدة ثلاث ساعات.

وقع إنذارٌ هيستيريٌّ كاذب في الليلة العشرين حين عُثِر على فتًى فاقِدٍ الوَعيَ في نفس المرآب حيث اكتُشِفت جُثَّة جايل كيرمان، حمله شرطيٌّ ثرثار من الحرم الجامعي إلى المقعد الخلفي لسيارته الكروزر، ووضع خريطةَ المقاطعة فوق وجهه دون مبالاةٍ بقياس النبض، وتحرَّك إلى المستشفى المحلي، وعَوَت صفارة الإنذار عبر الحَرَم الجامعي المهجور مثل حلقة من أرواح البانشي.

في منتصف الطريق إلى هناك، انبعث الجُثمانُ الكائن في المقعد الخلفي من رقاده، وسأل بصوتٍ غائر: "أين أنا بحقِّ الجحيم؟". صاح الشرطي وحاد عن الطريق. اتَّضَح أن الجثمان طالِبٌ جامعي يُدعى دونالد موريس، قضى آخر يومين في الفراش مصابًا بإنفلونزا حادَّة، أكانت إنفلونزا آسيوية في العام الأخير؟ لا أتذكَّر. على أيَّة حال، فقد أغمي عليه في المرآب في طريقه إلى "جريندر" من أجل زبديَّة حساء وبعض الخبز المُحمَّص.

استمرَّت الأيام دافِئةً ومُلبَّدة بالغيوم. تجمَّع الأفراد في مجموعات صغيرة ميَّالة إلى الانفصال والتجمُّع ثانية بسرعة مفاجئة. إن التطلُّع

إلى نفس تشكيلة الوجوه لمدة طويلة جدًّا يعطيك أفكارًا مُضحِكة عن بعضهم. وبدأت سرعة انتشار الشائعات من أحدِ أطراف الحرم الجامعي إلى الآخر في الاقتراب من سرعة الضوء. سُمِع صوت أستاذ تاريخ محبوب وهو يضحك وينتحب عند جسر صغير، فقد تَرَكَت جايل كيرمان رسالةً مُلغِزةً من كلمتين، كتبتهما بدمها على الأرض المطليَّة بالقار لمرآبِ قسم الدراسات الحيوانية، كلتا الجريمتين في الواقع جرائِمُ سياسيَّة، جرائم شَعائِريَّة اقترفها أحدُ فروع جمعية "ط.م.د"[1]؛ احتجاجًا على الحرب. كان الأمر مَدعاةً للضحك، فلدى فرع "ط.م.د" في نيو شارون سبعة أعضاء، ويمكن لفرع كبير أن يتسبَّب في إفلاس الجمعية بأَسْرِها. جلبت هذه الحقيقة المزيدَ من الرونق الخبيث من طرف اليمينيين في الحرم الجامعي، المحرَّضين من الخارج؛ لذا خلال تلك الأيام العجيبة الدافئة، احترسنا منهم جميعًا.

تجاهَلَت الصحافة المتلوِّنة على الدوام التشابُهَ الكبير الذي حمله قاتلنا مع چاك السفاح، وحفرت لما هو أبعد وصولًا إلى العام 1812. عُثر على آن براي على طريق رطب على بعد 12 قَدَمًا من أقرب رصيف، ومع ذلك لا توجد آثار أقدام، ولا حتى لها. عُمِّد القاتل باسم سبرنجهيل چاك على يد صحافيٍّ مقدامٍ مُولَع بالغموض من نيو هامبشير؛ نسبةً إلى الطبيب سيِّئ السُّمعة چون هوكنز من بريستول، الذي قتل خمسًا من زوجاته بعقاقير غريبة، وبقي الاسم؛ غالبًا بسبب الطريق الرَّطب الخالي من العلامات.

في الليلة الحادية والعشرين أمطرت الدنيا ثانية، وتحوَّل المركز التجاري وباحة الكُلِّيَّة إلى مُستَنقَع. أعلنت الشرطة أنها نشرت مُحقِّقين، رجالًا ونساء، بملابس مدنية في الأرجاء كافَّة، وسُحبت نصف سيارات الشرطة خارج نطاق الخدمة.

(1) اختصارًا لـ(طلاب من أجل مجتمع ديمقراطي) (المترجم)

نـشرت جريـدة الحـرم الجامعـي افتتاحيَّـةً غاضبـة وركيكـة بعـض الـشيء احتجاجًـا عـلى هـذا. بَـدَت خلاصتـه أنـه مـع تخفِّـي رجـال الشرطـة بدرجاتهـم كافَّـة في هيئـة طُـلَّاب، فسـيكون مـن المسـتحيل تمييـز المُحـرِّض الحقيقـي مـن المزيَّـف.

حـلَّ الغسـق ومعـه الضبـاب، منجرفًـا ببطء في طرقـات تحفُّها الأشـجار، وتقريبًـا بعنايـة، متشرِّبًـا البنايـات واحِـدَةً تلـو الأخـرى، كان شـيئًا رقيقًـا لا قـوامَ لـه، لكنـه عـلى نحـوٍ مـا عنيـد ومخيـف.

***

كان سـبرنجهيل چـاك رَجُـلًا، لم يُشـكِّك أحـدٌ في هـذا، لكـن الضبـاب الشريـك في الجريمـة أنثـى، أو هكـذا بـدا لي. بـدا الأمـر كـما لـو كانـت كُلِّيَّتنـا الصغيرة عالِقـةً بينهـما، يعتصرهـا عنـاقُ حَبيـبٍ مجنـون، جـزء مـن مراسـم زواج يكتمـل بالـدم. جلَسـتُ ودَخَّنـتُ ورأيـتُ المصابيـح تُضـاء في الظـلام المتنامـي وتسـاءَلتُ إنْ كان الأمـر انتهـى. دخـل شريـكي في السَّـكَن وأغلـق البـاب وراءه بهـدوء.

قال: "سيهطل الثلج عمَّا قريب".

استَدَرتُ ونظرت إليه. "هل يذكر المذياع ذلك؟".

قـال: "لا، مَـن يحتـاج لمذيـع نـشرة جويـة؟ هـل سَـمِعتَ مـن قبلُ عـن ربيـع الفراولة؟".

قلـتُ: "رُبَّمـا، منـذ زمـن بعيـد، كان أمـرًا تتحـدَّث بخصوصـه الجَـدَّات، أليـس كذلـك؟".

وقف بجواري، ناظرًا إلى الليل الزَّاحف.

قـال: "ربيـع الفراولـة يشـبه الصيـف الهنـدي، إلا أنـه أنـدَرُ في الحدوث، أنـت تحظـى بصيـفٍ هِنـديٍّ طيِّـب في هـذه البقعـة مـن البـلاد مـرَّةً كُلَّ

عامين أو ثلاثة أعوام، والتعويذة الجَوِّيَّة التي نحن فيها حاليًا من المفترض أن تحلَّ فقط كلَّ ثماني أو عشر سنوات. إنه ربيع زائف، ربيع كاذب، مثلما يُعَدُّ الصيف الهندي صيفًا غير حقيقيٍّ، اعتادت جَدَّتي على القول إن ربيع الفراولة معناه أن أسوأ رياح شمالية في الشتاء ما تزال على الأبواب، وكلَّما طال به الأمد، كلَّما اشتدَّت العاصفة".

قُلتُ: "حكايات خرافية، لا تُصدِّق كلمة". نظرت إليه، "لكني قَلِقٌ، ألَستَ قَلِقًا أيضًا؟".

ابتسم ابتسامةً عذبة، ثم سرق إحدى سيجارتي من العلبة المفتوحة على حافَّة الشُّبَّاك. قال: "أشكُّ في الجميع، إلا أنا، وأنت"، ثم خَبَت الابتسامةُ بعض الشيء. "وفي بعض الأحيان أتساءل بشأنِكَ، أترغب في الذهاب إلى الاتحاد ولعب البلياردو؟ سأعطيك عشرة دولارات".

"الأسبوع القادم امتحان حساب المثَلَّثات، سأقبع مع قلم لبَّاد وكومة جديدة من الأوراق".

بقيتُ فقط أنظر من النافذة لوقت طويل بعد ذهابه، حتى بعدما فتَحتُ كتابي وبدأت الاستذكار، كان جزءٌ منِّي ما يزال هناك، يتمشَّى في الظلال حيث يتولَّى زِمامَ الأمور الآن شيء مُظلِم.

في تلك الليلة، قُتِلَت آديل باركنز. كانت هناك سبع سيارات شرطة، وسبعة عشر شخصًا ذوو مَظهَرٍ جامعيٍّ (ثمانية منهم كُنَّ نِساءً قَطَعن مسافةً طويلة من بوسطن) يحرسون الحرم الجامعي. لكن سبرنجهيل چاك قتلَها بنفس الكيفية، مستهدفًا أحدَنا دون خطأ.

ساعده وحرَّضَه الربيع الزائف، الربيع الكاذب، قتلها وتركها مُرتكِزةً خلف مِقوَدِ سيَّارتها الدودچ، موديل 1964، ليُعثَرَ عليها في الصباح التالي، ووجدوا جزءًا منها في المقعد الخلفي، وجُزءًا منها في صندوق السيارة، وكُتِبَت كلمتان بالدماء على الزجاج الأمامي -وهذه المرة حقيقة لا إشاعة- هما: ها! ها!

صار الحرم الجامعي جنونيًّا بعض الشيء عقب هذا. جميعنا، ولا أحد مِنَّا كان يعرف آديل باركنز، كانت من أولئك النسوة المُرهَقات عديمات الأسماء اللواتي عَمَلنَ في مناوَبةٍ قاصِمَةٍ للظَّهر في "جريندر" من الساعة السادسة وحتى الحادية عشرة ليلًا، في مواجهة جحافِلَ من شطائر الهمبرجر، والطلبة السُّعَداء في استراحةٍ من الاستذكار في المكتبة على ناصية الطريق. ربما كان الأمر هيِّنًا عليها نسبيًّا في تلك الليالي الضبابية الثلاث الأخيرة في حياتها، حيث كان حظر التجوال مُطبَّقًا بصرامة، وبعد التاسعة يكون زبائن "جريندر" فقط من رجال الشرطة الجوعى وعُمَّال النظافة السُّعَداء، فقد حَسَّنَت المباني الخاويةُ من مزاجهم السيِّئ المألوف بشكل ملحوظ.

بقي القليل ممَّا يُقال. فأفراد الشرطة -الشَّاعرين بالانزعاج والميَّالين للهيستريا مثل أيِّ أحدٍ فينا- قد قبضوا على طالب دراساتٍ عُليا مِثليِّ الجِنس، يدرس علم الاجتماع، ولا يؤذي أحدًا- يُدعى هانسون جراي، الذي ادَّعى أنه "لا يستطيع تَذَكُّر" أين أمضى بعضًا من تلك الليالي المميتة، وُجِّه له الاتِّهام، واستُدعِي للمُحاكمة، وتركوه يعود فارًّا -وبسُرعَة- إلى مسقط رأسه في بلدته بنيو هامبشير بعد آخر ليلة لا تُوصف من ربيع الفراولة، حين ذُبِحَت مارشا كوران في المركز التجاري.

سيبقى سبب خروجها وبقائها وحيدةً خارج نطاق المعلوم إلى الأبد، كانت فتاةً بَدينةً، وحلوةً بِشَكلٍ مُحزِن، عاشت في شقَّة في البلدة مع ثلاث فتيات أخريات، تسلَّلَت إلى الحرم الجامعي في صَمتٍ ويُسرٍ مثل سبرينجهيل چاك نفسه. ما الذي جاء بها؟ ربما كانت حاجتها عميقةً ومُلِحَّةً مثل حاجة قاتِلِها، وبعيدة عن الإدراك. ربما كان الاحتياج لرومانسية مُتَّقِدة ومُفرِطة مع الليل الدافئ والضباب الدافئ ورائحة البحر والسِّكِّين البارد.

حدث هذا في الليلة الثالثة والعشرين، وفي اليوم الرابع والعشرين، أعلن عميد الكُلِّيَّة عن تقديم موعد عطلة الربيع أسبوعًا، وتفرَّقنا غيرَ مُبتَهِجين، وإنما مثل الخراف المذعورة قبل العاصفة، تاركين الحَرَمَ الجامعي خاويًا ومسكونًا بالشرطة مع شبح مُظلِمٍ.

كانت لديَّ سيَّارتي في الحرم الجامعي، واصطَحبتُ معي ستَّة أشخاص إلى وسط المدينة. كانت أمتعتهم محشورةً بشكل فوضويٍّ. لم تكن رحلةً لطيفة. أيٌّ مِنَّا يُدرِك أن سبرينجهيل چاك قد يكون معنا في السيارة.

في تلك الليلة تناقَصَ مُؤشِّر الحرارة بمقدار 15 درجة، وطُوِّقَت المنطقة الشمالية من نيو إنجلاند بأَسْرِها برياح شمالية صيَّاحة، بدأت بمَطَر مُتجمِّد وانتهت بعلو قدمٍ من الثلج، وبعدها حَلَّ أبريل كالسِّحر. غيث نَقيٌّ وليالٍ مُرصَّعة بالنجوم.

أسموه ربيع الفراولة، الرَّبُّ يعلم السبب، وكان وقتًا كاذبًا شريرًا يأتي مرَّةً كُلَّ ثماني أو عشر سنوات. رحل سبرينجهيل چاك مع الضَّباب، ومع مطلع يونيو، تحوَّلَت مُحادَثات الحرم الجامعي إلى سلسلةِ مُظاهَرات ضِدَّ الخدمة العسكرية واعتصامات في المبنى الذي يُجري فيه مُصنِّعُ قَنابِل نابالم معروفٌ مُقابَلاتِ عَمَل، وبحلول يونيو، تمَّ التغاضي -بالإجماع تقريبًا- عن مسألة سبرينجهيل چاك. عندي شَكٌّ أن الكثيرين قد قلَّبوا الموضوع في سِرِّيَّة على وجوه كافَّة، باحثين عن ذلك الشرخ في بيضة الجنون المتروكة التي ستجعل الأمر مفهومًا.

كانت هذه سنة تَخرُّجي، والسنة التالية كانت سنةَ زواجي. حَظيتُ بوظيفةٍ جَيِّدة في دار نشرٍ مُحلِّيَّة. في العام 1971 أنجبنا طفلًا، وهو الآن في سن المدرسة. فتى طيِّبٌ ومقدامٌ، حظي بعينيَّ وفَمِها.

ثم، صحيفة اليوم.

علمت بالطبع أنه هناك، عَلِمتُ صباح أمس حين استيقظتُ وسمعت الصَّوتَ الغامض للثلج السائل يجري في المزاريب، وشَمَمتُ الرائحة المِلحيَّة للمُحيط من شرفتنا الأمامية، حيث أقرب شاطئ على بُعد تسعة أميال. عَلمتُ بحلول ربيع الفراولة ثانيةً حين عُدتُ بالسيارة من العمل إلى المنزل، وكان عليَّ تشغيل المصابيح الأمامية في مواجهة الضباب الذي بدأ الزحف من الحقول والتجاويف، طامسًا صفوف المباني، ومانحًا مصابيح الطريق هالات خيالية.

ذكَرَت صحيفةُ اليوم أن فتاةً قُتِلَت في حرم نيو شارون الجامعي بالقرب من مدافع الحرب الأهلية. قُتِلَت الليلة الماضية، وعُثِر على جُثَّتها في كومة ثَلجٍ آخِذَةٍ في الذَّوبان، لم يكن جَسَدُها كله هناك.

ابتأَسَت زوجتي، أرادت أن تعرف أين كنتُ الليلةَ الماضية، لا أستطيع إخبارها لأني لا أتذكَّر، أتذكَّر تَحرُّكي بالسيارة من العمل إلى المنزل، وأتذكَّر تشغيلي لمصباحي الأمامي كي أفتِّش عن طريقي عبر هذا الضباب الزاحف الجميل، وهذا كل ما أتذكَّره.

كنتُ أفكِّر في الليلة الضبابية حين انتابني الصُّداع وخَرَجتُ لشَمِّ الهواء ومَرَرتُ على كُلِّ الظِّلال الجميلة عديمة الهيئة والقوام. كل ما كنتُ أفكِّر فيه صندوقُ سيارتي، يا لها من كلمة قبيحة: صندوق! مُتسائِلًا: لماذا ينبغي عليَّ الخوف لهذه الدرجة من فتحه.

يمكنني سَماعُ زوجتي وأنا أكتب هذا، في الغرفة المجاورة، وهي تبكي، تظنُّ أنني كنتُ مع امرأة أخرى الليلة الماضية.

ويا إلهي القدير، هكذا أظنُّ أيضًا.

الإفريز

"هيَّا، انظُرْ ماذا يوجد في الحقيبة". هكذا قال كريسنر ثانية.

كنَّا في شقَّته العلوية، على ارتفاع ثلاثة وأربعين طابقًا، كانت السجَّادة وَبَريَّة مقصوصة قاتمة، لونها برتقالي محروقٌ، وفي المنتصف بين المقعد الباسكيِّ المنخفض الذي يجلس عليه كريسنر، والأريكة الجلدية الأصلية التي لا يجلس عليها أحد- تقبَعُ حقيبةُ تَسوُّق بُنِّيَّة.

قلت: "لو كانت هذه رشوة، انسَ؛ فأنا أحبُّها".

"إنها أموال، لكنها ليست رشوةً، انظر...". كان ري يدخِّن سيجارة تركيَّةً موضوعةً في حامل من العقيق. سمح لي نظامُ التهوية بنفحةٍ فاتِرَة من التَّبغ، سرعان ما انقشعت. كان يرتدي روبًا حريريًّا، طُرِّز عليه تِنِّين. عيناه ساكنتان ومُتَّقِدتان وراء نظارته، كان يبدو مثلما يكون على أرض الواقع: أهم شخص على الإطلاق، وزنه 500 قيراط، ابن قحبة حتى النخاع، أحبَبتُ زوجته، وهي أحبَّتني. توقَّعتُ أنه

سيُثير مشكلة، وعَلِمتُ أن هذا ما سيكون، لكني لم أكن متيقِّنًا من نوع المشكلة.

اتَّجهتُ إلى حقيبة التَّسوُّق وقَلَّبتها، رُزَم أموال مربوطة تَدَحرَجَت على السجادة، كلها من فئة العشرين دولارًا، التقطتُ إحدى الرُّزَم وأحصَيتُ الأموال، عشر أوراق نقدية في الرُّزمة، توجد الكثير من الرُّزَم.

"عشرون ألف دولار". هكذا قال، ونفخ دخان سيجارته.

توقَّفتُ. "حسنًا".

"إنها لك".

"لا أريدها".

"ومعها زوجتي".

لم أَقُل شيئًا، حذَّرَتني مارسيا من كيفيَّة سريان الأمر. إنه مثل القِطِّ، "توم" عجوزٌ ممتلئ بالدَّناءة، سيحاول أن يُحَوِّلَك إلى فأر.

قال: "إذن، أنت محترفٌ في رياضة التِّنِس، لا أصدِّق أني لم أصادف لاعِبَ تِنِس من قبل".

"أتَقصِدُ أن مُحقِّقيكَ لم يُحضِروا لك أي صور؟".

لوَّح بحامل السيجارة دون اكتراث. "أوه، نعم، ولا حتى ڤيديو لكما أنتما الاثنين في ذلك الموتيل المحاذي للبحر، وراء المرآة كانت توجَدُ كاميرا، لكنَّ الصُّور كانت هي نفسها تقريبًا، أليست كذلك؟".

"إن كان هذا رأيَك".

هكذا قالت مارسيا: سيواصل تبديلَ المسارات، تلك هي طريقته لوضع الأشخاص في حالة الدفاع عن أنفسهم، وعمَّا قريب سيُذهِبكَ أينما تظنُّ أنه سيتواجد، فيأتي بك إلى مكانٍ آخر. قَلِّل من كلامك قدر المستطاع يا ستان، وتذكَّر أني أحِبُّك.

"دَعَوتُـكَ إلى هنـا لأني ظَنَنـتُ أننـا سـنتحدَّث قليـلًا رَجُـلًا لرَجُـل يـا سـيد نوريـس، مجـرَّد حديـث ودود بـين رَجُلَـيْن مُتحضِّرَيْـن، أحدهـما سـلب الآخـر زوجتـه".

أوشَكتُ على الرَّدِّ، لكني قرَّرتُ ألَّا أَرُدَّ.

قـال كريسـنر، نافِثًـا الدخـان في تكاسُـل: "هـل اسـتمتعتَ بوقتـك في سـجن سـان كوينـتن؟".

"ليس كثيراً".

"أظـنُّ أنَّـكَ أمضيـتَ ثـلاث سـنوات، مُتَّهَـمًا بالاقتحـام والسرقـة. إن كنـتُ عـلى صـواب".

قلـتُ: "مارسـيا تعلـم بالأمـر"، وعـلى الفـور وَددتُ لـو لم أقُـل ذلـك. كنـتُ ألعـب لُعبَتَـه، بالضَّبـط مثلـما حَذَّرتنـي مارسـيا بالضبـط، أقـذف إليـه الكُـرات، فيردُّهـا إليَّ بضربـات قويـة.

"سَـمحتُ لنفـسي بنَقـلِ سـيَّارَتِك". هكـذا قـال وهـو يتطلَّـع خـارج النافـذة في الطـرف الأدنى مـن الغرفـة، لم تكـن في الحقيقـة نافِـذةً بأيَّـة حـال، كان الجـدار بـأَسْرِه زُجاجيًـا. في المنتصـف بـاب زجاجـي جـرَّار، ووراءه شُرفَـة في حجـم طابـع بريـدي، ووراءهـا، مهبَـطٌ طويـل جـدًّا. ثَمَّـة شيء غريـب حيـال البـاب، لكنـي لم أضـع يـدي عليـه.

قـال كريسـنر: "هـذه بنايـة لطيفـة جـدًّا، مـع تأمـينٍ جَيِّـد، ونظـام مراقبـة وهكـذا أشـياء. حـين عرفـتُ أنَّـكَ في الـرواق، أجرَيـتُ مُكالَمـةً هاتفيـة، وبعدهـا أدار موظَّـفٌ مفتـاح تشـغيل سـيارتك وقادهـا مـن موقـف السـيارات هنـا إلى مـرآبٍ عـامٍّ عـلى بُعـد بضعـة بنايـات".

ألقـى نظـرةً عـلى السـاعة العصريـة شَمسـيَّة الشـكل فـوق الأريكـة، كانـت السـاعة الثامنـة وخمـس دقائـق.

"عند حلول الساعة الثامنة والثلث، نفس الموظف سيتَّصِل بالشرطة من كابينة هاتف عمومية بخصوص سيارتك، وعند الساعة الثامنة والنصف، في نهاية المطاف، سيعثر رجال الشرطة على سبع أوقيات من الهيروين المخفي في عجَلةِ سيَّارتك الاحتياطية، سيسعون وراءك بكلِّ حَماسٍ يا سيد نوريس".

دبَّر لي مكيدة، حاوَلتُ حماية نفسي قدر استطاعتي، لكنه اعتبرني مجرَّدَ لُعبَة أطفال.

"هذا ما سيحدث إلَّا إذا اتَّصَلتُ بموظَّفي وأخبرته أن ينسى أمر المكالمة الهاتفية".

قلتُ: "وكل ما عليَّ فِعلُه إخبارُكَ بمكان مارسيا، لن أعقد صفقةً يا كريسنر، لا أعرف، خَطَّطنا للأمر هكذا من أجلكَ".

"رجالي يتبعونها".

"لا أظنُّ، ويُهيَّأ لي أنهم فقدوا أثرنا في المطار".

تنهَّد كريسنر، وأزال حامِلَ السيجارة المشتعلة، وألقاها في مطفأة مطليَّة بالكروم ذات غطاء مُنزَلِق. بلا ضجَّة ولا فوضى، جرى التعامُل مع كلٍّ من السيجارة المستَعمَلَة وستان نوريس على قدم المساواة.

قال: "في الحقيقة، أنت على حَقٍّ. حيلة الاختفاء القديمة داخل دورة المياه، انزعج جواسيسي من انخداعهم بحيلةٍ قديمة مثل هذه، أظنُّ أنها قديمة جدًّا لدرجة أنهم لم يتوقَّعوها".

لم أَقُل شيئًا. بعد تَخلُّص مارسيا من جواسيس كريسنر في المطار، سافَرَت بالباص عائِدةً إلى المدينة، ثم إلى محطَّة الباص، وكانت هذه هي الخُطَّة. كان معها مائتا دولار، وهي كل الأموال المتوافِرَة في حسابي الادِّخاري. يمكن لمائتي دولارٍ وباص شركة "جراي هاوند" أن يأخذاكَ لأيِّ مكانٍ في البلاد.

سأل كريسنر، وبدا عليه اهتمامٌ فِعليٌّ: "هل أنتَ دائمًا قليل الكلام؟".

"تلك كانت نصيحةَ مارسيا".

قال ببعض الحِدَّة: "إذن، أتصوَّر أنَّكَ ستعرف حقوقك حين تقبض عليك الشرطة، وقد تكون المرَّة القادمة التي ستري فيها زوجتي حين تصير جَدَّةً عجوزًا جالِسةً على كرسيٍّ هَزَّاز، هل فكَّرتَ في هذا مَلِيًّا؟ أتصوَّر أن حيازة سِتٍّ أوقيَّات من الهيروين قد تسجنك أربعين عامًا".

"هذا لن يُعيدَ مارسيا إليكَ".

ابتسم مُتلَطِّفًا: "وهذا هو لُبُّ الموضوع، أليس كذلك؟ هَلُمَّ بنا نُراجِع ما نحن عليه؟ أنتَ وزوجتي وقعتما في الحب، حظيتما بنزوة، إلَّا إذا أردتَ أن تعتبر سلسلةً من ليالي المُضاجَعات العابِرَة في موتيلات رخيصة هي مُرادِف النَّزوَة، وهجرتني زوجتي. مع ذلك، أنت في حوزتي، وكما يقول الناس- موثوق الأيدي، هل في هذا خُلاصَة شافِيَة؟".

قلتُ: "أتصوَّر لماذا هي تَعِبَت منكَ".

أدهشني أنه مال برأسه وضحك. "أتعلم، أنت تعجبني، أنت وَقِحٌ ومُقامِرٌ، ولكن يبدو أنك شغوف. هكذا وَصَفتكَ مارسيا، كنتُ أشكُّ في هذا، فحُكمُها لَيِّنٌ على الأشخاص، لكنَّكَ تملك حيويَّةً ما؛ ولهذا السبب أعدَدتُ الأمور على طريقتي. لا شكَّ أن مارسيا أخبَرَتكَ كم أنا مُولَعٌ بالتَّحدِّيات".

"نعم"، الآن عرفت ما خَطبُ الباب في منتصف الجدار الزجاجي، كان الوقت منتصف الشتاء، ولا أحد يريد أن يشرب الشاي في شُرفَةٍ على ارتفاع ثلاثة وأربعين طابقًا. أُخلِيَت الشُّرفة من الأثاث، وأُزيل الستار عن الباب. الآن لماذا فعل كريسنر هذا؟

قال كريسنر وهو يُثبِّت سيجارةً أخرى في الحامِل: "لا أحبُّ زوجتي كثيرًا، هذا ليس سرًّا، أنا متأكِّد أنها أخبَرتكَ كما أتوقَّع، وأنا على يقين أن رَجُلًا بخِبرَتِك يدرك أن الزوجات القانعات لا يُمارِسن الجِنسَ مع لاعب تنس محترف عند سقوط مضرب التنس. في رأيي، مارسيا متزمِّتة، وفتاة شاحبة الوجه مُتصنِّعةٌ للحَياء، ومُتذمِّرة، وبَكَّاءة، ونَقَّالة للقيل والقال، و...".

"في هذا الكفاية". هكذا قُلتُ.

ابتسم في برودٍ، "أستَميحُكَ العُذر، لا أنفكُّ أنسى أننا نتناقش بخصوص محبوبتي، إنها الآن الثامنة وست عشرة دقيقة، هل أنت متوتِّر؟".

هَزَزتُ كتفي.

أشعل سيجارته وقال: "عنيدٌ حتى النهاية، عمومًا، ربَّما تتساءل عن السبب، إذا كنتُ لا أحبُّ مارسيا كثيرًا، فَلِمَ ببساطة لا أعطيها حُرِّيَّتها...".

"لا، أنا لا أتساءل على الإطلاق".

قطَّب لي وجهه.

"أنتَ أنانيٌّ، وجَشِع، وابن قحبة مُحِبٌّ لِذَاتِه، هذا هو السبب، لا أحدَ يأخذ ما هو لَكَ، حتى لو لم ترغب فيه بعد الآن".

احمرَّ وَجهُه ثم ضحك. "نقطة لصالحك يا سيد نوريس، جيِّد جدًّا".

هَزَزتُ كتفي ثانية.

"سأعرض عليك تحدِّيًا، إذا فُزتَ به، ستغادر من هنا مع المال، والمرأة، وحُرِّيَّتك، وعلى الناحية الأخرى، إذا خسرت، ستخسر حياتك".

نظـرتُ إلى السـاعة، لا حيلـةَ لي في الأمـر، كانـت السـاعة الثامنـة وتسـع عـشرة دقيقـة.

"حسـنًا". هـا قـد قُلتُهـا، مـاذا أيضًـا؟ قـد يمنحنـي هـذا المزيـد مـن الوقـت، أو عـلى الأقـل وقتًـا للتفكـير في طريقـة للهـرب مِـن هُنـا، بالمـال أو بدونـه.

رفع كريسنر سمَّاعة الهاتف بجواره، وطلب رقمًا.

"توني؟ الخطة رقم 2، نعم".

أُغلِق الخَطُّ.

سألت: "ما هي الخطة رقم 2؟".

"سـأتَّصِل بتـوني مُجـدَّدًا خـلال ربـع سـاعة، وسـيُخرِج المـواد المخالِفـة مـن صنـدوق سـيارتك، ويعـود بهـا إلى هنـا. إذا لم أتَّصِـل، سـيتَّصِل هـو بالشرطـة".

"لا يبعث الأمرُ كثيرًا على الثِّقة، أليس كذلك؟".

"تَعقَّـلْ يـا سـيد نوريـس، توجـد عـشرون ألـف دولار عـلى السـجادة بيننـا. في هـذه المدينـة، تُرتكَـبُ جريمـة القتـل مقابـل عشريـن سـنتًا".

"ما هو الرِّهان؟".

بدا مُنزَعِجًا على حَقٍّ.

"تحـدٍّ يـا سـيد نوريـس، تَحَـدٍّ، السـادة يخوضـون التَّحدِّيـات، والدُّهَـماء يضعـون الرِّهانات".

"أيًّا كان قولَكَ".

"ممتاز، رأيتك تتطلَّع إلى شُرفَتي".

"حاجز الباب مخلوع".

"نعـم، أزَلتُـه بعـد الظهـيرة، مـا أعرضـه عليـك هـو التـالي: أن تمـشي حـول البنايـة عـلى الإفريـز البـارز تحـت طابـق الشَّـقَّة العلويـة، فـإذا دُرتَ حـول البنايـة بنجـاح؛ فالجائـزة الكـبرى مـن نصيبـك".

"أنتَ مجنون".

"بالعكـس، عرَضـتُ هـذا التحـدِّي سِـتَّ مَـرَّاتٍ عـلى سـتة أشـخاص مختلفـين خـلال سـنواتي الاثنتـي عـشرة في هـذه الشـقة، ثلاثـة مـن أولئـك السِّـتَّة رياضيُّـون مُحترَفـون، مثلـك، أحدهـم كان لاعِـبَ ظهـير ربعـي سـيئَ السُّـمعَة، اشـتهر بفضـل إعلاناتـه التِّلفزيِّـة أكـثر مـن تمريراتـه الكرويـة، والثـاني لاعـب بيسـبول، والثالـث فـارِس سـباقات شـهيرًا، جنـى أجـرًا سـنويًّا غـير عـاديٍّ، وابتُـليَ أيضًـا بمشـاكل غـير عاديـة في نفقـات الطَّـلاق. الثلاثـة الآخـرون كانـوا مواطنـين عاديِّـين أكـثر، يشـغلون وظائـف متنوِّعَـة، ولكـن يجمعهـم شـيئان: الاحتيـاج للـمال ومسـتوى مُعـيَّن مـن رشـاقة الجسـد". نفـث دخـان سـيجارته متفكِّـرًا، ثـم واصـل الحديـث: "رُفِـضَ التحـدِّي دون تفكـيرٍ خَمـسَ مـرَّات، وقُبِـلَ التَّحـدِّي في مناسـبة أخـرى، كان الـشرط عشريـن ألـف دولار أو العمـل في خدمتـي سـتَّةَ أشـهر، فجمعـت المال. احتـاج الأمـر مـن الرجـل نظـرةً واحـدةً أسـفل حافَّـة الشرفـة، وكاد أن يُغمَـى عليـه". بـدا كريسـنر مُسـتَمتِعًا وسـاخِرًا. "قـال إن كلَّ شيء بالأسـفل بـدا فائِـقَ الصِّغَـر، هـذا مـا أتلـف أعصابـه".

"ماذا يَدفَعُكَ للتَّفكير...".

قاطَـعَ حديثـي بتلويـحٍ مُنزَعِـج بيَـدِه. "لا تُضجِـرْني يـا سـيد نوريـس، أظـنُّ أنَّـكَ سـتفعلها لأنـه ليـس لديـك خيـار، إمَّـا التَّحـدِّي في يَـدٍ، أو أربعـون عامًـا في سـجن سـان كوينـتن في اليَـدِ الأخـرى. المال وزوجتـي مـا هُـما إلَّا إضافـات للتدليـل عـلى طبيعتـي الخـيِّرة".

"أيُّ ضمـانٍ في يـديَّ أنـك لـن تخدعنـي؟ ربمـا سـأفعلها وأكتشـف أنَّـكَ اتَّصلـتَ بتـوني وأخبرتَـه أن يُبـاشِرَ الخُطَّـة عـلى أي حـال".

تنهَّد، "أنت بارانويا تسير على قدمَيْن يا سيد نوريس، أنا لا أحبُّ زوجتي، وجودها في الجوار لن يُسدي أيَّ نفع على الإطلاق لشخصي الأسطوري، عشرون ألف دولار بالنسبة لي مبلَغٌ زهيد، أدفع أربعة أضعاف هذا المبلغ كل أسبوع للجُباة من الشرطة، وبالنسبة لهذا التحدِّي، فعلى أيَّة حال...".

فكَّرتُ في الأمر، وتركني. أظنُّ أنه أدرك أن الهدف الفعلي مُقنِعٌ في ذاته، كنتُ مُشرَّدًا يلعب التنس في السادسة والثلاثين من عمره، وكان النادي يفكِّر في الاستغناء عني وقتما فرَضَت مارسيا بعضَ الضغوط الناعمة. كانت رياضةُ التِّنس مِهنَتي الوحيدة التي أعرفها، وبدونها؛ سيصعب عليَّ الحصول على عمل، حتى لو عامل نظافة، خاصَّة في وجود سِجِلٍّ رياضي. كانت مسألةً طفوليَّة، لكن رؤساء الأعمال لا يبالون.

والشيء الطريف أني أحبَبتُ مارسيا كريسنر، وقعتُ في حُبِّها بعد درسَيْ تِنِس عُقِدَا في الساعة التاسعة، ووَقَعَت في حبِّي بنفس الدرجة، كان الأمر مثالًا على حَظِّ ستان نوريس، حسنًا إذن. بعد سِتَّة وثلاثين عامًا من العزوبيَّة السعيدة، وقَعتُ مثل جوالِ رسائِلَ في حُبِّ زَوجَةِ زَعيم تنظيمٍ إجرامي.

توم العجوز يجلس هناك، نافثًا دخان سيجارته التركية المستوردة، عالِمًا بكل هذا طبعًا. وثمَّة شيء آخر كذلك، ليس لديَّ ضمانة أنه لن يُسلِّمني إذا لم أقبل تَحدِّيَه وأفوز به، لكنني أُدرِكُ حَقَّ الإدراك أني سأُسجَنُ بحلول الساعة العاشرة إذا لم أوافق، والمرَّة القادمة التي سأستَرِدُّ فيها حُرِّيَّتي ستكون مع بداية قرن جديد.

قلتُ: "أريد معرفة شيء واحد".

"ماذا عساه أن يكون يا سيد نوريس؟".

"انظُرْ إلى وجهي وأخبِرْني إن كنتَ سَتُخلِفُ وَعدَكَ أم لا".

نظر إليَّ مباشرة، وقال بهدوء: "سيِّد نوريس، أنا لا أُخلِفُ وعودي أبدًا".

قلتُ: "حسنًا"، أيوجد خيارٌ آخر؟

وقف مُبتَهِجًا. "ممتاز! حقًّا ممتاز! اقتَرِب معي من الباب والشُّرفة يا سيد نوريس".

تَمشَّينا معًا، وجهه وَجهُ رَجُلٍ حَلُمَ بهذا المشهد مئات المرَّات، مستمتعًا بتحقُّقه لأقصى مدى.

قال بنبرة حالِمَة: "عَرضُ الإفريز خمسة إنشات، قِستُه بنفسي، بل في الحقيقة وَقَفتُ عليه، مستمسكًا بالشُّرفة طبعًا، كلُّ ما عَليكَ فِعلُه أن تُخفض جَسَدَكَ تحت الدَّرابزين الحديدي، سترتفع بصَدرِك، ولكن بالطَّبع وراء الدرابزين لا يوجد شيء تُمسِكُ به، سيتحتَّم عليك التقدُّم ببُطءٍ على امتداد طريقك، حريصًا كل الحرص ألَّا تفقد توازُنَكَ".

تركَّزَت عيناي على شيءٍ آخر خارج النافذة، شيء ما جعل درجة حرارة دمائي تنخفض بضعةَ درجات، كان مقياسًا لسرعة الرياح.

كانت شقَّة كريسنر قريبةً من البحيرة، وعالية بما يكفي، دون وجودٍ لمبانٍ أعلى تعمل كمَصدَّات للرياح، ستكون الرِّيح باردةً، وقاطِعةً مثل سِكِّين. استقرَّت الإبرة عند عشرة بشيء من الثَّبات، لكنَّ زَوبَعةً ما قد ترفع الإبرة إلى خمسة وعشرين تقريبًا لبضع ثوانٍ قبل انخفاضها.

قال كريسنر بمَرَحٍ: :آهه... أرى أنك لاحَظتَ وجودَ مقياسي للرِّياح، في الحقيقة، الرياح تُسَيطِرُ على الناحية الأخرى؛ لذا قد يصير النسيم أقوى قليلًا في هذه الناحية. لكن في الحقيقة هذه ليلةٌ ساكِنة تمامًا، شَهِدتُ أمسياتٍ عَصَفَت فيها الرياحُ وصولًا إلى خمسة وثمانين، تشعر معها في الحقيقة أن المبنى يهتزُّ بعض الشيء، كمثل تواجُدِكَ على

سفينة، واقفًا داخل عُشِّ الغراب، والريح خفيفة في هذا الوقت من العام".

أشار بيده، ورأيت الأرقام المضاءة فوق قمَّة ناطحة سحاب بنكية ناحية اليسار، قالوا إنها أربعٌ وأربعون درجة، لكن مع الريح، سيوصل ذلك مُؤشِّرَ البرودة إلى نُقطَةٍ ما في منتصف التِّسعينات.

سألت: "ألَدَيكَ مِعطَف؟"، كنتُ أرتدي سُترةً خفيفة.

"وا آسفاه! لا".

تبدَّلَت الأرقام المضيئة على البنك كي تُظهر الوقت. كانت الساعة الثامنة واثنتين وثلاثين دقيقة، "وأظنُّ أنه يجب عليك البَدءُ يا سيد نوريس؛ حتى أتَّصِلَ بتوني لتفعيل الخُطَّة الثالثة، وماذا يكون الفتى الصالح سوى نَزُوعٍ نحو الاندفاع، أتفهمني؟".

فَهِمتُ كُلَّ شيء جيدًا، جيدًا جدًّا بحقِّ اللعنة.

لكن فكرة التواجد مع مارسيا، والفكاك من مخالب كريسنر مع أموالٍ كافية للبدء في شيء ما- جعلتني أدفع الباب الجرَّار الزُّجاجيَّ والخروج نحو الشرفة، كان الجوُّ باردًا ورطبًا، ونَفَشت الرِّيحُ شعري، فدَخَلَ في عينيَّ.

"بونسوار"، هكذا قال كريسنر من خلفي، لكني لم أُكلِّف نفسي عناء النظر ورائي. اقتربت من الدرابزين، لكني لم أنظر لأسفل، ليس بعدُ. بدأتُ آخذ أنفاسًا عميقة.

هذا ليس تمرينًا على الإطلاق، وإنما شكلٌ من أشكال التنويم المغناطيسي الذاتي. مع كل شهيقٍ وزفير، يتنامى خارج عقلك مصدرُ إلهاءٍ، حتى لا يتبقَّى شيءٌ سوى المباراة التي تنتظرك. تخلَّصتُ من الأموال بنَفَسٍ واحد، ومن كريسنر ذاته بنَفَسَيْن. احتاجت مارسيا وقتًا أطول، ظلَّ وَجهُها يبزغ داخل عقلي، مُخبِرَةً إيَّاي ألَّا أكون غبيًّا، وألَّا

ألعب لعبته، وأنه ربما لم يُخلِف كريسنر وعوده قَطُّ، لكنه دائمًا ما احتاط لرهاناته. لم أصغِ. لم أَقْوَ على ذلك. إذا خسرتُ هذه المباراة، لن أضطرَّ إلى شراء البيرة ونَيل السُّخرية، وإنما سأتحوَّل بشكلٍ كبير إلى تَرَسُّبٍ قُرمزيٍّ مُتناثِر عند امتداد بناية في شارع دايكمان على كلا الاتجاهين.

حين ظنَنتُ بامتلاكي الزمام، نَظَرتُ إلى الأسفل.

المبنى مُنحَدِر مثل جُرفٍ طباشيريٍّ أَملسَ يهبط عميقًا نحو الشارع. السيارات المصفوفة هناك تُشبِه قوالب عُلَب أعواد الثِّقاب التي تستطيع شراءها من متجر بيعٍ بالتجزئة، والسيارات المُساقة عند البناية مُجرَّد نقاط ضوء ضئيلة. إذا سقَطتَ من هذا الارتفاع، سيصير لديك مُتَّسَعٌ من الوقت كي تلحظ ما كان يحدث فحسب، وترى الرياح تنفخ ملابِسَك بينما تجذبك الأرض أسرعَ فأسرعَ. سيتَّسِع لديكَ الوقت كي تصرخ صرخةً طويلة طويلة، وسيصبح الصوت الذي تصنعه لحظةَ اصطدامك بالرصيف مثل صوت بطيخة متفسِّخة.

فَهِمتُ لماذا جَبُنَ الرَّجلُ الآخر، لكنه حمل هَمَّ سِتَّة أشهر فقط، وأنا أحدِّق، وكل ما أراه أربعون عامًا طويلة، كئيبة، خالية من مارسيا.

نظرت إلى الإفريز، بدا صغيرًا، لم أرَ قَطُّ خَمسةَ إنشات تبدو مُضاعَفةً لهذا الحَدِّ. على الأقل البناية جديدة تمامًا، فلن تنهار من تحت أقدامي.

رَجوتُ ذلك.

تأرجَحتُ على الدرابزين وأخفَضتُ جَسَدي بحرصٍ، حتى بِتُّ واقفًا على الإفريز، كانت ركبتاي على المهبط. أرضية الشرفة مرتفعة حتى الصدر تقريبًا، وكنت أنظر إلى شقة كريسنر العلوية عبر قضبان الحديد المُزخرَفَة. كان يقف وراء الباب، يدخِّن، ويراقبني مُراقَبةَ عالِمٍ لخنزير غينيٍّ؛ ليرى آخِرَ حُقنَةٍ سيستخدمها.

قلتُ وأنا مُمسِكٌ بالدرابزين: "أَجْرِ الاتِّصال".

"ماذا؟".

"اتَّصِلْ بتوني، لن أتحرَّك إلى أن تتَّصِل".

عـاد إلى الصالـة، بـدت دافِئـةً ومُريحَـة وآمِنَـة لدرجـة مُدهِشَـة، ورفـع سـمَّاعة الهاتـف. كانـت بـادِرةً لا قيمـةَ لهـا، صدقًـا. مـع الريـاح لم أفلـح في سـماع كلمـة مـمَّا كان يقولـه. أنـزل سـمَّاعةَ الهاتـف وعـاد.

"تمَّ الاعتناءُ بالمسألة يا سيد نوريس".

مكتبة
t.me/t_pdf

"يُفضَّل أن يكون كذلك".

"وداعًا يا سيد نوريس، أراك بعد قليل، ربَّما".

حـان وقتهـا، انتهـى وقـت الـكلام. أَدَعُ نفـسي تفكِّـر في مارسـيا مـرَّةً أخـيرة، في شَـعرِها البُنِّـيِّ الخفيـف، وعينَيْهـا الرَّماديَّتَـيْن الواسِـعَتيْن، وجسـدها الجميـل، ثـم أُخرِجهـا مـن عقـلي تمامًـا. لا مزيـد مـن النظـر أيضًـا لأسـفل. سـيكون مـن السـهولة بمـكان أن يصيبنـي العَجـزُ مـن النظـر لأسـفل عـبر هـذا الفضـاء. يسـهل جـدًّا أن تتجمَّـد فحسـب إلى أن تفقـد توازُنَـكَ أو يُغمَـى عليـكَ مـن الخـوف. حـان الوقـت للرؤيـة النَّفقيَّـة، والوقـت لعـدم التركيـز عـلى شيء سـوى القَـدَمِ اليُـسرى والقـدم اليُمنـى.

بـدأتُ التَّحـرُّك ناحيـة اليمـين، متمسِّـكًا بدرابزيـن الشرفـة لأطـول وقـتٍ مُمكِـن. لم يسـتغرقني الأمـر طويـلًا لأكتشـف حاجتـي لـكلِّ عضـلات التنـس التـي يملكهـا كاحِـلاي، ومـع ارتـكاز كعـوبي وراء الحافَّـة، يمكـن لتلـك الأوتـار أن تحمـل وزني كامـلًا.

وصَلـتُ إلى نهايـة الشرفـة، ولِلَحظَـةٍ لم أظُـنَّ أني قـادر عـلى التَّخـلِّي عـن هـذا الأمـان. أجـبَرتُ نفـسي عـلى فِعلهـا. خمسـة إنشـات، يـا للجحيـم، إنهـا مسـافَةٌ كبـيرة. لـو كان الإفريـز مـن البدايـة مجـرَّد قَـدمٍ بـدلًا مـن 400

قدم، كنتَ ستركض حول هذه البناية في أربع دقائق بالتمام والكمال، هكذا قُلتُ لنفسي؛ لذا تَظاهَرْ فَحَسبُ أنها كذلك.

نعم، وإذا أفلَتَت قَدمٌ عن الإفريز خارج الأرضية، قُلْ كلمة "جرذان!"، وحاوِلْ مَرَّةً أخرى؛ فهنا في الأعلى لديك فرصة واحدة فقط.

حَشَثتُ قَدمي اليُمنى قُدُمًا، ثم أتيتُ بِقَدَمي اليُسرى جوارها. ترَكتُ الدرابزين. فرَدتُ يديَّ للأعلى، سامِحًا لراحتَيْهما أن تستندا على الحجر الخَشِن للبناية السكنية. ربتت على الحجر، كان بمقدوري تقبيله.

خبَطَتني زَوبَعةُ ريح، فضَغَطَت ياقة سترتي على وجهي؛ مِمَّا جعل جسمي يميل عن الإفريز. قفز قلبي إلى حلقي وبقي هناك حتى سكنت الريح. كان يُمكِن لزوبعة قويَّة بما يكفي أن تُنزِلَني من عليائي، وتُرسِلَني لأطير في الليل. وستكون الريح أعتى في الناحية الأخرى.

أمَلتُ رأسي ناحية اليسار، ضاغطًا خَدِّي على الحجر. كان كريسنر يتَّكِئُ على الشرفة مُراقِبًا إيَّاي.

سأل بوداعَةٍ: "أتستَمتِعُ بوَقتِكَ؟".

كان يرتدي معطفًا بُنِّيًّا مصنوعًا من وبر الجِمال.

قلتُ: "ظَنَنتُ أنَّك لا تملك معطفًا".

ردَّ برصانة: "كذبتُ، أكذب بشأن أشياء عديدة".

"ماذا يُفترض أن يعني هذا الكلام؟".

"لا شيءَ، لا شيء على الإطلاق، أو ربما قد يعني شيئًا، حربًا نفسيَّة، صح يا سيد نوريس؟ ينبغي أن أخبرك ألَّا تتباطأ لوَقتٍ أطول ممَّا يجب؛ فالكاحلان يزداد تعبهما، وإذا انهارا..."، أخرَجَ تُفَّاحَةً من جيبه، وقضم منها قضمةً، ثم ألقاها على الإفريز. لم يصدر صَوتٌ لوقت

طويـل، وبعدهـا جـاء صـوت خافِـتٌ وكريـه، ضحـك كريسـنر ضحكـة مكتومـة.

شـتَّت انتباهـي، وشـعرتُ بالقلـق يقضـم أطـراف مخِّـي بأسـنان معدنيـة. سيلٌ عـارِمٌ مـن الخـوف يتـوق لأن يسـارع ويُغرقنـي، أدَرتُ رأسي بعيـدًا عنـه، وتنفَّسـتُ بعُمـق، دافعًـا القلـق بعيـدًا. كنـت أنظـر إلى لافتـة البنـك المضيئـة، والتـي تشـير إلى السـاعة الآن الثامنـة وسـتٍّ وأربعـين دقيقـة، آن آوان الإيـداع في صنـدوق مشـترك!

مـع الوقـت، باتـت الأرقـام المضيئـة هـي الثامنـة وتسـعًا وأربعـين دقيقـة، شـعرت أني ملَكـتُ زمـام نفسـي ثانيـة. أظـنُّ أن كريسـنر حكـم أني تَجمَّـدتُ لا محالـة، وسـمعت طقطقـةً سـاخرة مـن التصفيـق حـين بـدأت المسـير نحـو زاويـة البنايـة مجـدَّدًا.

بـدأت أشـعر بالـبرد. أثـارت البحـيرة حافَّـةَ الريـح، وعضَّـت رطوبَتُهـا النَّدِيَّـةُ جلـدي مثـل برِّيمـة حفـر. تلاطَمَـت سُـترَتي الخفيفـة مـن خلفـي في أثنـاء مسـيري قُدُمًـا. تحرَّكـتُ ببُـطء، سـواء شـعرت بالـبرد أم لا. إذا كنـت سـأفعلها، علـيَّ السـير ببـطء وتريُّـث، وإذا تعجَّلـتُ سـأقع.

أشـارت سـاعة البنـك إلى الثامنـة واثنتـين وخمسـين دقيقـة حـين وصلت إلى الزاويـة، لم يَبـدُ الأمـر مُشـكِلةً؛ فالإفريـز يـدور في كافَّـة النواحـي؛ مـمَّا يصنـع زاويـةً مُربَّعـةً، لكـن يـدي اليمنـى تُحدِّثنـي بوجـود ريـح مُعاكسـة. إذا ضُبِطـتُ وأنـا أميـل نحـو المسـار الخاطـئ، سـأقطع مسـافةً طويلـة بسرعـة فائقـة.

انتظَـرتُ هـدوء الريـاح، لكنهـا أَبَـت لوَقـتٍ طويـل أن تهـدأ، كأنهـا حليـفٌ مُـوالٍ لكريسـنر، صفَعَتنـي بأصابِـعَ خَفيَّـة وحشـيَّة، تقضـم وتنغـز وتَخِـزُ. في النهايـة، بعـد زوبعـة قويَّـة بعينهـا زعزعـت وقفتـي علـى أطـراف أصابعـي، أدرَكـتُ أني سـأنتظر للأبـد ولـن تهـدأ الريـاح علـى طـول الطريـق.

لـذا في المرة التاليـة حـين سَـكَنَت قليـلًا، حرَّكـتُ يـدي اليُمنـى للاتِّجـاه المعاكـس، وتشـبَّثتُ بالجدارَيْـن بكلتـا يـديَّ، واسـتَدَرتُ. دفعتنـي الريـاح المتعامـدة في اتِّجاهَـيْن في آنٍ واحـد، وترنَّحـتُ. لمـدة ثانيـة، كنـتُ متأكِّـدًا بشـكلٍ مُقـزِّز أن كريسـنر فـاز بتحدِّيـه، ثـم تَزلَّقـتُ خطـوةً إضافيـة للأمـام وضغطـتُ نفـسي بقـوة قبالـة الجـدار، وانسـحَبَت زفـرَةٌ مكتومـةٌ مـن حلقـي الجـاف.

كان هذا حين اختفى الصوت الساخر بالكاد من أذنيَّ.

ويـا لدهشـتي حـين تقهقَـرتُ إلى حافَّـة التـوازن ذاتهـا. فقَـدَت يـدي الجـدار، والتفَّـت بجنـون مثـل دولاب هـوائي باحِثـةً عـن التـوازُن. ظنَنـتُ أنـه إذا اصطدَمَـت إحداهـما بالوجـه الصخـري للبنايـة، لكُنـتُ في خـبر كان. لكـن بعـد وقـتٍ -بـدا سرمديًـا- قـرَّرَت الجاذبيـة أن تتركنـي أعـود إلى الجـدار بـدلًا مـن أن تُرسِـلَني نحـو الرصيـف مـن عـلى ارتفـاع ثلاثـة وأربعـين طابقًـا.

خرَجَـت شـهقاتي مـن رئتـيَّ في صفـيرٍ مُوجِـع، وتَمطَّـت قدمـاي، وأوتـار كاحـليَّ تطنَّـان مثـل سِـلك الجهـد العـالي. لم أشـعر قَـطُّ مـن قَبـلُ أني فـانٍ لا محالـة. الرجـل ذو المنجـل قريـبٌ بمـا يكفـي كي يطَّلِـع عـلى مـا أفعلـه.

لويـتُ عُنُقـي، ونظَـرتُ، كان كريسـنر واقفًـا، مُنحَنِيًـا مـن نافـذة غرفـة نَومِـه فوقـي بأربعـة أقـدام، مبتسـمًا، ممسـكًا في يـده اليمنـى صفـارة ليلـة رأس السـنة.

قال: "أُبقيكَ فَحسبُ على أطراف أصابِعكَ".

لم أهـدر أنفـاسي. لم أعُـد قـادرًا عـلى التَّفـوُّه بأكـثر مـن صـوتٍ أجـشّ. كان قلبـي يُجَلجِـلُ بجنـون في صـدري، مشـيتُ خمـسَ أو سِـتَّ أقـدامٍ للأمـام عـلى مهـل، فقـط في حـال تفكـيره أن يطـلَّ عـليَّ ويمنحنـي دفعـة جيـدة، ثـم توقَّفـت وأغمضـت عينـيَّ وتَنفَّسـتُ بعُمـقٍ حتـى اسـتَجمَعتُ شَـتات نفـسي مـن جديـد.

كنتُ على الجانب القصير من البناية الآن. من على يميني تكتَّلَت من فوقي أعلى أبراج في المدينة. ومن اليسار الحلقة المُظلِمَة للبحيرة فحسب، مع بضعة نقاط ضوئيَّة حامت فوقها. صخبت الريح وأنَّت.

لم تكُن الريح المتعامدة عند الزاوية الثانية شديدةَ المراوغة، ونَجَحتُ في الالتفاف دون أي مشاكل، ثم عضَّني شيء ما.

لهَثتُ وارتعشت. أخافني تَغيُّر التوازن، وضغطت يداي بشدَّة على الجدار. تعرَّضتُ للعض ثانية، لا ليس عضًّا وإنما نَقْرٌ. نظرتُ إلى الأسفل.

كان يوجد حَمامٌ واقف على الإفريز، ينظر بأعيُن برَّاقة حاقِدَة.

تعتاد على وجود الحمام في هذه المدينة، فهو مُنتَشِرٌ مثل سائقي سيارات الأجرة الذين لا يملكون فكَّة عشرة دولارات، لا يحبُّ الطيران، ويتنازل عن الأرض على مَضَضٍ، كما لو كانت الأرصفة مِلكًا له بوَضعِ اليَد. أي نعم، وعليك الاستعداد للعثور على آثار تواجُدِه على غطاء سيَّارتك، لكنك لا تنتبه كثيرًا. قد يزعجك بِشَكلٍ عارِض، لكنه متطفِّلٌ في عالمنا.

لكني صِرتُ الآن في عالَمِه، قليل الحيلة تقريبًا، وبدا أنه يعلم هذا. نقَرَ كاحلي الأيمن المُتعب ثانيةً، مُرسِلًا دَفقَةً خفيفة من الألم إلى أعلى ساقي.

زمجَرتُ له: "امشِ، اخرج من هنا".

نقَرَني الحَمامُ مرَّةً أخرى فحسب. من الواضح أني كنتُ متواجدًا فيما اعتبره منزله، حيث غُطِّي هذا الجزء من الإفريز بالفضلات القديمة والجديدة.

زقزقة صامتة من أعلى.

لوَيتُ عُنُقي لأبعد ما يمكن الوصول إليه، ونظرت. انقضَّ منقار على وجهي، وبالكاد ارتدَدتُ إلى الوراء. لو كان انقضى أمرى، لَصِرتُ أوَّلَ قتيلٍ في المدينة بسبب حمامة، كانت حمامَةً أمًّا، تَحمي بضعة أفراخ تحت البروز الهَزيل للسطح، عالٍ جدًّا على أن أشرَئِبَّ إليه، حَمدًا للرَّبِّ.

نقَرَني زوجها ثانية، والآن سال الدم، شعرت به. بدأت أتحسَّس طريقي ثانية، على أمل أن أهشَّ الحمام عن الإفريز. مُحال، فالحمام لا يخاف، ليس حمامَ المدينة على أي حال. لو كان لشاحنة متحرِّكة أن تدفعه إلى الإسراع قليلًا، فلن يَقدِرَ رَجُلٌ مُعلَّق على إفريزٍ عالٍ على إزعاجهم البَتَّة.

تراجع الحَمَامُ حين جرجَرتُ ساقيَّ إلى الأمام، لم تُفارِق أعينهم البرَّاقَةُ وجهي حين انحدر المنقارُ الحاد لينقر ركبتي. واشتدَّ الألم الآن. الطائر ينقر لحمًا نيِّئًا ويأكله على حسب علمي.

ركلته بقدمي اليمنى. كانت ركلة ضعيفة، الشيء الوحيد الذي استطَعتُ إليه سبيلًا. رفرف الحمام بجناحيه قليلًا فقط ثم عاود الهجوم، وأنا، على الناحية الأخرى، انصرَفتُ إلى الطرف.

نقرني الحمام ثانية، وثالثة، ورابعة. ضربتني نفحَةُ ريحٍ باردة، مُؤرجِحَةً إيَّاي على حافَّة التَّوازُن، واحتكَّت رؤوس أصابع يداي بالحجر الأملس، وتأتَّى لي أن أستند مع ضغط خدي الأيسر قبالة الجدار، مُتنفِّسًا بصعوبة.

ما كان سيخطر في بال كريسنر وسيلةَ تعذيبٍ أشنع لو خَطَّط للأمر على مدار عشر سنوات. نقرة واحدة ليست بهذا السوء، اثنتان أو ثلاثة ستكونان أسوأ قليلًا، لكن هذا الطائر اللعين نقرني حتمًا ستِّين مرَّةً، إلى أن وصلت إلى الدرابزين الحديدي المسبوك للشَّقَّة العلوية المقابِلَة لشقَّة كريسنر.

الوصـول إلى هـذا الدرابزيـن يُشـبِه الوصـول إلى أبـواب الفـردوس. التفَّـت يـدي بلُطـفٍ حـول القوائـم البـاردة وتمسَّـكَت بهـا كـما لـو كانـت لـن تُفلِتَهـا.

نقرة.

كان الطائـر يُحَملِـقُ إليَّ بنظـرةٍ شـبه مُتعَجرِفَـة مـن عينـين برَّاقَتَـيْن، واثقًـا مـن ضعفـي ومـن حصانتـه. تذكَّـرتُ عبـارة كريسـنر حـين قـادني خـارج الشرفـة في الجهـة الأخـرى مـن البنايـة.

ومـع قبضـةٍ أَشـدَّ عـلى القضبـان الحديـد، انهلـت بركلـة شـديدةٍ وقويـة، وأمسـكت الحـمام مبـاشرة. أصـدر هديـلًا مُرضِيًـا تمامًـا وارتفـع في الهـواء، ورفـرف بجناحيـه. اسـتقرَّت بضـع ريشـات ذات لـون رمـادي حمامـي عـلى الإفريـز أو اختفـت ببـطء في الظـلام، حائِمـةً في الهـواء جيئـةً وذهابًـا مثـل قـارب عـلى شـكل بجعـة.

مـع لهـاثي، زحَفـتُ إلى الشرفـة وانهـرت هنـاك، كان جسـدي يقطـر عَرَقًـا رغـم الـبرد. لا أعـرف كـم مـن الوقـت اسـتلقيتُ هنـاك حتـى أتعـافى. أخفَـت البنايـةُ سـاعةَ البنـك، وأنـا لا أرتـدي سـاعَةَ يَـدٍ.

جلسـت قبـل أن تتيبَّـس عضـلاتي، وأنزلـت جـوربي ملفوفًـا بعنايـة. الكاحـل الأيمـن مجـروحٌ وينـزف، لكـنَّ الجُـرحَ بـدا سـطحيًّا، ومـع ذلـك، ينبغـي عـليَّ الاعتنـاء بـه، إذا خرَجـتُ مـن هنـا أصـلًا. الـرَّبُّ يعلـم أي جراثيـم يحملهـا معـه الحـمام. فكَّـرتُ في تضميـد الجلـد الدامـي، لكنِّـي قَـرَّرتُ ألَّا أفعـل. قـد أجـد لفافـةً للجـروح في وقـتٍ لاحـق بمـا يكفـي، عندئـذ يمكننـي شراء ضِـمادات بعشريـن ألـف دولار.

وقفـتُ وتطلَّعـتُ بشـوقٍ إلى الشـقة العلويـة المظلِمـة قُبالـةَ شـقَّة كريسـنر، قاحلـة وخاويـة ولا أحـد يعيـش فيهـا، كان البـاب الثقيـل الحاجـز للعواصـف فـوق هـذا البـاب. ربمـا أقـدر عـلى الاقتحـام، لكـن هـذا قـد يُخسِّـرني الرهـان، ولـديَّ مـا أخسـره أكـثر مـن المـال.

حين لم أَعُد قادرًا على التأجيل أكثر من ذلك، تسلَّلتُ فوق الدرابزين عائدًا إلى الإفريز، والحمام الذي تساقط منه بضع ريشات يقف دانيًا عند عُشِّ قرينَتِه حيث يتكاثف الذُّراق على أشُدِّه، مُتطلِّعًا إليَّ في بؤس، لكني لا أظنُّ أنه سيضايقني، ليس حين لاحظ ابتعادي.

كان الابتعاد صعبًا جدًّا، أصعب ممَّا تستَلزِمُه مغادرة شرفة كريسنر، أدرك عقلي وجوب فعل هذا، لكن جسدي، وخاصة كاحلاي، يصرخ بأنه من الحماقة تَركُ ملاذٍ آمِنٍ كهذا، لكني تركته، ووجه كريسنر في الظلام يحثُّني.

وصَلتُ إلى الجانب الآخر القصير، وبات الأمر وشيكًا، وجَرجَرتُ قدميَّ ببُطء في نطاق البناية. والآن وأنا أقترب، يُراوِدُني إلحاحٌ يَصعُب السيطرة عليه كي أسرع لأنتهي من الأمر برُمَّته، لكني لو أسرَعتُ سأموت؛ لذا أجبرتُ نفسي على المُضيِّ ببُطءٍ.

جاءتني الريح المتعامِدةُ ثانيةً عند الزاوية الرابعة، وتسلَّلتُ حوله بفضل الحَظِّ أكثر من المهارة. استَرَحتُ قُبالةَ البناية مستعيدًا أنفاسي. لكني أدرَكتُ لأول مرة أني سأنجح، أني سأفوز. بَدَت يداي مثل شرائح لحم شبه بارِدَة، وكاحلاي يؤلمانني مثل النيران (خاصَّة أن الحمام نقر كاحلي الأيمن)، وظلَّ العَرَقُ يتدفَّق إلى عيني، لكني عرفت أني سأنجح. في منتصف الطريق على امتداد البناية، تسرَّب ضوءٌ أصفر هادئ من شرفة كريسنر.

رأيتُ من بعيدٍ لافِتةَ البنك تشعُّ مثل لافتة الترحيب. كانت الساعة العاشرة وثماني وأربعين دقيقة، لكن يبدو لي أني قَضَيتُ حياتي بأَسْرِها على هذا الإفريز ذي الخمس إنشات.

وليكن الرَّبُّ في عون كريسنر إذا حاولَ إخلاف وعده، اختفت الرغبةُ في الإسراع، وتوانَيتُ تقريبًا. كانت الساعة الحادية عشرة وتسع دقائق حين وَضَعتُ يدي اليمنى للمرة الأولى على الدرابزين الحديد

المسبوك ثم يدي اليسري. سحبت نفسي إلى الأعلى، وشقَقتُ طريقي نحو القِمَّة، وانهرت على الأرض في سعادة، وشعرت بالفوَّهة الصُّلبة الباردة لمسدَّس عيار 45 موجَّهة نحو صدغي.

نظرتُ إلى أعلى، ورأيتُ تابِعًا قبيحًا بما يكفي لإيقاف ساعة بيج بن عن عَمَلِها الآلي، وكان يبتسم ابتسامةً عريضةً.

"ممتاز". هكذا صاح كريسنر من الداخل. "أحيِّيكَ يا سيد نوريس!"، واستمرَّ فقط في التَّحيَّة. "أَحضِرْه إلى الدَّاخل يا توني".

سحَبَني توني إلى الأعلى وأوقفني على قدميَّ فجأةً، حتى إنَّ كاحِلَيَّ التويا تقريبًا، وفي أثناء الدخول، ترنَّحتُ عند باب الشُّرفَة.

كان كريسنر واقفًا أمام مدفأة الصَّالَة، يحتسي البراندي من كأسٍ بحجم حوض سمك. أعيد المالُ إلى حقيبة التَّسوُّق الواقفة في سكونٍ في منتصف السَّجَّادة ذات اللون البرتقاليِّ المحروق.

اقتنَصتُ نظرةً إلى ذاتي في مرآةٍ صغيرة في الجانب الآخر من الغُرفَة، كان الشَّعرُ أشَعثَ، والوجه شاحِبًا، ما عدا بُقعَتَيْن ناصِعَتَيْ اللون على الخدود، وبدت العينان مجنونتَيْن.

حَظَيتُ بنظرةٍ خاطفة فقط؛ لأني طِرتُ في اللحظة التالية عبر الغرفة، اصطَدَمتُ بالكرسي الباسكي ووقَعتُ عليه، جاذِبًا إيَّاه من فوقي، ليُجنَّ جُنوني.

حين أرجَعتُه لوضعه، جلستُ وتدبَّرتُ أمري: "أيُّها المُخادِعُ الخسيس، أنتَ دَبَّرتَ هذا".

قال كريسنر وهو يضع كأس البراندي بحرصٍ على الرَّفِّ: "فَعَلتُها بالتأكيد، لكنني لست مُخادِعًا يا سيد نوريس، بالطبع لا، مجرَّد خاسر في أوج غضبه، توني متواجِدٌ فقط كي يتأكَّد أنك لن تفعل شيئًا.. إنه يفتقر إلى الحكمة".

وضـع أصابعـه تحـت ذقنـه، وضحـك قليـلًا في خفـوت، لم يَبـدُ مثـل خـاسِرٍ في أوج غضبـه، بـل بـدا أكـثر مثـل قِـطٍّ مـع ريـش طائـر كنـاري عـلى خطمـه. قُمـتُ، شـاعِرًا فجـأة أني خائـف أكـثر مـمَّا كنـتُ عليـه وأنـا عـلى الإفريـز.

قلتُ على مهل: "أنتَ أَصلحتَ الأمور، أَصلَحتَها بطريقةٍ ما".

"كَلَّا عـلى الإطـلاق، أزَلنـا الهيرويـن من سـيارتك. السـيارة نفسـها أُعيدَت لمكانهـا في المـرآب. وهـا هـو المال هنـاك. يُمكِنُـكَ أن تأخـذه وترحل".

قلتُ: "حسنًا".

وقـف تـوني بمحـاذاة البـاب الزجاجـي عنـد الشرفـة، مـا زال يبـدو مثـل شيء مـتروك منـذ الهالوويـن. مُسـدَّس الــ 45 في يـده. مشـيتُ إلى حقيبـة التسـوُّق، وأمسـكتها، وتوجَّهـتُ نحـو البـاب عـلى كاحِـليَّ المُهتاجَـيْن، مُتوَقِّعًا تمـام التوقُّـع أنـه سـيقتلني، لكنـي حـين فتحـتُ البـاب، بـدأ يجتاحنـي نفـس الشـعور الـذي شـعرته حـين كنـتُ عـلى الإفريـز، ودُرتُ حـول الزاويـة الرابعـة، وهـي أني سـأنجح.

أوقفني صوت كريسنر الخامل المبتهج.

"أنـتَ لا تظـنُّ حقًّـا أن خُدعـة حـمَّام السـيدات انطلـت عـلى أحـد، أليـس كذلـك؟".

استَدَرتُ ببطء، وحقيبة التسوُّق في يدي، "ماذا تقصد؟".

"أخبَرتُـكَ أني لسـت مُخادِعًـا، وأنـا لا أخـادع أبـدًا، أنـتَ فُـزتَ بثلاثـة أشـياء يـا سـيد نوريـس: المـال، وحريتـك، وزوجتـي. في حوزَتِـكَ أول شـيئين، ويمكنـك الحصـول عـلى الثالثـة مـن مشرحـة المقاطَعَـة".

حَملَقتُ إليـه، دون قُـدرَةٍ عـلى الحركـة، مُتجمِّـدًا في رِعـدَةٍ خرسـاء مـن الصَّدمة.

سألني بصوتٍ مُشفِق: "أنتَ لم تَظُنَّ حقًّا أني سأدَعُكَ تحصل عليها، أوه لا، بالنسبة للمال: نعم، وحُرِّيَّتِكَ: نعم، لكن مارسيا لا، ومع ذلك فأنا لست مُخادِعًا، وبعد أن تدفنها...".

لم أقترب منه، ليس في التَّوِّ، وإنما لاحقًا. مشيتُ نحو توني الذي بدا مندهشًا بعض الشيء، إلى أن قال كريسنر بصوتٍ مَلول: "أطلِقْ عليه النار يا توني".

قذفتُ حقيبة الأموال، واصطَدمتُ مباشرة بيده الحامِلَة للمسدس، وخبَطتُه بقوَّة. لم أستخدم يديَّ ورسغيَّ هناك، وهما أفضل جُزأَيْن لدى أي لاعب تنس. انطلَقَت رصاصته نحو السجادة ذات اللون البرتقالي المحروق، ثم تولَّيتُ أمره.

كان وجهه أقسى ما فيه، انتزعت السِّلاح من يده، وضربته بفوهة المسدَّس على جسر الأنف، وسقط مُصدِرًا نخرةً واحِدةً مُتَعَبة غريبة، وبدا مثل روندو هاتون.

كريسنر كان خارِجَ الباب تقريبًا حين أطلقت رصاصة فوق كتفه قائلًا: "قِفْ عندك، وإلا ستَمُت".

فكَّر في الأمر وتوقَّف، وحين استدار، تجمَّد رَدُّ فِعله المُنهك المعتاد من أهل العالم، وتجمَّد أكثر حين رأى توني راقدًا على الأرض مختنقًا في دمائه.

قال بسرعة: "إنها لم تَمُت، كان عليَّ إنقاذ ما يُمكِنُ إنقاذه، أليس كذلك؟"، ابتسمَ لي ابتسامةً سقيمةً كأنه يأكل الجبن.

قلتُ: "أنا فاشِلٌ، لكني لست فاشلًا لهذه الدرجة"، بدا صوتي لا حياةَ فيه، مَيِّت، لِمَ لا؟ كانت مارسيا حياتي، وهذا الرجل وضعها على طاولة تشريح.

بإصبع ترتعش بخِفَّة، أشار كريسنر إلى المال المبعثر حول قَدَميْ توني، وقال: "هذا، هذا مُجرَّد طعامٍ للدَّجاج، يمكنني أن أعطيك مائة ألف، أو خمسة، أو ماذا عن مليون، والمبلغ بأكمله في حسابٍ بَنكيٍّ في سويسرا؟ ما رأيُكَ في هذا؟ ما رأيُكَ...".

قلتُ على مهلٍ: "سأعقد معك رهانًا".

نظر من فوَّهة المسدَّس إلى وجهي "آآ...".

كرَّرتُ كلامي: "رِهانٌ، وليس تحدِّيًا، مجرَّد رهانٍ قديم وبسيط، سأراهن أنك لن تستطيع السير حول هذه البناية على الإفريز في الخارج هناك".

شحب وجهه شحوب الموت، ظنَنتُ لهُنَيهَةٍ أنه سيُغمَى عليه.

همس: "أنتَ...".

قلتُ بصوتي الميِّت: "إليكَ جائِزةَ الرِّهان: إذا نجَحتَ، سأتركك لحال سبيلك، ما رأيك في هذا؟".

همس: "لا!، كانت عيناه ضخمتَيْن ومُحدِّقتَيْن.

قلتُ: "حسنًا"، ورَدَدتُ زناد المسدَّس.

قال وهو يهزُّ يديه: "لا! لا! إيَّاكَ! أنا.. حسنًا"، ولَعَقَ شَفَتيْه.

تحرَّكتُ مع المسدس، وسبقني للخارج نحو الشرفة، قلتُ له: "أنت ترتعش، ستُصَعِّب الأمر على نفسك".

قال: "مليونان..."، ولم يَعلُ صَوتُه لأكثر من نحيبٍ مبحوح، "مليونان بأوراقٍ نَقديَّة غير مُؤشَّرة".

قلتُ: "لا، ولا حتى بعشرة مليون، لكن لو نجحت، ستذهب دون مقابل، أنا جادٌّ في كلامي".

بعدها بدقيقة كان يقف على الإفريز. كان أقصرَ مني، يمكنك فحسب أن ترى عينيه من فوق الحافَّة، واسعتَيْن ومُتَضرِّعَتَيْن، ومفاصل يدَيْه البيضاء تقبضان على الدرابزين الحديد مثل قبضان السجن.

همس: "أرجوكَ، سأعطيك أي شيء".

قلتُ: "أنت تُضيع الوقت، وتستنزف كاحِلَيْكَ".

لكنه لم يستطع التَّحرُّك حتى وَضَعتُ فوَّهةَ المسدس قبالة جبهته، ثم بدأ السير متثاقلًا ناحية اليمين وهو ينوح. ألقيتُ نظرة على ساعة البنك، كانت الساعة الحادية عشرة وتسعًا وعشرين دقيقة.

لم أتخيَّل أنه سينجح في الوصول حتى الزاوية الأولى، لم يرغب في التَّزحزُح على الإطلاق، وحينما فعلها، تحرَّك مُرتَعِشًا، مُجازِفًا بنقطة توازنه، وانتفخ ثوبه بالهواء في الليل.

اختفى عند الزاوية وعن مجال النظر في الدقيقة الأولى بعد الساعة الثانية عشرة. منذ أربعين دقيقة مَضَت تقريبًا، استَمَعتُ عن كثب بحثًا عن صرخة واهِنَة مع وصول الرياح المتعامِدة إليه، لكنها لم تأتِ. ربما انخفض منسوبُ الرِّيح، أتذكَّر تفكيري في وقوف الريح في صَفِّه حين كنتُ في الخارج، أو ربما كان محظوظًا فحسب، ربما هو عند الشرفة الأخرى الآن، يرتعش على حين غِرَّة، خائفًا من التقدُّم خطوةً أخرى.

لكنه ربما يعلم أنه إذا أمسَكتُ به هناك وهو منهارٌ عند الشقَّة العلوية الثانية، سأطلق عليه الرصاص مثل الكلب، وبالحديث عن الناحية الأخرى من البناية، أتساءل عن إحساسه حيال الحمام.

أكانت هذه صرخة؟ لا أعرف، ربما كانت الريح، لا يهمُّ، تشير ساعة البنك إلى الثانية عشرة وأربع وأربعين دقيقة. عمَّا قريب سأقتحم الشقَّة الأخرى وأتفحَّص الشُّرفَة، ولكن في اللحظة الراهنة

أنـا جالِـسٌ فحســب في شرفـة كريســر ومســدَّس تـوني عيـار45 في يـدي، فقـط مـن أجـل احتماليَّـةِ وصولـه عنـد الزاويـة الأخـيرة مـع ردائـه المنتفـخ بالهـواء مـن ورائـه.

قال كريسر إنه لم يُخادِع بخصوص رهان.

بينما أنا معروفٌ بهذا.

جَزَّازُ العُشب

في السَّـنوات الماضيـة، افتخـر هارولـد باركيـت بمَـرجٍ عُشـبِه الأخـضر، وامتلـك جَـزَّازة عُشـبٍ فضِّيَّـة كبـيرة، وكان يدفـع خمسـة دولارات لفتًـى مـن الحَـيِّ في عمليـة الجَـزِّ الواحـدة كي يشـغلها. في تلـك الأيـام، تابـع هارولـد باركيـت فريـق بوسـطن ريـد سـوكس عـبر المذيـاع، مـع عُلبَـةِ بـيرةٍ في اليَـدِ، ومعرفـة بوجـود الـرَّبِّ في ملكوتـه، وأن كل شيء في العـالم عـلى مـا يُـرام، بمـا في ذلـك مَـرجُ العُشـب. لكـن في العـام الفائـت، وفي منتصـف شـهر أكتوبـر، اقـترف القَـدَرُ مـع هارولـد باركيـت خُدعـةً دَنيئـةً، فبينـما كان الفتـى يَجـزُّ العُشـب للمـرَّة الأخـيرة في الموسـم، طـارد كلـبُ آل كاسـتونمير قِـطَّ آل سـميث حتـى انتهـى بـه المطـاف أسـفل الجـزَّازة.

تقيَّـأَت ابنـةُ هارولـد ثمـن جالـون مـن شراب كـول- إيـد بنكهـة الكـرز في حِجـر سُـترَتِها الجديـدة، وبعدهـا راوَدَت الكوابيـس زوجتـه أسـبوعًا، وعـلى الرغـم أنهـا جـاءت بعـد الواقعـة، فقـد وصَلَـت في لحظتهـا لـترى هارولـد والفتـى مُخـضرَّ الوجـه ينظِّفـان الشـفرات. وقفـت ابنتهـما

والسيدة سميث من كَثَبٍ تنتحبان، رغم أن إليسيا أخذت ما يكفي من الوقت كي تُبدِّل بنطال الجينز وواحدة من القمصان الصوفيَّة الضَّيِّقة المقرفة بسُترتِها، كانت تُكِنُّ الإعجاب للفتى جزّاز العُشب.

بعد أسبوع من الاستماع إلى نُواح زوجته واضطرابها في الفراش المقابل، قرَّر هارولد أن يتخلَّص من جزَّازة العشب. افترض أنه لم يكن يحتاج أصلًا لجزَّازةِ عُشبٍ. في هذا العام عيَّن صَبيًّا، وفي العام القادم سيُعيِّن صبيًّا ويأتي بجزَّازة عُشب، وربما تتوقَّف كارلا عن النواح في نومها، وربما يمارس الجنس مرة أخرى.

لذا حمل جزَّازة العُشب الفضية إلى محطة سونوكو عند "فيل"، وقايَضَها مع "فيل"، وخرج هارولد بعَجَلة سيَّارة كيلي بلاكويل جديدة، وخزَّان معبَّأ بالوقود عالي الأوكتان، ووضع فيل جزَّازة العُشب الفضِّيَّة على واحدة من ماكينات ضخِّ البنزين، واضعًا عليها لافتة "للبيع" بخَطِّ اليد.

في هذا العام، ظلَّ هارولد يؤجِّل تعيين الفتى رغم الضرورة، وحينما تسنَّى له أخيرًا أن يتَّصِل بفتى العام الماضي، أخبرته أمُّه أن فرانك التحق بجامعة الولاية، هزَّ هارولد رأسه مُتعجِّبًا واتَّجه إلى الثلاجة ليأتي بعلبة بيرة. الوقت حتمًا يطير، أليس كذلك؟ يا إلهي! نعم.

أجَّل مَهمَّة تعيين فتى جديد بينما انسرب شهر مايو أولًا ومن بعده يونيو وراءه، وواصل فريق ريد سوكس التَّخبُّط في المركز الرابع. كان يقعد في الرواق الأمامي في عطلات نهاية الأسبوع، مراقبًا في كآبةٍ ما لم يَشهَده من قبل من توافُدٍ لا نهائي للفتية الصغار قبل أن يأتي من بينهم مَن يُردِّد تحيَّةً سريعة قبل أن يصطحب ابنته ممتلِئَة الثَّديَيْن إلى سينما السيارات المحلية، ونما العشب وترعرع بشكل بديع. كان صيفًا طيِّبًا للعُشب، ثلاثة أيام من الإشراق تلاها يوم من الإمطار الرقيق، في انتظام شبه آليٍّ تقريبًا.

بحلول منتصف شهر يوليو، صار المَرجُ أشبَهَ بروضة أكثر من كونه باحَةً خلفية في الضواحي، وبدأ چاك كاستونمير يلقي كلَّ صنوف النِّكات غير المُضحكة، وأغلبها يتعلَّق بأسعار التبن والبرسيم، كما اتَّخَذته چيني -ابنة دون سميث ذات الأربع سنوات- مخبأً حين يكون الشُّوفان وجبةَ الإفطار، والسبانخ وجبةَ العشاء.

ذات يوم في نهاية يوليو، خرج هارولد إلى الفِناء بين نصفَيْ الشوط السابع من المباراة، ورأى حطَّابًا يقعد مبتهجًا على الممشى الخلفي المكسوِّ بالعشب، وقرَّر أنه حان الوقت. أطفأ المذياع، وأمسك بالجريدة، وفتح صفحة الإعلانات المبوَّبة، وفي أثناء تصفُّحه عمود وظائف الدوام الجزئي، عثر على هذا: نَجِزُّ العُشب، بأسعار معقولة، 7762390.

اتَّصل هارولد بالرقم، مُتَوقِّعًا أن تجيبه ربّةُ منزل تكنس بالمكنسة الكهربائية وتصيح منادِيةً على ابنها، وبدلًا من هذا جاء صوتُ شخصٍ احترافي بعض الشيء: "باسترول لخدمات البَستَنَة والأماكن المفتوحة، كيف نساعدك؟".

أخبر هارولد صاحِبَ الصوت بحَذَرٍ عن كيفية مساعدة باسترول لخدمات البَستَنَة له، هل وصل الأمر إلى هذا الحَدِّ إذن؟ هل بدأ جزَّازو العُشب في إنشاء مشاريعهم الخاصة وتقديم يد العون من المكاتب؟ سأل صاحب الصَّوت عن الأسعار، وأملى عليه صاحِبُ الصَّوت سعرًا معقولًا.

أغلق هارولد الخَطَّ مع إحساسٍ باقٍ بعدم الارتياح، وعاد إلى الرواق. قعد وأدار المذياع، وتطلَّع إلى عشبه المليء بالفطريات في غيمات السَّبتِ المتحرِّكة ببطء عبر سماء السبت. كانت كارلا وإليسيا في منزل حماته، والمنزل بأكمله له. ستكون مفاجأةً لطيفة لهم إذا انتهى الفتى الآتي لجَزِّ العُشب من عمله قبل عودتهما.

فتح علبة بيرة، وتنهَّد حينما ابتُلِيَ "ديك دراجو" بالخروج مرَّتين ثم خبطه المهاجم. مرَّت نسمة خفيفة عبر الشرفة. همهمت صراصير الليل برِقَّةٍ في العشب الطويل. نخر هارولد قائلًا شيئًا غيرَ طَيِّب عن ديك دراجو، ثم غفا.

ارتجَّ مستيقظًا من نومه بعد نصف ساعة بسبب جرس الباب. أوقع علبة البيرة خلال قيامه لفتح الباب.

وقف رَجُلٌ يرتدي مريولًا من الدنيم مُتَّسخًا بسبب العُشب عند المنحدر الأمامي، وهو يضغط بأسنانه على خِلَّة الأسنان. كان سمينًا. دفعت انحناءَةُ كرشه مريولَه الأزرق الباهت لدرجة أن هارولد اشتبه تقريبًا أنه ابتلع كرة سلَّة.

"نعم؟". هكذا سأل هارولد باركيت، وهو ما يزال شبه نائم.

ابتسم الرجل، مُدَحرِجًا خِلَّة الأسنان من أحد رُكنَيْ فمه إلى الركن الآخر، وهو يشدُّ بطانة مريوله، ورفع قبعة البيسبول الخضراء دَرَجَة فوق جبهته، وكانت توجد لطخة من زيت المحرِّكات الجديد على حافَّة قُبَّعته، وها هو ذا، يفوح بروائح العشب والأرض والزيت، مبتسمًا لهارولد باركيت.

قال في بشاشة وهو يهرشُ بين منفرج ساقيه: "أنتَ اتَّصلتَ، أليس كذلك؟ أليس كذلك يا صاحبي؟"، وظلَّ يبتسم بلا نهاية.

حملق هارولد بحماقَةٍ: "آه، المرج، أهو أنتَ؟".

"نعم، أنا". هكذا رفع جَزَّازُ العُشب صوته بضحكة منتعشة في وجه هارولد المنتفخ من أثر النوم.

وقف هارولد جانبًا بلا حَولٍ ولا قوة، وتسكَّع جزَّاز العُشب قُدمًا في الصالة، وعبر غرفة المعيشة والمطبخ، وصولًا إلى الرواق الخلفي. الآن أتى هارولد بالرَّجُل، وكلُّ شيء على ما يرام. تعامل مع هذه العَيِّنة

مـن الأشـخاص مـن قبـل؛ العاملـين في الـصَّرف الصِّحِّـي، وفـرق إصلاحـات الطُّـرُق السريعـة في الشـارع الرئيـسي، ينحنـون عـلى معاولهـم دائمًـا خـلال دقيقـة مـن الراحـة ويُدخِّنـون سـجائر "لاكي سـترايك" أو "كَمِـلْ"، ينظـرون إليـك كـما لـو كانـوا مِلـحُ الأرض، يَقـدِرون عـلى مهاجمتـك مقابـل خمسـة دولارات، أو النـوم مـع زوجتـك في أي وقـتٍ يشـاؤون. يخـاف هارولـد عـلى الـدوام مـن رجـالٍ مثـل هـؤلاء، اسـمَرَّت جلودهـم لِلَّـون البُنِّـيِّ الداكـن، ودائمًـا هنـاك شـبكات مـن التجاعيـد حـول عيونهـم، ويدركـون عـلى الـدوام مـا يريدونـه.

قـال الرَّجُـل بصـوتٍ عميـق لا شـعوري: "المـرج الخلفـيُّ يَتطلَّـب عمـلًا شـاقًّا، إنـه فسـيح جـدًّا، ولا توجـد أي عوائـق، لكنـه متنـامٍ بشـكلٍ جيـد". ثـم ارتَـدَّت نـبرة صوتـه مُجـدَّدًا إلى وضعـه الطبيعـي، ووجـد نفسـه يعتذر: "أخـشى أنـه يتوجَّـب علـيَّ توديعـه".

"المسـألة بسـيطة يـا صاحبـي، وبـلا ضغـوط، عظيـم. عظيـم. عظيـم". ابتسـم إليـه جـزَّاز العُشـب ناظـرًا إلى عينيـه، وفي بالـه ألـفُ مَزحَـةٍ عـن رجـل المبيعـات المرتَحِـل، "كلَّـما طـال كلَّـما كان أفضـل، تربـة صِحِّيَّـة، هـذا مـا لديـك هنـا، حسـب سيرسـه[1]، هـذا مـا أقولـه دومًـا".

حسب سيرسه؟

كـوَّم جـزَّاز العُشـب رأسـه عنـد المذيـاع، ياسترمسـكي هوجِـمَ لتـوِّه، "أنـتَ مُعجَـبٌ بريـد سـوكس؟ عـن نفـسي أنـا مُحِـبٌّ لفريـق يانكيـز"، وعـاد في تثاقُـلٍ إلى المنـزل وصـولًا إلى الصالـة الأماميـة. راقبـه هارولـد بمـرارة.

(1) في الميثولوجيـا اليونانيـة، (سيرسـه) سـاحرة تسـتطيع أن تحـول أعدائهـا إلى حيوانـات، ورد ذكرهـا في ملحمـة هومـر الشعرية الشهيرة (الأوديسـة) حـين حولـت رجـال أوديسـيوس أو عوليـس إلى خنازيـر خـلال رحلـة عودتـه الطويلـة عقـب انتهـاء حـروب طـروادة (المترجـم)

قعد ثانية، وتطلَّع بعينين مُتَّهِمَتَيْن لهنيهة إلى بِركَةِ البيرة تحت الطاولة مع علبة بيرة كورز المندلقة في وسطها، فكَّر في الإتيان بالممسحة من المطبخ، وقرَّر أن يتركها لحالها.

المسألة بسيطة، بلا ضغوط.

فتح جريدته على القسم الاقتصادي وسَلَّط عينًا خبيرة على أسعار إغلاق الأسهم، وكأي جمهوري صالح، اعتبر موظَّفي وول ستريت الإداريين الواقفين وراء العواميد بمثابة أنصاف آلهة على الأقل (حسب سيرسه؟) وتمنَّى مرَّات عديدة لو كان من الأفضل أن يفهم الكلمة، مثلما لُقِّنَت على الجبل، ليس على لوحَيْن حجريَّيْن، وإنما في صورة اختصارات مُبهَمَة مثل "ن.م، ك.د.ك، 3.28 إلى 2/3". اشترى ذات مرَّةٍ -بعد قرارٍ حكيم- ثلاثة أسهم من شركة تُدعَى ميدويست المحدودة لبرجر لحم البيسون، والتي أفلَسَت في العام 1968. خسر استثماره المؤلَّف من خمسة وسبعين دولارًا أمريكيًا، والآن أَدرَكَ أن برجر لحم البيسون كان بمثابة الصرعة القادمة، موجة المستقبل. تناقش طيلة الوقت مع سوني الساقي في جولدفيش بول في هذا الأمر، لكن سوني أخبر هارولد أن مشكلته أنه جاء مبكِّرًا عن موعده بخمس سنوات، وأنه ينبغي عليه...

أخرَجَته ضوضاء مُدَوِّية مفاجئة من نعاس واقِع كان ينزلق إليه.

قفز هارولد على قَدَميْه، موقعًا الكرسي ومحدِّقًا لما حوله بغلظة.

سأل هارولد باركيت المطبخ: "هل هو جزّاز عُشبٍ؟ يا إلهي، إنه جزّاز عُشب".

سارع عبر المنزل، وحَدَّق خارج الباب الأمامي، لا شيء هناك سوى شاحِنَةٍ خضراء مُنحَدِرة إلى الخلف، كُتب عليها "شركة باسترول المحدودة لخدمات البستنة "مرسومة على جانب الشاحنة. عاد صوت

الـدَّويِّ في الداخـل، وسـارع هارولـد إلى منزلـه ثانيـة، واندفـع إلى الـرُّواق الخلفـي، وتجمَّـد في وقفتـه.

كان المشهد مسيئًا.

كانت مَهزلَةً.

كانـت جـزَّازَةُ العُشـب العتيقـة ذات زِرِّ التشـغيل الأحمـر التـي أحضرهـا الرجـل البديـن في شـاحنته تعمـل بمفردهـا، لا يدفعهـا أحـد. في الحقيقـة، لا يوجَـدُ أحـدٌ عـلى مـدار خمـسِ أقـدام منهـا، كانـت تـدور في اتِّقـادٍ شـديد، شـاقَّةً طريقهـا عـبر مَـرجِ هارولـد باركيـت العشـبي الخلفـي سيِّئ الحـظ مثـل شـيطانٍ أحمـر ناقِـمٍ آتٍ مباشرة مـن الجحيـم، صرَخَـت وخـارت وضَرطَـت دُخانًـا أزرقَ زيتيًّـا في ضربٍ مخبـول مـن الجنـون الآلي؛ مِـمَّا أسـقم هارولـد فَزعًـا. تعلَّقَـت الرائحـة الذَّابلـة للعشـب المجـزوز في الهـواء مثـل النبيـذ الحامـض.

لكن جزَّاز العُشب نفسه هو الإساءة الحقيقيَّة.

خلـع جـزَّاز العُشـب ملابسـه، حتـى آخـر فَتلَـةِ خيـط. كانـت مطويَّـةً بعنايـة في حـمَّام الطيـور المنتصـب في منتصـف المـرج الخلفـي. كان يزحـف عاريًـا ومُتَّسِـخًا مـن العشـب مـن مسـافة خمـسِ أقـدامٍ وراء جـزَّازة العشـب، يـأكل مـن العشـب المجـزوز. جَـرَت العُصـارةُ الخـضراءُ عـلى ذقنـه وانسربـت وصـولًا إلى كرشـه المتدلِّي، وفي كل مـرَّةٍ يـدور فيهـا جـزَّازُ العُشـب حـول ركـن، يصعـد ويقفـز قفـزةً غريبـة وثَّابـةً قبـل انبطاحـه مـن جديـد.

صرخ هارولد باركيت: "توَقَّفْ! توقَّف عن هذا!".

لكـنَّ جـزَّاز العُشـب لم يُلـقِ لـه بـالًا، ولم يُبطِئـه الوَجـهُ القُرمـزيُّ الصـارخ، بـل يبـدو عـلى الأحـرى أنـه سَرَّعـه.

بـدا عـلى شـبكتها المعدنيـة النيكليـة أنهـا تبتسـم إلى هارولـد وهـي تَرشَـحُ، بينـما هـو مهتـاج.

ثـم رأى هارولـد حيـوان الخُلـد، حتـمًا كان مختبئـًا في رعـبٍ جَسـيم أمـام جـزَّازة العشـب، بـين أعـواد العشـب المُنتظـر ذبحهـا. انطلـق عـبر كومـة العشـب المجـزوز إلى بَـرِّ الأمـان تحـت الـرواق، بُقعـة بُنِّيَّـة مذعـورة.

انحرَفَت جزَّازة العُشب.

هَـدَرَت في صُراخٍ وعـواء فـوق حيـوان الخُلـد وبَصَقَتـه في هيئـة فِـراءٍ وأحشـاء؛ مـمَّا ذَكَّـر هارولـد بقِـطٍّ آل سـميث، انسـحق حيـوان الخُلـد، وسـارعت جـزَّازةُ العُشـب بالعـودة إلى وظيفتهـا الرئيسـة.

زحـف جزَّاز العُشـب بسرعـة، يـأكل العشـب. وقـف هارولـد مشـلولًا مـن الرعـب، مـع نسـيانٍ تـامٍّ لأمـور الأسـهم والسَّـنَدات الماليـة وبرجـر لحـم البيسـون. كان بمقـدوره أن يـرى الكَـرِشَ المتـدلِّي الضخـم يتمـدَّد. انحـرف جـزَّازُ العُشـب وأكل حيـوان الخُلـد.

حينهـا انحنـى هارولـد باركيـت خـارج البـاب السِّـلكي، وتقيَّـأ عـلى أزهـار الزِّينيـا. بـات العـالم رماديًـا، وأدرك أنـه سـيغمى عليـه، وقـد أغمـى عليـه، حيـث تقهقـر وانهـار عـلى أرض الـرُّواق، وانغلقـت عينـاه.

شـخصٌ مـا كان يهـزُّه، كارلا كانـت تهـزُّه، لم يغسـل الصحـون أو يفـرغ القمامـة، وكان مـن المفـترض أن تغضـب كارلا، لكـن الأمـر سـار عـلى مـا يُـرام. كانـت توقظـه، سـاحِبةً إيَّـاه خـارج الكابـوس الشـنيع الـذي يـراوده، ومُعيـدَةً إيَّـاه إلى العـالم الطبيعـي، كارلا اللطيفـة السَّـويَّة التـي ترتـدي مشدَّ "بـلاي تكـس" الحيـويَّ للخـصر، وسِـنَّتاها الأماميَّتـان البارِزَتـان، نعـم، سِـنَّتان أماميَّتـان بارِزَتـان، لكنهـما ليسـتا سِـنَّتَيْ كارلا البارِزَتَـيْن. لـدى كارلا سِـنَّتان بارزتـان سـنجابيَّتان قبيحَتـا المظهـر، لكـنْ هاتـان السِّـنَّتان كانتـا... مُشـعِرتَيْن.

نَمَـت شُـعَيراتٌ خـضراء عـلى تينـك السِّـنَّتَيْن البارزتـين، بـدت تقريبًـا وكأنهـا... عُشـب؟

"يا إلهي!". هكذا قال هارولد.

"أُغمَـى عليـكَ يـا صاحبـي، أليـس كذلـك؟ هـاه". كان جـزَّاز العُشـب يميـل فوقـه، مبتسـمًا بأسـنانه المُشـعِرَة. وأشـعرت شَـفتَاه وذقنـه أيضًـا. صـار كلُّ شيء مُشـعِرًا، وأخـضر. فاحـت حديقـة المنزل بالرائحـة الكريهـة للعُشـب والغـاز، وأيضًـا الصَّمـت المفاجـئ.

تثبَّـت هارولـد عـلى وضـع الجلـوس، وحـدَّق إلى جـزَّازة العشـب المتوقِّفـة، حيـث جـزَّت كُلَّ العشـب بعنايـة، ولا حاجـة بعـد الآن لتجميعـه حسـبما لاحـظ هارولـد في بـؤس. إذا فـوَّتَ جـزَّازُ العُشـب شـفرةً واحـدة، فهـو لم يرهـا. نظـر شـزرًا بطريقـة غير مباشرة إلى جـزَّاز العُشـب وأجفـل. كان مـا يـزال عاريًـا، مـا يـزال بدينًـا، مـا يـزال مُخيفًـا. جَـرَت القطـرات الخـضراء مـن ركنَـيْ فمـه.

سأل هارولد: "ما هذا؟".

لـوَّح جـزَّاز العُشـب بيـده بلُطـفٍ نحـو العشـب. "هـذا؟ طيِّـب، إنـه شيء جديـد يُجرِّبـه المديـر، والأمـور تسـير عـلى مـا يـرام، عـلى مـا يـرام حقًّـا يـا صاحبـي. نـضرب عصفوريـن بحجـر واحـد، نسـير قُدُمًـا نحـو المرحلـة الأخيرة، ونجنـي المـال لدعـم عملياتنـا الأخـرى فتصير غنيمـةً، أتفهـم مـا أقصـده؟ يصادفنـا بالطَّبـع عميـلٌ لا يسـتوعب مـا نفعلـه مـن حـينٍ إلى آخـر، بعـض النـاس لا تُقـدِّر الكفـاءات، أليـس كذلـك؟ لكـن المديـر دائمًـا مَـرِنٌ بخصـوص الموافقـة عـلى تقديـم تضحيـة تُبقـي العجَـلات مُشـحَّمة، إذا كنـتَ تفهـم مـا أقصـده".

هارولـد لم يَقُـل شـيئًا، حيـث رَنَّـت كلمـة في رأسـه مـرارًا وتكـرارًا، والكلمـة كانـت "تضحيـةً"، رأى بعـين عقلـه جـزَّازة العشـب الحمـراء المعطوبـة وهـي تتقيَّـأ حيـوان الخُلـد.

قـام عـلى مهلـه، مثـل رجـل عجـوز مشـلول، قـال: "بالطبـع"، وكل مـا خطـر في ذهنـه مجـرَّد جُملَـةٍ مـن مجموعـة أسـطوانات أليسـيا لموسـيقى الـرُّوك الفلكلـوري: "فليُبـارِكْ الـرَّبُّ العُشـبَ".

خبـط جـزَّازُ العُشـب بيـده عـلى فخـذٍ صيفـيٍّ بلـون التُّفَّـاح، "جميـل جـدًّا يـا صاحبـي، في الواقـع، هـذا جميـل فـوق العـادة، أرى أنـك اكتسـبت الـروح الملائمـة، هـل تمانـع لـو دوَّنـتُ هـذا حـين أعـود إلى المكتـب؟ وهـو مـا سـيُتَرجَم إلى عـلاوة".

قـال هارولـد: "بالتَّأكيـد"، مُتراجِعًـا نحـو البـاب الخلفـي، ومجتهـدًا في الحفـاظ عـلى ابتسـامته الذَّاويـة في محلِّهـا.

"امضِ قُدُمًا وانتهِ من عَمَلِك، أظنُّ أني سأحظى بقيلولةٍ قصيرة".

قـال جـزَّاز العُشـب: "بالتأكيـد يـا صاحبـي"، مُلقِيًـا بثِقَلِـه عـلى قدميـه. لاحـظ هارولـد ذلـك الشِّـقَّ العميـق غـير العـادي بـين الأصبعَـيْن الأولى والثَّانيـة، كـما لـو كانـت القَدَمـان، لِنَقُـل، مشـقوقَتَيْن.

قـال جـزَّاز العُشـب: "الأمـر يصـدم الجميـع في البدايـة، سـتعتاد عليـه". حـدَّق بدهـاءٍ إلى جسـد هارولـد السـمين، "في الواقـع، ربمـا ترغـب في التجربـة، فالمديـر دومًـا لديـه نظـرة بخصـوص أي موهبـة جديـدة".

ردَّد هارولد واهنًا: "المدير".

توقَّـف جـزَّازُ العُشـب عنـد السـلالم السُّـفلى، ونظـر في تسـامُحٍ إلى هارولـد باركيـت: "طيِّـب، اسـمعني يـا صاحبـي، أظـنُّ أنَّـكَ خَمَّنـتَ بالفعـل... فليُبـارِكْ الـرَّبُّ العُشـبَ وكُلَّ شيء".

هزَّ هارولد رأسه برفق، وضحك جزَّاز العُشب.

"بـان، المدير يُدعـى بـان[1]"، ثـم قفـز نصـف قفـزةٍ، ودلـف نصـف دَلفَـةٍ عـلى العشـب المجـزوز لتَـوِّه، وصاحـت الجـزَّازةُ بصـوت الحيـاة، وشرعـت في الـدَّوَران حـول المنـزل.

بـدأ هارولـد بالقـول: "الجـيران..."، لكـنَّ جـزَّاز العُشـب اكتفـى بالتلويح مبتهجًـا واختفى.

صرخـت جـزَّازَةُ العشـب وعَـوَت في الهـواء الطلـق. رفـض هارولـد باركيـت أن ينظـر، وكأنـه قـادِرٌ برفضـه هـذا عـلى إنـكار المشـهد البَشِـع الـذي تَشَرَّبـه كُلٌّ مـن آل كاستونمـيير وآل سـميث -وكلاهـما مـن الديمقراطيِّـين البائسـين- بأعـيُن مُرتَعِـدة، أكَّـدَت صدقهـا في رؤياهـا عـلى حـقٍّ، ودون ريـب.

وبـدلًا مـن النظـر، اتَّجـه هارولـد إلى التليفـون، وانتـزع السَّـمَّاعة، وطلـب رقـم مقـرِّ الشرطـة مـن شـارة الطـوارئ المُلصقـة عـلى سـمَّاعة الهاتـف.

ردَّ صوتٌ من الطرف الآخر: "معك الرقيب هال".

دسَّ هارولـد إصْبَعًـا في أذنـه الخاويـة، وقـال: "اسـمي هارولـد باركيـت، عنـواني 1421 شـارع شرق إنديكـوت، أودُّ تقديـم بـلاغ...".

عن ماذا؟ عمَّ يريد تقديم بلاغ؟

رجـلٌ يـشرع في اغتصـاب وقَتـلِ مَـرجٍ عُشـبيٍّ، ويعمـل لصالـح شـخص يُدعـى بـان، ولـه سـاقان مشـقوقان؟

"نعم يا سيد باركيت؟".

أدركني الإلهام.

(1) إشـارة ثانيـة إلى الميثولوجيـا اليونانيـة، حيـث (بـان) هـو إلـه المراعـي والطبيعـة والـبراري، لـه جـذع إنسـان وسـاقي ماعـز (المترجـم)

"أودُّ الإبلاغ عن واقعة مخالِفَة للاحتشام".

كرَّر الرقيب هال: "مخالِفَة للاحتشام".

"نعم، هناك رَجُلٌ يَجزُّ عُشبي، إنه.. آآ، كليًّا".

سأل الرقيب هال بارتياب مهذَّب: "أتقصد أنه عارٍ؟".

وافقه هارولد القول: "عارٍ!"، مستمسكًا بنهايات أعصابه المتوتِّرة.

"مُتجرِّد، دون ملابس، مكشوف المؤخِّرة، على مرج عشبي الأمامي، والآن هل سترسلون شخصًا ما إلى هنا بِحَقِّ الجحيم؟".

سأل الرقيب هال في ارتباك: "أكان العنوان1421 شارع غرب إنديكوت؟".

صاح هارولد: "شرق! بحقِّ الرب...".

"أتقول إنه عارٍ تمامًا؟ تستطيع رؤية..آآ.. أعضائه التناسلية وما إلى ذلك؟".

حاول هارولد أن يتحدَّث، وكل ما أصدره مجرَّد غرغرة، بدا صوت جزَّاز العُشب وكأنه يعلو شيئًا فشيئًا، بل متعاليًا على كل شيء في الكون. شعر بصعود حلقومه.

غمغم صوت الرقيب هال: "أيمكنك أن ترفع صوتك؟ توجد ضوضاء على الخطِّ من عندك...".

فُتِحَ الباب الأمامي عُنوةً.

نظر هارولد من حوله، ورأى الرفيق الآلي لجزَّاز العُشب يتقدَّم عبر الباب، ومن وراءه جزَّاز العُشب ذاته، وما زال عاريًا، ومع شيء ما يقترب من الجنون الفِعليِّ، رأى هارولد شَعرَ عانَةِ الرَّجُل أخضرَ نَضِرًا، وخَشِنًا. كان يلفُّ قُبَّعة البيسبول على إصبع واحدة.

قال جزّاز العُشب مُوبِّخًا: "ثَمَّة خطأ يا صاحبي، عليك التَّمسُّك بعبارة: فليبارك الرب العُشب".

"آلو! آلو! سيد باركيت...".

سقَطَت سمَّاعةُ الهاتف من بين أصابع هارولد الواهنة حينما تقدَّمت نحوه جزَّازةُ العُشب وهي تُمزِّق سجادة كارلا الجديدة من طراز موهوك، وتبصق في طريقها كُتَلَ الخيوط البنية.

حدَّق هارولد إليها كمثل نظرة مُتبادَلَة بين طائرٍ وثُعبانٍ، إلى أن وصَلَت عند طاولة القهوة، وحين رَكَنَتها الجزَّازة جانبًا، جزَّت إحدى سيقانها فصارَت نشارةَ خَشبٍ وشقوقًا كما هو الحال دائمًا. صعد فوق ظَهرِ كرسيِّه وبدأ في التراجُع نحو المطبخ، دافعًا الكرسي أمامه.

قال جزّاز العُشب متلطِّفًا: "لن يُجدي هذا نفعًا يا صاحبي، وقد يجنح نحو الفوضى أيضًا. الآن إذا كان غرَضُك فحسب أن تريني المكان الذي تُبقي فيه أكثر سكِّينة جِزارة حادَّة لديك، علينا الانتهاء من مسألة التضحية دون ألَمٍ فِعليٍّ، أظنُّ أن حمام الطيور سيتكفَّل بالأمر، وبعدها...".

حشر هارولد الكرسي في جزَّازة العُشب التي حاصَرَته بمهارة، بينما استرعى انتباهه الرَّجُل العاري، وانسحب من باب الدخول. زمجرت جزَّازةُ العُشب حول الكرسي، تنفث العادم، وحطَّم هارولد الباب السلكي للرواق وقفز على السلالم. سَمِعَها وشَمَّها وأحسَّ بها في أعقابه.

غادَرَت جزَّازةُ العُشب درجة السُّلَّم العليا مثل مُتزلِّجٍ يهبط قافزًا، وانطلق هارولد نحو مَرج عُشبِه المجزوز حديثًا، حيث شرب الكثير من عُلَب البيرة، ونام فيها القيلولة كثيرًا. شعر باقترابها منه، وصارت بعدها في أعقابه، وبعدها نظر من فوق كتفه، وتعثَّر على قدميه.

آخـر مـا رآه هارولـد باركيـت القسـوةَ الطَّاحنـة لجَـزَّازة العشـب المُعبَّـأة، متأرجِحـةً إلى الـوراء، كاشِـفَةً عـن شـفراتها اللامعـة الملطَّخـة باللـون الأخـضر، ومـن فوقهـا الوجـهُ السَّـمين لجـزَّاز العُشـب، هـازًّا رأسـه في تأنيـبٍ وَدودٍ.

"بئـس الأمـر". هكـذا قـال المـلازم جودويـن وقـت التقـاط الصُّـور الأخـيرة. أومـأ إلى رجلـين يرتديـان ملابـس بيضـاء، فدفعـا سَـلَّتَيهما عـبر مَـرجِ العُشـب.

"أَبلَـغَ عـن رَجُـلٍ عـارٍ مـا عـلى مَـرجِ عُشـبه منـذ وقـتٍ لم يتجـاوز السـاعتين".

سأل شرطيٌّ الدَّوريَّة كولي: "أهكذا حقًّا؟".

"نعـم، اتَّصَـلَ أحـدُ الجـيران أيضًـا، رجُـلٌ يُدعـى كاسـتوميير، كان يَظنُّـه باركيـت ذات نفسـه، وربمـا كان هـو يـا كـولي، ربمـا كان".

"سيدي؟".

قـال المـلازم جودويـن متأثِّـرًا وهـو يلتقـط الإرسـال: "جُـنَّ جُنونُـه مـن حـرارة الجَـوِّ، سـكيزو -خـراء- فيرينيـا".

قال كولي بإجلالٍ: "نعم يا سيدي".

سألت أحدَ مُرتَدِي المعاطِف البيضاء: "أين بقيَّته؟".

قال جودوين: "في حمَّام الطُّيور"، وأمعن النظر في السماء.

سأل مُرتَدي المعطف الأبيض: "هل قُلتَ حمَّام الطيور؟".

أكَّـد المـلازم جودويـن عـلى كلامـه: "قلـت ذلـك بالفعـل"، نظـر شرطـيٌّ الدوريـة كـولي إلى حـمام الطيـور، وفجـأةً راح قَـدرٌ كبـير مـن اسـمرار بشرتـه.

قال الملازم جودوين: "مهووسٌ جِنسِيٌّ، حتمًا كان كذلك".

سأل كولي بغلظة: "أتوجد بَصماتٌ؟".

قال جودوين: "قد تسأل أيضًا عن آثار الأقدام"، وأشار إلى العشب المجزوز لتَوِّه.

أصدر شرطي الدورية كولي من جوفه صوتًا مُختنقًا.

حشر الملازم جودوين يديه في جيبيه وارتدَّ على أعقابه، وقال بتأثُّر: "العالم مليءٌ بالمخابيل، فصامِيُّون، لا تنسَ هذا يا كولي، يقول فِتيَةُ المعمل الجنائي إن شخصًا ما لاحق هارولد باركيت بجَزَّازة عُشبٍ عبر غرفة معيشته، أتتخيَّل ذلك؟".

قال كولي: "لا يا سيِّدي".

تطلَّع جودوين إلى مَرج العشب المُشذَّب بعنايَةٍ. "طيِّب، مثلما قال الرجل حينما رأى السويدي أسود الشَّعر، إنه حتمًا رجلٌ نورديٌّ من طراز مُختَلِف".

جال جودوين حول المنزل، وتبعه كولي، ومن خلفهما، بقيت الرائحة الزَّكيَّة للعُشب المجزوز حديثًا في الهواء.

شَرِكَة المُقلِعين المتَّحِدَة

كان موريسون في انتظار شخصٍ ما عالِقٍ في الزحام المروري الجوِّيِّ فوق مطار كينيدي الدولي- حين رأى وجهًا مألوفًا عند نهاية البار، وسار نحوه.

"چيمي؟ چيمي ماكان؟".

كان أكثرَ امتلاءً عَمَّا رآه عليه موريسون في معرض أطلانطا العام الفائت، ما عدا ذلك، حَسُنَ تَناسُقُ جَسَدِه. كان نحيفًا خلال فترة الكُلِّية، ومُدخِّنًا شَرِهًا، شاحِبَ الوجه، مَدفونًا وراء نظَّارَةٍ مصنوعة من قرون الحيوانات، وبدَّلَها -كما هو واضِحٌ- بعدسات لاصقة.

"ديك موريسون؟".

"نعم، تبدو متألِّقًا"، مَدَّ يده وتَصافَحَا.

قـال مـاكان: "وأنـتَ أيضًـا"، لكـن موريسـون أدرك أنهـا كذبـة، كان مفرطًـا في العمـل، مفرطًـا في تنـاول الطعـام، مفرطًـا في التدخـين.

"ماذا تشرب؟".

قـال موريسـون: "بوربـون مـع المِـزر المـرِّ". لَـفَّ سـاقيه حـول مقعـد البـار، وأشـعل سـيجارة. "هـل سـتقابل أحـدًا يـا چيمـي؟".

"لا، أنـا ذاهِـبٌ إلى ميامـي لحضـور مؤتمـر، عميـل ثـري، سـتة مليـون دولار. مـن المفـترض أن أدعِّمَـه؛ لأننـا خسرنـا صفقـةً كـبرى للربيـع القـادم".

"أَمَا زِلتَ تعمل مع كراجر وبارتون؟".

"صِرتُ الآن نائِبَ الرئيس التنفيذي".

"مُذهِـل! مـبروك! متـى حـدث كل هـذا؟". حـاول أن يقـول لنفسـه بـأن دودةَ الغـيرة الصغـيرة السَّـاكِنَة في بطنـه مجـرَّد عُـسر هَضـمٍ حـادٍّ، أخـرج شريطًـا مـن الحبـوب المضـادَّة للحموضـة وطحـن واحـدة في فمـه.

"أغسـطس المـاضي، حـدث شيءٌ مـا غـير حيـاتي، ربمـا تهتـمُّ"، نظـر إلى موريسـون محـاوِلًا التخمـين ورشـف شرابـه.

فكَّـر موريسـون في إجفـال كامـن: يـا إلهـي، چيمـي مـاكان أسَّـس ديانـةً.

قـال: "بالتأكيـد"، وتجـرَّع شرابـه حـين وصـل. قـال مـاكان: "لم أكُـن بِخَير حـالٍ، مشـاكل شـخصيَّة مـع شـارون، وفاة والـدي بأزمـة قلبيـة، وازداد عليَّ ذلـكَ السُّـعال اللَّعـين. مـرَّ بـوبي كراجـر ذات يـوم عـلى مكتبـي، وحدَّثنـي ببعـض الحديـث الحَـماسيِّ الأبـوي، أتتذكَّـر ماهيَّـةَ هـذا الحديـث؟".

قـال: "نعـم"، فقـد عمـل مـع كراجـر وبارتـون لمـدة 18 شـهرًا قبـل انضمامـه لوكالـة مورتـون. "أَغـرِقْ مُؤخِّرَتـكَ في العمـل أو أَخرِجْهـا".

ضحك ماكان، "تَعرِف ما قاله، حسنًا، وصولًا إلى مغزاي، فقد أخبرني الطبيب أنِّي أُعاني من بوادِر قُرحَة، ونصحني بالإقلاع عن التدخين، كأنه يطلب مني أن أقطَعَ التَّنفُّس". تَجهَّم ماكان.

أومأ موريسون في تفهُّمٍ بالِغٍ. يمكن لغير المدخِّنين أن يعتدُّوا بأنفسهم. تطلَّع إلى سيجارته بقرف، وسَحَقَ عُقبها، وهو يعلم أنه سيشعل سيجارة أخرى خلال خمس دقائق.

سأل: "هل أقلَعتَ عن التَّدخين؟".

"نعم. أقلعتُ، لم أظنَّ نفسي في البداية بقادر على هذا، كنتُ أغشُّ كثيرًا، ثم قابَلتُ شخصًا أخبرني بخصوص شركة واقعة في شارع 46، اختصاصيِّين، قُلتُ ما الذي لديَّ لأخسره وذهبت إلى هناك، ولم أدخِّن منذ ذلك الحين".

اتَّسَعَت عينا موريسون. "ماذا فعلوا؟ مَلؤوا جسدَكَ بمُخدِّرٍ ما؟".

"لا"، أخرجَ محفظَتَه وفتَّشها. "ها هي ذا، كنتُ أعلم أن معي واحدة"، ووضع بطاقة أعمال بيضاء عادية على البار بينهما.

شركة المُقلِعين المتَّحِدة.

توقَّفْ عن تدمير نَفسِكَ بالدُّخَان!

237 شرق شارع 46.

المعامَلاتُ حَسبَ المواعيد المُسبَقَة.

قال ماكان: "خُذْها لو أردتَ، سيعالجونك، والأمر مضمون".

"كيف؟".

قال ماكان: "لا أستطيع إخبارَكَ".

"هه! لِمَ لا؟".

"هـذا جُزءٌ مـن العَقـد الـذي يجعلونـك تُوَقِّـع عليـه، عـلي أيِّ حـال، سـيخبرونك كيـف يسـير الأمـر حـين يُجـرون معـكَ المُقابَلَـة".

"وَقَّعتَ على عَقدٍ؟".

"وبموجَبِه...".

"أيـوه". ابتسـم إلى موريسـون الـذي أطـرق مُفكِّـرًا: حسـنًا، حـدث الأمـر، چيـم مـاكان انضـمَّ لعصبـة الأوغـاد الراضـين عـن أنفسـهم.

"لِـمَ السِّرِّيَّـة الشـديدة إذا كانـت تلـك الشَّركـة شـديدةَ الرَّوعَـة؟ كيـف لم أُصـادِف قَـطُّ أيَّ دعايـة في التلفـاز أو اللوحـات الإعلانيـة أو المجلَّات...".

"يحظَـوْن بزبائنهـم الذيـن يتعاملـون معهـم مـن خـلال الدِّعايـة الشَّــفاهية".

"أنت تعمل في الإعلانات يا چيم، لا يمكن أن تصدِّق هذا".

قال ماكان: "بل أصدِّق، فلديهم نسبة تعافٍ تبلغ 98%".

قـال موريسـون: "مهـلًا"، وأشـار طالِبًـا شرابًـا آخـر، وأشـعل سـيجارةً "هـل يُقيِّـدُكَ أولئـك الأشـخاص ويجبرونـك عـلى التدخـين حتـى تتقيَّـأ؟".

"لا".

"يُعطونَك شيئًا ما حتى تتعب في كل مرَّةٍ تُشعِل فيها...".

"لا، لا شيء مـن هـذا القبيـل، اذهـب وانظـر بنفسـك"، وأشـار إلى سـيجارة موريسـون. "أنـتَ لا تُحـبُّ هـذه، أليـس كذلـك؟".

"لاااا، ولكن...".

قـال مـاكان: "بالنسـبة لي، فالإقـلاع عـن التَّدخـين غـيَّرَ أركانَ حيـاتي، لا أفـترضُ أنـه يعمـل بنفـس التَّأثـير بالنِّسـبة لـكلِّ شـخصٍ، لكنَّـه كان بالنسـبة لي مثـل قطـع دومينو مُتساقِطَة. شـعرت شـعورًا أفضـل، وتحسَّـنَت علاقتي مـع سـوزان، صـار لـديَّ المزيـد مـن الطَّاقَـة، وتحسَّـن أدائي الوظيفـي".

"انظُرْ، لقد أثَرتَ فضولي، ألا يُمكِنُكَ فحسب أن...".

"أنـا آسـف يـا ديـك، لا أسـتطيع إخبـارك بخصـوص هـذا"، كان صوتـه حازمًـا.

"هل زاد وَزنُكَ؟".

ظـنَّ لِلَحظَـةٍ أن جيمـي مـاكان بـدا متجهِّـمًا بعـض الـشيء. "نعـم، زاد كثـيرًا جـدًّا في الحقيقـة. لكنـي أنقَصتُـه ثانيـةً، عـلى وشـكِ هـذا الآن، كنـتُ نحيفًـا فيـما مـضى".

"الرِّحلـة رقـم 206 تهبـط الآن عنـد بوابـة 9". هكـذا أعلـن مُكـبِّرُ الصَّـوت.

قـال مـاكان وهـو يقـوم مـن مقعـده: "هـذه الرحلـة التـي أنتظرهـا"، وألقـى ورقـة بخمسـة دولارات عـلى البـار، "اشرب كأسًـا آخـر إذا أرَدتَ، وفكِّـر بحَـقٍّ فيـما قُلتُـه لـك يـا ديـك"، ثـم ذهـب، شـاقًّا طريقـه بـين الحشـود، مُتَّجِهًـا نحـو السـلالم المتحرِّكـة. التقـط موريسـون البطاقـة، وأمعـن النظـر إليهـا، ثـم طواهـا داخـل محفظتـه ونسـاها.

وقعـت البطاقـة خـارج المحفظـة عـلى بـار آخـر بعدهـا بشـهر، كان قـد غـادر المكتـب مبكِّـرًا، وجـاء إلى هنـا حتـى ينسـى -فـترة العصـاري- بصُحبَـة الـشراب. لم تَسِـرِ الأحـوال عـلى مـا يـرام في وكالـة مورتـون، بـل في الواقـع، كانـت الأحـوال شـديدةً الشَّـناعة.

منـح هـنري عـشرة دولارات مقابـل شرابـه، ثـم التقَـطَ البطاقـة الصغـيرة وقرأهـا مـن جديـد، 237 شرق شـارع 46 عـلى بُعـدِ بنايَتَـيْن مـن

هنـا، كان يومَـا أكتوبريًّـا مُشمِسًـا ومُنعِشًـا في الخـارج، وحـين أحـضر هـنري لـه الباقـي، وربمـا مـع بعـض الضحـك المكتـوم- أنهـى شرابـه ثـم خـرج للتمشـية.

كانـت شركـة المُقلِعـين المتحـدة في بنايـة جديـدة يقـترب فيهـا الإيجـار الشـهري لمسـاحة مكتبيـة- مـن راتـب موريسـون السَّـنوي. وفقًـا لدليـل شـاغِلي الطابـق، بـدا لـه وكأن مكاتبهـم تشـغل طابقًـا كامـلًا، وفي هـذا أثـرٌ طـاغٍ للـمال، الكثـير مـن المـال.

اسـتقلَّ المصعـد إلى أعـلى، وخـرج وهـو يضـع قدميـه في بهـوٍ فَخـمٍ مفـروش بالسجَّاد، مؤدِّيًـا مـن هنـاك إلى غرفـة اسـتقبال أنيقـة التجهيـز مـع نافِـذَةٍ واسِـعَةٍ تُطِـلُّ عـلى الحـشرات المهرولـة في الأسـفل. قعـد ثلاثـة رجـال وامـرأة واحـدة عـلى كـراسي مُلاصِقَـة للجـدران، يتصفَّحـون المجلَّات، كلهـم مـن طـراز روَّاد الأعـمال. تَوَجَّـه موريسـون إلى المكتـب.

قـال: "صديـقٌ لي أعطـاني هـذه"، ومـرَّر البطاقـة إلى موظَّفـة الاسـتقبال. "أظُـنُّ أنَّـكِ سـتقولين إنـه مـن الخريجـين".

ابتسَمَت وأدخَلَت استمارةً في آلتها الكاتبة: "ما اسمُكَ يا سيِّدي؟".

"ريتشارد موريسون".

تك-تكتك-تك

لكنَّهـا تكتـكاتٌ مكتومَـةٌ جـدًّا، كانـت الآلـة الكاتبـة مـن طـراز "آي-بي-إم".

"عنوانك؟".

"22 مابيل لاين، كلنتون، نيويورك".

"مُتزوِّج؟".

"نعم".

"ألَديكَ أطفال؟".

"طفـلٌ واحـد"، فكَّـر في آلفـن واكفَهَـرَّ وَجهُـهُ بعـضَ الـشَّيء، "طِفـلٌ واحـد" عبـارة خاطئـة، ربمـا تكـون "نِصـف طفـل" أدقَّ. كان ابنـه مُعاقًـا ذهنيًّـا، ومُقيـمًا في مدرسـة خاصـة في نيوچـيرسي.

"مَن رَشَّحكَ لنا يا سيد موريسون؟".

"صديق دراسة قديم، چيمس ماكان".

"جيد جدًا، أيمكنك أن تَقعُد؟ أمامنا يومٌ شَديدُ الازدحام".

"حسنًا".

جلس بـين المـرأة التـي ترتـدي بذلـةً زرقـاء مُفصَّلَـة، ورَجُـلٍ مـن عيِّنَـة المديريـن التنفيذيـين الشـباب ولـه سـوالف عصريـة، ويرتـدي معطفًـا بنسيج متعـرِّج الخطـوط. أخـرج علبـة سـجائره، ونظـر مـن حولـه، ولاحظ عـدم وجـود أي مَنافِـض للسـجائر.

أدخـل العُلبَـةَ ثانيـة، كان هـذا لا بـأس بـه، كان سـيواصل لُعبَتَـه الصغـيرة ثـم يشـعل السِّـيجارة حـين يغـادر، وربمـا حتـى يُخلِّـفَ وراءه بعـضَ الرمـاد عـلى السـجّادة الكسـتنائية الطويلـة- إذا جعلـوه ينتظـر وقتًـا طويـلًا بمـا يكفـي.

أمسك نُسخَةً من مجلة تايم، وبدأ يتصفَّحها.

نُـودي اسـمُه بعـد ربـع سـاعة، بعـد المـرأة ذات البَذلَـة الزرقـاء. كان مركـز النيكوتـين في داخلـه يتحـدَّث بصـوتٍ عـالٍ الآن. جـاء رجُـلٌ مـن بعـده ليُخـرِجَ عُلبَـة سـجائره، وفتحهـا بحِـدَّة، ولاحـظ عـدم وجـود أي منافـض للسـجائر، ونحّاهـا جانبًـا وهـو يبـدو شـاعِرًا بالذنـب، وخطـر في بـال موريسـون أن هـذا أشـعره شـعورًا أفضـل.

في النهايـة مَنحتـه مُوظَّفـةُ الاسـتقبال ابتسـامةً مُشرِقـةً، وقالـت: "تَفضَّل يا سـيد موريسـون".

سـار موريسـون مبـاشرةً نحـو البـاب خلـف مكتبهـا، ووجـد نفسـه في رواقٍ مُضـاء بشَـكلٍ غـير مُبـاشِر. صافحـه رَجُـلٌ عريـض الجَسَـد لـه شَـعرٌ أبيضُ يبـدو زائفًـا، وابتسـم بوداعَـةٍ، وقـال لـه: "اتبعنـي يـا سـيد موريسـون".

قـاد موريسـون إلى عـددٍ مـن الأبـواب المغلقـة غـير المميَّـزة، ثـم فتـح بمفتـاحٍ بابًـا منهـم عنـد منتصـف الطريـق إلى الصالـة. خلـف هـذا البـاب غرفـة صغـيرة خَلَـت مـن كل زينـة، مُبطَّنـة بقوالـب فِلِّـين بيضـاء منغـرزة، والأثـاث الوحيـد مكتـب مـع كُـرسيٍّ في كُلِّ ناحيـة، ووُجِـد مـا يبـدو أنـه نافـذة مسـتطيلة صغـيرة في الجـدار وراء المكتـب، لكنهـا غُطِّيَـت بسـتارة خـضراء قصـيرة. عـلى يسـار موريسـون كانـت توجـد صـورةٌ مُعلَّقـة عـلى الجـدار لِرَجُـلٍ طويـل رمـاديِّ الشَّـعر. كان يمسـك بقصاصـة ورقٍ في يـد، بـدا مألوفًـا عـلى نحـو غامـض.

"أنـا ڤيـك دونـاتي". هكـذا قـال الرجـل عريـض الجسـد. "إذا قـرَّرتَ المُـضيَّ قُدُمًـا في برنامجنـا، سـأكون المسـؤولَ عـن حالتـك".

قال موريسون: "سعيدٌ بمَعرفَتِكَ"، أراد إشعال سيجارة لدرجة اليأس.

"اقعُد".

وضـع دونـاتي اسـتمارةَ مُوظَّفـة الاسـتقبال عـلى المكتـب، ثـم سـحب اسـتمارةً أخـرى مـن درج المكتـب، تطلّـع مبـاشرة إلى عينَـيْ موريسـون "هـل تريـد الإقـلاع عـن التدخـين؟".

تَنَحنَـحَ موريسـون، ووضـع سـاقًا عـلى الأخـرى، وحـاول التفكـير في طريقَـةٍ للمُراوَغـة، ولم يفلـح. قـال: "نعـم".

"أَيُمكِنُكَ التَّوقيعُ على هذه؟".

نـاوَلَ موريسـون الاسـتمارة، وتصفَّحهـا عـلى عَجَـل. المُوقِّـع أدنـاه يوافق عـلى عـدم الإفشـاء عـن الأسـاليب أو التقنيـات أو... إلـخ. إلـخ. إلـخ.

قـال: "بالتَّأكيـد"، ووضـع لـه دونـاتي قلـمًا في يـده. خربـش اسـمَه، وتحتـه وقَّـع دونـاتي. بعدهـا بهُنَيهَـةٍ، اختفـت الورقـة مُجـدَّدًا في درج المكتـب. أطـرق مفكِّـرًا في سـخرية: حسـنًا، هـا قـد أوفيـتُ بالعهـد.

قـال دونـاتي: "حسـنًا، نحـن لا نشـغل بالنـا بالدعايـة هنـا يـا سـيد موريسـون، أو بخصـوص الصِّحَّـة أو النفقـات أو السُّـلوك الاجتماعـي. لا نبـالي البَتَّـةَ حـول سـبب رغبتـك في الإقـلاع عـن التدخـين، فنحـن أشـخاص عَمَليُّـون".

قال موريسون بنبرةٍ خاوية: "حسنًا".

"نحـن لا نسـتعمل أيَّ أدويـة، ولا نسـتعين بأشـخاصٍ مـن عَيِّنـة ديـل كارنيجـي ليلقـوا عليـكَ مواعِـظَ، ولا نـوصي بحَمِيَّـة غذائيـة خاصَّـة، ولا نتقـاضى أي مدفوعـات ماليـة إلى أن تتوقَّـف عـن التدخـين لمـدة عـام".

قال موريسون: "يا إلهي".

"ألم يُخبِركَ السَّيِّد ماكان بهذا؟".

"لا".

"بالمناسبة، كيف حال السيد ماكان؟ أهو بخير؟".

"إنه بخير".

"رائـع، ممتـاز، والآن... بضعـة أسـئلة يـا سـيد موريسـون، وهـي أسـئلة شـخصيَّة بعـض الـشيء، لكنـي أؤكِّـد لـك أن إجاباتـك سـتظلُّ في أقـصى درجـات السِّرِّيَّـة".

سأل موريسون دون هدفٍ: "نعم؟".

"ما اسمُ زَوجَتِك؟".

"لوسيندا موريسون، واسم عائلتها قبل الزواج رامزي".

"أَتُحِبُّها؟".

نظر موريسون بحِدَّة، لكن دوناتي نظر إليه بلُطفٍ.

قال: "نعم، طبعًا".

"هل مَرَرتَ من قبلُ بمشاكل زوجية؟ ربما انفصال؟".

سأل موريسون: "وما علاقة هذا بالإقلاع عن عادة التدخين؟"، بدا صوته غضوبًا أكثرَ عَمَّا انتواه، لكنه أراد... سحقًا، كان يحتاج إلى سيجارة.

قال دوناتي: "لها علاقة كبيرة، اصبر معي فحسب".

"لا، لا شيء من هذا القبيل"، بالرغم من تَوَتُّر الأحوال بعض الشيء مؤخَّرًا.

"أنجبتما فقط هذا الطفل؟".

"نعم، آلفن، إنه في مدرسة خاصَّة".

"أيُّ مدرسة تلك؟".

قال موريسون متجهِّمًا: "هذا ما لن أخبِرَك به".

قال دوناتي موافقًا: "طيِّب"، وابتسم إلى موريسون مُخفِّفًا من تَحَفُّزه.

"كل أسئلتك سيجاب عليها يوم غد في أولى جلسات علاجك".

قال موريسون: "هذا شيء حَسَن"، ثم نهض.

قال دوناتي: "سؤال أخير، أنت لم تُدخِّن سيجارةً منذ أكثر من ساعة، كيف تشعر؟".

"إحساسٌ جَيِّد. هكذا كذب موريسون. "جيِّد فحَسبُ".

هتف دوناتي: "أحسَنتَ!". مشى حول المكتب وفتح الباب، "استَمتِعْ بهم الليلة، فبعد الغَدِ، لن تُدخِّن مرَّةً أخرى أبدًا".

"أهذا صحيح؟".

قال دوناتي برصانةٍ: "يا سيد موريسون، نضمن لك هذا".

كان يجلس في المكتب الخارجي في شركة المُقلِعين المتحدة، استيَقَظَ في اليوم التالي عند الساعة الثالثة. قضى أغلب اليوم مُتردِّدًا بين تفويت الموعد الذي رتَّبَته له موظفة الاستقبال عند خروجه من الشركة، والانغماس في روح المشاركة العنيدة. أرِني أفضل رَميَةٍ لديكَ أيُّها الكريه!

في نهاية المطاف، شيء ما قاله چيمي ماكان قد أقنعه بالقدوم في الموعد، "غيَّرَ أركان حياتي". يعلَمُ الرَّبُّ أن حياته قد تفلح بشيءٍ من التغيير، ومن بعدها قاده فضوله. قبل استقلاله المصعد، دخَّنَ سيجارةً كاملة وصولًا إلى الفلتر. أطرَقَ مُفكِّرًا: يا للَّعنَة اللَّعناء لو كانت تلك السيجارة الأخيرة، فطعمها شنيعٌ.

أمضى وقتًا أقصر خلال الانتظار في المكتب الخارجي هذه المرَّة، وحين أبلغته موظَّفةُ الاستقبال كي يدخل، كان دوناتي ينتظره، مدَّ يَدَه بالسلام وابتسم، وبَدَت الابتسامة بالنسبة لموريسون شِبهَ إلزاميَّة. بدأ يشعر ببعض التوتُّر؛ وهو ما جعله يرغب في سيجارة.

"تعال معي". هكذا قال دوناتي، وقاد المسير إلى الغرفة الصغيرة. قعد خلف المكتب ثانية، وأخذ موريسون الكرسي الآخر.

قال دوناتي: "مُمتَنٌّ جدًّا لقدومك، كثير جدًّا من العُمَلاء المحتَمَلين لم يظهروا مرة أخرى بعد المقابلة الأولى، حيث يكتشفون أنهم لا يرغبون في الإقلاع عن التدخين بشكلٍ مُلِحٍّ حسبما ظَنُّوا، سيكون من دواعي سروري العمل معك على هذا".

"متى سيبدأ العلاج؟".

كان يفكِّر: تنويمٌ مغناطيسيٌّ، حتمًا سيكون تنويمًا مغناطيسيًّا.

"أوه، لقد بدأ فعليًّا، بدأ حين تصافحنا في الصالة، هل في حَوزَتِكَ سجائر يا سيد موريسون؟".

"نعم".

"أيُمكِنُني الحصول عليها، من فضلك؟".

موريسون ناول دوناتي عُلبَتَه وهو يهزُّ كتفيه، تَبقَى داخلها سيجارتان أو ثلاث على أيَّة حال.

وضع دوناتي العلبة على المكتب، ثم مع ابتسامَةٍ إلى عينَيْ موريسون، كوَّر يده اليمنى حتى استحالت قبضةً، وبدأ يدقُّ بها على علبة السجائر، حتى انهرست وانسحقت، وطار منها طرفُ سيجارةٍ مكسورة، وتبعثَرَ فُتاتُ التَّبغ. أحدث صوتُ قَبضَةِ دوناتي دويًّا هائِلًا في الغرفة المغلَقة. بقيت الابتسامةُ على وجهه رغم قُوَّة الضربات، واقشَعرَّ لها بَدَنُ موريسون. كان يفكِّر أن هذا هو الأثر الذي يرغبون في إحداثه.

في النهاية توقَّف دوناتي عن الهرس. التقط علبة السجائر، بعدما استحالت بقايا تالِفَةً منسحقة، قال: "لن تُصدِّق مدى المتعة التي أنالها من ذلك"، وألقى العُلبَة في سَلَّة المهملات، "ما زِلتُ أستمتع بهذا حتى بعد مرور ثلاث سنوات على إنشاء الشركة".

قال موريسون ببرود: "إذا اعتبرنا هذا علاجًا، فهو يُحافظ بداخلي على رغبَةٍ ما، يوجد كُشكٌ للصُّحف في رَدهَةِ هذه البناية ذاتها، ويبيعون جميعَ أصناف السجائر".

قال دوناتي مُشبكًا يديه: "كما تشاء. ابنك، آلفن داوز موريسون، في مدرسة باترسون للأطفال المعاقين، وُلد بتَلَفٍ في الفص القَحفيِّ من المخ، مُعدَّل ذكائه 46، لا يندرج بالضَّبط ضمن فئة المعاقين القابِلِين للتَّعلُّم، أمَّا زَوجَتُك...".

رفع موريسون صَوتَه: "كيف عَرفتَ هذا؟"، كان مذهولًا وغاضبًا، "ليس لكَ أيُّ حَقٍّ لعين أن تحشر نَفسَكَ في...".

قال دوناتي بعذوبَةٍ: "نعلم عنكَ الكثير، ولكن مثلما قُلتَ، كل شيء سيبقى في أقصى درجات السِّرِّيَّة".

قال موريسون بصوتٍ واهِنٍ: "سأخرُجُ من هنا"، ثم قام من مقعده.

"ابقَ لِوَقتٍ أطولَ".

نظر موريسون إليه عن قُربٍ. لم يكن دوناتي مُنزَعِجًا، في الواقع، بدا مستمتعًا بعض الشيء، كان وجهَ رَجُلٍ رأى رِدَّةَ الفعل هذه مرَّاتٍ عديدة، ربما مئات المرات.

"حسنًا، يجدر بالأمر أن يستحقَّ".

"آه، إنه يستَحِقُّ".

مال دوناتي إلى الوراء. "أخبَرتُكَ أننا أشخاص عمليُّون هنا، ولأننا عمليُّون؛ ينبغي علينا البدء في إدراك مدى صعوبة التَّعافي من إدمان التَّبغ، يبلغ مُعدَّل الانتكاس 85% تقريبًا، ومُعدَّل الانتكاس بين مُدمِني الهيروين أقلُّ من ذلك، يا لها من مشكلة غير عادية، غير عادية!".

ألقى موريسون نظرةً إلى سَلَّة المهملات. بدت إحدى السجائر رغم اعوجاجها صالِحَةً للتَّدخين.

ضحك دوناتي ضحكةً وَدودَةً، ومدَّ يده إلى سَلَّة المهملات، وقَصَمها بين أصابعه.

"أحيانًا، تتلقَّى الهيئات التشريعية في الدولة طلبًا ينصُّ على إلغاء أنظمة السجون للحصص الأسبوعية من السجائر، اقتراحات مثل هذه تُحبِطُ على الدَّوام، وفي حال تمريرها في حالات قليلة، تنشب أعمال شغب ضارية، أعمال شَغبٍ يا سيد موريسون. تخيَّل!".

قال موريسون: "لَم أُفاجَأ".

"ولكن فَكِّر في العواقب، حين تحبس رَجُلًا في سجنٍ، فأنتَ تَسلبُه الحياة الجنسية الطبيعية، وتنتزع منه شرابه الكحوليَّ، وقَناعاتِه السياسية، وحُرِّيَّته في الحركة. لا أعمال شغب، أو بعض منها بالمقارنة مع عدد السجون، ولكن حين تسلبه سجائره، وااام! بااام!". انهال بقبضته على المكتب تأكيدًا على الفكرة.

"خلال الحرب العالمية الأولى، وحين لم يفلح أحدٌ على الجبهة الداخلية الألمانية في جلب السجائر، كان من الشَّائع رؤية الأرستقراطيِّين الألمان وهم يلتقطون أعقاب السجائر من مصارف المياه. في الحرب العالمية الثانية، تحوَّلَت الكثيرات من النساء الأمريكيات إلى تدخين الغليون حين لم يُفلِحن في الحصول على السجائر. معضلة مثيرة لشَخصٍ عَمليٍّ على حَقٍّ يا سيد موريسون".

"هل يمكننا مباشرة العلاج؟".

"حالًا، اصعد هنا من فضلك"، قام دوناتي ووقف بجوار الستائر الخضراء التي لحظها موريسون أمس. أزاح دوناتي الستائر، وانكشفت نافذةٌ مستطيلة تُفضي إلى غرفة خاوية، لا، ليست خاويةً بالضبط، كان يوجد أرنبٌ على الأرض، يأكل حبيبات من طبق.

علَّق موريسون قائلًا: "أرنب لطيف".

"بالفعل، راقِبْه".

ضغط دوناتي زِرًّا عند حافَّة النافذة، توقَّف الأرنب عن الأكل وشَرَعَ في تَقافُزٍ جنوني، وبدا أنه يقفز لارتفاع أعلى في كل مرة تطأ فيها أقدامُه الأرض، وانتصب فراؤه مثل الشَّوكِ في أطراف جسده، وتوحَّشَت عيناه.

"توَقَّفْ عن هذا، أنت تُكَهرِبُه!".

ترك دوناتي الزِّرَّ، "بالعكس، في الأرض شحنة كهربية مُنخَفِضَة جدًّا. راقِبْ الأرنب يا سيد موريسون".

كان الأرنب رابضًا على بُعدِ عشرِ أقدامٍ من طبق الحبيبات، وتلوَّى أَنفُه، وفي دفعة واحدة قفز بعيدًا إلى أحد الأركان.

قال دوناتي: "حين يتعرَّض الأرنب للصَّعقِ في أثناء الأكل بما يكفي، سيستوعب بسُرعَةٍ فائقة أن الأكل مَصدَرُ الألم؛ لهذا لن يأكل، ومع بضعة صعقات إضافيَّةٍ، سيجوع الأرنب حتى الموت على مرأى من طعامه، وهذا ما يطلقون عليه التدريب على النُّفور".

بزغ الضَّوء داخل رأس موريسون.

"لا. شُكرًا!"، واتَّجه نحو الباب.

"انتَظِرْ من فضلك يا موريسون".

موريسون لم يتوقَّف، وأمسك بمقبض الباب، وشعر أنه يُفلِتُ من يده بِقوَّة، "فُكَّ قُفلَ الباب".

"سيِّد موريسون، لو جَلستَ فحَسبُ...".

"فُكَّ قُفلَ هذا الباب، وإلا سأستدعي لك الشرطة قبل أن تتفوَّه بعبارة "رجل المارلبورو"".

"اجلِسٍ". خرج الصَّوتُ باردًا مثل الثلج المكشوط.

نظر موريسون إلى دوناتي، كانت عيناه البُنِّيَّتان مُعكَّرَتَين ومُخيفتَين. أطرق مفكِّرًا: يا إلهي، أنا مُحتَجَزٌ هنا مع شخصٍ مُختلٍّ. لعَقَ شفتيه، ورغب في سيجارة أكثر من أي وقت مضى في حياته.

قال دوناتي: "سأشرح لك خُطَّة العلاج بمزيد من التفصيل".

قال موريسون بصبرٍ زائِف: "أنتَ لا تفهم، أنا لا أريد العلاج، قرَّرتُ ألَّا أحصل عليه".

"لا يا سيد موريسون، أنت الذي لا تفهم، أنت لا تملك خيارًا، حين أخبَرتُكَ أن العلاج بدأ بالفعل، كنتُ أقول الحقيقة بالحرف الواحد، كنتُ أظنُّ أنك فَطِنتَ لهذا الآن".

قال موريسون مُتعجِّبًا: "أنتَ مجنون".

"لا، أنا عملي فحسب، دعني أخبِرَكَ كل شيء عن خطَّة العلاج".

قال موريسون: "طبعًا، طالما أدرَكتَ أني بمجرَّد خروجي من هنا، سأشتري خمس علب سجائر وسأدخِّنها كُلَّها في طريقي إلى قسم الشرطة". لاحَظَ فجأةً أنه كان يقضم ظفر إبهامه، ويمصُّه، ودفع نفسه للتوقُّف.

"كما تشاء، لكنَّكَ ستُغيِّر رأيكَ حين ترى الصورة الكاملة".

لم يَقُل موريسون شيئًا، قعد ثانية وشبك يديه.

قال دوناتي: "في الشهر الأول من العلاج، سيضعك عملاؤنا تحت الملاحظة المستمرَّة، ستقدر على تحديد بعضهم، وليس جميعهم، لكنهم سيكونون دائمًا معي، دائمًا، إذا رأوك تُدخِّن سيجارةً، سيتَّصِلون بي".

قال موريسون: "وأتصوَّر أنك ستحضرني إلى هنا وتمارس عليَّ حيلة الأرنب القديمة"، وحاول أن يبدو باردًا وساخرًا، لكنه فجأة شعر بخوفٍ مُروِّع، كان هذا كابوسًا.

قال دوناتي: "أوه لا، ستُنفِّذ حيلة الأرنب على زوجتك، وليس عليكَ".

نظر إليه موريسون فاقِدًا النُّطق.

ابتسم دوناتي، وقال: "وينبغي عليك المشاهدة".

بعدما تركه دوناتي يخرج، تَمَشَّى موريسون لأكثر من ساعتين في ذهولٍ تامٍّ. كان يومًا طيِّبًا آخر، لكنه لم يَلحَظ ذلك، حيث تغلغلت وحشيَّةُ ابتسامة دوناتي في كل شيء.

كان يقول: "أترى، تتطلَّب المعضلة العَمليَّة حلولًا عملية، يجب أن تدرك أن مصالحك العليا في سويداء القلب".

وفقًا لدوناتي، كانت شركة المُقلعين المتَّحِدة أشبهَ بالمؤسَّسة، مُنظَّمة غير هادفة للربح، أنشأها الرَّجُلُ الموجود في صورة الجدار، كان السَّيِّد رَجُلًا فائِقَ النجاح في عِدَّة أعمال تجارية عائلية، بما فيها ماكينات القمار، وصالونات التدليك، واليانصيب، بالإضافة إلى تجارة مُنتَعِشَة (رغم التَّكتُّم عليها) بين نيويورك وتركيا.

كان مورت مينيلي "ذو الأصابع الثلاثة" مُدخِّنًا شَرِهًا، بمعدَّل ثلاث علب سجائر في اليوم، والورقة التي كان يحملها في الصورة فيها تشخيص الطبيب: سرطان في الرِّئَة. مات مورت في العام 1970 بعد التَّصدُّق بأموالٍ لإنشاء شركة المُقلِعين المتَّحِدَة بتمويلٍ عائلي.

قال دوناتي: "نحاول قدر الإمكان الوصول لنقطةِ تَعادُل، لكننا مُهتَمُّون أكثر بمساعدة رفيقنا، وبالطبع، الحصول على عائِدٍ ضريبيٍّ هائل".

كانت خُطَّة العلاج بسيطةً لدَرَجةٍ مُخيفة. مع أوَّل مخالفة: تُحضَر سيندي إلى ما أطلق عليه دوناتي "حجرة الأرنب". ثاني مخالفة: سيُصعَق موريسون بالكهرباء. ثالث مخالفة: سيُقتادان كلاهما معًا. أمَّا مع رابع مخالفة يظهر معها مشاكل خطيرة في إبداء التعاون، ستتطلَّب إجراءاتٍ أشدَّ صَرامَةً، حيث سيُرسَلُ عميلٌ إلى مدرسة آلفن ليضرب الفتى ضربًا مبرِّحًا.

قـال دونـاتي مبتسـمًا: "تَخيَّـلْ الوَقـعَ الرَّهيـب لهـذا عـلى الولـد، لـن يفهـم حتـى لـو تَطـوَّع أَحـدٌ بالـشَّرح لـه، كل مـا سـيعرفه هـو أن شـخصًا مـا يؤذيـه لأن بابـا شـخص سـيئ، سـيخاف أشـدَّ الخـوف".

قـال موريسـون بقِلَّـة حيلـة، وشـعر أنـك يوشـك عـلى البـكاء: "أيُّهـا اللقيـط، أيُّهـا اللقيـط القَـذِر الوسـخ".

قـال دونـاتي وهـو يبتسـم مُتضامِنًـا معـه: "لا تُسـئ فَهمـي، أنـا عـلى يقـينٍ أن هـذا لـن يحـدث، أربعـون بالمائـة مـن عملائنـا لم يحتاجـوا قَـطُّ إلى التأديـب، وعـشرة بالمائـة فقـط مَـن سـقطوا مـن النعمـة أكـثر مـن ثـلاث مـرات، يـا لهـا مـن أرقـام مُطَمئِنَـة، أليسـت كذلـك؟".

لم يَرَ موريسون أيَّ طُمَأنينة في هذه الأرقام، بل وجدها مُرعِبَة.

"وبالطَّبع إذا ارتكبتَ مُخالَفةً خامِسة...".

"ماذا تقصد؟".

وضَّـح دونـاتي مقصـده: "أنـتَ وزَوجَتُـكَ سـتدخلان الغرفـة، ويتعـرَّض ابنُـكَ للـضرب مـرَّةً ثانيـة، كـما سـتُضرب زوجَتُـكَ".

اندفـع موريسـون بقـوَّة عـلى مكتـب دونـاتي، منقـادًا لمـا وراء نقطـة الاسـتيعاب المنطقـي. تحـرَّك دونـاتي بسرعـة شـديدة بالنسـبة لرَجُـلٍ كان يبـدو مسترخيًا تمامًـا. دفـع الكـرسي إلى الخلـف، ودفـع كلتـا قدميـه فـوق المكتـب ونحـو بطـن موريسـون. ترنَّـح موريسـون إلى الـوراء وهـو يَسـعَلُ ويوشِـكُ عـلى التقيُّـؤ.

قـال دونـاتي مُتلطِّفًـا: "اجلِـسْ يـا سـيد موريسـون، ودعنـا نتناقـش في هـذا مثـل الرِّجـال العُقَـلاء".

حـين اسـتعاد أنفاسـه، امتثـل موريسـون لمـا أُمِـر بـه، عـلى الكوابيـس أن تنتهـي في وقـتٍ مـا، أليـس كذلـك؟

اسـتفاض دونـاتي في الـشرح: "في شركـة المُقلِعـين المتحـدة، نطبِّـق مقياسًـا للعقوبـات يتكـوَّن مـن عـشر درجـات، حيـث تشـتمل الدرجـات السادسـة والسـابعة والثامنـة عـلى المزيـد مـن الرحـلات إلى حجـرة الأرنـب (مـع مضاعفـة الجهـد الكهـربي) والمزيـد مـن الـضَّرب المـبرِّح، أمَّـا الخطـوة التاسـعة سـتكون تكسـيرَ ذراعَـيْ ابنِـكَ".

سأل موريسون وقد جف فمه: "والعاشرة؟".

هـزَّ دونـاتي رأسـه في حـزن: "وقتَئِـذٍ نستسـلم يـا سـيد موريسـون؛ حيـث سـتصير فـردًا مـن الـ 2% مـن غـير المولوديـن مـن جديـد".

"أتستسلم حقًّا؟".

"بطريقَـةٍ مـا"، ثـم فتـح أحـد أدراج المكتـب ووضـع مُسدَّسًـا عيـار 45. مُزوَّدًا بكاتِـمٍ للصوت عـلى المكتـب، ابتسـم لمرأى عينـي موريسـون، "لكـن حتـى الـ 2% الذيـن لا يُولـدون مـن جديـد لـن يُدَخِّنـوا مـرَّةً أخـرى؛ فنحـن نضمـن هـذا".

كان فيلـم أمسـية الجمعـة (بوليـت)[1]، أحـدَ أفـلام سـيندي المفضَّلـة، ولكـن بعـد سـاعة مـن غَمغَـماتِ وتَملمُـلات موريسـون- فقَـدَت تركيزهـا.

"ما خَطبُكَ؟". هكذا سألَت خلال مشهد الانكشاف في المحطَّة.

دمدم موريسون: "لا شيء.. كل شيء.. أقلَعتُ عن التَّدخين".

ضَحِكَت، "منذ متى، منذ خمس دقائق؟".

"منذ الساعة الثالثة بعد ظهر هذا اليوم".

"ومن وقتها، لم تُدخِّن سيجارةً حقًّا؟".

قال: "لا"، ثم شرع في قضم ظفر إبهامه، كان مقصوصًا حتى الجلد.

"رائع! ما الذي دفعَكَ لِتُقرِّر الإقلاع عن التدخين؟".

---

(1) فيلم من إنتاج العام 1968، ومن بطولة النجم الراحل ستيف ماكوين (المترجم)

قال: "أنتِ، و... وآلفن".

اتَّسعَت عيناها، وحين عاد الفيلم، لم تلحظ الأمر.

نادرًا ما يذكر ديك ابنهما المعاق، استدارت، ونظَرَت إلى منفضة السجائر الفارغة عند يده اليمنى، ثم إلى عينيه، "أتحاول حقًّا أن تقلع عن التدخين يا ديك[1]؟".

"حقًّا وصدقًا"، وأضاف في ذهنه: ولو ذَهَبتُ إلى الشرطة، ستأتي عُصبَةُ المُجرمين المحلِّيَّة إلى الجوار لتُغيِّر قَسَمات وَجهِكِ يا سيندي.

"أشعر بالامتنان، وحتى إذا لم تنجح، نشكرك كلانا على التفكير في ذلك يا ديك".

قال: "أوه، أظنُّ أني سأنجح"، وهو يفكّر في النظرة القَذِرة الفتَّاكة الصادرة من عينَيْ دوناتي حين ركله في بطنه.

لم يَنَم جيِّدًا في تلك الليلة، في تناوُبٍ بين الغفو والصحو، واستيقظ تمامًا حوالي الساعة الثالثة. كانت رغبته في سيجارة مثل حُمَّى منخفضة. نزل على السلالم متوجِّهًا إلى غرفة مكتبه، وتقع الغرفة في قلب المنزل، بلا نوافذ. فتَحَ الدُّرجَ العلوي في مكتبه وفتَّش فيه، فتنه صندوقُ السجائر. نظر من حوله ولعق شفَتَيْه.

دوناتي قال له قبلًا: مُراقبة متواصِلَة خلال الشهر الأول، ومراقبة لمدة 18 ساعة في اليوم خلال الشهرين التَّاليَيْن -لكنه لم يعرف قَطُّ أيَّ 18 ساعة في اليوم بالتحديد- وخلال الشهر الرابع، وهو الشهر الذي ينتكس فيه أغلبُ العُمَلاء، تعود "الخِدمَةُ" لتصير 24 ساعة في اليوم، ثم 12 ساعة من المراقبة المتقطِّعة يوميًّا بقيَّةَ العام، وبعد ذلك؟ مراقبة عشوائية على مدار بقيَّة حياة العميل.

لبقيَّة حياته.

---

(1) اسم تدليل يطلق دومًا على من اسمهم (ريتشارد) في العموم (المترجم)

قال دوناتي: "قد نُراجِعُكَ كلَّ شهرين، أو كل يومين، أو ربما بشكلٍ مُتواصِلٍ لمدَّة أسبوع بعد سنتين من الآن، الخُلاصة أنك لن تعرف أبدًا، إذا دخَّنتَ، ستقامر بنردٍ مغشوش. هل يراقبونني؟ هل سيختطفون زوجتي أو يرسلون رَجُلًا في إثر ابني في التَّوِّ واللحظة؟ شيء جميل، أليس كذلك؟ وإذا هرَّبتَ سيجارة، ستذوق طعمًا مُرًا، سيكون طعمُه مثل دماء ابنك".

ولكن لا يمكن أن يراقبوا الآن، في عَتَمَة الليل، في غرفة مكتبه.

كان المنزل هادئًا مثل القبور.

تطلَّع إلى السجائر في الصندوق لمدة دقيقتين تقريبًا، دون قُدرَةٍ على التحديق بعيدًا، ثم اتَّجه إلى باب حجرة المكتب، مُطيلًا النظر إلى الصالة الخاوية، ثم عاد ثانية للتطلُّع إلى السجائر لمزيدٍ من الوقت. بزغ مشهدٌ مُروِّع: حياته تمتدُّ أمام ناظريه دون وجود سيجارة في الأفق، كيف سيتسنَّى له بحَقِّ الرب أن يُقدِّم عرضًا تلخيصيًّا متماسِكًا لعميل قَلِقٍ من غير سيجارة تحترق بين إصبعيه دون اكتراثٍ في أثناء تقديمه للجداول والتصميمات؟ كيف سيقدر على تَحمُّل برامج سيندي التَّلفزيَّة التي لا تنتهي عن الحدائق دون سيجارة؟ كيف سيستيقظ في الصباح أصلًا ويواجه يومَه دون سيجارة يُدخِّنها وهو يشرب القهوة ويُطالع الجريدة؟

شتم نفسه على تَوَرُّطِه في هذا، وشتم دوناتي، والأهم من ذلك أنه شتم چيمي ماكان، كيف فعل هذا فيه؟ ابن القحبة كان يعلم، ارتعشت يداه من رغبتها في الإمساك بچيمي "يهوذا" ماكان.

حدَّق من حوله خلسة في حجرة المكتب، مدَّ يده إلى الدرج وأخرج سيجارة. داعبها ودَلَّلَها. ماذا كان هذا الشعار التجاري القديم؟ شديدة الاستدارة، شديدة التماسُك، محشوَّة بالكامل. لم تُقَلْ

قَطُّ كلماتٌ أصدَق من هذه. وضع السيجارة في فمه ثم توقَّف وهو يدير رأسه.

هل صدر ولو أوهن صوتٍ من الخزانة؟ تحرَّك طفيف؟ بالطبع لا، ولكن في مشهد آخر في ذهنه، قفز ذلك الأرنب بجنونٍ وهو تحت سيطرة الكهرباء، والتفكير في وجود سيندي في هذه الغرفة. أنصَتَ باستماتة ولم يسمع شيئًا. أخبر نفسه أن كل ما عليه فعله هو الذهاب إلى باب الخزانة وشَدُّه ليفتحه. لكن خوفه اشتدَّ ممَّا قد يجد، عاد إلى الفراش ولم يَنَم لوقت طويل.

رغم إحساسه السيِّئ في الصباح، بدا طعم الإفطار طيِّبًا. بعد هُنَيهَةٍ من التَّردُّد، أكل بيضًا مخفوقًا بعد زبديَّته المعتادة من رقائق الذرة. كان يغسل الطاسة في تَجهُّمٍ حينما نزلت سيندي مُرتَدِيَةً روبها.

"ريتشارد موريسون، أنت لم تأكل بيضًا على الإفطار منذ كان هكتور جروًا[1]".

نخر موريسون، اعتبر عبارة "منذ كان هكتور جروًا" من أغبى مقولات سيندي، على قدم المساواة مع عبارة "سأبتسم وأُقبِّل خنزيرًا[2]".

سألَت وهي تصبُّ عصير البرتقال: "هل دَخَّنتَ؟".

"لا".

أعلنت مَرِحَةً: "ستعود إليها بحلول الظَّهيرة".

(1) عبارة شهيرة جرت على الألسن منذ حقبة العشرينيات في القرن العشرين، ومعناها "منذ وقت طويل جدًا"، ويعود أصلها حين كان طلبة المدارس الأمريكية يدرسون اللغة اليونانية، وانتشرت عادة تسمية كلابهم باسم (هكتور) نسبة إلى أمير طروادة وقائد الجيش في ملحمة هومر الشهيرة (الإلياذة) (المترجم)

(2) إشارة إلى ضرب من المسابقات المدرسية، من يحصل فيها على أغلبية الأصوات ويُقبل الخنزير، فهو الخاسر (المترجم)

ردَّ بخشونة وهو يستدير لها: "ونِعمَ العَوْن اللعين الذي تُقدِّمينه، أنتِ وأي شخص آخر لا يدخِّن، تَظُنِّين أنَّكِ آآ... لا تهتمِّي".

توقَّعَ منها أن تغضب، لكنها كانت تنظر إليه، وعلى وجهها تعبيرٌ يُشبه الاندهاش.

قالت: "أنتَ جادٌّ حقًّا، أنتَ كذلك".

"أنا جادٌّ حقًّا"، آمل ألَّا تعرفي أبدًا مدى جدِّيَّتي.

قالت وهي مُتَّجِهة إليه: "حبيبي المسكين، تبدو وكأن الموتَ زاركَ من جديد، كم أشعر بالفخر".

عانَقَها موريسون بقوة.

مَشاهِدُ من حياة ريتشارد موريسون، أكتوبر/نوڤمبر:

موريسون في صُحبَة صديق مُقرَّب من ستوديوهات لاركن، جالسان في بار چاك دمبسي، الصديق يقدِّم له سيجارة، موريسون يسحب كأسه ويشدُّ عليه ويقول: إني مُقلِعٌ عن التدخين، يضحك الصديق ويقول: سأُمهِلُكَ أسبوعًا.

موريسون في انتظار قطار الصباح، يلقي نظرةً من فوق جريدة التايمز على شاب يرتدي بذلة زرقاء. بات الآن في كلِّ صباح تقريبًا يرى الشاب، وأحيانًا في أماكن أخرى، في "أوندي"، حيث يعقد لقاءً مع عميل، أو وهو يبحث عن أسطوانة ذات 45 دورة في متجر "سام جودي"، حيث يبحث موريسون عن ألبوم سام كوك، وذات مرَّة ضمن مجموعة من أربعة أشخاص خلف مجموعة موريسون في مجمع الجولف المحلي.

موريسون سَكِرَ في حفلة، راغبًا في سيجارة، لكنه لم يسكر بما يكفي كي يأخذ سيجارة.

موريسـون يـزور ابنـه، مُحـضِرًا لـه كُـرَةً كبـيرة تُـصَرصِر عنـد الضغـط عليهـا. لم تَعُـد قُبلـة آلفـن المبتهجـة المبلَّلـة باللعـاب مُنَفِّـرَة كـما كانـت قبـلًا. يحتضـن ابنـه بقـوة، مُسـتَوعِبًا -ويـا للسـخرية!- مـا فطـنَ إليـه دونـاتي وزمـلاؤه مـن قبلـه: الحُـبُّ أكثر مُخـدِّرٍ ضار بـين المخـدِّرات كافَّـةً، دَعْ الرومانسـيِّين يتجادلـون حـول وجـوده، بينـما يَتَقبَّلُـه البراجماتيُّـون ويسـتغلُّونه.

موريسـون يفقـد الدافـع الجسـماني للتدخـين رويـدًا رويـدًا، لكنـه لا يفقـد أبـدًا الاشـتهاء النفسي، أو الاحتيـاج لوجـودٍ شيء مـا في فمـه: أقـراص اسـتحلاب، حلـوى لايـف سـيفرز، خِلَّـة أسـنان، وكلهـا بدائـل ضعيفـة.

وفي النهايـة، عَلَـقَ موريسـون في زحـام مـروري مهـول في نفـق ميدتـاون، ظـلام، نفـير أبـواق السـيارات، هـواء عَفِـن، مسـارات مروريـة متشـابكة دون أمـل. وفجـأة، خبـط فاتحًـا تابلـوه السـيارة ورأى بداخلهـا علبـة سـجائر نصـف مفتوحـة. نظـر إليهـا للحظـة، ثـم اختلـس سـيجارة وأشـعلها بولاعـة السـيارة. قـال لنفسـه مُتحدِّيًـا: لـو حـدث أي شيء، فهـو خطـأ سـيندي، قلـتُ لهـا أن تتخلَّـص مـن كل السـجائر اللعينـة.

دفعتـه أول سـحبة مـن السـيجارة أن يُخـرج الدخـان في كُحَّـة شَرِسَـة، والثانيـة أدمعـت عينـاه، وأشـعرته الثالثـة بخفَّـة الـرأس والإغـماء، كان يفكِّـر: طعمهـا يقـرف.

وفي أعقاب هذا: يا إلهي، ما الذي اقترفه؟

صرَخَـت أبـواق السـيارات مـن خلفـه بنفـاد صـبر، وفي الطليعـة بـدأ المـرور يتحـرَّك مـن جديـد، سـحق عقـب السـيجارة في المنفضـة، وفتـح النافذتـين الأماميَّتـين، وفتـح منافـذ الهـواء، ثـم رَوَّح بيـده الهـواءَ بشـكلٍ بائِـسٍ مثـل فتـى شَـدَّ السـيفون عـلى أول عقـب سـيجارة لـه في المرحـاض.

انضمَّ مُرتَبِكًا إلى التيار المروري، وقاد السيارة إلى المنزل.

نادى قائلًا: "سيندي، أنا في المنزل".

لا رَدٌّ.

"سيندي، أين أنتِ؟".

رنَّ جرس الهاتف، وانقضَّ عليه.

"ألو، سيندي؟".

أجاب دوناتي، وبدا صوته نشيطًا وعمليًّا بطريقة مُحبَّبة: "مرحبًا يا سيد موريسون، يبدو أن لدينا مسألة بسيطة تستلزم حضورك، أيناسبك الحضور عند الساعة الخامسة؟".

"هل زوجتي عِندَكَ؟".

ضحك دوناتي مُتَبسِّطًا: "نعم، طبعًا".

هذى موريسون: "دَعْها تذهب، لن يتكرَّر ما حدث ثانية، كانت هفوةً، مُجرَّد هَفوَة، هذا كل شيء. سَحَبتُ ثلاثة أنفاس من السيجارة، وبحَقِّ الرَّبِّ لم يَطِبْ لي طَعمُها!".

"يا للعار، أتوقَّع منك إذن أن تأتي في الساعة الخامسة، أليس كذلك؟".

قال موريسون موشِكًا أن يذرف الدموع: "أرجوك، أرجوك..". وبات يتحدَّث إلى خَطٍّ مُغلَق.

في الساعة الخامسة مساء، كانت غرفة الاستقبال خاوِيةً إلَّا من السكرتيرة، التي مَنحَته ابتسامةً لحظيَّة، متجاهِلَةً شحوب وجه موريسون ومظهره غير المُهَندَم.

قالت السكرتيرة عبر جهاز الاتصال الداخلي: "سيد دوناتي؟ حضر السيد موريسون لمقابلتك".

كان دوناتي ينتظر خارج الغرفة غير المميَّزة مع رَجُلٍ يرتدي قميصًا قطنيًّا طُبِعَت عليه كلمة "ابتَسِمْ"، ويحمل مسدَّسًا من طراز إي 38. كان بنيان جسده مثل القرد.

قال موريسون لدوناتي: "اسمع، يمكننا التَّوصُّل لحَلٍّ ما، سأدفع لك، ســـ...".

"إيييخررررص". هكذا صرخ الرجل المرتدي قميص "ابتسم".

قال دوناتي: "كم جميل أن نراك، آسف على حدوث هذا تحت ظروف مناوِئَة، هلَّا تأتي معي؟ سنوجز الأمر قدر المستطاع، أؤكِّد لك أن زوجتك لن يطالها أذى.. هذه المرَّة".

شدَّ موريسون نفسه قافزًا نحو دوناتي.

قال دوناتي وهو يبدو متضايقًا: "تعال تعال، إذا فعَلتَ ذلك، سيضربك چانك بقبضة يد المسدس، ومع ذلك ستنال زوجتك نصيبها، والآن ما المكسب من وراء هذا؟".

قال لدوناتي: "آمل أن تتعفَّن في الجحيم".

تنهَّد دوناتي. "لو حصَلتُ على "نيكل" عن كُلِّ مرَّة أبدى فيها شخصٌ ما وجهة نظرٍ كهذه إليَّ؛ فسوف أتقاعد، فليَكُن هذا درسًا لك: حين يحاول الرومانسيُّ أن يقوم بفِعلٍ طيِّب ويفشل، سيمنحونه ميدالية، وحين ينجح الشخص العملي، يتمنَّون ذهابه إلى الجحيم، هَلُمَّ نذهب؟".

تحرَّك چانك مع المسدس.

سبقهم موريسون إلى الغرفة، شاعِرًا بالخَدَر.

سُحِبَت الستارة الخضراء الصغيرة، ونخسه چانك بالمسدَّس، أطرق مُفكِّرًا: بالتأكيد هذا ما يكون عليه حال الشاهد في غرفة الإعدام بالغاز.

نظر إلى الداخل، كانت سيندي هناك، تنظر من حولها مذهولةً.

نادى موريسون في يأس: "سيندي! سيندي، إنهم...".

قال دوناتي: "لن تستطيع سماعَكَ أو رؤيتَكَ، إنه زُجاجٌ عازِلٌ، حسنًا، لننتهِ من هذه المسألة، كان الأمر مُجرَّد هفوة صغيرة جدًّا، أظنُّ أن ثلاثين ثانية تكفي. چانك؟".

ضغط چانك على الزِّرِّ بِيَدٍ واحدة وأبقى المسدَّسَ محشورًا بشدَّة في ظهر موريسون مع الآخر.

كانت أطولَ ثلاثين ثانية في حياته.

حين انتهى الصَّعقُ، وضع دوناتي يدًا فوق كتف موريسون، وقال: "هل ستتقيَّأ؟".

قال موريسون واهنًا: "لا"، وجبهته قُبالَة الزجاج، وصارت قدماه هُلَّاميَّتَيْن، "لا أظنُّ ذلك"، استدار واكتشف ذهاب چانك.

قال دوناتي: "تعالَ معي".

سأل موريسون دون مبالاة: "إلى أين؟".

"أظنُّ أن لديك بضعة أشياء لِتُوَضِّحَها، ألستَ كذلك؟".

"كيف سأواجهها؟ كيف سأخبرها أن.. آآ..آ...".

قال دوناتي: "أَظُنُّ أنك ستُفاجَأ".

خَلَت الغرفة إلا من أريكة، جلست عليها سيندي، تَشهَقُ باكِيَةً وهي مغلوبة على أمرها.

قال بِرِقَّة: "سيندي؟".

تطلَّعَت بنظرها، وتعاظَمَت الدموع في عينيها. همَسَت: "ديك؟ ديك؟ يا.. يا إلهي"، احتَضَنَها بقوَّة، وقالت ووجهها على صدره:

"رَجُلان، في المنـزل، ظَنَنـتُ في البدايـة أنهـما لِصَّـان، ثـم ظَنَنـتُ أنهـما سـيغتصبانني، ثـم أخـذاني إلى مـكانٍ مـا مـع عِصابَـةٍ فـوقَ عينـيَّ و... و... آه مـا حـدث كان رهيبًـا".

قال: "ششششش، ششششش".

سألت وهي تنظر إليه: "ولكن لماذا؟ لماذا هم...؟".

قال: "بسببي أنا، عليَّ أن أُخبِرَكِ قصَّةً".

حـين فـرغ مـن الحـكي، صمـتَ لِلَحظَـةٍ، ثم قـال: "أظـنُّ أنـك تكرهينني، لـن ألومَكِ".

كان ينظـر إلى الأرض، وأخـذت وجهـه بـين يديهـا، وأدارتـه نحـو وجههـا. قالـت: "لا، أنـا لا أكرَهُـكَ".

نظر إليها في اندهاش صامت.

قالـت: "كان الأمـر يسـتحقُّ، فليبـارك الـرَّبُّ أولئـك الأشـخاص، فقـد حَـرَّروكَ مـن سـجنِكَ".

"أتعنين ما تقولين؟".

قالـت: "نعـم"، وقبَّلَتـه، "أيمكننـا العـودة للمنـزل الآن؟ أشـعر بتحسُّـنٍ كبـير، كبـير جـدًّا".

رنَّ جَـرَسُ الهاتـف ذات ليلـة بعـد أسـبوع، وحـين ميَّـز موريسـون صـوت دونـاتي، قـال: "فتيانُـكَ مُخطِئـون، لم أقـترب أصـلًا مـن سـيجارة".

"نعلـم هـذا، لدينـا مسـألة أخيرة نتناقـش حولهـا، أيُمكِنُـكَ المـرور علينـا غـدًا بعـد الظهر؟".

"هل...".

"لا، ليـس شـيئًا خطيرًا، مجـرَّد تسـجيلات في الدفاتـر، بالمناسـبة، مـبروك عـلى ترقيَتِـكَ".

"كيف عَلِمتَ بهذا؟".

قال دوناتي بنبرَةٍ مُحايِدة: "نحتفظ بأجهزة تنصُّت"، وأغلق الخَطَّ.

حين دخلا الغرفة الصغيرة، قال دوناتي: "لا تَتوتَّرْ هكذا، لن يَعضَّكَ أحدٌ، اصعد إلى هنا من فضلك".

رأى موريسون ميزانَ حَمَّامٍ تقليديًّا. "اسمع، لقد زاد وزني قليلًا، لكن...".

"نعم، هكذا حال 73% من عُمَلائنا، اصعد من فضلك".

امتثل موريسون، ومالت المؤشِّرات إلى مائة وأربعة وسبعين.

"حسنًا، تمام، يُمكِنُكَ النزول. كم طولُكَ يا سيد موريسون؟".

"5.11".

"حسنًا، لِنَرَ".

سحب بطاقة صغيرة مُغلَّفة بالبلاستيك من جيبه عند الصدر. "حسنًا، هذا ليس سيِّئًا، سأكتب لك وصفةً ببعض حبوب التخسيس المحظورة قانونًا، استَخدِمها باعتدال حسب الإرشادات، وسأُحدِّد لك الوزن الأقصى عند... لِنَرَ...".

راجَعَ البطاقة ثانية. "182، ما رأيك في هذا؟ وبما أننا في الأول من ديسمبر، سأنتظرك أوَّلَ كُلِّ شهر من أجل قياس الوزن، إذا لم تَستَطِع فلا مشكلة، طالما اتَّصَلتَ من قبلها".

"وماذا يحدث إذا زدت عن 182؟".

ابتَسَمَ دوناتي وقال: "سنرسل شخصًا ما إلى منزلك كي يقطع إصبع زوجتك الخنصر، يمكنك المغادرة من هذا الباب يا سيد موريسون، أتمنَّى لك يومًا طيبًا".

بعد ثمانية أشهر:

موريسون يسارع إلى الصديق من ستوديوهات لاركن في حانة دمبسي، موريسون وصل إلى ما تُسمِّيه سيندي بفَخرٍ "وزنه القتالي": 167. يتمرَّن ثلاث مرات في الأسبوع، ويبدو جسدُه مَمشوقًا مثل الوتر، أمَّا الصديق من لاركن، فيبدو بالمقارنة مثل قِطٍّ مَجرور.

الصديق: يا إلهي، كيف أقلَعتَ من الأساس؟ أنا أسيرٌ لهذه العادة أكثر من تيلي. يُخرِجِ الصَّديقُ سيجارته باشمئزازٍ صادق، ويشرب كأس الويسكي.

موريسون ينظر إليه متأمِّلًا ثم يُخرِج من محفظته بطاقةَ أعمالٍ بيضاء صغيرة. يَضَعُها على البار بينهما، قال: أتعلم، أولئك الناس غيَّروا حياتي.

بعد اثنَيْ عشر شهرًا:

موريسون يتلقَّى فاتورة عبر البريد، وَرَدَ في الفاتورة:

شركة المُقلعين المتَّحِدَة

237 شرق شارع 46

مدينة نيويورك، 10017

مكتبة
t.me/t_pdf

علاج: 2500$

استشارة (ڤكتور دوناتي): 2500$

كهرباء: 50 $

المجموع (برجاء دفع المبلغ المذكور): 5000.50$

انفجـر قائـلًا: "أبنـاء القِحـاب، غرَّمـوني المـال مقابـل الكهربـاء التـي اعتـادوا أن... أن...".

قالت له: "ادفع المال فحَسبُ"، وقَبَّلَته.

بعد عشرين شهرًا:

بالصُّدفـة، موريسـون وزوجتـه التقيـا بچيمـي مـاكان وزوجتـه في مسرح هيلـين هايـز، وجـرى التعـارُف بـين الجميـع. چيمـي بـدا في حالـة طيِّبـة إن لم يكـن أفضـلَ مـن يـوم التقـاه في صالـة الوصـول في المطـار منـذ زمـن طويـل، ولم يكـن موريسـون قـد التقـى بزوجتـه مـن قبـل، كانـت لجمالهـا إشراقـةٌ تنبثـق مـن الفتيـات العاديَّـات حـين يَكُـنَّ في أعـلى قِمَـم السـعادة.

مـدَّت يدهـا وصافحهـا موريسـون. شيء غريـب في مِسـكَةِ يدهـا، أدرك ماهيَّتـه خـلال الفصـل الثـاني تقريبًـا. إصبـع الخنـصر في يَدِهـا اليُمنـى غـيرُ موجودٍ.

أعرِفُ ما تُريدين

"أعرف ما تريدين".

رفَعَت إليزابيث ناظِرَيْها عن كتاب علم الاجتماع، وذُهِلَت، حيث رأت شابًا شِبهَ مُستَعصٍ على الوَصف، يرتدي معطفًا عسكريًّا أخضر، ظنَّت للحظة أنه يبدو مألوفًا لها، كما لو أنها تعرفه من قبل، كان إحساسًا أقرب ما يكون للديچا ڤو، ثم ولَّى الإحساس. كان في نفس طولها تقريبًا، ونحيفًا، و... مُتشنِّجًا، تلك هي الكلمة. لم يكن يتحرَّك، لكنه بدا أنه يتشنَّج داخل جلده، شيءٌ خارِجٌ عن نطاق النظر. كان شَعرُه أسودَ وغيرَ مُمشَّط. ارتدى نظَّارَةً مصنوعة من قرون الحيوانات؛ مِمَّا كبَّر حجم عينَيْه البُنِّيَّتَيْن الدَّاكِنَتيْن، وبدتا العَدَستان مُتَّسِخَتَيْن. لا، كانت متأكِّدةً أنها لم تره من قبل.

قالت: "أتعلم، أشكُّ في ذلك".

"تريدين مخروطًا فيه بولَتَان من آيس كريم الفراولة، صح؟".

غمَـزَت بعينيهـا، وبـان عليهـا الدهشـة، كانـت تفكِّـر في مـكانٍ مـا داخـل مؤخِّـرَة رأسـها في الحصـول عـلى اسـتراحة مـن أجـل الآيـس كريـم. كانـت تسـتذكر مـن أجـل الاختبـارات النهائيـة في إحـدى مقصـورات الـدَّور الثالـث في اتِّحـاد الطُّـلَّاب، ومـا زال أمامهـا -ويـا للحُـزن!- طريـقٌ طويـلٌ لتمـضي فيـه.

"صح؟".

تمسَّـكَ بكلامـه وابتسـم، وهـو مـا حَـوَّل وجهـه مـن شيءٍ شـبه قبيـح ومُغـالٍ في الانفعـال إلى شيءٍ آخـر جـذَّاب بشـكل غريـب. خطـر في بالهـا كلمـة "رقيـق"، وهـي ليسـت بكلمـة يليـق أن يُبتـلى بهـا ولـد، لكنهـا صـارت الكلمـة المُلِحَّـة حـين ابتسـم، بادَلَتـه الابتسـامة قبـل أن يتسـنَّى لهـا حبسـها وراء شـفَتَيْها، وهـو مـا لم تحتَـجْ إليـه، أن تُضطـرَّ لتضييـع الوقـت في إبعـاد شـخصٍ غريـب قـرَّر اختيـار التوقيـت الخطـأ مـن العـام كي يحـاول تَـرْكَ انطبـاعٍ مـا. مـا زال أمامهـا سـتَّة عـشر فصـلًا مـن كتـاب مُقدِّمـة في علـم الاجتـماع كي تجتازهـم.

قالت: "لا. شكرًا!".

"حَسبُكِ! إذا ضغطـتِ عـلى نفسـك أكـثر مـن ذلـك، سـتُصابين بصُـداعٍ، كُنـتِ تَسـتَذكِرين منـذ سـاعَتَيْن دون اسـتراحة".

"كيف عرفتَ ذلك؟".

قـال عـلى الفـور: "كنـتُ أُراقِبُـكِ"، لكـنَّ ابتسـامته الصبيانيـة هـذه المـرة تركـت أثرهـا عليهـا. إنهـا تعـاني بالفعـل مـن صـداع.

قالـت بنـبرة أكـثر حـدَّة مـمَّا انتـوَت: "حسـنًا، توقَّـفْ عـن هـذا، لا أحـبُّ تحديـق النـاس إليَّ".

"أنا آسِف".

شعرَت بالحسرة عليه بعض الشيء، مثلما تشعر بالحسرة حيالَ الكلاب الضَّالَّة. بدا أنه يغوص داخل معطفه العسكري الأخضر، و... نعم، جَورباه غير مُتطابِقَيْن: أحدهما أسود، والآخر بُنِّيٌّ. أحسَّت نفسها على استعداد للابتسام ثانية، فألجمت الابتسامة.

قالت برقَّة: "لديَّ تلك الاختبارات النهائية".

قال: "طبعًا، بالتأكيد".

نظَرَت إليه لهُنَيهَةٍ في حالة من التَّفكُّر، ثم أخفضت نظرها نحو كتابها، ولكن بقي من هذا اللقاء أثَرُ صورةٍ بعد زوالها من أفق النظر: بولتان من آيس كريم الفراولة.

أشارت الساعة إلى الحادية عشرة والربع مساء حين عادت إلى مسكنها، وآليس مُتمدِّدة على فِراشها، تستمع إلى نيل دايموند وتقرأ رواية "قصة أُو[1]".

قالت إليزابيث: "لم أعرف أنهم كلَّفوكِ بدراسة هذه الرواية في أ- ش 17".

جلَسَت آليس.

"أُوسِّع آفاقي يا عزيزتي، وأنشر رياحي الثقافية، وأرتقي بـ... ليز؟".

"هممممم؟".

"أسِمعتِ ما قُلته؟".

"لا، آسفة، أنا...".

"تبدين كأنَّ أحدًا ضَرَبك على رأسك يا صبية".

---

(1) رواية إيروتيكية فرنسية شهيرة صدرت في العام 1954، كتبتها الروائية الفرنسية آن ديكلو تحت الاسم المستعار بولين رياج، وظلت هوية المؤلفة مجهولة بعد نشرها لمدة أربعين عامًا (المترجم)

"قابَلتُ الليلةَ فتًى، فتى غريبًا بعض الشيء".

"أوه؟ إنه لأَمرٌ جَلَلٌ حتمًا إذا استطاع أن يفصل روجان العظيمة عن كتبها الحبيبة".

"اسمه إدوارد چاكسون هامنر. طالب في السنة الثالثة لا أكثر، قصير، نحيف، يبدو وكأنه غسل شَعرَ رأسه وقت عيد ميلاد واشنطن[1] تقريبًا، ولديه جَورَبان غيرَ متطابِقَيْن: جورب أسود وجورب بني".

"ظَنَنتُ أنَّكِ تنجذبين لنموذج فتية الأندية الطلابية".

"لا شيء فيه من هذا يا آليس، كنت أستَذكِرُ في الاتِّحاد في الدور الثالث في المقصورة، ودعاني على آيس كريم في مطعم "جريندر". قُلتُ له لا، وبعدها انسلَّ خفيَةً بعض الشيء، لكنه بمجرَّد أن أثار تفكيري في الآيس كريم، لم أستَطِع المقاومة، قرَّرتُ الاستسلام فحسب، وأخذتُ استراحة، وكان هناك يحمل مخروطَيْن كبيرين في كُلٍّ منهما بولتان من آيس كريم الفراولة".

"ارتعد من سماع الخاتمة".

تذمَّرَت إليزابيث: "طَيِّب، لم أستَطِع أن أقول لا؛ لذا جلس، واتَّضح أنه درس علم الاجتماع مع البروفيسور برانر في العام الماضي".

"المُعجِزات لا تنقطع، رحماك يا رب، في أرض جَاسَان إلى عيد الميلاد...".

"اسمعي، هذا أمر مُثيرٌ حقًّا، تعرفين كيف كنتُ أكدَحُ في هذا الفصل الدراسي؟".

"نعم، أنتِ تتحدَّثين عن هذا في أثناء نومك، فعليًّا".

---

(1) عيد قومي في الولايات المتحدة الأميركية، يحتفل فيه الأميركيون بذكرى ميلاد چورچ واشنطن، أول رئيس للولايات المتحدة الأميركية، في ثالث يوم اثنين في شهر فبراير من كل عام (المترجم)

"حصَلتُ على مُعدَّلٍ تَراكُميٍّ 78، كان ينبغي عليَّ الوصول إلى 80 درجة للحفاظ على منحتي الدراسية، وهو ما يعني أنِّي في حاجة لـ 84 درجة في الاختبار النهائي. طيِّب، إد هامنر هذا يقول إن برانر يلجأ لنفس الاختبار النهائي تقريبًا كل عام، و"إد" وَلَدٌ قَويُّ الذَّاكرة".

"أتقصدين أنه يملك.. ما اسمها.. ذاكرة تصويرية؟".

"نعم، انظري إلى هذا"، وفتَحَت كتابَ عِلم الاجتماع وأخرجت ثلاث ورقات من دفترها مسطورة بالكتابة.

أخذتهم آليس. "إنها مثل أسئلة الاختيار من مُتعدِّد".

"إنها كذلك، يقول إد إن هذا اختبار برانر النهائي للعام الفائت، كلمة بكلمة".

قالت آليس بصوتٍ خافِتٍ: "لا أصدِّق ما أراه".

"لكنَّه يُغطِّي المادَّةَ بأَسرِها!".

"ما زِلتُ لا أصدِّق"، وأعادت الأوراق، "فقط لأن هذا الشبح...".

"إنه ليس شبحًا، لا تنادِيه بهذا".

"حاضر، هذا الفتى الصغير لم يُوهِمْكِ بأن تحفظي هذه الأوراق غَيبًا دون استذكار على الإطلاق، أليس كذلك؟".

قالت بنبرة مُتشكِّكَة: "بالطَّبع لا".

"وحتى لو كان هذا يشبه الاختبار، أتظُنِّين أن هذا فِعلٌ أخلاقيٌّ؟".

فاجأها الغضب وأفلَتَ لِسانها قبل أن تكبحه.

"هذا شيء عظيم بالنسبة لك، طبعًا، تحصلين على تقدير من العميد في كل فصل دراسي، ورُفَقاؤك يساهمون في النفقات، أنتِ لست...".

"حسنًا، أنا آسِفَة، لا داعي لكل هذا".

هـزَّت آليـس كتفيهـا، وانفتـح فَمُهـا عـلى شـكل حـرف O، وحافـظ وجهُهـا عـلى حياديَّـة التعبـير. "لا، أنـتِ عـلى حَـقٍّ، هـذا ليـس مـن شـأني، ولكـن لِـم لا تسـتذكرين الكتـاب، مـن بـاب الاحتيـاط فقـط؟".

"سأفعل بالطَّبع".

لكنَّهـا اسـتَذكَرَت في المقـام الأول أوراقَ الاختبـار التـي زوَّدَهـا بهـا إدوارد چاكسـون هامـنر چونيور.

حـين خرَجَـت مـن قاعـة المحـاضرات بعـد الاختبـار، كان يجلـس في الرَّدهـة، غائصًـا في معطفـه العسـكري الأخـضر. ابتسـم لهـا في تـردُّدٍ. "كيـف سـار الاختبـار؟".

اندفعـت وقبَّلَتـه عـلى خَـدِّه، لا تتذكَّـر أنهـا شـعرت مـن قبـل بهـذا الإحسـاس السـعيد بالارتيـاح.

"أظنُّ أني برعت فيه".

"حقًّا؟ عظيم، أتودِّين تناوُلَ البرجر؟".

قالـت ذاهِلَـةً: "أَوَدُّ شـطيرةً"، كان عقلهـا مـا يـزال مـع الاختبـار، كان نفـس الاختبـار الـذي أعطـاه إيَّاهـا إد، كلمـة بكلمـة تقريبًـا، وقـد تبحَّـرت فيـه.

سألته وهما يتناولان البرجر عن حاله مع اختباراته النهائية.

"ليـس لـديَّ اختبـاراتٌ نهائيـة؛ فأنـا في سـلك الدراسـة الشرفيـة، ولا أخـوض الاختبـارات إلَّا لـو أرَدتُ ذلـك، وأدَّيـتُ بشـكلٍ طَيِّـب؛ لِـذا لم أَخُـض الاختبـارات".

"ولكن لماذا ما زلت هنا؟".

"وَجَبَ عليَّ الاطمئنان على أدائك في الاختبار، أليس كذلك؟".

"إد، أنتَ تمزح، كم هذا جميل، ولكن...". أثارتها النظرة المُجرَّدة في عينيه، فقد رأتها من قبل، كانت فتاةً جميلة.

قال بِرقَّة: "بلى، بلى فعلت".

"إد، أنا مُمتَنَّة، أظنُّ أنَّك أنقذتَ منحتي الدراسية، مُمتنَّة حقًّا، ولكن أتعلم، لي حبيبٌ".

سأل في محاولة بائسة للتحدُّث بلا مبالاة: "أحقًّا؟".

قالت مُتماشِيَةً مع نغمة صوته: "جدًّا، شبه مخطوبَيْن".

"هل يدرك أنه محظوظٌ؟ هل يدرك كم هو محظوظ؟".

قالت وهي تُفكِّر في توم لومبارد.

قال فجأة: "بِث...".

قالت في ذهول: "ماذا؟".

"لا يناديكِ أحدٌ بهذا الاسم، صح؟".

"لماذا... لا، لا، لا ينادوني به".

"ولا حتى هذا الشاب؟".

"لا"، توني كان يناديها: ليز، وأحيانًا ليزي، وهذا أسوأ.

انحنى إلى الأمام.

"لكنَّكِ تُفضِّلين بِث أكثر، صح؟".

ضحكت لتداري ارتباكها.

"أيًّا كان ما يجرى في هذا العالم".

ابتسم ابتسامته الصبيانية، "لا يهم، سأناديكِ بِث، فهذا أفضل، والآن كُلي شطيرة بُرجرك".

وانتهت سَنَتُها الدراسية الثالثة، وكانت تُودِّع آليس؛ فقد فترت علاقتهما، وتحسَّرَت إليزابيث على هذا. افترضت أن الخطأ خطؤها: صاحت بصوتٍ عالٍ بعض الشيء حين أُعلِنَت نتيجة اختبارها النهائي في علم الاجتماع، فقد حصلت على 97 درجة، الأعلى على مستوى القسم.

في الواقع، قالت لنفسها وهي تنتظر نداء رحلتها في المطار- إنه ما كان في هذا الفِعلَة انعدامٌ للحِسِّ الأخلاقي أكثر من استسلامها لحشر المعلومات في مقصورة الطابق الثالث، لم يكن الحشر استذكارًا حقيقيًا، بل مجرَّد حِفظ ببغائي يتبخَّر ويصير هباءً بمجرَّد انتهاء الاختبار.

لمست الظَّرف البارز من حقيبة يدها، وهو إشعارٌ بحزمة الإقراض الخاصَّة بمِنحَتِها الدراسية للسَّنَة النهائية: ألفَا دولار. هي وتوني سيعملان معًا هذا الصيف في مدينة بوثباي بولاية ماين، وسترفعها الأموال التي ستكسبها هناك فوق القِمَّة، والفضل يعود لإد هامنر، سيكون صيفًا جميلًا، مع إبحار رائق على الدَّوام.

لكنه بات أتعسَ صَيفٍ في حياتها.

كان يونيو مَطيرًا، كما أحبط نُقصانُ النفط حركة السِّياحة[1]، وبقشيشها من العمل في نُزُل بوثباي متواضِعٍ، والأسوأ من ذلك أن توني كان يُلحُّ عليها في مسألة الزواج، قال إن بمقدوره الحصول على وظيفة في الحرم الجامعي القريب، وبمقدورها الحصول على درجتها الجامعية في مجال الموضة بمنحةِ الدَّعم الطلابية. فوجِئَت لاكتشافها أن الفكرة أخافتها بدلًا أن تُسعِدَها.

يوجد خَطبٌ ما.

---

(1) تدور أحداث القصة خلال عامي 1973 و1974، وهي الفترة التي شهدت أزمة النفط الشهيرة التي مرت بها أميركا بعد قطع الدول العربية لإمدادات البترول عنها تضامنًا مع مصر في حربها ضد إسرائيل في العام 1973 (المترجم)

لم تـدرك ماهيَّتـه، لكـنَّ شـيئًا مـا مفقـود، خـارج نطـاق السـيطرة، خـارج متنـاول اليَـدِ. ذات ليلـة متأخِّـرة في يوليـو، ارتعـدت بالانخـراط في نوبـة بُـكاءٍ هيسـتيريَّة. الحَسَـنة الجيِّـدة الوحيـدة في هـذا أن رفيقتهـا في السَّـكن -وهـي فتـاة صغـيرة هادئـة تُدعـى سـاندرا آكرمـان- كانـت خـارج المنـزل في موعـدٍ غَرامـيٍّ.

حـلَّ الكابـوس في مطلـع أغسـطس، كانـت ترقـد في جـوفَ قـبرٍ مفتـوحٍ، غـير قـادرة عـلى الحركـة. هطَـلَ المطـرُ مـن سـماءٍ بيضـاء عـلى وجههـا المرفـوع، ثـم وقـف تـوني مـن فوقهـا، مرتديًـا خـوذة الأمـان الصَّفـراء الخاصَّـة بمواقـع البنـاء.

قال وهو ينظر إليها بنظرة موحيَةٍ: "تَزوَّجيني يا ليز، تزوَّجيني وإلَّا...".

حاوَلَـت أن تتحـدَّث، أن توافـق، سـتفعل أيَّ شيء مقابـل إخراجهـا مـن هـذه الحفـرة الموحِلَـة البَشِـعَة، لكنهـا كانـت مشـلولة.

قال: "حسنًا، إذن فهي "وإلَّا"...".

راح بعيدًا. حاوَلَت أن تَنعَتِقَ من شَلَلِها، ولم تفلح.

ثم سَمِعت صوت الجرَّافة.

رأتهـا بعدهـا بلحظـة، وحـش أصفـر ضخـم، يدفـع أَكَمـةً مـن الأرض المبتلَّـة أمـام شـفرة الجرَّار. دنـا تـوني بوجهـه عديـم الشـفقة مـن الحُجَـيرة المفتوحـة.

سيدفنها حيَّةً.

كل مـا اسـتطاعت إليـه سـبيلًا مـن داخـل جسـدها السـاكن والأخـرس- أن تراقـب في رُعـبٍ أبكـم. بـدأت قطـراتُ الـتراب في التقاطُـر إلى جوانـب الحفـرة. صرخ صـوتٌ مألـوف: "اذهـب! دَعْهـا وشـأنها الآن! اذهـب!".

سقط توني عن الجرَّافة وركض.

اجتاحها ارتياحٌ عظيم، كانت ستبكي لو كان بمقدورها. وها قد ظهر مُنقِذُها، واقفًا عند سفح المقبرة المفتوحة مثل قندلفت الكنيسة[1]، كان إد هامنر بعينه، غائِصًا في معطفه العَسكريِّ الأخضر، مع شَعرِه غير المَمَشَّط، ونظارته من قرون الحيوانات التي انزلقت نحوَ النُّتوء الصغير عند أرنبَةِ أنفه، مدَّ يده إليها.

قال بِرِقَّةٍ: "انهضي، أعرف ما تريدين، انهضي يا بِث".

واستطاعت النهوض، وتنهَّدَت من الارتياح. حاولت أن تشكره، وانسكبت كلماتها فوق بعضها البعض. اكتفى إد بالابتسام وأومأ برأسه. أخَذَت يده وأخفضت نظرها لترى موضِعَ قدميها، وحين نظرت ثانيةً للأعلى، كانت مُمسِكةً بكَفٍّ ضخمةٍ لذِئبٍ من الغابات يسيل لُعابُه، له عينان حمراوان حُمرَةَ المصابيح الزَّيتيَّة، وأسنان سميكة وشائكة ومتأهِّبة للعَضِّ.

استيقَظَت وجلست مستقيمةَ الظَّهر في الفِراش، وتشبَّعَت ثياب النَّومِ بالعَرَق. ارتعش جسدها دون مقدِرَةٍ على السيطرة عليه، وحتى بعد حمَّامٍ دافئ وكوب من الحليب، لم تفلح في مصالحة ذاتها مع الظلام. نامت والمصباح مُضاء.

بعدها بأسبوع، توني مات.

فتَحَت الباب وهي مُرتَدِيَة روبها، متوقِّعةً أن ترى توني، لكنه كان داني كلمر، أحد رفاق العمل. كان داني شابًّا مَرِحًا، خرجت بصُحبَة توني لملاقاته وفتاته بِضعةَ مَرَّات، لكنه في وقفته عند مدخل شقَّتها في الدور الثاني لم يَبدُ جادًّا فقط، وإنما مُعتلًّا.

قالت: "توني؟ ما الذي...".

(1) وظيفة كنسية، مهمة شاغلها الرئيسة صيانة مباني الكنيسة ورعاية المقابر (المترجم)

قـال: "ليـز، ليـز، عليـكِ أن تتماسـكي، أنـتِ.. آه يـا ربي!"، خبـط دُعامـةَ البـاب بِيَـدٍ مُتَّسِـخَة وضخمـة المفاصـل، ورأت أنـه كان يبـكي.

"داني، أهذا بخصوص توني؟ أيوجد خطبٌ ما...؟".

"تـوني مـات"، هكـذا قـال داني، "كان..."، لكنـه تحـدَّث هبـاء، فقـد أُغمـى عليهـا.

مـرَّ الأسـبوع التـالي مثـل الحلـم، تجمَّعَـت شـظايا القصـة مـن القصـة الصحافيـة الوجيـزة بطريقـة مُحزِنَـة، وممَّـا أخـبره بهـا داني خـلال شُرب البـيرة في نُـزُل هاربـور.

كانـا يُصلِحـان الأنابيـب المسَرِّبـة في الطريـق رقـم 16، ويوجـد جـزءٌ غـير مُمهَّـد مـن الطريـق، وتـوني كان يشـير للسيارات المـارَّة. نـزل الهضبـة فتًـى يقـود سـيَّارة فيـات حمـراء، وأشـار لـه تـوني، لكـن الفتـى لم يُبطِـئْ سـيرَه أصـلًا. تـوني كان واقفًـا جـوار شـاحنة تفريـغ، ودون مُتَّسَـع للعـودة إلى الخلـف، ومُنِـيَ فَتـى الفِيـات بجـروحٍ في الـرأس وذراع مكسـورة، كان هسـتيريًّا وفي الوقـت ذاتـه يَقِظًـا تمامًـا. اكتشـفت الشرطـة وجـودَ بضعـة ثقـوب في أنابيـب الفرامـل، كأنهـا تعرَّضَـت لسخونة مُفرِطَـة ثـم ذابـت، كان سِجِلُّه في القيـادة نظيفًـا، وهـو لم يسـتطع ببسـاطة إيقـافَ سـيارته، ومـن هنـا بـات تـوني ضحيَّـةً لأنـدر أنـواع الحـوادث المروريـة: حادثـة بريئـة.

تزايَـدَت صَدمَتُهـا وكآبتهـا بفعـل الإحسـاس بالذنـب. انتزعـت الأقـدارُ مـن يديهـا قرارهـا عـمَّا سـتفعل مـع تـوني، وشـعر جـزءٌ مَريـضٌ وسِرِّيٌّ في داخلهـا بالامتنـان لأجـل هـذا؛ لأنهـا لم تـرِد أن تتـزوَّج تـوني، وذلـك منـذ ليلـة كابوسـها.

انهارت في اليوم السابق على عودتها إلى المنزل.

برزت للعَيان في جِلسَتِها على صخرة، وبعد ساعة أو نحو ذلك حلَّت الدموع، وفوجئت بضراوتها، بكَت حتى آلمتها مَعِدتُها وأوجعها رأسها، وحين وَلَّت الدموع لم تشعر بتحسُّنٍ، لكنها على الأقل مُستَنفَدَة وخاوية.

وجرى ذلك حين قال إد هامنر: "بِث؟".

شعرت بالخداع، امتلأ فمها بالمذاق النُّحاسيِّ للخوف، شبه متوقِّعة أن ترى الذِّئبَ المُزَمجِر من كابوسها، لكنه كان إد هامنر فحسب، يبدو محترقًا من الشمس، ودون حماية على نحوٍ غريب من غير ارتدائه لمعطفه العسكري وبنطاله الچينز الأزرق، كان يرتدي سراويل قصيرة توقَّفَت فحسب عند رُكبَتَيْه العظميَّتين، وتي شيرت أبيض مُتلاطِمًا على صدره النحيف مثل شراع طليقٍ عبر نسيم المحيط، وصندلًا مطَّاطيًا. لم يكن مبتسمًا، وحالت الشمس الضارية المنعكسة على نظارته دون رؤية عينيه.

قالت في تَردُّد: "إد؟"، وهي شبه مقتنعة أن هذه محض هَلوَسة ناجِمَة عن الحزن. "أهذا حقًّا...؟".

"نعم، هذا أنا".

"كيف؟".

"كنتُ أعمل في مسرح ليكوود في بلدة سكوهيجان. هرعت إلى رفيقتك في السكن.. آليس، هل هذا اسمها؟".

"نعم".

"أخبرَتني بما حدث، فجِئتُ على الفور، مسكينة يا بِث".

حرَّك رأسه، بمقدار درجةٍ فقط أو ما شابه، لكن سطوع الشمس انزاح عن نظارته، ولم تَرَ أيَّ ملامح ذئبية، ولا شيء مفترس، وإنما مجرَّد تعاطُفٍ هادئ دافئ.

بـدأت في الانتحـاب ثانيـة، وترنَّحَـت قليـلًا أمـام قُوَّتـه غـير المُتَوقَّعـة. ثـم أمسـك بهـا وبـات كلُّ شيء عـلى مـا يـرام.

تنـاوَلَا العشـاء في مطعـم "ذا سـايلنت وومـن" في ووترفـل، والـذي كان يبعـد خمسـةً وعشريـن ميـلًا، ربمـا نفـس المسـافة التـي احتاجتهـا بالضبـط. اتَّجَهـا إلى سـيارة إد، سـيارة كورفيـت جديـدة، وقادهـا جيِّـدًا حسـب حَدسِـها عنـه، دون إبطـاءٍ ودون تَعجُّـل. لم ترغـب في التحـدُّث ولم ترغـب في الابتهـاج. بـدا أنـه يـدرك ذلـك، وشـغَّل موسـيقى هادئـة عـلى المذيـاع.

وطلـب -دون استشـارتها- مأكـولاتٍ بحريَّـةً. ظنَّـت أنهـا غـير جائعـة، ولكـن حـين وصـل الطعـام انهالـت عليـه بشراهـة.

وحـين رفعـت رأسـها ثانيـة، بـات الطبـق فارغًـا، وضحكَـت بعصبيَّـة. كان إد يُدخِّـن سـيجارة ويراقبهـا.

قالـت: "الشَّـابَّة الحزينـة تناوَلَـت وليمـةً عامـرة، حتـمًا تظـنُّ أني فظيعـة".

قـال: "لا، فقـد مَـرَرتِ بالكثـير وتحتاجـين إلى اسـتعادة قوَّتِـك، كأنـك كنـتِ مريضـة، أليـس كذلـك؟".

"نعم، إنه حقًّا كذلك".

أمسك يديها عبر الطاولة، ضاغطًا عليها لوقتٍ وَجيز، ثم تركها.

"ولكن الآن أوان التعافي يا بِث".

"فعلًا؟ أهو كذلك حقًّا؟".

قال: "نعم؛ لذا أخبريني، ما هي خُطَطُكِ؟".

"سأعود إلى مسقط رأسي غدًا، وبعدها لا أعرف".

"ستعودين إلى الكُلِّيَّة، أليس كذلك؟".

"لا أعلـم فحسـب، فبعـد هـذا، يبـدو الأمـر في غايـة... غايـة التفاهـة، وراح معـه الكثـير مـن مغـزاه، وكل مـا فيـه مـن مُتعَـة".

"سـيعود، يصعـب عليـكِ أن تُصدِّقـي الآن، لكـن هـذا حقيقـيٌّ، جَـرِّبي لمـدة سـتة أسـابيع وسـترين. ليـس لديـكِ شيء أفضـل تؤدِّينـه"، وبـدت الجملـة الأخـيرة سـؤالًا.

"هذا صحيح، حسبما أظنُّ، والآن أيمكنني الحصول على سيجارة؟".

"طبعًا، ولكنها بنكهة المنثول، آسف".

أخذت سيجارة.

"كيف عرفت أني لا أحب سجائر المنثول؟".

هزَّ كتفيه، "تبدين فحسب أنَّكِ لَستِ من مُحِبِّيها، حسبما أظنُّ".

ابتسَمَت، "أنتَ ظريف، أتعلم ذلك؟".

ابتسم ابتسامةً مُحايِدَة.

"لا، حقًّـا، لأنَّـكَ مـن بـين سـائر الأشـخاص الذيـن ظهـروا... كنـتُ أظـنُّ أني لا أريـد رؤيـة أحـد، لكنـي ممتنَّـةٌ حقًّـا أنَّـكَ كُنـتَ هـذا الشـخص يـا إد".

"شيء طيب أحيانًا أن تتواجد مع شخص لا تُغرَم به".

"بالضبـط، هكـذا أظـنُّ". توقَّفَـت عـن الحديـث. "مَـن أنـتَ يـا إد بجانـب كونِـكَ أبي الرُّوحـي السـحري؟ مَـن أنـت حقًّـا؟". اهتمَّـت فجـأة أن تعـرف.

هـزَّ كتفيـه: "لا أحـد ذو شـأن، مجـرَّد فتـى مـن الفتيـة غريبـي المظهـر الذيـن ترينهـم يتسـكَّعون في أرجـاء الحـرم الجامعـي مـع حمولـة مـن الكتـب تحـت ذراع واحـدة".

"إد، أنتَ لست غريبَ المظهر".

قال وابتسم: "أنا كذلك طبعًا، لم أتعافَ أبدًا من حَبِّ الشباب في فترة الدراسة الثانوية، ولم تَسعَ ورائي أيُّ جماعة طلابية، ولم أصنع أيَّ إثارة في دائرتي الاجتماعية، بل كنتُ مُجرَّدَ فأر منزليٍّ يحصد الدرجات الدراسية. هذا كل شيء. حين تُجري الشركاتُ الكبرى مقابلاتِ عَمَلٍ في الحرم الجامعي في الربيع القادم، سأتعاقد مع إحداها على الأرجح، وسيختفي إد هامنر إلى الأبد".

قالت برقَّةٍ: "سيُشكِّل هذا مصدر حُزنٍ عظيم". ابتسم، وكانت ابتسامةً غريبة، مريرة بعض الشيء.

سألت: "وماذا عن رفاقك؟ أين تسكن؟ ماذا تحب أن تفعل...".

"في وقت آخر". هكذا قال. "يجب أن أعود، أمامك رحلة طويلة بالطائرة غدًا، والكثير من المتاعب".

جعَلَتها الأمسية في حالة استرخاء للمرَّة الأولى منذ وفاة توني، بدون ذلك الإحساس بتعرُّض الدَّافِعُ المُحفِّز لجرحٍ تلو الجُرح وصولًا إلى نقطة الانهيار، ظنَّت أن النوم سيأتي بسهولة، وهذا لم يحدث.

ألحَّت عليها أسئلة صغيرة.

آليس أخبرتني، مسكينة يا بِث.

لكن آليس كانت تقضي الصيف في بلدة كيتري، على بُعد ثمانية أميال من بلدة سكوهيجان. حتمًا كانت في ليكوود من أجل حضور مسرحية.

سيارة الكورفيت، طراز هذا العام، باهِظَة الثمن، لن يتكفَّل عَمَلُه في كواليس مسرح ليكوود بثمنها، هل كان والداه ثريَّيْن؟

طلب من الطعام ما كانت ستطلبه لنفسها، ربما كانت الأكلةَ الوحيدة في قائِمَة الطعام التي كانت ستأكل منها ما يكفي حتى تكتشف أنها كانت جائعة.

سجائر المنثول، وطريقة تقبيله، متمنِّيًا لها ليلةً سعيدة، بالضَّبط كيفما أرادت أن تُقبَّل، بالإضافة إلى: "أمامك رحلة طويلة بالطائرة غدًا".

كان يعرف أنها ستعود إلى مَوطِنها لأنَّها أخبرته، لكن كيف عرف أنها ستسافر بالطائرة؟ أو أنها ستكون رحلةً طويلةً؟

أزعَجَها الأمر، أزعجها لأنها كانت على وشك الوقوع في حُبٍّ إد هامنر.

أعرف ما تريدين.

جاءت كلمات ترحيبه بها مثل صوتِ قُبطان الغَوَّاصة وهو يسبر أغوار المياه، فغرَقَت بعدها في النوم.

لم يأتِ إلى مطار أوجستا الصغير كي يُودِّعَها، وفي أثناء انتظارها للطائرة، ذُهِلَت من خيبة أملها، فكَّرَت بهدوءٍ في كيفيَّة ازدياد اعتمادك على شخصٍ ما، تقريبًا مثل المُدمِن المداوم، حيث يخدع مُدمِنُ المخدِّرات نفسه أنه يمكنه تناوُل تلك المادَّة المُخَدِّرة أو يتخلَّى عنها طواعية، بينما في الحقيقة... "إليزابيث روجان، برجاء الرَّدِّ على المكالمة على الهاتف الأبيض". هكذا أعلن نداءُ الرُّكَّاب.

هرعَت إليه، وكان صوت إد: "بِث؟"...

"إد، كم جميل أن أسمع صوتك، ظنَنتُ أنَّك...".

"سأُقابِلُكِ؟". ضحك. "لستِ في حاجة إليَّ في هذا، أنتِ فتاة ناضجة وقويَّة، وجميلة أيضًا، يُمكِنُكِ التَّعامُل مع هذا، هل سأراكِ في الكُلِّيَّة؟".

"آآ... نعم، أظنُّ ذلك".

"جيِّد". حانت لحظة صمت، ثم قال: "لأنِّي أُحبُّكِ. أحبُّكِ منذ رَأيتُكِ أوَّلَ مَرَّة".

انعقد لسانها، لم تستطع التَّحدُّث، طافت ألفُ فكرة في رأسها.

ضحك ثانية، بِرِقّة. "لا، لا تقولي شيئًا، ليس الآن، سألتقيكِ، عندئذ سيكون لدينا الوقت، كل وقت العالم، رحلة سعيدة يا بِث، إلى اللقاء".

وذهب، تاركًا إيّاها مع هاتفٍ أبيض في يدها، ومع فوضى أفكارها وأسئلتها.

سبتمبر.

استعادت إليزابيث النظام القديم للكلية والفصول الدراسية، مثل امرأة قوطِعَت في أثناء الحياكة. تشارَكَت السكن مع آليس ثانية، بالطبع. كانتا شريكتَيْن في السكن منذ السنة الأولى، حينما ألقى بهما معًا حاسوبُ قِسم تَسكين الطُّلّاب، كانتا دومًا على وفاق، رغم اختلاف الاهتمامات والطبائع. آليس هي المواظبة في الدراسة، متخصِّصة في الكيمياء مع مجموعٍ تراكُميٍّ 3.6. إليزابيث أكثر اجتماعية وأقلُّ اطِّلاعًا على الكتب، مع تَخصُّص بالمناصفة بين علم التربية والرياضيات.

ما زالتا على وفاق، ولكن يبدو أن ثمَّةَ برودةً طفيفة نَمَت بينهما على مدار الصيف، عَزَت إليزابيث ذلك إلى الاختلاف في الرأي حول الاختبار النهائي في علم الاجتماع، ولم تذكر الأمر.

بدأت أحداث الصيف تبدو مثل الحُلم. بدا لها بطريقة غريبة أحيانًا أنه ربما كان توني وَلَدًا تعرفه من المدرسة الثانوية، ما زال من المؤلم التفكير فيه، وتجنَّبَت فتح الموضوع مع آليس. كان الأَلَمُ يَنبض من جُرحٍ قديم، وليس ألمًا حيًّا من جرح مفتوح.

أكثر ما آلمها تقصير إد هامنر في الاتِّصال.

مرَّ أسبوع، واثنان، ثم حَلَّ شهر أكتوبر. وصلت للسِّجلّ الطُّلّابي من خلال الاتحاد وفتَّشَت عن اسمه. لم يُسعِفها في شيء، حيث تلا اسمه فقط كَلِمَتا "شارع ميل"، وكان ميل شارعًا طويلًا جدًّا بالفعل؛ لذا انتظرت، وحين عُرِضَ عليها الخروج في مواعيد غرامية، وهو أمرٌ

دائـم الحـدوث، كانـت تـردُّ بالرفـض. اسـتغربت آليـس لكنهـا لم تَقُـل شـيئًا، حيث دُفِنَت حيَّةً في دراسـة الكيميـاء الحيويـة لمدة سـت أسـابيع، وقضـت معظـم أمسـياتها في المكتبـة. لاحظـت إليزابيـث الأظـرُفَ البيضـاء الطويلـة التـي تتلقَّاهـا شريكتهـا في السَّـكَن مـرَّةً أو مرَّتَـيْن أسـبوعيًّا في البريـد، بمـا أنهـا في العـادة أوَّل مَـن تعـود مـن المحـاضرة، لكنهـا لم تَظُـنَّ أي شيء بخصوصهـا. كانـت وكالـة التحقيقـات السريـة مُتكتِّمَـة، ولم تنسـخ عنـوان المُرسِـل عـلى أظرفهـا.

حـين دَقَّ جهـاز التواصـل الداخـلي، كانـت آليـس تسـتذكر. "رُدِّي عليـه أنـتِ يـا ليـز، فربمـا يكـون مـن أجلـك".

اتَّجهَت إليزابيث إلى جهاز التواصُل الداخلي: "نعم؟".

"رَجُلٌ يَدقُّ الباب يا ليز".

يا إلهي.

سـألت: "مَـن يكـون؟"، ومَـرَّت عـبر أكـوام الحجَـج الخائبـة: صُـداعٌ نِصفـيٌّ، لم تلجـأ إلى هـذه الحُجَّـة في هـذا الأسـبوع.

قالـت فتـاة المكتـب مبتهجـة: "اسـمه إدوارد چاكسـون هامـنر، چونيور. فقـط". وأخفضـت صوتهـا قائلـة: "جَوْرَبـاه غـير متطابِقَيْن".

طـارت يـد إليزابيـث نحـو ياقـة روبهـا: "يـا إلهـي، أخبريـه أني سـأنزل في الحـال، لا، أخبريـه أني سـأنزل بعـد دقيقـة، لا، بضـع دقائـق، حسـنًا؟".

قال الصوت مُتشكِّكًا: "أكيد، ولكن لا تنزفي".

أخرجـت إليزابيـث بنطـال مـن دولابهـا، وسـحبت تنُّورةً قصـيرة مـن الدَّينـم. شـعرت بالبَكَـرات في شَعرِها وتَذمَّـرَت، وانتزعتهـا.

راقَبَـت آليـس كلَّ هـذا في هـدوء، دون كلام، لكنهـا تطلَّعَـت إلى البـاب مُتَفرِّسـةً فيـه لوقـت طويـل بعـد مغـادرة إليزابيـث.

كان على حاله، لم يتغيَّر البتَّة. كان يرتدي معطفه العسكريَّ الأخضر، وما زال يبدو أكبرَ عليه بمقاسَيْن على الأقل. صَلَّح أحد إطارَيْ النَّظَّارة المصنوعة من قرون الحيوانات بشريطٍ لاصق للأسلاك. بدا بنطاله الجينز جديدًا وخَشِنًا، مختلفًا تمام الاختلاف عن الطَّلَّة الرقيقة الشاحبة التي ظهر بها توني دون عناء. كان يرتدي جوربًا أخضر، وجوربًا بُنِّيًّا.

وأدركت أنها أحبَّته.

سألت وهي مُتوجِّهَة إليه: "لماذا لم تَتَّصِل من قبل؟".

حشر يديه في جيبَيْ معطفه وابتسم في خجل. "فَكَّرتُ أن أَمنَحَكِ بعض الوقت للخروج في مواعيد غرامية، وتُقابِلي بعض الفتية، وتعرفي ما تريدين".

"أظنُّ أني أعرف".

"جميل، أتَودِّين الذهاب لمشاهدة فيلم؟".

قالت: "أي شيء، أي شيء في العموم".

مع مرور الأيام، خطر لها أنها لم تتعرَّف قَطُّ على أحدٍ -سواء ذكرًا أم أنثى- بدا أنه يستَوعِبُ حالاتها المزاجية واحتياجاتها بهذا الكمال أو بهذا الهدوء. تلاقت أذواقهما، فبينما استمتع توني بأفلام عنيفة من عيِّنَة فيلم "الأب الروحي"- بدا إد مُحِبًّا أكثر للأفلام الكوميدية أو الدراميات غير العنيفة. اصطحبها ذات ليلة إلى السيرك حين أحسَّت بالكآبة، وأمضيا وقتًا سعيدًا وشديد المرح. كانت مواعدات الاستذكار بمثابة مواعدات استذكار على حَقٍّ، وليست مُجرَّد حُجَّة لتلمُّس الطريق إلى الدور الثالث في الاتحاد. اصطحبها إلى الرَّقصات، وبدت جيِّدةً، على الأخصِّ في الرقصات الكلاسية التي أحبَّتها. فازا بكأس جولة الخمسينيات بفضل رقصة نوستالچيا العودة إلى الوطن.

الأكثر من ذلك، بدا أنه يدرك وقت احتياجها إلى العاطفة، لم يُجبِرها أو يُلِحَّ عليها، لم تَشعُر قَطُّ بذلك الشعور الذي أحسَّته مع بعض الفتية الآخرين الذين خرَجَت معهم، والذي مفاده وجود جدول زمني حَدسيٍّ للجِنسِ، بداية من قُبلَة التَّمنيِّ بليلة سعيدة في الموعد الغرامي الأول، وانتهاءً بليلَةٍ في شَقَّةٍ مُستعارَة من صديقٍ ما بحلول الموعد العاشر. كانت شقَّة شارع ميل تابعة حصرًا لإد، تقع في الدور الثالث. تَوَجَّها إلى هناك على الدوام، وتوجَّهَت إليزابيث دون الإحساس بمسيرها نحو مخدَعٍ دون چوان الصغير. لم يضغط عليها. بدا بأمانَةٍ أنه يريد ما كانت تريده حين تريده، وتطوَّرَت الأمور.

حين عادت الدراسة في الكُلِّيَّة بعد عطلة الفصل الدراسي، بدت آليس مُنشَغِلَةً بشكل غريب. فتَّشَت عنها إليزابيث عدَّةَ مَرَّات بعد الظهيرة قبل مجيء إد لاصطحابها، حيث كانا ذاهبَيْن لتناول العشاء، ووجدت شريكتها في السَّكَن عابِسَةً على مرأى ملفٍّ ضَخمٍ على مكتبها. كادت إليزابيث أن تسألها ذات مَرَّة، لكنها عَدَلَت عن هذا القرار. ربما مشروع جديد.

كان الجليد يهطلُ بِشدَّة حين عاد بها إد إلى مسكنها.

سألها: "غدًا؟ في مسكني؟".

"بالتأكيد، سأعدُّ بعض الفشار".

قال: "عظيم"، ثم قَبَّلها، "أُحِبُّكِ يا بِث".

"وأنا أيضًا أحِبُّكَ".

سأل إد بنبرةٍ ساكنة: "أَتودِّين المبيتَ؟ مساءَ غدٍ؟".

"حسنًا يا إد". تطلَّع إلى عينيها. "أيًّا كان ما تريده".

قال بوَداعَةٍ: "جميل، نامي جيِّدًا يا طفلتي".

"وأنتَ أيضًا".

توقَّعَت أن تَجِدَ آليس نائِمَةً، ودَخَلَت الغرفة بهدوء، لكن آليس كانت مستَيقِظَةً وجالِسَةً قُبالَةَ مَكتَبِها.

"آليس، هل أنتِ بخير؟".

"ينبغي أن أتحدَّث معكِ يا ليز، بخصوص إد".

"ماذا عنه؟".

قالت آليس بحرص: "أَظُنُّ أنه حين أفرغ من الحديث معكِ، لن نصير صديقَتَيْن بعد الآن، وهذا بالنسبة لي خسارة كبيرة؛ لذا أريدكِ أن تسمعيني جيدًا".

"إذن فمن الأفضل ألَّا تقولي شيئًا".

"عليَّ المحاوَلَة".

شعرَت إليزابيث أن فضولها الأوَّليَّ أثار نيران الغضب. "هل كنتِ تحومين حول إد؟".

اكتفت آليس بالنظر إليها.

"هل شعرتِ بالغيرة منَّا؟".

"لا، لو كنتُ غيورةً منكِ ومن مواعيدك الغرامية، لانتقلت إلى مَسكَنٍ آخر منذ عامَيْن".

نظَرَت إليزابيث إليها، مُرتَبِكَة. أدرَكَت صِدقَ ما قالته آليس، وشعرت فجأة بالخوف.

قالت آليس: "أمران جعلاني أتساءل بخصوص إد هامنر، أولهما: حين كتبتِ إليَّ عن موت توني وقلتِ إنِّي محظوظةٌ حين رأيتُ إد في مسرح ليكوود، وكيف جاء مباشرة إلى بوثباي وأعانَكِ حَقَّ العَون، لكني لم أَرَه قَطُّ، لم أكن على مقربة من مسرح ليكوود في الصيف الماضي".

"ولكن...".

"ولكن كيف عرف بموت توني؟ ليس لديَّ فكرة. أعرف فقط أنه لم يعرف المعلومة منِّي، والأمر الآخر مسألة الذاكرة التصويريَّة، يا إلهي يا ليز، إنه حتى لا يتذكَّر أي جوارب يرتديها!".

عانَدَت ليز: "هذا شيء مختلف تمامًا، إنه...".

قالت آليس بهدوء: "إد هامنر كان في لاس ڤيجاس الصيف الماضي، وعاد في منتصف يوليو وحجز غرفةً في موتيل في بيماكويد، من ناحية طريق ميناء بوثباي، كأنه كان في انتظار احتياجكِ إليه".

"هذا جنون! وما أدراكِ أن إد كان في لاس ڤيجاس؟".

"سارَعتُ إلى شيرلي دي أنطونيو قبل بداية الكُلِّيَّة، فقد عمِلَت في مطعم باينز الواقع ناحية المسرح. قالت إنها لم تَرَ أحدًا قَطُّ على شاكلة إد هامنر؛ لذا أدرَكتُ أنه كذب عليك حول بضعة أشياء؛ ولذا تَوجَّهتُ إلى أبي وشَرَحتُ له المسألة ومنحني الموافقة".

سألت إليزابيث مذهولةً: "على ماذا؟".

"أن أستعين بوكالة تحقيقات خاصَّة".

وقَفَت إليزابيث على قدميها: "في هذا الكفاية يا آليس، لا تزيدي"، كانت ستلحق بالباص مُتَّجِهةً إلى البلدة، وتقضي الليلة في شقَّة إد، كانت أصلًا تنتظره فقط كي يطلب منها.

"اعرفي على الأقل، والقرار قرارُكِ".

"ليس عليَّ معرفة أي شيء ماعدا كونه طيِّبًا وصالِحًا و...".

قالت آليس: "الحُبُّ أعمى، صح؟"، وابتسَمَت بمرارَةٍ. "حسنًا، رُبَّما تَصادَفَ أنِّي أحِبُّكِ قليلًا يا ليز، هل فكَّرتِ في هذا؟".

استدارت إليزابيث ونظرت إليها لبرهة، وقالت: "إذا كنتِ تحبينني، فلديك طريقة غريبة في إظهار ذلك، أكملي كلامك إذن، ربما أنتِ على حقٍّ. ربما أدين لكِ بالكثير أيَّتها الحمقاء".

قالت آليس بهدوء: "أنتِ تعرفينه منذُ زَمَنٍ طويل".

"أنا! ماذا؟".

"م.ح. 119[1]، في بريدجبورت بولاية كونتيكيت".

صُعِقَت إليزابيث من الصدمة، فقد عاشت مع والديها في بريدجبورت لمدَّة سِتِّ سنوات، وانتقلوا إلى موطنهم الحالي بعد إتمامها الصَّفَّ الثاني بعام واحد، ودرست في م.ح. 119، ولكن...

"آليس، هل أنتِ مُتأكِّدَة؟".

"هل تتذكَّرينه؟".

"لا، بالطبع لا!". لكنها تَذَكَّرَت الإحساس الذي راودها أوَّلَ مَرَّة رأت فيها إد، إحساس الديچا ڤو.

"أظنُّ أن الجميلات لا يَتذكَّرن القِباحَ. ربما كان مُعجَبًا بكِ، كنتِ معه في الصَّفِّ الأول يا ليز، ربما كان يجلس في خلفيَّة الفصل، مكتفيًا بالمراقبة، أو في ملعب المدرسة. مجرَّد طفل نَكِرَة صغير كان يرتدي نظارات، وربما يضع تقويمًا للأسنان، ولا تستطيعين أصلًا أن تتذكَّريه، لكني سأراهن أنَّه يتذكَّركِ".

قالت إليزابيث: "وماذا أيضًا؟".

---

(1) اختصارًا لكلمتي (مدرسة حكومية) مثلما وردت في الأصل، حيث من المعتاد الإشارة إلى المدارس الابتدائية الحكومية في الولايات المتحدة الأمريكية بهذا الاختصار مشفوعًا برقم المدرسة (المترجم)

"تَعَقَّبَتـه الوكالـة مـن بصـمات أصابعـه مـن المدرسـة، بعـد ذلـك اقتَصَرَت المسـألة عـلى إيجـاد أشـخاصٍ للحديـث معهـم. قـال العميـل الـذي تـولَّى القضيـة إنـه لم يفهـم بعضًـا مـمَّا وَصَـلَ إليـه، ولا أنـا أيضًـا. بعـض هـذه الأمـور مُخيفَـة".

قالت إليزابيث وهي تزمُّ شَفَتَيْها: "يُفضَّل أن تكون كذلك".

"كان إد هامـنر الأب مُدمِنًـا للقـمار، عمـل في وكالـة إعـلان رفيعـة المسـتوى في نيويـورك، ثـم انتقـل إلى بريدجبـورت فيـما يُشـبِه الهـروب. يقـول العميـل إنـه تقريبًـا لا توجـد لعبـة بوكـر بأمـوالٍ طائلـة أو سِـجِلُّ مراهَنـات عاليـة القيمـة إلا وتَحمِـلُ علاماتـه".

أغمَضَـت إليزابيـث عينيهـا. "أولئـك النـاس رأوا أنَّـكِ تحملـين في جَعبَتِكِ مقـدارًا هائـلًا مـن القـذارة مقابـل مـا تدفعـين، أليـس كذلك؟".

"رُبَّمـا، عمومًـا، وقـع والـد إد في مـأزقٍ آخـر في بريدجبـورت، كان القُـمار مـرَّةً أخرى، لكـن هـذه المرة حسبه أحدهـم مُقـرِضَ أمـوالٍ بـارز، وبطريقـة مـا كُسِرَت سـاقه وذراعـه، يقـول العميـل إنـه يشـكُّ في كونـه حادِثًـا".

سألَت إليزابيث: "أهناك شيء آخر؟ ضرب للأطفال؟ اختلاس أموال؟".

"حصـل عـلى وظيفـة في وكالـة إعـلان غـير ذاتِ شـأنٍ في لـوس أنجلـوس في العـام 1961، وكان هـذا أقـربَ مـن الـلازم مـن لاس ڤيجـاس، فبـدأ يمضي عُطـلات نهايـة الأسـبوع هنـاك، ويُفـرِط في المقامـرة، ثـم بـدأ يصطحـب إد الابـنَ معـه، وبـدأ يفـوز".

"أنتِ تختلقين كل هذا، حتمًا تختلقينه".

نقَـرَت آليـس عـلى التقريـر أمامهـا، "كُلُّ شيء مُسجَّلٌ هنـا يـا ليـز، لا يوجـد دليـلٌ عـلى بعـض مـا ورد فيـه، لكـنَّ العميـل يقـول إنـه ليـس لـدى أحـدٍ مـن الأشـخاص الذيـن تحـدَّث معهـم سـببٌ للكـذب، أطلـق والـد إد

على إد "تميمة حَظِّه السَّعيد"، في البداية، لم يعترض أحدٌ على الفتى رغم عدم قانونيَّة تواجُدِه في الكازينوهات. كان والده سَمكَةً ذهبية، لكن بعدها بدأ الأب يتمسَّك فقط بالرُّوليت، ويلعب فحسب لُعبَةَ الفردي والزوجي، ولعبة الأحمر والأسود. مع نهاية العام جاوَزَ الفتى الحدودَ في كُلِّ كازينو على طول القطاع، واحترف والِدُه ضربًا جديدًا من المقامرة".

"ما هو؟".

"سوق الأسهم، حين انتقل آل هامنر إلى لوس أنجلوس في منتصف العام 1961، حيث عاشا في "علبة جُبن" بإيجار تسعين دولارًا في الشهر، وكان السيد هامنر يقود سيارة شيڤروليه من طراز 1952. مع نهاية العام 1962، وبعد ستة عشر شهرًا فحسب، بات السيد هامنر يقود سيارة ثاندربيرد حديثة الطراز، وقادت السيد هامنر سيارة ڤولكس واجن. أترين، وجود فتى صغير في كازينوهات نيڤادا أمر ضدَّ القانون، بينما لم يَقدِر أحدٌ أن يسحب من يديه صفحة سوق الأسهم".

"هل تُلَمِّحين إلى أن إد... أنه يقدر على... أنتِ مجنونة".

"أنا لا أُلمِّح لأي شيء، إلا لو كان يعرف ما يريده أبوه".

أعرف ما تريدين.

كأنَّ الكلمات قيلت لها همسًا في أذنها، فارتجفت.

"قَضَت السيدة هامنر السنوات السِّتَّ التالية داخل وخارج مصحَّات عقلية مختلفة؛ بسبب اضطرابات عصبية كما يُقال، لكن المخبر تَحدَّث مع مُمرِّضٍ وقال إنه كان أقربَ ما يكون لاضطرابٍ ذُهانيٍّ، فقد ادَّعَت أن ابنَها تابِعٌ للشيطان، طَعَنَته بمقصٍّ في العام 1964، وحاوَلَت قتله، إنها... ليز؟ ليز، ما الخطب؟".

تَمتَمَت قائِلةً: "النَّدبَة، ذهبنا للعوم في حمام سباحة الجامعة في ليلة مفتوحة منذ شهر مضى، لديه نَدبَةٌ غائِرَة ذات نُقرة، على كتفه.. هنا". وَضَعَت يدها فوق ثَديِها الأيسر بالضبط، "قال..."، وحاوَلَت دَفقَةٌ من الغثيان أن تصعد إلى حلقها، وبات عليها انتظار انحسارها حتى تُواصِلَ الحديث، "قال إنه وقع على سياجٍ خَشبيٍّ حين كان صبيًّا".

"هل أواصل حديثي؟".

"أكمِلي، لِمَ لا؟ ما الذي قد يُؤلِم الآن؟".

"سُرِّحَت أُمُّه من مصحَّةٍ عَقليَّةٍ شديدة الفخامة في وادي سان خواكين في العام 1968. ذهب ثلاثتهم في عطلة، وتوقَّفوا عند منتزه على الطريق 101. كان الفتى يجمع الحطب حين قادت السيارة فوق الحافَّة عند المنحدر فوق المحيط، وهي وزوجها في السيارة، ربما كانت مُحاوَلةً منها لتصدم إد بالسيارة، كان سِنُّه وقتئذ 18 عامًا تقريبًا. خلف له والده سندات بمليون دولار. اتجه إد شرقًا بعد عام ونصف، وسجَّل اسمه هنا، وكانت تلك النهاية".

"ألا توجد مزيد من الجماجم المُخزَّنة؟".

"ليز، أليس في هذا الكفاية؟".

قامت من مكانها.

"لا عجب أنه لم يَرِد قَطُّ ذِكرُ سيرة أُسرَته، لكنَّكِ قَرَّرتِ النبش عن الجُثَّة المدفونة، أليس كذلك؟".

قالت آليس: "أنتِ عمياء". ارتدت إليزابيث معطفها. "أظنُّ أنكِ ستذهبين إليه".

"طبعًا".

"لأنَّكِ تُحبِّينه".

"طبعًا".

عـبَرَت آليـس الغُرفَـةَ وشَـدَّت ذراعهـا. "ألـن تُزيـلي تلـك الملامـح المتَجهِّمَـة العدوانيـة عـن وجهِـكِ لثانِيَـةٍ واحـدة كي تُفكِّري! إد هامـنر قادِرٌ عـلى اقـتراف أمـور قـد يتخيَّلهـا بقيَّتُنـا فقـط. لقـد جلـب لوالـده حصَّـةً رابحـة في لعبـة الروليـت، وجعلـه ثريًّـا مـن التَّلاعُـب في سـوق الأسـهم. يبـدو أنـه قـادر عـلى الفـوز حسـب رغبتـه. ربمـا هـو وسـيطٌ روحـانيٌّ وَضيعٌ نوعًـا مـا. ربمـا يمتلـك عِلـمَ الغيـب، لا أعـرف. ثمَّـة أشـخاص يملكـون نفحـات مـن هـذا. ليـز، ألم يخطـر في بالـك أنـه أجـبرك أن تحبِّيـه؟".

اسـتدارت ليـز إليهـا ببـطء. "لم أسـمع شـيئًا قَـطُّ بهـذه السـخافة في حيـاتي".

"أهـو سـخيفٌ حقًّـا؟ أعطـاكِ اختبـار علـم الاجتـماع بنفـس طريقـة منحـه والـده للجانـب الفائـز مـن طاولـة الروليـت! اسـمه غـير مُسـجَّل في أي دورةٍ لعلـم الاجتـماع! تأكَّـدتُ مـن هـذا. لقـد فعـل ذلـك لأنهـا الطريقـة الوحيـدة التـي يُمكِنُـكِ بهـا أخـذه عـلى محمـل الجـدِّ!".

صرَخَت ليز: "توَقَّفي!"، ووضَعَت يديها على أذنيها.

"كان يعلـم بالاختبـار، ويعلـم بمقتـل تـوني، وعـرف بعودَتِـكِ إلى البلـدة بالطائـرة! بـل حتـى عـرف اللحظـة النَّفسـيَّة المؤاتيـة كي يدخـل حياتَـكِ في أكتوبـر المـاضي".

ابتَعَدَت عنها إليزابيث وفتحت الباب.

قالـت آليـس: "أرجـوكِ، أرجـوكِ يـا ليـز، اسـمعي. لا أعـرف كيفيَّـةَ قيامـه بهـذه الأشـياء، بـل أشـكُّ حتـى أنـه يعـرف عـلى وجـه التأكيـد، ربمـا لا ينـوي أذيَّتَـكِ، لكنـه آذاكِ بالفعـل، جعلـك تُحبِّينـه بمعرفـة كلِّ شـأنٍ سِرِّيٍّ تعرفينـه وتريدينـه، وليـس هـذا حبًّـا، بـل اغتصـاب".

أغلَقَت الباب بعُنفٍ وهرعت على السلالم.

لحقَت بآخر باص مُتَّجِه إلى البلدة في المساء. هطل الثلج بكثافةٍ أكثر من ذي قبل، وسار الباص مُتثاقِلًا عبر مُنحَنَياتٍ بَزَغَت في الطريق مثل خنفساء عرجاء. جلست إليزابيث في الخلف، كانت واحِدةً بين ستَّة أو سبعة رُكَّاب فقط في الباص، مع ألف فكرة في رأسها.

سجائر المنثول، سوق الأوراق المالية، طريقة معرفته أن ديدي هو اسمُ التدليل لوالدتها، وَلَدٌ صغير جالس في خلفية الفصل لطلبة الصف الأول، مُصطَنِعًا نظرات الحملان أمام طفلة نشيطة وشديدة الصِّغَر على إدراك ذلك. أعرف ما تريدين.

لا لا لا، أنا أحبه!

هل تُحبُّه؟ أم كانت مُبتَهِجةً ببساطة لتواجُدِها مع شخص ما طلب على الدوام الشَّيءَ الصحيح، واصطحبها إلى الفيلم المناسب، ولم يرغب في الذهاب إلى مكانٍ ما أو القيام بشيء ما لا ترغب فيه؟ هل كان مجرَّدَ مِرآةٍ مُستَبصِرَة، تَعرضُ لها ما تريد رؤيته فقط؟ هداياه لها كانت دومًا الهدايا المناسبة. حين بردَ الجوُّ فجأة، تاقت نفسُها لمُجفِّفٍ للشَّعر، فمَن سيعطيها واحدًا؟ طبعًا إد هامنر. كان سيقول لها إنَّه رأى للتَّوِّ مُجفِّفَ شَعرٍ معروضًا بسِعرٍ مُخفَّض في متجر دايز. وكانت ستَسعَد بالطَّبع.

ليس هذا حُبًّا، بل اغتصاب.

خدَشَت الرِّياحُ وجهها حين خرجت عند منعطف شارِعَيْ ماين وميل، وأجفلت قُبالَتَه حين مضى الباص مع هدير هادئ صادر من مُحرِّك الديزل. ومضت الأضواء الخلفيَّة في الليل الثلجي لهُنَيهَةٍ خاطفة ثم ذَوَت.

لم تشعر قَطُّ باشتداد الوحدة هكذا في حياتها.

وقفت خارج باب منزله بعد خمس دقائق من الطَّرقِ دون ارتباك. خطَرَ لها أنه لا فِكرةَ لديها عمَّا فعله إد أو عمَّن قابل أثناء غيابها. لم يَخطُر الموضوع على بالها قَطُّ.

ربما كان يرفع سعر مُجفِّف شَعرٍ آخر في لعبة بوكر.

وقَفَت على أصابع قدميها في قرارٍ مُفاجئ، وتحسَّسَت أعلى دعامة الباب على استقامته بحثًا عن مفتاح احتياطيٍّ تعرف أنه يُبقيه هناك. تعثَّرَت أصابعها فيه، ووقع على أرضية المدخل مُصَلصِلًا.

التقطته وفتحت به القفل.

بَدَت الشَّقَّةُ مُختَلِفةً في غياب إد، مُصطَنَعَة مثل ديكور مسرحي. فتنها على الدوام أن شخصًا ما قليلًا ما يبالي بمظهره الشخصي ويمتلك سَكنًا أنيقًا وفاتِنًا هكذا، كما لو أنه تأثَّثَ من أجلها لا من أجله، لكن هذا جُنونيٌّ بالطَّبع، أليس كذلك؟

خَطَر في بالها مرَّةً أخرى، كأنها كانت أول مرة، مدى حُبِّها لذلك الكرسي الذي قعدت عليه حين استذكارهما أو مشاهدتهما للتلفاز، كان مناسبًا بالضبط مثلما كان مقعد الدُّبِّ الابن بالنسبة للفتاة جولديلوكس، لا شديد التَّصلُّب، ولا شديد الرخاوة. مضبوط، مثل كل شيء مرتبط بإد.

يوجد بابان يؤدِّيان إلى خارج الصالة، أحدهما إلى المطبخ الصغير، والآخر إلى غرفة نومه. صفَّرت الرياح في الخارج؛ ممَّا جعل البناية السكنية القديمة تُحدِث صريرًا ثم هدأت.

في غرفة النوم، حدَّقَت إلى السرير النحاسي، لم يَبدُ شديدَ التَّصلُّب ولا شديد الرخاوة، بل ملائمًا جدًّا. اصطَنَع صوتًا ماكِرَ الابتسامة قائلًا: أقرب ما يكون للمثالي، أليس كذلك؟

توجَّهَت إلى خزانة الكتب ومَرَقَت عيناها بلا هدف على العناوين. قفز عنوان إلى ناظريها وسَحَبَته:

صرعات الرقص في حقبة الخمسينيات، انفتح الكتابُ بالضبط عند نقطة الانتهاء من قراءة ثلاثة أرباعه، عند فصل يُدعَى "رقصة السترول[1]"ـ حيث أُحيطَت الكلمة بدائرة كثيفة بقلم الرصاص الأحمر الشَّحميِّ، وفي الهامش كلمة "بِث" مكتوبة بحروف كبيرة تحمل نبرة اتِّهام.

قالت لنفسها: عليَّ الذهاب الآن، ما يزال بمقدوري إنقاذ شيء ما، إذا عاد الآن، فلن أقدر على التَّطلُّع إلى وجهه ثانية، وستفوز آليس، وستحصل حقًّا على مقابِلٍ لأموالها.

لكنها لم تستطع التَّوقُّف، عَلِمَت هذا، حيث تجاوَزَت الأشياء كلَّ الحدود.

توجَّهَت إلى الخزانة، وأدارت المقبض، لكنه لم يستجب، إنه مُقفَل.

وبشيء من الأمل، وقفت على أطراف أصابعها مرة أخرى، وتحسَّسَت أعلى عتبة الباب، واستشعرت أصابِعُ يَدِها مفتاحًا، أخذته، وفي داخلها صوتٌ يقول بوضوح تام: لا تفعلي هذا. فكَّرَت في زوجة صاحب اللِّحية الزرقاء[2] وما عثرت عليه حين فتَحَت الباب الخطأ، ولكن فات الأوان تمامًا، إذا لم تواصل الآن؛ ستظلُّ تتساءل دومًا. فتحت باب الخزانة.

---

(1) اسم رقصة شهيرة ذات رتم بطئ عُرفت خلال حقبة الخمسينيات، وهي من رقصات الروك آند رول (المترجم)

(2) إشارة إلى حكاية خرافية فرنسية شهيرة، تحكي عن رجل ثري مزواج، وكل زوجاته السابقات اختفين في ظروف غامضة، فحين تزوج من جديد، اضطر ذات مرة لمغادرة البلاد، وترك مفاتيح القصر مع زوجته الجديدة، وحذرها من دخول غرفة واقعة تحت الأرض، لكنها لم تمتثل لأمره، وحين فتحت الغرفة، وجدت فيها جميع جثامين الزوجات السابقات (المترجم)

وراودها أغرب إحساس بأن هذا هو المكان الفعلي الذي اختبأ فيه إد هامنر الابن طيلة الوقت.

كانت الخزانة فوضويَّةً: كومة مختلطة من الملابس، كتب، مضرب تنس خالٍ من الخيوط، زوجان من أحذية التِّنس المتمزِّقة، اختبارات تمهيدية وتقارير دراسية قديمة محشورة بفوضويَّةٍ شديدة، عبوة مُنسَكِبَة من تَبغِ بوركام ريف للغليون. كان مِعطَفُه العسكري الأخضر مُلقًى في أقصى رُكنٍ.

أمسَكَت أحد الكتب وألقت نظرة على العنوان: "الغُصن الذَّهبي"، وعلى كتاب آخر: "طقوس قديمة وألغاز حديثة"، وكتاب آخر: "سِحر الفودو في هاييتي"، وكتاب أخير، مُجلد بجِلدٍ قديم مُتشقِّق، والعنوان ممسوحٌ من على الجلد من فرط الاستخدام تقريبًا، تفوح منه بغموضٍ رائِحَةٌ مثل السمك العَفِن: نيكروميكون. فتحته بعشوائية، وأجفَلَت، وألقته بعيدًا. ما زال العملُ المُشينُ يَلوحُ أمام ناظِرَيْها.

ولاستعادة رباطة جأشها أكثر من أي شيء آخر؛ مَدَّت يدها نحو المعطف العسكري الأخضر، دون أن تعترف لنفسها أنها قصَدَت أن تُفتِّش في جيوبه، ولكنها حينما رفعته لمحت شيئًا آخر، علبة صفيحية صغيرة.

بدافع من الفضول، أمسكته وقلَّبَته بين يديها، وهي تسمع أشياءَ تُجَلجِلُ داخله، كان من عيِّنة العُلَب الصغيرة التي قد يختارها طفلٌ صغير ليُبقي فيها غنائمه، دُمِغَت بأحرف بارزة أسفل العلبة الصفيحية كلمات "شركة بريدجبورت للحلوى". فتَحَتها.

وقَفَت الدُّميَةُ في أعلى العلبة، دمية إليزابيث.

نظَرَت إليها وبدأت ترتجف.

كانت الدُّمية ترتدي قُصاصةً من النايلون الأحمر، مزقَة من وشاحٍ فَقَدَته منذ شهرَيْن أو ثلاثة أشهر، حينما حضرت لمشاهدة فيلم مع إد. الذِّراعان مُنظَّفَتا غلايين مَكسوَّتان بمادةٍ شبيهة بالطَّحالب الزرقاء، ربما طحالب المقابر. كان يوجد شَعرٌ على رأس الدمية، لكنه غيرَ مُتلائِم معها. كان كِتَّانٌ أبيضُ ناعِمٌ مُلصَقًا على رأس الممحاة الورديِّ للدُّمية. شَعرُها نفسه أشقرَ رمليَّ اللَّون وأكثر خشونة منه. أقرب ما يكون لشعرِها حين كانت فتاة صغيرة.

ابتلَعَت ريقها وطَقَّ حَنَكُها، ألم تُوزع عليهم جميعًا مقصَّات في الصف الأول، مقصات صغيرة ذات شفرات مستديرة، مناسبة تمامًا ليد طفل؟ ألم يتسلَّل ذلك الولد الصغير من ورائها، ربما خلال فترة القيلولة، و... وضعت إليزابيث الدُّمية جانبًا ونظرت إلى العلبة ثانية.

كانت توجد رقاقة بوكر زرقاء ذات شكل سُداسيٍّ غريب، مرسوم عليها بالحبر الأحمر. نعي مَقصوص من الجريدة: السيد والسيدة هامنر، كلاهما يبتسم ابتسامةً خرقاء في الصورة المصاحِبَة، ورأت نفس الشكل السداسي الذي رُسِمَ على وجوههما، هذه المرَّة بالحبر الأسود، مثل الطَّلسم. دميتان إضافيتان، إحداهما مذكَّرة، والأخرى مُؤنَّثة. كان تَشابُه الوَجهَيْن في صورة النعي شنيعًا لدرجةٍ لا تُخطِئها العين.

وشيء آخر.

تلمَّسَته يدها، وارتعشت أصابعها بشدَّة حتى أوشكت أن تُوقِعَه. فرَّ منها صوت ضعيف.

كان نموذج سيَّارة، من النوعية التي يشتريها الصبية الصغار في الدِّرَجستورات ومتاجر الهوايات، جُمِع بواسطة غراء نماذج الطائرات. هذه السيارة من طراز فيات، مَطليَّة باللون الأحمر، وأُلصِقَت في المقدِّمة قُصاصة من أحد قمصان توني حسبما يبدو.

قلبت نموذج السيارة على جانبيه. شخصٌ ما حوَّل الناحية السفلية إلى شظايا.

"إذن، عَثَرتِ عليه، أيَّتُها المومس الجاحِدَة".

صرَخَت، وأوقعت السيارة والعُلبَة. تناثَرَت غَنائِمُه القَذِرَة في أرجاء الأرضية.

كان واقفًا عند المدخل، يتطلَّع إليها. لم تَرَ قَطُّ نظرةَ كَراهيَةٍ مثل هذه تعلو وجهَ بَشريٍّ.

قالت: "أنتَ قَتلتَ توني".

ابتسم ابتسامةً كريهة، "أتَظُنِّين أنكِ قادرة على إثبات ذلك؟".

قالت وهي شاعرة بالمفاجأة من ثبات نبرة صوته: "لا يَهمُّ. أنا أعرف. ولا أريد أن أراك مرَّةً أخرى. أبدًا. وإذا اقتَرَفتَ... أيَّ شيء... مع أيِّ شخص آخر، سأعرف، وسأُلقي المسؤوليَّةَ عليك. بطريقةٍ ما".

التوى وجهُه، "أهذا هو الشُّكرُ الذي أستَحِقُّه. مَنَحتُكِ كلَّ شيء رَغبتِ فيه. أشياء لم يكن سيمنحها لكِ رجُلٌ آخر. اعتَرِفي بذلك. جَعَلتُكِ شديدةَ السَّعادة".

صرخَت فيه: "أنتَ قَتَلتَ توني!".

خطى خُطوةً إضافية إلى داخل الغرفة، "نعم، وفَعَلتُها من أجلك، وماذا تكونين يا بِث؟ أنتِ لا تعلمين ما هو الحُبُّ. أحبَبتُكِ منذ رأيتك أول مرة، على مدار سبعة عشر عامًا. أيَقدِرُ توني أن يقول ذلك؟ لم يكن الأمر صعبًا عليكِ. أنتِ جميلة، لم يتحتَّم عليكِ التفكير في الرغبة أو الاحتياج أو الوحدة. لا يصعب عليك إيجاد طُرُقٍ أخرى للحصول على ما تحتاجين. كان توني موجودًا على الدَّوام ليمنحك إيَّاها. كل ما كان عليكِ فعله أن تبتسمي وتقولي: من فضلك". ارتَفَعَت نبرة صوته درجة. "لم أستطع قَطُّ الحصول على ما أريده بهذه الكيفيَّة. ألا تظنِّين

أني حاوَلتُ؟ لم يفلح الأمر مع والدي. كان يريد المزيد والمزيد فحسب، بل حتى لم يكن يُقبِّلني ليتمنَّى لي ليلة سعيدة أو يحتضنني إلا حين أجعله ثريًّا، وكانت أمي على نفس الشاكلة، أعَدَّت زيجتها لِنصَّابها من جديد، ولكن هل كان هذا كافيًا بالنسبة لها؟ كَرِهَتني! لم تكن تقترب مني! قالت إني غيرُ طبيعيٍّ! مَنحتُها أشياء طيِّبة، ولكن... بِث، لا تفعلي ذلك! لا.. لاااااا".

دهَسَت دُميَة إليزابيث وسحقتها، وأدارت عليه كعب حذائها. اتَّقَدَ شيءٌ داخلها في ألم، ثم اختفى. لم تَعُد خائفة منه الآن. كان مُجرَّدَ وَلدٍ صغير منكمِشًا في جسد شابٍّ، وجورباه غير متطابِقَيْن.

قالت له: "لا أظنُّ أنَّكَ قادر أن تؤذيني بشيء يا إد، ليس الآن، هل أنا مُخطِئَة؟".

أدار وجهه عنها، وقال بصوت واهن: "اذهبي، اخرجي، ولكن اتركي علبتي، افعلي هذا على الأقل".

"سأترك العلبة، ولكن محتوياتها لا".

تخَطَّته، انتفضت كتفاه، كما لو كان سيستدير ويحاول أن يَشدَّها، لكنهما ارتَخَتا.

عند نزولها إلى الدَّور الثاني، جاء إلى السلالم العُليا ونادى عليها صارخًا: "فلتذهبي إذن! لكنك لن تَهنَئي بالًا مع أي رَجُل من بعدي! وحين يذوي جَمالُكِ ويتوقَّف الرِّجالُ عن محاولة مَنحِكِ أيَّ شيء تريدينه، ستتمنَّينني! ستُفكِّرين فيما رميتِه!".

نزلَت السلالم وخرجت إلى الثلج، كان الإحساس ببرودته على وجهها طيِّبًا. تبلغ المسافة سيرًا على الأقدام إلى الحرم الجامعي ميلَيْن، لكنها لم تُبالِ، أرادت التَّمشية، أرادت البرد، أرادت منه أن يُطهِّرَها.

شعرت حياله بالأسى بطريقة شاذَّةٍ ومُلتَوِيَة، فتى صغير يملك قوَّةً هائِلةً تَعجُّ بها رُوحٌ مُتقزِّمة، ولد صغير حاول أن يجعل البشَرَ تتصرَّف مثل دُمى الجنود، ثم دمغهم بما يتوافق مع حالَةٍ مزاجيَّة لا يكونون عليها أو يكتشفونها.

ومَن كانت؟ مباركة بكل الخصال التي لم تَكُن لها، بلا خطأ منه أو جهد منها؟ تذكَّرَت طريقة رَدِّها على آليس، مُحاوِلَةً في عَمًى وغيرةٍ أن تتمسَّك بشيء ما سَهلٍ أكثر من كونِه جيِّدًا، بلا اكتراث، بلا اكتراث.

حين يذوي جَمالُكِ ويتوقَّف الرجال عن محاولة منحك أي شيء تريدينه، ستتمنَّينني! أعرف ما تريدين!

ولكن هل كانت ضئيلةَ الشأن هكذا كي تحتاج إلى أقلِّ القليل؟

أرجوكَ، يا إلهي العزيز، لا.

توقَّفَت على الجسر بين الحرم الجامعي والبلدة، وألقت ببقايا إد هامنر السِّحريَّة من على طرف الجسر، قطعة تلو القطعة. كانت سيَّارة الفيات المدهونة باللون الأحمر هي الأخيرة، وقَعَت رأسًا على عقب عبر الثلج الهاطل حتى غاب عن أفق النظر، ثم واصَلَت السَّيرَ.

أطفالُ الذُّرة

رفع بيرت صوت المذياع ولم يخفضه لأنهما كانا على شفا حفرة من جدالٍ آخر، ولم يُرِد حدوثَ هذا، كان مستميتًا كي لا يحدث هذا.

فيكي قالت شيئًا، وصاح قائلًا: "ماذا؟".

"أخفِضْ الصَّوت، هل تريد أن تخرق طبلتي أذنيَّ؟".

أطبق فكَّيه على ما كان سيصدر من فمه، وأخفض الصوت.

كانت فيكي تُهوِّي نفسها بوشاحها رغم أن سيارة التي- بيرد مُكيَّفَة الهواء.

"أين نحن أصلًا؟".

"نبراسكا".

نظَرَت إليه نظرةً بارِدةً مُحايِدَة.

"نعـم يـا بـيرت، أعـرف أننـا في نبراسـكا يـا بـيرت، ولكـن أيـن نحـن بحـق الجحيـم؟".

"لديكِ أطلس الطُّرق، ابحثي فيه، أم أنكِ لا تُجيدين القراءة؟".

"يـا للدهـاء! لهـذا ابتعدنـا عـن الطريـق الرئيـس، حتَّـى نُمعِـن النظـر في ثلاثمائـة ميـل مـن حقـول الـذُّرة، ونَنعَـم بحكمـة وفطنـة بـيرت روبيسـن".

أحكـم قبضتـه عـلى عجلـة القيـادة حتـى ابيَضَّـت مفاصـل يديـه، وقـرَّر أن يَشـدَّ يديـه عليهـا، لمـاذا؟ لأنـه حـين ترتخـي يـدٌ مـن يديـه، سـتنفلت إحداهـما وتخبـط الملكـة السـابقة لحفـل التخـرُّج مبـاشرةً بضربـة قويَّـة. قـال لنفسـه: نحـن ننقـذ زواجنـا، نعـم، ننقـذه بنفـس الطريقـة بينـما تَنـدُّ مِنَّـا النَّخـرات حيـال موضـوع إنقـاذ القـرى في الحـرب.

قـال بحـرص: "فيـكي، قُـدتُ السـيارة خمسـمائة ميـلٍ في الطُّرقـات الرئيسـة منـذ غادرنـا بوسـطن، قُـدتُ طـوال الطريـق لأنـك رفضـتِ قيـادة السـيارة، ثـم...".

ردَّت فيـكي بنـبرة محمومـة: "أنـا لم أرفـض! كل مـا في الأمـر أني أصـاب بصُـداعٍ نصفـيٍّ حـين أقـود السـيارة لفـترة طويلـة...".

"إذن، حـين طلبـتُ منـكِ أن تقـودي مـن أجـلي في الطُّرقـات الفرعيـة، قلـتِ: بالتأكيـد يـا بـيرت، كانـت تلـك كلماتـك بالضبـط. بالتأكيـد يـا بـيرت، وبعدهـا...".

"أحيانًا أتساءل كيف انتهى بي المطاف بالزَّواجِ مِنكَ".

"بأن تنطقي كلمتين قصيرتين".

حدَّقَـت إليـه لهُنَيهَـةٍ، بشـفاهٍ بيضـاء، ثـم أمسـكت أطلـس الطُّـرق، وقلَّبَـت الصفحـات بفظاظـة.

فكَّر بيرت بكآبة: كان من الخطأ ترك الطريق الرئيس، بل ومن العار أيضًا؛ لأنهما حتى وقتئذ كانا على ما يرام، يعاملان بعضهما البعض تقريبًا مثل بني البشر. تراءى له في بعض الأوقات أن هذه الرحلة إلى الساحل كانت ستؤتي ثمارها، والتي تهدف في الظاهر لزيارة شقيق فيكي وزوجته، أمَّا في الباطن؛ ففرصة أخيرة لإصلاح حال زواجهما.

ولكن منذ تَرْكِهِما الطريقَ الرَّئيس، ساء الحال مرَّةً أخرى، ساء لأي درجة؟ في الحقيقة ساء كثيرًا.

"غادرنا الطريق الرئيس عند هامبورج، صح؟".

"صح".

"لا شيء في الأفق وصولًا إلى جاتلن، عشرون ميلًا، مكان بَرِّيٌّ في الطريق، أتظنُّ أنه يمكننا التوقُّف هناك لنتناول بعض الطعام؟ أم أن جدولك الزمني -جلَّ شَأنُه- يقول إنه ينبغي علينا السير حتى الساعة الثانية مثلما فعلنا البارحة؟".

أشاح بناظريه عن الطريق كي ينظر إليها. "اقترب صبري من النَّفاد يا فيكي، وطالما أنا مهموم بهذا، يمكننا أن نلتفَّ بالسيارة من هنا ونعود إلى المنزل، وتُقابِلي المحامي الذي أردتِ الحديث معه؛ لأن هذا لا يفلح على...".

وجَّهَت نظرها للأمام ثانية، وتجمَّدَ تَعبيرُ وجهها، وتحوَّل فجأة إلى تعبير ذهولٍ وخَوف، "بيرت احترِسْ. أنتَ ذاهِبٌ إلى...".

وجَّه انتباهه من جديد إلى الطريق في الوقت المضبوط ليرى شيئًا ما يختفي تحت مَصدِّ سيَّارة التي- بيرد. بعدها بلحظة، وحينما شرع لتوِّه في التبديل من دوَّاسة البنزين إلى دواسة الفرامل، شعر بشيء يرتطم بطريقة كريهة تحت العجلات الأمامية، والخلفية من بعدها.

ارتَمَيَا إلى الأمام أثناء فرملة السيارة عند نقطة الارتكاز، مع انخفاض السرعة من خمسين إلى صفر على امتداد علامات الاحتكاك السوداء.

قال: "كلب، قولي لي إنه كان كلبًا".

كان وجهها شاحِبًا مثل لون جبن القَريش، "ولد، ولد صغير، ركض للتَّوِّ خارج حقلِ الذُّرة و... مبروك أيها النَّمِر!".

تلمَّسَت باب السيارة لتفتحه، وانحنت إلى الخارج، وتقيَّأت.

جلس بيرت مستقيمَ الظَّهر خلف عجلة قيادة التي- بيرد، ما زال يمسكها بيدين مرتخيتَيْن، فَقَدَ لوَقتٍ طويل إدراكه لكل شيء ما عدا الرائحة الغَنيَّة المُبهَمَة للسِّماد.

ثم اكتشف اختفاء فيكي، وحين نظر في المرآة الخارجية، رآها تتعثَّر بطريقةٍ خرقاءَ نحو رُكامٍ مُتكدِّس يبدو مثل كومة من الخِرَق البالية. كانت في العادة امرأةً متسامية، والآن ذهب السُّموُّ، بل سُلِب منها.

"قَتلُ بالخطأ"، هذا ما يطلقونه عليه، سَرَحتُ بناظريَّ عن الطريق.

أطفأ مفتاح تشغيل السيارة وخرج. حفَّت الرياح عليلةً عبر سيقان الذُّرة المتنامية بطول البَشَر، صانِعةً صوتًا غريبًا يُشبِهُ التَّنفُّس. كانت فيكي واقِفةً فوق كومة الخِرَق الآن، وسمع نحيبها.

كان في منتصف الطريق بين السيارة وموضع وقوف فيكي، وشيء ما شدَّ نظرها، بُقعَةٌ صارخة من الأحمر وسط كل الخُضرة، برَّاقة مثل دهان الحظيرة.

توقَّفَ ووجَّه نظره مباشرة نحو الذُّرة. وجد نفسه يفكر (أي شيء يُشتِّته عن متابعة تلك الخِرَق البالية التي لم تكن خِرَقًا)، إنه حتمًا موسم نَماءٍ طَيِّب للذُّرة لحَدِّ الخيال. نَمَت مُتلاصِقةً، واقترب أوان قطافها. قد تنغمس بين هذه الصفوف الظليلة المتناسقة، وتقضي يومًا كاملًا تحاول شقَّ طريقك ثانية إلى الخارج. لكنَّ التَّناسُق انسحق

هنا، حيث انكسرت بضعة سيقان طويلة من الذُّرة واعوَجَّت. وما هذا الذي يسكن هناك في الظلال؟

صاحت عليه فيكي: "بيرت، ألا تريد أن تأتي لترى؟ حتى تُخبِرَ كل رفاقك في لعب البوكر ماذا اغتَنَمتَ من نبراسكا؟ ألست...". لكن ضاع باقي الكلام في شهقاتٍ جديدة. تَشوَّش ظِلُّها بطريقة صارخة حول قدميها. اقترب الوقت من الظهيرة.

غيَّم فوقه الظِّلُّ حينما شقَّ طريقه في حقل الذُّرة. كان دهان المزرعة الأحمر دماءً، صدر صوتُ طنينٍ خفيض نعسان حين بزغ الذُّباب وتذوَّقَ وطَنَّ ثانِيةً، ربما ليخبروا الآخرين. مزيدٌ من الدماء على الأوراق مع الاستمرار في التوغُّل، أمن الممكن لها أن تتناثر لكل هذه المسافة؟ وبعدها وقف عند الشيء الذي رآه على الطريق، وأمسك به.

انكسر انتظامُ الصفوف هنا، مالت بضعة سيقان في ثُمالَة، انكسر اثنان منهما من جذورهما، وانثقبت الأرض. كانت توجد دماء. خشخَشَت الذُّرة. عاد مُجدَّدًا إلى الطريق ببعض الرَّجفَة.

مرَّت فيكي بنوبة هستيريا، صرخت فيها بكلمات غير مفهومة، تبكي وتضحك، مَن كان يظنُّ بانتهاء الأمر بطريقة ميلودراميَّة هكذا؟ نظر إليها، ورأى أنه لم يَمُرَّ بأزمة هويَّة، أو تحوُّلٍ حَياتِيٍّ شاقٍّ، أو أيٍّ من تلك الأمور الشائعة، كرهها، صفعها صفعةً قويَّةً على وجهها.

توقَّفَت لوقتٍ وجيز، ومدَّت يدها على العلامات المُحمرَّة من أثر أصابعه، قالت بنبرة رصينة: "ستذهب إلى السجن يا بيرت".

قال: "لا أظنُّ ذلك"، ووضع الحقيبة التي عثر عليها بين الذُّرة عند قدميها.

"ما..؟".

"لا أعرف، أظن أنها تخصُّه"، وأشار إلى الجُثَّة المتمدِّدة المنبسطة على الطريق والمقلوبة على وجهها، ومن مظهره، لا يتجاوز سِنُّه ثلاثة عشر عامًا.

كانت الحقيبة قديمة، بَلِيَ جِلدُها البُنِّيُّ واهترأ. التفَّت حولها لفيفتان من حبال الغسيل، مربوطتان بأنشوطتَيْن بهلوانيَّتَيْن كبيرتَيْن، مالت فيكي لتفكَّ إحداهما، ورأت الدِّماء تصبغ الأنشوطة، فتراجَعَت.

جثا بيرت وأدار الجثمان برَويَّة.

قالت فيكي وهي مُحدِّقة ببؤس إلى الأسفل: "لا أريد أن أنظر"، وفي أثناء تحديقها، انقلب الوجه الأعمى ليتحرَّك ناظريها إليه، فصرخت ثانية. كان وجه الفتى قَذِرًا، وقسمات وجهه ملتويةً من الرُّعب، ورقبته مشقوقَة.

وقف بيرت ووضع ذراعيه حول فيكي حينما بدأ جسدها يتأرجح، قال بهدوء بالغ: "لا تقعي من الغشية، أتسمعينني يا فيكي؟ لا تقعي من الغشية".

أعاد ما قال مرارًا وتكرارًا، وفي النهاية بدأت في التَّعافي وتمسَّكَت به. ربما كانا يتراقصان، هناك على طريقٍ سَفَعَته شمسُ الظهيرة، مع جُثَّة فتًى عند أطراف أقدامهما.

"فيكي؟".

خمد صوتها في قميصه: "ماذا؟".

"عودي إلى السيارة وضعي المفاتيح في جيبك. أخرِجي البطاطين من المقعد الخلفي، وبندقيَّتي. أحضريهم إلى هنا".

"البندقيَّة؟".

"شخص ما ذبحه، ربّما مَن يراقبنا أيًّا كان". حرّكَت رأسها لأعلى، وراقَبَت عيناها الذُّرة. سار المجهول بعيدًا عن مرمى البصر، غائصًا لأعلى وأسفل مع الانخفاضات والارتفاعات البسيطة للأرض.

"أظنُّ أنه ذَهَبَ، ولكن لِمَ المخاطرة؟ اذهبي، هيًّا".

عادت مُتخشِّبَةً إلى السيارة، يتبعها ظِلُّها، تعويذة مُظلِمَة مُلازمة لهذه الساعة من النهار. حين مالت إلى المقعد الخلفي، تَقَرفَصَ بيرت بجوار الفتى، ذَكَرٍ أَبيض، لا توجد علاماتٌ مُميَّزة. أي نعم تجاوَزَ السُّرعة، لكن لا يمكن للتي- بيرد أن تَشُقَّ رقبة الفتى. قُطِّعَت بخشونة ودون مهارة -لا يوجد رقيب في الجيش يشرح للقاتل النِّقاطَ المثلى في الاغتيال عن مقربة- لكنَّ الأثر النهائي مُميتٌ. إمَّا أنه هرب أو دُفع به عبر آخر ثلاثين قدمًا من حقل الذُّرة، ميِّتًا أو جريحًا بجُرحٍ قاتل، وبيرت روبيسن خبَطَه بالسيارة. لو كان الفتى ما يزال حيًّا يُرزَقُ حين صدمته السيارة، فقد انتهت حياتُه بمرور ثلاثين ثانية على الأكثر.

نقَرَت فيكي على كتفه وقفز.

كانت تقف ببطانية عسكرية بُنِّيَّة فوق ذراعها الأيسر، والبندقية الهوائية في حقيبتها في يدها اليمنى. اجتنب النظر إلى وجهها. أخذ البطّانِيَّة وفردها على الطريق، وجرَّ الجُثَّة إليها. نَدَّت عن فيكي تَنهِدَةٌ قصيرة يائسة.

رفع نظره إليها: "هل أنتِ بخير؟ فيكي؟".

قالت بصوتٍ مُختَنِق: "بخير".

ثنى أطراف البطانية فوق الجُثَّة، ورفعها في عجالة، كارهًا وزنها الثَّخين الميِّت. حاوَلَت الجُثَّة أن تُشكِّلَ حرف U في ذراعيه وتنزلق من مِسكَتِه المُحكَمَة، قبض عليها بإحكامٍ ثم سارَا مُجدَّدًا إلى التي- بيرد.

قال وهو ينخر: "افتحي صندوق السيارة".

كان صندوق السيارة مليئًا بأغراض السفر؛ حقائب وتذكارات، نقلت فيكي أغلبها إلى المقعد الخلفي، وزلق بيرت الجُثَّة إلى الفراغ المصنوع، ثم أغلق الصندوق بعنف. أفلتت منه تنَهِدَة ارتياح.

كانت فيكي تقف بمحاذاة باب السائق، وما زالت ممسكة بالبندقية في حقيبتها.

"ضعيها فحسب في الخلف واركبي".

نظر إلى ساعته واكتشف مرور خمس عشرة دقيقة فقط، بدت كأنها ساعات.

سألَت: "وماذا عن الحقيبة؟".

هرول عائدًا إلى الطريق من حيث وقف عند الخَطِّ الأبيض، كمثل نقطة محورية في لوحة تعبيرية. أمسكها من مقبضها المهترئ وتوقَّف للحظة. راوده شعورٌ قويٌّ أنه مُراقَب، كان إحساسًا قرأ عنه في الكتب، من روايات رخيصة في الأغلب، وشَكَّ دومًا في حقيقَتِه. الآن لا يشكُّ، وكأن هناك أشخاصًا داخل حقل الذُّرة، وربما الكثير منهم، يحسب في برودٍ ما إذا أمكن للمرأة أن تُخرِجَ السلاح من الحقيبة وتستخدمه قبل أن يتسنَّى لهم اختطافه، وجَرُّه إلى الصفوف الظَّليلَة، وجَزُّ رَقَبتِه. دَقَّ القَلبُ بغِلظَةٍ. عاد راكضًا إلى السيارة، وسحب المفاتيح من قفل الصندوق، وركب السيارة.

كانت فيكي تصيح مجدَّدًا، وتحرَّك بهم بيرت، وقبل مرور دقيقة، لم يَعُد بعد الآن يُميِّز البُقعَةَ التي وقعت عندها الواقعة من خلال مرآة الرؤية الخلفية.

سأل: "أيُّ بلدةٍ قلتِ عنها إنها التالية؟".

مالت على أطلس الطُرق ثانية: "أوه، جاتلن، يُفتَرَضُ أن نصير هناك خلال عشر دقائق".

"أتبدو بلدةً كبيرة كفاية ليكون فيها مخفر للشرطة؟".

"لا، إنها مجرَّد نُقطَة".

"ربَّما يتواجد مسؤولٌ أمنيٌّ هناك".

تَحـرَّكا بالسيارة في صمـتٍ لفـترة. تجاوَزَا صومعـة عـلى جهـة اليسـار. لا شيء آخـر سـوى الـذُّرة. لا شيء يَمـرُّ عليهـم في الطريـق للاتجـاه الآخـر، ولا حتـى شـاحنة مزرعـة.

"هل صادَفنا أي شيء منذ حِدنا عن الطريق الرئيس يا فيكي؟".

فكَّرَت في الأمر، "سيارة وجرار زراعي، عند هذا التقاطُع".

"لا، أقصد منذ وصلنا إلى هذا الطريق. الطريق رقم 17".

"لا، لا أظـنُّ أننـا صادفنـا شـيئًا". في وقـتٍ أبكـر، كان سـيغدو ذلـك مدخـلًا لتلميـح جـارح، والآن هـي تحـدِّق فحسـب إلى الخـارج مـن ناحيتها مـن الزُّجـاج الأمامـي عـلى الطريـق المنبسـط، والخَـطِّ المُنقَّـط اللانهـائي.

"فيكي، أيمكنكِ أن تفتحي الحقيبة؟".

"أتظنُّ أن هذا سيصنع فارقًا؟".

"لا أعلم، ربَّما".

حـين أمسـكت الأربطـة (ثَبـتَ وَجهُهـا عـلى وضـعٍ غريـب، خـالٍ مـن التعبـير، مـع شـفاهٍ مَزمومَـة، تعبـير يتذكَّـره بـيرت مـن وجـه أمِّـه حـين كانـت تنتـزع الأحشـاء مـن دجـاج يـوم الأحـد)، شَـغَّل بـيرت المذيـاعَ مـرة أخـرى.

مـع تعـرُّض محطـة موسـيقى البـوب التـي كانـا يسـتمعان إليهـا لبعـض التشـويش، غـيَّر بـيرت المحطَّـة، مُحـرِّكًا المـؤشِّرَ الأحمـر بتـؤدة عـلى قُـرص المذيـاع. بـك أوينـز، تامـي واينـت، أصواتهـم جميعهـم بعيـدة، وتشـوَّشَـت حتـى اسـتحالت تقريبًـا إلى هَذَيـان. بعدهـا، قـرب نهايـة قـرص المذيـاع،

دوَّت كلمة واحدة من السَّمَّاعة، عالية وواضحة جدًّا، لدرجة أنه يُحتمل تواجُد الشِّفاه التي نطقت بها وراء شبيكة السَّمَّاعة في لوحة القيادة بالضبط.

صاح هذا الصوت قائلًا: "الكَفَّارة!".

شخر بيرت شخرةً مفاجِئَةً، وانتفضت فيكي.

زأر الصَّوتُ قائلًا: "بدم الحَمَلِ وَحده، نحظى بالخلاص". وأخفض بيرت الصوت في عُجالة، حسنًا، هذه المحطة قريبة. شديدة القُرب لا ريب، كانت هناك، يبزغ من الذُّرة في الأفق حامِلٌ ثُلاثيٌّ عنكبوتي أحمر يقف في وجه الزُّرقة، برج المذياع.

قال لهم الصوت، راميًا إلى نبرة حوارية أكثر: "الكَفَّارة هي الكلمة يا إخوتي وأخواتي"، في الخلفية، وبعيدًا عن الميكروفون، تَمتَمَت أصواتٌ قائلة: آمين، "هناك البَعضُ مِمَّن يظنُّون أنه لا بأس من الخروج إلى العالم، كما لو كنتم ستعملون وتمشون في أرجاء العالم دون تدنيس من العالم، والآن أهذا ما تُعلِّمنا إيَّاه كَلِمةُ الرَّبِّ؟".

قال صوتٌ عالٍ رغم بُعدِه عن الميكروفون: "لا!".

صاح المُبشِّر: "يسوع المقدَّس!"، وخرجت الكلمات الآن بإيقاعٍ قَويٍّ مُتدفِّق، فيه من الفتنة ما في إيقاع الروك آند رول من حيويَّة، "متى يدركون أن الموت مآل هذا السبيل؟ متى يعرفون أنهم يَلقَون جزاءهم في العالَمِ الآخر بما آتوا في هذا العالم؟ هه؟ هه؟ قال الرَّبُّ إن في بيته منازل كثيرة، ولكن لا منزل للزَّاني، ولا مَنزِلَ للطَّامع، ولا منزل لمُدنِّسِ الذُّرة، ولا مَنزِلَ للمثليِّين، ولا مَنزِلَ...". أطفأه بيرت بغتةً.

"هذا الهراء يشعرني بالاشمئزاز".

سألها بيرت: "ماذا قال؟ ماذا قال عن الذُّرَة؟".

"لم أُصغِ إليه".

كانت تفكُّ أنشوطةَ حَبل الغسيل الثاني.

"قال شيئًا ما عن الذُّرة، أعرف أنه قال شيئًا".

قالـت فيـكي: "فتَحتُهـا"، وانفتَحَـت الحقيبـة في حِجرهـا. مـرًّا عـلى لافتـة تقـول: جاتلـن بعـد 5 أميـال، قُـدْ سـيَّارَتَك بحـرصٍ؛ حمايـةً لأطفالنـا. أحاطـت حيوانـات الإلكـة باللافتـة، وعليهـا 22 ثقـب مـن الرصـاص.

قالـت فيـكي: "جـوارب، بنطـالان، قميـص، حـزام، ربطـة عنـق مـع آآ...". لجمـت نفسـها وهـي تُريـه مشـبوكةً مُذهَّبـةً مُتقشِّرة. "مَـن هـذا؟".

حدَّق بيرت إلى المشبوكة. "هوبالونج كاسيدي[1]، حسبما أظنُّ".

"أوه"، أعادتها إلى مكانها. كانت تبكي ثانية.

بعـد لحظـة، قـال بـيرت: "ألا يوجـد مـا أَشـعَرَكِ بالاسـتغراب حيـال عِظَـةِ المذيـاع؟".

"لا، سَـمِعتُ مـا يكفـي مـن هـذه الأشـياء في الصِّغَـر لتبقـى معـي إلى الأبـد، حكيـت لـك عـن هـذا".

"ألا تَظنِّين أنه بدا صغيرَ السِّنِّ؟ ذلك الواعظ؟".

أطلقـت ضحكـةً لا تَـشِي بمَـرَحٍ: "مُراهِـق، ربَّمـا، ومـاذا إذن؟ هـذا أبشـع مـا في الرحلـة بأَسْرِهـا، يُحبُّـون أن يسـيطروا عليهـم حـين تكـون عقولهـم مُجرَّد صفحات بيضـاء، ويعرفـون كيـف يَصبُّـون فيهـا كلَّ القيـود والتوازُنـات العاطفيـة، حتـمًا كُنـتَ حـاضرًا في بعـض اجتماعـات الخيـام التـي جَـرَّني إليهـا أبي وأمـي.. والتـي نلـتُ في بعضهـا "الخـلاص"".

---

(1) إشـارة إلى شـخصية خياليـة لراعـي بقـر، ابتكرهـا الكاتـب كلارنـس إي مولفـورد وقدمهـا في عـدد كبـير مـن قصصـه القصـيرة (المترجـم)

"دعنا نَرَ، لدينا بيبي هورتنس، أعجوبة الغناء، كانت في سِنِّ الثامنة، كانت تأتي وتغنِّي ترنيمة "محمول على الأذرع الأبدية"، بينما يناول والِدُها الطَّبَق، مُخبِراً الجميع أن "احفروا عميقًا في دواخلكم، الآن، ولا تخذلوا ابنة الرَّبِّ تلك"، وكان هناك نورمان ستونتن، اعتاد أن يَعِظَ حول جحيم النار والكبريت وهو يرتدي رداء اللورد الصغير فونتليروي[1] ذي البنطال القصير، كانت سِنُّه سبعَ سنوات".

أومأ بتعبيرٍ يَنُمُّ عن عدم التصديق.

"لم يكونا هذين الاثنين فحسب، كان يوجد الكثير منهم في الحَلَقة، كانوا أوراقَ لعبٍ جَيِّدة". وبصَقَت الكلمة. "روبي ستامبنيل، كانت مُعالِجَةً إيمانيَّةً في سِنِّ العاشرة، والأختان جريس، اعتادتا على الظهور بهالاتٍ من ورق الألومنيوم فوق رأسيهما، و... أوه".

"ما هذا؟". أدار رأسه كي ينظر إليها، وإلى ما كانت تُمسِكُه بين يديها، والذي حدَّقَت إليه فيكي مُنتَشِيَةً. شقَّت يداها المبحرتان البطيئتان طريقهما إلى قلب الحقيبة وأخرجته أثناء حديثها، توقَّفَ بيرت بالسيارة ليُمعِنَ النظر جيدًا، ناولته إيَّاه دون كلمة.

كان صليبًا مصنوعًا من لفائف قشر الذُّرة، الأخضر في السابق، الجاف الآن. مربوط عليه كوز ذُرَةٍ مُتقزِّم بألياف الذُّرة المحبوكة. أُزيلَت أغلب حبَّات الذرة بعناية، وربما نُتِشَت واحدة تلو الأخرى بسكين جَيبٍ. شكَّلَت الحبَّاتُ الباقية جسدًا مصلوبًا بسيطًا بنقشٍ بارز مُصفَرٍّ. عينان من حبوب الذرة، كلتاهما مَشقوقة طوليًّا لتكونا بمثابة بؤبؤَيْ العينَيْن، ذراعان ممدودتان من الحبوب، والساقان معًا،

(1) إشارة إلى الشخصية الرئيسة في رواية حملت نفس الاسم للكاتبة البريطانية- الأمريكية فرانسيس هودجسون بارنيت، وفي الثقافة الرائجة الأمريكية، باتت هذه التسمية ذات دلالة على الشخص المدلل المغرور الشاعر بالتفوق الأخلاقي (المترجم)

مقطوعتان، في إشارةٍ خَشِنَة إلى قدَمَيْن عاريتَيْن، ظهرت أيضًا أربع حروف من القَولَحَة البيضاء بلون العَظم: "ي. ن. م. ي[1]".

قال: "يا لها من قطعةٍ مَصنوعةٍ ببَراعَة!".

قالت بصوتٍ فاترٍ متوتِّر: "إنَّها بَشِعَة، ارمِها".

"فيكي، ربما ترغب الشرطة في رؤيتها".

"لماذا؟".

"حقيقة، لا أعرف السبب، ربَّما...".

"ارمِها، أيمكنك أن تفعل ذلك من أجلي؟ لا أريدُها في السَّيَّارة".

"سأضعها في الخلف، وحينما نقابل الشرطة، سأتخلَّص منها بطريقةٍ ما أو بأخرى، أَعِدُكِ، تمام؟".

صرَخَت فيه: "أوه، افعل أيًّا ما تريد فِعلَه، وستفعله على أيِّ حال!".

ألقى بالشيء في الخلف وهو مضطرب، وهبط فوق كومة من الملابس، حدَّقَت عيناه حبَّتَيْ الذرة في نشوةٍ إلى ضوء سقف سيارة التي- بيرد، توقَّف بيرت، حيث اندفع الحصى من وراء العجلات.

وعدها قائلًا: "سنُسلِّم الجُثَّة وكلَّ ما في الحقيبة إلى الشرطة، ومن ثَمَّ نصير أحرارًا".

فيكي لم تَرُدَّ، كانت تنظر إلى يديها. مَرَّ ميلٌ، وانحسرت حقول الذُّرة اللا نهائية من الطريق، وظهرت المزارع والمباني المُلحَقَة. رَأَيا في ياردة واحدة دجاجاتٍ قَذِرةً تُنقِّب بلا كَلَلٍ في التُّربة. كانت توجد لوحات إعلانية باهِتَة للكولا واللبان فوق أسطح الإسطبلات. مرَّا على لوحة

---

(1) في الأصل I N R I، وهي اختصار لعبارة Iesus Nazarenus, Rex Iudaeorum، والتي تعني باللغة العربية: "يَسُوعُ النَّاصِرِيُّ مَلِكُ الْيَهُودِ"، وأمر بيلاطس بكتابة هذه الحروف الأربعة على رقعة خشبية، وعُلقت على الصليب فوق رأس يسوع المسيح (المترجم)

إعلانيـة كبـيرة تقـول: "يســوع وحــده المُخلِّـص"، مـرًا عــلى مقهـى مـع محطَّـة بنزيـن كونوكـو، لكـن بـيرت قـرَّر التَّوجُّـه إلى مركـز البلـدة، هـذا إن وُجِـدَ، وإذا لم يوجـد، يمكنهـما العـودة إلى المقهـى. خطـر لـه بعـد مرورهـما عليـه فقـط أن مـرآب السـيارات كان خاويًـا إلَّا مـن سـيارة نصـف نقـل قديمـة قَـذِرَة، بَـدَت وكأنهـا تقـف عـلى عجلتـين فارِغَتَـيْن مـن الهـواء.

فجـأة بـدأت فيـكي تضحـك، بصـوت عـالٍ ومُقَهقِـهٍ صُعِـقَ لـه بـيرت المشـارف عـلى درجـة خطـيرة مـن الهيسـتريا.

"ما المُضحِك لهذه الدَّرجَة؟".

قالـت في نَوبَـةٍ لهـاثٍ وفـواق: "اللافتـات، ألم تكـن تقرؤهـا؟ مـا كانـوا يمزحـون حـين أطلقـوا عـلى هـذه المنطقـة اسـم الحـزام الإنجيـليِّ[1]، آه يـا إلهـي، هنـاك المزيـد". أفلتـت منهـا دَفعـةٌ ثانيـة مـن الضحـك الهسـتيريِّ، ووَضَعَـت كلتـا يديهـا عـلى فمهـا.

كل لافتـة تحمـل كلمـةً واحـدة فقـط، متَّكِئَـة عـلى عِصيٍّ مدهونـة بمـاء الكلـس ومغروسـة في الحافَّـة الرَّمليَّـة منـذ وقـت طويـل عـلى مـا يبـدو، حيـث تقشَّر الدهـان الكلـسيُّ وبَهَـت، يفصـل بـين كل لافتـة والأخـرى 80 قدمًـا، وقـرأ بـيرت المكتـوب:

"نَهارًا..

فِي..

سَحَابٍ..

---

(1) تسمية تُطلق على منطقة شاسعة تقع في جنوب الولايات المتحدة الأمريكية، والتي تعد أكثر منطقة محافظة دينيًا واجتماعيًا على الإطلاق في أمريكا، كما تتمتع بأعلى نسب حضور ومشاركات في الأنشطة الدينية والكنسية، ويشمل هذا الحزام ولايات (آلاباما، آركنساس، جورجيا، كنتاكي، لويزيانا، ميسيسيبي، ميزوري، نورث كارولينا، أوكلاهوما، ساوث كارولينا، تينيسي، تكساس، فيرجينيا، ويست فيرجينا)، بالإضافة إلى مناطق من ولايات (فلوريدا، إلينوي، آيوا، إنديانا، كنساس، نيو مكسيكو، أوهايو) (المترجم)

وَلَيْلًا..

فِي..

عَمُودِ..

نَارٍ...[1]".

قالت فيكي وما زالت لا تتمالك نفسها من القهقهة: "نسوا أمرًا واحدًا".

سأل بيرت عابسًا: "ما هو؟".

"كريم حلاقة بورما شيف".

ضغطت بمفاصل يدها على فمها المفتوح لتَكتُمَ الضحكة، لكن قهقهاتها شبه الهيستيرية فاضت من حولها مثل فقاقيع شراب مزر الزنجبيل الغازي.

"فيكي، هل أنتِ بخير؟".

"سأكون بخير، حينما نصير على بُعدِ ألف ميلٍ من هنا، في كاليفورنيا الآثِمَة، المُشمِسَة، مع جبالٍ صَخريَّة تفصلنا عن نبراسكا".

ظهَرَت مجموعةٌ أخرى من اللافتات، وقرأها في صمت.

"يَقُولُ..

السَّيِّدُ..

الرَّبُّ:

خُذْ..

---

(1) اللافتات مستوحاة من الآية 21 من الإصحاح الثالث عشر من سفر الخروج، تقول الآية: وَكَانَ الرَّبُّ يَسِيرُ أَمَامَهُمْ نَهَارًا فِي عَمُودِ سَحَابٍ لِيَهْدِيَهُمْ فِي الطَّرِيقِ، وَلَيْلًا فِي عَمُودِ نَارٍ لِيُضِيءَ لَهُمْ. لِكَيْ يَمْشُوا نَهَارًا وَلَيْلًا (المترجم)

هَذَا..

وكُلْ...".

فكَّر بيرت: ولكن لماذا ينبغي عليَّ أن أربط اسم الإشارة غير المحدَّد هذا بالذرة؟ أليس هذا ما يقولونه لك في أثناء طقس المناولة؟ مَرَّ وقتٌ طويل جدًّا منذ أن تواجد في كنيسةٍ، لدرجة أنه لا يتذكَّر، لن يُفاجَأ إذا كانوا يلجؤون إلى خُبزِ الذُّرة ليكون الخُبزَ المُقدَّس في تلك الأرجاء. فتح فمه ليخبر فيكي بهذا، ثم عدل عن ذلك.

ارتقيا هضبةً مُعتَدِلَة، وباتت جاتلن دانيةً منهما، بأحيائها الثلاثة كافَّة، تبدو مثل موقع تصوير لفيلم عن فترة الكساد العظيم.

قال بيرت وتساءل عن السبب: "سيكون هناك مسؤول أمني".

من المؤكَّد أن مرأى هذه البلدة الريفية الرَّتيبة الغافية في الشمس قد أشعره بغصَّةٍ مُخيفة في الحلق.

مرَّا على لافتة تنبيهيَّةٍ عن السرعة تقول بعدم جواز زيادة سرعة القيادة عن 30، وبعدها لافتة أخرى مُرقَّطة بالصدأ، تقول: "أنت الآن تدخل بلدة جاتلن، ألطف بلدة صغيرة في نبراسكا، أو في أي مكان آخر! عدد السُّكَّان:4531".

وقفت أشجار الدردار المُغبرَّة على جانبي الطريق، أغلبها أشجار مريضة. تجاوَزَا ساحة أخشاب جاتلن، ومحطة وقود 76، حيث تتأرجح لافتات الأسعار بأناةٍ في نسيم الظهيرة الحار: "بنزين عادي 35.9، بنزين ممتاز 38.9"، ولافتة أخرى تقول: "بنزين ممتاز لشاحنات الديزل في الخلف".

عَبَرَا شارع إلم، ثم شارع بيرش، بعدها وَصَلَا إلى ساحة البلدة، كانت المنازل المتراصَفة على الشوارع من الخشب العادي مع شرفات محجوبة- عمليَّةً وذات زوايا. كانت مروج العشب صفراء وكئيبة، وفي

الأمـام كلـبٌ هجـينٌ متباطـئ في السـير إلى منتصـف شـارع مايـل، وقـف ينظـر إليهـما لهُنَيهَـةٍ، ثـم رقـد عـلى الطريـق وأنفـه عـلى قدميـه.

قالت فيكي: "توَقَّف، توقَّفْ هنا".

امتثل بيرت وأوقف السيارة عند الرصيف.

"دُرْ بالسـيارة، ولنأخـذ الجُثَّـة إلى جرانـد آيلانـد، ليسـت بعيـدة، أليـس كذلـك، هيـا بنـا".

"فيكي، ما الخطب؟".

سـألت وارتفـع صوتهـا بوهـن: "مـاذا تقصـد بــ "مـا الخطـب"؟ هـذه البلـدة خاويـة يـا بـيرت، لا يوجـد فيهـا أحـدٌ غيرنـا، ألا تشـعر بذلـك؟".

شـعر بـشيء مـا، ومـا يـزال يشـعر بـه، بينـما قـال: "إنهـا تبـدو عـلى هـذا النحـو، لكـن مـن المؤكَّـد أنهـا بلـدة ذات خرطـوم مطافـئ وحيـد، ربمـا كلهـم متواجـدون في السـاحة، يبيعـون المخبـوزات أو يلعبـون لعبـة بينجـو".

"لا يوجـد أحـدٌ هنـا". نطَقَـت تلـك الكلـمات بتشـديدٍ غَريـبٍ وقَلَـقٍ. "ألم تَـرَ حـال محطَّـة وقـود 76 هنـاك؟".

"بالتأكيـد، عنـد سـاحة الأخشـاب، ومـاذا في ذلـك؟". طـاف عقلـه في مـكانٍ آخـر، مسـتمعًا إلى الأزيـز المُضجِـر لحـشرة زيـز تَنقُـب في واحـدة مـن أشـجار الـدردار القريبـة. شـمَّ روائـح الـذُّرة والأزهـار المُتربـة، والسـماد بالطبـع. كانـا للمـرَّة الأولى خـارج الطريـق الرئيـس وداخـل بلـدة، بلـدة في ولايـة لم يتواجَـدَا فيهـا مـن قبـل (رغـم مـروره فوقهـا مـن وقـت إلى آخـر عـلى مـتن طائـرات بوينـج 747 التابعـة للخطـوط الجويـة المتحـدة)، وعـلى نحـوٍ مـا شـعر بوجـود خَطْـبٍ، لكـن الأمـر عـلى مـا يـرام. في مـكان

ما في الأفق، سيتواجد درَجستور وماكينة مشروبات غازية، ودار عرض سينمائية اسمها "بايجو"، ومدرسة سُمِّيَت تيمُّنًا بـ "چي. إف. كي[1] ".

"بيرت، السِّعر المذكور للبنزين العادي 35.9، والبنزين عالي الأوكتان 38.9، كم مَرَّ من الزمن منذ دفع شخصٌ ما تلك الأسعار في هذه البلدة؟".

اعترف قائلًا: "أربع سنوات على الأقل، ولكن يا فيكي...".

"نحن في قلب البلدة يا بيرت، ولا توجد سيَّارة واحدة! ولا سيارة!".

"جراند آيلاند على بُعد سبعين ميلًا، سيبدو أمرًا غريبًا إذا أخذناه معنا إلى هناك".

"أنا لا أبالي".

"حسنًا، دعينا نَقُدْ السَّيَّارة حتى المحكمة، و...".

"لا! قُضِي الأمر، اللعنة، لماذا ينهار زواجنا، باختصار: لا، أنا لن أذهب، لا يا سيدي، والأكثر من ذلك أني سأحبس أنفاسي حتى يَزرَقَّ وجهي إذا لم تَدَعني أتصرَّف بطريقتي".

قال: "فيكي".

"أريد الخروج من هنا يا بيرت!".

"فيكي، اسمعيني".

"لِنَعُد أدراجنا، هيا بنا نذهب".

"فيكي، ألا تتوقَّفين لدقيقة؟".

"سأتوقَّف حين نتوجَّه بالسيارة في الطريق الآخر، والآن هيا بنا نذهب".

(1) اختصارًا لاسم الرئيس الأمريكي الراحل جون إف كينيدي (المترجم)

انفعل عليها قائلًا: "معنا وَلدُ مَيِّت في صندوق سيارتنا!"، واستشعر لَذَّةً جَلِيَّةً في طريقة إجفالها، وتَجعُّد وجهها، وواصل حديثه بنبرةِ صَوتٍ أخفتَ: "شُقَّت رقبته، وأُلقيَ به على قارعة الطريق، وأنا صدمته بالسيارة، والآن سأقود السيارة إلى المحكمة أو أيًّا كان ما لديهم هنا، وسأبلغ عن الواقعة، لو أرَدتِ المسير إلى الطريق العام والذهاب إليه، سأحملك إلى هناك، ولكن لا تقولي لي أن أعود أدراجي وأقود سبعين ميلًا إلى جراند آيلاند كأنه لا شيء لدينا في صندوق السيارة سوى كيس قمامة. تَصادَفَ أنه ابنٌ له أُمٌّ، وسأُبلِغُ عن الواقعة قبل أن يفلت مَن قَتَلَه أيًّا كان إلى التلال، وإلى البُعد البعيد".

قالت وهي تبكي: "أيُّها اللقيط، ما الذي أفعله معك؟".

قال: "لا أعرف، لم أَعُد أعرف بعد الآن، ولكن يمكن إصلاح الموقف يا فيكي".

ابتعد عن الرصيف، رفع الكلبُ رأسه على مسمع الصرير الطفيف لعجلات السيارة، ثم أخفضها ثانية على قدميه.

قادا السيارة في الحَيِّ المتبقِّي من البلدة، وعند ملتقى شارعي ماين وبليزنت، تفرَّع شارع ماين إلى فرعَيْن، ووُجِدَت هناك ساحة بالفعل، حديقة معشوشبة، في قلبها منصَّة، وعند الطرف الآخر، حيث يعود شارع ماين ليصير شارعًا واحدًا مرَّةً ثانية، تواجَدَت بنايتان تبدوان حكوميَّتَيْن، استطاع بيرت تمييزَ المكتوب على إحداهما.

"مجلس بلدية جاتلن".

قال: "ها هو ذا"، فيكي لم تَرُدَّ.

في منتصف الطريق إلى الساحة، توقَّف بيرت بالسيارة من جديد، كانا بجوار صالة طعام: "حانة ومشويات جاتلن".

سألت فيكي مذعورةً في أثناء فتحه للباب: "إلى أين تذهب؟".

"لأعرف أين ذهب الجميع، اللافتة على النافذة تقول "مفتوح"".

"لن تَترُكَني وحدي هنا!".

"إذن تعالي، ماذا يمنعك؟".

فتحت بابها، وخَطَت إلى الخارج في أثناء عبوره أمام السيارة، رأى مدى شحوب وجهها، وشعر في الحال بالشَّفَقة عليها، إشفاق بلا أمل.

سألت حين انضمَّ إليها: "أتسمع هذا؟".

"أسمع ماذا؟".

"اللا شيء، لا سيارات، ولا بشر، ولا جرارات، لا شيء"، وبعدها، ومن على بُعدِ حَيٍّ واحد، سَمِعَا أصوات الضحكات العالية والمبتهجة للأطفال.

قال: "أَسمَعُ أصوات أطفال، ألا تسمعينهم؟".

نظَرَت إليه في اضطراب.

فتح باب صالة الطعام وخطا إلى قلب حرارة جافَّةٍ مُطهَّرة، كانت الأرضية مُتربة، وبريق الكروم منطفئًا، والشفرات الخشبية لمراوح السقف ثابِتةً لا تتحرّك. طاولات فارغة، كراسي فارغة عند النُّضد، لكن المرآة وراء النُّضد مُهشَّمة، وثمَّة شيءٌ آخر، أحسَّ به في لحظة: كل صنابير البيرة مخلوعة، ووُضِعَت مفرودةً على طول النضد مثل هدايا لحفلة غريبة.

كان صوت فيكي خاليَ البال وأقرب ما يكون إلى الانكسار: "بالتأكيد، اسأل أي شخص، المعذرة يا سيدي، ألا يمكنك أن تخبرني...".

"أوه... اخرسي"، لكنَّ صوته كان واهنًا بلا قوة، كانا يقفان في شريط من أشِعَّة الشمس، حمل معه الغُبار وسقط عبر نافذة صالة الطعام ذات الألواح الزجاجية، وراوده مرة أخرى ذلك الإحساس أنه

مُراقَبٌ، وفكَّر في الولد الكائن في صندوق سيارتهما، والضحكات العالية للأطفال. خطَرَت في ذهنه جُملَةٌ بلا سبب، جملة ذات وَقعٍ قانوني، وبدأت تتكرَّر في ذهنه بطريقة غامضة: "بلا حسيب أو رقيب، بلا حسيب أو رقيب، بلا حسيب أو رقيب".

جالت عيناه بين البطاقات المُصفرَّة المشبوكة خلف النضد:

"برجر بالجبن| 35 سنت

وورلدز بيست جو| 10 سنت

فطيرة الروبارب بالفراولة| 25 سنت

طبق اليوم المخصوص: لحم خنزير بصلصة العين الحمراء مع بطاطس مهروسة| 80 سنت".

كم مَرَّ من الزمن منذ رأى هكذا أسعار في صالة للطعام؟

كانت الإجابة عند فيكي، صاحت قائلة: "انظُرْ إلى هذا"، أشارت إلى الروزنامة على الجدار. "أظنُّ أنهم تواجدوا في ملتقى عشاء الفول[1] هذا لمدة أحد عشر عامًا"، ونَدَّت منها ضحكة وهي تصرُّ على أسنانها.

تمشَّى. أظهرت الصورةُ وَلَدَيْن يسبحان في مسبح، بينما اختطف كلبٌ لطيف صغير ملابسهما. تحت الصورة نقشٌ مكتوب: "نُحيِّيكم من جاتلن للأخشاب والأدوات المنزلية، ما تكسره نصلحه"، كان الشهر المذكور أغسطس 1964.

تلعثم في الكلام: "لا أفهم، لكني متأكِّدٌ أن...".

---

(1) عشاء الفول تقليد شهير في ولاية ماين تنظمه عدد كبير من الكنائس هناك، حيث يتجمع فيه الكثيرين من رواد الكنائس ليستمتعوا فيه معًا بتناول وجبة عشاء مكونة في الأساس من الفول والخبز البني، مع بعض الأطباق الإضافية (المترجم)

صاحت بهستيريا: "مُتأكِّد! بالتأكيد أنت مُتأكِّد! هذا جزء من مشكلتك يا بيرت، قَضيتَ حياتك بأَسْرِها مُتأكِّدًا".

استدار عائدًا إلى الباب، ثم تَبِعَتْه.

"إلى أين تذهب؟".

"إلى مجلس البلديَّة".

"بيرت، لماذا يجب أن تكون عنيدًا هكذا؟ أنت تعرف بوجود خَطبٍ ما هنا، ألا تعترف به فحسب؟".

"أنا لا أعاند، وإنما أريد أن أتخلَّص مِمَّا في صندوق السيارة".

خرجا إلى الممشى، وصُعِقَ بيرت من جديد من خواء البلدة، ومن رائحة السماد. على نحوٍ ما لم تُفكِّر قَطُّ في هذه الرائحة حين وَضَعتَ الزُّبدة على كوز ذُرَةٍ مطبوخ وأمْلَحْتَه وغَرَستَ فيه أسنانك، والفضل في ذلك للشمس والمطر وكلِّ أصناف الفوسفات المُصنَّع، مع جرعة صحِّيَّة وجيِّدة من خراء البقر، لكن بشكلٍ ما، هذه الرائحة مختلفة عن تلك التي تَربَّى عليها في الضواحي في شمال نيويورك. قُلْ ما تشاء قَولَه عن السماد العضوي، لكن فيه شيء عَبِقُ الرائحة حين يُفرش بمفرشة السماد في الحقول، ليست واحدة من عطورك الفاخرة، يا إلهي لا، ولكن حين يلتقطه نسيم الربيع نهاية فترة بعد الظهيرة، ويحمله إلى الحقول التي قُلِّبَت تُربَتُها حديثًا؛ تَصير رائحةً تحمل معها معاني طيبة، كانت تعني أن الشتاء انتهى فعليًّا، وتعني أن المدارس ستُغلِقُ أبوابها بقوَّةٍ لمدَّة سِتَّة أسابيع أو أكثر حتى ينغمس الجميع في الصيف. كانت رائحةً ترتبط اشتراطيًّا في ذهنه بروائح أخرى تصنع عطرًا: الإفليوم المرجي، زهر البرسيم، الأرض الطرية، زهور الخَطميَّة، نبات القرانيا.

مكتبة
t.me/t_pdf

كان يفكر بأنه عليهم القيام بأمر مختلف هنا، كانت الرائحة قريبة ممَّا في ذاكرته، لكنها ليست نفسَها، كان في باطنها شيءٌ حُلوٌ حتى السُّقم، تكاد تكون رائحة الموت. ولأنه كان مُمرِّضًا في ڤيتنام، بات ضليعًا بتلك الرائحة.

كانت فيكي تجلس هادِئةً في السيارة، مُمسِكَةً بصليب الذُّرة في حِجرها، تحدِّق إليه في استغراق لم يُحبِّذه بيرت.

قال: "أَبعِدي هذا الشيء".

قالت دون النظر لأعلى: "لا، العَبْ ألاعيبَكَ، وأنا سألعب ألاعيبي".

جهَّز سيارته وقادها إلى الزاوية، حيث عُلِّقَت إشارة مرور ميِّتة فوق الرؤوس، متأرجحة مع النسيم الخفيف، وعلى جهة اليسار كنيسة بيضاء نظيفة، العُشبُ مَجزوزٌ، كما نَمَت زهورٌ حَظِيَت بالعناية وراء الطريق المرصوف المؤدِّي إلى الباب. توقَّف بيرت بالسيارة.

"ماذا تفعل؟".

قال بيرت: "سأدخل وأُلقي نظرة؛ فهو المكان الوحيد في البلدة الذي لم تتراكم فوقه أَتربَةُ السِّنين العشر، وانظري إلى لوحة العِظات".

ألقَت نظرة، حروفٌ بَيضاءُ مُعلَّقة بعناية تقول: "القُوَّة والنعمة للمَشَّاء خَلفَ الصُّفوف"، والتاريخ المذكور 27 يوليو 1976، يوم الأحد الماضي.

قال بيرت: "المشَّاءُ خَلفَ الصُّفوف"، وأطفأ مُشغِّل السيارة.

"أَظنُّه اسمًا من أسماء الرَّبِّ التِّسعة آلاف، لكنه يُستخدم فقط في نبراسكا، هل ستأتين؟".

لم تبتسم، "لن أدخُلَ مَعكَ".

"حسنًا، أيًّا كان ما تريدين".

"لم أدخل كنيسةً منذ غادَرتُ بلدتي، ولا أريد أن أكون في هذه الكنيسة، ولا أرغب في التَّواجُد في هذه البَلدَة يا بيرت، أنا خائِفةٌ لِحَدِّ الجنون، ألا يمكننا فقط أن نذهب؟".

"سيستغرقني الأمر دقيقة".

"معي مفاتيحي يا بيرت، إذا لم تَعُد خلال خمس دقائق، سأرحل بالسيارة وأتركك هنا".

"حَسبُكِ... وانتظري دقيقةً يا امرأة".

"هذا ما سأفعله، إلا إذا أردت أن تُهاجِمَني مثل لِصٍّ سُوقيٍّ، وتسلبني مفاتيحي، أظنُّ أنك ستفعلها".

"لكنَّكِ لا تظنين أني سأفعلها".

"لا".

كانت حقيبة يدها على المقعد بينهما. انتزعها، صرَخَت وأمسكت حزام الأمان، سحبها بعيدًا عن مُتناوَل يدها، ولم يُكلِّف نفسه عناء تفتيش الحقيبة، بل قَلَبها ببساطة رأسًا على عقب ليتساقط منها كل شيء: كانت ميدالية مفاتيحها اللامعة بين المناديل، وأدوات التجميل، والعملات المعدنية، وقوائم التَّسوُّق القديمة. اندفعت نحوها ثانيةً، لكنه ضربها مرَّةً أخرى ووضع المفاتيح في جيبه.

قالت وهي تبكي: "ما كان عليكَ فِعلُ ذلك، أَعِدْهُم لي".

قال: "لا، مُحال"، وابتسم لها ابتسامةً جافَّةً لا معنى لها.

"أرجوكَ يا بيرت! أنا خائفة"، ومدَّت يديها، مُتوسِّلَةً الآن.

"ستنتظري دقيقتَيْن، وأرى أن هذا وقتٌ طويلٌ بما يكفي".

"أنا لن...".

"وستتحرَّكين بالسيارة وأنتِ تضحكين وتقولين لنفسك: "سيُلقِّن هذا بيرت درسًا ألَّا يَتخطَّاني حين أريد شيئًا"، ألم يكن هذا شِعارَك خلال حياتنا الزوجية؟ "أني سألقن بيرت درسًا على تخطِّيه إيَّاي"".

خرج من السيارة.

صاحَت مُنادِيَةً وهي تُحرِّك المقعد: "أرجوك، يا بيرت؟ اسمع.. أعرف... سنتحرَّك بالسيارة خارج البلدة ونُجري مُكالَمةً من كابينة هاتف، اتَّفقنا؟ معي كل فئات الفَكَّة، أنا فقط.. يمكننا... لا تتركني وحدي، بيرت، لا تتركني وحدي بالخارج هنا!".

خبط باب السيارة بالتَّزامُن مع صَيحَتِها، ثم مال لوَهلَةٍ على جانب التي- بيرد، وإبهاماه أمام عينيه المُغمَضَتَيْن، كانت تَطرُقُ على النافذة عند مقعد القيادة وتناديه باسمه، كان سيرتسم على وجهها تعبيرٌ رائِقٌ حين يجد شخصًا في موقع مسؤولٍ أخيرًا كي يتولَّى مسؤوليَّة جُثَّة الفتى، أي نعم.

استدار وسار نحو الطريق المرصوف إلى أبواب الكنيسة، دقيقتان أو ثلاث، سيلقي نظرة فقط على الأرجاء، وسيعود أدراجه، وربما كان الباب حتى غيرَ موصَدٍ.

لكنه دفع الباب بصَمتٍ ويُسرٍ، مفصلات الباب مُزيَّتة جيِّدًا (أطرق مُفكِّرًا: مُزيَّتة باحترام، وبدا هذا غريبًا لسبب غير مفهوم)، وخطا إلى دهليز فائق البرودة لدرجة شبه قارسة. احتاجت عيناه لحظة كي تعتادا على العَتَمَة.

أوَّل ما لحظه كومة من الحروف الخشبية في الركن البعيد، مُغبرَّة ومختلطة معًا بلا تمييز، اتَّجه إليها، شاعرًا بالفضول، بدت قديمةً ومَنسيَّةً مثل الروزنامة في الحانة ومطعم المشويَّات، على النقيض من بقيَّة الدهليز الذي كان مُرتَّبًا وخاليًا من الأتربة. بلغ ارتفاع الحروف قدمَيْن تقريبًا، وواضح أنه جُزءٌ من مجموعة. فرَدَهم على

السجادة -كان يوجد منها واحد وعشرون تقريبًا- وبدَّل فيما بينها مثل ألعاب ترتيب الأحرف: "نعم الناس معمدين"، لا، "مدينة أمل لكل ناس"، لم تُخرج جملةً مُفيدَةً أيضًا، ماعدا حرف ك في كلمة "لِكُلِّ"، فجمع بسرعة كلمة" كنيسة"، ووجد نفسه ينظر إلى جملة "إن لم أَدُم"، جملة سخيفة، جلس القرفصاء هنا ليلعب ألعابًا حمقاء بمجموعة من الأحرف، بينما يُجَنُّ جنون فيكي بالخارج في السيارة. بدأ بالقيام من مقعده، ثم أدرك الأمر. شكَّل كلمة "المعمدانية"، وبقى معه "المعنة"، وبتبديله حرفين، صارت معه كلمة "النعمة"، "كنيسة النعمة المعمدانية"، حتمًا كانت الأحرف موجودةً بالخارج، انتزعوها وألقوها دون فَرزٍ في الزاوية، وطُلِيَت جدران الكنيسة من وقتها فلن تعرف حتى المكان الأصلي للحروف.

لماذا؟

لأنها لم تَعُد كنيسةَ النعمة المعمدانية بعد الآن؛ هذا هو السبب. لذا أيَّ كنيسة كانت هذه؟ لسببٍ ما، سَرَت دفقةٌ من القلق من جرَّاء هذا السؤال، ووقف بسرعة وهو ينفض أصابعه من الغبار؛ لذا فقد انتزعوا بعض الحروف، وماذا في ذلك؟ ربما غيَّروا المكان ليصير كنيسةَ فليب ويلسون بالنظر إلى ما يحدث الآن.

ولكن ماذا حدث بعدها؟

تَخلَّص منها في نفاد صبر، واتَّجه إلى الأبواب الداخلية، وبات يقف الآن في ظهر الكنيسة ذاتها، وتطلَّع نحو صحن الكنيسة، استشعر خوفًا يقترب من قلبه وضغط بشدَّة، انقطع نَفَسُه بصوتٍ عالٍ في الصمت الثقيل لهذا المكان.

احتلَّت لوحةٌ عملاقة للمسيح تلك المساحة وراء منبر الوعظ، وفكَّر بيرت: إذا لم يتسبَّب أيُّ شيء في البلدة في صراخ فيكي صراخًا هيستيريًّا، فهذا ما سيدفعها لذلك.

كان المسيح مبتسمًا، ماكرًا، وعيناه واسعتين ومُحدِّقَتين؛ ممَّا ذكَّر بيرت بصعوبةٍ بالمُمثِّل لون شاني في فيلم "شبح الأوبرا"، في كل بؤبؤ من بؤبؤَيْ عينيه السوداوين الواسِعَتَيْن شخصٌ ما (يُحتَمَلُ أنه شخصُ خَطَّاء) غارق في بحيرة النار، لكن أغرب تفصيلة أن شَعرَ المسيح لونه أخضر، والذي يتَّضِح عند المعاينة عن قُربٍ أنه كُتلَة مجدولة من محصول ذُرَةِ بواكير الصيف، رُسِمَت اللوحة بخشونةٍ، لكنها كانت مؤثِّرة، تبدو كأنها شريطٌ رسوميٌّ هَزليٌّ رسمه طفل موهوب، مسيح من العهد القديم، أو مسيحٌ وَثنيٌّ قد يَذبَحُ حملانه كأضحية بدلًا من تسييرهم في قطيع.

يوجد عند قاعدة الصفوف اليسرى من مقصورات الكنيسة أرغن ذو أنابيب، لم يستطع في البداية أن يفهم ما خَطبُه، تمشَّى إلى الناحية اليسرى من الممشى، ورأى في ذُعرٍ يبزغ ببطء أن المفاتيح مخلوعة، وأن مجموعات الأنابيب مُقتَلَعَة من أماكنها، والأنابيب نفسها محشوَّة بقشور ذُرة جافَّة، وفوق الأرغن لوحةٌ كُتِبَت بعناية تقول: "يَقُولُ السَّيِّدُ الرَّبُّ: لا تُجرِ الموسيقى سِوَى على أَلْسِنَةِ البَشَر".

كانت فيكي على حَقٍّ، ثمَّة خَطبٌ ما يحدث هنا، تجادَلَ مع نفسه في العودة إلى فيكي دون استكشاف المزيد، وركوب السيارة فقط ومغادرة البلدة بأسرع ما يُمكِن، ولا يهم مجلس البلدية. شعر بالانزعاج، وأطرق مُفكِّرًا: قُل الحقيقة، تريد أن تُجرِّب مضاد التعرق "بان 5000" خاصتها قبل العودة والاعتراف أنها كانت مُحِقَّة كنقطة بداية.

سيعود خلال دقيقة أو نحو ذلك.

تمشَّى في اتجاه منبر الوعظ، وهو يفكِّر: الناس يمرُّون على جاتلن طيلة الوقت، يوجد بَشَرٌ حتمًا في البلدات المجاورة ممَّن لديهم أصدقاء وأقرباء هنا، من المؤكَّد أن شرطة ولاية نبراسكا تَمرُّ هنا

مـن حـينٍ لآخـر، ومـاذا عـن شركـة الكهربـاء؟ إشـارة المـرور مُتوقِّفـة عـن العمـل، كانـوا سـيعرفون حتـمًا حـين تنقطـع الكهربـاء أحـد عـشر عامًـا.

الخلاصة: يستحيل تصديقُ ما يبدو أنه قد حدث في جاتلن.

مع هذا، شعر بالخوف.

صعـد درجـات السـلم المفروشـة الأربعـة وصـولًا إلى منـبر الوعـظ، وتطلـع إلى المقصـورات المهجـورة، الملتمعـة في أنصـاف الظِّـلال. بـدا أنـه يشـعر بوطـأة العينـين غـير المسـيحيَّتَيْن والمفزعتـين دون رَيـبٍ اللَّتَـيْن تثقبـان ظهـره.

كان يوجـد كتـاب مُقـدَّس ضخـم عـلى الحامـل، مفتـوح عـلى الأصحـاح الثامـن والثلاثـين مـن سِـفر أيـوب، ألقـى بـيرت نظـرة عليـه وقـرأ: "فَأَجَابَ الـرَّبُّ أَيُّـوبَ مِـنَ الْعَاصِفَـةِ وَقَـالَ: مَـنْ هـذَا الَّـذِي يُظْلِـمُ الْقَضَـاءَ بِـكَلاَمٍ بِلاَ مَعْرِفَـةٍ؟ أَيْـنَ كُنْـتَ حِـينَ أَسَّسْـتُ الأَرْضَ؟ أَخْـبِرْ إِنْ كَانَ عِنْـدَكَ فَهْـمٌ". الـرَّبُّ، ذلـك المشَّـاءُ خلـف الصفـوف، أخـبر إن كان عنـدك فهـم، واعـبُرْ حَقـلَ الـذُّرة.

قلـب صفحـات الكتـاب المُقـدس، وأحدثـت صوتًـا هامسًـا يابسًـا في قلـب الصمـت، صـوت قـد يصـدر عـن الأشـباح، هـذا إن وُجـدت أشـباح أصلًا، وقـد توشـك عـلى تصديـق هـذا في مـكان عـلى هـذه الشـاكلة. اقتُطِعَـت أجـزاء مـن الكتـاب المقـدَّس، أغلبهـا مـن العهـد الجديـد حسـبما رأى. شـخصٌ مـا قـرّر أن يأخـذ عـلى عاتقـه مَهمَّـة تصحيـح نسـخة الملـك جيمـس الجيـدة بالمقـصِّ.

بينما العهد القديم سليمٌ لم يُمَسّ.

كان عـلى وشـك مغـادرة منـبر الوعـظ حـين رأى كتابًـا آخـر موضوعًـا عـلى رَفٍّ أدنى وسَـحَبَه؛ ظنًّـا منـه أنـه قـد يكـون سِـجِلَّ الكنيسـة للزيجـات والاعترافـات والدفنـات.

الْتَـوَت قَسَـماتُ وجهـه عـلى مـرأى الكلـمات المنقوشـة دون احترافيَّـةٍ عـلى الغـلاف مـن رقائـق الذهـب: يَقُـولُ السَّـيِّدُ الـرَّبُّ: فلتجتَـثَّ الظالمـين حتـى تُثمِـرَ الأرضُ ثانيـةً.

في الجـوار هنـا، يوجـد عـلى مـا يبـدو تَسَلسُـلٌ مُتحـرِّكٌ مـن الأفـكار، ولم يُبـالِ بـيرت كثـيراً أي مسـار يتَّخِـذه ليكـون وجهـة لـه.

فتـح الكتـاب عـلى الصفحـة الأولى العريضة والمُسـطَّرة، أدرك عـلى الفور أنهـا كتابـة طفـل مـا، ففـي عـدَّة مواضـع، اسـتخدم بحـرصٍ مُزيـلًا للحـبر، وفي حـين لا توجـد أي أخطـاء إملائيـة، كانـت الأحـرف كبـيرةً ومكتوبـةً بطريقـة طفوليَّـة، رَسـمٌ أكـثر منـه كتابـة، يذكـر العمـود الأول الآتي:

"عاموس دايجان1 (ريتشارد): وُلِدَ في 4 سبتمبر 1945- 4 سبتمبر 1964.

إسحاق رينفرو (ويليام): وُلِد في 19 سبتمبر 1945- 19 سبتمبر 1964.

صفنيا كيرك (چورچ): وُلد في 14 أكتوبر 1945- 14 أكتوبر 1964.

مريم ويلز (روبرتا): وُلِدَت في 12 نوڤمبر 1945- 12 نوڤمبر 1964.

يمن هوليز (إدوارد): وُلد في 5 يناير 1946- 5 يناير 1965".

استـمرَّ بـيرت في تقليـب الصفحـات وهـو مُقطِّـب الجبـين، ومـع مـرور ثلاثـة أرباعـه، انتهـت العواميـد المزدوجـة فجـأة:

"راحيل ستيجمان (دونا): وُلِدَت في 21 يونيو 1957- 21 يونيو 1976.

موسى ريتشاردسن (هنري): وُلد في 29 يوليو 1957.

ملاخي بوردمان (جريج): وُلد في 15 أغسطس 1957".

---

(1) نظـرًا لإتخـاذ جميـع الأطفـال المذكـورة أسـمائهم في الكتـاب الـذي عـثر عليـه بـيرت أسـماء مستوحاة مـن الكتـاب المقـدس، قررنـا اللجـوء مباشرة إلى اسـتخدام الأسـماء العربيـة للشـخوص التـي يسـتقي منهـا الأطفـال أسـمائهم بديـلًا عـن تعريـب الأسـماء الإنجليزيـة، وذلـك لتيسـير الإشـارة عـلى القـارئ إلى مصدرهـا الدينـي الرئيـس، وللتأكيـد (مثلـما يؤكـد كينـج نفسـه) عـلى التمايـز بـين اسـم الميـلاد والاسـم المسـيحي الـذي اختـاره كل منهـم (المترجـم)

كان آخر قَيدٍ في الكتاب من نصيب راعوث كلاوسن (ساندرا): وُلِدَت في 30 أبريل 1961. نظر بيرت إلى الرَّفِّ الذي وجد فيه الكتاب، ووجد كتابين آخرين، نُقِشَ على الأول نفس شعار "فلتجتثَّ الظالمين"، وواصل نفس منهج التسجيل، عمود واحد يتتبَّع تواريخ الميلاد والأسماء. في بواكير سبتمبر من العام 1964 وجد اسم أيوب جيلمان (كلايتون)، وُلِدَ في 6 سبتمبر، وكان الاسم التالي حوَّاء توبين، وُلِدَت في 16 يونيو 1965، بدون اسمٍ ثانٍ بين الأقواس.

كان الكتاب الثالث فارغًا.

فكَّر بيرت في الأمر وهو واقِفٌ وراء منبر الوعظ.

حدث شيءٌ ما في العام 1964، شيءٌ له علاقة بالدِّين والذُّرة والأطفال.

إلهي القدير، نلتمس بَرَكَتَكَ على الذُّرة، لأجل المسيح، آمين.

وارتفع السِّكِّين عاليًا للتضحية بالحَمَل، ولكن هل كان هناك حَمَل؟

ربما عصف بهم هَوَسٌ دينيٌّ، وهم وحيدين، وحيدين تمامًا، معزولين عن العالم الخارجي بمئات الأميال المربَّعة من الذُّرة السِّرِّيَّة المُخَشخِشَة، وحيدين تحت سبعين مليون أكر من السماوات الزرقاء، وحيدين تحت عَينِ الرَّبِّ الحارسة، والذي بات الآن إلهًا مُخضَرًّا غريبًا، إلهًا للذُّرة، شائِخًا وغريبًا وجائِعًا، ذلك المشَّاء خلف الصُّفوف.

شعر بيرت بقشعريرة تنسرب في جلده.

فيكي، دعيني أحكي لكِ حكاية، إنها عن عاموس دايجان، المولود تحت اسم ريتشارد دايجان في الرابع من سبتمبر 1945، اتَّخَذَ لنفسه اسم عاموس في العام 1964، اسم جيِّد من العهد القديم، عاموس، أحد الأنبياء الصِّغار. طيِّب، ما حدث يا فيكي -وامنعي الضحك- أن ديك دايجان وأصدقاءه بيلي رينفرو، وچورچ كيرك، وروبرتا ويلز، وإيدي هوليز من بين آخرين قد صارت لديهم ديانة، وقَتَلوا آباءهم، كلهم.

أليست هذه صرخة؟ أطلقوا عليهم الرَّصاصَ في أَسِرَّتِهم، أو طعنوهم بالسكاكين في مغاطسهم، أو سَمَّموا وجبات عشائهم، أو شنقوهم، أو انتزعوا أحشاءهم، وذلك حسبما أعرف.

السبب؟ الذُّرة، ربما كانت تموت، ربما خطَرَت لهم الفكرة على نحوٍ ما أنها تموت بسبب استفحال الخطايا، وعدم كفاية الأُضحيات، كانوا سيفعلونها في حقول الذُّرة، بين الصفوف.

وبطريقةٍ ما يا فيكي، وأنا متأكِّد من ذلك، أنَّهم تقريبًا قرَّروا أن تسعة عشر عامًا هو أكبر سِنٍّ يمكن لأحدهم أن يبلغه في العيش. ريتشارد (عاموس) دايجان، بطل حكايتنا الصغيرة، حظي بعيد ميلاده التاسع عشر في الرابع من سبتمبر 1964، التاريخ المُدَوَّن في الكتاب. أظنُّ أنهم ربما قتلوه، وضَحُّوا به في حقول الذُّرة، أليست هذه حكاية سخيفة؟

ولكن لنَنظُرْ إلى راحيل ستيجمان، التي كان اسمها دونا ستيجمان حتى حلول العام 1964، صارت في سِنِّ التاسعة عشرة في الحادي عشر من يونيو، منذ شهر واحد فقط. موسى ريتشاردسن وُلِدَ في التاسع والعشرين من يوليو، سيصير في سِنِّ التاسعة عشرة بعد ثلاثة أيَّامٍ فقط ابتداءً من اليوم، ألديكِ أيُّ فِكرَةٍ عَمَّا سيحدث لموسى الكبير في اليوم التاسع والعشرين؟

يمكنني التكهُّن.

لعق بيرت شفتَيْه اللتَيْن أحسَّ بجفافهما.

أمرٌ آخر يا فيكي، انظري إلى هذا، لدينا أيوب جيلمان (كلايتون) المولود في 6 سبتمبر 1964، لا يوجد مواليد آخرون حتى 16 يونيو 1965، فجوة زمنية تبلغ عشرة أشهر، أتعرفين ما أظنُّه؟ قَتَلوا جميع الآباء والأمهات، حتى الحوامل منهنَّ، هذا ما أظنُّه، وإحداهن حبلَت

في أكتوبر 1964، ووَلَدَت حوَّاء، فتاة في سِنِّ السابعة عشرة أو الثامنة عشرة. حواء. المرأة الأولى.

قلَّب مُجدَّدًا في الكتاب وهو محمومٌ، وعثر على سِجِلِّ حوَّاء توبين، وتحتها: آدم جرينلاو، وُلِدَ في 11 يوليو 1965.

فكَّر وبدأ يشعر بالتنميل في جِلدِه: كانوا سيصيرون أحدَ عشرَ طفلًا الآن، وربما هم بالخارج الآن، في مكانٍ ما.

ولكن كيف تسنَّى لأمرٍ كهذا أن يبقى سِرًّا؟ كيف كُتِبَ له الاستمرار؟

كيف، إلا إذا رأى الرَّبُّ -مَحلُّ النقاش- أن ذلك حَسَن؟

قال بيرت في قلب الصمت: "يا للمسيح!"، وذلك حين بدأ بوق سيارة التي- بيرد في الدويِّ في فترة بعد الظهر، صفارة واحدة طويلة متَّصِلَة.

قفز بيرت من منبر الوعظ، وهرع إلى الممرِّ الأوسط، فتح باب الرَّدهَة الخارجية على مصراعَيْه، مُدخِلًا أشعَّةَ الشمس الحارَّة الساطعة، وظهرت فيكي وهي تجلس باستقامة خلف عجلة القيادة، وكلتا يداها مُلتَصِقَتان ببوق السيارة، ورأسها يدور بعنف. توافد الأطفالُ من الأرجاء كافَّة، كان بعضهم يضحك مبتهجًا. أمسكوا بسكاكين وفؤوس ومواسير وحجارة ومَطارِق، وأمسكت فتاة -ربما في سِنِّ الثَّامنة- ذات شَعرٍ أشقر طويل بذراعٍ رَفعٍ. أسلحة قروية، ليس من بينها أسلحة نارية. شعر بيرت برغبة ضارية في النداء عليهم: مَن فيكم آدم وحوَّاء؟ مَن هُنَّ الأمهات؟ مَن هُنَّ البنات؟ الآباء؟ الأبناء؟

أخبِروا إن كان عندكم فَهمٌ.

جاؤوا من الشوارع الجانبية، ومن حديقة البلدة، وعبر البوابة في السياج المسلسل المحاط بملعب مدرسة من حيٍّ سَكَنيٍّ يَبعُدُ شرقًا.

حدَّق بعضهم بلا مبالاة إلى بيرت، الواقف في جُمودٍ على درجات سلالم الكنيسة، ولَكَزوا بعضهم البعض بأكواعهم ولوَّحوا وابتسموا بابتسامات الأطفال العذبة.

ارتَدَت الفتيات صوفًا بُنِّيًّا طويلًا وقلنسوات باهتةً واقِيَةً من الشمس، وارتدى جميع الفِتيَة ملابِسَ سوداء وقُبَّعات مستديرة قِمَّتها، مُسَطَّحة حوافُّها مثل أفراد طائفة الكويكرز، تدفَّقوا عبر ساحة البلدة في اتجاه السيارة، وعبر المروج، وجاء بعضهم عبر الفِناء الأمامي للبناية التي عُرِفَت حتى العام 1964 باسم "كنيسة النِّعمة المعمدانيَّة". واحد أو اثنان منهم اقتربا بما يكفي لأن تلمسهما.

صرخ بيرت: "البندقية! احضري البندقية يا فيكي!".

لكنها تجمَّدَت في خوفها، رأى عينيها من عند درجات السُّلَّم، وشَكَّ إن كانت تستطيع سماعه من النوافذ المغلَقَة.

تجمَّعوا عند السيارة. بدأت الفؤوس والبُلَط والقطع الأنبوبية تعلو وتهبط. فكَّر وهو يقف مُتحجِّرًا: يا إلهي، هل أرى ما أراه؟ سقط من جانب السيارة سهم من الكروم، وطارت حلية غطاء محرِّك السيارة. زحفت السكاكين متلولِبَةً عبر أغطية العجلات فاستكانت السيارة. دوَّى بوق السيارة مرارًا وتكرارًا، وغام الزجاج الأمامي وانشرخ تحت وطأة الهجوم، وتناثَرَت شظايا زجاج الأمان إلى داخل السيارة فاستطاعت الرؤية من جديد. جثمت فيكي إلى الوراء، ويدٌ واحدة فقط تضغط على البوق الآن، ورفعت اليد الأخرى لتحمي وجهها. امتدَّت الأيادي الصغيرة المتلهِّفة إلى الداخل، مُتحسِّسةً زِرَّ فتح وإقفال الباب، فصدَّتهم بغلظة. تقطع صوت البوق حتى انقطع تمامًا.

شدُّوا باب السائق المخبوط والمنبعج، كانوا يحاولون جَرَّها خارج السيارة، لكنَّ يديها التفَّتا على عجلة القيادة، ثم انحنى أحدهم، مع سكِّينٍ في يده، و...

انفكَّ جمـوده وتقافـز عـلى السـلالم، وأوشـك أن يقـع، وهـرع إلى الطريـق المرصـوف، في اتجاههـم. اسـتدار أحدهـم نحـوَه بـشيءٍ مـن العفويـة، فتًـى في سـن السادسـة عـشرة تقريبًـا، شَـعرُه طويـل، طويـلٌ، يَنسَـدِلُ مـن خـارج قُبَّعَتـه، ومـرق شيء مـا في الهـواء. تقلَّـص ذراع بـيرت الأيـسر، وراوَدَتـه للحظَـةٍ تلـك الفكـرةُ السـخيفة أنـه تعـرَّض لضربـة مـن مسـافة بعيـدة، ثـم حـلَّ الألم، شـديد الحِـدَّة والفجائيـة لدرجـةٍ صـار معهـا العالَـم رماديًّـا.

فحـص ذراعـه في ذهـول أحمـق، حيـث بـرزت منهـا مطـواة جيـب ثمنهـا دولار ونصـف كأنهـا وَرَمٌ غريـب، واحمـرَّ كُـمُّ تي-شـيرته الريـاضي مـن چـي سي بينـي، مُحـاوِلًا أن يفهـم كيـف نبَتَـت في ذراعـه مطـواة جيـب... هـل هـذا ممكـن؟

حـين تطلَّـع بنظـره، بـات الفتـى ذو الشَّـعر الأحمـر فوقـه تقريبًـا، كان يبتسـم في ثِقَـة.

قال بيرت: "هاي، أيُّها اللَّقيط". كان صوته حادًّا ومصدومًا.

قـال الفتـى ذو الشـعر الأحمـر: "عُـدْ برُوحِـكَ إلى الـرَّبِّ، وسـتقف أمـام عرشـه في الحـال"، وانقـضَّ بأظافـره عـلى عـين بـيرت.

تراجـع بـيرت، وانتـزع المطـواة الرخيصـة مـن ذراعـه، وغرسـها في عنـق الفتـى ذي الشـعر الأحمـر، تدفَّقَـت الدمـاء عـلى الفـور بكَـمٍّ مَهـولٍ، وتلطَّـخ بـه بـيرت. بـدأ الفتـى ذو الشـعر الأحمـر يُقَرقِـرُ ويسـير في دورَةٍ كبـيرة. نشـب أظافـره عنـد السـكين، محـاولًا أن يُخرِجَـه، ولم يَقـدِر.

راقبـه بـيرت وهـو فاغِـرٌ فـاه، هـذا لا يحـدث، كان حُلـمًا. قَرْقَـرَ الفتـى ذو الشـعر الأحمـر وتحـرَّك قُدُمًـا، وكان صوتـه هـو الصـوت الوحيـد في بواكـير العصـاري الحـارَّة. والآخـرون راقبـوا وصُعقـوا.

فكَّـر بـيرت شـاعِرًا بالخَـدَر: لم يَـرِد هـذا الجُـزءُ في النَّـصِّ، أنـا وفيـكي كُنَّـا في النـص، والفتـى في حقـل الـذُّرة الـذي كان يحـاول الفـرار، لكنـه لم يَكُـن أحدَهـم. حَـدَّق إليهـم بشراسـة، راغبًـا في الـصراخ: مـا رأيكـم في هـذا؟

قَرقَـرَ الفتـى ذو الشـعر الأحمـر قَرقَـرةً واهِنـةً أخـيرة، وانهـار عـلى ركبتيـه. أمعـن النظـر إلى بـيرت للحظـة، ثـم وهنـت يـداه عـن مقبـض السـكين، وسـقط عـلى الأرض.

نَـدَّ صـوت تَنهِـدَةٍ رقيقـة مـن الأطفـال المجتمعـين حـول سـيارة الثَّانـدَربـيرد. وحدَّقـوا إلى بـيرت، وبادَلَهـم بـيرت التحديـق في ذهـول، وذلـك حـين لاحـظ اختفـاء فيـكي.

سأل: "أين هي؟ إلى أين أخذتموها؟".

رفـع أحـدُ الفتيـة سِـكِّينَ صَيـدٍ مُلطَّخًـا بالدمـاء نحـو رقبتـه، وحرَّكهـا بحركـةٍ قاطعـة. ابتسـم، وكانـت تلـك إجابتـه الوحيـدة.

جـاء صـوتٌ رقيـق لولَـدٍ أكـبر سِـنًّا مـن مـكان مـا في الـوراء، يقـول: "أَحـضِروه".

بـدأ الفِتيَـةُ في السـير نحـوه، وتراجَـعَ بـيرت. بـدؤوا يمشـون أسرع، فتراجَـعَ بـيرت بوتـيرةٍ أسرع. البندقيـة، البندقيـة اللعينـة! خـارج متنـاوَلِ اليَـدِ. قلَّصَـت الشـمس ظلالهـم بظُلَمـةٍ عـلى المـرج الأخـضر للكنيسـة، ثـم صـار عـلى الممشى، حيـث اسـتدار وهـرب.

صرخ أحدهم: "اقتلوهّ". وتحرَّكوا في إثره.

ركَـض، ولكـن عـلى هُـدًى مـن طريقـه، طـاف حـول مجلـس البلديـة، لا يوجـد عَـونٌ هنـاك، سـيحاصرونه مثـل الفـأر، وركَـض إلى شـارع مايـن، حيـث تشـعَّب الطريـق، وصـار الطريـقُ السَّريـعُ عـلى بُعـد بنايتـين. لـو كان اسـتمع إلى كلامهـا، لتحـرَّك هـو وفيـكي الآن عـلى الطريـق مُبتَعِديـن مـن هنـا.

ارتطم حذاؤه في الرصيف، استطاع أن يرى أمامه بضعة بنايات تجاريَّة، بما فيها متجر آيس كريم جاتلن، وبالطبع سينما بايجو، حيث تقول الحروف المُثبَّتة التي تكتَّلَت عليها الأتربة:

"يعر.. الآن

لـ.ترة مـ..دود..

إلي..ا..يث تايلور

كليوبا..را".

وراء التقاطع التالي محطَّة بنزين تُميِّز حافَّة البلدة، ووراءها الذُّرة التي تقفل المسار من جديد وصولًا إلى جهتي الطريق، مَدٌّ أخضر من الذُّرة.

ركض بيرت، استنفد أنفاسه بالفعل، وبدأ يؤلمه الجُرحُ العلوي في ذراعه، تاركًا خَيطًا من الدماء، وفي أثناء رَكضِه، اجتذب منديلَه من جيبه الخلفي وحشره داخل قميصه.

ركض، وانسحق حذاؤه في الأسمنت المتشقِّق للممشى، بُحَّ حَلقُه بصوتِ تَنفُّسه بالمزيد والمزيد من السخونة. بدأ ذراعه يخفق حقًّا. حاول جزءٌ لاذِعُ السخرية داخل عقله أن يتساءل إذا كان في مقدوره الرَّكض وصولًا إلى البلدة التالية، لو أنه يستطيع فقط أن يركض عشرين ميلًا على طريقٍ أسفلتيٍّ ثُنائيِّ الاتجاهات.

ركض، وسمعهم من خلفه، أصغر منه سنًّا بخمسة عشر عامًا، وأسرع منه. طقطقت أقدامهم على الرصيف، هتفوا وصاحوا لأحدهم الآخر بالتبادُل، وفكَّر بيرت بطريقةٍ مُفكَّكَة: نالوا مُتعَةً أكبر ممَّا نالوها مع إنذار حريق استجابت له خمس وحدات مطافئ، سيتحدَّثون عن الأمر لسنوات قادمة.

ركض بيرت.

ركض مُتجاوِزًا محطة البنزين التي تُميِّز حافَّة البلدة، لهث نَفَسُه وهدر في صدره. انتهى الرصيف من تحت قدميه، والآن لم يتبقَّ سوى شيء واحد لفِعلِه، فرصة واحدة فقط لهزيمتهم والنجاة بحياته. اختفت البيوت، واختفت البلدة. تدفَّقَت حقول الذُّرة في موجة خضراء ناعمة وصولًا إلى أطراف الطريق. خَشخَشَت بِرِقَّةٍ الأوراقُ الخضراء الشبيهة بالسيوف، سيكون باطِنُ الحقل عميقًا، عميقًا وباردًا، وظليلًا بين صفوف الذُّرة التي تطول قامات البشر.

مرَّ على لافتة تقول: "أنت الآن تغادر جاتلن، ألطف بلدة صغيرة في نبراسكا، أو في أي مكان آخر! عاوِدٍ زيارتنا في أي وقت".

أطْرَقَ بيرت مُفكِّرًا في بلادة: سأحرص على ذلك.

ركض متجاوزًا اللافتة مثل عدَّاء يقترب من شريط نهاية السباق، ثم انحرف جِهَةَ اليسار عابرًا الطريق، ورمى حذاءه بعيدًا، بعدها بات داخل حَقلِ الذُّرة، وأقفل من ورائه ومن فوقه مثل أمواج بحر أخضر يَسحَبُه إلى الداخل، شعر براحَةٍ مُفاجِئَة وغير مُتَوقَّعة بالمرة تجتاحه، واستقبل في نفس اللحظة رياحه الثانية، وبَدَت رئتاه الضَّيِّقتان كأنهما تنفتحان وتمنحانه المزيد من الأنفاس.

سارع إلى أول صَفٍّ دخله، وتوارت رأسه، وكتفاه العريضتان تخبطان الأوراق وتَهزّانها. بعد عشرين ياردة في الداخل اتجه إلى اليمين، على التَّوازي مع الطريق مرَّةً أخرى، واستمرَّ في الركض، منخفضًا بجسده حتى لا يروا رأسَه الدَّاكِن بارزًا بين شُرابات الذرة الصفراء، انعطف ثانية في اتجاه الطريق للحظاتٍ قليلة، وتقافز من صَفٍّ لصَفٍّ، خائضًا أكثر فأكثر داخل حقل الذُّرة.

في النهاية، انهار على ركبتيه ووضع جبهته على الأرض، كل ما سمعه فقط صوت تَنفُّسه المُرهق، والفكرة التي دارت في ذهنه مرَّةً تِلوَ الأخرى: أشكر الرَّبَّ على إقلاعي عن التدخين، أشكر الرب على

إقلاعـي عـن التدخـين، أشـكر الـرب... ثـم سـمعهم، ينـادون عـلى بعضهـم البعـض بالتنـاوب، ويخبـط أحـدٌ الآخـر في بعـض الحـالات (وَيحَـك، هـذا صَفِّـي!)، وشـدَّ الصـوتُ مـن أَزرِه، كانـوا بعيديـن عنـه مـن ناحيـة يسـاره، وبَـدَوا سَـيِّئين في التنظيـم.

سـحب منديلـه مـن قميصـه، وطـواه، وحـشره مـرة أخـرى بعدمـا نظـر إلى الجُـرح، يبـدو أن النزيـف قـد توقَّـف رغـم المجهـود البـدني الـذي بذلـه.

اسـتراح للحظـةٍ أطـول، ثـم أدرك فجـأة أنـه عـلى مـا يـرام، أفضـل جسـديًّا مِـمَّا كان عليـه منـذ سـنواتٍ، فيـما عـدا الخفقـان في ذراعـه، شـعر أنـه تـدرَّب جيـدًا، ويصـارع فجـأةً مُشـكِلةً لا لَبـسَ فيهـا (لا يهـمُّ مـدى جنونهـا) بعـد عامـين مـن محاولـة التأقلـم مـع مخلوقـات الجرملـين الجاثِمَـة التـي تَسلبُه علاقتـه الزوجيـة.

قـال لنفسـه إنـه لا يسـتقيم أن يشـعر عـلى هـذا النحـو، كان في خَطـرٍ مُميـت، وزوجتـه تعرَّضـت للاختطـاف، ربمـا تكـون ميِّتـةً الآن، حـاول أن يسـتدعي وجـه فيـكي، مُبـدِّدًا بذلـك بعـض الشـعور الطيـب والغريـب، لكـن وجههـا لا يـأتي، وإنمـا جـاءه وجـهُ الفتـى ذي الشَّـعر الأحمـر مـع المطـواة في حلقـه.

صـار واعيًـا بعبـير الـذُّرة مـن حولـه في أنفـه الآن، صنعـت الريـحُ عـبر رؤوس النباتـات تَـردُّدات تشـبه الأصـوات، ذات وَقْـعٍ هـادئ. أيًّـا كان مـا اقـترف باسـم الـذُّرة، صـار الآن حاميـه.

لكنهم باتوا قريبين.

سـارَعَ إلى الصَّـفِّ الـذي كان فيـه وهـو يركـض مُحدَودِبًـا، وعـبر، والتـفَّ ثانيـة، وعـبَرَ المزيـد مـن الصفـوف، حـاول إبقـاء الأصـوات دائمًـا عـلى يمينـه، ولكـن مـع تَقـدُّم فـترةِ بعـد الظهـيرة، بـات الحفـاظ عـلى ذلـك أصعـب. خفتَـت الأصـوات، ودائمًـا مـا يُشـوِّش صـوتُ خَشخَشَـةِ الـذُّرة عليهـم مجتمعـين، كان سـيركض، ويسـترِقُ السَّـمع، ويركـض ثانيـة. كانـت

الأرض مُتصلِّبـةً، وتركـت قدمـاه المغطَّاتَـان بالجـوارب آثـارًا طفيفـة، أو لم تـترك أثـرًا.

حـين توقَّـفَ بعدهـا بكثير، كانـت الشـمس مُعلَّقـةً فـوق الحقـول عـن يمينـه، حمـراء ومتوقِّـدَة، وحـين نظـر إلى سـاعة يده، اكتشـف أنها السـابعة والربـع مسـاء، صبغـت الشَّـمسُ رؤوسَ حَبَّـات الـذُّرة بلـونٍ ذَهبـيٍّ مُحمَـرٍّ، لكـنَّ الظـلال هنـا كانـت مُظلِمَـةً وقاتِمَـة، كـوَّم رأسـه كي يسـترق السـمع، مـع قـدوم مغيـب الشـمس، ماتـت الريـاح تمامًـا وسـكنت الـذُّرة، مُطلِقَـةً عبيرَ نَمائِهـا في الهـواء الدافـئ. إذا كانـوا مـا زالـوا متواجِديـن في حقـل الـذُّرة، فإمَّـا أنهـم بعيـدون جـدًّا أو أنهـم يتَحصَّنـون وينصتـون، لكـن بـيرت لم يَظـنَّ أن مجموعـة مـن الأطفـال قـد يبقـون هادئـين كل هـذا الوقـت، حتـى الأشـقياء منهـم.

شـكَّ أنهـم اقترفـوا أكـثر فعـل طفـولي عـلى الإطـلاق: الاستسـلام والعودة إلى المنـزل، بغَـضِّ النظـر عـن العواقـب التـي تنتظرهـم.

اسـتدار في اتجـاه الشـمس الغاربـة، الغارقـة بـين الغيـوم الطائفـة في الأفـق، وبـدأ في السـير، إذا حـثَّ الخُطـى في خَـطٍّ مائِـلٍ عـبر الصفـوف، سـابقًا الشـمس الغاربـة، سـيتَّجِه إلى الطريـق 17 عاجـلًا أم آجـلًا.

اسـتقرَّ الألم في ذراعـه عـلى خَفَقـانٍ طفيـف ولطيـف بعـض الـشيء، ومـا زال يلازمـه الإحسـاسُ الطَّيِّـب، قـرَّر أنـه طالمـا تواجـد هنـا، سـيترك الإحسـاس الطيـب في داخلـه دون شـعور بالذنـب، سـيعود الشـعور بالذنـب حـين يتوجَّـب عليـه مواجهـة السُّـلطات، ويُحاسـب عـلى مـا جـرى في جاتلـن، ولكـن يمكـن لهـذا أن ينتظـر.

تحـرَّكَ بـين الـذرة؛ ظنًّـا أنـه لم يشـعر قَـطُّ بهـذا القـدر مـن الوعـي الثاقـب. بعـد خمـس عـشرة دقيقـة، صـارت الشـمس مجـرَّدَ نِصـفِ كُـرَةٍ بـارزة في الأفـق، وتوقَّـف ثانيـة؛ لأن وعيـه الجديـد نَبَّهـه إلى نَمَـطٍ لا يُحبُّـه، كان عـلى نحـوٍ غامـض... لِنَقُـلْ، خائفًـا عـلى نحـو غامـض.

أحنى رأسه، وخشخشت الذرة.

كان بيرت واعيًا بذلك لبعض الوقت، وجمع شتات ما يحدث مع شيء آخر، صارت الرياح ساكِنةً، كيف يمكن ذلك؟

تلَفَّتَ حوله بحَذَرٍ، شبه متوقِّع أن يرى الأطفال المبتسمين المرتدين لمعاطف طائفة الكويكرز يزحفون من خارج حقل الذُّرة، مُمسِكين سكاكينهم في أياديهم. لا شيء من هذا القبيل، فقط الصوت المُخَشخِش عن جهة اليسار.

بدأ السير في هذا الاتجاه، دون اضطرار إلى الاندفاع بين الذرة بعد الآن، حيث يأخذه الصَّفُّ إلى الاتجاه الذي يريده بطريقة طبيعية، وصل الصَّفُّ إلى نهايته قُدمًا، انتهى؟ لا، بل انتهى المآل إلى أرضٍ فضاء، سمع صوت الخشخشة هناك.

توقَّف فجأة في خوف.

كانت رائحة الذُّرة قويَّةً بما يكفي لتُشعِرَه بالتُّخمَة، تشبَّثَت الصفوف بحرارة الشمس، وصار واعيًا أنه مُغطًّى بالعَرَق والقَشِّ والخيوط العنكبوتية الرفيعة لألياف الذُّرة، يفترض بالحشرات أن تزحف فوقه، لكنها لم تزحف.

وقف ساكنًا، محملقًا في اتجاه البقعة التي يتشعَّب منها حقل الذُّرة إلى دائرة كبيرة من الأرض المُجردة.

لا يوجد هنا ذبل ولا بعوض، ولا ذلفاوات ولا بَقٌّ أحمر، والذي كان يُطلِق عليه هو وفيكي اسم "حشرة سينما السيارات" حين كانا يتغازلان.

انتابته ذكرى حزينة فجأة ودون توقُّع، ولم يَرَ غُرابًا واحدًا، كم هذا غريب، حقل ذُرة بلا غراب؟

في آخر ضوء النهار، مَشَّطَ بعينيه صفَّ الذرة الواقع على يساره عن قرب، ورأى كل ورقة وساق في أحسن تقويم، وهذا غير ممكن، فلا وجود لآفاتٍ صفراء، ولا أوراق ممزَّقة، ولا شرانق فراشات، ولا جحور، ولا... اتَّسعَت عيناه.

يا إلهي، لا وجود لأي عشب!

ولا نوعٌ واحِدٌ منها، على مدى قَدَمٍ ونصف ارتفعت فيه الذُّرة عن الأرض، لا وجود للثمام الشَّعري، ولا الداتورا، ولا الصبغة الأمريكية، ولا حشيشة الكلاب، لا شيء.

حدَّق بيرت بعينين مُتَّسِعَتَيْن، الضوء في الغرب يخبو، والغيوم الطائفة تَنحَسِرُ معًا، وتحتها يذوي الضوء الذهبي ليصير كلون القرنفل والغراء، ستظلم الدنيا عمَّا قريب.

حان وقت الهبوط إلى الأرض الفضاء بين الذُّرة واكتشاف ما يوجد هناك، ألم تكن تلك هي الخُطَّة منذ البداية؟ ظنَّ أنه يَشُقُّ طريقه نحو الطريق السريع، ألم يحمله هذا إلى ذلك المكان؟

اتَّجه إلى الصَّفِّ، شاعِرًا برِعدَةِ خَوفٍ في بطنه، ووقف على حافَّة الأرض الفضاء. يوجد ما يكفي من الضوء كي يرى ماذا هناك، لم يَستَطِع الصُّراخ، لا يبدو أنه قد تبقى هواء في رئتيه، ترنَّح على ساقيه مثل شرائح الخشب المنشقَّة. جحظت عيناه من وجهه المتعرِّق.

همس: "فيكي، أوه فيكي، يا إلهي...".

كانت مُعلَّقةً على عارضة خشبية مثل غنيمة قبيحة، ذراعاها مربوطتان من الرُّسغَيْن، ورِجلاها من الكاحِلَيْن بواسطة لفائف من السِّلكِ الشَّائِك العادي الذي يُباع بسبعين سنتًا للياردة في أي متجرٍ للمُعِدَّات في نبراسكا، عيناها مقتلعتان، ومحجراهما محشوَّان بالخيوط

الكِتّانيـة لألياف الـذُّرة، وفَكّاهـا مفتوحـان غضبًـا في صرخَـةٍ صامتـة، وفمها مَحشـوٌّ بقشـر الـذُّرة.

علـى يسـارها جمجمـة داخـل رداءٍ كهنـوتيٍّ مهترئ، ابتسـم فَكُّـه العاري، وبـدا عـلى محجـري العينـين أنهـما يُحدِّقـان إلى بـيرت مُمازِحَـيْن، كأنَّ مَـن كان قِـسَّ كنيسـة النعمـة المعمدانيـة في السـابق يقـول: ليـس مـن السـيِّئ لهـذه الدرجـة أن يُضحِّـي بِـكِ شَـيطانٌ وَثنـيٌّ عـلى يـد أطفـال الـذُّرة، وأن تُقتلـع عينـاك حسـب شريعـة مـوسى. عـلى يسـار الهيـكل العَظمـيِّ المُغطّى بالـرداء الكهنـوتي هيـكلٌ عَظمـيٌّ آخـر، والـذي تغطِّيـه بذلـة رسـمية زرقـاء متآكلـة، وتدلَّـت قُبَّعَـةٌ فـوق الجمجمـة، مُغطِّيَـةً عـلى العينـين، وفي أعـلى القبعـة شـارَةٌ تشـوبها الخضرة كُتِـبَ عليهـا رئيـس الشرطـة.

كان هـذا حـين سـمع بـيرت بقدومـه، ليـس الأطفـال وإنمـا شيءٌ أكـبر بكثـير، يتحـرَّك عـبر حقـل الـذُّرة ونحـو الأرض الفضـاء، ليـس الأطفـال، لا، لـن يجـازف الأطفـال بالقـدوم إلى حقـل الـذُّرة في الليـل، فهـذا هـو المـكان المقـدَّس، مـكان المشّـاء خلـف الصفـوف.

اسـتدار بـيرت في ارتبـاكٍ كي يلـوذ بالفـرار، اختفـى الصَّـفُّ الـذي دخـل منـه إلى الأرض الفضـاء، أُغلِـقَ، كُلُّ الصُّفـوف أُغلِقَـت، كان يقـترب الآن أكـثر واسـتطاع أن يسـمعه، يشـقُّ طريقـه في حقـل الـذُّرة. سـمع أنفاسـه، واسـتولى عليـه شـعورٌ غامِـرٌ بالرُّعـب الخـرافي. كان آتيًـا. فجـأة أظلمـت الـذُّرة المتواجِـدَةُ في الجانـب البعيـد مـن الأرض الجَـرداء، كـما لـو تَشَـرَّبها ظِـلٌّ عمـلاق.

قادِم.

ذلك المشّاءُ خلف الصفوف.

بـدأ في القـدوم نحـو الأرض الفضـاء، رأى بـيرت كيانًـا ضخـمًا، يُطـاوِلُ السَّـماء، كائِنًـا أخضـر لـه عينـان حمـراوان مخيفتـان بحجـم كُـرَتَيْ قـدَم.

كائـن رائحتـه مثـل قشـور ذُرة جافَّـة تكدَّسَـت لسـنوات في مخـزن غـلال مُظلِـم.

شرع في الصراخ، لكنه لم يصرخ طويلًا.

وفي وقت لاحق، بزغ قمر حصاد منتفخ برتقالي اللون.

***

وقـف أطفـال الـذُّرة في الأرض الفضـاء في منتصـف النهـار ينظـرون إلى الهيكلَـيْن العَظميَّـين المصلوبَـيْن، وإلى الجُثَّتَـيْن.

لم تتحـوَّل الجُثَـث إلى هيـاكِلَ عظميَّـةٍ بَعـدُ، لكنهـا سـتصير كذلـك. في آخـر وقـت، وهنـا، في قلـب نبراسـكا، في حقـل الـذُّرة، حيـث لا شيء سـوى الوقـت.

"انظروا، راوَدَني حلم في الليل، وأظهر لي الرَّبُّ كل هذا".

اسـتداروا جميعًـا لينظـروا إلى إسـحاق برهبـة ودهشـة، بمـن فيهـم ملاخـي. كان إسـحاق في سِـنِّ التاسـعة فقـط، لكنـه أصبـح المتنبِّـئَ منـذ اسـتحوذت الـذُّرة عـلى داود منـذ عـامٍ مـضى، كان داود في سِـنِّ التاسـعة عـشرة، وسـار نحـو حقـل الـذُّرة في عيـد ميـلاده، بمجـرَّد حلـول الغسـق عـلى صفـوف الـذُّرة الصَّيفيَّـة.

والآن، واصـل إسـحاق حديثـه، بوجـهٍ صغـير وقـور تحـت قُبَّعَتِـه مسـتديرة القِمَّـة:

"وفي حلمـي، كان الـربُّ ظِـلًّا مشَّـاء خلـفَ الصفـوف، وتحـدث إليَّ بكلـمات اسـتخدمها مـع أخوتنـا الأقدمـين منـذ سـنواتٍ خَلَـت، إنـه غـير راضٍ كثـيراً عـن هـذه الأضحيـة".

أحدَثـوا جَلبـةً مـن التَّنهُّـد والنحيـب، وتطلَّعـوا إلى الجـدران الخـضراء المحيطـة.

"ويقـول الـرَّبُّ: ألم أمنحكـم موضعًـا للقتـل تقيمـون فيـه الأضحيـات؟ ألم أُظهِـر لكـم المعـروف؟ لكـن هـذا الرجـل نطـق مُهرطِقًـا عـمَّا بداخـلي، وأتممـتُ بنفـسي تلـك الأضحيـة، مثـل الرَّجُـل الأزرق والقـسِّ المُزَيَّـف اللذَيْـن هربـا منـذ سـنوات عـدَّة".

تهامسـوا: "الرجـل الأزرق والقـسُّ المُزيَّـف"، ونظـروا إلى بعضهـم البعض في اضطراب.

واصـل إسـحاق حديثـه: "لـذا خُفـض سِـنُّ رَدِّ المعـروف مـن تِسـعَة عـشر موسـمًا للنَّبـتِ والحصـاد إلى ثمانيـة عـشر، أثمِـروا وتكاثـروا مثلـما تتكاثـر الـذُّرة، وسـيتبيَّن لكـم معـروفي، ويحـلُّ عليكـم".

توقَّف إسحاق عن الحديث.

تحوَّلَـت الأعـين إلى ملاخـي وچوزيـف، الوحيـدان في سـنِّ الثامنـة عـشرة ضمـن الجَمـع، يوجـد آخـرون مثلهـم في البلـدة، ربمـا يبلـغ عددهـم عشريـن.

انتظـروا سـماعَ مـا سيقوله ملاخـي، ملاخـي الـذي قـاد حملـةَ مُطـارَدَة يافـث، الـذي سيُعرَف دائمًـا وأبـدًا باسـم آحـاز، الملعـون مـن الـرب.

قطـع ملاخـي رقبـة آحـاز، ورمـى جُثَّتـه خـارج حقـل الـذُّرة حتـى لا يُدنِّسَـه ولا يُتلِفَـه الجَسَـدُ العَفِـن.

همس ملاخي: "إني أمتثل لكلمة الرَّبِّ".

يبدو أن الذُّرة تَنهَّدَت بمباركتها.

في الأسـابيع التاليـة، سـتصنع الفتيـاتُ الكثـير مـن الصلبـان مـن أكـواز الـذُّرة لترعاهـم مـن أي شَرٍّ يسـتجدُّ.

وفي تلـك الليلـة، سـار في صمـتٍ كُلُّ مَـن تَخطَّـوا سِـنَّ رَدِّ المعـروف إلى حقـل الـذُّرة ليجنـوا المعـروفَ المتواصـل مـن المشّـاء خلـف الصفـوف.

صاحت راعوث: "وداعًا يا ملاخي". لوَّحَت بيدها بلا عزاء، كبرَت بَطنُها بابن ملاخي، وجَرَت الدموع في صمتٍ على خدَّيها. لم يلتفت ملاخي، واستقام ظهره. ابتلعته الذُّرة.

ابتعَدَت راعوث، وما زالت تبكي، كانت تُكِنُّ كراهيَةً سِرِّيَّةً للذُّرة، وحلمت أحيانًا بالسير فيه حامِلةً شُعلَةً في كُلِّ يَدٍ حين يَحلُّ شَهرُ سبتمبر الجاف، مع موت السيقان، وقابليَّتها للاشتعال المتفجِّر. لكنها أيضًا خَشِيَت من هذا؛ ففي الخارج، وفي أثناء الليل، سار شيءٌ ما، ورأى كلَّ شيء... بما فيها الأسرار الكامنة في قلوب البشر.

غاب الغسق في جوف الليل، وخَشخَشَت الذُّرَةُ حول جاتلن، وهمَسَت سِرًّا. باتت راضِيَةً مَرضيَّة.

آخِرُ دَرَجةٍ على السُّلَّم

وصلتني أمس رسالةُ كاترينا، بعد أقلَّ من أسبوعٍ على عودتي أنا ووالدي من لوس أنجلوس. بُعِثَت الرسالة إلى ويلمنجتون بولاية ديلاوير، بعدما غيَّرتُ سكني مرَّتَيْن منذ ذلك الوقت. كثيرًا ما يُغيِّر الناس الآن مساكنهم، ومن الطريف كيف تبدو مُلصَقات العناوين المشطوبة والمتغيِّرة كأنها اتهامات. كانت رسالتها مُتغضِّنة ومُلطَّخة، وتجعَّدَ أحد أطرافها مثل أذن الكلب بِسَبَب التوصيل. قرأت فحواها، والشيء التالي الذي أعرفه أنِّي كنتُ واقِفًا في حجرة المعيشة والهاتف في يدي، أتأهَّب لمهاتَفَة بابا. أنزلتُ سمَّاعة الهاتف بإحساسٍ يُشبِه الرُّعب، كان رَجُلًا عجوزًا، وعانى من أزمتين قلبيَّتَيْن. هل سأتصل به وأخبره عن رسالة كاترينا مبكِّرًا هكذا بعدما كُنَّا في لوس أنجلوس؟ الاتصال قد يقتله لا ريب.

لذا لم أتَّصِل، وليس لديَّ أحدٌ لأُخبِرَه.. بشيء كمثل هذه الرسالة، الأمر شديد الخصوصية على أن أحكي عنه لأحدٍ ما عدا زوجة أو

صديقًا مقرَّبًا جدًّا. لم أُكوِّن الكثير من الصداقات الوثيقة في السنوات الأخيرة، وزوجتي هيلينا وأنا حصلنا على الطلاق في العام 1971. ما نتبادله معًا الآن بطاقات الكريسماس: كيف حالُكِ؟ كيف أحوال العمل؟ أتمنَّى لك سنة سعيدة.

بَقيتُ مستيقظًا طيلة الليل معها، مع رسالة كاترينا، كان بمقدورها أن تقول ما يجول بخاطرها في بطاقة بريديَّة، توجد جُملَةٌ واحدة فقط تحت عبارة "عزيزي لاري"، ولكن يمكن لجُملَةٍ أن تُغني عمَّا سواها، في المعنى وفي الأثر.

تذكَّرتُ والدي على متن الطائرة، يبدو وجهه مُسِنًّا وهائمًا في أشِعَّة الشمس القاسية على ارتفاع 18000 قدم بينما نتَّجِه شرقًا من نيويورك. كنَّا "نَمرُّ فوق أوماها" حسبما يقول الطَّيَّار، وحينها قال والدي: "إنها أبعدُ بكثير عمَّا تبدو عليه يا لاري". ثَمَّة حزن ثقيل يسكن صوته جعلني غيرَ مرتاح لأني لم أستطع أن أفهمه، وفهمته على نحو أفضل بعد تلقِّي رسالة كاترينا.

ترعرعنا على بعد ثمانية أميال غرب أوماها في بلدة تُدعى همنجفورد هوم، أبي وأمي وشقيقتي كاترينا وأنا. كنتُ أكبرَ بعامَيْن من كاترينا، والتي أطلق عليها الجميع كيتي. كانت طفلةً جميلة وامرأة جميلة، حتى في سِنِّ الثامنة، في عام حادثة الحظيرة، حيث لن يغمَقَ لَونُ شَعرِها الشبيه بحرير الذُّرة أبدًا، وستظلُّ هاتان العينان زرقاوَيْن اسكندنافيَّتَيْن داكِنَتَيْن، يُجنُّ جنون المرء من نظرةٍ من هاتين العينين.

أظنُّ أنك ستقول إننا ترعرعنا كريفيِّين أجلاف. امتلك والدي ثلاثمائة أكر من الأرض الغنية المُسطحَّة، وزرع فيها الذُّرة الرفيعة، وربَّى قطيعًا من الخراف. الكلُّ أطلق عليها "المَوطِن"، في تلك الأيام كانت جميعُ الطُّرُق تُرابيَّةً فيما عدا الطريق السريع 80 وطريق نبراسكا 96، وكنَّا ننتظر ثلاثة أيام من أجل الخروج في رحلة إلى البلدة.

في عصرنـا الحـالي، يعتبرونـني مـن أفضـل محامـيِّ الـشَّركات المستقلَّة في أمـيركا، أو هكـذا يقولـون لي، وعـليَّ الاعـتراف بدافـعٍ مـن الأمانـة أنهـم عـلى حَـقٍّ. قدَّمَـني ذات مـرة رئيسُ شركـةٍ كـبرى إلى أعضـاء مجلـس إدارته بصفتـي سلاحه المُستَأجَر. أرتـدي بـذلاتٍ باهِظـةَ الثَّمـن، وحـذائي الجلدي مـن أفضـل طـراز. لـديَّ ثلاثـة مسـاعدين يعملـون بـدوامٍ كامـل، ويمكنـني اسـتدعاء آخريـن إذا احتَجـتُ إليهـم، ولكنـي في تلـك الأيـام، مَشـيتُ في طريـق تـرابي إلى إحـدى مـدارس الفصـل الواحـد مع كتـبٍ مَحزومَـةٍ فـوق كتفـي، وتمشَّـت معـي كاترينـا. أحيانـًا كُنَّـا نسـير حُفـاةَ الأقـدام في الربيـع، وجـرى هـذا قبـل أن نفقـد قدرتنـا عـلى طلـب وجبـات في حافلـة طعـام أو التبضُّـع في سـوقٍ إلا لـو ارتدينـا أحذيتنـا.

بعدهـا بفـترة، ماتـت أمـي، وكاترينـا وأنـا كنَّـا وقتئـذ في المدرسـة الثانويـة في كولومبيـا سـيتي، وبعدهـا بعامَـيْن خـسر والـدي "الموطـن"، وتوجَّـه للعمـل في بيـع الجـرَّارات. كانـت نهايـةَ الأسرة، حتـى إذا لم يَبـدُ الأمـر وقتهـا بهـذا السُّـوء. تآلَـفَ والـدي مـع عملـه، واشـترى وكالـةً للبيـع، ونُصِّـبَ في مَنصـبٍ إداري منـذ تسـع سـنوات. أنـا حصلـت عـلى منحـةٍ كرويـة في جامعـة نبراسـكا، واسـتطعت أن أتعلَّـم شـيئًا بجانـب كيفيَّـة الركـض بالكـرة بعيـدًا عـن المركـز الخلفـي الأيمـن.

وكاترينا؟ هي من أريد الحكي عنها.

حدَثَـت واقعـة الحظـيرة ذات يـوم سـبتٍ في بواكـير شـهر نوفمـبر، وكي أكـون صريحًـا، لا أسـتطيع تحديـدَ السـنة فعليًّـا، كان آيـك[1] وقتَئِـذٍ مـا يـزال رئيسًـا للجمهوريـة. كانـت أمـي في معـرضٍ للمخبـوزات في كولومبيـا سـيتي، ومـرَّ والـدي عـلى أقـرب جـارٍ لنـا (والـذي كان عـلى بُعِـد سـبعة

---

(1) نسـبة إلى دوايـت آيزنهـاور، الرئيـس الرابـع والثلاثـين للولايـات المتحـدة الأمريكيـة، حيـث كان رفاقـه في مقتبـل العمـر يلقبونـه بـ(آيـك)، وهـو اللقـبُ الـذي بقـى معـه في الكـبر، حتـى بعـد مشـاركته في الحـرب العالميـة الثانيـة، كـما اسـتخدمه في حملتـه الانتخابيـة لمنصـب رئاسـة الجمهوريـة خـلال حقبـة الخمسـينيات مـن خـلال الشـعار الشـهير "أنـا أحـب آيـك" (المترجـم)

أميـال منَّـا) كي يسـاعد الرجـل في تصليـح مجرفـةٍ للقَـشِّ، كان يفـترض تواجـد رَجُـلُ تصليحـات هنـاك، لكنـه لم يظهـر قَـطُّ في هـذا اليـوم، وفصلـه أبي بعدهـا بأقـلَّ مـن شـهر.

تـرك لي أبي لائحـةً بالواجبـات المنزليـة (وتـرك بعـض من هـذه الواجبـات لكيتـي أيضًـا)، وأمَرَنـا ألَّا نلعـب إلا بعـد الانتهـاء منهـا جميعًـا، لكـن هـذا لم يسـتمرَّ طويـلًا. كُنَّـا في نوفمـبر، وبحلـول هـذا الوقـت مـن العـام، مـرَّ الوقـت الحَـرِج في العمـل، وكنَّـا سنُعيد الكَـرَّةَ ثانيـةً هـذا العـام، ومـا كُنَّـا كذلـك عـلى الـدَّوام.

أتذكَّـر هـذا اليـوم بوضـوحٍ تـام، حيـث تَلَبَّدَت السـماء بالغيـوم، بينـما لم يَكُـن الجَـوُّ بـاردًا، وتشـعر أن الجَـوَّ يريـد أن يصـير بـاردًا، ويرغـب في الوصـول لنقطـة الصقيـع والتَّجمُّـد، والثلـج والمطـر المتجمِّـد. تَعـرَّت الحقـول، وخمَلَـت الحيوانـات وكَلَحَـت، ويبـدو أنـه ظهَـرَت فجـواتٌ صغـيرة غريبـة في المنـزل لم توجـد مـن قبـل.

في يـومٍ كهـذا، كان المـكان الملائـم الوحيـد للتواجُـد فيـه هـو الحظـيرة، كان دافئًـا، وعَبِقًـا برائحـةٍ طَيِّبَـة لمزيـجِ القَـشِّ والفِـراء والـرَّوَث، مـع قوقَـأةِ الدَّجاجـات وشقشـقة سـنونوات الحظـيرة في العلِّيَّـة الثالثـة، وإذا لَوَيـتَ عُنُقَـكَ إلى الأعـلى، سـترى الضيـاء النوڤمـبريَّ الأبيـض الصـادر مـن فجـوات السَّـطح، وتحـاول منهـا أن تتهجَّـى اسـمك. لُعبَـةً بـدت مناسـبة فقـط في أيـام الخريـف الغائمـة.

كان يوجـد سُـلَّمٌ مُثبَّـت بالمسـامير عـلى عارضـة خشـبية تـؤدِّي إلى العلِّيَّـة الثالثـة، وهـو سُـلَّمٌ يـؤدِّي مباشرة في حـال النـزول إلى بـاب الحظـيرة الرئيـسي. كنَّـا ممنوعـين مـن الصعـود عليـه لأنـه قديـمٌ ومُتقَلقِـل. قطـع والـدي عهـدًا لأُمِّـي أنـه سـيتخلَّص منـه ويضـع سُـلَّمًا أمْتَنَ، ولكـن دائمًـا مـا يطـرأ ظَـرفٌ جديـد كلَّـما تَسـنَّى لـه الوقـت، مثـل مسـاعدة جـارٍ في

تصليح مجرفَةِ القَشِّ على سبيل المثال، وما كان الرجل الذي استعان بـه ذا نَفْعٍ يُذكَر.

إذا صعدت على هذا السُّلَّم المتقلقل، ستجد فيه ثلاثًا وأربعين درجةً بالتمام والكمال، كيتي وأنا أحصيناهم بما فيه الكفاية، وينتهي بك المطافُ فوق عارضة تَبعُد سبعين قدمًا عن أرض الحظيرة المكسوَّة بفضلات القَشِّ، وإذا أفلَحتَ في الارتفاع على العارضة بحوالي اثنتي عشرة قدمًا، تتشنَّج رُكبَتاك، ويُصدر مِفصَلا كاحِلَيْك صوتَ صرير، وينشف ريقُكَ، ويصير طعمه مثل الفتيل المُستَعمَل، وتقف فوق مخزن القَشِّ. وبعدها تقفز مباشرةً من فوق العارضة في سَقطَةٍ حُرَّة تبلغ سبعين قدمًا، مع انقضاضَةٍ مُميتَةٍ مُفزِعة ومَرِحَة على فِراشٍ ضَخمٍ وثير من القَشِّ الوفير. للقَشِّ رائحة حلوة، وسيتسنَّى لك أن تسترخي مع رائحة الصيف المولود من جديد، وتُفارِقُكَ مَعِدتُك في الأعلى هناك في قلب الهواء، وتشعر... أنك بخير، كمثل شعور لعازر[1] حتمًا، فقد جازَفتَ بالسَّقطة وعِشتَ لتروي ما حدث.

إنها رياضةٌ مُحرَّمة، حسنًا، وإذا ضُبِطنا مُتلبِّسين، ستثير أمي الكثير من اللَّغط، وسيضربنا أبي بالحزام، حتى مع تَقدُّمنا في السِّنِّ على هذا.

وبسبب السُّلَّم، وإذا فقدتَ تَوازُنَكَ وسقَطتَ من فوق العارضة قبل أن تضبط وضعك فوق القوام الرَّخوِ للقَشِّ، ستَهلَكُ لا محالة على الألواح الصُّلبة لأرضية الحظيرة.

لكنَّ الإغواء عظيمٌ جدًّا، وإذا غاب القِطُّ... حسنًا، أنتَ تَعلَم ما يحدث في هذه الحالة.

---

(1) يقصد القديس لعازر الذي وردت حكايته في إنجيل يوحنا، والذي قام من بين الأموات بفضل معجزة السيد المسيح (المترجم)

بـدأ هـذا اليـوم مثـل سـائر الأيـام؛ إحسـاسٌ لذيـذٌ مـن الرَّهبـة المُمتَزِجَة بالتَّرقُّـب، وقفنـا عـلى عتبـة السُّـلَّم، ننظـر لبعضنـا البعـض. التَمَعَـت لـونُ بـشرة كيتـي، واغْمَـقَّ لـونُ عينيهـا، وتألَّقَـت أكـثر مـن ذي قبـل.

قلت لها: "أتحدَّاكِ".

قالت كيتي على الفور: "صاحب التَّحدِّي يصعد أوَّلًا".

رَدَدتُ على الفور: "الفتياتُ يَسبِقنَ الفِتيَةَ".

قالـت: "ليـس إذا كان الأمـر خطـيراً"، وألقـت نظـرةً صارِمـةً، كأن الجميع لا يعـرف أنَّهـا ثـاني أكـثر فتـاة مسـترجلة في همنجفورد.

كان هذا موقفها، كانت ستصعد، لكنها لن تبادر بالصعود.

قلتُ: "حسنًا، ها أنا سأصعد".

كنـت في سِـنِّ العـاشرة هـذا العـام، ونحيفًـا مثـل الشـيطان سـكراتش، وزني 90 باونـدًا تقريبًـا. كانـت كيتـي في سِـنِّ الثامنـة، وأخـفَّ مِنِّـي وزنًـا بمقـدار 20 باونـد، تَحمَّـل السُّـلَّمُ ثِقَلَنـا عـلى الـدَّوام، وظَنَنَّـا أنـه سـيتحمَّلنا دائمًـا مـن جديـد، وهـي فلسـفة تُوقـع البـشر والأمـم في أزمـات مـرَّةً تِلـوَ المـرَّة.

أحسَسـتُ بهـذا الإحسـاس في ذلـك اليـوم، شـاعِرًا بهـزَّةٍ طَفيفـةٍ مـع صعـودي لأعـلى فأعـلى في هـواء الحظـيرة المُـترب، وعنـد اقـترابي مـن منتصـف طريـق صعـودي، اسـتمتعت بتخيـل مـا سـيحدث لي إذا أفلتـت يـداي فجـأة، واستسـلمت لشـبح المـوت، لكنِّـي واصَلـتُ الصعـود حتـى بِـتُّ قـادرًا عـلى التصفيـق بيديَّ حـول العارضـة، دافعًـا بنفسـي إلى الأعـلى وناظـرًا إلى الأسـفل.

كان وجـه كيتـي المرتفـع لِيُراقِبَنـي وَجهًـا بيضاويًّـا أبيـضَ، بَـدَت مثـل الدُّميـة في قميصهـا الكاروهـات الباهـت، وبنطـال الدنيـم الأزرق، ومـا زال

فوقي مسافةٌ أعلى، وعند حواف السَّقف المُتربة، شقشقت السنونوات بصوت شجيٍّ.

مرَّة ثانية، من الذاكرة:

نادَيتُ: "هاي، أنتِ يا مَن بالأسفل"، وطاف صوتي إليها على ذرَّات القَشِّ المتطايرة.

"هاي، أنت يا مَن بالأعلى".

وقَفَت، وتمايَلَت قليلًا جيئةً وذهابًا، وكالعادة، ظهرت فجأةً مُجرَياتٌ غَريبةٌ في الهواء لم تكُن موجودةً بالأسفل. سَمعتُ دَقَّات قلبي وأنا أفرد ذراعيَّ لأحافظ على توازني. ذات مرة، انقضَّ طائر سنونو على مقربة من رأسي خلال هذه الفقرة من المغامرة، وحين تراجَعتُ، أوشَكتُ على فقدان توازني. عِشتُ في خوفٍ من تكرار ما حدث ثانية.

لكن ليس هذه المرة، في النهاية وقَفتُ فوق نقطة الأمان في اتِّجاه القَشِّ. لم يَعُد النظر لأسفل مُخيفًا أكثر من كونه مدغدغًا للحواس. ثمَّة لحظة من التَّوقُّع، ثم قفَزتُ إلى الفضاء، ممسكًا أنفي لإحداث الأثر المنشود، ومثلما حدث على الدوام، اجتذبتني القبضة المفاجِئة للجاذبية بوحشيَّةٍ إلى أسفل؛ ممَّا جعلني أهبط عموديًّا، وجعلني أرغب في الصياح: أوه، أنا آسف، أخطأت، دعيني أَعُدْ إلى أعلى.

ثم اصطدَمتُ بالقَشِّ، انطَلقتُ نحوه مثل القذيفة، وامتلأ الهواء من حولي برائحته الحلوة المُتربة، وما زلتُ أغوص فيه، كأني أعوم في مياهٍ كثيفة، آتيًا في بُطءٍ كي أُدفَنَ في القَشِّ. كالعادة، شعرتُ بتنامي عَطسَةٍ داخل أنفي، وسمعت صوتَ فأر حقلٍ مذعور أو فأرين وهما يَفرَّان نحو رُكنٍ أهدأ من مخزن القَشِّ، وأشعر على نحوٍ غريب أني وُلِدتُ من جديد. أتذكَّر ما قالته لي كيتي ذات مرة أنها شعرت بانتعاشٍ وتَجدُّد بعد الغوص في القش، مثل الطفل. هَزَزتُ كتفي

وقتئذ، عارفًا ما تقصده تقريبًا، أو غير عارف إلى حدٍّ ما، لكني أفكر في هذا أيضًا منذ تلقَّيتُ رسالتها.

قفزتُ خارج القش، كأني كنت أعوم بداخله، حتى استطعت القفز خارجه إلى أرضيَّة الحظيرة، التصق القَشُّ ببنطالي وظهر قميصي، والتصق بحذائي الرياضي وكوعيَّ. أتوجد بذور قشٍّ في شعري؟ أكيد.

كانت في منتصف طريق صعودها على السُّلَّم وقتئذ، ارتدت ضفائر شعرها الذهبية على عظام كتفيها وهي تصعد عبر شعاع ضوء مُغبرٍّ. ربما كان هذا الضوء في أيامٍ أخرى يحمل نفس بريق شعرها، ولكن في هذا اليوم، لا منافس لضفائرها، كانت بكل سهولة أزهى شيء ملوَّن في الأعلى.

أتذكَّر تفكيري في عدم حُبِّي لتَمايُل السُّلَّم جيئة وذهابًا، بدا كأنه لم يكن "ملخلخًا" هكذا.

ثم صارت على العارضة، فوقي في الأعلى، وصِرتُ أنا الآن صغيرَ الحجم، كان وجهي هو البيضاوي الأبيض الصغير المقلوب، بينما طاف صوتها وصولًا إلى الأسفل على القَشِّ الهائم المتحرِّك مع خطواتي.

"هاي، أنت يا مَن بالأسفل".

"هاي، أنتِ يا مَن بالأعلى".

تقدَّمَت إلى حافة العارضة، وانخلع قلبي داخل صدري بعض الشيء حين ارتأيتُ أنها واقفة عند نقطة الأمان في اتِّجاه القش، هكذا كان الحال دائمًا، رغم أنها أرشقُ منِّي، وأكثر رياضيَّة منِّي، هذا إذا لم يُعتبر ذلك أمرًا غريبًا تقوله عن شقيقتك الصغرى.

وقَفَت مُحافِظةً على التوازن على أطراف حذائها الرياضي المنخفض من ماركة كيدس، ويداها مفرودتان أمامها، ثم طافت. تحدَّثْ عن أشياء لا تنساها، أشياء لا يسعك وصفها، حسنًا، يمكنني الوصف على

نحـو مـا، ولكـن ليـس بطريقـة تسـاعدك عـلى اسـتيعاب مقـدار جمالهـا، ومـدى مثاليَّتهـا، أحـد الأشـياء القليلـة في حيـاتي التـي بَـدَت حقيقيَّـةً تمامًـا، وصادقـة تمامًـا. لا، لا يسـعني أن أخـبرك بهـذا، لا أمتلـك القـدرة عـلى التعبـير سـواء بقلمـي أو بلسـاني.

بَـدَت للحظـة أنهـا مُعلَّقـة في الهـواء، كأنمـا حمَلَتهـا واحـدةٌ مـن تلـك الكائنـات الصاخبـة الغامضـة المتواجـدة فقـط في العلِّيَّـة الثالثـة، سـنونوة متألِّقـة ذات ريـش ذهبـي لم تشـهد نبراسـكا مثيـلًا لـه، كانـت كيتـي، شـقيقتي، ذراعاهـا مُرتَدَّتـان إلى الـوراء، وظهرهـا مُقـوَّس، كـم أحببتهـا لأجـل هـذه اللحظـة الزمنيـة.

ثـم نزلَـت وانجرفـت في القَـشِّ وخـارج حـدود النظـر، انبعـث انفجـارٌ مـن القـش مـع قهقهـات مـن الحفـرة التـي صنعتهـا، كُنـتُ نسـيت مـدى تَهالُـك السُّـلَّم في أثنـاء وقفتهـا عـلى عتباتـه، ومـع مـرور الوقـت خرَجَـت، وصِرتُ في منتصـف رحلـة صعـودي مـن جديـد.

حاوَلـتُ أن أميـل جسـدي، لكـن الخـوف اجتذبنـي كـما هـو عَهـدُه دومًـا، وتحـوَّل تمايُـلي إلى قذيفـة مدفَـعٍ. أظـنُّ أني لم أؤمـن قَـطُّ بوجـود القَـشِّ هنـاك بنفـس درجـة إيمـان كيتـي.

إلى متـى اسـتمرَّت اللعبـة؟ يصعـب الجَـزمُ، لكنـي طمحـت في عـشر غطسـات أو إحـدى عـشرة بعدهـا، وشـهدت تغيُّرَ الضـوء، كان أُمُّنـا وأبانـا عـلى وشـك العـودة وكُلٌّ مِنَّـا مُغطًّـى بالقَـشِّ كأنـه اعـتراف مُوقَّـع. اتَّفقنـا عـلى مـرَّةٍ إضافيـة لـكل مِنَّـا.

حـين صعـدت أولًا، شـعرتُ بالسُّـلَّم يتحـرَّك مـن تحـت قدمـيَّ، وسـمعت عـلى نحـوٍ طفيـف صـوتَ الاحتـكاك الآن للمسـامير القديمـة حيـث وَهَـن تماسُـكِها، وللمـرَّة الأولى كنـت خائفًـا حقًّـا وصدقًـا، أظـنُّ أننـي لـو كنـتُ أقـربَ إلى القـاع، لنزلـت وكانـت سـتكون القاضيـة، لكـن العارضـة كانـت أقـربَ، وبَـدَت أكـثر أمانًـا. تعـالى صـوتُ أنـين المسـامير المنخلعـة مـن آخـر

ثـلاث درجـات في قمّـة السـلم، وبـردت فجـأة مـن شِـدَّة الخـوف، مـع يقينـي أني دَفعـتُ الأمـر لأقـصى مـداه.

وباتـت بـين يـديَّ العارضـة المنشـقَّة، حامِلَـةً وزني بعيـدًا عـن السُّـلَّم، وانسـلَّ عَـرَقٌ بـارد غـير مُحبَّـب غَطَّـى سيقان القـش عـلى جبينـي، اختفت المتعـة مـن اللعبـة.

سـارَعتُ في اتجـاه القـش وقَفَـزتُ، وحتـى الجـزء الممتـع في القفـزة اختفـى، تخيَّلـتُ شـعوري إذا وَجَـدتُ في اسـتقبالي ألـواح أرضيـة الحظـيرة الصُّلبـة بـدلًا مـن هَبَّـة الليونـة في القَـشِّ.

جِئـتُ عنـد منتصـف الحظـيرة لأرى كيتـي تسـارع بالصعـود عـلى السُّـلَّم، ناديتهـا: "هـاي، انـزلي! إنـه ليـس آمِنًـا!".

ردَّت بثِقَةٍ: "سيصمد؛ فأنا أخفُّ منك وزنًا".

"كيتي...".

لكن الجملة لم تكتمل، حيث انفلت السُّلَّمُ في حينها.

تفسَّـخ السُّـلَّمُ وانشـطر، أنـا صِحـتُ، وكيتـي صرَخَـت. كانـت في نفـس الموضـع حـين اقتنعـت أني غالَيـتُ في المجازفـة.

انكـسَرَت دَرجَـة السُّـلَّم التـي كانـت تقـف عليهـا، وانشـقَّ جانِبـا السُّـلَّم، بـدا السـلم مـن تحتهـا للحظـة بعـد انكسـاره بالكامـل مثـل حشرَةٍ خَرقـاءَ، أو سرعـوف، أو مجـرَّد سُـلَّم قـرَّر المغـادرة.

ثـم سـقط، واصطـدم بأرضيَّـة الحظـيرة في انبطـاحٍ مُـدوٍّ؛ مِـمَّا أثـار الأتربـة وأفـزع الأبقـار حتـى خـارت في قلـق، ورَكَلـت بقـرةٌ منهـم بـابَ حُجَيرتهـا.

صرخت كيتي صرخةً عاليةً ثاقِبَةً للآذان.

"لاري! لاري! انجدني!".

عرفت ما يجب فعله، أدركت على الفور، كنتُ مذعورًا، لكن ليس لدرجة فقدان السيطرة. كانت فوقي بمقدار ستّين قَدَمًا، وركلت بساقيها الملتفَّتَيْن في البنطال الأزرق عبر الهواء الخاوي، ثم شقشقت سنونوات الحظيرة من فوقها. حسنًا، كنتُ خائفًا، أتعرف، ما زِلتُ لا أقوى على مشاهدة الفقرة الأكروباتية الهوائية في السيرك، ولا حتى على التلفاز؛ فمعدتي تشعر بالوهن.

لكني عرفت ما يجب فِعلُه.

نادَيتُها بصوتٍ عالٍ: "كيتي! اثبتي! اثبتي فحسب!".

أطاعتني على الفور، توقَّفت ساقاها عن الرَّكل، وباتت مُعلَّقَةً، ويداها الصغيرتان ممسِكَتان بآخر درجة من الطرف المنكسر من السُّلَّم مثل لاعبة أكروبات تَعطَّلَت أرجوحتها.

ركضتُ إلى مخزنِ القَشِّ، وأحضرتُ كَمًّا مُضاعَفًا من القش، وعُدتُ، ورَميتُها، ذهبت ثانيًا، وثالثًا، ورابعًا.

لا أتذكَّر حقًّا ما جرى بعدها، سوى أن القَشَّ تَصاعَدَ إلى أنفي وعطست ولم أستطع التوقُّف. ركضت ذهابًا وإيابًا، صانعًا كَومَةَ قَشٍّ عند موضع طرف السُّلَّم، كانت كومةَ قَشٍّ صغيرة جدًّا، نظرت إلى الكومة، ثم نظرت إليها وهي مُعلَّقة في الأعلى على مسافة بعيدة، ربما فكَّرتُ في أحد الأفلام الرسوميَّة التي يقفز فيها المرءُ ثلاثمائة قدم ليهبط في كوب ماء.

ذهابًا وإيابًا، ذهابًا وإيابًا.

"لاري! لا أستطيع التَّمسُّكَ أكثر من ذلك!"، كان صوتها عاليًا ويائسًا.

"كيتي، عليكِ أن تتمسَّكي، عليكِ أن تتحمَّلي".

ذهابًا وإيابًا، والقشُّ على قميصي، ذهابًا وإيابًا، حتى صار القَشُّ يصل عند ذقني الآن، لكن مخزن القش الذي كنَّا نغوص فيه يبلغ

عمقه خمسًا وعشرين قَدَمًا. فكَّرتُ أنه إذا انكسرت ساقاها فقط، سيكون الضَّررُ أخفَّ، وأدركتُ أنها إذا لم تقع على القش، ستموت.

ذهابًا وإيابًا.

"لاري! درجة السُّلَّم، إنها تنفلت!".

كنتُ أسمع العواء المتواصِلَ الخَشِن لدرجة السُّلَّم وهي تتحرَّر تحت وطأة الوزن، بدأت ساقاها تركلان الهواء ثانيةً من الذُّعر، ولكنها إذا ركلت هكذا، فسوف تقفز بعيدةً عن كومة القَشِّ بالتأكيد.

صرختُ: "لا! لا! توقَّفي عن هذا! انزلي فحسب، انزلي يا كيتي!"؛ فالوَقتُ تأخَّر بالنسبة لي على إحضار المزيد من القش، وفات الأوان على أي شيء سوى الأمل الأعمى.

أفلتت يديها ووَقَعَت في نفس الثانية التي أَمَرتُها فيها بذلك، نزلت مباشرة مثل السِّكِّين، بدا لي أن سقوطها مستمرٌّ إلى الأبد، وضفائرها الذهبية ترتفع عن رأسها، وعينيها مُغلَقَتان، ووجهها شاحِبٌ مثل الخزف الصيني. لم تصرخ. يداها مثبتتان أمام شفتيها، كما لو كانت تُصلِّي.

واصطدمت بالقَشِّ في المنتصف بالضبط، وغابت داخله عن أفق النظر، وتطايَرَ القَشُّ في الأرجاء كافَّة كما لو انطلقت قذيفة، وسمعت صوت ارتطام جسدها على الألواح، وبعث صوتُ الارتطام العالي رجفةً مُميتَةً في داخلي، كان الصوت عاليًا جدًّا، ولكن تحتَّمَ عليَّ أن أنظر.

انقضضت على كومة القش وأنا أصيح، وأنا أشدُّه، قاذفًا القش ورائي بكميات مهولة، وبرزت إلى النُّور ساقٌ في بنطال أزرق، ثم قميص كاروهات، وبعدها وجه كيتي. كان شاحبًا شحوبَ الموت، وعيناها مغلقَتَيْن. كانت ميِّتَة، أدركت هذا حين نَظَرتُ إليها، صار العالَم

رماديًّا في عينيَّ، لون رمادي نوفمبري، لا شيء فيه ذو لون يُذكَر سوى ضفائرها الذهبية البرَّاقة.

وبعدها بزغ اللون الأزرق الداكن من حَدَقَتيتها حين فتحت عينيها.

"كيتي؟". خرج صوتي غليظًا، مبحوحًا، غير مُصدِّق، حلقي مُغطًّى ببواقي القَشِّ، "كيتي؟".

سألَت كيتي في ذهول: "لاري؟ هل أنا حيَّة؟".

أخرَجتُها من القش واحتضنتها ووضعت ذراعَيْها حول رقبتي واحتضنتني هي الأخرى.

قلتُ: "أنتِ حيَّة، أنتِ حيَّة، أنتِ حيَّة".

انكسر كاحِلُ قَدَمِها الأيمن وهذا كل شيء، وحين جاء دكتور بيدرسن الممارس العام من كولومبيا سيتي إلى الحظيرة مع والدي ومعي، أطال النظر إلى الظِّلال لوقت طويل، ما زالت آخر دَرَجةٍ على السَّلَّم مُعلَّقة هناك، معوَجَّة، مُثبَّتة بمسمار واحد.

أطال النظر كما قلتُ، قال لأبي: "إنها مُعجِزَة"، رَكَلَ القَشَّ الذي وَضَعتُه باستهانة، وخرج إلى سيارته الدي سوتو المُغبرَّة وراح بعيدًا.

حَلَّت يدُ والدي على كتفي، وقال بصوتٍ شديد الهدوء: "سنذهب إلى مخزن الخشب، أظنُّ أنك ستعرف ما سيجري هناك".

همستُ: "نعم يا سيدي".

"مع كُلِّ ضَربَةٍ، أريدك أن تشكر الرَّبَّ أن شقيقتك ما زالت حيَّةً تُرزَق".

"حاضر يا سيدي".

وبعدها ذهبنا، ضربني كثيراً، كثيراً جدًّا لدرجة أني ظَلَلتُ أتناول الطعام واقفًا لمدة أسبوع، ومع وسادةٍ على مقعدي في الأسبوعين التالِيَيْن، ومع كُلِّ ضَربَةٍ من يده الضخمة الحمراء القاسية، كنتُ أشكرُ الرَّبَّ.

مع آخر ضربتَيْن أو ثلاث ضربات، وبصوتٍ عالٍ، عالٍ، كنتُ مؤمنًا أنه يسمعني.

أدخلوني لأراها قبل وقت النوم، أتذكَّر وجود طائر كَتبَرد مُغرِّد خارج نافذتها، قَدَمُها ملفوفة ومدعومة على حامل.

أطالت النظر إليَّ بمَحبَّةٍ شديدة، لدرجة لم أشعر معها بالارتياح، ثم قالت: "قش، وضَعتَ لي القَشَّ".

قلتُ دون تفكيرٍ: "طبعًا، ماذا كنتُ سأفعل غير ذلك؟ حينما انكسر السُّلَّم، لم تكن هناك طريقة للصعود".

قالت: "لم أعرف ماذا كنتَ تَفعل".

"حتمًا كنتِ تعرفين، كنتُ تَحتَكِ مباشرةً، اللعنة".

قالت: "لم أجرؤ على النظر لأسفل، كنتُ خائِفةً جدًّا، أغلَقتُ عينيَّ طيلة الوقت".

حدَّقتُ إليها مندهشًا.

"ما كنتِ تعرفين؟ لم تَعرِفي ما كنتُ أفعله؟". وهزَّت رأسها بالنَّفي.

"وحين أَمرتُكِ بالنزول، فَعَلتِها فحسب؟".

أومَأَت برأسها.

"كيتي، كيف أمكَنَكِ فعل هذا؟".

نظـرت إليَّ بتَينـكَ العينـين الزرقاويـن الداكِنَتَيْن، وقالـت: "عرفـتُ أنَّـكَ حتـمًا فعَلـتَ شـيئًا لتعالـج المشـكلة، أنـت شـقيقي الأكـبر، وكنـت أعلـم أنـك سـتعتني بي".

"آه يا كيتي، أنتِ لا تعرفين كم كان الأمر وشيكًا".

وضَعـتُ يـديَّ فـوق وجهـي، فجَلسـتُ في فراشـها وأزاحتهـما، قبَّلتنـي عـلى خـدي، قالـت: "لا، لكنـي عرفـتُ أنَّـكَ موجـود بالأسـفل، يـا للمسـيح، أشـعر بالنعـاس، سـأراك غـدًا يـا لاري، قـال الدكتـور بيدرسـن إنـه سـيصنع لي جبـيرة".

وُضِعَـت لهـا الجبـيرة لمـدَّةٍ أقـلَّ مـن شـهر، ووَقَّـع عليهـا كلُّ زملائهـا في الفصـل، بـل حتـى طلَبَـت منـي أن أُوَقِّـع لهـا عليهـا، وحـين أُزيلَـت، كانـت تلـك نهايـة حادثـة الحظـيرة، اسـتبدل أبي السُّـلَّم الصاعـد إلى العليـة الثالثـة بسُـلَّمٍ جديـدٍ مَتـين، لكنـي لم أصعـد إلى العارضـة وأقفـز نحـو القَـشِّ مـرَّةً أخـرى، وكيتـي كذلـك حسـبما أعلـم حتـى الآن.

كانـت تلـك النهايـة، لكنهـا لم تكـن النهايـة عـلى نحـوٍ مـا، لم ينتـهِ الأمـرُ قَـطُّ عـلى نحـوٍ مـا سِـوَى منـذ تسـعة أيـام مَضَـت، حـين قفَـزَت كيتـي مـن الطابـق العلـوي لمبنـى شركـة تأمـين في مدينـة لـوس آنجلـوس. معـي هـذه القصاصـة مـن جريـدة لـوس آنجلـوس تايمـز في محفظتـي، أظـنُّ أني سـأحملها معـي دائمًـا، ليـس عـلى نحـوٍ طَيِّـب كمثـل حملِـكَ صـورًا لأنـاس تـودُّ أن تتذكَّرهـم، أو تَذاكِـر مـن عـرضٍ جيِّـد حقًّـا، أو جـزء مـن برنامـج دوري البيسـبول العالمـي، وإنمـا أحمـل هـذه القصاصـة كمثـل حمـل شيء ثقيـل؛ لأن حملـه هـو عملـك الرئيـس، يقـول العنـوان: بائعـة هـوى تقفـز نحـو حَتفِهـا.

ترعرعنـا سـويًّا، هـذا كل مـا أعرفـه، أكـثر مـن حقائـق لا تعنينـي في شيء. كانـت سـتلتحق بكليـة إدارة الأعـمال في أوماهـا، ولكـن في الصيـف التـالي عـلى تَخرُّجهـا مـن المدرسـة الثانويـة، فـازت في مسـابَقةٍ لملـكات الجـمال،

وتزوَّجَت أحدَ المُحكَّمين، يبدو الأمر كأنه مَزحةٌ قَذِرة، أليس كذلك؟ كيتي حبيبتي.

حينما كنت أدرس في كلية الحقوق، باتت مُطلَّقةً، وكتبت إليَّ رسالة طويلة، عشر صفحات أو أكثر، تُخبِرُني فيها عن أحوالها، وكيف كانت في حالة فوضويَّة، وكيف كان سيتحسَّن حالها لو كانت أنجَبَت طفلًا. سألتني إذا أمكنني المجيء، لكنَّ تفويتَ أسبوعٍ في كلية الحقوق يماثل تفويت فصلٍ دراسي في مرحلة الدراسات العليا في الفنون الحُرَّة؛ فأولئك الأشخاص مثل الكلاب السلوقية، إذا لم تلتفت إلى الأرنب الآليِّ الصغير، فقد خَسِرتَ السباق.

انتقلت للعيش في مدينة لوس آنجلوس، وتزوَّجَت مرَّةً أخرى، وحين تفكَّكَت هذه الزيجة، كنتُ قد تَخرَّجت في كلية الحقوق، ورَدَتني رسالة أخرى، رسالة أقصر، وأكثر مَرارةً، أخبرتني فيها أنها لن تستمرَّ في الانحشار في هذه الأرجوحة الدَّوَّارة، كانت وظيفةً مُؤقَّتة، والطريقة الوحيدة التي يمكنك بها أن تحقِّقَ المال هي الوقوع من فوق ظهر الحصان فتنشرخ جمجمتك، إذا كان هذا ثَمنُ لَفَّةٍ مجَّانية، فمَن يريد هذا؟ ملحوظة: هل يمكنك المجيء يا لاري، فقد مرَّ زَمنٌ.

رَدَدتُ على رسالتها وأخبرتها أني أوَدُّ القدوم، لكني لم أستطع، التحقت بالعمل في شركة ضاغطة بشدة، كنتُ أدنى شَخصٍ في عمودٍ طَوطَميٍّ مَرسوم، كثير من العمل دون تقدير يُذكر، إذا كنتُ سأنتقل إلى الخطوة التالية، ينبغي -وحتمًا- أن تحدث هذا العام، كانت تلك هي رسالتي الطويلة، ودار فحواها بالكامل حول مسيرتي المهنية.

ردَدتُ على جميع رسائلها، لكني لم أصدِّق على الإطلاق أن كيتي هي مَن كانت تكتبها حقًّا، أو تعلم، ليس أكثر من تصديقي حقًّا بوجود القش هناك، إلى أن أقفز قفزتي إلى الأسفل فتنقذ حياتي. لم أستطع التصديق أن شقيقتي والمرأة المُعنَّفة التي تُوقِّع تحت اسم

"كيتـي" داخـل دائـرة في أسـفل كلِّ رسـالة هـي نفـس الشـخص. شـقيقتي فتـاة بضفائـر، ومـا زالـت بـلا ثَديَـيْن.

كانـت هـي مَـن تَوقَّفَـت عـن الكتابـة إليَّ، كنـتُ أتلقَّى بطاقـات معايدة في الكريسـماس، وفي أعيـاد الميـلاد، وزوجتـي تـردُّ بالمثـل، ثُـمَّ تَطلَّقنـا، وغَـيَّرتُ سـكني ونسـيت الأمـر. جـاءت بطاقـات الكريسـماس وعيـد الميلاد التاليـة عـلى عنـوان الإرسـال، عنـواني الأول، وظَلَلـتُ أفكِّـر:

يـا للمسـيح، عـليَّ أن أكتـب إلى كيتـي، وأخبرهـا أني انتقلـتُ لمسـكن جديـد، لكنـي لم أفعـل البَتَّـة.

ولكـن كـما أخبرتكـم، تلـك حقائـق لا تعنينـي في شيء، ومـا يعنينـي فحسـب أننـا ترعرعنـا معًـا، وأنهـا قفـزت مـن فـوق بنايـة شركـة تأمـين، وأن كيتـي هـي الوحيـدة التـي آمَنَـت بوجـود القـش في الأسـفل، كيتـي هـي التـي قالـت لي: "عرفـتُ أنَّـكَ حتـمًا فَعَلـتَ شـيئًا لتعالـج المشـكلة"، تلـك هـي الأشـياء التـي تهمُّنـي، ومعهـا رسـالة كيتـي.

كثـيرًا مـا يُغيِّر النـاس الآن مسـاكنهم، ومـن الطريـف كيـف تبـدو مُلصَقـات العناويـن المشـطوبة والمتغيِّرة كأنهـا اتهامـات. طبعـت عنـوان مسـكنها عـلى الجانـب الأيسر العلـوي مـن الظـرف، المكان الـذي ظلَّـت فيـه إلى أن قفـزت، بنايـة سـكنية لطيفـة جـدًّا في ڤـان نويـس، والـدي وأنـا ذهبنـا لنجمـع مُتَعلَّقاتهـا، كانـت صاحبـة المنـزل سـيِّدةً لطيفـة، وقـد أحبَّـت كيتـي.

حمَلَـت الرسـالة ختـمًا بريديًّـا بتاريـخ يسـبق يـوم وفاتهـا بأسـبوعين، ولـولا وجـود العنـوان الأول لوصَلَتنـي أبكَـرَ مـن ذلـك بوقـت طويـل. إنهـا حتـمًا تعبـت مـن الانتظـار.

"عزيزي لاري،

فكَّرتُ في الأمر كثيراً في الآونة الأخيرة، وما توصَّلتُ إليه أنه ربما كان من الأفضل لي لو انكسَرَت آخرُ دَرَجةٍ على السُّلَّم قبل أن تضع القَشَّ من أجلي.

تحياتي.

كيتي".

نعم، أظنُّ أنها تعبت من الانتظار، أودُّ أن أُصدِّق ذلك بدلًا من الاعتقاد أني حتمًا نسيتُ الرَّدَّ عليها، لا أَودُّ التفكير في هذا؛ لأنه ربما كانت تلك الجملة اليتيمة هي التي دفعتني لمحاولة الهروب.

ولم يكن هذا هو سبب صعوبة إخلادي إلى النوم، فحين أغمض عيني ويبدأ وعيي في الغياب، أراها تقفز من العلية الثالثة، بعينيها الواسِعَتَيْن ولونهما الأزرق الداكن، وجسدها المتقوِّس، وذراعيها المرتَدَّتَيْن إلى الوراء.

كانت الشخص الذي آمَنَ على الدَّوامِ بوجود القَشِّ في الأسفل.

الرَّجُل الَّذي أحَبَّ الأزهار

في صباح يوم باكر في مايو 1963، تمشَّى شابٌّ يضع يديه في جيوبه بكل خفَّة مُتَّجِهًا إلى الجادَّة الثالثة في مدينة نيويورك، كان النسيم رقيقًا وعليلًا، والسماء تُظلم رويدًا رويدًا، وتغيِّر لونها من الأزرق إلى البنفسجي الهادئ المحبَّب للغسق. ثَمَّة أناسٌ يحبُّون المدينة، وكانت تلك واحدة من الأمسيات التي تُوقِعُهم في حُبِّها، حيث تبدو البسمة على وجوه جميع الواقفين على أبواب متاجر الأطعمة والغسيل الجاف والمطاعم. ابتسَمَت سيِّدةٌ عجوز للشابِّ حينما كانت تدفع حقيبتي بقالة على عربة أطفال قديمة، وألقت عليه التحية: "أهلًا يا جميل!"، وابتسم لها الشَّابُّ نِصفَ ابتسامة، ورفع يده مُحيِّيًا إيَّاها.

سارت في طريقها، وهي تفكِّر: إنه عاشق.

تمتَّع بتلك الإطلالة التي تنمُّ عن هذا، كان يرتدي بذلةً رماديَّة خفيفة، وربطة العنق الضيقة مفكوكة بعض الشيء، وزرُّ ياقة قميصه

مفتـوح. كان شَـعره داكنًـا ومقصوصًـا، وبشرتـه نقيَّـة، وعينـاه خفيفتـا الزُّرقـة. لم يكـن وجهًـا خارقًـا للعـادة، لكنـه صـار جميـلًا في هـذه الأمسـية الربيعيـة الرقيقـة، وفي هـذه الجـادَّة بالـذات، في مايـو 1963، وضبطـت السـيدة العجـوز نفسـها وهـي تفكّـر للحظـةٍ في اشـتياقٍ عَـذبٍ إلى المـاضي أنـه يمكـن لأي امـرئٍ أن يصـير جميـلًا... إذا سـارع لملاقـاة فتـاةِ أحلامـه عـلى العشـاء، وربمـا يتراقصـان بعدهـا.

الربيـع هـو الفصـل الوحيـد الـذي لا يتحـلَّى فيـه الحنـينُ إلى المـاضي أبدًا بطعـم المـرارة، ومَضَـت في طريقهـا مُمتَنَّـةً لحديثهـا إليـه، وممتنَّـة لـرَدِّه عـلى الإطـراء رافعًـا يـده فيـما يشـبه التَّحيَّـة.

عـبَرَ الشَّـابُّ الشـارع الثالـث والسـتين، واثبًـا في كل خطـوة يقطعهـا، وعـلى شـفتيه شـبح الابتسـامة ذاتهـا. عنـد ناصيـة الشـارع وقـف رجـلٌ عجـوز بجـوار عربـة يدويَّـةٍ خـضراء مُتكسِّرَة مملـوءة بالأزهـار التـي يُهَيمِـنُ عليهـا اللـون الأصفـر، حُمَّـى صفـراء من أزهـار النرجـس والزعفران. لـدى الرجـل العجـوز أيضًـا أزهـار القرنفـل وحفنـة مـن أزهـار الشـاي مـن الدفيئـة، أغلبهـا بـين صفـراء وبيضـاء. كان يـأكل البريتـزل المملَّـحَ، ويسـتمع إلى مذيـاع ترانزسـتور ضخـم قابـع في ركـن عربتـه اليدويـة.

انهمـرت مـن المذيـاع أخبـارٌ سـيِّئة لا يسـتمع إليهـا أحـد: قاتِـلٌ بالمطرقَـةِ مـا يـزال حُـرًّا طليقًـا، چـون إف كينيـدي يعلـن أن الوضـع في دولـة آسـيوية صغـيرة تُدعَـى ڤيتنـام (أو "ڤيتنـوم" حسـبما أسـماها قـارِئُ النـشرة) يسـترعي الانتبـاه، وانتُشِـلَت جُثَّـة سـيدة غـير معروفـة الهويـة مـن النهـر الشرقـي، وفشـلت هيئـة محلَّفـين كـبرى في إدانـة أحـد زعـماء الجريمـة في إطـار حـرب الإدارة الحاليـة للمدينـة عـلى الهيرويـن، وفجَّـر الـرُّوسُ رأسًـا نوويًـا. لم يَبـدُ أيٌّ مـن هـذه الأخبـار حقيقيًـا، ولم يَبدُ أيٌّ منهـا فارقًـا. كان النسـيم رقيقًـا وعليـلًا. وقـف رجـلان بكرشـين ضخمـين خـارج

مخبز، يقذفان عملات الخمس سنتات ويعابث أحدهما الآخر. ارتعد الربيع على عتبات الصيف، والصيف فصل الأحلام في هذه المدينة.

تجاوَزَ الشَّابُّ عربة الأزهار، فخفتت أصوات الأخبار السيئة. تقلقل في المسير، واستشعر نذير شيء ما، وفكَّر مليًّا في الأمر. مدَّ يده إلى جيب معطفه ولمس هذا الشيء في الداخل ثانية. بدا وجهه لِلَحظَةٍ حائرًا، ووحيدًا، وشبه مسكون، وبعدها فارَقَت يده جيب المعطف، مستعيدًا طَلَّتَه السابقة المشتعلة حماسًا.

عاد إلى عربة الأزهار مبتسمًا. سيحضر لها باقةَ أزهارٍ ستُعجِبُها، لطالما أحبَّ رؤية عينَيْها الوضَّاءتَيْن بالدهشة والسعادة حين يفاجئها بمفاجأة، اقتصرت هداياه على الأشياء الصغيرة لأنه كان أبعدَ ما يكون عن الثراء: علبة حلويات، أو سوار، وذات مرة أهداها فقط كيسًا من برتقال ڤالنسيا؛ لِعِلمِه بأنه المُفضَّل لدى نورما.

قال بائع الأزهار: "أهلًا بصديقي الشاب"، وذلك حينما عاد الرجل ذو البذلة الرمادية، مُجرِيًا عينيه فوق مخزون العربة. كان البائع في سِنِّ الثامنة والستين تقريبًا، يرتدي كنزةَ صوف رمادية مُمزَّعة، وقبعة رقيقة رغم حرارة الجَوِّ في المساء. وجهه خارطة تجاعيد، وعيناه غائرتان بفعل الانتفاخ، والسيجارة مرتعشة بين أصبعيه، لكنه تذكَّر أيضًا إحساس الشباب في فصل الربيع، شابًّا غارقًا في العشق إلى حَدِّ التحليق في الأرجاء كافَّة. كان وجه البائع فَظًّا، لكنه الآن ابتسم بعض الشيء، بالضبط مثل ابتسامة السيدة التي كانت تدفع عربة المشتروات، لأن هذا الشاب كان بمثابة حالة متجلِّية. نفض عن كنزته الفضفاضة فتات البريتزل المملَّح، وأطرق مُفكِّرًا: لو كان هذا الفتى سقيمًا، سيحتجزونه في العناية المركَّزة في التَّوِّ والحال.

سأل الشابُّ: "كم سعر الأزهار؟".

"سأُعدُّ لكَ باقةً جميلة بدولار واحد، من أزهار الشاي تلك، إنها أزهارٌ من الدفيئة، تكلفَتُها أقلُّ، سبعون سنتًا للزهرة، سأبيع لك نصف دستة بثلاثة دولارات وخمسين سنتًا".

قال الشاب: "ثمنها باهظ".

"ما من شيء طيب يأتي بثمن بَخسٍ يا صديقي الشاب، ألم تُعَلِّمكَ والِدتُكَ هذا؟".

ابتسم الشاب: "ربَّما أتت على ذِكرِ الموضوع".

"بالتأكيد، بالتأكيد ذكَرَته، سأعطيك نصف دستة، زهرتان حمراوان، وزهرتان صفراوان، وزهرتان بيضاوان، ما في وسعي أفضل من ذلك، أليس كذلك؟ وسأرفق لك معها زهريات النُعَيّمَة؛ فَهُنَّ يُحبِبنها، ومع بعض السَّرخس، طيب، أو يمكنك الحصول على باقة الأزهار مقابل دولار واحد".

سأل الشاب مُحافِظًا على ابتسامته: "هُنَّ؟".

قال بائع الأزهار وهو يقذف عُقبَ السيجارة في البالوعة، مستعيدًا ابتسامته: "صَديقي الشاب، لا أحد يشتري الأزهار لنفسه في شهر مايو، الأمر أشبه بقانون وطني، أتفهم ما أعنيه؟".

فكَّر الشاب في نورما، وعينيها السعيدتَيْن المندَهِشَتيْن، وابتسامتها الرقيقة، ثم أحنى رأسه قليلًا، وقال: "أظنُّ أني فهمتُ".

"بالتأكيد، ما قَولُكَ إذن؟".

"حسنًا، ما رأيك؟".

"سأخبرك بما أفكِّر به، هاي! النصيحة ما زالت مجَّانِيَّة، أليس كذلك؟".

ابتسم الشاب وقال: "أظُنُّ أن هذا الشيء الوحيد المتبقِّي".

قال بائع الأزهار: "أَصَبتَ القول، حسنًا يا صديقي الشاب، لو كانت الزهور من أجل والدتك، ستحضر لها باقةً فيها بعض أزهار النرجس، وبعض الزعفران، وبعض سوسنات الوادي. لن تفسد هذه اللمسة بأن تقول لك: "أي بني، أحبُّهم كثيرًا، كم كلَّفوكَ؟ أوه! هذا كثير، ألا تعرف كيف تحافظ على أموالك؟"".

أرجَعَ الشَّابُّ رأسه للوراء وضحك.

قال بائع الأزهار: "ولكن لو كانت الأزهار لحبيبتك، فهذه نقرَةٌ أخرى يا بني، وأنت تعرف ذلك، أحضِرْ لها أزهار الشاي، ولن تتحوَّل معك إلى مُحاسِبَة، أَفَهِمتَ قصدي؟ هه! ستلفُّ ذراعيها حول رقبتك...".

قال الشاب: "سآخذ أزهار الشاي"، وهذه المرة حان دور بائع الأزهار في الضحك، ونظر الرجلان القاذفان للسِّنتات الخمس وابتسما.

نادى أحدُهما: "يا فتى، أتريد شراء خاتم زواج رخيص الثمن، سأبيعكَ خاتَمي؛ فما عُدتُ راغِبًا فيه".

ابتسم الشاب وتَورَّد وجهه خجلًا حتى أطراف شَعرِهِ الداكن.

التقط بائِعُ الأزهار سِتَّ أزهار شاي، وقصَّ أطراف السيقان، ورشَّ عليها بعض الماء، وغلَّفَهم في مخروط كبير.

قال المذياع: "تبدو أجواء هذه الليلة مثلما تُحبُّونها بالضبط؛ معتدلة ولطيفة، ودرجة الحرارة تتراوح من منتصف إلى مطلع السِّتِّينات؛ أجواء مثالية للتَّحديق إلى النجوم من فوق أسطُح البنايات، فلتنعمي يا نيويورك العظيمة وتبتهجي".

ألصق بائع الأزهار اللفافة الورقية بالشريط اللاصق، ونصح الشاب أن يُخبِرَ حبيبته أن بعض السُّكَّر المضاف إلى الماء سيطيل عمر الأزهار حين تضعهم فيها.

قال الشاب: "سأُخبِرُها"، وأخرج خمسة دولارات، "شكرًا لك".

قال بائع الأزهار وهو يعطيه دولارًا ورُبعَيْن، واتَّسَعَت ابتسامته: "أقوم بعملي فحسب يا صديقي الشاب، امنحها قُبلةً من أجلي".

على أثير المذياع، بدأ فريق ذا فور سيزونز في أداء أغنية "شيري"، أخذ الشابُّ بقيَّةَ المال وواصل طريقه في الشارع، بأعيُنٍ مفتوحة ومُنتَبِهَة ومُتحفِّزة، في حالة تَرقُّب، ودون أن يلقي بالًا لما حوله من حياة تتدفَّق في مَدٍّ وجَزرٍ في الجادَّة الثالثة كلَّما تَقدَّم وتَوغَّل. لكن أشياء بعينها تركَت أثرها: أمٌّ تَشدُّ طفلها في عربته، ووجه الطفل مُلطَّخ بالآيس كريم بطريقة مُضحِكة، وفتاة صغيرة تقفز فوق الحبل، وتغني: "بِتي وهنري فوق الشجرة/ وقد جمعتهما قبلة/ في البدء الحُبُّ جاء/ ومن ثَمَّ الزواج تلاه/ وها هو هنري يدفع عربة أطفال أمامه"، وامرأتان واقفتان أمام مغسلة، تدخِّنان وتتبادلان أحوال حملهما، ومجموعة من الرجال ينظرون إلى واجهة متجر للأجهزة الكهربائية على تلفازٍ مُلوَّنٍ ضخم، عليه بطاقة تسعير تحمل أربعة أرقام، وتُذاع عليه مباراة للبيسبول، وبَدَت كل وجوه اللاعبين خضراء، والملعب له لونٌ غامض مثل الفراولة، وفريق نيويورك ميتز يتفوَّق على فريق فيليز بـ 6 مقابل 1 في نهاية المباراة.

واصَلَ المسير حاملًا الأزهار، غيرَ عابئ بالسيِّدَتَيْن الواقِفَتَيْن أمام المغسلة، اللَّتَيْن توقَّفَتَا عن الحديث لهنيهة، وتطلَّعَتا إليه في تَوقٍ وهو يحمل لفافة أزهار الشاي، ولَّت وفاتت أيَّامُ تَلَقِّيهما باقات الأزهار، لم ينتبه إلى شُرطيِّ المرور الشاب الذي يُوقف السيارات عند تقاطُع الجادة الثالثة مع الشارع التاسع والستين، نافخًا في صفارته سامحًا لهم بالمرور، الشرطي نفسه تورَّط ولاحظ التعبير الحالم على سيماء الشاب من انعكاس مرآة حلاقته التي اعتاد النظر فيها مؤخَّرًا. لم

ينتبه إلى الفتاتين المراهِقَتيْن اللَّتيْن مَرَّتا عليه في أثناء الذهاب إلى الناحية الأخرى، ثم سيطرتا على أنفسهما وقهقهتا.

توقَّف في الشارع الثالث والسبعين، وانعطف يمينًا. كان الشارع أكثر إظلامًا، وتراصَفَت فيه المباني المبنية بالحجارة البُنِّيَّة، مع المطاعم ذات الأسماء الإيطالية على الطريق، وعلى بُعد ثلاث بنايات تجري مباراة لكرة العصا[1] تحت الضوء الخافت. لم يقطع الشابُّ كُلَّ هذه المسافة البعيدة، وعند منتصف شارع، انعطف إلى زقاق ضيق.

والآن تلألأت النُّجومُ، هادئة في لمعانها، وكان الزُّقاق ضيِّقًا وظليلًا، يَحفُّه كيانٌ غامِضٌ تَشكَّل من العلب الملقاة. بات الشاب وحيدًا الآن، لا، ليس بالضبط، حيث صدر صِياحٌ مُتَذبذِبٌ في الظُّلمة القرمزية، واكفَهَرَّ الشاب، كانت أنشودة حُبٍّ صادرة عن ذَكَرِ قِطٍّ، وما من شيء جميل في هذا.

تمهَّل أكثر في السير، ونظر إلى ساعة يده، كانت الساعة الثامنة والربع، ويفترض على نورما أن... ثم رآها، قادمة في اتجاهه من ناحية الساحة، مرتديةً سراويل زرقاء داكنة وبلوزة تشبه ملابس البحَّارة دَفَعَت قلبه إلى الخفقان. دائمًا ما يُفاجَأ حين يقابلها للمرة الأولى، كانت على الدوام صدمةً حلوة، بدت في ريعان الشباب.

والآن بَرَقَت ابتسامتها، بل أشَعَّت، ثم سار بوتيرةٍ أسرع.

قال: "نورما!".

رفَعَت ناظريها وتبسَّمَت، ولكن حينما تقاربا، انطفت الابتسامة.

---

(1) لعبة مشابهة للبيسبول، ومن أشهر ألعاب الشوارع الأمريكية، خاصة شوارع نيويورك وفيلادلفيا (المترجم)

اختلَّت ابتسامته بعض الشيء، واستشعر قلقًا في اللحظة الراهنة، وفوق بلوزة البَحَّارين تَعكَّر وجهها، اشتدَّت الظُّلمَة الآن، أيُعقَل أنه أخطأ؟ بالطبع لا، إنها نورما.

قال بخلوٍّ بالٍ مُبتَهِج: "أحضَرتُ لكِ أزهارًا"، وناولها اللفافة الورقية.

نظَرَت إليها للحظة، وابتسمت، وأعادتهم إليه.

قالت: "شكرًا لك، ولكنَّكَ مُخطِئ، اسمي...".

"نورما". قالها هَمسًا، ثم سحب المطرقة ذات اليد القصيرة من جيب معطفه حيث تواجَدَت طيلة الوقت. "إنهم من أجلك يا نورما، كانوا دومًا من أجلِكِ، كلُّهم لأجلكِ".

تراجَعَت إلى الوراء، مع وجهٍ مستدير أبيض شاحب، وانفتح فمُها مثل حرف الـ "O" من الفَزَع، وهي ليست نورما، فنورما ميِّتة، ماتت منذ عشر سنوات، ولم يَعُد الأمر يهم لأنها كانت على وشك الصراخ، فانهال عليها بالمطرقة كي يوقف الصراخ، كي يقتل الصراخ، وأسقطت ضربة المطرقة باقَةَ الزهور من يده، انفرطت اللفافة وانفتحت، واندلقت منها الأزهار الحمراء والبيضاء والصفراء بجوار صفائح القمامة المنبعجة، حيث تتطارح القطط غرامًا عجيبًا في الظلام، صارِخَةً في نشوة، تصرخ ثم تصرخ.

ضرب بالمطرقة ولم تَصرُخ، لكنها قد تصرخ لأنها ليست نورما، ولا واحدة منهن كانت نورما، وضرب بالمطرقة، ثم ضرب بالمطرقة، ثم ضرب بالمطرقة، إنها ليست نورما؛ لذا ضرب بالمطرقة، وقد اقترف هذه الفِعلَةَ خمسَ مرَّاتٍ من قبل.

في وقتٍ لاحِقٍ غير معلوم، أعاد المطرقة ثانية إلى جيب معطفه الداخلي، وابتعد عن الظِّلِّ المُظلِم مترامي الأطراف على الطُّرقات المرصوفة، بعيدًا عن فوضى أزهار الشاي المتناثرة عند صفائح

القمامـة، التـفَّ وغـادر الزقـاق الضيـق. سـيطر الظـلامُ تمامًـا الآن، وعـاد لاعبو كـرة العصـا إلى منازلهـم، وإن وُجِـدَت بُقَـعُ دمـاء عـلى بذلتـه، فلـن تَبـينَ، ليـس في الظـلام، ليـس في الظـلام الربيعـي الرقيـق المتأخِّـر، ولم يكـن اسـمها نورمـا، لكنـه عـرف اسـمه، كان اسـمه.. اسـمه...

الحُبّ.

كان اسـمُه الحُـبَّ، وسـار في هـذه الشـوارع المُظلِمـة لأن نورمـا كانـت في انتظـاره، وسـيجدها يومًـا مـا.

بـدأ في الابتسـام، ودبَّ التَّقافُـز في خطـواتِ سَـيْرِه في الشـارع الثالـث والسـبعين. رآه في أثنـاء مـروره زوجـان في أواسـط العمـر يجلسـان عـلى درجـات سـلالم بنايتهـما، فالتفـت الـرأس، وابتعـدت العينـان، وعـاد شـبح الابتسـامة إلى شـفتَيْه. حـين مَـرَّ عـلى السـيدة، قالـت: "لمـاذا لم تَعُـد بتلـك الهيئـة بعـد الآن؟".

"هه؟".

قالـت: "لا شيء"، لكنهـا راقبَـت الشَّـابَّ ذا البذلـة الرماديـة يختفـي في ظُلمَـةِ الليـل الخَطَّـاء، وفكَّـرَت لـو وُجِـد مـا هـو أجمـل مـن الربيـع، سـيكون الحُـبَّ الشَّـابَّ.

شَرابٌ لأَجلِ الطَّريق

كانـت السـاعة العـاشرة والربـع حـين قـرَّر هـيرب تووكلانـدر الإقفـالَ هـذه الليلـة حـين اندفـع الرَّجُـل ذو المعطـف الأنيـق والوجـه الأبيـض المحملـق إلى حانـة تـووكي الواقعـة في الجـزء الشـمالي مـن فالمـاوث. كان اليـوم العـاشر مـن شـهر ينايـر، وقـت مناسـب كي يتعلَّـم أغلـب الرفـاق العيـشَ مرتاحـين مـع قـرارات العـام الجديـد التـي خالفوهـا، وبالخـارج عاصفـة شـمالية شرقيـة عاتيـة، حيـث ارتفـع الثلج سِـتَّة إنشـات قبـل حلـول الظـلام، واشـتدَّ وازداد قسـوة منـذ ذلـك الحـين. رأينـا بيـلي لاريبـي يمـرُّ مَرَّتَـيْن وهـو راكـب في مقصـورة السـائق في جرَّافـة البلـدة، وكانـت المـرة الثانيـة التـي تنفـد فيهـا الجعَّـة مـن عنـد تـووكي، كانـت أمي سـتعتبر هـذا عطـاءً صافيًـا، وربِّي يعلـم كـم آتـت عـلى مـا يكفـي مـن بـيرة تـووكي في زمانهـا. أخـبره بيـلي أن أمامـه عمـلًا ينتظـره عـلى الطريـق الرئيـس، أمَّـا الطرقـات الجانبيـة فكانـت مُغلَقَـةً وسـتبقى عـلى هـذا الحـال حتـى

الصباح التالي. يتوقَّع المذياع في بورتلاند هبوب موجة رياح سرعتها أربعين ميلًا، سيتراكم معها الثلج.

لا يوجد سوى تووكي وأنا في الحانة، نسمع عواء الرياح حول حوافِّ الجدران، ونراقبها تُراقِصُ النَّار عند المدفأة.

قال تووكي: "خُذْ شرابًا لأجل الطريق يا بووث؛ لأني سأقفل الحانة".

صبَّ كأسًا لي وكأسًا له بينما انفتح الباب بغتةً ودخل هذا الغريب مُتَرَنِّحًا إلى الداخل، والثلج يملأ كتفيه وشعره، كأنه تمرَّغ في سُكَّر صانع الحلويات، ونفخت الريح في أعقابه ندفات ثلج رقيقة.

صاح فيه تووكي: "أَغلِقْ الباب، هل وُلِدتَ في حظيرة؟".

لم أرَ قَطُّ رَجُلًا يبدو على سيمائه كل هذا الخوف، كان يشبه حصانًا قضى فترة بعد الظهيرة وهو يأكل من نبات القراص، جالت عيناه نحو تووكي، وقال: "زوجتي... ابنتي"، وانهار على الأرض في غشيةٍ مُميتَة.

قال تووكي: "ويحي! أغلِقْ الباب يا بوث، من فضلك".

ذهَبتُ وأغلقته، وكان من المشقَّة دَفعُه في مواجهة الريح. انحنى تووكي على ركبة واحدة رافعًا رأس الرجل وخبطه على خدَّيه، وصَلتُ إليه ورأيت على الفور مدى سوء الأمر، كان وجهه مُتَّقِدَ الحُمرَة، مع وجود بعض البقع الرَّماديَّة هنا وهناك، وبما أنكم صمدتم في وجه فصول الشتاء في ماين منذ وقت تَوَلِّي وودرو ولسون رئاسة الجمهورية مثلما كان حالي، ستعرفون أن هذه البقع الرمادية قضمات صقيع.

قال تووكي: "أُغمي عليه، أحضر لي البراندي من البار الخلفي، إذا سَمَحتَ".

أحضَرتُهـا وعُـدتُ، وكان تـووكي قـد فَـكَّ أزرار معطـف الرجـل، بـدأ يسـتعيد وعيـه قليـلًا، عينـاه نصـف مفتوحتـين، ويُتَمتِـمُ بـكلام يصعـب سَـمعُه.

قال تووكي: "صُبَّ منها على قدر الغطاء".

"على قدر الغطاء فقط؟".

قـال تـووكي: "البرانـدي قـويٌّ كالديناميـت، ولا منطـق مـن التَّحميـل الزائـد عـلى الكربوهيـدرات في جسـمه".

صَبَبـتُ عـلى قـدر الغطـاء، ونظـرت إلى تـووكي، فأومـأ: "صُبَّهـا مباشرةً في الـ...".

صَبَبتُهـا، وكان أمـرًا أدهشـني رؤيتـه، انتفـض جَسَـدُ الرَّجُـل وبـدأ يَكـحُّ. ازداد وجهـه احمـرارًا، وانفتـح جفنـاه مثـل سـتائر عـلى نافـذة بعدمـا كانـا شِـبهَ منكَّسَـيْن، شـعرتُ بالذُّعـر قليـلًا، لكـن تـووكي أجلسـه مثـل طفـلٍ كبـير، وربَّـت عـلى ظهـره.

أوشك الرجل على التقيُّؤ، فربَّت تووكي على ظهره مرَّةً أخرى.

"تماسَكْ، فهذا البراندي غالي الثمن".

استـمرَّ الرجـل في السـعال، لكـن قلَّـت وطأتـه الآن، ألقيـت عليـه نظـرةً فاحِصـةً لأول مـرة، حسـنًا، إنـه رَجُـلٌ مـن المدينـة، مـن مـكان مـا في جنوب بوسـطن حسـب التخمـين. كان يرتـدي قُفَّـازات أطفـال، باهظـة الثمـن، لكنهـا كثيفـة. ربمـا تواجَـدَت المزيـد مـن هـذه البقـع البيضـاء المائلـة للـون الرمـادي عـلى يديـه، وسـيكون محظوظًـا إذا لم يفقـد أصبعًـا أو أصبعـين. كان معطفـه فاخـرًا، حسـنًا، سـأحتاج إلى وظيفَـةٍ راتِبُهـا ثلاثمائـة دولار لأرى معطفًـا مثـل هـذا. كان يرتـدي حـذاءً طويـلَ الرقبـة وصغـير الحجـم يصـل بالـكاد حتـى ركبتيـه، وبـدأت أتسـاءل حـول أصابعـه.

قال: "صِرتُ أحسنَ".

قال تووكي: "حسنًا، هل يُمكِنُكَ المجيء للقعود عند النار؟".

قال: "زوجتي وابنتي... بالخارج... في هذه العاصفة".

قال تووكي: "من طريقة دخولك إلى هنا، لم يَدُر بخلدي أنهما في المنزل يشاهدان التلفاز، يمكنك أن تخبرنا عند النار بنفس القَدرِ من اليُسرِ على الأرض، أَمْسِكْ معي يا بووث".

وقف على قدميه، وندَّت عنه آهةٌ قصيرة، والتوى فمه من الألم، تساءَلتُ بخصوص أصابع قدميه مرة أخرى، وسألتُ نفسي: لماذا شعر الرَّبُّ أنه في حاجة لأن يجعل الحمقى القادمين من مدينة نيويورك يُجرِّبون قيادة السيارة في جنوب ولاية ماين في قلب عاصفة ثلجيَّة شمال شرقية. وسألت نفسي إذا كانت زوجته وابنته يرتديان ملابسَ أدفأَ ممَّا يرتدي.

أمشيناه وصولًا إلى المدفأة، وأجلسناه على كرسي هزَّازٍ كان المُفَضَّل لدى زوجة تووكي إلى أن فارقت الحياة في العام 1974. كانت مدام تووكي مسؤولةً أغلب الوقت عن المكان، والذي كُتِبَت عنه مراجعات إيجابية في مجلَّة "داون إيست" وجريدة "صانداي تليجرام"، بل حتى كُتِبَ عنه مرة في ملحق يوم الأحد لجريدة "بوسطن جلوب"، كانت في الحقيقة حانَةً أكثرَ من كَونِها مجرَّدَ بار عاديٍّ، ببابها الخشبي الكبير، المصنوع من أوتاد وليس مجرَّد تثبيت بالمسامير، مع بار من خشب القَيْقَب، وسقف قديم يشبه أسطح الحظائر، والمدفأة هائلة الضخامة من حجارة الحقول. بدأ عقل مدام تووكي في خلق بعض الأفكار عقب صدور مقالة مجلَّة "داون إيست"، وأرادت أن تسمِّي هذا المكان "نُزل تووكي" أو "استراحة تووكي"، وأعترف أن في هذا نزعة استعمارية بعض الشيء، لكني أفضِّل بار تووكي القديم العادي. شيء واحد يدفعك للتَّغطرُس في الصيف، حين تتزايَدُ أعداد السُّيَّاح في الولاية، أما في الشتاء فيختلف الحال تمامًا حين يتوجَّب عليك أن

تتبادل تجارتك مع جيرانك، وقد مرَّت ليالٍ شتائيَّة عديدة مثل هذه الليلة، والتي قضيناها أنا وتووكي وحدنا بطولها معًا، نشرب الويسكي والماء أو بضعة زجاجات من البيرة. زوجتي ڤكتوريا فارَقَت الحياة في العام 1973، وكانت حانة تووكي هي وجهتي في حال وجود ما يكفي من الأصوات لإخراس التَّكتكات المنتظمة الصادرة عن خنفساء الموت، حتى لو اقتصر الأمر عليَّ أنا وتووكي، لن أشعر بنفس الإحساس لو تحوَّل هذا المكان إلى استراحة تووكي، أمرٌ جُنونيٌّ، لكنه صحيح.

أجلسنا هذا الرجل أمام النار، واشتدَّ ارتعاشه عن ذي قبل، ضمَّ إليه ركبتيه واصطكَّت أسنانه، ونزلت بعض قطرات المخاط الصافِيَةِ من أنفه. أظنُّ أنه بدأ يلاحظ أن خمس عشرة دقيقة زيادة في الخارج كانت كفيلةً بقَتلِه، لا علاقة للأمر بالثلج، بل ببرودة الرياح، فهي تسلبك حرارة جسدك.

سأله تووكي: "من أين انطلَقتَ على الطريق؟".

"سـ... ستة أأأميال جـ.جنوبًا من هـ.. هـ.. هنا".

تووكي وأنا حدَّقنا إلى أحدنا الآخر، وفجأة شعرت بالبرد، برد في الأرجاء كافَّة.

ألحَّ تووكي في السؤال: "هل أنت مُتأكِّد؟ قُدتَ السيارة ستة أميال عبر الثلج؟".

أومأ برأسه "فحَصتُ عدَّاد المسافات حين وصلنا إلى البـ.بلدة، كنتُ أتبع الاتجاهات، ذاهبًا لمقابلة شـ.. شقيقة زوجتي في كمبرلاند، لم نَأتِ إلى هناك قَطُّ من قبل، فنحن من نيوچيرسي".

نيو چيرسي، إن وُجد مَن هو أكثر حماقة من المواطن النيويوركي، فسيكون المواطن النيوچيرسي.

شدَّد تووكي: "سِتَّة أميال، هل أنتَ متأكِّد؟".

"متأكِّد جدًّا، نعم، وَجَدتُ الطريق الجانبي، لكني انجرفت في الـ... كان...".

جذبه تووكي في وَهَج النِّيران المراوغ حيث بدا وَجهُه شاحبًا ومُرهقًا، أكبر سِنًّا من السِّتَّة والسِّتِّين بعشر سنوات، "هل سلكت المنعطف الأيمن؟".

"المنعطف الأيمن، نعم، زوجتي...".

"هل رأيت لافتة؟".

"لافتة؟"، نظر نظرةً خالية من التَّعبير إلى تووكي ومسح طرفَ أنفه، "بالطبع رأيت لافتة، كانت موجودة في إرشاداتي، تحرَّك من جادَّة جوينتنر عبر أرض چيروسالِم وصولًا إلى الطريق 295".

نظر إلى تووكي ثم إليَّ، ثم نظر ثانيةً إلى تووكي. صَفَرت الرياح في الخارج وعَوَت واهتاجت على حوافِّ الجدران، "هل هذا صحيح يا سيدي؟".

قال تووكي بصوتٍ أخفتَ من أن يُسمع: "الأرض؟ يا إلهي".

قال الرجل وقد ارتفع صوته: "ما الخطب؟".

"أليس هذا صحيحًا؟ أقصد أن الطريق بدا أنه منعطف، ولكني ظَنَنتُ أني لو وجدت بلدةً هناك، ستكون جرَّافات الثلوج موجودة بالخارج، وأنا... وبعدها أنا...".

وسرعان ما انخفض صوته.

قال لي تووكي بصوتٍ مُنخَفِض: "بووث، توجَّه إلى الهاتف، واتَّصِل بالشريف".

"حسنًا".

قـال هـذا الأحمـق مـن نيوچيرسي: "هـذا صحيـح، مـا خطبُكـم يـا رجـال؟ تبـدون كأنكـم رأيتـم شـبحًا".

قـال تـووكي: "لا أشـباح في الأرض يـا سـيدي، هـل قُلـتَ لهـم أن يبقـوا في السـيارة؟".

قال بصوتٍ مجروح: "بالطبع، أنا لست مجنونًا".

في الواقع، ليس في إمكاني إثبات هذا.

سألته: "ما اسمُكَ؟ كي أمليه للشريف".

قال: "لوملي، چيرالد لوملي".

واصـل مـن جديـد مـع تـووكي، ثـم اتَّجَهـت إلى الهاتـف، رفعـت السَّـمّاعة ولم أسـمع شـيئًا سـوى الصَّمـت المُطبِـق، وضغطـت عـلى أزرار الإقفـال عـدَّةَ مـرَّات، ولم أتلـقَّ شـيئًا.

عُـدتُ إلى مـكاني، وصَـبَّ تـووكي لچيرالـد لومـلي جرعـة أخـرى مـن البرانـدي، وسِرتُ هـذه المـرة في جوفـه بسريـان أسـلس.

سأل تووكي: "هل كان بالخارج؟".

"الهاتف لا حرارة فيه".

قـال تـووكي: "اللعنـة"، ونظرنـا إلى بعضنـا البعـض، وعصَفَـت الرِّيـاحُ في الخـارج، قاذِفـةً بالثلج عـلى النوافـذ.

نظر لوملي إلى تووكي ثم إليَّ، ثم عاود الكَرَّة.

سـأل: "طيِّـب، أليـس لـدى أيٍّ منكـما سيارة؟"، وعـاد القلق إلى صوتـه. "عليهـما أن يُديـرَا المُحـرِّك مـن أجـل التسـخين، خـزّان الوقـود مملـوء حتـى رُبعِـه فقـط، واسـتغرقني الأمـرُ نصـفَ سـاعة كي... انظـروا إليَّ... ألا تَـردُّون عـليَّ؟". وَقَـفَ وشـدَّ قميـص تـووكي.

قال تووكي: "سيدي، أظنُّ أن يَدَكَ هذه جُنَّ جُنونها".

نظـر لومـلي إلى يـده، وإلى تـووكي، ثـم أبعدهـا. همـس قائـلًا: "مايـن"، وجعلهـا تبـدو كأنهـا كلمـة قَـذِرَة يشـتم بهـا والـدة شـخصٍ مـا. قـال: "طيِّـب، أيـن أقـرب محطـة بنزيـن؟ حتـمًا لديهـم شـاحنة لقطـر السـيارات...".

قُلـتُ: "أقـرب محطَّـة وقـود في مركـز فالمـاوث، عـلى بُعـد ثلاثـة أميـال عـلى الطريـق مـن هنـا".

قـال بنـبرة تـشي بالسـخرية: "شـكرًا"، وتَوجَّـه إلى البـاب وهـو يقفـل أزرار معطفـه.

مكتبة
t.me/t_pdf

عقَّبتُ قائلًا: "مع ذلك، لن تفتح أبوابها".

استدار ببُطءٍ ونَظَرَ إلينا.

"عمَّ تتحدَّث أيُّها الرجل العجوز؟".

قـال تـووكي في صـبر: "إنـه يحـاول أن يخـبرك أن المحطـة الواقعـة في المركـز ملـكُ بيـلي لاريبـي، بيـلي في الخـارج يقـود الجرَّافـة أيهـا الأحمـق الملعـون، إذن لم لا تعـود إلى هنـا وتقعـد قبـل أن تُتعِـبَ نَفسَـكَ بـلا طائـل؟".

عـاد وهـو يتطلَّـع في ذهـول ورعـدة: "أتقـول لي إنـه لا يمكنـك.. أنـه لا يوجـد...".

قـال تـووكي: "أنـا لا أُخـبِرُكَ بـشيء، فأنـت مَـن تقـول كل الـكلام، ولـو أمهَلـتَ نفسَـكَ دقيقـة، يمكننـا التفكـير مليًّـا في الأمـر".

سـأل: "مـاذا تكـون هـذه البلـدة؟ أرض چيروسـالِم؟ ولِـمَ الطَّريـقُ مُنعَطِـف؟ ولمـاذا لا توجـد أيَّـة أضـواء عـلى الطريـق؟".

قلتُ: "أرض چيروسالِم احترَقَت عن بَكرَةِ أبيها منذ عامَيْن".

"ولم يُعَد بناؤها قَطُّ؟"، بدا وكأنَّه لا يُصدِّق.

قلتُ: "يبدو الأمر هكذا"، ونظرتُ إلى تووكي: "ماذا سنفعل حيالَ هذا؟".

قال: "لا أستطيع تَركَهم في العَراء هناك".

اقتَرَبتُ منه، وهام لوملي بعيدًا لينظر من النافذة على الليلة المُثلِجَة.

سألت: "ماذا لو وصلوا إليهما؟".

قال: "احتمال قائم، لكننا لا نعرف يقينًا، معي كتابي المقدَّس على الرف، أما زِلتَ ترتدي قلادة البابا؟".

سَحَبتُ الصليب خارج قميصي وأبرزته له، وُلِدتُ وتَرعرَعتُ في طائفة أبرشانية، لكن أغلب الرفاق الذين عاشوا حول الأرض يرتدون شيئًا ما: صليبًا، قلادة القديس كريستوفر، مسبحة، أي شيء. لأنه منذ عامين، وعلى امتداد شهر أكتوبر المظلم، ساءت الأمور كثيرًا في "الأرض". في بعض الأحيان، في وقت متأخِّر من الليل، حين يتحلَّق بضعة أفراد حول النار عند تووكي، يبدأ الناس في الحديث عن الأمر، ويتحدَّثون عنه كأنه صار حقيقة، أترى، بدأ الناس يختفون داخل "الأرض"، في البدء كانوا قِلَّةً، ثم ازداد عددهم، ثم صار العَدَدُ مهولًا. أغلقت المدارس، وباتت المدينة خاويةً على عروشها أغلب أوقات العام، وآه! انتقلت قِلَّةٌ قليلة للعيش فيها، أغلبهم حمقى ملاعين وافدون من خارج الولاية مثل هذا الرجل الطيب هنا، حيث جذبهم انخفاض أسعار العقارات حسبما أظنُّ، لكنهم لم يطيلوا الإقامة، حيث انتقل العديد منهم خارجها بعد شهر أو شهرين من قدومهم، أمَّا عن الآخرين، ففي الواقع، اختفوا، ثم احترَقَت حتى تساوت بالأرض. كانت نهاية خريف جاف طويل، حيث يرون أن الواقعة بدأت عند منزل مارستين على التلَّة المطِلَّة على جادة جوينتنر، ولكن لا أحد يعلم كيف وقعت الواقعة حتى يومنا هذا، فقد استمرَّ الحريق لمدة

ثلاثة أيام دون قُدرةٍ على الاحتواء، وبعدها تحسَّنَت الأحوال لفترة وجيزة، ثم بدأ الأمر من جديد.

كل ما سمعته كلمة "مصَّاصي دماء" التي ذُكِرَت مرَّةً واحدة. جاء إلى تووكي في تلك الليلة سائِقُ شاحِنةٍ أخشاب مجنون يُدعى ريتشي ماسينا من طريق فريبورت، وكان سكران حتى الثُّمالَة، مُنتَصِبَ القامة بطول تسعِ أقدام تقريبًا ببنطاله الصوفي وقميصه المنقوش وحذائه الطويل الجلدي، عوى هذا المندفع قائلًا: "يا للمسيح! هل أنتم جميعًا خائِفون من العلانية في القول؟ مَصَّاصو دماء! هذا كل ما تفكِّرون فيه، أليس كذلك؟ يا ليسوع المسيح مُتَّقِد الحماس الجالس في قلب عربة تجرُّها درَّاجة! تشبهون زُمرَةً من الأطفال المذعورين في السينما! أتعلمون ما يوجد هناك في "أرض سالم"؟ أتريدونني أن أخبركم؟ أتريدونني أن أخبركم؟".

قال تووكي: "قُل يا ريتشي، لك حَقُّ الكلام". هدأت الأجواء في الحانة لدرجة أنَّكَ تسمع فرقعة شُعلات النار، والهطول الرقيق للمطر النوڤمبريِّ بالخارج في الظلام.

قال لنا ريتشي ماسينا: "عُصبَةُ كلابكم الضارية هي المتواجدة هناك بالأساس، هذا ما لديكم، هذا بجانب العديد من النسوة العجائز اللاتي يُحبِبنَ سماع حكاية مخيفة جيِّدة، لماذا؟ مقابل ثمانين سنتًا، سأذهب إلى هناك وأقضي الليلة في أطلال ذلك المنزل المسكون الذي تخافون منه أجمعون، حسنًا، ماذا عن هذا؟ من يزيد؟".

ولكن لم يزِد أحدٌ، كان ريتشي ثرثارًا وسكِّيرًا حقيرًا، ولن يذرف أحدٌ الدموعَ عليه حين ينتهي به المطاف هناك، ولا أحد راغِبٌ أن يراه يدخل "أرض سالم" بعد حلول الظَّلام.

قــال ريتــشي: "فلتخســأ عصبتكــم أجمعــين، معــي ســلاحي 410 في صنــدوق ســيارتي الشــيفي[1]، وهــو مــا ســيضع حــدًّا لأي شيء يظهــر في فالمــاوث أو كامبرلانــد أو أرض چيروســالِم، وإلى هنــاك أنــا ذاهــب".

خبـط بيـده عـلى البـار، ولم يتفـوَّه أحـدٌ بكلمة لِلَحظَـةٍ، ثم قـال لامونت هـنري بهـدوء شـديد: "هـذه آخـر مـرة سـيرى فيهـا أحـدٌ ريتـشي ماسـينا، يـا إلهـي القديـر!". ورشَـمَ لامونـت الصَّليـب، ذلـك الرجـل المترعـرع في الطائفـة الميثوديـة منـذ حداثـة سِـنِّه.

قـال تـووكي: "سـيفيق مـن السُّـكر ويعـود لرُشـدِه"، لكنـه بـدا عـلى صوتـه عـدم الارتيـاح، "سـيعود عنـد وقـت الإقفـال، ليثبـت أن كل هـذا مجـرَّدَ مزحَـةٍ".

لكـن لامونـت كان معـه الحـقُّ في هـذه المسـألة، حيـث لم يَـرَ أحـدٌ ريتـشي ماسـينا مـرَّةً أخـرى إطلاقًـا، وقالـت زوجتـه لرجـال شرطـة الولايـة إنهـا ظنَّـت أنـه غـادر إلى فلوريـدا للتعامُـل مـع وكالـة تحصيـل الديـون، لكنـك تـرى حقيقـة الأمـر في عينيهـا، عينـين مرهَقَتـيْن خائِفَتَـيْن. بعـد فـترة ليسـت بالطويلـة، انتقلـت للعيـش في رود آيلانـد، ربمـا ظنَّـت أن ريتـشي سـينتقل وراؤهـا في ليلـة مُظلِمَـة، ولسـت في موقـع الحسـم لأقـول إنـه ربمـا لم يفعـل ذلـك.

تـووكي الآن كان ينظـر إليَّ، وكنـتُ أنظـر بـدوري إلى تـووكي حـين حشَرتُ صليبـي داخـل القميـص، لم أشـعر قَـطُّ بـكل هـذا البـرد وكل هـذا الخـوف طيلـةَ حياتي.

قال تووكي ثانية: "لا يمكننا تركهم بمفردهم هناك يا بووث".

"نعم، أعرف".

---

(1) هكذا يقول اختصارًا لـ(شيفروليه) (المترجم)

نظرنا لبعضنا البعض لِلَحظَةٍ أطول، ثم مدَّ يده وشدَّني من كتفي، "أنت رجل صالح يا بووث"، وكان هذا كافيًا ليُحفِّزني. يبدو أنه حين تتخطَّى السبعين، يبدأ الناس ينسون أنك رجل، أو أنك وُجِدتَ من الأساس.

تمشَّى تووكي نحو لوملي، وقال: "لديَّ سيارة استطلاع رباعية العجلات، سأُخرِجها".

التفَّ من ناحية النافذة وحدَّق إلى تووكي غاضبًا: "بحقِّ الرب، لماذا لم تَقُل هذا من قبل؟ لماذا أنفقتَ عشر دقائق كاملة في اللَّفِّ والدَّوران؟".

قال تووكي بهدوء شديد: "يا سيد، أغلِقْ فَمَك، وإذا راوَدَتك الرغبة في فتحه، فلتتذكَّر مَن أخذ هذه الالتفافة على طريق لم تُجرَف عنه الثلوج في قلب عاصفة ثلجيَّةٍ لعينة".

أوشك أن يقول شيئًا ما، ثم أطبق فمه، وتلوَّن خدَّاه بلون كثيف. توجَّه تووكي إلى الخارج كي يخرج سيارة الاستطلاع من المرآب، والتَفَفتُ حول البار من أجل قِنِّينته الكروم، وعبَّأتُها على آخرها بالبراندي.

أظنُّ أننا في حاجة لهذا قبل اختتام الليلة.

عاصفة ماين الثلجية، هل كنتَ من قبلُ في قلب عاصفة؟

تطايَر الثَّلجُ بالِغُ الكثافة والضآلة كأنه حبَّات رمل، وبدا هكذا في صوته وهو يخبط جانبي السيارة أو الشاحنة. لن ترغب في استخدام إضاءة سيَّارَتِك العالية، حيث سينعكس عليها الثَّلجُ ولن ترى أمامك لمسافة عشر أقدام، أمَّا مع استخدام الإضاءة المنخفضة؛ يمكنك أن ترى لخمس عشرة قدمًا، لكني أستطيع التعايُشَ مع الثلج، بينما لا أحِبُّ الريح حين ترتفع وتيرتُها وتبدأ في العواء، صانِعةً من الثلج مائة شكل مُتطايِر غريب، وتُصدِر صوتًا يبدو كأنه تَجمُّعٌ لِكُلِّ كراهية وألم

وذعـر العـالم، ثَمَّـة مَـوتٌ يقـف في حلـق ريـاح العاصفـة الثلجيـة، مـوت أبيـض، وربمـا شيء يتخطَّـى المـوت. لا صـوت تسـمعه حـين تسـتلقي في اسـترخاءٍ في فراشـك مـع سـتائِرَ مُغلَقَـةٍ وبـابٍ مُقفـل. الأمـر أسـوأ كثـيرًا في أثنـاء القيـادة، وحـين نقـود تحديـدًا إلى أرض سـالم.

طلب لوملي: "ألا يمكنك أن تُسرع قليلًا؟".

قلـتُ: "بالنِّسـبَة لرَجُـلٍ أتى إلينـا وهـو نصـف مُتجمِّـد، فأنـت في عجلـة شـديدة مـن أمـرك لينتهـي بـك الحـال سـائرًا عـلى قدميـك مـن جديـد".

نظـر إليَّ نظـرةً مُمتَعِضَـة مُرتَبِكَـة، ولم يـزد كلمـة. كنَّـا نتحـرك بثبـاتٍ عـلى الطريـق السريـع عـلى سرعـة 25 ميـلًا في السـاعة. كان يصعـب تصديـقُ أن بيـلي لاريبـي جـرف الثلـوج عـن هـذه المسـاحة منـذ سـاعة مضـت، حيـث غطَّاهـا إنشـان إضافيَّـان، ومـا زال الثلـج يهطـل. خبَطَـت أقـوى عصفـات الريـح سـيارة الاسـتطلاع عـلى زجاجهـا الأمامـي، وأظهـرت المصابيـح الأماميـة أمامنـا الـلا شيء الأبيـض الحائـم.

بعد عشر دقائق تقريبًا، قال لوملي لاهثًا: "هاي! ما هذا؟".

كان يشـير إلى خـارج ناحيتـي مـن السـيارة، ونظـرت مبـاشرة إلى الأمـام، والتَفَفـتُ، وكان طيفًـا ناشـئًا للتَّـوِّ، ظَنَنـتُ أني أرى كيانًـا هابطًـا يتراجَـع عـن السـيارة، عائـدًا إلى الثلـج، ولكـن ربمـا كان هـذا محـضَ خيـال.

سألت: "ماذا كان هذا؟ غزال؟".

قـال بصـوتٍ شـبه مهـزوز: "أظـنُّ ذلـك، لكـنَّ عينَيْـه كأنَّهـما... حمـراوان"، ونظـر إليَّ. "أهكـذا تبـدو عينَـيْ الغـزال في الليـل؟"، وبـدا كـما لـو كان يتـضرَّع في حديثـه.

قلـتُ: "رُبَّمـا كانـا يشـبهان أيَّ شيء"، وهـو يُفكِّـر أن هـذا ربمـا يكـون صحيحًـا، لكنـي رأيـت الكثـيرَ مـن الغـزلان في الليـل مـن سـيَّاراتٍ عديـدة، ولم أَرَ عينَـيْن تعكسـان ضيـاءً أحمـرَ.

توووكي لم يَقُل شيئًا.

بعد خمس عشر دقيقة تقريبًا، وصلنا إلى مُنحَدرٍ ثلجيٍّ غير مرتفع كثيرًا على الناحية اليمنى من الطريق، حيث ينبغي على الجرَّافات أن ترفع شفراتها قليلًا في أثناء المرور بتقاطُعِ طُرُق.

قال لوملي دون يقينٍ من كلامه: "يبدو كأن هذا هو الموضع الذي التففنا عنده، لا أرى اللافتة...".

"ها هي ذي". هكذا رَدَّ توووكي، ولم يَبدُ على حاله على الإطلاق، "يمكنك فقط أن ترى طرف اللافتة".

بدا لوملي مرتاحًا: "آه طبعًا، اسمع يا سيد تووكلاندر، أعتذر لك على فظاظتي هناك، كنتُ بردانًا وقَلِقًا، واعتَبَرتُ نفسي أحمقَ بمقدار مائتي مرة، وأريد أن أشكر كليكما...".

قال توووكي: "لا تشكر بووث ولا تشكرني إلى أن نأخذهما في السيارة"، دفع سيَّارة الاستطلاع على عجلاتها الأربعة وشقَّ طريقه عبر المنحدر الثلجي وعلى جادة چونيتنر، الذي يمرُّ عبر "الأرض" إلى الطريق 295. تطايَرَ الثلج على واقيات العجلات. حاولت مؤخِّرَة السيارة أن تَجنَحَ بعض الشيء، لكن توووكي كان يقود السيارة عبر الثلج منذ وقت طويل، وأحكم السيطرة عليها، وتحدَّث إليها، وسارا بها. التقطت الأضواء الأمامية إشارةً صريحة إلى آثار عجلات من حين إلى آخر، تلك الآثار التي خلَّفَتها سيارة لوملي، وبعدها اختفت مرَّةً أخرى. انحنى لوملي إلى الأمام، باحثًا عن سيارته، وفجأة قال توووكي: "سيد لوملي...".

تطَلَّع إلى توووكي: "ماذا؟".

قال توووكي، وهو يبدو متساهلًا كفاية: "الناس في هذه الأرجاء يؤمنون بالتخاريف بخصوص أرض چيروسالِم"، لكني رأيتُ حولَ فَمِه خطوطَ التَّوتُّر الغائرة، وطريقة تَحرُّك عينَيْه من ناحية للأخرى، "لو

كانت أُسرَتُكَ في السيارة، وهو أمرٌ طَيِّب، سنصطحبهم ونعود إلى حانتي، وغدًا، حين تنتهي العاصفة، سيكون من دواعي سرور بيلي أن ينتشل سيَّارَتَكَ من المنحدر الثلجي. ولكن إذا كانا غير موجودَيْن في السَّيَّارة...".

"غير موجودين في السيارة؟ لماذا لن يكونا في السيارة؟". هكذا قاطَعَ لوملي الحديثَ بِحِدَّة.

واصل تووكي حديثه دون رَدٍّ على سؤاله: "إذا لم يتواجدا في السيارة، سنلتف ونتوجَّه إلى مركز فالماوث، ونُصفِّر على الشريف، من غير المنطقي أن نلفَّ وندور ليلًا في قلب عاصفة ثلجية، أليس كذلك؟".

"سيكونان في السيارة، وإلا أين سيكونان؟".

قلتُ: "أمرٌ آخَرُ يا سيد لوملي، إذا صادفنا أي شخص، فلن نتحدَّث إليه، ولو حتى تحدَّث إلينا، أفَهِمتَ؟".

قال لوملي ببُطءٍ شديد: "ماذا تكون تلك التخاريف؟".

قبل أن يتسنَّى لي قَولُ أي شيء، والرب وحده يعلم ما كنتُ سأقوله، قاطَعَ تووكي الحديث: "وصلنا".

وجدنا أنفسنا عند مُؤخِّرَة سيارة مرسيدس كبيرة، ووجدنا غطاءَ مُحرِّك السيارة مدفونًا تحت كومة من الثلج، كما ابتلعت كَومَةٌ أخرى الجانِبَ الأيسر من السيارة بأكمله، بينما كانت أضواء المؤخِّرَة مُضاءَةً، ورأينا العادم يخرج من الماسورة.

قال لوملي: "على أيِّ حال، لم يَنفَد منهم الوقود".

رفع تووكي فرامل الطوارئ لسيارة الاستطلاع وشدَّها، "تتذكَّر ماذا قال لك بووث يا لوملي".

"طبعًا. طبعًا!".

لكنه لم يكن يفكِّر في شيء سوى زوجته وابنته. لم أفهم كيف يمكن لأحدٍ أن يلومه أصلًا.

سألني تووكي: "جاهز يا بووث؟"، وتَعَلَّقَت بي عيناه المنفعلتان الرماديَّتان في أضواء لوحة القيادة.

قال: "أظنُّ أني مُستَعدٌّ".

خرجنا جميعًا وتجاذَبَتنا الرياح، مُلقِيَةً بالثلج في وجوهنا، كان لوملي أوَّلَهم، وخضع للريح، وانتفخ معطفه الفاخر من الوراء بالهواء مثل الشراع. ألقى ظِلَّيْن: ظِلًّا من عند أضواء تووكي الأمامية، والظِّلَّ الآخرَ من عند أضواء المؤخِّرة. كنت خلفه، وتووكي خلفي بخطوة. حين وصلت إلى صندوق سيارة المرسيدس، شدَّني تووكي.

قال: "دعه يذهب".

صرخ لوملي: "چايني! فرانسي! هل أنتما على ما يرام؟"، شَدَّ باب السائق وانحنى إلى الداخل: "كلُّ شيء...".

تجمَّدَ دون حراكٍ، انتزعت الرِّيحُ البابَ الثقيل من يده، وانفتح على آخره.

قال تووكي تحت وطأة صياح الريح: "يا إلهي القدير يا بووث، أظنُّ أن الأمر حدث مرَّةً أخرى".

استدار لوملي نحونا، وجهه مذعورٌ ومذهول، وعيناه مُتَّسِعَتان، اندفع على حين غرَّة نحونا عبر الثلج، تزحلق وكاد أن يقع، وأبعدني عن طريقه كأني لا شيءَ، وشَدَّ تووكي من ملابسه.

صاح فيه لوملي: "كيف عرفتَ ذلك؟ أين هما؟ ماذا يحدث هنا بحقِّ الجحيم؟".

أرخى تووكي قبضته ودفعه أمامه. هو وأنا نظرنا إلى المرسيدس سويًّا، كانت دافِئَةً مثل الخُبزِ المُحمَّص، لكن هذا لن يستمرَّ لوقت

طويـل. توهَّجَـت الإضـاءة الكهرمانيَّـةُ الصغـيرة الدالَّـةُ عـلى انخفـاض الوقـود، كانـت السـيارة الكبـيرة خاويـة، وثمَّـة دُميَـة بـاربي طفوليـة عـلى مفـرش أرضيـة السـيارة، وتكوَّمَـت سـترة الطفلـة الفرائيـة عـلى المقعـد الخلفـي.

وضـع تـووكي يديـه عـلى وجهـه، ثـم ذهـب. شـدَّه لومـلي ودفعـه مـن جديـد إلى المنحـدر الثلجـي، كان وجهـه شـاحبًا ومهتاجًـا، وفمـه يَتحـرَّك كـما لـو كان يمضغ شيئًا مُـرًّا لم ينعجـن بمـا يكفـي كي يبصقـه، مـدَّ يـده وشَـدَّ السـترة الفرائيـة.

همـس نوعًـا مـا: "سـترة فرانـسي؟"، ثـم رفـع صوتـه في خـوار: "سُـترَة فرانـسي؟"، اسـتدار ممسـكًا بـه أمامـه مـن غطـاء الـرأس المحفـوف بالفِـراء. نظـر إليَّ نظـرةً خاويـة غـير مُصدِّقـة، "لا يمكنهـا أن تخـرج دون ارتـداء سُـترَتِها يـا سـيد بـووث، لمـاذا.. لمـاذا... سـتتجمَّد حتـى المـوت".

"سيد لوملي...".

تخبَّـط ورائي، وهـو مـا يـزال مُمسـكًا بالسُّـترَة الفرائيـة، ويـصرخ: "فرانـسي! چاينـي! أيـن أنتـما؟ أيـن أنتـمااااا؟".

مَـدَدتُ يـدي لتـووكي، وشَـدَدته حتـى وقـف عـلى قدميـه، "هـل أنـتَ...".

قال: "لا تُبالِ بي، علينا أن نمسك به يا بووث".

ذهبنـا وراءه بـأسرع مـا يمكـن، ومـا كُنَّـا مُسرِعـين لتلـك الدرجـة بفعـل وصـول الثلـج حتـى الأفخـاذ في بعـض المواقـع، وبعدهـا توقَّـف ولحقنـا بـه.

بدأ تووكي الحديثَ، واضعًا يد على كتفه: "سيد لوملي".

قـال لومـلي: "مـن هـذا الاتجـاه، هـذا هـو الاتجـاه الـذي ذهبـا فيـه، انظـر!".

نظرنـا إلى الأسـفل، كُنَّـا في منحـدر نوعًـا مـا، واتَّجَهـت أغلـب الريـاح فـوق رؤوسـنا مبـاشرة، ويمكنـك أن تـرى زوجَـيْن مـن آثـار الأقـدام، إحداهـما كبـيرة والثانيـة صغـيرة، ممتلئتَـيْن بالثلـوج، ولـو كُنَّـا جئنـا بعـد خمـس دقائـق، لاختفـت تمامًـا.

بدأ يسير بعيدًا، ورأسه مُنَكَّسٌ، وأعاده تووكي: "لا لا، لوملي!".

أدار لومـلي وجهـه المهتـاج إلى تـووكي، وشـكَّل قبضـة بيـده ثـم أبعدهـا، شيء مـا في وجـه تـووكي أربكـه، ونظـر إلى تـووكي ثـم إليَّ، بعدهـا عـاوَدَ الكَـرَّة.

قـال لنـا كـما لـو كُنَّـا طِفلَـيْن غبيَّـيْن: "سـتتجمَّد! ألا تفهـمان؟ سـترتها ليسـت بحوزتهـا، وهـي في سِـنِّ السـابعة فحسـب...".

قـال تـووكي: "قـد تكـون في أي مـكان، لـن تسـتطيع تَتبُّـع آثـار الأقـدام هـذه، سـتختفي مـع الثلـوج القادمـة".

صرخ لومـلي بصـوتٍ عـالٍ وهسـتيري: "ومـاذا تقـترح؟ إذا عُدنـا لإحضـار الشرطـة، سـتكون قـد تجمَّـدَت حتـى المـوت! فرانـسي وزوجتـي!".

قـال تـووكي، وقـد التقطـت عينـاه عينـي لومـلي: "رُبَّمـا تَجمَّدَتـا بالفعل، تجمَّدتـا، أو مـا هـو أسـوأ".

همس لوملي: "ماذا تقصد؟ ما هو مغزاك؟ عليكَ اللعنة! قُل لي!".

قال تووكي: "سيد لوملي، يوجد شيء ما في الأرض...".

لكنـي أنـا مَـن بُحـتُ بالمكنـون في نهايـة المطـاف، قُلـتُ الكلمـة التـي لم أتوقَّـع أن أقولهـا: "مَصَّاصـو دمـاء يـا سـيد لومـلي، أرض چيروسـالِم مأهولَـةٌ بمصَّـاصي الدِّمـاء، أعـرف أنـه يصعـب عليـك اسـتيعاب هـذا..."، كان يُحـدِّق إليَّ كـما لـو كان جِلـدي سـيَخضَرُّ. همـس قائـلًا: "مجنونـان، أنتـما مجنونـان"، ثـم ابتعـد، وكـوَّب يدَيْـه حـول فمـه، ورفـع صوتـه عاليًـا:

"فرانسي! چايني!"، وتعثَّر ثانيةً، حيث اعتلى الثلجُ حاشيةَ معطفه الفاخر.

نظرت لتووكي، "ماذا نفعل الآن؟".

قال تووكي: "اتْبَعْه". غطَّى الثَّلجُ شَعرَ رأسه، وبدا مختلًّا بعض الشيء، "لا أستطيع أن أتركه هنا فحسب يا بووث، أيمكنك أنت؟".

قُلتُ: "لا، أظنُّ لا...".

ثم شرعنا في خوض الثُّلوج في أثر لوملي بأفضل ما في وسعنا، لكنَّه ابتعد أكثر فأكثر قُدُمًا، وكما ترى، كان لديه شبابه كي يُنفِقَه. كان يكسر المسار، خائضًا في الثلوج مثل الثَّور. بدأ يُزعِجني التهابُ المفاصل لدرجَةٍ رَهيبَة، وبدأت أنظر إلى ساقيَّ، وأنا أقول لنفسي: "اقطَعْ مسافةً أكبر، اقطع مسافة أكبر، حُثَّ الخُطى عليك اللعنة، حُثَّ الخُطى".

تكوَّمتُ ناحية اليمين عند تووكي، الذي كان يقف مُنفَرِجَ السَّاقَيْن في الثلج. كان رأسه منكَّسًا، ويداه مضغوطتَيْن على صدره.

قلت: "تووكي، هل أنت بخير؟".

قال وهو يُبعِد يديه: "أنا بخيرٍ، سنبقى معه يا بووث، وحين يشعر بالإرهاق، سيدرك الحقيقة".

ارتقينا مُرتَفَعًا، ووقف لوملي هناك على القِمَّة، يبحث باستماتَةٍ عن المزيد من آثار الأقدام. مسكين، لا فرصة أمامه للعثور عَليهنَّ. عصفت الريحُ مُباشرةً حيث يقف؛ مِمَّا مَحى أي آثار أقدام بعد ثلاثِ دقائق من تكوُّنها، فما بالك بعد بضعة ساعات.

رفع رأسه وصرخ في ظُلمَة الليل:

"فرانسي! چايني! بحقِّ الرَّبِّ!". ويمكنك سماع اليأس والرعب في صوته، فتشفق عليه، والرَّدُّ الوحيد الذي تَلقَّاه كان صوتَ عويل

الريح الشبيه بقطار البضائع، كأنها كانت تسخر منه، قائِلةً: أخذتهم معي أيُّها السيد النيوچيرسي ذو السيارة الفاخرة، والمعطف من شَعر الجِمال، أخذتهم وأخرجتهم عن مساراتهم، وفي الصباح ستصيران أنيقتَيْن ومُتجمِّدَتَيْن مثل حَبَّتَيْ فراولة في الفريزر.

صاح تووكي عبر الرياح: "اسمع، أنت لا تبالي بمصَّاصي الدماء ولا العفاريت، ولا أي شيء من هذا القبيل، لكنَّكَ تبالي بهذا! أنت تزيد الأمور سوءًا عليهما، علينا أن...".

وبعدها جاء الرَّدُّ، صوتٌ قادِمٌ من جوف الظلام مثل أجراس فِضِّيَّة صغيرة رنَّانة، وبرد قلبي مثل الجليد في الصهريج.

"چيري، چيري، أهذا أنتَ؟".

سارع لوملي نحو مصدر الصوت، وبعدها جاءت هي، مُندَفِعَة مثل الشبح من بين الظِّلال الداكنة لشجر الأيك الصغير، كانت سيِّدةً من المدينة، لا بأس، وربما بَدَت وقتئذ أجملَ امرأة وقعت عليها عيناي، شعرت كأني راغب بالذهاب إليها وإخبارها عن مدى امتناني لكونها سليمةً مُعافاةً. كانت ترتدي شيئًا يُشبِه كنزةً صوفيَّة خضراء ثقيلة، أو بُنش، أظنُّ هكذا يُسمُّونها، كان يحوم من حولها، وتَدَفَّق شَعرُها الداكن في الريح العاتية مثل الماء في رافِدِ نَهرٍ ديسمبريٍّ قبل أن يُجمِّدَه صقيع الشتاء ويحبسه بداخله.

ربَّما اتَّخَذتُ خطوةً نحوها بالفعل، لأنِّي شَعرتُ بِيَدِ تووكي على كتفي، خَشِنَة ودافئة، ومع ذلك، كيف يَسَعُني قول هذا؟ تاقت روحي إليها، كانت شديدة الغموض والجمال بهذا البُنش الأخضر الذي يحوم حول رقبتها وكتفيها، فاتنة وغريبة لدرجة تدفعك إلى التفكير في امرأة جميلة من قصيدةٍ للشاعر والتر دي لا مير.

صاح لوملي: "چايني! چايني!"، كان يُعافِرُ مع الريح في طريقه إليها، ومدَّ ذراعيه.

صاح تووكي: "لا! لا يا لوملي!".

لم ينظر حتى، لكنها نَظَرَت، نَظَرَت إلينا وابتَسَمَت، وحين ابتسمت، شَعرتُ بِتَوقي واشتياقي يتحوَّلان إلى رعب بارد برودةَ القبر، وأبيض وساكن مثل العظام في الكفن. من مَوقِعنا على المرتفع رأينا السُّطوعَ الأحمرَ الغاضِبَ في تَينِكَ العينين، كانتا أقَلَّ بشريَّةً من عينَيْ الذِّئب، وحين ابتسَمَت، رأيتُ كم استطالت أسنانها، لم تَعُد بَشريَّةً بعد الآن، باتت شيئًا ميِّتًا انبعثت فيه الحياة بطريقةٍ ما في هذه العاصفة الصَّارِخَة السوداء.

رشم تووكي الصليب على مرآها، فأجفَلَت، وابتَسَمَت إلينا مُجدَّدًا، كُنَّا بعيدين عنها جدًّا، وربما خائِفين جدًّا.

همَستُ: "تَوقَّفْ! ألا يمكننا إيقاف هذا؟".

قال تووكي مُتجهِّمًا: "فات الآوان يا بووث!".

وصل إليها لوملي، بدا هو نفسه مثل الشَّبح، مُغطًّى بالثلج مثلما كان، وصل إليها... ثم شرع في الصراخ. سأظلُّ أسمع هذا الصوت في أحلامي، صرخ هذا الرجل مثل طفلٍ يرى كابوسًا، حاوَلَ التَّراجُع عنها، ولكنَّ ذِراعَيْها، الطويلَتَيْن المُجرَّدَتَيْن البيضاوين مثل الثلج، امتدَّتا وسَحَبتاه إليها. أفلحتُ في رؤيتها وهي تلوي رأسها وتنقضُّ بها... "بووث! علينا الخروج من هنا". هكذا قال تووكي بصوتٍ غليظ.

لذا ركضنا، ركضنا مثل الجرذان، هكذا سيقول البعضُ الذين لم يتواجدوا هناك تلك الليلة. لُذنا بالفرار إلى حيث أتينا، ونحن نتعثَّر، ونقوم ثانيةً، وننزلق ونتزحلق، ظَلَلتُ أَنظر إلى الوراء من فوق كتفي لأرى إن كانت المرأة آتيةً في إثرنا، تبتسم لنا تلك الابتسامة وتُراقِبُنا بتينك العينين الحمراوين.

قلتُ وأنا في أشدِّ خوفي: "تووكي! ماذا...".

قـال: "قلبـي، كان مُعتـلًّا منـذ خمـس سـنوات أو أكـثر، أجْلِسْـني في المقعـد الأمامـي يـا بـووث، وأخْرِجْنـا بحَـقِّ الجحيـم مـن هنـا".

شـبك ذراعًـا مـن تحـت معطفـه، ومـن ثـم سـحبها في الأرجـاء، وبطريقـةٍ مـا رفعهـا إلى الداخـل. أرجـع رأسـه إلى الـوراء وأغمـض عينيـه، كانـت بشرتـه صفـراءَ لهـا مَظهَـرُ الشَّـمع.

هروَلـتُ نحـو غطـاء صنـدوق السـيارة، وكنـتُ عـلى وشـك الركـض نحـو الفتـاة الصغـيرة، كانـت واقِفـةً فحسـبُ بجـوار بـاب السـائق، شَـعرُها مُضفَّـر، لا ترتـدي شـيئًا سـوى فسـتانٍ مائـل للصُّفـرة.

قالـت بصـوتٍ عـالٍ وواضـح وعَـذبٍ مثـل الضبـاب الصباحـي: "سـيدي، ألا تُسـاعِدُني في العثـور عـلى أمـي؟ اختفـت، وأنـا بردانـة جـدًّا".

قلت: "حبيبتي. أَيَا حبيبتي، من الأفضل أن تركبي السيارة، أُمُّكِ...".

انقطـع كلامـي، وإذا مـرَّت عـليَّ مَـرَّةٌ أوشَـكتُ فيهـا عـلى الإغـماء، فسـتكون هـذه هـي اللحظـة، أتـرى، كانـت واقفـةً هنـاك، لكنهـا واقِفَـة عـلى قِمَّـة الثلـج، دون آثـار للأقـدام، لا وجـود لهـا في أيِّ اتجـاه.

تطلَّعَـت إليَّ بعدهـا، فرانـسي ابنـة لومـلي، لم تَعُـد فتاةً في سِنِّ السـابعة بعـد الآن، وسـتظلُّ فتـاةً في السـابعة لِلَيـالٍ أبديَّـة، ابْيَـضَّ وَجهُهـا الصغـير بالابيضـاض الشَّـبحيِّ للجثامـين، عيناهـا حمـراوان وفضِّيَّتـان، قـد تقـع في شركهـما، وتحـت فَكِّهـا تـرى ثُقبَـيْن صغيريْـن يشـبهان وخـزات الإبـر، وحوافُّهـما مُشـوَّهة لدرجـة مُفزِعَـة.

مـدَّت ذراعيهـا إليَّ وابتسـمت، وقالـت برقَّـةٍ: "احملنـي يـا سـيدي، أريـدُكَ أن تعطينـي قُبلَـة، وبعدهـا خُـذني إلى أمِّـي".

لا أريـد ذلـك، ولكـن لا شيء يسـعني فِعلُـه، انحنَيتُ إلى الأمـام، ومَدَدتُ ذراعـيَّ. رأيـت فمهـا ينفتـح، كان بوسـعي رؤيـة النَّابَـيْن الصغيريْـن وراء

شفتيها الورديَّتَيْن. شيء ما يشقُّ ذقنها، لامع وفضِّيٌّ، ولاحظت في رُعبٍ قاتم وبارد وأخّاذ أن لعابها يسيل.

شبَكَت ذراعيها الصغيرتين حول رقبتي، وكنتُ أفكِّر: حسنًا، ربما لن يسوء الأمر لهذه الدرجة، ليس لهذه الدرجة، ربما لن يستفحل بعد فترة. وحين طار شيءٌ ما من داخل سيارة الاستطلاع وخَبَطَها على صدرها، صَدَرَت نفحةٌ من دخان غريب الرائحة، ووميض برّاق اختفى بعد لحظة، ثم تراجَعَت وهي تُهَسهِسُ، التوى وجهُها حتى بات قِناعًا خبيثًا، قوامه الغضب والكراهية والألم. تَنَحَّت جانبًا، ثم.. اختفت. في لحظةٍ كانت موجودةً، وفي اللحظة التالية باتت عُنقودًا ثلجيًّا تَشكَّل في هيئة شبه بشريَّة، ثم نثرتها الرياح بعيدًا عبر الحقول.

همس تووكي: "بووث، أسرِعْ، الآن!".

وقد كان، ولكن ليس بسرعة لا يتسنَّى لي معها الوقت لالتقاط ما قُذِفَ على تلك الفتاة الصغيرة الآتية من الجحيم: نسخة والدته من إنجيل دواي[1].

جرى هذا منذ وقت مضى، ووَهَنَ بصري الآن، وما كنت وقتها جبانًا. هيرب تووكلاندر تُوفِّي منذ عامين، مات في سلام، في الليل. ما زالت الحانة موجودةً، اشتراها رَجلٌ وزَوجَتُه من ووترفيل، أناسٌ لُطَفاء، وأبقوها على حالها لدرجة كبيرة، لكني لا أَمرُّ عليها كثيراً، فقد اختلفت بعض الشيء مع رحيل تووكي.

استمرَّت الأحوال في "الأرض" بشكلٍ كبير على حالها، حيث عثر الشريف في اليوم التالي على سيَّارة ذلك الرجل لوملي، بعدما نَفِدَ منها الوقود، وتوقَّفَت البطارية. لم نتفوَّه أنا أو تووكي بأي كلمة عمَّا حدث، ما الفائدة من هذا؟ وكل حينٍ وآخر، يختفي مسافِرٌ أو مُعَسكِرٌ هناك

---

(1) إنجيل دواي عبارة عن ترجمة للكتاب المقدس من اللاتينية إلى الإنجليزية، أنجزها أعضاء الكلية الإنجليزية في بلدة دواي الفرنسية (المترجم)

في الأرجـاء، أعـلى تَلَّـة فنـاء المدرسـة، أو بالخـارج عـلى قُـربٍ مـن مقـبرة تلَّـة هارمـوني، سـيقلبون حقيبـةَ الرجـل أو كتابًـا ورقيًـا منفوشًـا ومُبيَضًّـا بفعـل المطـر أو الثلـج، أو هكـذا أمـور، دون النظـر إلى البـشر.

مـا زالـت تـراودني كوابيـس عـن هـذه الليلـة العاصفـة التـي خرجنـا فيهـا إلى هنـاك، لم تكُـن عـن المـرأة بقـدر مـا كانـت عـن الفتـاة الصغـيرة، وطريقـة ابتسـامها حـين رفعـت ذراعيهـا حتـى أحملهـا، وأمنحهـا قُبلَـةً. لكنـي رجـلٌ عجـوزٌ وسـيحين وقـت انقضـاء الأحـلام قريبًـا.

قـد تأتيـك فرصـةُ السـفر إلى جنـوب مايـن في واحـدة مـن تلـك الأيـام، بقعـة جميلـة مـن الريـف، ربمـا تتوقَّـف عنـد بـار تـووكي مـن أجـل شراب، مـكان لطيـف، أبقـوا الأسـماء عـلى حالهـا؛ لـذا احتَـسِ شرابَـك، وبعدهـا أنصَحُـكَ بالاسـتمرار في التَّوجُّـه شـمالًا، وأيًّـا كان مـا تفعلـه، لا تتَّخِـذ هـذا الطريـق المـؤدِّي إلى أرض چيروسـالِم.

وليس بعد حلول الليل بالذات.

هنـاك فتـاة صغيرة في مـكانٍ مـا بالخـارج، وأظـنُّ أنهـا مـا زالـت تنتظـر مَـن يُقبِّلهـا ليتمنَّـى لهـا ليلـة سـعيدة.

مكتبة
t.me/t_pdf

السَّيِّدة في الغُرفَة

السؤال هو: هل يستطيع لذلك سبيلًا؟

إنـه لا يعـرف، بينـما يعـرف أنهـا تَمْضُغُهـم عـلى الـدَّوام، ووجهها يتغضَّـن مـن مـرارة طعـم البرتقـال، ويصـدر مـن فمهـا صـوتٌ مثـل صـوت تَشَـقُّق عصـا المصَّاصـة المُثلَّجـة، لكـن هـذه حبـوب مختلفـة، كبسـولات چيلاتينيـة، مكتـوب عـلى العلبـة مـن الخـارج "مُركَّـب دارفـون"، عثر عليها في خزانـة أدويتها وأخذهـا وقلبهـا بـين يديـه وهـو يفكِّـر. دواء وصَفَـه لها الطبيـب قبـل عودتها إلى المستشـفى، دواء لأجـل الليـالي المنصرمـة. خزانـة الأدويـة مليئـة بالعلاجـات، مصفوفـة بعنايـة مثـل عقاقـير طبيـب معالـج مـن الڤـودو. تعويـذة العـالم الغـربي. قوالـب لبـوس فليـت، لم يسـتخدم قوالـب اللبـوس قَـطُّ في حياتـه، وكانـت تَسـوؤه فكـرةُ وَضـعِ شيءٍ شَـمعيٍّ في فتحـة شرجـه مـن أجـل خفـض درجـة حـرارة الجسـم. لا كرامـة تسـتقيم مـع حـشر أشـياء في مؤخِّرَتِـكَ، حليـب مغنيسـيا فيليبـس، تركيبـة آناسـين

آرتيراتيس لتسكين الآلام، ببتو- بسيمول، والمزيد، استطاع أن يتتبَّع رحلة مَرَضِها من خلال الأدوية.

لكن هذه الحبوب مختلفة، تشبه حبوب الدارفون المعتادة، وهذه المرة في هيئة كبسولات چيلاتينية رمادية، لكنها أكبر حجمًا، والتي اعتاد والدها الراحل أن يطلق عليها "القضبان الذكرية الضَّخمَة"، مكتوب على العلبة: "إسبرين 350 جرام"، "دارفون 100 جرام"، وهل يمكنها أن تمضغهم حتى إذا أوكِلَ إليه أن يعطيها إيَّاهم؟ هل يمكنها؟ ما زال المنزل يَعجُّ بالحياة، والثلاجة تعمل ثم تتوقَّف، ونظام التدفئة يباشر عمله وينهيه، ومن حين لآخر يخرج طائِرُ الوقواق غاضبًا من قلب الساعة ليعلن عن مرور ساعة أو نصف ساعة. يفترض أنه بعد وفاتها ستؤول مسؤوليَّة ترتيب المنزل إليه وإلى كيڤين. حسنًا، لقد رحلَت، المنزل بأكمله شاهِدٌ على ذلك. إنها في مستشفى ماين المركزي، في مدينة لويستون، في الغرفة 312، ذهبت بعدما اشتدَّ عليها الألم، ولم تَعُد تتوجَّه إلى المطبخ لِتُعِدَّ قهوتها، وفي بعض الأوقات حين كان يزورها، كانت تصرخ دون أن تدرك ذلك.

يَئِنُّ المصعد في أثناء صعوده، ويجد نفسه يعاين شهادة المصعد الزرقاء، أعلنت الشهادة بكل وضوح أن المصعد آمِنٌ، سواء مع الأنين أو دونه. تواجَدَت هنا منذ قرابة الثلاثة أسابيع، واليوم أجريت لها عملية جراحية تُدعى "كطع الحبل الشوكي[1]"، إنه غير متأكِّد إذا كان هذا نُطقها الصحيح، لكن هكذا يبدو وقعها على الأذن.

أخبرها الطبيب أن عملية "كطع الحبل الشوكي" تُجرى عن طريق إدخال إبرَةٍ عبر الرَّقبة وصولًا إلى مُخِّها. قال لها الطبيب إن هذا

(1) يقصد (قطع الحبل الشوكي) لكنه ينطقها طوال القصة بطريقة خاطئة لعدم درايته بالنطق الصحيح، حيث كان ينطقها Cortotomy بينما النطق الصحيح للكلمة Cardotomy وهو ما روعى خلال ترجمة الكلمة إلى اللغة العربية (المترجم)

يشبه وَخزَ دَبُّوس في برتقالةٍ وطعن بِذرَةٍ في الداخل، وحين تلكز الإبرَةُ مَركزَ الألم لديها، ستُرسل إشارةً لاسلكية إلى طرف الإبرة، ومن ثمَّ القضاء على مركز الألم، كمثل نزع القابس عن التلفاز، وبعدها سيتوقَّف السرطان في معدتها عن إزعاجها.

تجعله فكرة هذه العملية الجراحية غيرَ مرتاح أكثر من عدم ارتياحه للذَّوبان الدافئ لقوالب اللبوس في فتحة شرجه، وتدفعه للتفكير في روايةٍ للكاتب مايكل كرايتون تُدعى "رجل الطرف الكهربائي" التي تحكي عن زرع الأسلاك في أدمغة البشر، فوفقًا لكرايتون، يُمكِن لهذا أن يتحوَّل إلى مشهدٍ سيِّئ، ويُفضِّل أن تصدق هذا.

ينفتح باب المصعد في الدور الثالث، ويخرج منه. هذا هو الجناح القديم للمستشفى، وتبدو رائحته مثل الرائحة الحلوة لنشارة الخشب التي تُرَشُّ فوق آثار القيء في معرض في المقاطعة، ترك الحبوب في حُجَيرة القُفَّازات في سيارته، ولم يشرب أي شراب قبيل هذه الزيارة.

الجدران هنا ثنائيَّة الطبقات: بُنِّيَّة في الأسفل، وبيضاء في الأعلى، يفكِّر أن هذا المزيج ثنائيَّ الطبقات قد يغدو أكثر إثارة للإحباط في العالَم بأَسرِه حين يتحوَّل من البُنِّيِّ والأبيض إلى الزَّهري والأسود. ممرَّات المستشفى تشبه حبَّات حلوى "جود آند بلنتي" عملاقة. تدفعه هذه الفكرة للابتسام والشعور بالانزعاج في الوقت ذاته.

التقى ممرَّان في شكل حرف "T" أمام المصعد، وتوجد هناك نافورة لشرب الماء حيث يعتاد على الدوام أن يتأنَّى قليلًا. توجد أجزاء من مُعِدَّات المستشفى مُتناثِرَة هنا وهناك، مثل ألعابٍ غريبة في الملعب. نقَّالة ذات أطراف من الكروم مع عجلات مطَّاطيَّة، ذلك الشيء الذي يستخدمونه من أجل نَقلِكَ إلى "غرفة العمليات" حيث يستعدُّون لإجراء عملية "كطع الحبل الشوكي" عليك، يوجد شيءٌ سَيَّارٌ كبير لا يُعرف له غرضٌ، يبدو مثل العجلات الموجودة في أقفاص السناجب،

وتوجد حمَّالة أنابيب وريديَّة مع عبوتَّيْن تتدليَّان منها، تشبهان حلم سلڤادور دالي بالأثداء، وتحت أحد الممرَّيْن غرفة الممرِّضات، حيث يتناهى إلى سَمعِه الضحكات التي تثيرها جولات القهوة.

يحصل على شرابه، ثم يمشي الهوينى إلى غرفتها، يخاف ممَّا قد يجده هناك، ويأمل أن تكون نائِمةً، وإذا كانت نائمة، فلن يوقظها.

يوجد مصباحٌ مُربَّعٌ صغير فوق باب كل غرفة، حيث يضيء المصباح متوهِّجًا باللون الأحمر حين يضغط المريض على زِرِّ الاستدعاء. يسير المرضى بإيقاعٍ بطيء ذهابًا وإيابًا في الردهة، مُرتَدين أرواب المستشفى الرخيصة فوق ملابس المستشفى الداخلية، وكان على الأرواب أشرِطَةٌ رفيعة زرقاء وبيضاء مع ياقات مستديرة، يطلقون على الملابس الداخلية للمستشفى "چوني"، تبدو ألبسة الـ "چوني" ملائِمَة للسيدات، وغريبة تمامًا على الرجال لأنها تشبه قمصانًا تَحتيَّةً أو فساتين واصِلَةً حتى الرُّكبة، ويبدو أن الرجال يرتدون دائمًا نِعالًا بُنِّيَّةً من الجلد الصناعي، تُفضِّل السيدات النعال المُحاكة مع كُراتٍ من الغزل فوقها. لدى والدته زوجان منهما، وتطلق عليهما "البغلين".

يُذكِّره المرضى بفيلم رعب يُدعَى "ليلة الموتى الأحياء[1]". كلهم يسيرون ببطء، كأن شخصًا ما فَكَّ غطيان أعضائهم الحيوية مثل برطمانات المايونيز، حيث تتدفَّق السوائل بالداخل. بعضهم يستخدمون العِصِيَّ، مشيتهم البطيئة كأنهم يتنزهون ذهابًا وإيابًا في الردهة مُخيفَة، لكنها أيضًا مَهيبة. إنها مِشيَةُ الأشخاص المتباطئين غير الذاهبين إلى أي مكان، مِشيَة طلَّاب الكُلِّيَّة وهم مرتدون القلنسوات والعباءات ومتوافدون على قاعة حفل التخرُّج.

(1) فيلم شهير للمخرج والكاتب الأمريكي الراحل جورج إي روميرو، والذي بات واحدًا من أشهر أفلام الزومبي في تاريخ السينما (المترجم)

تتدفَّق الموسيقى الهيوليَّة الخارجية في كل مكان من راديوهات الترانزستور، وتصدر الأصوات كالخرير، حيث يسمع فريق بلاك أوك آركنساس وهم يُغنُّون أغنية چيم داندي (يصرخ صوتٌ عالي الطبقة بابتهاج في المشَّائين البطيئين في الرَّدهَة بجملة "هيا يا چيم داندي، هلُمَّ يا چيم داندي"). يسمع مُقدِّم برنامجٍ حواريٍّ وهو يحاور نكسون بنبرة صوتٍ مغموسة بِحِسٍّ لاذع مثل الريشات المحترقة. يسمع أغنية بولكا راقصة بكلمات فرنسية، ما زالت لويستاون بلدةً ناطِقةً بالفرنسية حيث يحبُّون حركاتهم الراقصة وتمايُلاتِهم بقدر حُبِّهم لانغماسهم مع حبِّهم البعض في حانات شارع لاور لشبون.

يتوقَّف خارج غرفة والدته، ولفترةٍ شَعَرَ بما يكفي من الذُّعر على دخوله سكرانَ، وجعله السُّكْر يشعر بالخِزي أمام أُمِّه رغم كونها مُخدَّرة بالكامل، ومُشبعة بعقار إيلافيل، وإيلافيل عبارة عن مُهدِّئ يُعطَى لمرضى السرطان حتى لا ينزعجوا كثيراً من فكرة موتهم.

كان يَسكَر عن طريق شرائه اثنتي عشرة علبة من بيرة بلاك ليبل من متجر سوني في فترة بعد الظُّهر، ويجلس مع الأطفال ليشاهد برامجهم المُذاعَة بعد الظُّهر على التلفاز: ثلاث علب بيرة بمصاحبة "شارع سمسم"، وعلبتي بيرة مع برنامج "السيد روجرز"، وعلبة واحدة بصُحبَة برنامج "الرُّفقة المتألِّقَة"، ثم علبة مع العشاء.

أخذ معه عُلَب البيرة الخمس المتبقِّية في السيارة. قاد بالسيارة مسافَةَ اثنين وعشرين ميلًا من رايموند إلى لويستاون، عبر طريقي 302 و202، وكان من الممكن أن تظلَّ في الحقيبة مع وصوله إلى المستشفى، مع علبة بيرة أو اثنتَيْن متبقيِّتَيْن. كان يحضر أغراضًا لأُمِّه ويتركها في السيارة حتى يصير لديه عُذرٌ ويشرب نصف علبة بيرة، محافظًا على مستوى الثُّمالة.

أعطاه ذلك عُذرًا كي يتبوَّل في الخارج، وبطريقة ما كان هذا أفضل شيء في هذا الشأن المثير للشَّفقة، كان يركن سيَّارته دائمًا في المساحة الجانبية المليئة بالأخاديد والقاذورات النوفمبريَّة المتجمِّدة، وعَزَّز الهواءُ الليليُّ البارِدُ من التَّقلُّص التام للمثانة. كان التَّبوُّل في أحد مراحيض المستشفى بمثابة تكليلٍ لتجربة المستشفى برُمَّتها: زِرٌّ استدعاء الممرضة وراء الصفيحة المصرِّفة، ومقبض الكروم مثبَّت بزاوية 45 درجة، وزجاجة المطهِّر الوردي فوق الحوض. الخبر السيِّئ أنه يجب عليك تصديق هذا.

لم تتولَّد لديه رغبة في الشُّرب خلال العودة للمنزل؛ لذلك تُجمع علب البيرة المتبقِّية في صندوق الثلج، وحين يصير عددهم سِتًّا، فلم يكن ليأتي أبدًا إذا كان يعرف أن الأمر سيسوء هكذا. أول فكرة تمرُّ في باله: لم تصر بشرتها برتقالية، أما الفكرة الثانية: أنها بالفعل تحتضر الآن، كأن عليها اللحاق بقطار هناك في العدم، كانت مُجهدَةً في الفراش، ولا شيء فيها يتحرَّك سوى عينَيْها، ومع انحباسها داخل جسدها، تحرَّكَ بداخلها شيءٌ ما. تلطَّخَت رقبتها باللون البرتقالي بمادَّةٍ تُشبه المركيروكروم، وتوجد ضِمادَةٌ تحت أذنها اليسرى حيث وضع طبيبٌ هُمامٌ إبرةً لإرسال الإشارات، مثبِّطةً 60% من مراكز التَّحكُّم النَّشِطة مع مركز الألم. تتبعه عيناها مثل يسوع مرسوم في لوحة تقليدية.

- لا أظن أنه من الأفضل أن تراني الليلة يا چوني، لستُ في أحسن حال، ربما غدًا سأصير أفضل.
- ما الخطب؟
- أشعر بالوخز، وخز في أرجاء جسدي كافة، هل ساقاي مضمومتان؟

لـن يسـتطيع أن يـرى إن كانـت سـاقاها مضمومتـين، فهـما مَرفوعتـان علـى شـكل حـرف "V" تحـت مُـلاءة المستشـفى المضلَّعـة. الجَـوُّ شـديد الحـرارة في الغرفـة، ولا يوجـد أحـدٌ عـلى السريـر الآخـر الآن.

كان يفكِّـر: رفـاق الغرفـة يأتـون ويذهبـون، لكـن أمـي باقيـة إلى الأبـد، يـا للمسـيح!

- مضمومتان يا أمي.
- أنزلِهـما، مــن فضلــك يــا چــوني، وبعدهــا يُفضَّــل أن تذهــب، لم أكـن في وضعيَّـةٍ مثـل هـذه مـن قبـل، لا أسـتطيع تحريـك أي شيء، أنفـي يَخِـزُني، أليـس أمـرًا بائسًـا أن يَخِـزَكَ أَنفُـكَ ولا تسـتطيع أن تَحكَّـه؟

يحـكُّ لهـا أنفهـا، ثـم يمسـك ربلَتَـيْ سـاقَيْها من فـوق الملاءة ويسـحبهما إلى الأسـفل، يسـتطيع أن يضـع يـدًا واحـدة حـول ربلتيهـا دون مشـكلة عـلى الإطـلاق، رغـم أن يَدَيْـه ليسـتا كبيرتَـيْن عـلى نحـوٍ استثنائيٍّ، تأوَّهـت، وجَـرَت الدمـوع عـلى خدَّيهـا وصـولًا إلى أذنيهـا.

- ماما؟
- أيمكنك أن تُنزل ساقيَّ؟
- أنزلتهما بالفعل
- آه، طيِّــب، أظـنُّ أني أبـكي، لا أقصـد أن أبــكي أمامَــكَ، أتمنَّــى لــو أخــرج مــن هــذا، ســأفعل أي شيء للخــروج مــن هــذه الحالــة.
- أتَودِّين سيجارة؟
- أيمكِنُـكَ أن تُحـضر لي كـوبَ مـاء أولًا يـا چـوني؟ أشـعر بالجفـاف مثـل رقاقـة قديمـة.
- طبعًا.

يأخذ كوبها المحتوي على شفَّاطَةٍ مَرِنَة نحو نافورة مياه الشرب، ويجوب الممرَّ ببُطءٍ رَجلٌ بدينٌ على ساقه ضِمادَةَ لَدِنَة، لم يكن مرتديًا أيًّا من الأرواب المُقلَّمة، ويحمل خلف ظهره "چوني" مُغلَّفًا.

ملأ الكوب من النافورة وعاد بها ثانية إلى الغرفة رقم 312. توقَّفَت عن البكاء، التقطت شَفَتاها الشَّفَّاطة بطريقة ذكَّرته بالجِمال التي رآها في أفلامٍ عن الرحلات. وجهها هزيل. أكثر ذكرى حاضرة في ذهنه بخصوصها في الحياة التي عاشها بوصفه ابنَها حين كان في سِنِّ الثانية عشرة، كان قد انتقل هو وشقيقه كيڤن وهذه السيدة إلى ماين حتى تتمكَّن من العناية بوالِدَيْها، أمُّها سيدة عجوز وطريحة الفراش.

أصاب ضَغطُ الدَّمِ العالي جَدَّته بالخَرَف، وما زاد حالتها سوءًا أنه تَسبَّب في فقدان بصرها، عيد ميلاد سادس وثمانين سعيد. ها هي ضربة أخرى، راقدة في فراش طوال اليوم، عمياء وخَرِفَة، مرتدية حفَّاضاتٍ ضَخمةً وبنطال مطَّاطي، غير قادرة على تذكُّر ماذا أكلت على الإفطار، لكنها قادرة على ترديد أسماء جميع الرؤساء وصولًا إلى "آيك". وهكذا عاش أبناء ثلاثة أجيال في هذا المنزل الذي عثر فيه مؤخَّرًا على الحبوب (رغم أن جدَّه وجدته ماتا منذ زمن بعيد)، وفي سِنِّ الثانية عشرة، كان يتحدَّث دون ضابِطٍ ولا رابط حول شيء ما على مائدة الإفطار، ولا يتذكَّر ماهيَّته، لكنه كان شيئًا ما، ووالدته كانت تغسل حفَّاضات والدتها المتَّسِخَة، وبعدها تضعهم في العصَّارة في غسَّالتها القديمة، واستدارت نحوه وألقت عليه واحدةً منهم، وقد أقلقت أوَّلُ خَبطَةٍ من الحفَّاضة الثقيلة المُبلَّلة سكونَ صحن رقائق ذُرة "سبشيال كي"، ودفعته للدوران بجموح عبر المائدة مثل لعبة تيدليوينك زرقاء كبيرة، وسحَقَت الضَّربةُ الثانية ظهره، لم تكن مُؤلِمةً، وإنما أذهلته عن الكلام الموزون الخارج من فمه، ضربته هذه السيدة المنكمشة في رقادها في هذا الفراش في هذه الغرفة ثانيًا

وثالثًا، وهي تقول له: أغلِقْ فمك الكبير الآن، لا شيء كبيرٌ فيك الآن سوى فمك؛ لذا أغلِقْه إلى أن ينمو جسمك كله على نفس مقاسه، وكل كلمة مكتوبة بخطٍّ مائل تصاحبها ضربة بحفَّاضَةِ جَدَّتِه المُبلَّلة! طاخ! وهكذا تَبخَّر أيُّ كلام حاذق تَوَجَّب عليه قولُه، لا مكان في العالم للكلام الحاذق. اكتشف في هذا اليوم وإلى أبد الآبدين أنه لا توجد وسيلة أكثر كمالًا في هذا العالم من الضرب على الظهر بحفاضة مُبلَّلة للجَدَّة في مواجهة إدلاء صبيٍّ في سن الثانية عشرة بانطباعه عن موقعه في منظومة الأشياء في صورة وجهَةِ نَظَرٍ ملائمة. استغرقه الأمر أربع سنوات من بعد هذا اليوم كي يتعلَّم من جديد فنَّ التَّذاكي.

شَرَقت بعض الشيء بعد شُربِ قليلٍ من الماء، وما يخيفه أكثر أنه فكَّر في إعطائها الحبوب، يسألها ثانية إذا كانت ترغب في سيجارة، وقالت:

- إذا لم يكن في الأمر مشكلة، فمن الأفضل أن تذهب، ربما سأتحسَّن في الغد.

يُخرِجُ علبة سجائر كوول من أحد الأكياس المبَعثَرة على الطاولة عند سريرها، ويشعل سيجارة، يحملها بين الأصبعين الأولى والثانية في يده اليمنى، وتأخذ منها نَفَسًا، وتمدُّ شَفَتيْها لتضع الفلتر بينهما. تُدخِّن بطريقة واهنة، وينسرب الدخان من بين شفتيها.

- تحتَّم عليَّ أن أعيش ستين عامًا حتى يمسك ابني السيجارة من أجلي.

- لا أمانع ذلك.

تأخذ منها نَفَسًا ثانيًا، ويحمل لها الفلتر عند شفتيها لوقتٍ طويل حتى إنه يشيح ناظريه عنها ويتطلَّع إلى عينيها ويراهما مغمضتين.

- ماما؟

تنفتح العينان قليلًا بنظر غائم.

- چوني؟

حسنًا.

- منذ متى وأنت هنا؟

- ليس منذ وقت طويل، عليَّ الذهاب، سأدَعُكِ تنامين.

- هنننننن.

يتشـمَّم رائحـة السـيجارة في منفضتهـا، وينسـلُّ خلسَـةً مـن الغرفـة، وهـو يفكِّـر:

أريـد التحـدُّث مـع ذلـك الطبيـب، اللعنـة، أرغـب في التحـدُّث مـع الطبيـب الـذي فعـل ذلـك.

حـين وصـل إلى المصعـد، يتفتَّـق ذهنـه عـن كـون كلمـة "طبيـب" تصبح مُرادِفَـةً لكلمـة "إنسـان" بعـد الوصـول إلى درجـة مُعيَّنـة مـن البراعـة في هـذه المهنـة، كـما لـو بـات مـن المنتظـر بشـكل مُسـبَقٍ مـن الأطبَّـاء أن يصـيروا قُسـاةَ القلـوب، وبالتـالي عليهـم الوصـول لدرجـة خاصَّـة مـن الحِـسِّ الإنسـاني.

يقـول لشـقيقه لاحقًـا هـذه الليلـة: "لا أظـنُّ أنهـا تسـتطيع حقًّـا الصمـود لوقـتٍ أطـول". يعيـش شـقيقه في أندوفـار، عـلى بُعـد سـبعين ميـلًا غربًـا، ويذهـب إلى المستشـفى مـرَّةً أو مرَّتَـين في الأسـبوع فقـط.

سأل كيف: "ولكن هل خَفَّت آلامها؟".

"تقول إنها تشعر بالوخز".

لديـه الحبـوب في جيـب سُـترَتِه، وزوجتـه نائمـة في طمأنينـة. يخرجهـم مـن مَكمَنِهـم، غنيمـة مسـلوبة مـن منـزل والدتـه الخـاوي، حيـث عاشـوا

جميعًا ذات يوم مع جدودهم. يُقلِّب العلبة مرَّةً تِلوَ المرة في يده في أثناء حديثهما مثل قدم الأرنب.

"حسنًا إذن، فقد تحسَّنَت صِحَّتُها".

كل شيء أفضل في عيون كيف، كما لو كانت الحياة تتحرَّك نحو ذروةٍ عُظمَى، إنها رؤية لا يتشاركها الشقيق الأصغر.

"إنها مشلولة".

"هل يهمُّ الأمر في هذه المرحلة؟".

يقول مُنفَعِلًا وهو يفكِّر في ساقيها تحت الملاءة البيضاء المُضلَّعة: "بالطَّبع يهمُّ".

"چون، إنها تحتضر".

"لم تَمُت بَعدُ"، وهذا ما يخيفه في الحقيقة، ستدور المناقشة في حلقات مفرغة بدءًا من هذه النقطة؛ ممَّا يعود بالأرباح على شركة الهاتف، لكن هذه هي العُقدَة. لم تَمُت بعدُ، بل راقدة فحسب في تلك الغرفة مع شريطة تعريفية في المستشفى حول معصمها، مستَمِعَة إلى إشارات لاسلكية شَبَحيَّة تروح وتجيء في الرَّدهَة، ويقول الطبيب إنها ستعاني في سبيل إدراك عامل الزمن، رجلٌ كبير له لحية حمراء رمليَّة اللون، يبلغ طوله سِتَّ أقدام وأربع إنشات، وكتفاه ضخمتان. أخذه الطبيب بلباقة إلى الخارج نحو الرَّدهة حين بدأ يغلبها النعاس.

يواصل الطبيب حديثه:

- أترى، لا يمكن اجتناب بعض الخَلَل في الوظائف الحركية في عملية على غِرار "كطع الحبل الشوكي"، والدتك تنعم ببعض الحركة في يدها اليسرى الآن، ومن المتوقَّع أن تتعافى يدها اليمنى بقدرٍ معقول في فترةٍ تتراوَحُ من أسبوعين لأربعة أسابيع.

- هل ستمشي على قدميها؟

ينظر الطبيب مُتروِّيًا إلى سقف الممر المُطعم بالفِلّين. لحيته زاحفة حتى ياقة قميصه الكاروهات، ولسببٍ سَخيفٍ، يفكِّر چوني في ألجرنون سوينبرن، دون إدراكٍ للسَّبَب، يقف هذا الرجل على النقيض من سوينبرن المسكين في كل منحى.

- عليَّ أن أقول لا، فقد تراجَعَت حالتها.

- ستصير طريحةَ الفراش بقيَّةَ حياتها؟

- أظنُّ أن هذا افتراض قائم، نعم.

يبدأ في الشعور ببعض التقدير نحو هذا الرجل الذي تمنَّى أن يصير مكروهًا دون خسائر، أَمِنَ الحتميِّ شعوره بالانسجام مع هذه الحقيقة البسيطة؟ ثمَّة اشمئزازٌ رَديفٌ لهذا الشعور.

- إلى متى ستعيش على هذا النحو؟

- يصعب القول (هكذا أفضل)، فالوَرَمُ يعترض إحدى كليَتَيْها الآن، والأخرى تعمل على ما يرام، وحين يعترضها الورم، ستخلد إلى النوم.

- غيبوبة بسبب تَبَوْلُنِ الدَّمِ؟

- نعم.

هكذا قال الطبيب بحَذَرٍ أقلَّ، فـ "تَبَولُن الدم" مُصطَلَحٌ مُتخصِّص في علم الأمراض مقصورٌ استخدامه على الأطباء المعالجين والأطباء الشرعيين، لكن چوني يعرف هذا لأن جدَّته تُوفِّيَت بنفس المرض، رغم عدم وجود سرطان، حيث توقَّفَت كُليَتاها ببساطةٍ عن العمل، وماتت من انتشار البول داخل جسدها وصولًا إلى القفص الصدري. ماتت في الفراش، في المنزل، في موعد العشاء. كان چوني أوَّلَ شَخصٍ شَكَّ أنها ماتت حقًّا هذه المرة، ولا ترقد فقط في سُباتٍ مع انفتاح

فمها على طريقة العجائز. شَقَّت دمعتان طريقهما بصعوبة خارج عينيها، وانفتح فمُها الخالي من الأسنان على مصراعيه؛ ممَّا ذَكَّره بثمرة طماطم جوفاء، ربما لتُحشى بسلطة البَيض، ثم تُرِكَت مَنسيَّةً على رف المطبخ لبضعة أيام. حمل مرآةَ تجميل مستديرة قبالة فمها لمدة دقيقة، وحين لم يتكوَّن ضباب على الزجاج ليخفي صورة فَمِها الطماطمي، نادى على والدته، بدا كل هذا سليمًا على قدر ما فيه من خطأ.

- قالت إنها ما زالت تتألم، وتشعر بالوخز.

يطرُقُ الطبيب رأسه بجدِّيَّة مثل ڤكتور دي جروت في الرسوم الهزلية القديمة عن الطبيب النفسي.

- إنها تتخيَّل الألم، لكنه حقيقيٌّ رغم هذا، حقيقيٌّ بالنسبة لها؛ لهذا فالوقت عامِلٌ بالِغُ الأهمِّيَّة، لم تَعُد والدتك تدرك الوقت كثوانٍ ودقائق وساعات، بل وتعيد صياغة هذه الوحدات حتمًا في صورة أيام وأسابيع وشهور.

يستوعب ما قاله له هذا الرجل الضخم الملتحي، وهو ما يُحيِّره. يَدقُّ جَرسٌ بخِفَّةٍ، لن يستطيع الاستمرار في الحديث مع هذا الرجل، يا له من رجل تقنيٍّ، يتحدَّث بسلاسة عن الوقت، كأنه التقط الفكرة بنفس سهولة استخدام صنارة الصيد. ربما كان كذلك.

- ألا يمكنك فِعلُ أي شيء لأجلها؟

- القليل جدًّا.

لكنه تعامل بهدوء، كما لو كان على صواب، فهو على أي حال "لا يقدِّم أملًا زائفًا".

- أيمكن أن يسوء الحال عن الغيبوبة؟

- بالطبع يمكن، لا نستطيع تحديد تلك الأمور بأي مستوى فعليٍّ من الدِّقَّة، فالمسألة تشبه وجود سمكة قرش طليقة في دمائك، فقد تصاب بالانتفاخ.

- انتفاخ؟

- قد تتضخَّم بَطنُها، وبعدها تهبط، وبعدها تتضخَّم مرة أخرى.

ولكن لِمَ الإسهاب حول هذه الأمور الآن؟ أظنُّ أنه من الآمِنِ القول إن الحبوب ستتكفَّل بالمَهمَّة؟ ولكن لنفترض أنها لم تؤدِّ مَهمَّتها؟ أو لنفترض أنهم ضبطوني؟ لا أريد الذهاب إلى المحكمة بتُهمَةِ القتل الرحيم، حتى ولو أفلتت من العقاب، ليست لديَّ أسبابٌ تجعلني مظلومًا. فكَّر في العناوين الرئيسة للصحف الصارخة والمتجهمة بعبارة: قاتِلُ أُمِّه.

في أثناء جلوسه في المرآب، قلَّب العُلبَةَ بين يديه مرَّةً تِلوَ المرة، تركيبة دارفون. ما زال السؤال القائم: هل يستطيع لذلك سبيلًا؟ أيجب عليه؟ قالت: أتمنَّى لو أخرج من هذا، سأفعل أي شيء للخروج من هذه الحالة، يتحدَّث كيڤن عن تجهيز غرفة لها في منزله حتى لا تموت في المستشفى، والمستشفى تريد تسريحها. أعطوها بعض الحبوب الجديدة، وباتت في حالة انزعاج بالِغ. جرى هذا بَعدَ أربعة أيام من "كطع الحبل الشَّوكي"، أرادوا منها التواجد في مكانٍ آخر لأنه لم يتمكَّن أحدٌ بعدُ من "استئصال الخلايا السرطانية" بطريقَةٍ آمِنَة. وعند هذه المرحلة، إذا تمكَّنوا من استئصالها جذريًّا، لن يتبقى لها سوى رأسها وساقيها.

كان يفكِّر في كيفيَّة سريان الوقت من منظورها، مثل شيء خارج عن السيطرة، مثل علبة خياطة مليئة ببكرات الخيوط المتساقِطَة على الأرضية كلها حتى يلهو بها قِطٌّ ذكرٌ وضيع. أيام في الغرفة 312، وليال في الغرفة 312. وضعوا وَصلَةً من زِرِّ الاستدعاء إلى سبَّابتها

اليسرى لأنها لم تَعُد قادِرةً بعد الآن على تحريك يدها بما يكفي للضغط على الزِّرِّ إذا ارتأت أنها تحتاج إلى حاوية قضاء الحاجة.

لم يَعُد الأمر فارقًا بعد الآن لأنها لا تستطيع الإحساس بالرغبة في قضاء الحاجة، وربما صار وسط جسدها أشبهَ بكومة من نشارة الخشب، تتحرّك أحشاؤها في الفراش وتتبوّل في الفراش ولا تدرك ذلك إلا حين تشمُّ الرائحة فقط. انخفض وزنها من 150 باوند إلى 91، وباتت عضلات جسدها بلا أوتار، حتى صار مُجرَّد كيس رخو مربوط بمُخِّها مثل دمية طفولية تُلبس في اليد، هل يفرق هذا في نظر كيڤ؟ أيمكنه أن يقترف جريمة قتل؟ يعلم أنها جريمة قتل، بل أسوأ جرائم القتل، قتل الأم، كما لو كان جنينًا واعيًا في قصة رُعبٍ مُبكِّرة كتبها راي برادبوري، ينوي قلب الطاولة ويقتل الحيوان الذي منحه الحياة. ربما الخطأ خطؤه من الأساس، إنه الطفل الوحيد الذي نما في أحشائها، طفل غيَّر حياتها. شقيقه جاء بالتبنِّي بعدما أخبرها طبيب مُبتَسِمٌ آخَرُ أنَّها لن تحظى بأطفال آخرين من صُلبِها، وبالطبع، نشأ السرطان لديها في الرحم مثل طفلٍ ثانٍ، توأمه الشرير، حياته وموتها بدأتا في نفس الموضع، ألا ينبغي عليه أن يُقدِم على فِعل ما يفعله الجنين الآخر فعليًّا ببطء ودون براعة؟

كان يعطيها أقراص الأسبرين خفيَةً عن الأعين لتسكين الألم الذي تتخيَّل وجوده، كانت تحتفظ بها في علبة أقراص استحلاب سوكرتز في درج طاولتها في المستشفى مع بطاقات التَّمنِّي بالشفاء ونظّارتها للقراءة التي لم تَعُد مُجدِيَةً، وانتزعوا منها طاقم أسنانها لأنهم خافوا أن تسحبه نحو حلقها فتختنق به؛ لذا فهي الآن تَمصُّ الأسبرين ببساطة حتى ابيَضَّ لسانها.

بالطبع يستطيع أن يعطيها الحبوب، ستكفي ثلاث حبوب أو أربع، أربعمائة حَبَّة أسبرين وأربعمائة حبَّة دارفون أُعطِيَت لإمرأة انخفض وزنها بنسبة 33% على مدار خمسة أشهر.

لا أحد يعرف أن الحبوب بحوزته، لا كيڤن، ولا زوجته. يظن أنهم ربما وضعوا شخصًا آخر على السرير المقابل في الغرفة 312، ولن يتحتَّم عليه القلق حيال هذا، يمكنه الإفلات بسلامٍ، يتساءل إذا كان من الأفضل حقًّا وجود سيدة أخرى في الغرفة، ستتبخَّر خياراته المتاحة، ويعتبر المسألةَ مُجرَّد يَدٍ إلهية، أو هكذا يفكر.

- تبدين أفضل الليلة.

- حقًّا؟

- بالطبع، كيف تشعرين؟

- آه، ليس بخير حال، لستُ على ما يرام الليلة

- دعيني أَرَكِ وأنتِ تُحرِّكين يَدَكِ اليُمنى.

ترفعها خارج اللحاف، تطوف بأصابع منفرِجَة أمام عينيها للحظة، ثم تسقط، ترتطم، ويبتسم فتُبادِلُه الابتسام، ويسألها:

- هل رأيتِ الطبيب اليوم؟

- نعم، دخل الغرفة، من الجيِّد قدومه يوميًّا، أيمكن أن تعطيني بعض الماء يا چوني؟

يعطيها بعض الماء بالشَّفَّاطة المَرِنَة.

- كم جميل منكَ مواظَبَتُكَ على القدوم، أنت ابنٌ طَيِّب.

تبكي ثانية. السرير الآخر خاوٍ. من حين لآخر يمرُّ عليهم من الردهة أحد المرتدين للأرواب المقلَّمة باللونين الأزرق والأبيض. الباب

نصف مفتوح، يأخذ منها كوب الماء برويَّة وهو يفكر بحماقة: هل الكوب نصفُ مملوء أم نصف فارغ؟

- كيف حال يدكِ اليسرى؟
- أوه، إنها بخير.
- لنرى.

ترفعها، كانت على الدوام يدها الفَطِنَة؛ وربما لهذا السبب تعافَت جيِّدًا كما لو كانت عاقِبَةً وخيمة لعملية "كطع الحبل الشوكي"، تطبق يدها، وتثنيها، وتُفَرقِعُ الأصابع فَرقَعةً واهنة، ثم ترتدُّ على الملاءة، وترتطم. تشكو قائلة:

- ولكن لا إحساس فيها.
- دعيني أَرَ شيئًا ما.

يتوجَّه إلى الدولاب، ويفتحه، ويمدُّ يده وراء المعطف الذي جاءت به إلى المستشفى ليصل إلى حقيبة يدها، تحتفظ بها هنا لأنها مرتابة حيال اللصوص، حيث سَمِعَت أن بعض الممرِّضين فنَّانون في السرقة، وسيسرقون أي شيء تطوله أيديهم، وسَمِعَت من شريكة لها في الغرفة -وعادت إلى منزلها- أن سيِّدةً في الجناح الجديد فقدت خمسمائة دولار كانت تحتفظ بها في حذائها. أُمُّه مرتابة حيال أشياء عديدة كبرى في الآونة الأخيرة، وأخبرته ذات مرَّة عن رَجُلٍ يختبئ أحيانًا تحت سريرها في أواخر الليل. ينبع جزءٌ من هذا بسبب الأدوية التي يجرِّبونها عليها، ويجعلون أقراص الآمفتيامين التي كان يتناولها عرَضًا في الكُلِّيَّة تبدو وكأنها أقراص إكسدرين. يمكنك الانتقاء ممَّا تريد من مخزن الأدوية المُقفَل في نهاية الممرِّ بعد غرفة الممرضات: مُثَبِّطات ومُحَفِّزات، ومُرخِيات ومُنشِّطات، وربما مميتات، موت رحيمٌ مثل بطانية سوداء جميلة. أعاجيب العلم الحديث.

يحمل الحقيبة إلى سريرها، ويفتحها.

- أيمكنك أن تخرجي شيئًا من هنا؟

- آه يا چوني، لا أعرف.

يقول بأسلوب مُقنِع:

- جرِّبي، من أجلي.

ترتفع اليد اليسرى عن الملاءة مثل طائرة هليكوبتر مُعاقَة، تطوف وتغوص وتَخرجُ من حقيبة اليد بمنديل كلنكس مُجعَّد، ويصفق لها.

- أحسَنتِ! أحسَنتِ!

لكنها تدير وجهها.

- في العام الماضي، كنتُ قادِرةً على دفع عربَتَيْ صحونٍ مملوءتَيْن بهاتين اليدين.

كان يفكر: لو كان هناك وقت مناسب، فهو الآن، الجو حارٌّ جدًّا في هذه الغرفة، بينما العرق المنهمر على جبهته بارد، إذا لم تطلب الأسبرين، فلن أُعطيها إيَّاه، ليس الليلة، وهو يدرك أنه إمَّا الليلة وإلا فلا، حسنًا.

تخطف عيناها نظرة ماكرة على الباب نصف المفتوح.

- أيمكنك أن تعطيني خفيةً بعضًا من حبوبك يا چوني؟

هكذا تطلبها مني دومًا، لا يفترض بها أن تتعاطى حبوبًا خارج علاجها المعتاد لأن جسمها خسر الكثير من الوزن، وتنامى لديها ما يُسمِّيه بعض الأصدقاء المتعاطين من أيام الكُلِّيَّة "شيئًا ثقيلًا"، ضَعُفَت مناعة الجسم في مواجهة ما يبلغ حجم ظفرِ أصبع من الجرعة القاتلة، حبَّة واحدة إضافية وستخرج الأمور عن السيطرة، يقولون إن هذا ما حدث لمارلين مونرو.

– - أحضرت بعض الحبوب من المنزل

– - أفَعَلتَ ذلك؟

– - إنها مُسكِّنٌ جَيِّد للألم.

يقـرِّب لهـا العلبـة، فهـي لا تسـتطيع القـراءة سـوى عـن قُـرب، تُقطِّـب وجههـا عـلى مـرأى الأحـرف الكبـيرة وقالـت:

– - تناوَلتُ بعض حبوب الدارفون من قبل، ولم تُجدِ نفعًا.

– - هذه أقوى.

ترفع عينيها عن العلبة وتنظر إلى عينيه، وتقول بلا اكتراث:

– - حقًّا؟

كل مـا فعلـه أن ابتسـم ابتسـامةً حمقـاء، لم يسـتطع التحـدُّث، كأنهـا أول مـرة يمـارس فيهـا الجنـس، والتـي كانـت في المقعـد الخلفـي في سـيارة أحـد أصدقائـه، وحـين عـاد للمنـزل، سـألته أمُّـه إن كان أمـضى وقتًـا طيبًـا، وكل مـا فعلـه هـو ابتسـامه نفـس هـذه الابتسـامة الحمقـاء.

– - هل أستطيع مضغهم؟

– - لا أعرف، جَرِّبي واحدة.

يفتـح العلبـة ويرفـع الغطـاء البلاسـتيكي عـن الزجاجـة، ويسـحب كُـرَةَ القُطـن مـن عنـق العلبـة، أكانـت تقـدر عـلى فِعـلِ كل هـذا بيدهـا اليـسرى الشـبيهة بطائـرة الهليكوبـتر المعاقـة؟ هـل سيصدِّقون؟ لا يعـرف، وربمـا هـم أيضًـا لا يعرفـون، وربمـا لا يبالـون.

يُخـرِج سِـتَّ حبـوب عـلى يَـدِه، يراقبهـا وهـي تراقبـه، إنهـا كثـيرة، كثـيرة جـدًّا. إنهـا حتـمًا تعلـم ذلـك، إذا لم تتفـوَّه بكلمـة حيـال الأمـر، سـيعيدها إلى مكانهـا ويُقـدِّم لهـا حبـة مُسـكِّن آرتيراتيـس عوضًـا عنهـا.

تمـرُّ مُمرِّضَـة في الخـارج، وتتشـنَّج يـده مُطَقطِقَـةً عـلى الحبـوب الرماديـة، لكـنَّ المُمرِّضَـة لا تلقـي النظـر لتتفقَّـد أحـوال "مريضـة كطـع الحبـل الشـوكي".

لا تقـول أُمُّـه شـيئًا، فقـط تنظـر إلى الحبـوب كأنهـا حبـوبٌ فائقـة الاعتياديـة (هـذا إن وُجِـدَت هكـذا حبـوب). لكنهـا عـلى الناحيـة الأخـرى، لم تَهـوَ الاحتفـالات قَـطُّ، فلـن تفرقـع الفلِّينَـة حـين تفتـح زجاجة الشـامبانيا عـلى ظهـر مركبهـا الخـاص.

- ها هي ذي.

هكـذا يقـول بصـوتٍ شـديد الطبيعيـة، وهـو يدفـع أول حَبَّـةٍ في فمهـا. تمضغهـا بنظـرةٍ مُتأمِّلَـة حتـى يـذوب الجيلاتـين، وبعدهـا تجفـل.

- هل طَعمُه سيِّئ؟ أنا لن...

- لا، ليس سيِّئًا لهذه الدرجة.

يعطيهـا حبَّـةً أخـرى، وحبـة ثالثـة، وتمضغهـم بنفـس النظـرة المتأمِّلَـة، يعطيهـا حبَّـةً رابعـة، تبتسـم إليـه ويـرى وهـو مرعـوبٌ أن لسـانها اصفـرَّ لَونُـه، ربمـا إذا خبطهـا عـلى بطنهـا، فسـوف تتقيَّؤهـم، لكنـه لا يسـتطيع، لا يمكنـه أن يـضرب أمـه.

- هل ستتأكَّد إن كانت ساقاي مضمومتين؟

- خُذي هذه أولًا.

يعطيهـا حبـة خامسـة، وسادسـة، ثـم يـرى إن كانـت سـاقاها مضمومتـين، ويقـول لهـا: هـما كذلـك حقًّـا.

- أظنُّ أني سأنام قليلًا.

- حسنًا، سآتي بشراب.

- كنتَ ابنًا طيِّبًا دائمًا يا چوني.

مكتبة
t.me/t_pdf

يضـع الزجاجـة في العلبـة، ويـدسُّ العلبـة في حقيبـة يدهـا، تـاركًا الغطـاء البلاسـتيكي عـلى المُـلاءَة جوارهـا، يـترك الحقيبـة المفتوحـة بجوارهـا ويُفكِّـر: طلَبَـت منِّـي حقيبتهـا، أحضَرتُهـا لهـا، وفتحتهـا بمجـرَّد مغـادرتي، قالـت إنهـا سـتأخذ منهـا مـا تريـد، قالـت إنهـا ستسـتدعي الممرِّضـة كي تعيدهـا إلى الـدولاب.

يذهـب ويـأتي بـشراب، توجـد مـرآةٌ فـوق نافـورة ميـاه الـشرب، يُخـرِج لسـانَه ويتطلّـع فيهـا.

حـين يعـود إلى الغرفـة، سـتكون نائِمَـةً ويداهـا مَضمومَتَـيْن معًـا، أوردتهـما كبـيرة ومُتعرِّشـة. يُقبِّلهـا، وعيناهـا تموجـان وراء الجفنـين، لكنهـما لا تنفتحـان.

نعم.

لا يشعر باختلافٍ، أجَيِّدًا كان أم سيِّئًا.

يـشرع في الخـروج مـن الغرفـة، ويفكِّـر في شيء آخـر، يعـود إليهـا، يُخـرِجُ الزُّجاجـة مـن العلبـة، ويمسـحها عـلى قميصـه، ويطبـع بصـمات الأصابـع المُرتَخِيَـة لِيَدِهـا اليـسرى النائمـة عـلى الزجاجـة، ثـم يعيدهـا إلى مكانهـا، ويَخـرُج مـن الغرفـة بسرعـة، دون النظـر إلى الـوراء.

يعـود إلى المنـزل، وينتظـر رنـينَ جَـرس الهاتـف، مُتمنِّيًـا لـو كان مَنحَهـا قُبلَـةً أخـرى، وفي أثنـاء انتظـاره، يشـاهد التلفـاز ويـشرب الكثـير مـن المـاء.

الفهرس

مُقدِّمة المؤلِّف – ترجمة محمد عبد النبي	5
أرض چيروسالِم	27
وَرديَّة مُنتَصَف اللَّيل	87
مَوجٌ لَيليّ	117
أنا المَدخَل	133
العصَّارة	155
البُعبُع	189
مادَّة رَماديَّة	209
ساحَةُ المعرَكَة	229
شاحِنات	245

أحيانًا يعودون ـ ترجمة محمود راضى 275
رَبيعُ الفَراولَة 319
الإفريز 333
جَزَّازُ العُشب 359
شَرِكَة المُقلِعين المتَّحِدَة 375
أعرِفُ ما تُريدين 407
أطفالُ الذُّرة 443
آخِرُ دَرَجة على السُّلَّم 489
الرَّجُل الَّذي أحَبَّ الأزهار 507
شَرابٌ لأجلِ الطَّريق 517
السَّيِّدة في الغُرفَة 541

مكتبة
t.me/t_pdf

مكتبة
telegram @t_pdf

"أنا لم أعُد طفلًا، ومع ذلك فلا أُحِبُّ أن أنامَ وإحدى ساقيَّ مَكشوفةٌ مِن تحت الغطاء. لربَّما أصرخ إذا ما امتدَّت يَدٌ بارِدَةٌ مِن تَحتِ السَّرير وأمسَكَت كاحلي... نعم، ربَّما أصرخ حتَّى أوقظ الموتى. مثل تلك الأمور لا تَقعُ بكُلِّ تأكيد، وجَميعُنا نَعلَمُ ذلك. في القصص التَّالية سوف تُقابِلون جميعَ أنواع المخلوقات اللَّيليَّة: مَصَّاصي دماء، وعُشَّاقَ الشَّياطين، و«بُعْبُعًا» يعيش في الخزانة، وكافَّةَ أشكالِ الرُّعبِ الأُخرى. لا شيءَ مِنها حَقيقيٌّ. وذلك الشَّيءُ الكامِنُ تَحتَ سَريري في انتظارِ أن يُمسِكَ كاحِلَ ساقي هو أيضًا غيرُ حَقيقيٍّ. أنا أعلَمُ ذلك، كما أعلَمُ أيضًا أنَّني إذا حَرصتُ على إبقاء ساقي تَحتَ الأغطيَةِ، فلن يَتمكَّنَ أبدًا مِن إمساك كاحِلي...".

بعد سنواتٍ قَليلةٍ من بزوغ اسم ستيفن كينج ليَصيرَ الاسمَ الأهمَّ في أدب الرُّعب في العُقودِ الأخيرة، وبعدَ عامٍ واحدٍ من صدور روايَته الثَّالثة "البريق" -التي سَبَقَ للمحروسَة إصدارُ تَرجَمتها العربيَّة- صدَرَت "ورديَّة اللَّيل"؛ المجموعة القصصية الأولى في مسيرة ستيفن كينج، والَّتي ضَمَّت عَددًا كبيرًا من أشهر قصصه القصيرَة الَّتي تَحوَّلَ كثيرٌ منها لأفلامٍ سينمائيَّة وتليفزيونيَّة، منها قصَّة "أطفال الذرَة"، الَّتي تَحوَّلت إلى واحِدَةٍ من أشهَرِ سلاسلِ أفلام الرُّعبِ الأمريكيَّة.

ISBN 978-977-313-856-1
9 789773 138561

الغلاف:
عبد الرحمن الصواف

مركز المحروسة
للنشر و الخدمات الصحفية و المعلومات